عبداللطيف الخليفة

مذكرات عبداللطيف الخليفة

وقفات فى تاريخنا المعاصر
بين
الخرطوم والقاهرة

الجزء الأول

١٩٣١-١٩٤٨

مذكـــرات

عبد اللطيـــف الخـــليفة

وقفات في تاريخنا المعاصر

بين الخرطوم والقاهرة

الجزء الأول

الخرطوم

١٩٨٨

الناشرون : دار جامعة الخرطوم للنشر

ص ب ٣٢١ (السودان)

الطبعة الأولى ١٩٨٨م

الطابعون : مطبعة جامعة الخرطوم

دار جامعة الخرطوم للنشر

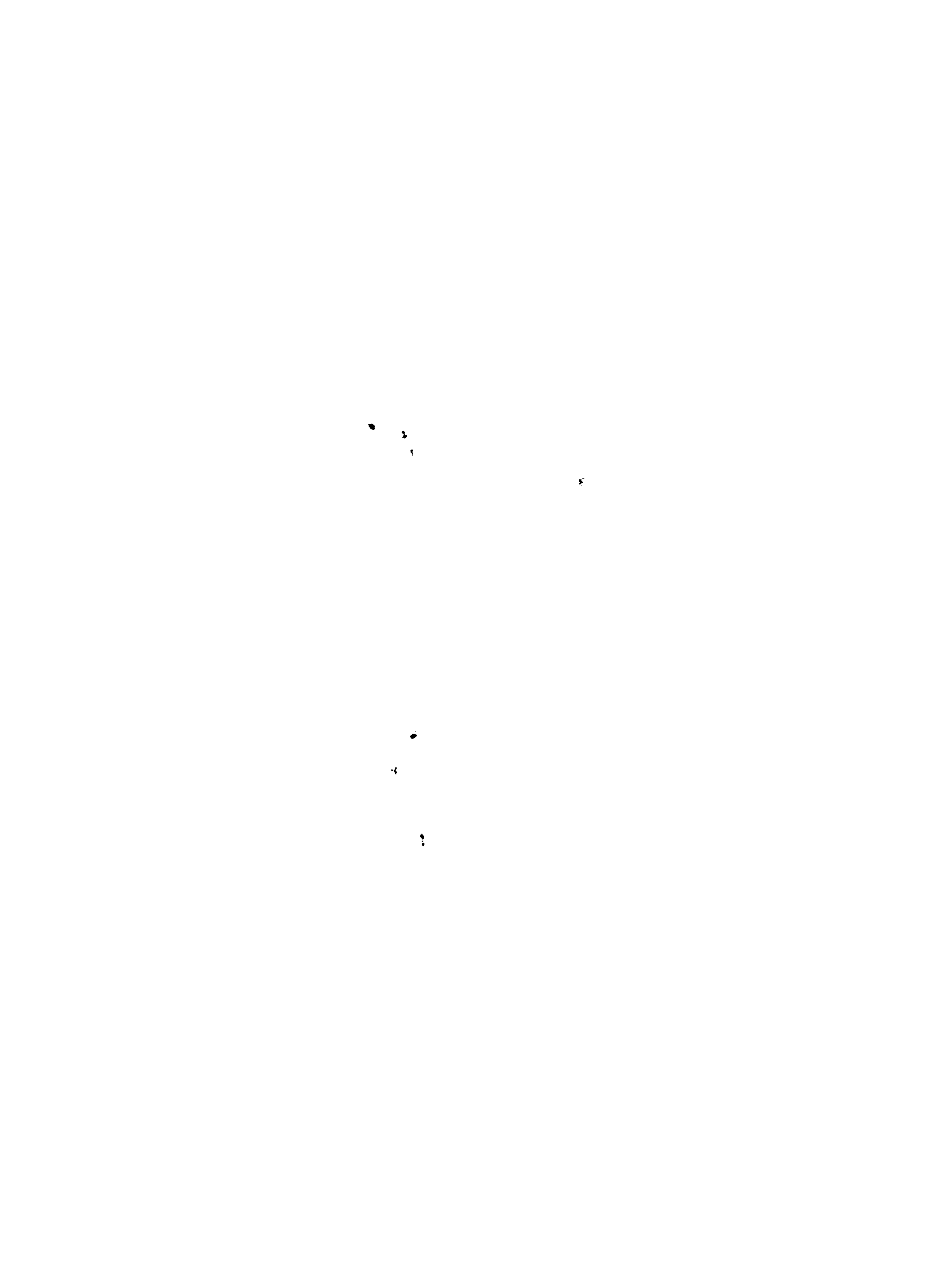
الاهداء

الى العمالقة :

من ابطال الأجيال الحديثة

(من مات مستبسلا منهم ومن سلم)

عبد اللطيف الخليفة



المحتويات


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

مقدمـــــة

مع مطلع العشرينات من القرن الحالى كان الشعور بالحرمان من التعليم العالى يتزايد عند أبناء السودان ، كلما تزايد خريجى كليـــة غردون ـ المدرسة الثانوية الوحيدة فى ذلك الزمـــان ـــ على ضرورة التزود بالعلم فى مواجهة ذلك الاستعمار المعتمد قبل كل شىء على العلم والتكنولوجيا .

وتلفت رواد ذلك الجيل من حولهم فلم يجدوا وجهة يقصدونها لتحقيق امنيتهم الغالية ، غـــير مصر الشقيقة الكبرى ورفيقة الدرب فى الكفاح المشترك ضد العدو المشترك . . فلم يترددوا فى الاتجاه إليها بكلياتهم وتعلقت بها أنظارهم وقلوبهم طلبا للعلم والتزود من مناهله الغزيرة... وهكذا أصبحت هجرة الطلبة إلى مصر شغل المتعلمين الشاغل ومطلبهم الوطنى الاول الذى هبوا جميعاً للترويج له وتشجيعه بكل ما كانوا يملكون من وسائل وامكانات ضيقة . .

وفطن الحكام الانجليز لذلك النشاط الخطير ، فراحوا يراقبونه بعين ساهرة لوقفه والقضاء عليه ولكن الشبان كانوا أكثر فطنة ، فراحوا يدبرون الامر خفية وبعيداً عن أعين الجواسيس . وسرعان ما تكونت طلائع ذلك الزحف المقدس ، وما كاد يحل صيف ١٩٢٣ حتى بلغت أولى دفعاته القاهرة . . ثم دارت العجلة ولم تتوقف حتى غمرت مجتمع السودان الراكد آنذاك ، بالشهادات العليا من مختلف فروع العلم ، وما زالت به تجدد دماءه وتحرك أوصاله وتمده بالحيوية وتفتح الوعى الوطنى ، وتدفع به نحو غاياته وامانيه الوطنية . . . حتى اندلعت الحركة الوطنية وتحقق الاستقلال :

ـ فمنذ أواخر الثلاثينات أخذ السودان يستقبل بواكير هجرة الطلاب إلى مصر من خريجـــى الجامعات والمعاهد المصرية العليا كالآمال المشرقة ، ويبتهج بهم مجتمع العاصمة ويقيم لهم احتفــالات الترحيب . . . ولاعجب فمجتمعهم كان راكداً كما قلت ، وقدوم الخريجين الجامعيين كان يعنـــى تبديد الركود والظلام واعطائهم القدرة على الرؤية وتبين مراحل الكفاح فى ذلك الطريق الطويـــل الشاق (كما قال السير جيمس روبرتسون سكرتير حكومة الاستعمار ، وهو يصف الطريق إلى الحكم الذاتى للسودان .

ومن جهة أخرى ، فقد كان لارتباط الطلبة المهاجرين باخوتهم فى السودان أكبر الاثـــر فى توجيهاتهم العامة فى مصر ، حيث كانوا عبارة عن امتداد لهم و لتحركاتهم الوطنية . . فما كاد المقام يستقر بهم فى القاهرة حتى أخذوا يضعون الاسس لممارسة نشاطهم الوطنى ، فى ظل الحرية التى نعموا بها هناك دون اخوانهم المقهورين فى السودان . . . . . وفى وقت وجيز تبلورت لهم حركة وطنية نشطة تمثلت فى (رابطة الطلبة السودانيين فى مصر) التى لفتت إليها الأنظار بممارساتها الوطنية الباهرة

وبما كانت تجاهر به علنا ضد حكومة السودان، في الصحف وفي غيرها من المحافل والمجتمعات وتكشف من مآسيها التي لم يكن الجهر بها ممكناً في داخل السودان . .

وكان لهذا كله صدى عميقاً ، استأثر باهتمام قادة المتعلمين في السودان ، وجعلهم يمدون يد العون والمؤازرة للرابطة باعتبارها نافذة يطلون بها على العالم . . . وتطور التعاون بين الفريقين ليشمل كل ما كان يشغل الاذهان في ذلك الجيل ، مثل القومية والزى القومي ، وقوانين المناطق المقفلة ، وكانشاء جامع جوبا ، واصلاح معهد أمدرمان العلمي وإنشاء مدارس ثانوية مصرية بالسودان ، ثم إنشاء بيت السودان بالقاهرة وتوسيع هجرة الطلبة إلى مصر ، والبعثات التعليمية الداخلية والخارجية إلى جامعات مصر وأوربا . . واستمر ذلك كله على يد مؤتمر الخريجين حتى قامت مؤسساته الخاصة في القاهـــرة كلجنة المؤتمر ولجنة التعليم . . .

ثم أنشأت وزارة المعارف المصرية مراقبة عامة للتعليم بالسودان وإدارة خاصة لبيوت السودان في أواخر الاربعينات . . . وبذلك انتقلت المسئولية جميعها فيما يتعلق بالطلبة وشئون التعليم والبعثات إلى وزارة المعارف المصرية .

والشيء الذى اود ان اختم به هذه المقدمة هو ملاحظة هامة طالما حاولت ان استلفت اليها الانظار في كثير من المناسبات ، الا وهى اغفال او اهمال هجرة الطلبة هذه كمدخل هام جداً من مـــداخل النهضة الحديثة للسودان ، خاصة عندما تذكر مقومات الحركة الوطنية ومداخل الاستقلال ، وذلك بالرغم مما قاله بعض القادة عن تلك الحركة من انها كانت (الشرارة الاولى للحركة الوطنية التى توجت بالاستقلال ويكفى هذه الهجرة فخرا انها لم تكن اول واضخم مورد للشهادات العليا فقط ، بل شكلت ضاغطا رهيبا على الحكام الانجليز فاجبرتهم على تغيير سياستهم التعليمية الشحيحة المتمثلة في مدرســة ثانوية واحدة للسودان كله ، كذلك وفيما وصفت به آنذاك من انها سياسة (العلم بالقطارة).

ولشدة انزعاج الانجليز من تطور الاتجاه نحو مصر بتلك الصورة الانفتاحية سارعوا الى انشاء المدارس العليا وتوسعوا في انشاء المدارس الثانوية ، كترياق مضاد لهجرة الطلبة الى مصر . . .ثم ما لبثوا ان اسموها بالمدارس العليا ثم (بالكلية الجامعية) .

واخيرا ارسلوا البعثات الى جامعات انجلترا لاحراز الشهادات العليا بعد ان كانوا يرسلـــون الموظفين لتلقى التدريبات او بعض الدراسات دون احراز الشهادات العليا المعروفة .

وبلغة الارقام والحساب نجد ان السودان قد حقق من وراء هجرة الطلبة الى مصر ثلاث فوائد علمية جوهرية : الاولى من مصر والثانية من داخل السودان والثالثة من انجلترا.

ولا اكاد اجد تفسيرا لاغفال ذكر هذه الحقائق الا شيئا واحدا هو ان لعنة الحكام الانجليز لازالت

تلاحق حركة الطلبة فى مصر كسابقة عهدها يوم ان كانت غصة فى حلوقهم وخطراً ماحقاً يتهدد وجودهم فى السودان ومع الاسف الشديد فان مجتمعنا لايزال متأثرا فى بعض جوانبه بالنظرة الاستعمارية القديمة لحقائق ذلك الكفاح الجبار ودوره الرائد . ولكن التاريخ اقوى من كل محاولة للعبث به والى اللقاء فى الجزء الثانى ان شاء الله .



هجـرة الطلبة الى مصر تحرك وطنى حقق أهدافـه .... دوافـع ونتائـج

يمكن تقسيم الهجرة التعليمية لمصر إلى : قديمة وحديثة . . .

الهجرة القديمة :

وهى التى تمتد جذورها إلى نحو الألف عام ، منذ إنشاء الجامع الأزهر الشريف ، الذى أصبح على مر العصور والأجيال ، قبلـة الأنظار فى السودان والعالم الإسلامى كله . . . حيث أخذ طلاب العلم يفدون اليه ، من مشارق الأرض ومغاربها لينهلوا من علومه ومعارفه ثم يعودون لأوطانهم ، رسلاً للعلم ومشاعل للنور والثقافة . . فيقيمون بـين ظهرانى أهليهم كالمصابيح الهادية وسـط الظلام الدامس والجهـل والتخلف .

وإذا ألقينا نظرة على السودان خلال العصور الوسطى ، ورأينا كيف نشأت تلك المراكز المزدهرة للتعليم الدينى ، فى سنار وبعض مدن الجزيرة ، والنيل الأبيض وفى كردفان ودارفـور وفى دار الشايقية وبربر والدامر وأم الطيور وغيرها من مدن السودان لوجدنا أن الهجرة للأزهر الشريف لم يقتصر خيرها على ما كان يعود به أبناء السودان مـن محصول علمـى وفير فقط ، بل أنها قد أمدت البلاد بروافد علمية أخرى عظيمة ، إذ فتحت الطريق أمام بعض العلمـاء الآخرين الذين قدموا إلى السودان أو تعاقبوا عليه فى مختلف العهود فكان لهم أكبر الأثر فى إقامة تلك المراكز التى أشرت اليها كمنارات لنشر العلم والثقافة الإسلامية ، فى عصور مظلمة ، وفى كثير مـن بقاع السودان ، كما إنى أعتقد من جهة أخرى ، أنه من آثار صلات السودانيين بالأزهر ما يحمله الكثيرون من أبناء السودان من أسـماء

مشايخ الأزهر مثل : الدرديرى والحفنى والصاوى والنفراوى وعليش الخ فأنها تدل على تعلق الآباء والأجداد بعلماء الأزهر الشريف . . ومن أقوى الأدلة أيضاً على قدم هجرة السودانيين للأزهر وإتساع نطاقها ، أن الأزهر نفسه قد أقام للطلبة السودانيين ، كغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية ، أروقة خاصة لإقامتهم كرواق السنارية أى السودانيين ، لأن مملكة سنار كانت قد فرضت إسمها على الوطن السودانى كله. وجدير بالذكر أن ملوك سنار كانوا يحتفلون ببعثاتهم إلى الأزهر ويكرمون أفراد تلك البعثات بكل مظاهر التكريم ويرسلون معهم الهدايا للمشايخ ، كما كان لهم الفضل فى إنشاء رواق السنارية بالأزهر الشريف .

ولم يكن إسم السودان قد أطلق على بلادنا فى ذلك الزمان . . فهجرة السودانيين إلى مصر كانت قديمة قدم الأزهر الشريف . . كما أننا نجد بجانب هذا الرواق ، رواق دارفور ثم رواق شمال السودان ، الذى كان يسمى رواق البرابرة ، إلى سنة ١٩٣٧ حين زار السيد عبد الرحمن المهدى مصر وقام بزيارة الأزهر . ولما رأى إسم رواق البرابرة التمس من صديقه الشيخ الأكبر مصطفى المراغى تغييره إلى رواق شمال السودان فوافق الشيخ المراغى فأصبح إسم رواق شمال السودان هو المعتمد لذلك الرواق . . .

الهجرة الحديثة :

أما الهجرة الحديثة ، وهى موضوع هذه المذكرات ، فيمكن تقسيمها أيضاً إلى قسمين : هجرة سنة ١٩٢٤ ثم هجرة سنة ١٩٣٢ ، الأولى هى التى قام بها الرعيل الأول ، كجزء هام من تحركات ثورة ١٩٢٤ ، سواء أكانت سابقة لها أو لاحقة . . إفترعها الأستاذان توفيق البكرى وبشير عبد الرحمن فى سنة ١٩٢٣ ، وتبعهما الأستاذ

الدرديرى أحمد إسماعيل ثم لحقهم فى سنة ١٩٢٧ الأساتذة : البروفسور بخيت محمد عمر ، الطبيب الجراح والأستاذان بشير محمد خير ويعقوب عثمان ، وكان قد سبق هؤلاء جميعاً إلى الأزهر من الشخصيات البارزة على ما أذكر ، الشيخ محمد نور الحسن ثم الشيخ محمد المبارك عبد الله .

وكنا نسمع كثيراً عن محمد المبارك عبد الله ، قبل سفرنا إلى مصر وعندما وصلنا مصر وجدنا أيضاً الشيخ محمد نور الحسن إسماً كبيراً بين الأزهريين والسودانيين ، وإذا أمكننى أن أعطى بعض التفصيلات عن الشيخ محمد نور بعد أن أستعنت بذاكرة صديقى الأستاذ عوض عقارب أقول أنه من الخوجلاب أبناء الخرطوم بحرى ، ومن رواد الهجرة الحديثة للأزهر الشريف ، ونال الشهادة العالمية بتفوق ، وعين مدرساً بالمعاهد الدينية . . . وكان الجانب الوطنى فى الشيخ محمد نور عامراً جداً فقد إشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر وكان من خطبائها البارزين . . .

وفى ثورة يوليو الأخيرة سنة ١٩٥٢ عينه الرئيس محمد نجيب رئيس مجلس الثورة وكيلاً لوزارة الإرشاد القومى تقديراً وإعترافاً بفضله . وقد إستطاع الشيخ محمد نور أن يقوم باصلاحات كبيرة للمعاهد الدينية فى أقاليم السودان عن طريق الجهد الذى كان يبذله مع الصاغ صلاح سالم وغيره . . . كما قام بالكثير من العون المالى لبعض المساجد . . . ولكن الشيخ محمد نور لم يتمكن من العودة للسودان منذ أن سافر للأزهر ، إلا بعد تعيينه وكيلاً للإرشاد القومى . هذا وقد كانت للشيخ نور مكتبة حافلة قام باهدائها للجامعة الإسلامية بأمدرمان قبيل وفاته ، وأما الشيخ محمد المبارك ، فقد عرفه معهد أمدرمان العلمى وتوثقت علاقته به منذ الأربعينات ، كأستاذ منتدب

للتدريس بالمعهد من قبل الأزهر ، إلى أن تولى إدارة مشيخة المعهد ، ومن هذا الموقع استطاع الشيخ محمد المبارك أن يقوم باصلاحات أساسية فى تطوير معهد أمدرمان عن طريق مساعيه الحميدة لدى الأزهر الشريف . وأن يضاعف عون الأزهر ، من ناحية جلب الأساتذة وجلب الكتب والهبات المالية وغيرها ... فكانت جهوده أساساً طيباً لنهضة المعهد وتطوره إلى أن بلغ المستوى الحالى . وآخر منصب تولاه الشيخ المبارك هو منصب المدير للجامعة الإسلامية بأمدرمان ... هذا وقد عرف الشيخ المبارك بصفات نادرة منها ذكاؤه المفرط وسرعة إستيعابه لما يقرؤه من الكتب مما يدل على أنه يتمتع بذاكرة فريدة ...

هجرة عام ١٩٣٢ :

وهى التى أخذت طلائعها تتجه نحو القاهرة عقب إضراب كلية غردون فى الفترة من أواخر ١٩٣٢ ، ثم تدفقت الأفواج بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ،وإذا كانت الظروف التى أحاطت بثورة ٢٤ منطلقاً لهجرة الرعيل الأول ، فان الظروف التى أحاطت باضراب كلية غردون عام ١٩٣٢ كانت أيضاً منطلقاً للهجرة الثانية ، وكما كانت الهجرة الأولى إمتداداً للتحركات الوطنية التى واكبت ثورة ١٩٢٤ ، كذلك كانت الهجرة الثانية إمتداداً للتحركات الوطنية التى سبقت إضراب كلية غردون أو جاءت بعده .... فما حقيقة ذلك الإضراب من الناحية الوطنية ...... ؟

اضراب كلية غردون

كان إضراب كلية غردون المشهور إنتفاضة وطنية بكل أبعاد هذه الكلمة. وأعتقد أن كل من عايش ذلك الإضراب وشاهد إسلوبه الفريد ، وما ساد تنفيذه من روح النظام والوعى المكتمل ، وما تجلى فيه من مظاهر الوطنية ، أدرك أنه كان من وحى خطة عميقة

الجذور . وأن مسألة أنقاص مرتب خريج الكلية لم يكن إلا سبباً مباشراً لإنفجار تلك المشاعر الوطنية ، التى كانت قد تجمعت فى صدور الطلاب بحكم إرتباط الكلية بالمجتمع كما سأوضحه فيما بعد .

وأحسب أن مؤرخ تلك الفترة ، لابد أن يقف عند ذلك الإضراب باعتباره معلماً من معالم الحركة الوطنية الحديثة ، فقد إنبثق من ظلمة ذلك الركود المقيت الذى أعقب ثورة ١٩٢٤ ، حيث كانت الأحوال العامة تشبه اليأس والإستسلام وإنعدام الشعور الوطنى ، حتى خيل للانجليز أنهم قد قضوا على الروح الوطنيه قضاء مبرماً ، لن تقوم لها بعده قائمة . .

ومن هنا كان الاضراب ونوعيته الفريدة ، عملا غاية فى الجرأة والشجاعة لدرجة أدهشت حكام الخرطوم آنذاك ، وقلبت حساباتهم رأسا على عقب ، إذ لم يكن فى حساباتهم أن أبناء ذلك الشعب المقهور وخاصة فى كلية غردون المحكمة الضبط والربط ، يجرءون على القيام بمثل ذلك التحدى السافر لهيبتهم وسلطانهم . . وقد زاد شعورهم بالمرارة ، مالقيه الاضراب من تعاطف وتجاوب لدى الراى العام فى جميع الأوساط السودانية ، وحيّاه الشعراء بقصائد وطنية تزكى الروح التى ظنوا أنها خمدت وانتهت . . . . والواقع أن اعتصام الطلبة المضربين بمبانى الأقسام الداخلية لأكثر من أسبوع ، وإحاطة اعتصامهم بسياج سميك من التكتم والانضباط ، حتى عجزت أقوى وسائل الأمن العام ، فى ذلك الوقت ، عن النفاذ إليه ، الواقع أن ذلك قد جعل الانجليز يشعرون بالخطورة التى انطوى عليها ذلك الاضراب . . . . فعملوا بكل وسائلهم لانهائه قبل أن يتسع مداه . فعمدوا إلى خطة حاسمة ، وهى التهديد بقفل الكلية نهائيا ، وبذلك استطاعوا أن يحركوا مشاعر الرأى العام ، وأن يدفعوا كبارالمواطنين

للتوسط لدى الطلبة لانهاء الاضراب . وبالفعل تحركت العاصمة كلها الخريجون والزعماء الدينيون ووجوه المجتمع ، الذين توجهوا نحو الكلية فى صبيحة يوم من أيام الجمعة ، وكان فى مقدمة الجميع المغفور له السيد عبد الرحمن المهدى ، جاءوا كلهم بدافع الاشفاق على الكلية . .. ولشدة تمسك الطلبة بوحدتهم ، أصدرت القيادة (الزعفرانة) بألا يقابل الطلبة ذلك الجمع الحاشد ، ألا وهم مجتمعون وفعلا تم اللقاء وبهذه الصورة فى صالة الطعام الكبرى بالأقسام الداخلية فكان لقاء تاريخيا فيه تبارى المتكلمون وفى مقدمتهم السيد عبد الرحمن المهدى وكانت نصائحهم تدور كلها حول الخوف على مصير الكلية والتعليم بوجه عام . وخرج الطلبة من هذا الاجتماع وهم غير مطمئنين على وحدتهم ولا على بقائهم معتصمين بمبانى الكلية . فأعدوا على الفور ، خطة لتسفير طلبة الاقاليم إلى أوطانهم ، وهنا تجلت وطنية الخريجين ، إذ ما كاد بعضهم يقف على خطة الطلبة لتسفير زملائهم . أبناء الاقاليم ، حتى قاموا بعمل اكتتابات مالية ساعدت الطلبة على تسفير زملائهم . . كما أن كل طالب كان يحتفظ بقسط من المصروفات المدرسية لدفعه لادارة الكلية قد قام بتسليمه إلى (الزعفرانة) وهو الاسم الرمزى الذى إتفق الطلبة منذ بداية الإضراب لإطلاقه على لجنة القيادة .

وما كادت تنتهى عملية التسفير حتى إنفض الإعتصام تلقائيا بكل هدوء ، وذهب طلاب العاصمة إلى ذويهم فى صمت وحزم ، دون أن يعرضوا الكلية للمخاوف التى أثيرت فى الاجتماع الكبير . أما الانجليز الذين لم يخطئوا فهم ذلك الإضراب منذاللحظة الأولى وما كان تنطوى عليه من دوافع وطنية فقد أخذوا يتتبعون الطلبة فى العاصمة والأقاليم ويراقبون نشاطهم ، فى حملاتهم الدعائية ضد سياسة الحكومة

وكشف نواياها ، وخاصة فى التخطيط للرجوع بالسودان إلى الوراء كما كان مشاعاً آنذاك ، ويضربون الأمثال بالإدارة الأهلية والقضاء الأهلى الذى أخذ يحل محل القضاء الشرعى والمدنى ، ويربطون بين تلك المشاريع الإستعمارية وبين تخفيض مرتبات خريجى الكلية ، كجزء من تلك الخطة الإستعمارية الخطيرة ، الرامية إلى الرجوع بالسودان إلى الوراء ، وحتى بعد انتهاء الأضراب وعودة الطلبة للكلية ، كانت تلاحقهم أيضا عيون الأمن العام وارصاده ، لأنهم كانوا يعرفون أن الإضراب لم يكن غير سلاح واحد ، مما كان يخفيه الطلبة من أسلحة التمرد ، على نظام الكلية وخلق المتاعب لإدارتها .

وفعلا كان الطلبة بعد عودتهم من الإضراب يعقدون الإجتماعات السرية فى الأمسيات على شاطىء النيل الأزرق فى الغابة التى كانت تقع بين وابور الماء وثكنات الجيش الانجليزى ، وقد تمخضت تلك الإجتماعات عن مذكرات تطالب باصلاحات جذرية فى نظام الكلية ، كالغاء التعليمات والأوامر المتعسفة التى كانت سائدة قبل الاضراب ، وكتعديل البرنامج الأساسى للدراسة ، والذى كان مقصورا على اعداد موظفين لدواوين الحكومة ، ثم المطالبة أيضا بجلب مدرسين من ذوى الكفاءات العالية . . الخ .

ولكن أخطر ماتقرر فى تلك الإجتماعات هو تكسير التماثيل والصور الانجليزية التى كانت منتشرة فى كل مبانى الكلية ، والتى كان بعضها بالحجم الطبيعى لملوكهم وأمرائهم وحكامهم وكبار اللوردات ، من بناة الأمبراطورية البريطانية . فقد حطمت كل تلك التماثيل والصور وجمعت بليل ووضعت فى مكان واحد ، وذهب محطموها إلى مخادعهم فى الداخليات وكأن شيئا لم يكن . . وصحونا فى اليوم التالى لنجد الكلية وكأنها فى حالة حرب ، والانجليز قد استبد بهم الغضب ويتطاير الشرر من عيونهم . وعشنا أياما بعد الحادث ،

ونحن في جو من الإرهاب ، تحيط بنا الإرصاد والجواسيس الـــذين بذلوا جهوداً جبارة لمعرفة محطمى التماثيل والصور ، ولكنهم فشلوا في اكتشاف اى واحد منهم . وهكذا تاكد لهم ان الروح الوطنية الـــتى ظنوا انها اضمحلت ، لازالت تعمر بها صدور الشباب في ذلك الجيل من الطلاب . . وهنا أحسوا بضرورة إتخاذ إجراء تأديبى حاسم للقضاء على رؤوس الفتنة والتمرد ، لإعادة الهدوء والنظام للكلية . . واتخذ قرار في بادىء الأمر بفصل نحو المائة وعشرين طالبا . . ولكن مجلس الاساتذة وفى مقدمتهم المغفـــور له الســـيد اسماعيل الأزهرى ،قد اعترض على ذلك ، كما جاء اعتراض أيضا من مكتب الأمن العام ، على كبر العدد الذى تقرر فصله ، بحجة أنه عمل غير مقبول من الناحيـــة السياسية ، فخفض العدد إلى أثنى عشرة طالبا ، ثم أضيف لهم أثنان ، فصلا لأسباب لا تمت بصلة إلى الإضراب ، وإنما قصد باضافتهـــا التشويش على الطلبة الوطنيين . . . وقد كنت واحدا من الأثنى عشرة وقد وصل لوالدى خطاب من إدارة الكلية بفصلى ، بحجة اننى صرت (خطرا على بقية التلاميذ) وقد أرسل نفس الخطاب لكل آبـــاء الطلبة المفصولين (نص الخطاب) انظر الوثائق ومهما يكن فان تناول اضراب كلية غردون المشار إليه ، بمعزل من الظروف السياسية التى كانت تشغل بال الجيل في ذلك الوقت ، أمر غير طبيعى ، ذلك أن طلبة الكليـــة لم يكونوا في يوم من الأيام بمعزل عن جمهرة المتعلمين ، ولا عما كان يدور في أوساطهم من قضايا الوطن وهمومه ، بل إن الكلية كانت دائما أشبه بالبحيرة التى تصب فيها جميع التيارات الوطنية . . . . وقد أتاح لها ذلك التجمع الشبابى البرىء فرصة طيبة للدراسات المشتركة المحايدة لكل ما يدور فى السودان من أفكار وطنية ، كما أتاح لطلابها فرصة ذهبية لنبذ الحواجز القبلية والانصهار فى بعضهم البعض ، محققين في مجتمعهم الصغير من الوحدة القومية ما كان يصبو إليه المجتمـــع

فصل قادة الطلبة

وزن الاضراب وطنيا وسياسيا

الكبير . . بل أننا لا نبالغ إذا قلنا أن طلبة كلية غردون كانوا بمثابة رأس الحربة بالنسبة للتجمعات الأولى للحركة الوطنية فى أوائل العشرينات ، كما تدل عليه قائمة (جمعية الاتحاد) التى كان يتصدرها طلبة الكلية ، من أمثال الأساتذة : توفيق البكرى والدرديرى أحمد اسماعيل وبشير عبد الرحمن ومحى الدين جمال . . كما أن هناك زعماء بارزين بين الطلبة والجماهير كالشيخ البوشى ، ودوره معروف فى ازكاء الروح الوطنية وتأسيس الحركة الوطنية ، ويؤسفنى ألا تسعفنى الذاكرة بأسماء زملاء له آخرين .

لجنة العشرة

ومن نتائج الإضراب تكوين (لجنة العشرة) التى قامت بمساع لدى الحكومة لاثنائها عن قرار تخفيض مرتبات خريجى الكلية ولم تفلح إلا قليلا حيث أعادت الحكومة جنيهاً فقط للخريج ليصبح مرتبه -٦ من الجنيهات بدلا من ثمانية جنيهات . . ولكن أهمية لجنة العشرة ، أنها كانت أول جهاز موحد لقيادة الرأى العام ، فيما يتعلق بالمشاكل والقضايا العامة فى تلك الظروف .

كانت الصلة بين الطلبة والخريجين دائماً وثيقة ، وكان الخريجون يتجهون للطلبة فى كل ما كان يشغل بالهم من القضايا العامة ، حتى يضمنوا تجاوب الطلبة معهم ، وحتى يكون استعداد الطلبة النفسى والفكرى دائماً فى مستوى المواقف الوطنية، وفى أوآئل الثلاثينات كان محيط المتعلمين مهموماً ببعض النذر السياسية والاشاعات القائلة بأن الانجليز قد خرجوا من ثورة ١٩٢٤ بتفكير جديد ، معاد للشعب السودانى ، يرمى إلى وقف تطور السودان الحالى والرجوع به إلى الخلف . . . فقد تكوّن لديهم اقتناع بأن هذا الشعب له خصائص لم يروا مثلها فى كثير من شعوب مستعمراتهم الأفريقية ، وأنه إذا ماترك له الحبل على الغارب لكى يمضى فى طريق التطور الحالى القائم على أسس عصرية حديثة ، فسوف يكون مصدر متاعب لهم تعم مستعمراتهم فى أفريقيا كلها .

سياسة الرجوع بالسودان إلى الوراء .

فلا بد إذن من أخذه بنظام جديد يمكن به وقف تقدمه الحالى أولا ،

ثم العمل على الرجوع به إلى الخلف بالتدريج ، حتى يصبح آخر الأمر ضعيفا متخلفا تحت السيطرة الاستعمارية لأطول مدى ممكن . وكان المتصلون بالسير هارولد مايكل السكرتير الإدارى لحكومة السودان آنذاك يتحدثون عن هذا النظام الجديد الذى أسموه بنظرية الديفوليوشن أى التقهقر ، ويقصدون به على التحديد العدول عن النظامين الإدارى والقضائى المؤسسين على مبادىء عصرية حديثة ، وأنه لا بد من استبدالهما بنظامين يقومان على أسس محلية ، وهما (الإدارة الأهلية) و (القضاء الأهلى) .

ولايات شبه مستقلة .

ولكى يسهل التطبيق للنظام الجديد ، تحدثوا أيضا عن تقسيم السودان إلى ولايات شبه مستقلة ، وعلى رأس كل ولاية حاكم انجليزى بالطبع ، يعاونه رجال القبائل والعشائر . . وفيما يتعلق بالقضاء كان البرنامج يتلخص في قفل المحاكم ، تدريجيا ، فى كل أنحاء السودان ، بحيث لاتبقى إلا محكمة واحدة هى محكمة العموم بالخرطوم . . . . .

الادارة الاهلية

ولاتزال ذاكرتى تعى جيدا أنهم قد شرعوا فى تنفيذ ذلك البرنامج بالفعل ، منذ عام ١٩٣٢ حيث أقفلوا بعض المحاكم الشرعية فى كل من نيالا وأرقو والقطينة . . الخ . وأن المتعلمين فى ذلك الجيل ليذكروا كيف ظهر نظام (الإدارة الأهلية) وكان لها دعاة ومروجون وكيف ظهر نظام (المحاكم الأهلية) (والمحاكم القروية) لتحل محل المحاكم التى تقفل . . . وأن المحاكم القروية كانت مكونة من العمد والمشايخ ، الذين كانوا يمثلون الجهل والسلطة الغاشمة ، وكيف كانت مهازلها تثير السخرية . . وكم تندر الناس فى الأقاليم بقصص رؤسائها ورووا عنهم كل ما يضحك وما يبكى احيانا . .

ولولا انالظروف الدولية فى ذلك الحين وما لاح فيها من نذر ، قد اضطرت الانجليز إلى التوقف عن تنفيذ تلك الخطة الجهنمية ، لسار حكام السودان فى تحقيق نواياهم الخطيرة . ولكن المتتبع لتلك الظروف يدرك أنه . بجانب الظروف الدولية كانت هناك قوة أخرى تعمل فى الداخل لتحطيم تلك المشاريع الاستعمارية ، ألا وهى جمهرة المتعلمين ، الذين جعلوها همهم الأكبر منذ مطلع الثلاثينات . . وكم سهروا الليالى يفكرون ويفكرون فى مقاومة مشاريع الديفوليوشن . . . والحيلولة

دون تنفيذها ويشهد لهم التاريخ بأنهم كانوا فى مستوى المسئولية الوطنية وأنهم أبلوا بلاءاً حسنا فى مناهضة (الإدارة الأهلية) ومشاريعها الرجعية ، ولم يكفوا عن منازلة الحكومة فى هذا المجال، حتى تم عدولها عنها وحتى تركت الإدارة والقضاء فى مسارهما الحالى . . .

فى ذلك الجو المشحون بالهموم الوطنية ، كان لطلبة كلية غردون دورهم بين المتعلمين ، تفاعلا وتجاوبا مستمرا . وكانت نفوسهم تتوق للقيام بعمل ظاهر خاص بهم ، يذكرون به فى معرض الحركة الوطنية حتى وجدوا الفرصة فى مشكلة تخفيض مرتب خريج الكلية وسرعان ما ربطوا بين ذلك وبين نظرية الرجوع بالسودان إلى الخلف ، وقالوا ان الحكومة تريد أضعاف خريج الكلية عن طريق الحد من امكاناته المادية ، التى تمكنه من القيام بالدعاية والعمل ضد سياستها العامة . . . وانقاص مرتبه سيحد حتما من نشاطه المعادى للحكومة ، ويحد من تحركاته واستقبالاته للشبان فى منزله .

وحجة الحكومة بأن الأزمة الإقتصادية العالمية ، هى السبب فى تخفيض مرتب خريج الكلية ، كانت حجة مردودة، لأن السؤال هو لماذا قصرت الحكومة علاج الأزمة العالمية ، على الجنيهات القليلة التى كان يتقاضاها خريج الكلية دون أن تمتد إلى تلك المرتبات والإمتيازات الضخمة ، التى كان يتقاضاها الموظفون الأجانب وفى مقدمتهم البريطانيون بالطبع . . ؟ ؟ ؟ ولايفوتنى هنا أن أذكر واقعة تدل على مدى ملاحقة رجال الأمن العام لقادة الإضراب ، حتى بعد فصلهم من الكلية، مما يدل على أنهم كانوا يدركون أن وراء الإضراب دوافع وطنية وسياسية . .

لقد أرسل برامبل بك مفتش مركز أمدرمان خطابات لثلاثة من أولياء امور الطلبة المفصولين من الكلية ، يأمر كل واحد منهم باحضار

ابنه لمكتب جناب المفتش صباح كل خميس . والطلبة هم : المرحـــوم صديق عبد القادر أحمد ناصر وقيلي أحمد عمر وشخصى عبد اللطيف الخليفة . وحضرنا بمكتب جناب المفتش فى الميعاد المحدد وكان اللقاء الأول ساخنا ، أراد فيه برامبل بك أن يرهبنا ببعض عبارات التهديد وقال فى لهجة عامية (أنتو مش عارفين البلد دى بتاعى ؟ أى واحد يعمل حاجة مش كويسة فى البلد بتاعى أنا أخته فى السجن . .) .

وخرجنا من عنده بشعور أنهم قد حددوا إقامتنا فى منازلنا وربما كان ذلك أول تحديد إقامة لطلبة مثلنا فى السودان . . . وكان إذا حدث أن تأخر أحدنا عن الحضور فى الميعاد المحدد لمقابلة برامبل بك ،أرسلوا له أحد بوليس السوارى لإحضاره، وياله من منظر لم يكن مألوفا إلا مع المجرمين ! !

وكنا نتحمل كل ذلك بصبر وجلد ، لأنه كان لنا فى الواقع ما يشغلنا عن برامبل بك وتصرفاته ، وذلك هو الاستعداد السرى الذى كنـــا نجريه لهربنا إلى مصر كما أشرت سابقا . . وكان مسلكنا مع برامبل بك مجرد مخادعة حتى تكتمل خطة السفر . . ولعل فى ذلك ما يلقى الضوء على الوزن الوطنى لإضراب كلية غردون . .

تفكيرى فى الهجرة لمصر قديم

هذا وإذا كنت قد إعتبرت الإضراب منطلقا لهجرتنا إلى مصر ، فليس يعنى هذا انه هو السبب الرئيسى لها ، كلا ففكرة الهجرة لمصر من أجل التعليم كانت دفينة فى نفوسنا قبل الإضراب بسنوات . . فقد كانت كل الظروف تدفعنا للتبرم وعدم الرضى ، وكانت الحياة عامة تمضى أيامها رتيبة قاحلة ، لا أمل فيها لنهضة عاجلة لتغيير الواقع المؤلم . . ووطأة الإستعمار كانت قاسية على الشباب ، تقطع عليهم السبل وتسد فى وجوههم المنافذ . . وهكذا تمركزت احلامنا فى اعداد أنفســـنا للكفاح ضد الإستعمار بالهجرة إلى مصر لكى نفلت أولا من قبضـــة

الضياع والحرمان ومن قشور العلم والثقافة المفروضة علينا . .

فمصر هى أقرب البلاد إلينا وأكثرها تعاطفا معنا ، وأبـــواب مدارسها مفتوحة لنا دون تحفظ . إنها بلاشك فرصة ذهبية قل أن تتاح لشعب فى مثل ظروفنا القاسية . فكيف لا ننتهزها ؟ ؟ لقد كان الاتجاه الغالب هو الهجرة إلى مصر . . . وقد عبر عن ذلك بعـــض الشعراء القوميين حين قال أحدهم :

ياشباب النهضة المتينة * يالله ننزح نحــو الشمال

وكان هذا الاتجاه يقوى فى نفوسنا كلما نضج وعينا الثقافى والوطنى نتيجة لقراءة الكتب والصحف المصرية . وعند ما فصلت إدارة كلية غردون الطلبة الأثنى عشرة وكنت واحداً منهم ، تجدد العزم على الهرب إلى مصر ، وأقول الهرب لأن السفر إلى مصـــر لامثالنا من المتمردين على الحكومة كان محظوراً .

خطورة الهجرة لمصر فى نظر الانجليز

ولعل الأحياء من طلبة كلية غردون عام ١٩٢٧ يذكرون ذلك الجو الارهابى الذى ساد الكلية . عقب هروب زملائهم بشير محمد خير ويعقوب عثمان وبخيت محمد عمر لمصر ، وكيف جمع المستر يودال عميد الكلية ، الطلبة فى تلك الأمسية وقال لهم : (سأحدثكم حديثا خطيراً هذه الليلة) وهاجم الهاربين ووصف سفرهم بالاجرام وقال أن الحكومة ستقفل السودان فى وجوههم ولن يجدوا فرصة للعمل فى حكومة السودان . كما أن الناس قد تناقلوا الحديث فى تلك الأيام بأن الصحيفة الرسمية لحكومة السودان (غازيتة السودان) قد ذكرت أن مجلس الحاكم العام قد اتخذ قراراً بحرمان أولئك الطلبة الهاربين لمصر من الخدمة فى حكومة السودان .

وهذه كلها تدل على مدى الخطورة التى كانت حكومة السودان تأخذ بها هجرة الطلبة إلى مصر . . منذ تلك اللحظة أى لحظة فصلنا

من الكلية شرعنا فى وضع خطة الهرب . ولم نكن وحدنا فى الميدان ، إذ كانت فكرة الهجرة إلى مصر مقصداً وطنيا كبيرا تسعى إلى تحقيقه قيادات التحركات الوطنية من الشبان .

وهكذا وجدنا أنفسنا محاطين بأصدقائنا : الشيخ محمد الخاتم عثمان وخضر حمد وابراهيم يوسف سليمان والهادى أبوبكر وعبد الرحمن النور وصديق عبد القادر أحمد ناصر واسماعيل العتبانى وعثمان أحمد عمر (عفان) وحسن أبوشمة وحسن أحمد عثمان وغيرهم . .

وفى وقت وجيز كانت الخطة قد إكتملت على يد هذه المجموعة من الشبان المؤمنين بأن الكفاح المقبل ضد الإستعمار لابد من أن يتسلح بالعلم أولا وأن مصر ، ملجأ الأحرار ، لابد أن تكون بيئة صالحة لاعداد مناضلين أقوياء ، يناصرون الحركة الوطنية كما أنهم سوف يجدون فى اخوتهم المهاجرين متنفسا لهم ونافذة يطلون منها على العالم ويسمعونه صوتهم لأنه كان مكبوتا فى داخل السودان .

الدفعة الاولى

وكانت أول دفعة تقرر قيامها مكونةمن قيلى أحمد عمر وشخصى ، وكان التكتم شديدا ، حتى اننا جهزنا حقيبة واحدة لملابسنا وأخفيناها بعيدا عن الأنظار ، فى منزل الشيخ الخاتم ، وعندما حل ميعاد السفر كانت الأقدار قد دبرت ظروفا خاصة حالت دون سفرى فى اليوم الموعود .فسافر قيلى وتخلفت أنا على أمل اللحاق به فى أقرب وقت . والقصة هى أن أخى الأكبر المرحوم حسن الخليفة كان له متجر فى سوق الموردة ، وكنت أقضى يومى فى هذا المتجر منذ فصلى من الكلية ، وبينما نحن على وشك السفر للقاهرة فى تكتم شديد إذا بسفرة مفاجئة تأتى لأخى حسن الخليفة . فحمدت الله فى سرى على أن المتجر سيقفل وأتمكن من السفر خلسة ، ولكن من لسوء حظى قد تكاتف على الأهل

والأصدقاء لحملي على القيام بالعمل فى المتجر ، لحين عودة شقيقى من السفر ، وتحدونى بأني ما دمت قد رفضت العمل فى الحكومـــة ، فلابد من أن أبرهن على أنى قادر على العمل الحر ، ولما كنت حديث السن فى ذلك الوقت ، فقد أسقط فى يدى ، وقبلت التحدى . . ولكن رب ضارة نافعة كما يقولون . ففى الوقت الذى كنت أبذل فيه الجهد لصرف أنظار رقباء الحكومة عن موعد سفرى ، كنت أيضا أفعل ذلك مع أفراد الأسرة ، وخاصة بعد سفر قيلى الذى ما كاد يصل القاهرة ، حتى طرأت لى فكرة تمكننى من كسب الأسرة أيضا لجانب سفرى للقاهرة .

خطة جريئة .

والقصة تتلخص فى أنه كان السيد ميرغنى الأدريسى ، كبـــير السادة الأدارسة يسكن القاهرة ، وكان والدى بأمدرمان هو كبير خلفاء السادة الأدارسة ، فكتبت لقيلى لكى يكتب خطابا لوالدى ، على لسان السيد الميرغني يقول فيه (أنى أى السيد الميرغنى قد علمت بفصل ابننا عبد اللطيف من الكلية فسعيت لإيجاد عمل له ، والحمد لله قد أوجدنا له وظيفة فى البنك العقارى بالقاهرة ، فنرجو أن ترسلوه لنا . . فكان ذلك مصدر فرحة كبيرة للأسرة ، وبذلك تخلصت من مشكلة اخفاء سفرى عنهم ، بل اتفقت معهم على مساعدتى فى اخفاء الأمر من رقباء الحكومة . ولم يتردد قيلى فى ارسال الخطاب وتمت اللعبة الماكرة البريئة . . وقد وجدت فى أوراقى القديمة نفس الرد الذى ارسله لى قيلى . . (انظر الوثائق)

وبمجرد وصول هذا الخطاب واطمئنانى لجانب الأسرة ، أسرعت فى أعداد أمور السفر فجهزت كل شئ وبقيت فى انتظار عودة شقيقى

الأكبر من سفريته ، فعاد ووجدني على أهبة السفر . . وبحلول مطلع عام ١٩٣٣ وفي صبيحة أحد أيامه الجميلة ، ركبت أحد قطارات حلفا في الدرجة الرابعة وفي زى عامل بسيط ، وبقيت ساكناً حتى وصل القطار حلفا . وكان سفري من محطة الخرطوم في ظل رضى الأسرة وعطفها . وأما رقابة الأمن العام فقد كفاني شرها أولئك الأخوة الأحرار الذين اشرت اليهم سابقاً . .

مغادرة الخرطوم

وعندما وصلت محطة حلفا وجدت ثلاثة من الشبان في انتظاري ولا أكاد أذكر منهم مع الأسف غير الأخ يوسف سر الختم ، الذى كان من موظفي البريد . . وقد دبروا الأمر بحيث أذهب الى منزل احدهم وأتشاغل بأخذ طعام الأفطار حتى ميعاد تحرك الباخرة من مرفأ حلفا . . فعلا لم أحضر الا في آخر لحظة والباخرة على وشك الأقلاع ، فنزلت مسرعاً نحو مدخل الباخرة ، وكان يقف هناك شخصان ، احدهما على الخضر كمساري الباخرة ، والثاني عباس الحاج حسين الوكيل السفري للبريد . . وكلاهما كانا على علم بامرى فتركاني أمر وأدخل الباخرة

وقد بقيت في ضيافتهما حتى وصلت الباخرة الشلال أى القطر المصري وبذلك أصبحت طليقاً من قبضة حكومة السودان ، فتنفست الصعداء وتمثلت بقول الشاعر العربي القديم حين أفلت من قبضة غريمه عباد ، فأخذ يزجر بغلته ويقول :

الشلال بر الامان .

عدس ما لعباد عليك أمارة * نجوت وهذا تحملين طليق

وهكذا ركبت القطار الذى تحرك من اسوان قبيل الغروب ليصبح بنا مبكراً في اليوم الثاني بمحطة القاهرة . . فنزلت الى رصيف المحطة تتنازعني مشاعر متضاربة . . . فرحة الظفر بالوصول وتهيب الغريب اليافع واحلام الشباب وافكاره المتوثبة . . . وركبت عربة الأجرة الى منزل السيد ميرغني الأدريسي بشارع خيرت بحي السيدة زينب ، ومن ثم ذهبت الى العباسية والتقيت بقيلي ومحمد امين حسين ،حيث كان

محطة القاهرة .

يسكن الأخ محمد أمين مع خاله المرحوم اليوزباشى عبد الله مرجان . .
ولم أمكث كثيرا بمنزل السيد ميرغنى الأدريسي ، فقد اشتركت مع قيلي فى سكن واحد بالعباسية بالقرب من الأخ محمد أمين ، وكذلك بالقرب من الضابطين السودانيين ، سيد شحاتة وعبد الله نور ، حيث كنا نجد عندثلاثتهم الكثير من التعاطف والأنس وبعض الوجبات الشهية ، وخاصة عند محمد أمين وعبد الله نور ، مما أزال الكثير من وحشتنا وأعاننا على البدء فى محاولات الإلتحاق بالمدارس . . . وأذكر أن السيد اسماعيل الأزهرى هو أول سوداني قام بزيارتنا فى ذلك المنزل فى صيف عام ١٩٣٤ ، وهو فى طريقه لبيروت لقضاء جانب من إجازته . . وبعد قليل أخذنا نلتقى ببعض الطلبة الذين أخذوا يتوافدون على القاهرة . . بعضهم للأزهر الشريف وبعضهم للمدارس ، ومن أقدم طلبة المدارس الذين إلتقينا بهم ، الأستاذ على عبد الله الذى أكمل دراسته فى كلية الآداب فيما بعد ثم سافر فى بعثة الملكفاروق إلى السيربون بفرنسا . ويعمل الآن بوزارة المعارف بمصر ، حيث أقام نهائيا هناك . . ثم المرحوم عبد النبى عبد القادر مرسال الشاعر المعروف الذى عاد إلى السودان دون أن يلتحق بالجامعة . وقبل هؤلاء التقينا بالأخ جلال الدين عبد المجيد الذى عاصرناه فى كلية غردون ، وهو أيضا لم يلتحق بالتعليم الجامعى وعاد إلى السودان. ثم بعد ذلك ذهب الأخ قيلي إلى حى شبرا وأقام مع الأستاذين بشير محمد خير ويعقوب عثمان ، الذى سافر إلى لندن بعد وصولنا القاهرة بشهور قليلة .

اول زاير كبير لنا .

بداية لقاءآتنا بالطلبة .

ثم اشتركت مرة أخرى مع قيلي فى سكن واحد بحى روض الفرج حيث وافانا الأخ عابدين اسماعيل فيما بعد وأقام معنا . . وجاء قبله الأخوان أحمد الطيب عابدون وأحمد السيد حمد ثم الدكتور عقيل فالدكتور بشير البكرى وعبد الرحمن بابكر ، وبعدها تواتر

وصول الطلبة ، عبد الماجد أبوحسبو ، يــس حاج الخضر ، بابكر تلب ، وأذكر أنه بعد وصول يس حاج الخضر بقليل جاء فى أثــره شقيقه الأكبر المرحوم حميدة حاج الخضر ، بقصد إرجاعه للسودان ولكن لطيبته ووطنيته ، استطعنا أن نتغلب عليه ونقنعه ، فوافق عــلى ترك يس معنا وعاد وحده إلى السودان .

وفى الجانب الآخر كانت قد تراوحت على الأزهرالشريف مجموعة كبيرة ، منهم اثنان من قائمة المفصولين معنا عقب اضراب كلية غردون ، وهما عبدالعزيز محمد الأمين اطال الله عمره والمرحوم عبد الحميد البوشى ، وكلاهما عاد الى السودان نهائيا منذ وقت مبكر ولم يستمرا فى الدراسة . اما الآخرين فان بعد العهد والأحداث الجسام ، انستنى الكثيرمنهم ، ولكن اذكر منهم الأســتاذ ابراهيم حسين اطال الله عمره ، والمرحوم الأستاذ محمد عبدالوهاب القاضى الأديب والشاعر والمرحوم ابراهيم عبد العاطى الشاعر وصاحب ديوان (الراووق) ثم الأستاذ عثمان عبدالرازق وعوض عقارب والمرحوم عبدالرحمن الصائم والمرحوم محجوب نورى وعبدالقادر القبانى ويسن ابراهيم ومصطفى ادريس ويحيى فضل المولى وقبلهم الأستاذين امــام عثمان وعوض سمساعه ثم الأخ محمد ابراهيم عبدالله الذى جاء مــن مدارس السودان والتحق بالازهر ثم تركه والتحق بالمدرسة الزراعية المتوسطه بمشتهر ثم الشيخ الأمين داوؤد ، والأساتذة طه المبارك واحمد المصطفى وخضر الجعلى ويوسف السنى وغيرهم .

محاولات الالتحاق بالمدارس مع ظروفنا السيئة .

ومر بعض الوقت انشغلنا فيه بالسعى الحثيث للالتحاق بالمدارس ، وقد تمكن البعض منا من الالتحاق بمدارس اهلية نهارية وليلية ايضاً لصعوبة الألتحاق بالمدارس الأميرية. وكانت لقاءاتنا متقطعة وظروفنا المعيشيه غير مواتية ودخول اغلبنا لاتكاد تقيم اوده. فانا مثلا كنت اتلقى

معونة من بعض الأخوة الموظفين فى السودان ، ولعل الأخوة المرحوم الشيخ الخاتم والمرحوم خضر حمد والهادى ابوبكر اطال الله عمره قد لعبوا ادواراً كبيرة لصالحنا بين دعاة هجرة الطلبة . حتى قرر بعض منهم اقتطاع مبلغ ٢٥ قرشاً كل شهر (وهو مبلغ لابأس به آنذاك) وهم الأخوة الذين ذكرتهم سابقاً واضيف اليهم فيما بعد المرحوم محمد مصطفى حسن . ولكن عندما تقدم الزمن قليلا توقف المدد ، ماعدا ما كان يصلنى شخصياً من الأخوين الهادى ابوبكر والمرحوم خضر حمد ، وهو مبلغ جنيه كامل كان يصلنى من كل منهما شهرياً ، حتى تم التحاقنا بالمدارس الثانوية واقمنا بداخلياتها التى انهت لنا مشاكل السكن والمعيشة وذلك فى أكتوبر ١٩٣٥ ... قلت ان لقاءاتنا كانت قليلة وذلك لتباعد اماكن سكننا ولانشغالنا بامورنا الخاصة والحاجه الناجمة عن قلة امكانياتنا المادية التى قد تصل احياناً الى حد العدم لعدة اسابيع ، نمارس فيها شظف العيش وربما لشهور طويلة وليس لنا من طعام الا الفول والحلاوه الطحينية لشدة رخصهما ، ولكن بالرغم من هذا الانهماك فان جانبا كبيراً من إهتمامنا كان منصرفاً لضرورة تجمعنا بطريقة منتظمة . .

إعانات من اخوتنا فى السودان للتغلب على صعوبة العيش فى القاهرة .

لأننا فى الواقع قد حملنا معنا من السودان أفكاراً وقضايا وطنية ملحة لا تملك منها فكاكاً . . وشعرنا منذ ذلك الوقت أن تلك القضايا التى حملنا عبئها أخواننا فى السودان ، لابد لها من أشخاص يتفرغون لها ، أو على الأصح يضحون من أجلها بالكثير من أوقاتهم ومصالحهم الخاصة ولذلك فقد رأى بعضنا أن ينذروا نفوسهم للعمل من أجل تلك القضايا الوطنية ، مهما كانت النتائج على مصالحهم الخاصة ، وذلك لما قد تقتضيه الظروف من الإتصالات بشأن تلك القضايا مع قادة التحركات الوطنية فى السودان ، أو العمل المتواصل لخدمتها فى مصر . .

بداية العمل الوطنى .

ومن هنا فقد انتدب بعض الأفراد أنفسهم للمهمة الكبيرة ، وما لبسوا أن انهمكوا فيها . . وقد كان فى مقدمة الكفاح الإهتمام بالتعليم كضرورة قصوى للسودان ونهضته ، وأنه لابد من توسيع الهجرة للدراسة ، بحيث تشمل كل فروع المعرفة والعلم ، وحتى تصبح للسودان فى القريب قوة كبرى من أبنائه الذين تسلحوا بالعلم والثقافة والذين يستطيعون أن يؤثروا فى مجرى الأمور ويغيروا أوجه الحياة فيه . . فالتعليم هو القضية الأولى التى هاجر الطلبة من أجلها وإذا كانت الضرورة الوطنية الملحة قد قضت على أفراد منهم أن ينشغلوا بالقضايا العامة ، فان قصة التعليم هى أيضاً شغلهم الشاغل ، فهم المفكرون الحقيقيون فى أمرها ، وهم الذين يخططون لها بالإشتراك مع أخوتهم فى داخل السودان ولهذا فان كل ما عداهم ممن كان لهم فضل أو أيادى بيضاء على تعليمنا فى مصر ، إنما كانوا فى الواقع عاملا مساعداً على تنفيذ ما يخططه الطلبة بأنفسهم . وهكذا جعلت قيادة الطلبة من نفسها قنطرة تعبر عليها حركة تعليم أبناء السودان وقضاياه العامة فى مصر . وهكذا أخذ هؤلاء الرواد أنفسهم بالشدة ، وراودوها على التضحية والصبر ، حتى نمت تلك الحركة ، وترعرعت ، بل وأصبحت الشرارة الأولى فى مسيرة الحركة الوطنية الحديثة بعد ثورة ٢٤ ، والتى أدت إلى الإستقلال فى آخر الأمر ، كما قال عنها بعض القادة الوطنيين ومنهم يحى الفضلى .

الشرارة الاولى

النادى السودانى

فى عام ١٩٣٥ وفى غمرة إنهماكنا فى أمورنا الخاصة وشعورنا بضرورة التجمع والتنظيم ، ظهر النادى السودانى والذى تكون حديثاً من أبرز الشخصيات السودانية فى القاهرة : التجار والموظفين والعمال وغيرهم ، وعلى رأسهم المواطن الكبير المغفور له على البريو

رئيس النادى كما كان الرئيس الفخرى للنادى هو الأمير الوطنى طيب الذكر الأمير عمر طوسون صاحب الأيادى البيضاء على النادى وعلى الطلبة السودانيين بمصر وكل القضايا السودانية، فوجدنا فى ذلك النادى الفخم بميدان سليمان باشا ، حلا جميلا لمشكلة تجمعنا ولقاءآتنا . وهكذا أخذنا على الفور فى تنظيم أنفسنا وتكوين جهاز نعمل به على مواجهة قضايانا الملحة . . فكانت رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة .

رابطة الطلبة

أول تنظيم للطلبة السودانيين وأعضاؤها على ما أذكر هم :

(١) محمد أمين حسين
(٢) قيلي أحمد عمر
(٣) عقيل أحمد عقيل
(٤) أحمد الطيب عابدون
(٥) أحمد السيد حمد
(٦) عباس الدابى
(٧) بشير البكرى
(٨) يسن حاج الخضر
(٩) جعفر عثمان
(١٠) على خضر على
(١١) عابدين اسماعيل
(١٢) محمد ابراهيم عبد الله
(١٣) سيد فضل المولى
(١٤) أحمد عبد الحى
(١٥) عبد اللطيف الخليفة

وكان أعضاء الرابطة من طلبة الأزهر الشريف :

(١٦) عوض عقارب

(١٧) عثمان عبد الرازق
(١٨) ابراهيم حسين
(١٩) يحى فضل المولى
(٢٠) عبد القادر القبانى
(٢١) أحمد محمد على (أبو دقن)

وكان من أبرز أعضاء النادى السودانى بعد على البرير، الأستاذ توفيق البكرى - بشير عبد الرحمن وبشير محمد خير وحسين منصور ومن التجار مصطفى أبو العلا - سليمان خليل - وخضر على وغيرهم من الشخصيات كالشيخ مصطفى الطيب الذى رأس النادى فيما بعد وحسن مصطفى بشير وعدد من الأزهريين والعمال الذين تمصروا أو عاشوا فى مصر مدة طويلة حتى أصبحوا مصريين أكثر منهم سودانيين .. وشعرت رابطة الطلبة السودانيين بشىء من الاستقرار، لما لقيته فى النادى من مكان مريح لاجتماعاتها ومزاولتها نشاطها ... ولكن سرعان ما أخذ هذا الشعور يتناقص .. فقد حسدتنا وكالة السودان بالقاهرة على الاستقرار الذى لقيناه فى النادى السودانى، وتمكنا فيه من البدء فى مزاولة نشاطنا الذى كنا نتطلع إليه والذى كانت وكالة حكومة السودان تراقبه بعين ساهرة، وما زالت تتربص بنا هذه الوكالة حتى استطاعت أن تنفذ إلى هدفها، فأوقعت بيننا وبين قادة النادى، وتم لها اقصاء أعضاء الرابطة من النادى، بفصلهم منه، كما سأذكره فى مكان آخر .

اولى أمنياتنا

وأول عمل جليل قام به النادى السودانى هو إدخالنا مدارس الحكومة، ولم يكن واحداً منا جميعا قبل ذلك قد أسعده الحظ بالإلتحاق بالمدارس الأميرية حتى نجد الاستقرار، سواء فى الدراسة أو المعيشة .. أرسل النادى خطاباً للأمير عمر طوسون بحكم أنه

رئيسه الفخرى ، وبحكم اهتمامه المعهود بقضايا السودان وتعليم أبنائه . . ورجا النادى الأمير أن يتوسط لدى وزارة المعارف لقبولنا بمدارسها التى بها أقسام داخلية . . وسارع الأمير على الفور بالإتصال بوزارة المعارف ، وكان وزيرها فى ذلك الوقت هو نجيب الهلالى أحد وزراء حزب الوفد ، ولكنه الآن أى عام ١٩٣٥ كان مشتركا فى وزارة محمد توفيق نسيم القومية ، وشبه الإنتقالية ، بين العهد الدكتاتورى الذى قاده صدقى باشا ، وبين العهد الدستورى الذى قاده فيما بعد النحاس باشا . . وما أن وصل الإلتماس لنجيب الهلالى وزير المعارف ، حتى سارع بدوره وأصدر أمره بقبولنا جميعا بالمدارس التى بها داخليات بالمجان : (السعيدية وحلوان وشبرا الثانوية) وكان عددنا فى ذلك الوقت عشرة طلاب وطالبة واحدة هى سعدية سليمان . .

هذا أول فوج تحققت له فرصة التعليم الثانوى كاملة من حيث كفالة الدراسة والمعيشة معا . . وكان فتحا ربانيا كما يقول السادة الصوفية . . فتح الطريق نهائيا أمام ابناء السودان من أولئك المتعطشين للعلم والمحرومين وذوى الطموح والنبوغ — فأخذوا يتوافدون على القاهرة ، الفينة بعد الفينة ، ثم أخذت أعدادهم تتسع عاما بعد عام حتى أصبحت أفواجا ضخمة تزدحم بها الجامعات والمدارس — والمعاهد وكليات الأزهر الشريف .

فى عام ١٩٣٦ تم إلتحاقنا بالمدارس الثانوية فانقسمت المجموعة إلى قسمين ، قسم ذهب إلى المدرسة السعيدية بالجيزة وهم : عقيل احمد عقيل وأحمد عبد العزيز ثم أحمد الطيب عابدون وشخصى . وقسم ذهب إلى مدرسة حلوان الثانوية وعلى رأسهم دكتور أحمد السيد حمد وعباس الدابى وعابدين اسماعيل ، ولحق بطلاب السعيدية

فيما بعد أعداد متتابعة أذكر منهم المرحوم أحمد دهب المحامى والمرحوم خاطر أبوبكر ومنصور أحمد الشيخ واسماعيل المليك وعزالدين المهدى وحسن أبوبكر وجمال الدين السنهورى وعماد الدين عثمان خاطر وشيخ الدين المهدى والطيب شبيكة ثم الصايم محمد ابراهيم الذى ترك مهنة التدريس بالسودان وجاء للإلتحاق بالجامعة فحصل على الشهادة الثانوية والتحق بكلية الحقوق وتخرج منها ثم أحرز الدكتوراة فى القانون واشتغل بالمحاماة وأصبح من كبار المحامين . كما توافد على مدرسة حلوان أعداد وفيرة أيضا أذكر منهم عبد الماجد أبو حسبو وصلاح زروق وعبد النبى عبد القادر مرسال الشاعر وعبيد حسن حامد وعمر رجب والطيب جبارة الله ولحق بحلوان مؤخرا مصطفى حاج الشيخ . . ومحمد زيادة وصادق عبد الله عبد الماجد الذى كان رئيسا لرابطة الطلبة السودانيين بمدرسة حلوان . . الخ ثم كبر عدد السودانيين فى المدرستين وأصبح لهم وجود ظاهر فى كل المناسبات والاحتفالات التى كانت تقام فى المدرستين ، وكان مسلك الطلبة السودانيين مشرفا جدا لأنفسهم ولوطنهم حيث كان يشيد بهم النظار والمعلمون . .

عنوان مشرف للسودان .

(أذكر مرة أن الأستاذ جعفر النفراوى، ناظر مدرسة السعيدية تحدث فى أكبر حفل تقيمه السعيدية للخريجين فى كل عام، وحضره رجال الحكومة وكل رجالات مصر فأشاد النفراوى بأخلاق الطلبة السودانيين وقال:

(ان وجود الطلبة السودانيين بالمدرسة السعيدية قد رفع مستوى الاخلاق فيها . . .) والواقع أن حياتنا بالمدرسة السعيدية كانت شيئا جديدا علينا ، فيها طعم الجديد وطرافته . وجدنا فيها الهدوء والاستقرار والراحة بعد المعاناه الطويلة. تنظيم دقيق للمعيشة

اليوم الدراسى نشاط متصل .

ولاوقات الدراسة والمذاكرة . . وكان النشاط هو الطابع السائد حيث

كنا نخرج من الداخليات فى الصباح ونذهب لتناول طعام الإفطار ومنه للفصول الدراسية . . وكان وقت تناول الغداء يتخلل ساعات الدراسة حيث تكون هناك حصة أو أثنين بعد الغداء ، وفى العصـــر تتجه كل مجمـــوعة لممارســـة الهواية الخاصة بها كفلاحة البساتين وما يتصل بها من صناعات كالمربيات والروائح العطرية ، وكالتصوير وتحنيط بعض الطيور والحيوانات والزواحف وكبعض الألعـــاب الرياضية . . . الخ .

فاليوم الدراسى متصل طوال النهار ، فلا يعود الطالب إلى الداخلية إلا فى المساء . . ولجودة الطقس ، كنا لا نحس بضرورة القيلولة فى وقت الظهيرة . . وكان للمدرسة السعيدية فريق قوى لكرة القدم يتبارى مع الفرق الأخرى من وقت لآخر . . ومن الطرائـــف التى لاأنساها ، أنه فى أحد الأيام خرج فريق السعيدية لاجراء منافســـة كبرى مع فريق مدرسة فؤاد الأول الثانوية . . وخرجنا مع فريقنا لنشاهد المباراة الساخنة . . وما كدنا نصل الميدان بالنادى الأهلـــى بالجزيرة ، حتى شعرنا بحماس بالغ يطغى على طلبة السعيدية الـــذين أخذوا فى تنظيم أنفسهم وهتافاتهم ، فى مواجهة منافسهم وما كادت المباراة تبدأ حتى أخذ عبد الحى ، ذلك الطالب البدين القوى الملامح ، فى إرســـال صيحات التشـــجيع لفريق السعيدية ومن خلفه الطلبة وجمهور كبير يرددون كل ما يرسله من هتافات . . ولكن الشيء الذى أدهش الطلبة السودانيين هو أن طلبة المدرسة وجماهيرهـــم المؤيدة لفريقهم قد اتخذوا من الهجوم على فريق مدرسة فؤاد الاول ، فرصة للهجوم على الملك فؤاد الأول نفسه ، هجوما صريحا ومباشرا ، دون خوف أو تردد ، فيقول عبد الحى مثلا : (ولْ ولْ ولْ يا سعيدية . . . ويرد عليه الطلبة والجماهير : (فؤاد الأول جاتـــو رزية . . . .)

مظاهر متحررة جديدة علينا .

ويقول عبد الحى : (جاتك مصيبة) . . فيردون عليه : (يافؤاد) ويقول : (عشرة بلدى) . . . فيقولون : (يا فؤاد) ويقول : (على العجلاتى) . . فيردون (يا فؤاد) إلى آخر تلك الهتافات الجريئة حتى تحول الميدان إلى مظاهرة سياسية صاخبة ضد الملك فؤاد . .

الذى كان بالفعل مكروها من عامة الشعب المصرى . . كل ذلك ولم تتحرك الشرطة للقبض على أحد ، مما يدل على الحرية السياسية التى كان يتمتع بها المصريون فى ذلك الزمان . .

وكان طلبة مدرسة حلوان أكثرنا إهتماما بالمناسبات السودانية التى كانوا يدعون إليها زملاءهم من مختلف معاهدهم . . وكثيرا ما كنا نذهب لمدرسة حلوان فنستمع فى شغف إلى الخطباء والشعراء وخاصة في عهدها الأخير فى أوائل الأربعينات . . وما أجمل تلك الليلة التى تنافس فيها الشاعران الكبيران محى الدين صابر وأبى القاسم عثمان ولكن محى الدين أراد أن يقطع السبيل نهائيا أمام أبو القاسم وغيره ، فجاء في قصيدته قوله : ,, وانى شاعر الجيل الجديد ،، . . مما أثار الكثير من المداعبات والتعليقات المرحة .

والان لنعود مرة أخرى إلى ما قبل عام ١٩٣٦ لنمر ببعض الأحداث مما يكون قد فاتنا الوقوف عنده . فقد أخذنا فى التعرف على معالم القاهرة كما قلت ، ونحن نتحسس طريقنا فى ذلك المجتمع الجديد علينا فى بيئته وأحواله ، وبدأت خطواتنا أول مرة بطيئة متعثرة ونحن نحاول تثبيت أقدامنا وخلق الظروف الملائمة للشروع فى علاج القضايا الملحة ، التى حملناها معنا من السودان والتى لاتفتأ تلاحقنا بالأسئلة : متى تبدؤن وكيف تبدؤن . . ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

بداية لقائنا بالوطنين . .

وهكذا كانت أحاديثنا كلها تدور فى هذا الإطار ، حينما نلتقى فى أول عهدنا بأشخاص متحمسين كالأديب الشاعر ابراهيم عبد

العاطى صاحب ديوان الراووق والأديب والشاعر محمد عبد الوهاب القاضى رحمهما الله ، وكامام عثمان وغيرهم كثيرون وجاء من السودان الأستاذ الكبير حسين منصور مهاجرا بعد معارك قلمية مشهورة للجمعية الأدبية لمعهد أمدرمان العلمى ،التي عبر عن ثورتها فى آخر وقفاتها حيث قال :
فى قصيدته الثائرة المعروفة :

ولست بمثن على أحمد * ومفتي الديار ولا الحارم
حتى أرى منهم غضبة * ترد الحقوق إلى آدم

فترك البلاد وخرج غاضبا بحق ، تحف به قلوب الأحرار من زملائه كالتجانى يوسف بشير وعبد القادر كرف وغيرهما ، فودعه التجانى بتلك القصيدة العصماء الرصينة ، وهى مثبته فى ديوانه (إشراقة) ومطلعها :

وداعا هزار الربى والأكم * اريش الجناح وثيق القدم
حسين أناتك أن تستخف * وريث فؤاد أن يحتدم
خرجت مع الفكر الفؤاد * إلى غاية فى ضمير العدم
منازع ذى مذهب فى الوجود * أثير وذى شرعة فى القلم

د. فضل بابكر

فكان مجيء حسين للقاهرة ،رافدا قويا للحركة السودانية التى أخذت عناصرها فى التجمع يوما بعد يوم . . وإلتقينا أيضا قبل حسين منصور بالمرحوم الدكتور فضل بابكر الذى كان يقيم مع قريبه أحمد المصرى بضاحية مصر الجديدة ، قريبا من كلية العلوم التى كان دكتور فضل طالبا فيها ، وتزودنا بكثير من حماسه وغيرته الوطنية ، وكم أمتعنا بنكاته ومرحه البديع فخفف علينا كثيرا من وحشة الإغتراب ، حتى سافر إلى فرنسا لدراسة الطب . ومن الذين لا أنساهم أبدا شخصية

الشيخ زكى عبد السيد

الشيخ زكى عبد السيد القاضى الشرعى الذى كان فى مقدمة من

اشتركوا بنصيب وافر فى الحركة الوطنية فى السودان، فرفعوا أصواتهم فى المظاهرات الوطنية الأولى وتفاعلوا مع الأحداث التى مهدت لثورة ١٩٢٤، فألقى به فى السجن مع زملائه الأحرار الآخرين كالمغفور له حاج الشيخ عمر دفع الله : وبعد خروجه من السجن هاجر إلى مصر وانضم إلى حزب الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا باعتباره حزب الأغلبية والممثل للحركة الوطنية فى مصر . وكان فى المعارضة ضد حكومة صدقى باشا الانقلابية : فوضع الشيخ زكى كل نشاطه فى خدمة المعارضة والاشتراك مع الوفد فى كل تحركاته ضد حكومة صدقى . وكان ينتقل مع الوفديين من معركة إلى أخرى، وسافر معهم للأقاليم، حتى أصبح معروفا لدى البوليس ورجال الأمن فى حكومة صدقى باشا . . . .

وعندما كان جنود صدقى يضربون الحصار حول النادى السعدى أو بيت الأمة فى الأعياد والمناسبات الوطنية، كان الشيخ زكى كثيراً ما يقوم بحركة مفاجئة فيقتحم الحصار ثم تتبعه الجماهير وينفرط عقد النظام . . وبعد زوال عهد صدقى، جاء الوفد الى الحكم، فعين الشيخ زكى قاضياً شرعياً فى احدى مديريات صعيد مصر . . ثم جاءت الأخبار بوفاته فى ظروف يشوبها بعض الغموض، فقيل مرة انه غرق فى النهر، وقيل مرة انه خرج ولم يعد ويقول البعض أنه قد أصابه شيء من الذهول واغتراب الذهن . . ثم شغلتنا الأحداث ونحن فى ذلك العهد الباكر وتقاذفتنا امواجها فلم نجد من البال ما نتتبع به أخبار المرحوم الشيخ زكى عبدالسيد طيب الله ثراه واجزل له أطيب الرحمات . . والآن أعتقد أن قصة الشيخ زكى تحتاج منا إلى وقفه ولو قصيره . .

عبد السيد .
خيبة أمل الشيخ
زكى .

أن المتأمل فى تصرفات الشيخ زكى عبدالسيد وفى وجهه النحيل

لا بد من أن يدرك أنه يخفى فى طيات نفسه الكبيرة شعوراً بعدم الرضى عن ما لقيه فى مصر ، وخاصة من حكومة الوفد التى ناضل من أجلها ، فكان يعتقد أن مكانته عند قادتها أكبر مما حدث . . فهذا القاضى الذى كان مرموق المكانة والمستقبل ، وتخلى عن كل ذلك ودخل السجن ، كأى وطنى حر مناضل ، ماذا لقى فى مصر غير التشرد وعيش الكفاف ؟ ؟ ! ! واذا كان قد احتمل ذلك كله فلأن الحكومة فى مصر كانت غير شرعية وأشبه شىء بحكومة السودان الأستعمارية التى شردته . . وظلت آماله معلقة بمجىء الوفد للحكم .

وجاء الوفد وتولى الحكم زعيمة ومعبوده السياسى مصطفى النحاس . . .

فماذا لقى الشيخ زكى ، الذى ظل يكافح ويصادم السلطات المصرية طوال العهد الدكتاتورى ، ويعمل كما كان يعمل أكثر الوفديين حماساً وتطرفاً لأعادة النحاس للحكم . . .

فماذا لقى الشيخ زكى من الأنصاف والتقدير على يد الوفد ، سواء عن جهاده فى السودان أو نضاله فى مصر ؟ ؟ لقد عينوه فى عام ١٩٣٦ فى وظيفة قاضى شرعى وفى أقصى مدن الصعيد ، أى فى نفس وظيفته التى فصلته منها حكومة السودان فى عام ١٩٢٤ . .

فأى شعور بالغبن والمرارة قد انطوت عليه نفس الشيخ زكى ، وهو يسافر الى اقاصى الصعيد ليتولى مهام وظيفته القديمة المتجددة ؟ ؟ ! !

لقد كانت صدمة قاسية له بلا شك . . وانى لاعتقد ان المرض العقلى الذى انهى حياة الشيخ زكى ، إنما هو نفس المرض الخبيث الذى كثيراً مايفتك بأمثاله من ذوى النفوس الكبيرة والطموحات العالية حينما تغدر بهم الأيام . . وتباعد بينهم وبين آمالهم . . انه مرض (البرانويا) أو الشعور بالغبن والاضطهاد . . نفس المرض الذى ألم

بالنابغة معاوية محمد نور واطفأ سراجه الوهاج ... رحـــم الله الشيـخ زكى .

مقهى متاتيا

وكانت هناك شخصيات سودانية تعودت الجلوس فى بعض مقاهى القاهرة فى الامسيات كالمرحوم بشير عبدالرحمن المهندس الزراعى . وكان مقره مقهى (متاتيا) غرب ميدان العتبة الخضراء فى قلب القاهرة ، والذى تبتدى منه وتنتهى اليه جميع خطوط مواصلات القاهرة ، مما جعل الوصول اليه سهلا لدى السودانيين حتى اصبحت متاتيا المكان المختار لابناء السودان من موظفين وضباط وطلبة وتجار ... فالتقينا فى متاتيا بشخصيات كثيرة أهمها وأكثرها أثراً فى حياة الطلبة السودانيين ، هو السيد محمد حسن خليل المعروف (بالزعيم) فى حلفا وهو من ابناء حلفا ومن موظفى حكومة السودان القدامى .. جاء بعد المعاش واقام فترة طويلة بمصر .. وكان شخصية ودودة محببة للنفوس بما حباه الله من خلال كريمة تستأثر بمشاعر أصدقائه ، وكان يحب النازحين من الطلبة ، ويتعاطف معهم ويشجعهم .. وما كادت مشاكلهم تتسع حتى رأينا محمد حسن خليل يشمر عن ساعد الجد ويطرق ابواب المدارس والمسئولين فى بداية كل عام ، ولايهدأ له بال حتى يرى جميع النازحين قد دخلوا مدارسهم .. وكان منزله فى بداية كل عام دراسى أشبه بالداخلية ، لكثرة ما به من الطلبة وكم كان يتكبد النفقات بالرغم من دخله المحدود ، حتى سموه (أبوالطلبة) ــ وكانت له أيضا دعابة يطلقها عند أعجابه بأى شخص ، فيقول لصاحبه : (الله لاشكرك) باللهجة السودانية المحببة ، فعرف بيننا بأسم (الله لا شكرك) وبعد آن عاد الى موطنه حلفا سمى بالزعيم ، لكثرة تفاعله

محمد حسن خليل (الزعيم)

مع الحركة الوطنية وقياداتها ، حتى تم إستقلال البلاد . . رحم الله محمد حسن خليل . .

سعد الدين الماحى

وفى متاتيا التقينا بشخصية أخرى تمثل لونا طريفا من الوان السودانيين بالقاهرة ذلك هو المرحوم سعد الدين الماحى الصايغ الذى ذهب الى مصر فى الحرب العالمية الأولى ولم يعد الى السودان مطلقا .. ولكنه كان يحتفظ بلهجته السودانية كاملة ، وكان كثير النكات والقفشات والتعليقات ويحب ، الطلبة السودانيين يجالسهم كثيراً ويعتز بهم كعنصر جديد يشرف السودان بمصر ، ويمحو آثار العناصر القــديمة . . وكان شــاعرا قومياً فحلا لايترك مناسبة وطنية تمر دون ان يسجلها . . « يؤسفنى ان لا أستطيع تقديم نماذج من شعره لضياعه من الذاكرة » . وقد كان يستطيع ان ينظم شعره ارتجالا فى أى غرض من اغراض الشعر .. ولن ينسى رواد (متاتيا) تلك الابيات الطريفة التى داعب بها سعدالدين صديقه وحبيبه قيلى احمد عمر ، على اثر استفزاز احد الزملاء للعم سعد الدين ، ولعله عقيل ، حين قال له فى تحد (الليلة عايزين نمتحن شيطان شعرك ياعم سعد . كدى قول لينا حاجة فى قيلى ده ..) وكان قيلى يجلس امام سعد الدين ، فطلب سعد ورقة وقلم واعطاها لقيلى نفسه وقد كان فى عنفوان الشباب وقلبه عامر بالحب وصبوان الشباب ... فاراد سعد ان يصف حاله ذاك فقال له :

حبك ما وقف يا قيــلى طبعك غلّبْ
وماك دارى العليك الفوق فؤادك صلّب
كل ما تشوف رقيق قلبك عليه اتعلبّ
زى ضكر الحمام شاف غير بريجــه وتلبّ

ولن ننسى ايضا مانظمه مرة أخرى فى احدى الامسيات (بمتاتيا) مداعبا به صديقه وحبيبه عوض عقارب الطالب بالازهر الشريف ، وكان يلبس الكاكولا والعمامة على الطربوش المغربى كمشايخ الازهر .. فطلبنا من العم سعد الدين ان يقول شيئا فى عوض عقارب ، ففعل بنفس الطريقة السابقة مع قيلى .. وقال فى هذه المرة ايضا: اكتب يا قيلى. فكتب ما وصف به سعد عوض عقارب ، وكان نحيف الجسم :

غينيـــك التقــوب * وايدك عنج سيطان الركوب
ورتابة شايلاها الهبوب * ما حضرت قسيم القلوب

ولم يقف سعد الدين عند هذا الحد لتأكيد شاعريته بل كان يمتعنا من وقت لآخر بقصص شائقة عن الشعراء القوميين بالسودان فى الجيل الماضى ، وعن جلساتهم وتحدياتهم لبعضهم البعض ، مما يثبت رسوخ قدمه فى ميدان الشعر القومى الشعبى ولازالت ذاكرتى تحتفظ له ببيتين غريبين من ذلك الضرب من الشعر الوعر الموغل فى الغرابة ، وذلك من كثرة ما كان يردده على مسامعنا العم سعد ، ولعله كان يتحدى بها زملاءه الاخرين فى القدرة على الإغراب فى الشعر. وقد نظمهما على طريقتهم فى التحدى ، فحشد فيهما كل ما امكنه من الفاظ وعرة حوشية بالغة الغرابة لكى يُعجز بها غرماءه وفقاً لمقاييسهم وطرقهم الخاصة «فى ذلك الزمان» فقال يصف بعيره ويطالبهم بفهمه ومجاراته على نفس النسيج الغريب:

أحدب وانكع وحاز حانكه
وبعيد وركه من جناح وزوره فانكيه
حنتوت أم تياب تيس أب عنج جانكية
ومفرود من تلوب قرح جبال شانكيه

رحم الله العم سعد الدين الشاعر الفنان بقدر ماأحب الطلبة السودانيين بالقاهرة واعتز بهم وأطنب فى تشجيعهم ، ودافع عنهم بشعره وهاجم خصومهم هجوما عنيفا فى كثير من الأحيان .

احمد الزبير (الطريفى)

ونلتقى فى (متاتيا) أيضا بشخصية ثالثة فكهة ذات مداعبات ونكات طلية عليها مسحة من الذكاء المرح ، هى شخصية أحمد الزبير أو الطريفى ،أحد أبناء الزبير باشا وكان وطنيا غيورا وعلى شيء من الثقافة أكسبه القدرة على طلاوة الحديث ونباهة النكتة ، وكان فى علاقاته يمثل ابن البلد السودانى : كرم ووفاء ومودة صادقة ، وكم كان ممتعا حينما يأخذ فى رواية أشعار خليل فرح ، بنفس نغمة الخليل ويشرح ويتحدث عن أخباره حديثا مليئا بالطرافة ، مما تزخر به حياة الخليل ، ولا عجب فاحمد الزبير يعتبر بحق من أكبر رواة خليل فرح ، وكم كان يعطر بذكراه أمسياتنا ، فيعمر بها قلوبنا ويعيننا على المسيرة ونحن فى أول الطريق من كفاحنا الطويل بمصر ، فكان أحمد الزبير أو الطريفى طاقة من المرح والضحك الهادىء ولا يكف عن تأليف القصص الفكهة . المسلية بطريقة خاصة به ، فيرتجلها إرتجالا ، وكان على لسانه دائما اسم « ود المدنى » وهو شخصية رمزية لا وجود لها ولكن الطريفى عندما يريد أن يعطى بعضاً من قصصه أهمية خاصة كان يسندها إلى هذه الشخصية فيقول (ودالمدنى) قال كذا وكذا . . . ومن

محمد ضرار .

الشخصيات التى إلتقينا بها فى (متاتيا) الاستاذ محمد ضرار من كبار موظفى وزارة الزراعة والمتحف الزراعى بالدقى ، وهو من العركيين الذين هاجروا إلى مصر فى القرن الماضى وأقاموا فى مكان يسمى بين السرايات يقع شمال جامعة القاهرة وقد جذبه إلى (متاتيا) زميله بشير عبد الرحمن المهندس الزراعى . . وضرار كان شخصية

رزينة وعلى قدر لا بأس به من الثقافة وقد حدثنا عنه بشير عبد الرحمن بأنه كان من علماء النبات الأفذاذ الذين يحتكم إليهم فى هذا العلم . ومما يدل على هذا فان وزارة الزراعة المصرية كانت توفده إلى مختلف البلدان لدراسة مناشطها النباتية . وقد شملت رحلاته كل مناطق العالم الزراعية فى كل القارات . . . كما أنه قد زار السودان عدة مرات فى الثلاثينات ، وتجول فيه عدة مرات وتفقد كل مناطقه النباتية وألف عن نباتاته عددا من الكتيبات وقد قدمت أنا شخصيا عددا منها لمكتبة نادى الخريجين بأمدرمان كهدية من الاستاذ ضرار فى مطلع الأربعينات ، كما أقام محمد ضرار ركنا خاصا بالسودان ونباتاته وصحراوياته فى مبنى المعرض الزراعى بالدقى ، وكان يتمنى أن لو اسعدته الظروف بوضع كل خبراته فى خدمة السودان والعودة إليه بعد استقلاله . . .

محمد المهدى الخليفة وعلى البنا :

وصل القاهرة فى أوائل عام ١٩٣٥ الاميرلاى على البنا وبعده السيد محمد المهدى الخليفة عبد الله ، بعد أن خرجا من السجن الذى حكم عليهما به فى ظروف ثورة عام ١٩٢٤ . . وكان على البنا أحد الأربعة ضباط الذين حكم عليهم بالإعدام عقب معركتهم مع الجنود الانجليز فى ملحمة نوفمبر العسكرية أمام كبرى الخرطوم بحرى ،حيث منعهم الانجليز من الذهاب للخرطوم بحرى والانضمام للجيش المصرى — ولكن على البنا قد أنقذ فى الدقائق الأخيرة . . ونفذ الإعدام بالرصاص على زملائه الثلاثة ثابت عبد الرحيم وسليمان محمد وحسن فضل المولى . . بعد أن أمضى على البنا مدة السجن فى واو بجنوب السودان ، جاء إلى القاهرة وأقام بها فترة ثم ذهب إلى الاسكندرية حيث عين فى الجيش المصرى ضابطا عظيما أما محمد

المهدى الخليفة فقد جاء إلى مصر بعد أن قضى فترة السجن أيضا بجنوب السودان ، فأقام بالقاهرة وأخذ يزاول بعض النشاط في الامور السودانية العامة . . ولم ينضم للنادى السودانى بل أنشأ له ناديا أسماه « اتحاد مصر والسودان » والتفت حوله شخصيات غير مرموقة . . وبحكم المعنى الذى كان يحمله اسم النادى كان أعضاؤه خليطا من المصريين والسودانيين ، ومن هؤلاء السيد عيسي يول أحد أصدقاء محمد المهدى البارزين وهو من أبناء جنوب السودان من أعالى النيل ، وقد تعلم فى قسم العرفاء بكلية غردون بالخرطوم ، وكان على صلة بالامير عمر طوسون ثم بالمرحوم عبد الحميد سعيد رئيس جماعة الشبان المسلمين ، وكان عيسى من الوطنيين المتحمسين ، وكان يتردد على أماكن السودانيين ويتبادل معهم الحديث عن السودان والحركة الوطنية وعندما جاء وفد السودان إلى القاهرة فى عام ١٩٤٦ ، قرر ضم عيسى يول إليه كممثل للجنوب . . وقد لا تخلو شخصية عيسى من الطرافة ، فهو أولا طويل القامة لدرجة ملفتة وقد لا يكون ذلك ملفتا فى أعالى النيل ، أما فى مصر حيث الطول هو النادر ، فقد كان طول عيسى ملفتا حقاً ، وإذا أضفت إليه ذلك الطربوش الطويل الذى كان يضعه على رأسه ، يمكنك أن تتصور مدى ما كان يثيره من فضول فى الشارع المصرى ، وخاصة فى الأحياء الشعبية وأهلها الذين لا يكفون عن المداعبات المرحة لأتفه الأسباب . . فما بالك إذا رأوا عيسى يول بطوله الفارع وطربوشه العجيب ولونه الأسود وبدلته السوداء . . حكى أحد الطلبة أنه رآه مرة يسير فى أحد شوارع حى الحنفى وهو حى بلدى عريق ، يقع شمال حى السيدة زينب ، وكان الشارع ضيقا ولكنه عبارة عن سوق مزدحم ، وفى جانبيه الحوانيت ، وما كاد بعضهم يرى عيسى حتى أخذ يصيح لكى يخرج الآخرين من حوانيتهم لمشاهدة المنظر الذى لم

عيسى بول .

يسبق له رؤيته . . وانهالت التعليقات والنكات فمن قائل (مسلة فرعون ياأولاد . . .) ومن قائل (أمتى حتطرح النخلة دى . .) ولكن عيسى نفسه كان يحب النكتة ومن طرائف عيسى أنه لايكاد يجلس مع طالب سودانى حتى يأخذ فى الحديث عن الوطنية ويسترسل ما شاء له الاسترسال ، رغبة منه فى أن يرى كل أبناء السودان مجاهدين يقومون فى القريب العاجل بالحملة المقدسة لاخراج الإستعمار من ديارهم وفى أحد الأمسيات جلس ,, خاطر أبوبكر ،، فى مقهى الحرية بميدان ابراهيم باشا ، والذى كان يجلس فيه بعض السودانيين مع أصدقائهم المصريين . . جلس خاطر منفردا فى انتظار منصور أحمد الشيخ ، الذى كان على ميعاد معه ، ويبدو أنه هام ، وقد تأخر منصور بعض الوقت ، وبدأ خاطر يقلق ويعدّ الدقائق ولسوء حظه ، مر به عيسى بول فوجد المقعد بجانبه خالياً فجلس . . وكالمعتاد أخذ يمارس هوايته على خاطر ، وخاطر منصرف عنه بميعاده الهام الذى كاد يضيع بعدم حضور منصور ، ولكن عيسى كان يلفت خاطر بأصبعه لكى يستمع إليه . . والدقائق تمر بطيئة ، ومنصور لايحضر . . فتوترت أعصاب خاطر حتى بلغ حد الانهيار ولم تحتمل أعصابه استرسال عيسى فانهمرت دموعه ، وأخذ يبكى فى صمت متشنج ، وعيسى مستمر . . . .

وفجأة ظهر منصور ، وماكاد يلمحه خاطر ، حتى هب واقفا كأنما هو يستنجد به وصاح فى صوت متحشرج أشبه بمن يصحو من كابوس مزعج . . واندهش منصور للمنظر ولم يفهم شيئا . . ولكنه بعد أن ألقى نظرة إلى عيسى ، ادرك ضرورة الانصراف فورا بخاطر ، فاستأذن من عيسى وانصرف بخاطر . . .

الشيخ الصائم :

كان المرحوم الشيخ عبد الرحمن الصائم من ألمع الطلبة فى الأزهر وبين الذين يهتمون بالقضايا العامة ، وله نشاط ملحوظ فى كل مجالات العمل من أجل السودان ومصر ، وكان له ميل خاص للصحافة وقلمه لايكف عن الكتابة سواء فى السودان أو فى مصر .. لذلك تراه يقوم باصدار جريدة (الأيام) عام ١٩٤٧ فى القاهرة ويخصصها لخدمة قضايا السودان ، غير أنها لم تدم طويلا .وكان للصائم علاقات وصداقات مع شخصيات كبيرة عرفت بتعلقها بالسودان ، مثل اللواء محمد نجيب الذى أصبح أول رئيس لجمهورية مصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ . ومما يدل على ثقة محمد نجيب المطلقة فى الشيخ الصائم انه كان يلتجىء إليه ويختبىء فى منزله بعض الأحيان أيام علاقاته المتوترة مع الملك فاروق وماكان يدور بينهم من صراعات قبل الثورة ... وليس محمد نجيب وحده الذى كان يثق فى الشيخ الصائم ، بل هناك شخصيات كان لها خطرها فى حلبة الكفاح الوطنى لتحرير مصر ، ومن هؤلاء الرئيس انور السادات ايام تشريده ومطاردته .. حيث كان يأتى سائقاً لعربة لورى ضخم الى منزل الشيخ الصائم ويختبىء به ايضاً ما شاء له الإختباء ، وكذلك كان شأن آخرين مثل الطيار حسن عزت وزملائه الذين كانوا يسرقون الإسلحة من الجيش البريطانى فى القنال ويخبئون بعضها فى منزل الصائم ، وكان موقعه بعيداً فى حى روض الفرج ، ومن الغريب ان اسم الشارع الذى يقع فيه منزل الصائم اسمه (صائم الدهر) .. وكم قضينا ايام الجمع فى ذلك المنزل ، حيث كان يعد لنا الصائم أقداح (الفتة) المكونة من (الكسرة) المجففة التى كان الصائم يحضر منها كميات كبيرة من السودان ، وكانت تلك الشخصيات المصرية الكبيرة تتذوق فتة الكسرة وكأنها اشهى طعام ..

محبأ لقادة النضال .

وفى مقهى (متاتيا) ايضاً كنت المح من وقت لآخر بعض الضباط السودانيين الذين هاجروا لمصر عقب ثورة ١٩٢٤ وبعد ان رفضوا يمين الولاء للحاكم العام البريطانى، امثال السيد – شحاته وسيف عبدالكريم وخضر على وكان يحضر ايضاً ابنه على الذى كان قد تخرج حديثاً من المدرسة الحربية بمصر ، وقليلا ما كان يحضر المرحوم ادريس عبدالحى احد طلبة المدرسة الحربية الذين قامت على أكتافهم ثورة ١٩٢٤ وكذلك اخوه عبد العزيز عبد الحى الذي أصبح مديراً لاسوان فى مطلع ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وكذلك البكباشى حسين سعيد الذى كان يبدو على شيء من الاطلاع وقراءة الكثير من الكتب .. وكنا نلمس فى آرائه الكثير من التحرر والانطلاق والجدية وكان يحضر الى (متاتيا) ايضاً من الموظفين حسان خيرالله وعكاشة ادم..

والواقع ان اختلاف رابطة الطلبة مع النادى السودانى كان له اكبر الأثر فى اقبال السودانيين على مقهى (متاتيا) وتجمعهم فيها بتلك الصورة التى جعلتها مركزاً لهم فى الأمسيات ، حتى أن خطاباتهم الخاصة كانت ترد اليهم بمتاتيا. وبجانب ذلك عوامل أخرى منحت متاتيا جاذبيه خاصة ، منها موقعها المتوسط القريب من المواصلات لجميع الإتجاهات ، ومنها تواجد بعض المواطنين الكبار كمحمد أفندى حسن خليل المعروف بـ (الله لا شكرك) والمرحوم بشيرعبد الرحمن والمرحوم حسن مصطفى بشير وحسين منصور .. ولمتاتيا أيضا خلفيات تاريخية عظيمة ، كانت تجعل لها فى نفوسنا مكانة خاصة .. فقد كانت ملتقى لأكبر وأعظم قادة الفكر والسياسة فى مصر ، فى نهاية القرن الماضى والربع الأول – للقرن الحالى .. كجمال الدين الأفغانى والأمام محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وعبدالعزيز البشرى وحافظ ابراهيم وغيرهم .. وحتى جرسونات

خلفيات تاريخية لمتاتيا

«متاتيا» الأغريق كانوا يبدون وكأنهم سودانيون لكثرة ما أقاموا في السودان . .

ولاأظن ان احدا ينسى الخواجة بنيوتى المرح المداعب حين ارسل نكتته المشهورة التى تدل على كثرة السودانيين (بمتاتيا) ايام الحرب الأخيرة ، فقدسئل مرة فى ايام الحرب عن تعداد سكان السودان فقال : السودانيون ثلاثة ملايين ، مليون فى السودان ومليون فى الصحراء الغربية ، ومليون فى متاتيا . . تعبيراً عن كثرتهم بمتاتيا . .

عودة الدرديرى من انجلترا .

قبل ان يتم لنا التجمع فى متاتيا ، عاد من انجلترا الأستاذ الكبير الدرديرى أحمد أسماعيل فأحتفلت به رابطة الطلبة فى أحد المقاهى الكبيرة . . كما جاء زائرا للقاهرة الأستاذ عبدالرحمن أحمد رئيس تحرير جريدة «السودان» التى كانت تصدر بالخرطوم، فاحتفلت به الرابطة وكرمتـــه ، وكانـــت لا تـــزال بالنـــادى السودانـــي وقد أرسل لنا خطاب الشكر التالى من الخرطوم (انظر الوثائق) . كما احتفلت الرابطة باول بعثة لطلبة كلية الآداب القاهرية وأساتذتهم، بعد عودتهم من السودان عام ١٩٣٨ فى الصالة الكبرى بالجامعة . كذلك أقمنا أحتفالا ضخماً بحديقة الأزبكية ، تكريماً لبشير محمد خير بعد تخرجه من كلية الحقوق وأعتزامه العودة للعمل بالسودان . . فذهب اليه ، ولكنه ما لبث أن صدم هناك ، فعاد لمصر وبقى بها حـــتي أعلان أستقلال السودان ، فعاد اليه مرة أخرى وعمل مستشـــاراً قانونياً بمكتب النائب العام ، وبقى به حتي توفاه الله . . .

حوليات عقيل

ومن طرائف متاتيا أيضاً حوليات عقيل . . تلك القصائد الشائقة التى كان ينظمها د. عقيل آخر كل عام، ويسجل فيها ما يطيب له من أحوال السودانيين بمصر ، فى اسلوب فكه ملىء بالطرافة وخفـــة الروح . . وكم انا آسف ان لاأجد من نصوصها ما أقدمه لقراء هذه

المذكرات . . ويالهفى على تلك الأمسيات الجميلة التى كنا نجلس فيها حول عقيل وهو يتحفنا بحولياته وفى أحداها يذكر يوم جاء الحاكم العام لمصر ، وأبدى رغبته فى مقابلة السودانيين بمصر والأستماع اليهم ، فلبى دعوته بعض الطلبة الأزهريين وقدموا له مطالبهم . . فلم يرض عقيلا هذا التصرف من الأزهريين . فبدأ حوليته تلك المرة بذكر هذه الواقعة فقال :—

سبحان من قسم الشقاء على بنى السودان اجمع
من كل أشعث لا يرى الا مرقع

الى أن يقول :

قالوا غذاء الروح
قلت الفول روحكم الموزع

وذكر قولهم للحاكم العام (نريد ان يكون لنا حظ فى الوظائف فى السودان) . فقال عقيل : «قالوا لنا حظ الوظائف فى تنطع»

وفى حولية أخرى نرى عقيل يداعب صديقه قيلى أحمد عمر ، وكان قد أختفى فترة ، ولم يعرف أحد منا اين يسكن ، ولكن عقيلاً لشدة ولعه بأكتشاف الأسرار ، قام بمتابعته مرة على البعد ، حتى عرف انه يسكن فى شارع الكوة بحى غمرة ، وكان قيلى قد اشاع أيضاً انه ذاهب للعراق للالتحاق بجامعتها ، ولكن الطلبة أتخذوها نكتة ، فقالوا أنه ذاهب ليداوى ليلى المريضة ، وذلك من وحى المقالات التى كان يكتبها فى تلك الأيام الدكتور زكى مبارك بعنوان (ليلى المريضة بالعراق)، فسجل عقيل كل ذلك فى حوليته هذة المرة . . . واذكر منها قوله لقيلى بعد أن أكتشف مكان سكنه :

سكنت (غمرة) حتى أصبحت فى غمرات
وأخترت عيش البواكى فى أظلم (الكوات)
طبيب ليلى المريضة . . على ضفاف الفرات

وفى حولية ثالثة يمازح أحد زملائه لعله الدكتور بشير البكرى ويذكر له بعض صبوات الشباب . . ولا يحضرنى منها إلا قوله :

لم يبق لى من حبى * الا شحاتة الكتبى

وهو كناية عن محبوبتة التى كانت بجوار (شحاتة الكتبى) تاجر الكتب المصرى ، الذى كان يعيش بامدرمان الى أوائل الثلاثينات ثم رجع الى مصر ،وكان قيلي أيضاً قد ذهب الى الأسكندرية والتحق بجامعتها ، فسجل ذلك عقيل فى نفس الحولية ،ولايحضرني غيرقوله:

ولى (ابو الأقيال) الى جهات الشاطبي . «حي بالاسكندرية» معروف . . . .

اتساع المجال لنشاط الرابطة

ومع هذا لم تكن متاتيا مقراً وحيداً لرابطة الطلبة ، فقد كانت للرابطة أماكن مفتوحة لها على الدوام ، مثل (رابطة الشباب العربى) التى كان يرأسها شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، وكان أمينها العام الأستاذ أحمد ربيع المصرى الموظف بوزارة الأوقاف . . فقد كنا نعقد اجتماعاتنا هناك ،وكذلك كان نادى (أتحاد الجامعة) بشارع المناخ مكانا آخر لمؤتمراتنا الموسعة ، كمؤتمر تطوير معهد أمدرمان العلمى ،وأنشاء جامع جوبا فكانت إجتماعاتنا الكبيرة تعقد مرة هنا ومرة عند طلبة الأزهر السودانيين بسكنهم بحارة ام الغلام بحى الأزهر . . وبقدر ما كانت تزداد جاذبية متاتيا ،كان النفور من النادى السودانى يزداد كل يوم ، حتى فقد سحره نهائيا بين أبناء السودان . وحتى بعد ان قامت شخصيات كبيرة كالمرحوم السيد عبدالله الفاضل ، وكذلك المرحوم السيد عبدالله أباظة الوزير المصرى الأسبق ، بالوساطة لأنهاء الخلافات ،ونجحت الوساطة والتقت كل الأطراف حتى بعد هذا حدث الأختلاف مرة اخرى ،ويكاد يكون لنفس الأسباب السابقة — وعندئذ لم نجد فى انفسنا ميلا للتجمع فى النادى

عزوف السودانيين عن النادى .

السوداني بل وجدنا عزوفا ليس منا فقط ولكن من المتعلمين والوطنيين بوجه عام ،من امثال بشير عبدالرحمن ومحمد حسن خليل وحسن مصطفى بشير وحسين منصور وبشير محمد خير . .وكان الشعور السائد بيننا ان وكالة حكومة السودان قد بثت بين اعضاء النادى كثيراً من عيونها وارصادها وعملائها ، والهدف الحقيقى للوكالة هو مراقبة نشاط رابطة الطلبة واعضائها ، لقدومهم حديثاً من السودان ، ولاعتبارهم امتدادا للتحركات الوطنية فى داخل السودان فى ذلك الوقت. كما كانت الأخبار السرية تصلنا من الوكالة وتؤكد لنا ان كل واحد منا له ملف خاص كتب عليه (R-H) اى قبعة حمراء . . وهكذا أصبحت علاقة الغالبية الساحقة منا بالنادى السوداني شكلية بحته . . واذكران خطابات كثيرة جاءتنا من السودان تنصحنا بالإبتعاد عن النادى ، كما كتب بعضهم بذلك فى صحفنا المحلية بالخرطوم محذراً لنا من النادى السودانى ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ أمين بابكر «ابن الشعب» وقد اشترك فى مناقشة صحفية بهذا الخصوص مع آخرين منهم الأستاذ يحيى عبد القادر .

صالح وكالة حكومة السودان

ولكننا بعد هذا كله لاننكر ان النادى السودانى قدم للطلبة السودانيين وللرابطة خدمات كبرى ،وخاصة فى عهده الأول برئاسة المرحوم على البرير ..فقبول اول فوج من الطلبة النازحين فى المدارس المصرية الحكومية كان على يد النادى ، كما ذكرت سابقاً ، وكذلك مؤازرة النادى لرابطتنا فى محاولاتها الأولى فى الدعاية للسودان وتحسين صورته فى المجتمع المصرى ،اذ كان النادى سنداً قوياً لها لمواصلة نشاطها، واخيراً فان المرحوم على البرير نفسه قد احس باليد الخفية لوكالة الحكومة السودانية والتى تعمل فى داخل النادى ،فابتعد هو نفسه من النادى ،وسرعان ماالتقينا معه واخذنا نتعاون فى امور

هامة جداً ، كمجلة السودان ولجنة التعليم وانشاء بيوت السودان وشئون الطلبة عموماً .. ثم الشئون السياسية والوطنية والدعائية والاعلامية . .

صدمنا بالصورة المشوهة للسودان في المجتمع المصرى

واكثر ما كان يصدمنا فى ايامنا الأولى ،ونحن نتعرف على مجتمع القاهرة هو نظرة المصريين للسودان ،وما كانوا يحملون له فى اذهانهم من صور شوهاء يرفضها شعورنا وتأباها كرامتنا ،وكم كنا نثور ونضطرب ونندفع بحماس بالغ فى مهاجمة اى شيء يسيء الي سمعة السودان ونحمل على المصريين حملة شعواء ونحملهم المسئولية .. ولكننا عندما تقدمنا فى معرفة الأحوال ودراسة المشاكل تبين لنا انه من الضرورى ان نشرع فى اتخاذ وسائل عملية لإزالة ما نشكوا منه فالمصريون وغيرهم قد ترسبت فى اذهانهم مورثات قديمة عن السودان فالسودان منذ قرون كان يصدر لهم العبيد ، كما تصدر لهم بيئاته الفقيرة المجدبة من يقومون بخدمتهم فى البيوت ويؤدون الخدمات الصغيرة الأخرى ،كما ان الإستعمار في العصر الحديث قد اقام بيننا وبينهم الكثير من الحواجز والسدود التى تحجب كل شيء جميل في السودان عن المصريين ، كما تفعل نفس الشيء مع السودانيين فى مصر والمصريين ،ولكن الفرق شاسع بين البلدين فليس للسودان مايمكنه من اتخاذه مادة للدعاية كالإنتاج الصناعى او الزراعي او الفكرى ، مما يمكن تصديره للخارج للقضاء على تلك الموروثات القديمة لمناهضة الجهود الأستعمارية الخبيثة الرامية الى الخلط والتشويه .

ومن جهة اخرى فان السودانيين بمصر كانوا يمثلون خليطاً عجيباً ،فكان كل اسمر او اسود هو سوداني ،وما أكثر ابناء الصعيد السمر ،وما اكثر ابناء اسوان، اما جنوب اسوان فبعضهم أكثر سواداً من ابناء جنوب السودان ،، ولكنهم جميعاً محسوبون على السودان .

ومن جهة اخرى فهناك مجموعات من بقايا الجنود الذين جلبهم محمد على باشا وغيرهم من ابناء جنوب السودان وبلاد النوبة، الذين عاشوا اجيالا طويلة بمصر، يلازمهم التخلف وانخفاض مستوى المعيشة.. فهذا الخليط الهائل من اشباه السودانيين ،هو الذى كانت تقع عليه اعين المصريين لاجيال عديدة . . ومن المؤلم ان ذلك الخليط كانت له فرق للغناء وللرقص تدعى فى الأفراح والمناسبات العامة والمسارح لتقدم أدوارها السودانية ! ! !وكانت تأتى من ضاحية الخرطة بالأمام الشافعى او من حى المحمدى او من احدى خفايا القاهرة فتقدم اقبح ادوار التخلف وتغمر اذهان الناس باشكال سخيفة غاية فى الغرابة والشذوذ . . ملابس قذرة والات واسلحة بدائية ،كانما قصد بذلك كله اثارة الضحك فقط . . واذكر اننا مرة كنا فى احد الاعياد القومية مع بعض زملائنا من مصر والبلاد العربية الأخرى ،نمر بتشكيلات مختلفة من الاستعراضات ،التى اعدت فى ميدان فسيح ، أبتهاجاً بذلك العيد (عيد الوطن الإقتصادى)، ولحظنا التعس ،وقفنا امام احدى الفرق السودانية بكامل عدتها المدهشة ، من مظهر رث قبيح لمخلوقات تعسة للغاية وبجانبها طبل قديم (نقارة) وبايديهم انواع اخرى من ادوات موسيقية بدائية بالية ،وتتخللهم اوانى بدائية قذرة لشرب المريسة . . . فاسقط فى يدنا واصابنا الوجوم امام زملائنا ونظراتهم التى كانت تخفى الكثير من الفضول والإستغراب ولحداثة سننا فقد بهتنا بذلك المنظر المخزى، ولكننا اخذنا نشرح لهم بأن هؤلاء لايمثلون السودان الحديث وانما يمثلون آباءهم واجدادهم الذين عاشوا فى الأماكن النائية فى الغابات واطراف السودان . ووعدناهم باننا سوف نعمل على ازالة تلك المناظر المؤذية وتقديم بديل لها قريباً انشاء الله . . فما كان من اولئك الزملاء الا ان وجهوا

لنا السؤال الهام : وهل ستقومون حقاً بتقديم البديل ؟؟ فقلنا لهم نعم وفي اول مناسبة تعرض لنا ان شاء الله .

بداية أعمال الدعاية لسودان.

وكانت اول مناسبة امامنا هى اقامة المعرض الزراعى الصناعى الأول الذى اقامته الجمعية الزراعية الملكية برئاسة فؤاد اباظة باشا فى مطلع عام ١٩٣٦ وكان المعتاد فى مثل ذلك المعرض الكبير ، ان يقام فى احد ايامه كرنفال كبير يتكون من عدد من التماثيل والرموز المقامة على هياكل تجرها السيارات وكانت تعمل ذلك الهيئات والأندية والشركات والمصانع ،ثم تسير تلك الهياكل والرموز فى شكل موكب كبير يحمل كل واحد منها اسم وشعار الجهة التى ينتمى اليها . . ويمر الموكب بالشوارع الرئيسية. وتجلس فى النهايه لجنة كبرى للتحكيم ومنح الجوائز والأنواط للفائزين . . وهكذا وجدنا انفسنا فى رابطة الطلبة السودانيين ، نقف امام اول امتحان عملى ، لعرض صورة السودان الحديث، وازالة مانشكو منه فى المجتمع المصرى .

وهنا اسجل ان النادى السودانى ، او فى واقع الأمر، على البرير شخصيا ، قد اخذ بيدنا وآزرنا اكبر مؤازرة . فقام باتصالات واسعة سواء مع ادارة المعرض او مع الجهات الفنية الأخرى ، كاساتذة معهد الفنون الذين ساعدونا ، اولا على وضع فكرة الرمز الذى مثلنا به السودان فى ذلك المعرض الضخم ، ثم قدموا لنا كل شيء بعد ذلك فيما يتعلق بالتصنيع والإخراج.. ولن انسى ابداً عميد مدرسة الفنون ، محمد حسن بك ، الذى كان يجلس الساعات الطوال ، يخطط ويوجه ويلون فى الرمز الخاص بالسودان حتى اللمسات الاخيرة .

وقد تم الاتفاق على صنع تمثال للسيد قشطة (القرنتية) بحجمها الطبيعى، يثبت على هيكل عال ، ثم يرفع على ظهر عربة

ليراه الناس من بعيد ويكون فمه مفتوحا يخرج منه مايشبه نهر النيل ، الذى يتدفق من اعلى الى اسفل حتى يصل شمال الوادى ، مكونا المزارع ثم المصانع ... وقد وقف على احد جوانبه فلاح سودانى وفى الجانب الاخر فلاح مصرى يتصافحان .. فكان منظراً فريداً اخاذاً ، عبر عن اتحاد الشعبين وتكاتفهما . وكانت لجنة التحكيم تجلس فى حديقة الازبكية وعلى رأسها الزعيم الجليل مصطفى النحاس ، ثم مكرم عبيد وكبار رجالات مصر .

ومر الموكب الفخم امام تلك اللجنة ، وما ان وصلت العربة التى تحمل رمز السودان حتى دوى المكان بالتصفيق وصيحات الاعجاب .. وما اسعدنا فى تلك اللحظة التى كدنا ان نطير فيها من الفرح ، فقد نجحنا فى الامتحان . وشاهد مجتمع القاهرة لاول مرة شباب السودان لا كما كان يشــاهده فى الماضى فى مثل هذه المناسبات ، كمهزلة تثير الضحك والسخرية ، بل رآه هذه المرة يستطيع ان يقف مع الاخرين موقف الند ، بل موقف المتفوق .. وفعــلا كان ترتيب رمــزنا الاول مــع دبلوم التفوق ..

وخرجنا من الاحتفال فى نشوة غامرة لنتلقى التهانى والاعجاب من كل مكان ... ولايفوتنى ان اذكر تلك القصة الطريفة المعبرة (للشيخ) يحى فضل المولى احد اعضاء رابطة الطلبة السودانيين ، حينما كان يتجول داخل حدائق المعرض الزراعى المشاراليه فشاهد منظراً كان عبارة عن غرفة من القش بصورة بدائية جداً وحولها المقاعد البدائية ايضاً ، وكتب على مدخلها (قهوة سودانية) فما كان من (الشيخ يحى) الطالب بالأزهر انذاك ، الا ان اندفع نحو القهوة العجيبة واعمل فيها عصاه الغليظة ، ولم يتركها حتى اصبحت اشلاء

على الأرض . . فكان مسلكاً معبراً تماماً عن شعور زملائه من أبناء السودان .

قلق وكالة السودان من نشاط الرابطة .

كانت وكالة حكومة السودان بالقاهرة وعلى رأسها المستر لاش ترقب باكورة نشاطنا بعين ساهرة كما اشرت سابقاً ، وتتحسب المستقبل فيما لو قدر لنشاطنا ان يظل متخذاً من النادى السودانى قاعده له ، وهكذا احست الوكالة بالخطر ،فأخذت فى بذل الجهود الخفية ، للاطاحة بالرابطة بعيداً عن النادى.وتم لها ذلك بالانقسام الذى حدث . . ومن اسباب قلق الوكالة اننا انشأنا شعبة للنشر والإعلام فى الرابطة على رأسها قيلى أحمد عمر وعوض عقارب وقد ازعج وكالة حكومة السودان كثيراً ،ان هذة الشعبة اخذت تنشر من وقت لآخر فى بعض الصحف شذرات عن الرابطة واهدافها ،وما كسبته من صداقات مع بعض الشخصيات السياسية والأدبية .وكذلك ما كانت تقوم به من جهود للتعريف بالسودان وازالة ما علق بالأذهان من صور شوهاء عنه وعن اهله ،مما ظل الأستعمار يستغله لاغراضه السياسية . .

الزى القومى :

ومن اهم الأعمال التى بدأنا نمارسها فى النادى السودانى ، التفكير فى الزى القومى والقومية السودانية .من اجل القضاء على النعرات العنصرية والقبلية ، وكان اول نداء وجهناه فى الصحف هو العمل على توحيد الزى السودانى كمظهر اساسى للقومية السودانية التى كان جيل ذلك العهد يبذل كل طاقاته فى البحث عن مقوماتها . . وقد عبر عنهم المرحوم يوسف التنى احد حداة القومية ، اصدق تعبير فى قصيدته الوطنية المعروفة :

فى الفؤاد ترعاه العناية * بين ضلوعى الوطن العزيز

حيث قال :

نحن للقــومية النبيلة * مابندور عصبية القبيلـــة
تربى فينا ضغاين وبيلة * تزيد مصايب الوطن العزيز
مالنا ومال تاريخ القبيلة * نحـــن شعبة وحيدة واصيلة
علمونا جديده وقبيله * كأمة واحدة فى وطن عزيز

تأييدات من السودان .

وجاءتنا خطابات كثيرة من السودان تحمل مقترحات لتوحيد الزى السودانى أذكر منها أقتراح الدكتور محمد على أحمد الذى كان طالباً بكلية غردون فى ذلك الوقت عام ١٩٣٥ وهو عبارة عن صورة لطالب سودانى بعمامة وجلابية يحمل فى يده اليمنى مصباحاً (تورش) وفى اليسرى كتاباً .. . كما ان الغيورين فى السودان قد وجدوا فى تحركات الرابطة متنفسا لهم ،فكتبوا لنا لنقوم بمحاربة بعض الأمراض الأجتماعية الوافدة على السودان ، كما فعل المجاهد الكبير المرحوم حاج الشيخ عمر دفع الله ،حيث كتب لنا حاسا عل محاربة البدع وخاصة آفة (التم تم) التى اجتاحت العاصمة السودانية فى تلك الأيام ، لما فى التم تم من تهتك وأستهتار بالأخلاق. . .

نافذة للسودان .

والواقع ان الركود الذى كان مخيماً على السودان فى اوائل الثلاثينات وعدم التمكن من الجهر بالأفكار الوطنية والإصلاحية الجريئة ،قد جعل لصوت رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة صدى واسعاً فى النفوس ولفت إليها الأنظار وأصبح الكثيرون ينظرون اليها كنافذة يطلون بها على عالم اوسع ويسمعونه أصواتهم . . ولو تصفحت صحف تلك الأيام للمست مدى ما كان يوليه الراى العام من أهتمام لتلك الرابطة .

وحين حدث الخلاف بين الرابطة والنادى كما سأوضحه فيما بعد، نجد الصحف لا تكف عن الكتابة فى هذا الموضوع بين مؤيدين

للرابطةومحذرين لها من البقاء فى النادى. بين جواسيس وكالة حكومة السودان وقليل ممن كانوا ينصحون لنا بالبقاء فى النادى مع الإبتعاد عن السياسة وعن الأضواء وعدم تعريض شخصياتنا للخطر فى ذلك الوقت المبكر (انظر الوثائق) . وكان ذلك كله يزيد من قلق وكالة حكومة السودان بالقاهرة وتخوفها من هذه الرابطة التى اخذت تنمو وتتطور الى شىء غير مرغوب فيه . . كذلك أخذت الوكالة تعد العدة كما ذكرت للايقاع بيننا وبين أدارة النادى السودانى بالقاهرة . . وقد واتتها الفرصة يوم ان مرت أحدى المظاهرات الوفدية بميدان سليمان باشا فتوقفت امام النادى لتحيته ،وهو أمر طبيعى من حزب الأغلبية أن يحى السودان فى شخص ناديه بالقاهرة كشىء جديد يستحق التحية . وكان طبيعياً أيضاً أن نخرج من النادى لرد التحية للمظاهرة . . فوقفنا فى شرفة النادى السودانى وقمنا بواجب رد التحية ، ونشرت الصحف فى اليوم التالى خبر وقوف المظاهرة امام النادى لتحيته ووقوفنا نحن لرد التحية لها . . فثارت وكالة حكومة السودان واتصلت بالنادي محتجة على ان الطلبة يتخذون النادى قاعدة لنشاطهم السياسى ،ولعلاقاتهم مع الشخصيات والهيئات السياسية . وقد تحرك أعوان الوكالة بالنادى واتهموا الطلبة بمخالفة لائحة النادى . . وقد حاول الطلبة عبثاً إقناعهم — وكثيراً منهم عوام بسطاء — بأنهم لا يعملون بالسياسة داخل النادى . . وأما آداء التحية للمظاهرة فهو واجب أدبى تفرضه علينا تقاليدنا ، وخاصة اننا ضيوف فى القاهرة ، وأما علاقاتنا خارج النادى فهى بصفة شخصية وليس باسم النادى أطلاقاً . ولكن لا فائدة . . فهى فرصة للوكالة وعملائها لأسكات الرابطة ووقف نشاطها وفصلها عن النادى ،وهذا ما تم بالفعل فقد فصل الطلبة من النادى لعدم خضوعهم للائحة . ومن أطرف ما حدث أن أحد العوام من أعضاء أدارة النادي قال لنا فى

ثورة الوكالة وفصل الرابطة من النادى .

معرض النقاش وبلهجته العامية : (أنتوا خالفتو القانون وأحنا كمان طبقناكم على القانون) ! ! فصل الطلبة لعدم خضوعهم لتلك اللائحة التى وجدوا فيها تضييقاً شديداً يحد من عزمهم ويعوق نشاطهم فى العمل لتنفيذ برامجهم التى وضعوها للتعريف ببلادهم ، فرفضتها رابطة الطلبة ، فأرسل لهم النادى خطابات بفصلهم لهذا السبب (انظر الوثائق) نشرت الرابطة بياناً فى الصحف (انظر الوثائق) .

والآن أود أن أعود مرة أخرى لفترة ما قبل عام ١٩٣٦ لشعورى بضرورة إعطاء القارىء صورة أكثر تكاملا عن تلك الظروف والعوامل التى أثرت فى مجرى حياتنا فى مصر . . وأذكر من ذلك شيئا كنا نقبل عليه باهتمام متزايد فى أول عهدنا بالقاهرة . . ذلك هو المحاضرات والمناظرات والندوات التى كان يقدمها كبار الأدباء والكتاب والمفكرين أمثال طه حسين والعقاد وهيكل وغيرهم من رجال الجامعة وقادة الفكر . . وقد كنا فى السودان نقرأ لهم على حداثة سننا ،وكان من أعز أمانينا أن يسعدنا الحظ برؤيتهم والأستماع اليهم من قرب ،فكنا فى ايامنا الأولى نتتبع تلك المحاضرات بشغف بالغ ونذهب اليها أينما كانت مشياً على الأقدام لأننا لم نكن نملك ثمن المواصلات . . . ولاتعجب اذا قلت أننا نمشى لها من منزلنا بالعباسية الى قاعة أيوارت الملحقة بالجامعة الأمريكية بشارع قصر العينى بالقرب من ميدان التحرير الحالى ثم نعود الى منزلنا بعد المحاضرة على أقدامنا أيضاً . . وقاعة ايوارت كانت من اكبر الجهات التى تنظم المحاضرات فى القاهرة ،وكان لها برنامج موسمى تحشد له أكبر العلماء والمفكرين وأصحاب الأقلام ، لكى يتناولوا مشاكل المجتمع المصرى والعالمى على أختلافها . . وتعد فى أول كل موسم بطاقات بارقام متسلسلة تحمل كل واحدة منها اسم المحاضر مع التاريخ وميعاد المحاضرة وتقدم هذه البطاقات لكل مشترك ، فكنا

شغفنا بالمحاضرات العامة والندوات والمناظرات.

نسارع لدفع الاشتراك وقيمته ٣٥ قرشاً وتحصل على تلك البطاقات التى كنا ننظر اليها كشىء ثمين جداً . . وما اجمل تلك الليلة التى بادرنا فيها بالحضور للقاعة وجلسنا ننظر بصبر نافذ قدوم اديب العصر ونابغة الكتاب ونسمعه مباشرة ، لأول مرة فى حياتنا ، ذلك هو معلم الأجيال الدكتور طه حسين ،الذى ما كاد يظهر على المسرح حيث منصة الخطابة ،حتى دوت القاعة بعاصفة من التصفيق . . ثم صمت الجميع وكأنما على رؤوسهم الطير وأرهفنا أسماعنا وجاءنا صوت طه الموسيقى . . ولم يخب ظننا فى كل ما كانت حواسنا تتحفز اليه ، فقد كان صوته الرصين وغنته المحببة ودقة إخراجه للحروف . . كلها تلامس آذاننا وكاننا نستمع الى سيفونية ساحرة بل وكأننا نسمع االغة العربية نفسها لأول مرة . .

اول لقاء بطه حسين .

لقد كان لمواظبتنا على تلك المحاضرات أثر كبير فى فهمنا للمجتمع المصرى . . كما كان فيها من وجهة أخرى تعويض لنا عن القراءة التى شغلتنا عنها فى تلك الفترة الأحداث العامة ، وكنا قد تعودنا عليها فى السودان . . . ومن الأحداث الأدبية فى تلك الفترة أيضاً أن وفداً من جامعة السيربون جاء الى مصر لعقد ندوة على ذكرى شاعر العربية أبى الطيب المتنبى بالاشتراك مع المصريين وغيرهم . وأقيم الإحتفال فى فندق الكنتنتال بالقاهرة فى مطلع عام ١٩٣٥ . وعلى ما أذكر كان الدكتور عقيل أكثرنا اهتماما بذلك المهرجان وحضوره ،وموافاتنا بأخباره ،وبمناسبة إهتمام عقيل هذا أذكر قصة طريفة جداً له مع الأخ يسن حاج الخضر ،كنا نتندر بها فى تلك الأيام ،وخلاصتها أن الأخ يسن حاج الخضر لم يحضر ذلك المهرجان الذى كان الكلام فيه باللغة الفرنسية . . ولما كان يسن قريب العهد بالقاهرة ولم يشرع بعد فى تعلم اللغة الفرنسية . . فقد أراد عقيل باسلوبه الفكه ، أن يفوت على يسن دعابة تجعله يعتقد بأن صاحبه

قصة طريفة .

عقيل قد سبقه بمراحل كبيرة فى اللغة الفرنسية قبل حضور يسن لمصر فقال ليسن : ألم تسمع بمحاضرتى فى ذكرى أبوالطيب المتنبى باللغة الفرنسية ؟ فقال أين بالله عليك . . ؟ ؟ فقال عقيل أذن اسمع ،وبدأ يسرد على مسامع يسن بعض الجمل الفرنسية بسرعة فائقة ، ويسن مندهش من تمكن عقيل من اللغة الفرنسية ، فى حين أن تلك الجمل لم تكن لها علاقة بالمتنبى ولا ذكراه . . بل كانت عبارة عن الجمل التى تلقن للطالب المبتدى فى تعلم الفرنسية ، كى يحفظها مثل (الذهاب الى المدرسة) و (الذهاب للطبيب فى حالة المرض) والذهاب للمنزل . . الخ). فأخذ يسن يهز رأسه معتقداً أن عقيل قد فاته فعلا فى اللغة الفرنسية ولكن لسؤ حظ عقيل ،دخل احد الزملاء فجأة وكشف السر فآستغرق يسن فى الضحك . .

أول مشاهدة للنحاس باشا :

كانت مدرسة النيل الأهلية بشبرا أول مدرسة نهارية التحقت بها وكان ناظرها الدكتور السيد باشا من الوطنيين المعروفين وينتمى الى حزب الوفد . . . ولهذا فقد كانت المدرسة تحتفل بالمناسبات الوطنية كعيد الدستور . . الذى شهدت الإحتفال به ذلك العام ١٩٣٤ لاول مرة فى حياتى ودعى النحاس باشا لتشريف الحفل ،وكان فى المعارضة وقتذاك ، وزعيم الشعب المصرى بلا منازع . فكانت فرحتى عظيمة بهذه الفرصة التى ستمكننى من مشاهدة النحاس والإستماع اليه عن قرب لأول مرة .

وجاءت اللحظة السعيدة، واستقبل النحاس أروع استقبال ، تماما كما كنا نقرأ فى الصحف المصرية ونحن فى السودان ، عن استقبالات النحاس الشعبية . وحانت لحظة الاستماع للنحاس وأرهفت السمع بكل أحاسيسى ومشاعرى لأنصت لخليفة سعد زغلول الذى

كان خطيبا للشرق كله وساحراً للجماهير ، وربانها الماهر ، الذى سارت بخبره الركبان فى ثورة ١٩١٩ العارمة ، ، وتحدثت أكبر الصحف العالمية عن سحر بيانه ، ويوم وفاته رثته جريدة (التايمز) اللندنية بمقال عنوانه (البلاغة تصنع السحر) .. بهذه الخلفية الكبيرة أخذت استمع للنحاس ..

وبدأ النحاس يتكلم والجماهير تصفق والهتافات تتعالى ، حتى ليكاد يضيع صوت الخطيب فى أمواجها العالية . وبذلت جهدا كبيراً لأتمكن من الاستماع ، حتى إذا ما أخذت الضجة تهدأ وأخذت أتبين كلمات النحاس بوضوح .. بدأت أسأل نفسى : مابالى لا أتحمس كما يتحمس هؤلاء الذين يصفقون ويهتفون؟؟ ! ! ! وما لهذه النشوة التى أستقبلنا بها خطاب النحاس قد أخذت تنحسر عنى؟؟؟! ! ! فقلت فى نفسى : ربما كان النحاس لم يأخذ بعد فى الخطابة وأنما هو (يدردش) مع جماهيره دون كلفة ، ثم يبدأ فى الخطابة التى توقعت أن تكون على الأقل قريبة من خطابة سعد المدره الخلاب . . . ولكن انتظارى قد طال .. ولدهشتى انتهى خطاب النحاس وشقت الهتافات والتصفيق عنان السماء كما يقولون وأنا جامد متبلد أعانى من الشعور بخيبة الأمل ، فيما كنت قد أعددت نفسى إليه ، من الاستماع لخليفة سعد، لارواء ظمئى القديم ، للبيان الخلاب الذى قرأناه عن سعد . . . ورحت فى مقارنة طويلة مع نفسى ، بين الصورة الخيالية التى كانت ترتسم فى ذهنى للنحاس ، من أنه لابد أن يكون الخطيب الثانى بعد سعد فكيف اذن أمكن لهذا الخطيب الذى لم يعجبنى أو يحرك مشاعرى ، أن يكون هو خليفة سعد ، ونسيت فى تلك اللحظة العاجلة — وأنا حديث السن — كل ما عرفته من أمجاد النحاس ومواقفه الوطنية فى مؤازرة سعد وصلابته فى الحق، مما أهله لأن يخلف سعدا فى قيادة الحركة الوطنية ورئاسة حزب الوفد .

بساطة النحاس ومهابة سعد زغلول .

والواقع أن مجيء النحاس بعد سعد مباشرة لقيادة الحركة الوطنية وحزب الوفد ، قد ألقى عليه أحمالا تثقل الكاهل . . لأن الفرق بينه وبين سعد شاسع ، لا فى الخطابة وحدها وانما فى كل الصفات الزعامية ومواهبها التى لاغنى عنها لمن يتصدى للقيادة . . فالنحاس قد أثبتت التجارب أن له خصائص عظيمة من الوطنية الصادقة والوفاء لمبادىء سعد والصلابة فى الحق ، والشجاعة فى مواجهة أخطر المواقف ، ولكن الناس كانوا يعتقدون دائما أن ماكان يتمتع به سعد من شخصية قاهرة غامرة ، كانت تضفى على شخصه من الجلال والاحترام البالغ حد الرهبة أحيانا ، مما كان يأسر به كل من يتحدث إليه فى أمر هام ومن ذلك ما حكى من أن اللورد اللنبي المندوب السامى البريطانى فى مصر وهو مشهور بالغطرسة والاستبداد، كان مرة فى زيارة سعد، وبينما هما يتحدثان، دفع الهواء البارد النافذة المواجهة لسعد ففتحها ، فهب اللورد اللبنى مسرعا نحو النافذة ليقفلها . كيف حدث ذلك من اللبنى الطاغية المتأله ؟؟ . .

أنه بلاشك كان واقعا تحت تأثير شخصية سعد القاهرة . . وسعد فوق هذا يعد من قادة الفكر فى مصر ، كتلميذ قوى الصلة بالامام محمد عبده وبجمال الدين الأفغانى ، وله جولات فى الميادين الفكرية، وله أقوال مأثورة فى السياسة والاجتماع كقوله مثلا : (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة) وقوله (. يعجبنى الصدق فى القول والاخلاص فى العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون) . وأيضا قوله : (دولة الباطل ساعة ودولة الحق حتى قيام الساعة) . .

صمود النحاس بالرغم من إنقسامات الوفد .

ومن هنا فقد جرت المقارنة بين سعد والنحاس متاعب كبيرة على حزب الوفد ، وأضعفت تماسكه ، وتصدع إلى عدة انقسامات ، كان أولها فى عام ١٩٣٢ بقيادة حمد الباسل باشا وكيل الحزب

وزملائه فتح الله بركات باشا وراغب اسكندر فخري عبد النور ومحمد نجيب الغرابلى . . الخ . وكان الانقسام الثانى بقيادة الدكتور أحمد ماهر والنقراشي وابراهيم عبد الهادى وزملائهم ، والانقسام الثالث كان بقيادة مكرم عبيد وزهير صبرى وجلال الدين الحمامصى وغيرهم عام ١٩٤٣ — وقد سبق هؤلاء عباس العقاد والسيدة روز اليوسف حيث استقالا من الوفد واتخذا لهما موقفا حادا . فكان العقاد يكتب فى روز اليوسف اليومية— أعنف المقالات ضد النحاس ومكرم عبيد — وكانت استقالته حدثا هاما . فهو الكاتب الجبار كما سماه سعد ، الذى قال عنه : (ان العقاد مدفع قوى بعيد المرمى ، خذه إلى الميدان وأنت واثق من النصر) . . ولكن بالرغم من كل هذه الانقسامات وما نتج عنها من تكوين أحمد ماهر للحزب السعدى ومكرم للكتلة الوفدية ، وبالرغم من محاربة النحاس شخصيا من جهة العقاد ومن جهة مكرم ، وتأليف مكرم للكتاب الاسود فى مثالب النحاس ، وبالرغم من كل هذا فقد ظل النحاس محتفظا بمركزه كزعيم أوحد لحزب الوفد ، وظل الوفد به متمسكا وقويا ومحتفظا بمركزه كأكبر حزب سياسى يمثل التيار الشعبى فى مصر ، ولعل أقوى تعبير عن موقف النحاس كزعيم للشعب المصرى هو قول الأستاذ على الجارم شاعر مصر فى ذلك الوقت فى قصيدته التى حيا بها النحاس عقب معاهدة مونترو فى ١٩٣٧ .

أتيت البطولة من بابها * وفزت بأوثق أسبابها

وكنت لها حين جد النضال * ولازت رجال بأعقابها

خليفة سعد إذا ما ازدهت * كرام الرجال بألقابها

عودة الى ما قبل ١٩٣٦ ايضا :

زيارة كونت ميخالوس للقاهرة وتغيير السياسة فى السودان .

ومن أحداث ما قبل ١٩٣٦ التى تناولتها أوساط السودانيين فى القاهرة بمختلف التعليقات ، زيارة الكونت ميخالوس رئيس الجالية الأغريقية بالسودان وكبير تجار الخرطوم – للقاهرة عام ١٩٣٥ وقيامه ببعض الاتصالات بالشخصيات السودانية والمصرية على غير عادته .. وجاءت الأخبار بأن كونتيمخالوس يحمل معه شيئا جديدا فى طيات كلامه عن إقتصاديات السودان . فقد تحدث الكونت ميخالوس عن السياسة لأول مرة ، وعن العلاقات بين مصر والسودان ، التى كان يتجنبها ، فيما مضى ويعتبرها أمرا شائكا لانسان مثله . . . وأقيمت للكونت حفلة شاى فى فندق الكنتيننتال بالقاهرة ، وخطب فيها وتكلم عن العلاقات بين مصر والسودان بصراحة أدهشت الذين يعرفـونه ويعرفون تجنبه لمثل هذا الموقف . . وقال الكونت ميخالوس ، : لقد طالما قادت السياسة العلاقات الاقتصادية بين مصر والسودان ، ولكن آن الأوان لكى يقود الاقتصاد السياسة . .

فكانت قنبلة تفجرت فى محيط السودانيين ، وأكدت أن الزيارة هذه لم تكن عادية ، وأن الصراحة والجرأة اللتين تحدث بهما الكونت ، على غير ماعرف عنه ، كانت عبارة عن مؤشر واضح ، على أن هناك تغييراً وشيك الوقوع فى السياسة الانجليزية بالسودان . . ولم يمض وقت طويل ، حتى حدثت زيارة أخرى أكثر أهمية ، وهى زيارة حاكم عام السودان لمصر . . وكانت هذه المرة لا تخلو من الغرابة هى الأخرى . . فقد حددت وكالة السودان بالقاهرة أياما يجلس فيها الحاكم العام بدار الوكالة لاستقبال أبناء السودان بمصر . . وهو شىء جديد يحدث لأول مرة ، ولم يكن مألوفاً من قبل ، أن يجـد السودانيون بمصر مثل هذا المسلك الودى من حاكم السودان العام ،

ثم زيارة حاكم السودان

زيارة البعثة المصرية الاقتصادية للسودان

ولا حتى من المفتشين الانجليز . . !! وفى السودان تمت زيارة أخرى لها أهمية كبرى هى زيارة البعثة الاقتصادية المصرية عام ١٩٣٥ برئاسة فؤاد أباظة مدير الجمعية الزراعية والتى ضمت شخصيات كبيرة لها اهتمام بشئون السودان وكانت تعتبر خطيرة عند الانجليز ، من أمثال الدكتور محجوب ثابت ومحمد محمود جلال نائب الحزب الوطنى عن دائرة بنى مزار ومحمد نجيب.

وزياره احدى فرق التمثيل الكبرى للسودان

ولعل هذه الزيارة كانت تلبية لما أعلنه الكونت مينخالوس من قبل أثناء زيارته للقاهرة ، من أنه قد آن الأوان لكى يقود الاقتصاد السياسة بين مصر والسودان . وفى هذا الأثناء تمت أيضا زيارة فرقة تمثيلية مصرية كبيرة للسودان قامت بعرض بعض المسرحيات والعروض المسرحية . . وهو مسلك أيضا لا يخلو من الغرابة من ناحية حكومة السودان ، لانك لو اطلعت على الأسباب التى ظلت تعطل انشاء مدرسة فاروق الثانوية لسنوات عديدة ، لوجدت فى أخذ الخطابات المتبادلة بهذا الشأن، أن السير دوجلاس نيوبولد السكرتير الادارى،قد تحدث بحساسية شديدة عن انشاء مسرح بتلك المدرسة، وأنه قد جعل ذلك سببا لرفض قيام المدرسة ، كما ذكر الدكتور ابراهيم الحاردلو فى كتابه (العلاقات الثقافية بين مصر والسودان) .

إذن فكل تلك التحركات المتساهلة كانت تدل بلاشك على أن تغييراً سيحدث فى سياسة حكومة السودان نحو مصر . . .

وقبل ذلك بأكثر من سنتين ، نجد أن الأحداث فى مصر نفسها أخذت تتتابع ،حاملة مؤشرات التغيير فى السياسة البريطانية، فقد كان على رأس الحكومة إسماعيل صدقى باشا ، الذى جاء به الإنجليز على أثر إنقلاب دستورى ، أطاح فيه بحكومة الوفد وبدستور عام ١٩٢٣ ، الذى يعتبره الشعب المصرى ثمرة لكفاحه الطويل ولثورته فى عام ١٩١٩ . . — وحكم صدقى باشا مصر بالحديد والنار

كما كانوا يقولون، مستنداً على الإنجليز والقصر الملكى، فوضع لمصر دستوراً خاصاً هو دستور عام ١٩٣٠ ، غير فيه كل ملامح الديمقراطية فى دستور عام ١٩٢٣ ، وغير وبدل فى تدرج أوتوقراطى جرىء يصل به إلى الدرك الأسفل ، حيث يهبط بالإنتخابات البرلمانية من إنتخابات مباشرة ، يعطى فيها الشعب أصواته بنفسه ، إلى إنتخابات من درجتين ، فتختار الصفوة أولا ، ثم تقوم الصفوة بأختيار الآخرين .. فكانت تجربة قاسية على الشعب المصرى ، إعتبرها نكسة كبرى وتآمراً على مستقبله وعودة به إلى الوراء .. وقد رأينا بعد هذا كله كيف قلب الإنجليز ظهر المجن لصدقى باشا ونظامه ، وعملوا على تقويضه تمهيداً لأحداث التغيير المزمع ..

تطبيق نظرية الرجوع الى الوراء على مصر والسودان معا

ولا يصعب على المراقب أن يتبين أن السياسة البريطانية فى ذلك الوقت كانت قد أخذت فى تطبيق نظرية واحدة على كل من مصر والسودان ، ألا وهى (نظرية الرجوع إلى الوراء) التى أشرت اليها أثناء الحديث عن الظروف السياسية التى أحاطت باضراب كلية غردون عام ١٩٣١ . وكما أقتنع الإنجليز عقب ثورة عام ١٩٢٤ بأن السودان سيصبح خطراً على سياستهم فى إفريقيا كلها ، إذا ما ترك له الحبل على الغارب ليمضى نحو التقدم . كذلك إقتنعوا بأن المصريين سيصبحون خطراً على سياستهم فى الشرق الأوسط كله ، إذا ما سمح لهم بالمضى فى طريق التقدم الذى كفله لهم دستور عام ١٩٢٣ .

لقد وجدوا أن إصرار المصريين على هذا الدستور ، وعلى التمتع بكل الفرص التقدمية التى منحها لهم ، ثم رفضهم لمشروع معاهدة عام ١٩٣٠ ولكل المحاولات ، والخطط الرامية إلى حكمهم بغير دستور عام ١٩٢٣. وكذلك مقاومة كل التجارب غير الدستورية التى فرضت عليهم .... الخ .

٤

لقد وجد الإنجليز فى ذلك كله تعويقاً وعرقلة لسياستهم الرامية إلى جعل إستقلال مصر صورياً ، وكذلك دستورها وحكوماتها وحكامها ، كلهم كانوا يريدونهم صوريين ، على أن يبقى الزمام دائماً فى يد الحكومة البريطانية ، فتسقط الحكومات المصرية أو تقيمها كما تشاء لا كما يشاء المصريون . .

ولكن المصريين يصرون على دستورهم وعلى تحقيق إستقلالهم . فلابد إذن من أخذ هذا الشعب بأساليب من الحكم تجعله معطلا أطول مدة ممكنة ، حتى يخلو الجو للسياسة البريطانية وتطبيق نظرية الـ (Devolution) التى تحدثنا عن محاولتهم تطبيقها على السودان . . ولا شك فى أن — تعطيل الدستور فى مصر وفرض الإنقلابات غير الدستورية على شعبها ، كلها أمور تهدف إلى شىء واحد هو الرجوع بكلا البلدين إلى الوراء . وإن اختلفت التفاصيل وفقاً للظروف المحلية . . وإذا كان الحاكم العام وأعوانه فى السودان قد كلفوا بتنفيذ نظام الإدارة الأهلية وإتخذوه كبوابة أو منطلق لتطبيق المخطط الإستعمارى كله ، كذلك فى مصر نرى دار المندوب السامى البريطانى تعتمد على السراى الملكية وهذه بدورها تعتمد على بعض الباشوات لتنفيذ المخطط البريطانى فى تعطيل دستور عام ١٩٢٣ ، وإحداث الإنقلابات غير الدستورية لحكم مصر والرجوع بها إلى الخلف . . وهكذا نرى أن حزب الوفد المصرى حزب الأغلبية لا يكاد يتولى الحكم فى أى وقت حتى يطاح به ويسند الحكم بعده لأحد الباشوات من أحزاب الأقليات أو حتى من الأفراد أحياناً من أمثال محمد توفيق نسيم الذى كان من كبار الموظفين وليس له علاقة بالسياسة — ثم نجد محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستورى ، الذى سبق إسماعيل صدقى فى حكم مصر

(باليد الحديدية) كما كانوا يقولون ، وهو حزب باشوات وأعيان ذو أقلية ضئيلة . . . ثم إختارت العناية البريطانية إسماعيل باشا أبو السباع (ورب الكفاءات) كما كانت تتندر الصحف به فى تلك الأيام . . . ولم يتردد أبو السباع فى أخذ المسئولية الخطيرة ، مآخذ الجد والحزم ، فمضى بها قدماً ولم يتورع عن إقتراف أكبر جريمة سياسية ضد الحرية والديمقراطية ، فالغى الدستور وعطل الحياة النيابية وتربع على دست الحكم زهاء الثلاث سنوات طاغية متجبراً يحتقر الشعب المصرى ويقول عنهم :—

تجربة صدقى باشا أو الغاء دستور سنة ٢٥

« أنهم ١٤ مليون حمار » لأن تعداد الشعب المصرى كان ١٤ مليوناً فى ذلك الوقت .

انه دكتاتور لم يأبه بشعور الشعب المصرى فى يوم من الأيام بل نراه يتحداه فى جراءة ، ويجرى الانتخابات البرلمانية وفقا لدستوره الخاص ، دستور عام ١٩٣٠ الذى صنعه هو . . . فجاء ببرلمان أرستقراطى من الباشوات والأعيان كما ذكرت سابقاً . . .

ومضى أبو السباع فى حكمه الغاشم يبطش بالشعب المصرى كلما قام بانتفاضة وطنية ، لازالة عدوانه على الدستور ، وكان مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد هو زعيم الأغلبية ، وممثل المعارضة الشعبية فى وجه الانقلاب الصدقى . . . واشتدت المقاومة فى كل مكان . . فى القاهرة أو فى الأقاليم ، وكان النحاس يقوم بجولاته الوطنية مستنهضاً الشعب ضد حكم صدقى باشا ودستور عام ١٩٣٠ ومناديا بضرورة إعادة دستور عام ١٩٢٣ . .

قيادة النحاس للثورة ضد دستور سنة ٣٠

واشتعلت الثورة فى كل مكان ، وأنزل صدقى باشا الجيش المصرى لقمعها ، فحدثت اضطرابات دامية فى مناطق العمال ،

وراح ضحيتها الكثير من الأرواح في حوادث المنصورة والمحلة الكبرى والعنابر بالقاهرة وأكثر القتلى كان من العمال والبعض الآخر من المواطنين العاديين . .

وأصبح الجيش المصرى أداة قمع للشعب ، يجرى وراء النحاس أينما سار ويملأ الشوارع فى المناسبات الوطنية ، ويضرب الحصار على بيت الأمة والنادى السعدى وغيرها من الأماكن التى يقصدها الشعب فى تلك المناسبات . . .

وقد هموا مرة باغتيال النحاس ، عندما هجم الجيش فى المنصورة (بالسنكى) على الجماهير ، فكاد أحد الجنود أن يغمد (السنكي) فى ظهر النحاس ، لولا أن تلقى الضربة عنه أحد الوفديين المخلصين وهو (سينوت حنا) ، ضاربا المثل على الوحدة الرائعة بين الأقباط والمسلمين ، التى تحققت على أيدى زعماء حزب الوفد المصرى . . . حيا الله الشعب المصرى الذى لم تزده تلك الكوارث والويلات إلا صموداً وتمسكاً بأهدافه الوطنية وفى مقدمتها دستور عام ١٩٢٣ .

النذر الدولية تفرض التغيير

ولهذا فأن العناية الألهية لم تتخل عنه ، إذ بينما هو يخوض أعنف جولات صراعه مع العهد الصدقى ، فاذا بالأفق الدولى يكفهر قبيل غزو ايطاليا للحبشه ، ثم تحالف هتلر وموسولينى وقيام المحور بينهما وظهور المخاوف من وقوع الحرب ، التى ربما كانت بدايتها فى وادى النيل ، بعد أن أخذ النفوذ الإيطالى يتزايد فيه عقب زيارة الملك (أمبرتو)ملك ايطاليا لمصر ، وما كان يقال عن علاقات عرقية للملك فؤاد مع ايطاليا. . . الخ . . لقد أجبرت تلك النذر الدولية الحكومة البريطانية على أحداث تغيير كبير فى سياستها فى مصر والسودان . . كما قلت . . .

ومن سخرية القدر انه فى الوقت الذى كان صدقى يعتقد أنه

لازال مسنوداً بالحراب البريطانية، وانه يستطيع ان يواصل طغيانه وبطشه بالشعب المصرى، كانت الحكومة البريطانية قد وضعت الخطة للتخلص منه ومن كل تجربته مرة واحدة . . فقد عدلت السياسة البريطانية عن مخاصمة الشعب المصرى، وأصبح شعارها الجديد هو مصالحة الشعب والتودد اليه ، ممثلا فى حزب الأغلبية أى الوفد ، حتى يتوفر لها أى بريطانيا الجو الودى الذى تتطلبه إرهاصات الحرب وغزو وادى النيل المحتمل . .

العدول عن مخاصمة الوفد وأنهاء تجربة صدقى .

وما لبث صدقى أن وجد نفسه فى خلافات مع دار المندوب السامى البريطانى ، حول تدخلات من جانبها فى الشئون الداخلية البحتة التى تعتبر من سلطات صدقى الخاصة . وانتهت المنازعات بأسقاط صدقى . وجىء بعده بشخصية باهتة هى عبدالفتاح يحى باشا الذى تولى الحكم زهاء السنة تقريباً كامتداد لعهد صدقى فى الظاهر فقط ... وبعده جىء بمحمد توفيق نسيم عام ١٩٣٥ ليكون وزارة قومية انتقالية ، وليعيد دستور عام ١٩٢٣ ، تمهيدا لأجراء الانتخابات العامة ، وعودة الأغلبية للحكم الدستورى الذى تنشده البلاد ، بعد أن بذلت النفس والنفيس من اجل عودته فشكل نسيم الوزارة على نحو قومى ، وأعاد دستور عام ١٩٢٣ الذى وافق الملك على عودته ، بعد طول تمنع . وذلك لما كان يعانيه الملك فى تلك الآونة من كثرة التدخل الأنجليزى فى الشئون الداخلية ، بالدرجة التى اهدرت كرامة الملك نفسه ، فأراد أن يستعين بالأغلبية الشعبية ولو مؤقتاً لوقف الأهانات الإنجليزية . . وكان المفروض أن يجرى نسيم الأنتخابات العامة ، ولكن زعماء الأحزاب الذين كانوا فى شبه جبهة قومية ، ظنوا أن وجود نسيم على رأس الوزارة ، قد لا يكسبهم شيئاً فى الأنتخابات ، فطالبوا باستقالته فأستقال نسيم . ولكن قبل أن يتمكنوا من أختيار رئيس وزراء

سقوط العهد الصدقى نهائيا والاتجاه نحو أعادة الوفد للحكم .

محمد توفيق وزارة توفيق ويعيد دستور سنة ٢٣ .

يلائمهم كان قد تولى (على ماهر) الحكم والف وزارة إنتقـالية ، مستقلة عن الأحزاب وقام بأجراء الإنتخابات وفقاً لدستور عام ٢٣ وفاز حزب الوفد كالمعتاد وتولى الحكم مصطفى النحاس عام ١٩٣٦ .

على ماهر رأس وزارة مستقلة ويجرى الانتخابات على أساس دستور سنة ٢٣

نظر المراقبون لتلك الأحداث على أنها مؤشرات على أعتزام الحكومة البريطانية أجراء تغيير في سياستها في مصر ، وعاش الناس في تفاؤل بقرب عودة دستور عام ٢٣ وكل أوضاعه الديمقراطيـة . . . ولكن الأنجليز لم يكونوا يقصدون بتصريحاتهم عن إعادة الحياة الدستورية للشعب المصرى أن يعاد دستور عام ٢٣ نفسه كلا ، فقد تبين من التعليمات التى أرسلتها الحكومة البريطانية لمندوبها السامى في مصر بمناسبة المطالبة بعودة دستور عام ٢٣ فى عهد حكومة توفيق نسيم فى عام ١٩٣٥ ، وكذلك خطاب المندوب السامى لتوفيق نسيم في نفس المناسبة ، ما يوضح أن البريطانيين في الوقت الذى كانـوا يرون فيه أن دستور عام ١٩٣٠ لا يصلح للعمل به ، كذلك كانوا يرون أن دستور ٢٣ غير عملى ، وأنه من الممكن أن يتمتع الشعـب المصرى بالحياة الدستورية ولكن بدستور جديد يمكن الأتفاق عليه ، وكان تصريح المستر هور وزير الخارجية البريطانية فى أواخر عـام ١٩٣٥ ، بأنهم لن يعيدوا لمصر دستور عام ٢٣ ، تأكيدا رسميـاً لتدخلهم فى شئون مصر الداخلية وفى أخطر أمورها وهو الدستور . .

سبق ذلك كله تدخل مباشر من الانجليز ضد دستور ٢٣

وما كادت الصحف تطلع على الناس بذلك التصريح المثير ، حتى هب الشعب عن بكرة أبيه واندلعت المظاهرات الصاخبة ، يقودها طلبة الجامعات والمدارس ، وتهتف ضد تصريح هور وتنادى بعودة دستور عام ٢٣ . . وكان الأنجليز لا يزالون يحتفظون فى داخـل البوليس المصرى بقوة انجليزية من (الكستيلات) او راكبى الدراجات البخارية ، فتدخل هؤلاء لقمع المظاهرات وتصدى لهم الطلبة

ثورة عامة ضد التدخـل الانجليزى .

ودارت معارك دامية فى القاهرة قتل فيها عدد من الطلبة فسقط عبدالحكم الجراحى وعفيفى وبعض المواطنيين .. واستمرت المظاهرات ثلاثة ايام ، فعمت عواصم الأقاليم كالأسكندرية التى سقط فيها بعض الطلبة والمنصورة ، وبورسعيد وكادت تتطور الأمور الى حالة عداء عام ضد الأنجليز وهو ما كانت تخشاه الحكومة البرطانية وتعمل على تجنبه بكل الوسائل فى ذلك الوقت .

نوع من المكر البريطانى :

والواقع أن تصريح هور كان مفاجأة وتحديا صارخاً غير مألوف من الساسة البريطانيين ، وغير منسجم مع تساوق الأحداث ، التى كانت تعطى انطباعاً بأن تغييراً وشيكاً سيحدث فى الموقف البريطانى فى مصر..... وكانما أراد هور من تصريحه المثير شيئاً آخر غير ما يفهم من ظاهره .. لقد أثار المصريين لا للمواجهة والقمع كما كان يحدث فى الماضى وقبل بوادر الازمة الدولية ... بل على العكس ربما كان يرمى لدفعهم هذه المرة إلى الإسراع بالإمور لتصفية الموقف كله ضد أحزاب الأقليات وضد السراى الملكية أيضاً ، حتى تعود للشعب حكومته التى يرتضيها ، فيصفو الجو لسياستهم الجديدة فى وادى النيل كله . والدليل على ذلك أن هور يعلم أنه ليس من حق الحكومة البريطانية التدخل فى شئون مصر الداخلية بهذه الصورة المكشوفة ، وخاصة فى ذلك الوقت الذى كانوا يخطبون فيه ود الشعب المصرى ، وثانياً أنه يعلم يقيناً أن مثل هذا التدخل المكشوف فيه جرح للشعور الوطنى لكل الأحزاب السياسية ولربما دفعها ذلك للتوحد فيما بينها وأن تجعل من وحدتها قوة وطنية كبرى ضد التدخل البريطانى فتفسد على الحكومة البريطانية خطتها .. ولهذا فقد فطنت الحكومة البريطانية للأمر وجمدت تصريح المستر هور ، وبدل أن تترك الشعور الوطنى يوحد بين الأحزاب المصرية ، تحركت هى ودعت لتوحيد الأحزاب

كشرط لعقد معاهدة ١٩٣٦ التى يطالبون بها لتسوية المسائل المعلقة بين مصر وبريطانيا . وفعلا تكونت الجبهة الوطنية برئاسة مصطفى النحاس زعيم الأغلبية ، واشترك فيها كل الأحزاب حتى أصدقاء الانجليز بالأمس كأسماعيل صدقى وغيره . . وهنا نرى المستر هور يسكت عن الكلام فى الدستور نهائيا ويترك أمره لأهله .. ويسير موضوع دستور ٢٣ بين توفيق نسيم رئيس الحكومة والملك فؤاد وحدهما ، حتى عاد دستور عام ١٩٢٣ بالفعل دون تدخل من بريطانيا كما ذكرت آنفاً . . .

عودة الى ماسبق ذكره من تمهيدات لعودة الوفد

وذلك بمجرد تكوين الجبهة الوطنية وشروعها فى الاتصالات مع الحكومة البريطانية لعقد المعاهدة المنشودة ، ومن جهة أخرى أرى أن تعود قليلا للوراء لترى أن البشائر قد جاءت مع أواخر عام ١٩٣٤ بأن الحياة الدستورية وحكم الوفد قد باتت على الأبواب . . وذلك من التصرفات الودية المتسامحة مع الوفد سواء من السراى أو الإنجليز.. فلأول مرة نرى السلطات الحاكمة تسمح لحزب الوفد المصرى ، حزب الاغلبية والمقصود دائما بالانقلابات غير الدستورية ، وعدو السراى ودار المندوب البريطانى . . لأول مرة يسمح لهذا الحزب بعقد الاجتماعات السياسية العلنية التى كان فى قمتها مهرجان مدينة رمسيس بأمبابة ، فى يناير عام ١٩٣٥ . . وياله من اجتماع ضخم ضم عشرات الالوف من أعضاء الوفد ولجانه المنتشرة فى كل شبر من أرض مصر ، من أسوان الى الاسكندرية كما حضره ممثلون لبعض البلاد العربية .

مهرجان الوفد :-

مهرجان الوفد

كان مهرجان الوفد حقا فارقا بين عهدين ، عهد أغبر تولى ، وعهد ازهر قد أقبل ، وتنفس الناس الصعداء ، وقد تبارى

الخطباء والشعراء فى المؤتمر مندّدين بعهد الحكم الصدقى ، الذى قام على وأد الدستور ، وقتل الحرية والديمقراطية ، وأعتمد على الحديد والنار فى حكم البلاد ، وماجره ذلك من احداث دامية متلاحقة ازهقت فيها الأرواح البريئة ، وأريقت فيها الدماء الزكية . بغير حساب . . كما نددوا بتجربة دستور عام ١٩٣٠ الرجعية ونادوا بأسراع الخطى لأعادة دستور ١٩٢٣ أمل الشعب وثمرة كفاحه الطويل ، كما تحدثوا عن مشاكل الساعة التى كانت تشغل بال الشعب المصرى . ولن تغيب عن ذاكرتى أبدا وقفة العقاد العملاق فى ذلك المهرجان الوطنى ، وهو يخاطب الالوف فى قصيدته العصماء التى كان مطلعها :—

أحسنتم الصبر والعقبى لمن صبروا
نادى البشير فقولوا اليوم و أئتمروا
تلك الليالى التى ذقتم مرارتها
هذا جناها فطاب الغرس والثمر
مرت وفى كل مصرى لها أثر
الا اليقين فلم يترك به أثر
كنانة الله كم أمست على خطر
ثم استقرت وزال الخوف والخطر
وكم توالت على أرجائها دول
ومصر باقية والشمس والقمر
كأن رمسيس حى فى مدينته
يرعى بنيه وهم من حوله ذمر
الخ . . . .

وهكذا سارت الامور مسرعة نحو اعادة دستور عام ١٩٢٣

الذى اصبح هذه المرة كأنه هدف مشترك بين مصر وبريطانيا ، وذلك لان الحكومة البريطانية كانت تريد ان تنتهى عاجلا من هذا الصراع لكى يتولى حزب الاغلبية الحكم ، ويصفو لها الجو ، حتى يمكنها التفرغ لمواجهة ما قد تاتى به النذر الدولية من أحداث . وقد ظهرت فى الصحف اصوات تدعو الى تكوين جبهة وطنية لاجراء المفاوضات مع الحكومة البريطانية لابرام معاهدة لتسوى فيها المسائل المتعلقة . . كما أشرت سابقا . .

ولكن البريطانيين كانوا اكثر أهتماما بتكوين تلك الجبهة كما قلت ، حتى تشترك كل الاحزاب فى أبرام المعاهدة المنشودة ، وبذلك تضمن الحكومة البريطانية اذا ما نشبت الحرب ، ان لا يرتفع صوت المعارضة من اى حزب . .

كان تكوين الجبهة الوطنية ، بعد الظروف المضطربة التى مرت عقب تصريح المستر هور وزير خارجية بريطانيا ، بأنهم لن يعيدوا لمصر دستور عام ١٩٢٣ ، كان تكوين الجبهة حدثا هاما ارتاحت له الجماهير ، فخرجت تعبر عن فرحتها وتطوف بأندية الاحزاب لتهنئتها وحثها على تقوية الرباط القومى فى ما بينها . .

رابطة الطلبة السودانيين وقضية وادى النيل .

وكذلك فعلت رابطة الطلاب السودانيين فشاركت الشعب المصرى فرحته بتكوين الجبهة الوطنية . . فطاف أعضاء الربطة بمختلف دور الاحزاب وقابلوا كل زعمائهم وتحدثوا ايضا فى قضية السودان وضرورة ربطها بالقضية المصرية . وأن النذر الدولية التى دفعت بريطانيا للأهتمام بأبرام المعاهدة ، لهى فرصة مؤاتية لتحقيق الاستقلال لمصر والسودان .

محمد محمود باشا من قبيلة السايم بالسودان

وأذكر بهذه المناسبة أننا عندما ذهبنا لزيارة حزب الاحرار الدستوريين وجدنا المكان الذى يجلس فيه محمد محمود باشا رئيس

الحزب مكتظا بالحضور ولا مكان فيه لجلوسنا . . فأستقبلنا محمد محمود باشا واقفا وأصر على أن يكمل حديثه معنا وهو واقف ، بالرغم من أنه كان يشكو من الم فى احد ساقيه . . وأذكر كلماته لنا . . (أهلا بأبناء العمومة . .) وكان يجلس بجانبه عبد الرحمن عزام باشا اول رئيس للجامعة العربية ، وبعد أن فرغ محمد محمود من ترحيبه بنا سألنا عبد الرحمن عـزام : هل تعرفون ما يعنيه الباشا بقوله أبناء العمومة ؟ فأجابه البعض نعم فالسودانيون والمصريون أشقاء وأبناء عمومـة . فقال عزام هذا حق ، ولكن الباشا يقصد قبيلة معينة بالسـودان . . هل تعرفون عرب سليم الذين يقطنون فى منطقة كوستّى والجبلين على النيل الابيض ؟ فقلنانعم ، فقال هؤلاء هم أبناء عمومة محمد محمود باشا وبينهم وبين قبيلة سليم بساحل سليم بصعيد مصر صلات ومكاتبات . وهو أمر ما كنا نعرفه من قبل . . فشكرنـا عـزام على هذا التوضيح وودعنا رئيس حزب الأحرار وهو يرجونا بالأ تنقطع زياراتنا..
وقد ذكرنا بأيجاز كيف تقوض نظام صدقى الدكتاتورى وكيف أعيد دستور عام ٢٣ على يد توفيق نسيم، دون تدخل من الانجليز وكيف أجريت الانتخابات على يد على ماهر ، على أساس الدستور الشرعى للبلاد دستور ٢٣ . . وفاز بها حزب الوفد بالاغلبية ، وتولى النحاس الحكم ، وبذلك هدأ بال الحكومة البريطانية وتحقق لها الجو الملائم الذى ظلت تعمل له بمهارتها المعروفة . . أما المفاوضات ،فقد جرت فى جو ودى ولكنه مشوب بالحذر،لان الحكومة البريطانية التى كانت كل الظروف توحى بأنها سوف تتنازل عن كثير مما كانت تتمسك به فى الماضى.. فقد دلت تصرفاتها أثناء المفاوضات ، على أنها لم تفرط فى شئ جوهرى ...

على كل حال أمكن للنحاس والجبهة الوطنية ان يتحصلوا في النهاية على معاهدة ١٩٣٦ التي أسماها النحاس معاهدة الشرف والفخار ، وأسماها غيره معاهدة الذل والعار ، ولذلك فالخلافات حولها كانت كثيرة جدا . . والشيء البارز الذى حققته لمصر هذه المعاهدة ، هو خروج الجيش البريطاني من القاهرة وحصره في منطقة القنال ، وماعدا ذلك فقد كانت المصلحة البريطانية هي الأرجح . . ويرجع ذلك بصفة رئيسية الى طبيعة تكوين جبهة المفاوضات وتنافر اعضائها القديم المزمن لطول القطيعة السياسية بينهم . . . ثم ذهابهم على عجل للندن قبل أن يتم بينهم لقاء على شيء ، أو اتفاق على خطة . . وهذا أيضا ما حال بينهم وبين تقدير الاسباب الدولية التي دفعت الحكومة البريطانية للاهتمام بأجراء المفاوضات وابرام المعاهدة . . ولا اراني بحاجة الى الخوض في آثار هذه المعاهدة بالنسبة لمصر ، وما احدثته من خلافات حولها .

أثر المعاهدة في السودان .

اما في السودان فلم يحدث اى تغيير في نظام الحكم ، ولا سلطة الحاكم العام ، التي خولتها له معاهدتا ١٨٩٨–١٨٩٩ ، اللتان جعلتا منه المتصرف الاوحد في شئون السودان ، نيابة عن الدولتين ، وان كل ما في السودان ظل تحت امرته كما هو ، وفقا لاتفاقيات « الحكم الثنائي » ١٨٩٨–١٨٩٩ . وكل ما حدث في معاهدة ٣٦ هو السماح لفرقتين من الجيش المصرى بالعودة للسودان ، واحدة من المشاة تعسكر في جبل اولياء عند الخزان ، والثانية من الاسلحة المضادة للطائرات تعسكر بعضها في بورتسودان وبعضها الآخر في عطبرة .

هذا كله بالطبع داخل ضمن التحوطات الاستراتيجية البريطانية

للدفاع عن السودان ، فى مواجهة الجيوش الطليانية التى كانت تعج بها الحبشة وارتريا .. اما المحاولات الأخرى كتولى المصريين بعض الوظائف فى الخدمة المدنية فقط ، فقد وضع النص الذى يسمح بتعيين المصريين بحيث يكون الحاكم العام هو السلطة المعينة وان المصرى لا يعين الا اذا لم يوجد السودانى الكفئ ، وبالطبع اذا لم يوجد الانجليزى الكفئ ايضاً . وتجدر الاشارة الى ان الوظائف المهنية هى وظائف الخبرة الفنية فقط ، اما الوظائف العليا بسياسة والادارية المكونة لمجلس الحاكم العام او المتصلة بسياسة الحكم فى السودان ، فلا شأن للمصريين بها ، ولم تمسها معاهدة عام ١٩٣٦ . وكانت المادة الحادية عشر وملحقاتها هى مادة السودان فى تلك المعاهدة ، اذ ورد فيها كل ما اتفق عليه الدولتان (ينقل نص هذه المعاهدة من كتاب السودان) الذى أصدرته الحكومة المصرية عام ١٩٥٣ بمناسبة اتفاقية السودان بين مصر وبريطانية .

اما السودانيون المتعلمون فقد قابلو معاهدة عام ٣٦ بالامتعاض وعدم الرضا لأنها اهملت الشعب السودانى اهمالاً وتجاهلت تطلعات اجياله الحديثة نحو امانيه الوطنية ، فلم يستشاروا أو يستأنس برائهم من قريب أو من بعيد فى تلك المعاهدة التى تتعلق بمصيرهم السياسى الذى لم يكفوا عن التفكير فيه ، لا قبل معاهدة عام ٣٦ ولا بعدها ..

هذا فوق ما اقرته المعاهدة من تاكيد لوضع الحاكم العام كسابق عهده ، كسلطة عليا مطلقة تستمد شرعيتها اسماً من مصر وفعلاً من بريطانية فاضفت عليه المعاهدة شرعية لم تكن له من قبل .. ومن جهة اخرى فقد اعطت المعاهدة انطباعاً بأن المفاوض المصرى لم يستفد من تلك الظروف العالمية التى تجمعت فوق اوربا والشرق الأوسط ، والتى اجبرت بريطانيا على تغيير سياستها المتغولة

على مصالح الشعبين ، فى مصر والسودان ، وجعلتها تفكر فى الوسائل السلمية وخلق الظروف الودية التى تؤمن لهم موقفهم فى الحرب الوشيكة الوقوع بينهم وبين دول المحور .. فجاءت نصوص المعاهدة فى جملتها لصالح السياسة البريطانية وحدها .

وقع المعاهدة على المثقفين السودانيين .

وربما كان ذلك ، ليس من قصور فى فهم الساسة المصريين بقدر ماهو ناجم عن طبيعة تكوين هيئة المفاوضات ، التى اشترطت الحكومة البريطانية ان تكون قومية ، ومن جميع الأحزاب ، فتكونت من اشخاص ليس بينهم تجانس ولا تفاهم بل باعدت بينهم الخصومات الحزبية الحادة سنوات طويلة . كما انهم جمعوا على عجل وسافروا الى لندن قبل ان يتم بينهم اى تقارب أو تنسيق فى الافكار ، او الألتقاء على اقل قدر مما يحتمل عرضه أو مجابهته من الصيغ او الأطر السياسة ، كما اشرت من قبل . وهكذا خسروا الجولة ، كأى فريق غير متجانس ، وكسبها البريطانيون بالطبع .

خففت بعض الشئ من علواء الانجليز .

وبالرغم من هذا كله فان بعض السودانيين قد نظروا الى معاهده عام ٣٦ فى بادئ الأمر ، من زاوية ظروفها العالمية ومواقفها عند البريطانيين فاعتبروها فرصة لخلق ظروف جديدة فى السودان ، فيها بعض التخفف من وطأة الاستعمار واضعاف قبضته وانفراده بالسلطة ، مما سوف يتيح لهم الفرصة بعد ان صدمتهم سهم المعاهدة – لكى يحاولوا ان يستفيدوا من ظروف التعاون بين مصر وبريطانيا ، وأتخاذ الظروف الجديدة كمظلة للعمل الوطنى السياسى ، وبالفعل قد افادت المعاهدة من زاوية اخرى ، الخريجين الذين ايقظتهم صدمتها وولدت فى نفوسهم العزم والتصميم على الا يظلوا هكذا كماً مهملاً فى المستقبل .

وهكذا امكن لطلائعهم ان تتحرك .. واخذت اللقاءآت تتم .

بينهم فى العاصمة والجزيرة والأقاليم .. وهدفها جميعاً تجميع الصفوف وتوحيد الأفكار وربط البالاد بفكر موحد ضد الإستعمار .. وفى هذا الجو العابق بالمشاعر الوطنية ، احس الجميع بضرورة قيام هيئة تعبر عن الراى السياسى العام للسودانيين ، ومن حينكا اصبحت خواطرهم مثقلة بهذا التفكير ، حتى صار ديدنهم الذى يسرى فى نفوسهم ويحيطونه بالمهج والأرواح ، بعيداً عن اعين الاستعمار الى ان انبثقت فكرة مؤتمر الخريجين فى قلب الجزيرة وفى اللجنة الأدبية ، على لسان المناضل الكبير احمد خير ، فسارت الأمور فى سرعة عظيمة فولد (مؤتمر الخريجين) فى يوم حشد حاشد من المواطنين بنادى الخريجين فى عام ١٩٣٨ . وتحقق بذلك قيام القلعة الوطنية المرتقبة والمنطلق الأصيل نحو التحرر والأستقلال .

ووقف المرحوم على نور المهندس وشاعر المؤتمر ، فى تلك اللحظة التاريخية العظيمة ، ليعبر عن شعور جميع الخريجين ، فى الإبتهاج المولود الجديد ، ويشير إلى النضال الذى تحملوه فى الحفاظ على فكرة المؤتمر بعيداً عن اعين الرقباء فيقول :

اللّه اكبر هذا الروح اعرفه
اذا تذكرت ايامى ويعرفنى
كنا ننميه سراً فى جوانحنا
حتى استحال الى الإجهار والعلن

هكذا نجد ان معاهدة عام ٣٦ بالرغم من انها كانت صدمة ايقظت عناصر الكفاح الوطنى ، فقد ساعدت من جهة اخرى ، على الحد من غلواء السيطرة البريطانية فى السودان ، بالقدر الذى مكن الخريجين من التحرك والعمل لتحقيق امنيتهم فى اقامة هيئة نعبر عن الراى العام فى البلاد ، وقد تم لهم ذلك بانشاء المؤتمر .....

اما هجرة الطلبة السودانيين لمصر فقد كانت المعاهدة عليها بردا وسلاما ، وذلك لأن المعاهدة ، من حيث هي ثمرة جهد بريطاني بحت قصد به خلق الجو الودي الملائم ، للوجود البريطاني في وادي النيل في تلك الظروف الدولية المنذرة بوقوع الحرب ، وما قدر تجره من غزو للسودان بواسطة الجيوش الايطالية المحتشدة في الحبشة وارتريا ، من حيث ذلك كله فقد تحتم على البريطانيين ان يكونوا منطقيين مع انفسهم – كما يقال – فيسمحوا بالغاء القيود المضروبة على السفر الى مصر .. فجاء احد بنود المعاهدة بالنص على حرية الأنتقال بين مصر والسودان ، وبهذا فتح الطريق للذين هربوا خفية الى مصر من الطلبة السودانيين ... فامكن لهم ان يعودوا الى اهلهم بعد اغتراب دام عدة سنوات ، كما فتح الطريق ايضاً امام كل شاب سوداني يريد الذهاب الى مصر ، للألتحاق بمعاهد العلم فيها دون قيد او شرط ...

المعاهدة وهجرة الطلبة .

حرية الانتقال بين مصر والسودان .

وماكادت تحل العطلة الصيفية عام ١٩٣٦ للمدارس المصرية حتى اخذ الطلبة السودانيون يستعدون للعودة ، ونفوسهم محتشدة بمشاعر الغبطة والارتياح وفي احدى الامسيات الجميلة من أواخر عام ١٩٣٦ ، تحرك القطار من محطة القاهرة بأول دفعة للعائدين .. ويحضرني من اسمائهم : قيلي احمد عمر واحمد الطيب عابدون واحمد السيد حمد وعباس الدابي وقد كنت ايضاً من بينهم ... وكان استقبالنا بمحطة الخرطوم كبيراً .. حفلت فيه المحطة بعدد كبير من الخريجين واعضاء اندية ام درمان والخرطوم والخرطوم بحري ... وفي مقدمتهم شخصيات بارزة . ويحضرني منهم المناضلون : الشيخ محمد الخاتم عثمان وخضر حمد ويحي الفضلي ومحمد أحمد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد واحمد يوسف هاشم والأخ عبد الرحمن صغيرون الخ .

أبتهاج العاصمة بعودة الطلبة من مصر

وماكدنا نحط الرحال حتى احتضنتنا العاصمة باحر ما تحتضن به الأم الرؤم ابناءها العائدين بعد غيبة طويلة . . دعوات كل يوم ولقاءات متجددة هنا وهناك ،احاطنا فيها الأخوة الأصدقاء بكل مظاهر الترحيب والتكريم ، مما ملأ نفوسنا بالغبطة والإمتنان . . فكان عطاؤهم لنا اكثر مما نستحق ، ذلك لأنهم كانوا ينظرون الينا فى الواقع كرمز للكفاح المقبل الذى كان يتطلع اليه ذلك الجيل العظيم ، ويتمنى كل واحد منهم ان ياخذ مكانه بجدارة فيه . . فما اكرمه من جيل واجدره بالتجلة والخلود . . ولم يكتف العاصميون بكل ما غمرونا به من حفاوة ،بل ماكادت تمضى ايام على وصولنا الخرطوم ، حتى اقام الخريجون حفلاً كبيراً ،احتفاء بقدوم الطلبة العائدين من مصر . .

اكبر حفل يعودة الطلبة

وجاءت تلك العصرية الجميلة ، حيث اخذت افواج الخريجين تتدفق على الفندق الكبير بالخرطوم حتى اكتظت بهم ردهاته وابهاؤه . . فكان منظرا مدهشا لم يألفه رواد ذلك الفندق من قبل ، اذ كانوا جميعا من البريطانيين . فتساءلوا ماذا حدث فى تلك الأمسية . .

كان حفلا ضخماً ،بل كان مهرجانا وطنيا ، جمع وجوه العاصمة وكبار الخريجين وشبابهم المستعد الى الكفاح المقبل . . وكانت الكلمات التى تبودلت فى هذا الحفل آية من آيات الولاء للوطن العزيز ، وتعبيراً قوياً عما كانت تجيش به صدور ذلك الجيل المتوثب نحو تطلعات وطنية .

توسيع الهجرة لمصر :

ولما كان توسيع هجرة الطلبة السودانيين لمصر يأتى على رأس أهدافنا بعد عودتنا للسودان ،فقد اتفقنا على ان يذهب بعضنا للاقاليم للدعاية وتشجيع الراغبين فى الهجرة . . على ان يبقى البعض الآخر فى العاصمة لنفس الغرض ،وقد كانت جولاتنا موفقة للغاية . .

فبالرغم من تعاسة الظروف المحيطة بالسودان فى ذلك الوقت مـــن فقر وبؤس ، فقد كنا فى نهاية كل عطلة صيفية ، نرجع الى مصر وقد حصلنا على أكثر من عشرين طالبا ليسافروا كلهم معنا الى القاهـــرة . . .

وكنا نحن نحس أثنا هذا النشاط ، ان سلطات الأمن العام قد عادت لوضعنا تحت المراقبة من جديد ، غير ان الظروف السياسية لم تكن تسمح لها بمنع نشاطنا ولا منع الطلبة من السفر الى مصـــر . . ولهذا اخذت اعداد المهاجرين تزداد عقب كل عطلة صيفية ، حتى اصبحوا بالمئات ،وحتى امتلأت بهم كليات الجامعات والأزهـــر الشريف ، وغيرها من المعاهد العليا والمتوسطة والفنية . . . وحتى اصبح عـــدد طلبة كلية الطب فى اوائل الخمسينات اكثر من عدد خريجى مدرسة كتشنر الطبية فى الخرطوم منذ انشائها فى عام ١٩٢٤.

جواز مرور فى حلفا :

ومن الذكريات التى لاتزال عالقة بذهنى ، ماكنا نقوم به مـــن مناكفات للعم (كاشف) كلما وصلنا ميناء حلفا ،قادمين من الشلال فى عطلاتنا الصيفية . . . فقد انشأت حكومة السودان عقب احداث ١٩٢٤ ، مكتبا فى حلفا لتنفيذ نظام خاص لضبط ومراقبة دخول السودان والخروج منه ، وكان العم كاشف هو المسئول عن ذلك المكتب وهو من ابناء منطقة شمال حلفا . . وهو شخصية طيبة القلب ولكنه لا يخلو من الطرافة فى تصرفاته الخاصة ، اذ كان يبدو متطرفا فـــى تنفيذ اوامر حكومة السودان . . كان يعمل بروح ذلك العهد البعيد ، روح الغطرسة الإستعمارية والأرهاب ، خاصة بعد عام ١٩٢٤. فكان العم كاشف على طيبة معشرة ، يلبس هذا القناع ليخيف به القادمين من مصر ، والذاهبين اليها ، مستعينا بغليونه الذى لا يفارق شفتيه

وكذلك قوامه الفاره البدين . . اذ كان على كل واحد منهم الوقوف امام كاشف (ليملأ بيانات اعدت على ورقة خاصة ،لايسمح بالدخول او الخروج الا بمقتضاها وكان اهم جانب من تلك البيانات بالنسبه لنا ،هو الجنسية او القبيلة ، حيث يطلب منك ان توضح من اى القبائل انت ، ولا يقبل ان تكتب انك سوداني وكان موقفنا من ذلك الرفض طبعا . بل كنا نرفض مبدأ جواز المرور نفسه لأننا كنا نؤمن بوحدة القطرين او اتحادهما . . . . وكان العم كاشف يواجهنا بثورة عارمة . . ويهددنا بأن الحكومة لاتسمح بتكسير اوامرها وانه سيستعمل القوة لمنعنا من دخول السودان ، وفى تلك المرة، كان هناك بعض من الأخوة الموظفين وعلى راسهم الوطنى الغيور المرحوم الدكتور محمد أحمد على ، والذى اخذنا جميعا لتناول طعام الأفطار بمنزله ، وهناك اقنعنا الأخوة بدفع مبلغ الخمسة قروش ،قيمة جواز الدخول واقنعوا العم كاشف ان يترك مسألة القبيلة واثباتها فى ورقة جواز الدخول . . ولم ننتظر نحن العم كاشف ، بل ذهبنا جميعا للقطار الذاهب الى الخرطوم وأخذنا اماكننا فيه . . . وهنا تبدو طيبة العم كاشف ، فقد حضر بنفسه وسلم كل واحد منا الورقـــة التى دفع قيمتها . . ثم ودعنا بابتسامة متسامحة قائلا : (انتم اولادى ولا احب ان يصيبكم اى مكروه . . . مع السلامة) .

ثم دارت الأيام والتقينا بالعم كاشف فى الخرطوم فى اوائل الخمسينات، وكان من المعنيين بشئون الرياضة ، وغليونه لا يزال بفمه وطيبة قلبه التى كانت مقتضيات المنصب فى حلفا تطغى عليها، قد بدت واضحة ، فلا تلقاه الا باسما متلطفا. . . وعندما كنا نعود به الى ذكريات حلفا ، يضحك كثيراً ويقول لنا مداعباً بلهجته المحببة : (الله يجازيكم انتو كنتو اولاد عفاريت)

رحم الله العم كاشف واسبغ عليه واسع رحمته وغفرانه . . . .

وتمضى بنا الأيام فى مصر وتزداد الأتصالات بيننا وبين اخواننا المناضلين فى داخل السودان ،وترد الينا المعلومات تباعا عن مختلف القضايا التى يراد منا خدمتها فى مصر ، و التى يراد المشاركة فيها بالراى وأنى لأذكرهنا بالعرفان والتقديرأن المرحوم الأخ خضر حمد كان أكثر الأخوة أتصالا بنا وتتبعاً لاخبارنا واحوالنا . . وعندما خلوت الى أوراقى القديمة بمناسبة تفكيرى فى كتابة هذه المذكرات وجدت خطابات خضر حمد هى أكثر الخطابات التى كانت ترد الينا بأنتظام وفى كل موقف هام . وحتى حينما يسافر خضر الى خارج السودان ، كان يحاول اشراكنا فى مشاهداته ومشاعره . . كما حدث حينما سافر لأداء فريضة الحج . . . . وكانت مشاهداته مؤلمة فى ذلك الوقت الذى لم يكن البترول قد أكتشف بعد فى السعودية . . . وكانت مناظر البؤس تصطدم الحجاج . . وكانت جماهير الشعب الفقيرة تلاحق الحجيج بالتسول . . وحتى البوليس الذى كان يسير حافى القدمين يشارك مع الشعب فى التسول . . كما ذكر خضر فى خطابه . . وتاخذ الغيره خضر فيقول : أنه سيكتب بذلك كله مذكرة للملك عبدالعزيز بن سعود نفسه . .

خطابات خضر

وحتى فى أمورنا الخاصة أيضا ومداعباتنا التى كنا نتناقلها فيما بيننا فى القاهرة ، كان خضر يكتب لنا مشاركا فيها وكأنه يعيش معنا . .

دعابة ليلى المريضة

وهذا خطاب منه مثلا يسال فيه عن (طبيب ليلى المريضة) ويقصد قيلى أحمد عمر ، وهى دعابة أشرت اليها سابقاً . . . . ومصدرها أن قيلى أشاع أنه مسافر للعراق للتعليم هناك . . وكانت

تظهر فى تلك الأيام مقالات فى الصحف بعنوان (ليلى المريضة بالعراق) ، يكتبها الدكتور زكى مبارك . . ولصعوبة السفر للعراق على الطالب السودانى ، فقد اعتبرت إشاعة قيلى نكتة ، وأطلق الطلبة عليه (طبيب ليلى المريضة) اى أنه مسافر للعراق ليداوى ليلى المريضة وتلقى أخوأننا فى السودان الدعابة . . ولم يقصروا بالطبع . . ولعل الدكتور زكى مبارك قد استوحى القصة من بيت الشعر المشهور :

يقولون ليلى بالعراق مريضة

فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

وبمناسبة الصعوبات التى كانت تواجه الشبان السودانيين فيما يتعلق بالسفر للبلدان العربية والألتحاق بجامعاتها . فان شابين قد اقتحما تلك الصعوبات . . وهما محمد على خوجلى الذى التحق بجامعة دمشق بكلية الطب ، ثم لحق به فيما بعد عمر ابوبكر والتحق بكلية الطب ايضاً ، ومنها سافر الى فرنسا واكمل هناك دراسته وتخرج طبيباً ممتازا ويعمل الآن ببلدته مدينة ودمدنى .

وهذا خطاب آخر من خضر يحثنا فيه على ضرورة فض الخلاف بين الرابطة والنادى السودانى عام ١٩٣٦ ، وينصحنا بالتروى فى الأمور وان نبتعد عن الأضواء مؤقتا ، حتى لانتعرض للتعويق والتعطيل ونحن مقبلون على مواقف اكثر اهمية . . وخطاب غيره يسأل فيه خضر عن مصير المقالات التى استكتبوها من بعض الشبان لنشرها فى عدد خاص لمجلة المصور ، ويقول ان كاتبيها ضيقوا عليه الخناق . . لان — العدد المشار اليه كان قد تأخر اصداره . . وكذلك خطاب يطلعنا فيه على الخلاف الذى نشب بين أعضاء مؤتمر الخريجين فيما يتعلق بالعضوية ، هل تكون من

خلاف عضوية مؤتمر الخريجين

حق كل خريج ولو لم يشترك فى نادى الخريجين ، أم يشترط لعضوية المؤتمر عضوية النادى ؟ ؟

اقترح الطلبة بمصر إنشاء مدرسة ثانوية مصرية بالخرطوم

ويطلب منا خضر أن نشارك برأينا فى المشكلة بصفتنا خريجون وخطاب آخر يتحدث فيه عن أقتراح رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة للمؤتمر ، بضرورة أنشاء مدرسة ثانوية مصرية فى الخرطوم حتى لا يضطر الطالب وهو فى سن تلميذ الثانوى ، الى الهجرة لمصر فيتعرض لتحمل التغرب وللتيارات الأجتماعية الجارفة ،التى قـــد تضر به اكثر مما تنفعه . . فيقول خضر فى خطابه وهو سكرتير عام المؤتمر لعام ١٩٣٩، أنهم قد كونوا لجنه لمقابلة عوض بك ابراهيم وكيل وزارة المعارف المصرية كاشارتنا لهم ، فقابلوه بالفعل وتحدثوا معه باسم المؤتمر فى انشاء المدرسة المنشودة . . .

يريد خضر اقناع (مصر الفتاة) بوطنية المؤتمر .

وخطـــاب آخر يسألنا فيـــه خضر عـــن زعماء (مصر الفتاة) وعـــن محمد صبيح رئيس تحريـــر جريدتهم (الصرخـــة) ويقـــول أنه يريد أن يدخل معه فى حوار طويل ، لانه كتب عدة مقالات عن المؤتمر ، ابدى فيها صبيح ما كان يســاوره وغيره من المصريين من شكوك حول نشاط المؤتمر ، من أنه وليد إستعمارى ويخشون أن يصبح اداة فى يد الأستعمار ، لفصل السودان عن مصر . . . . . ومن أجل هذا اراد خضر حمد أن (يدخل مع صبيح فى حوار طويل) لكى يجلو له ولغيره الحقيقة التى خفيت عليهم ، والواقع أن الشكوك حول المؤتمر قد ظلت عالقة باذهان المصريين ، الى أن حدثت زيارة على ماهر باشا رئيس الحكومة المصرية للسودان ،ومعه كبار بعض المصريين ، كصالح حرب باشا وعبدالقوى أحمد باشا الوزيرين فى وزارة على ماهر .وقد راى على ماهر ومرافقوه بانفسهم مدى ماكان يعانيه المؤتمر من عداء حكومة السودان له وتعويقـــها لطموحاته واعماله الوطنية ، على العكس مما كان يظنه المصريون . .

زيارة على ماهر ازالت الشك فى المؤتمر .

كذلك شهد على ماهر وزملاءه مدى ماكان تعمر به نفوس قادة المؤتمر من روح وطنية عالية ، وشجاعة ادبية يقل نظيرها بين الشعوب المستعمرة ... لقد ارادت حكومة السودان الا يحتفل مؤتمر الخريجين بعلى ماهر ، فاشارت بالا يكون لقاؤه بأعضاء المؤتمر اكثر من زيارة عادية ... وجاء برنامج الزيارة الرسمى للحكومة خلواً من اى فرصة للمؤتمر لتكريم ضيفه العظيم ... ولكن رجالات المؤتمر حز فى نفوسهم تدخل الحكومة فى شئون المؤتمر لهذا الحد ، لذا قرروا الآ يرضخوا لامرها وصمموا على اقامة اكبر حفل ممكن لتكريم على ماهر ، وليكن ما يكون .. وهكذا التقطوا القفاز من الحكومة ، وراحوا يبذلون جهوداً مضادة لها ، لدى الرئيس على ماهر ، حتى جعلوه يتفهم موقفهم تماماً ويستجيب لدعوتهم لاقامة حفل التكريم الذى يريدونه كما يشاؤن ، فسجلوا بذلك انتصاراً ساحقاً على الحكومة ، واسقط فى يد حكومة السودان ولكنها ابتلعت فشلها على مضض ..

وجاء يوم الاحتفال ، وتدفقت الجماهير على نادى الخريجين ، ودار المؤتمر ، حتى ضاقت بهم ساحة النادى وردهاته واسطحته ، وضاقت حتى الشوارع المحيطة به ، واصبح المنظر كالبحر المتلاطم الأمواج .. جاؤا من كل حدب وصوب ليشهدوا على ماهر وزملاءه على مدى ما يكنه الشعب السودانى لمصر من حب واعزاز ، وأن ذلك المهرجان أو المظاهرة الوطنية الكبرى لتكريم على ماهر هى التى تمثل الشعور الحقيقى للشعب السودانى ، وليس ذلك البرنامج الباهت الذى اعدته لهم حكومة السودان .

شهد على ماهر كل تلك المباراة العنيفة بين المؤتمر وحكومة السودان ، فأمتلأت نفسه أكباراً لقادة المؤتمر وأعضائه ، وأيقن أن

الحقيقة فيما يتعلق بالمؤتمر ، على خلاف ما كانوا يحملونه عنه من أفكار خاطئة ... فهو فى الواقع قلعة وطنية منيعة وأعضاؤه قادرون على الوقوف فى وجه الأستعمار ، إذا ما توحد كفاحهم وكفاح الشعب المصرى .. وهكذا عاد على ماهر الى مصر ونفسه ممتلئة بالثقة فى المؤتمر وشبابه .. وأصبح داعية له بين المصريين فتبددت الأفكار الخاطئة وأتضح الطريق بين قادة المؤتمر وقادة مصر بفهم جديد وتعاون أكيد ..

(صور من خطابات خضر حمد)

تصدى الطلبة للدفاع عن المؤتمر

وظل الطلبة السودانيون بمصر يعملون من جانبهم على تقوية صلاتهم بمؤتمر الخريجين ، بالرغم من الأصوات القليلة التى كانت ترمى إلى التشكيك فيه ، أستنادا الى أن حكومة السودان قد شجعت على انشائه . ولكن كان الرد ، أن الأستعمار كثيراً ما ساعد على إنشاء مؤسسات وطنية ، ظنا منه انها ستخدم أغراضه ... ولكن ما تكاد تلك المؤسسات تستوى على قدميها ، حتى تصبح معقلا من معاقل الوطن ... ولنا مثل فى كلية غردون ، ونادى الخريجين نفسه ، الذى قال عنه أحد كبار الأنجليز أنه (سيلعب دوراً هاما فى تاريخ هذه البلاد) ..

التعاون مع المؤتمر على بعض الاهداف الوطنية

وعلى طريق التعاون مع المؤتمر وجد الطلبة فرصا طيبة لإثارة بعض الموضوعات التى يمكن تزويد المؤتمر بها .. كموضوع قفل جنوب السودان ، وضرورة القيام بالتبشير الإسلامى فيه ، وكأنشاء مسجد مدينة جوبا عاصمة المديرية الإستوائية .. وكموضوع إصلاح معهد امدرمان الدينى وتطويره عن طريق تتبيعه للأزهر الشريف .. ثم موضوع إنشاء مدرسة ثانوية بالخرطوم .. ومن

نمو حدة الطلبة بمصر .

أجل هذا فقد بدأت تتم لقاءات كبيرة أو مؤتمرات بين الطلبة المدنيين وطلبة الأزهر ، *بقصد التفاكر في تلك الموضوعات* والعكوف على دراستها وتقديم مذكرات بشأنها للمؤتمر وللمسئولين في مصر والسودان . . وتوالت المؤتمرات مرة في حي الأزهر ومرة في دار اتحاد كليات الجامعة بشارع المناخ ، وأخرى في رابطة الشباب العربي بميدان عابدين . . . وقد كانت هذه الرابطة تضم مواطنين من مختلف البلاد العربية . . . ويرأسها أحمد زكي باشا شيخ العروبة كما كانوا يسمونه . . وسكرتيرها هو الأستاذ أحمد ربيع المصري الذي كان موظفا بوزارة الأوقاف المصرية كما أشرت سابقاً . .

وخرجنا من تلك المؤتمرات بمذكرات مدروسة ومقترحات محددة عن كل موضوع تم بحثه .. ورفعت كل المذكرات لمؤتمر الخريجين ، كما أرسلت نسخ منها للمسئولين في الخرطوم والقاهرة. ومن الفوائد الكبيرة التي تحققت لمجتمع الطلبة السودانيين بمصر نتيجة لتلك المؤتمرات المشتركة بين الأزهريين والمدنيين ، هي وحدتهم الشاملة ، فقد حرصنا على عقد اكثر الأجتماعات في حي الأزهر سواء في رواق السنارية او المساكن الأخرى في امالغلام او في قبة الغوري وغيرها ، فكانت من جهة اخرى علاجا للقضاء على نغمة (مدنيين وازهريين) ، التي أخذ يرددها بعض المعرضين ، من أعوان حكومة السودان بأسلوب خبيث يرمي الى التفرقة وأثارة الفتن في محيط الطلبة ، ولكن وعى الطلبة من الفريقين وتعاونهم المستمر في القضايا الوطنية ، قد قضى على تلك المساعي الخبيثة . .

معهد امدرمان العلمي :

وعندما جاء دور البحث في تطوير معهد امدرمان العلمي

والحاقه بالأزهر الشريـــف ، قررنـــا فى: الجلسة الأولى ، الكتابة لمؤتمر الخريجين العام وتكليفه بالأتصالات اللازمة بالمسؤلين . وفى الجلسة الثانية خرجنا فى شكل مظاهرة وذهبنا الى مكتب الأستـــاذ الأكبر مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت . . وأذن لنا فضيلته بمقابلته . .

لقاء الطلبة بالشيخ المراغى.

تحدثنا اليه عن سوء حالة المعهد العلمى بامدرمان، وما كان يعتور طريقه من الضعف، الذى لا يمكنه من النهوض بأعباء رسالته كمعقل للثقافة الأسلامية والعربية . . وأن السياسة الإستعمارية تعمل بكل دهاء وخبث لأضعافه وأبقائه عاجزا عن خدمة أهدافه الدينية والثقافية . . وقدمنا لفضيلته مذكرة تحمل الأدلة القاطعة على صدق ما ذهبنا اليه . . وأهمها أن ميزانية المعهد كانت كلها ثلاثة آلاف جنيه فى العام ، بينما كانت ميزانية المدارس التبشيرية فى الجنوب تربو على المائة ألف جنيه فى العام . . وهى معادلة واضحة الدلالة . .

وأصغى الشيخ المراغى الينا جيدا ، ثم شكرنا على غيرتنا على الدين والوطن ، وأبدى تعاطفه معنا وأنه يرغب من صميم قلبه فى تحقيق مطلبنا . . . ولكنه عاد وقد علت وجهه إبتسامة ساخرة ليقول لنا . . ولكن يا أبنائى أنا أعرف السودان أكثر منكم بحكم سنى وخدمتى فى السودان لعدة سنوات ، كقاضى قضاء ، فأخشى إن اتخـــذت قرارا بضم معهد امدرمان الى الأزهر ، أن ياتينى الرفض ليس من حكومة السودان وحدهـــا، بل من زعماء السودان أيضا فأنا على استعداد لتلبية مطلبكم بشرط أن تحضروا لى موافقة السادة على الميرغنى وعبدالرحمن المهدى ، والشريف يوسف الهندى .

اشتراط المراغى احضار موافقة الزعماء الدينين الثلاثة .

وخرجنا من عند الشيخ المراغى وأذهاننا مشغولة بالتفكير فى

من نرسله الى السودان ليتصل بالسادة الزعماء ويحضر لنا منهم موافقتهم التى يطلبها الشيخ المراغى . . ولحسن الحظ كان المواطن الكبير على البرير معتزما السفر للسودان ، فكانت فرصة طيبة ، لما يتمتع به على البرير من كياسة ولباقة . . فعهدنا إليه بالمهمة الكبيرة وكللت سفارة على البرير موفقة الى حد كبير فقد استطاع أن يحصل على الموافقة المطلوبة من كل من السيد على الميرغنى والشريف يوسف الهندى وكذلك السيد عبد الرحمن المهدى الذى وافق ولكنه أبدى بعض التحفظات ، وأهمها الا يكون معهد امدرمان نسخة من الأزهر الشريف . .

على البرير قام بالمهمة .

ولكن مع الأسف فأن إضطراب الأحوال السياسية فى مصر وتقلب الوزارات فى تلك الأيام وابعاد المراغى من الأزهر ، قد جعل التنفيذ يتوقف ، غير ان مساعى الطلبة لم تذهب سدى ، بل كان لها أثرها الأكيد فى مجرى الأمور فى العلاقات بين الأزهر ومعهد امدرمان العلمى . . فقد أخذ الأزهر يبدى عنايته بمعهد أمدرمان فى شكل انتدابات للأساتذة للتدريس أو هبات مالية أو هدايا من المطبوعات من وقت لآخر . . خاصة بعد أن عين فضيلة الشيخ محمد المبارك عبد الله شيخا لمعهد أمدرمان العلمى ، وهو من اوائل السودانيين الذين تخرجوا فى الأزهر الشريف .

هذا وان مؤتمر معهد أمدرمان قد كان له صدى واسعاً فى السودان ، فحفلت به الصحافة وحملته الينا الخطابات والرسائل التى كانت ترد الينا بالتشجيع والتأييد . . فهذا مثلا خطاب فضيلة الشيخ مدثر البوشى الوزير الأسبق ، عثرت عليه بين اوراقى القديمة يحيى فيه مؤتمر أصلاح المعهد العلمى ويباركه ..وهذا خطاب أيضا

من الأستاذ أحمد يوسف هاشم رئيس تحرير جريدة النيل ، يحيى فيه تحركنا لأصلاح معهد أمدرمان ، ويقول أنه كتب عنه مقالا في جريدة النيل ، وارسل الجريدة للأستاذ بشير عبد الرحمن ، كما يرحب بسفرائنا الذين أزمعنا إرسالهم للخرطوم لأحضار موافقة الزعماء التي يطلبها الشيخ المراغي . . ولكن أحمد يوسف قد أبدى بعض التشاؤم لأعتقاده بأن المراغي ذو نزعة إنجليزية معروفة . . كما أننا لو عرفنا أن الزعماء الدينيين لم يستطيعوا شكر الملك فاروق عندما أنعم عليهم بالرتب والنياشين، حتى تولاه عنهم حاكم السودان العام — لما طالبناهم برغبة الشيخ المراغي . . كذلك نجد لمؤتمر إصلاح معهد أمدرمان صداه في دوائر مؤتمر الخريجين . . فقد كان ذلك واضحا في المذكرة الضافية التي رفعها المؤتمر لعلي ماهر باشا في الأحتفال الضخم الذي أقامه المؤتمر لتكريمه ، بمناسبة زيارته للسودان في عام ١٩٤٠ كأول رئيس للحكومة المصرية يزور السودان هو في الحكم . .

قفل الجنوب :

وفيما يتعلق بقفل الجنوب في وجه أبناء الشمال والمطالبة بأعادة فتحه بالغاء قانون المناطق المقفلة ، وضرورة القيام بتبشير إسلامي في ربوعه . . فقد ذهبت مذكراتنا بشأنها الى المؤتمر والى المسئولين في السودان ومصر . . وكان حماس الطلبة لهذا الموضوع بالغا فكونوا له لجنة خاصة لصياغة المذكرات وكان من بينهما فضيلة الشيخ عوض سم ساعة الذي أصبح اول إمام لجامع جوبا بعد إتمامه ومن طرائف تلك اللجنة ، أن لحظة فكهة قد مرت أثناء قراءة مذكرة الجنوب ، وذلك عندما رفع قيلي أصبعه في خبث ليلفت أنظارنا الى فقرة كان قد ضبطها الشيخ سم ساعة بعناية ، في صياغة

المطالب الخاصة بأعادة فتح الجنوب ، وهى قولة (وفك الأقفال المسمطة على أبواب الجنوب) . فأراد قيلي أن يوقفنا على ما فيها من طرافة فى الإلفاظ والتركيب . . ودارت مناقشات فكهة لتغييرها ولكن الشيخ سم ساعة أصر على أبغائها فبقيت كما هى . . .

جامع جوبا :

لقد كانت الكنائس ، منذ ان عرفتها افريقيا بوجه عام والسودان على وجه الخصوص ، مقدمة للأستعمار ومعينة له على تثبيت اقدامه وتحقيق اغراضه في اى بلد اوقعته الأقدار القاسية تحت طائلته . . . وكنائس جنوب السودان بنوع خاص كانت على الدوام المطيــة الذلول للأستعمار يعاونها وتعاونه على الأثم والعدوان . .

وقد جاء قانون المناطق المقفلة بردا وسلاماً على الكنائس فــى الجنوب ، حيث واتتها الفرصة كاملة للانفراد بالجنوبيين واطلاق يديها في العمل كما تشاء ويشاء لها الأستعمار ، فى غيبة الرقابة الشمالية . كانت التربية الخبيثة التى تنطوى على الشر لكل ما هــو شمالى ، والتنشئة الآثمة التى تملأ بها القلوب بالكراهية والحقــد وايغار الصدور ، وبكل ما يحض على التفرقة بين أبناء الوطن الواحد وذلك حتى يصبح فصل الجنوب عن الشمال أمنية لكل واحد مــن أبناء الجنوب، واكيلا نترك أخوتنا الجنوبيين نهباً لتلك المطامع الآثمة فقد كتبت رابطة الطلبة السودانيين بمصر لمؤتمر الخريجين ، مقترحة أن يعهد المؤتمر لنفر من المعنيين بشئون الجنوب ، باعداد خطة علمية مدروسة ، للعمل على مناهضة نشاط الكنائس المسموم في الجنوب . . ولتكن البداية بأنشاء مسجد في مدينة جوبا العاصمة للمديرية الاستوائية ، على ألا يقتصر على الصلوات وحدها ، بل يوضع له

جامع جوبا

نواة المركز الاسلامى والثقافى العربى

برنامج كبير يجعل منه نواة أو مركزا للثقافة الإسلامية فتضم اليه مكتبة اسلامية وايضا مكتب لتعليم القرآن ، ومعهد لتدريس العلوم الاسلامية ، وتأمينا لمستقبل الطلبة فى هذا المعهد ، تلحق به وحدات للتدريب المهنى والحرفى ، كالمكنيكا والبناء والنجارة والحدادة

والحياطة.. الخ. حتى يصبح خريج المعهد قادرا على إقتحام دروب الحياة وكسب العيش الشريف ، والمهم فوق هذا كله أن المعهد بهذه الصورة المتكاملة سوف يكون جهازا لصياغة أبناء الجنوب المتخرجين فيه صياغة جديدة ، فيقدم لمجتمع الجنوب مواطنا رحب الأفق ، لايهتم فقط بكسب العيش الذى أصبح قادرا عليه ، بل ان إهتمامه ليمتد ويتعلق بقيم أخرى روحية وفكرية ووطنية معا . . .

فهو إبن الاسلام الذى إعتنق تعاليمه الحنيفة ، وأمتلأ قلبه بروحه السمحة فأصبح داعية للخير ، ناهيا عن الشر ، ومبشرا بالمحبة والسلام ، لاعنا العداوة والخصام . . الشمالى والجنوبى عنده سواء تجمع بينهم وحدة الوطن ، ولا يفرق بينهما الدين أو اللون ، فهما وجهان لعملة واحدة هى السودان . .

أو كما قال شاعر المهجر :

لا ينبت الدين بعضا فى مزارعنا
مهما أخو الجهل من أشواكه بذرا

أو كما يقولون : (الدين لله والوطن للجميع . .) من أجل هذا ذهبت رسائل الطلبة ومذكراتهم بشأن جامع جوبا للمؤتمر ولمختلف الجهات والشخصيات الكبيرة فى مصر والسودان ونشرت الصحف نداءهم للخيرين لمد العون للمشروع النبيل ، كما نشرت صورة المظاهرة التى سارت فى شوارع القاهرة ، منادية بأهمية

جامع جوبا ، ومناشدة الجميع الأهتمام بجنوب السودان . . ومـــا كادت تمضى أيام على ذلك ، حتى شعرنا بالصدى الواسع الذى أحدثه تحركنا فى القاهرة . . فقد أخذت ترد علينا الرسائل مباركة ومشجعة ، وكان أهمها تجاوب الأمير الجليل عمر طوسون ، فكان تتويجاً لجهودنا اذ تبنى الأمير المشروع ودعا الى تكوين لجنة لجمع التبرعات ، ومتابعة العمل لانجاز المشروع . . وكونت اللجنة بالفعل وكان رئيسها فؤاد أباظا باشا رئيس الجمعية الزراعية الملكية ، وفقا لأختيار الأمير طوسون وباشرت اللجنة عملها ، فسعت اولا إلى الجهات المسئولة وتحصلت على موافقة حكومة السودان . . ثم أقبلت على جمع التبرعات ، وكان أعضاء اللجنة ممثلين لمختلف الأتجاهات السياسية والهيئات الكبرى ، فمنهم السودانيون كعلى البرير ومصطفى أبو العلا والمصريون كعبد الرحيم سماحة ممثلا لحزب الوفد وكعبدالله حسين ممثلا لجريدة الأهرام والصحافة بوجه عام . .

وهنا يجدر بى ان أذكر – بالرغم من وهن الذاكرة – ان هناك جهودا جليلة سبقت جهود طلبة القاهرة ، وهى ان إخوتنـــا فى جوبا قد تقدموا لمفتش المركز الأنجليزى بطلب لاقامة مسجد لهم فرفض المفتش طلبهم بصورة فيها استفزاز وتحد ، مما اثار مشاعر الناس فتصدى للموقف فى الحين شيخ جليل هو الأستاذ عبدالرحمن أحمد رئيس تحرير جريدة السودان فى ذلك الوقت ، منددا بمسلك المفتش الأنجليزى فايقظ بذلك المشاعر الدينية والحس الوطنى فى كل من السودان ومصر . . . . وكان تحرك الطلبة فى القاهرة فى واقع الأمر تجاوبا مع اصداء مقال الشيخ عبدالرحمن أحمد عـــن جامع جوبا ، طيب الله ثرى شيخ الصحافة وأجزل المثوبة والغفران .

واخيرا توجت الجهود بقيام مسجد جوبا كصرح إسلامى شامخ وسط ذلك الضباب الكثيف المنعقد فى سماء الجنوب ، نتيجة لتعاون السلطات الإستعمارية مع الكنائس ، لكى تحجب الرؤية عن ابناء الجنوب وأبناء الشمال معا ، فلا يهتدون الى الطريق الصحيح . . . وبعد أتمام المسجد أخذت اللجنة تفكر فى إختيار الأمام المناسب له وأعترفت بفضل مؤتمر الطلبة ومبادرته بالدعوة لأنشاء جامع جوبا ، فقد استانست لجنة المسجد برأيهم فى ترشيح أول إمام له . . . وكان هناك مرشحون ثلاثة هم عمر عوض السيد ، ومحمد طه ، وعوض سم ساعة . ورشح مؤتمر الطلبة الشيخ عوض سم ساعة لأشتراكه فى كل الجهود التى بذلت ، وانشاطه المعروف ، ولكونه أقرب المرشحين الى الشباب العاملين فى هذا الميدان . فعين سم ساعـــة وسافر الى جوبا وتولى أمامة المسجد الوليد . . وما كاد المقام يستقر بسم ساعة حتى أخذ يفكر فى أبعاد رسالته التى لا تقتصر على إقامة الصلوات ، بل تمتد الى نشر مبادىء الأسلام والثقافة الأسلامية والعربية بين أهل الجنوب ، فكانت باكورة جهوده فى هذا السبيل ان ألف كتيبا فى مبادىء الفقه الأسلامى بلغة بسيطة يفهمها أبناء الجنوب . .

اول أمام للمسجد من اعضاء مؤتمر الطلبة عوض سمساعة .

وكان هذا آخر عهدنا بموضوع جامع جوبا .. فقد تفرقت بنا السبل والمشاغل والأحداث ، فلم يجد جامع جوبا بعد قيامه فرصة للعناية ، كتلك التى تجمع فيها الطلبة السودانيون بالقاهرة فى الثلاثينات ، ولم يجد منا من يتابع تنفيذ الخطوات المكملة لمشروعه ، كما رسمناها له أول مرة . . . وكان فى مؤتمر الخريجين خير ضمان لمثل ذلك المشــــروع . . .

والواقع أن ما رسمناه من برنامج عملى لجامع جوبا ، قد كان مستوحى من السياسة

التى كانت تسير عليها الكنائس فى هذا المجال وأوضح مثل لها كنيسة (الرومان كاثوليك) بمدينة واو عاصمة مديرية بحر الغزال ، وهى عبارة عن عمارة ضخمة تضم وحدات لمختلف الحرف والصناعات التى يلتحق بها الأولاد المسيحيون ، ليتعلموا ويتخرجوا فى النهاية ، صناعاً يستطيعون كسب عيشهم .. ولا تزال الكنائس فى الجنوب تقوم بهذا الدور الفعال ، لأنها تعتمد على تنظيمات عريقة ، هى الجمعيات التبشيرية ومجلس الكنائس العالمى ، فى اوربا وامريكا وهى ذات موارد مالية طائلة ، تجعلها قادرة دوماً على الإنفاق على أعمالها التبشيرية الواسعة النطاق .. أما جامع جوبا وما رسم له من برامج فمع الأسف ليس وراءه شئ من هذا ..

زيارات لها وزنها :

كانت ظروفنا قاسية أول عهدنا بالقاهرة ومن كل الوجوه ، وخاصة وسائل المعيشة والألتحاق بالمدارس ، وكنا نحس وطأة الغربة ونحن فى سن باكرة من عمرنا .. ونتلهف لأخبار السودان ، ولرؤية أى قادم منه . وأكثر ما كان يرفه عنا هو الخطابات التى تصلنا من أصدقائنا فنقرأها أكثر من مرة .. وفى غمرة هذا الشعور بوطأة الغربة ، جاءتنا مفأجاة سارة جداً فى صيف عام ١٩٣٤ الا وهى زيارة السيد اسماعيل الأزهرى لنا فى منزلنا بحى الوايلس بالعباسية دون سابق علم بها .. فكانت فرحة عظيمة لما كان للسيد اسماعيل الأزهرى من مكانة كبيرة فى نفوسنا كاستاذ لنا فى كلية غردون ، ولانها أول زيارة من السودان منذ وصولنا مصر .. وكان السيد الأزهرى فى طريقه لبيروت لقضاء جانب من العطلة الصيفية كما اشرت سابقاً ، ثم جاءنا بعد الرئيس الأزهرى

المجاهد الكبير المغفور له خضر حمد ، فى صيف عام ١٩٣٤ ايضا وبعده الأستاذ الكبير الهادى ابوبكر فى نفس الصيف وقد أقام معنا الهادى فترة تزيد عن الشهروكان من أهم أغراضهم جميعاً معرفة ظروفنا والوقوف على كل أحوالنا ، وتشجيعنا على المضى فى طريقنا الشاق .

زيارة خضر حمد والهادى أبوبكر واسماعيل العتبانى

وجاءت بعدهم زيارة الأستاذ الكبير أسماعيل العتبانى ، فى عام ١٩٣٤ وقد قضا معنا وقتا ممتعا ، وابتهجنا به ايما ابتهاج — فهو احد الحادبين على رحلة الطلبة لمصر . . فامتعنا ابوالسباع باحاديثه الطلية واوقفنا على آخر ما كان يدور فى اواسط المتعلمين من أفكار وتحركات . . فكان لتلك الزيارات وقعها الأكيد عندنا ومنحتنا دفعة قوية للأمام . . ومن الزيارات الهامة التى فاتنى ذكرها ،زيارة الأستاذ الكبير أحمد عثمان القاضى واسهامه فى الدعاية للسودان بمحاضرة قيمة فى دار رابطة الشباب العربى بالقاهرة ، وقد ذكرنى الأستاذ الهادى ابوبكر بكل تفاصيلها فرجوته ان يكتب شيئا عنها فكتب الآتى :—

النشاط الدعائى للسودان .

فى صيف عام ١٩٣٥ زار مصر الأستاذ المرحوم أحمد عثمان القاضى رئيس تحرير جريدة الحضارة ، فانتهزت رابطة الشباب العربى تلك الفرصة فدعته لالقاء محاضرة عن السودان ، وأعلنت عن المحاضرة فى الجرائد اليومية ، كما وجهت الدعوة الخاصة لنفــر من المهتمين بالدعوة العربية ، اذكر منهم الدكتور محجوب ثابت والدكتور عبدالرحمن الشاهبندر احد كبار المجاهدين السوريين والشاعر الهبهاوى ، وغيرهم من رجالات المجتمع العربى . وكانت من وحى الطلبة السودانيين المنتمين للرابطة والذين كانوا لا يتركون فرصة مواتية للتعرف بالسودان الا اهتبلوها . كانت المحاضرة التى

أمها جمع غفير من قطاعات المجتمع شايقة ، فتحدث الأستاذ القاضى حديثاً طويلا معرفا بالسودان ونهضته العلمية والأدبية واقبال شبابه على المعرفة ومتابعته لما يحدث فى البلاد العربية وفى مصر على وجه الخصوص ، وعن احساس الشباب السودانى بانتمائه العربى وتطلعه للمشاركة مع ابناء العروبة باسلوبه المميز ، وفى نهاية حديثه افسح المجال لمن رغب فى اسئلة خاصة . . وكان يرد عليها بنفس مستوى حديثه فى المحاضرة ، الا ان احد الشباب المصريين طلب من المحاضر ان يتكلم للسامعين باللغة السودانيه شيئاً ما ، وكان السائل يظن ان أهل السودان لا يتكلمون العربية ، وهنا انبرى له الدكتور محجوب ثابت – بعد ان استاذن المحاضر وكان غاضبا غضبا شديدا اخرجه من وقاره فقال للسائل (يحرا دينك) ثم اندفع يتحدث عن جهل الشعب المصرى بابسط المعرفة عن البلاد العربية وأنحى باللائمة على كتاب مصر وعلمائها وقصور البعثات التعليمية عن التعريف بشعوب الأمة العربية . وذكر انه كان فى جولة له فى بعض البلاد العربية القريبة ، داعيا للتضامن العربى ، فاحرجه احد الحلاقين الذى قدم له جريدة مصرية لينشغل بها اثناء الحلاقة ، واذا أنه يفاجأ بمقال طويل لكاتب مصرى – لعله كان سلامه موسى – يدعو فيه للفرعونية فالتفت الى الحلاق ليجده ينظر اليه وفى وجهه ابتسامة خبيثة . وعلق على المحاضرة الدكتور شهبندر والقى الهبهاوى قصيدة ، ثم وقف الدكتور محجوب ثابت وطلب من الفنان السودانى المرحوم محمد أحمد سرور ، ان يغنى قصيدة (هلالى الهلا واتكمل) وكان قد سمعها منه فى السودان حين زاره مع الوفد الزراعى ، وكان المرحوم سرور فى زيارة لمصر فدعاه الطلبه السودانيون ليغنى فى نهاية المحاضرة ، زيادة فى التعريف

بالسودان . ولما جاء فى القصيدة البيت

هواه بجسمى اتخلل مجارى الدم اذا اتحلل

صاح الدكتور محجوب : وهو ما بيعرف المايكرسكوب ولا بيعرف التحلل . انما اوحت له الطبيعة والفطرة السليمة ان الدماء اذا اختلطت فأنه لا سبيل الى فصلها . ثم تحدث كثيرا عن لهجات اللغة العربية فى مناطق السودان وقبائله وقارن بين الامالة عند الشايقية والامالة فى لهجة عبدالرحمن شهبندر الذى حدثكم عن القضية العربية . بلهجة اهل الشام . . .

محي الدين جمال :

وفى مطلع الأربعينات زار القاهرة المجاهد الكبير محى الدين جمال ابوسيف ، والتقى بصديق العمر وزميل الكفاح ، المغفور له بشيرعبدالرحمن المهندس الزراعى . . واحتفى به بشيرغايــة الإحتفاء . . وسعدنا كلنا بتواجد محى الدين بيننا بالقاهرة . .

كانت لنا مع محى الدين جلسات امتعنا فيها باحاديثه الشايقة عن الحركة الوطنية فى عهدها الأول ايام (جمعية الأتحاد) . . . . . التى كان هو من ابرز اعضائها . . . .

وهم فيما اذكر : عبيد حاج الأمين — توفيق صالح جبريل — سليمان كشة — الأمين على المدنى — البدرى الريح — خلف الله خالد — محمد على شوقى — بابكر القبانى — محمد عبد الله العمرابى مختار محمد محمود — محمد صالح الشنقيطى — محمد ولى وآخرين . كما حدثناعمّا كانت تقوم به تلك الجمعية من نشاط ومغامرات وطنية ، فى احلك الظروف واشدها خطرا على الأحرار والمجاهدين ، كما عرفنا منه الكثير عن اول هجرة للطلبة الى مصر ، وكيف كان هو وزملاؤه الأحرار يعملون على تمكين الرعيل الأول منهم ، من السفر ومساندتهم حتى لحظة وداعهم بمحطة الخرطوم ، وهم المغفور لهما توفيق أحمد

البكرى وبشير عبدالرحمن ثم الدرديرى أحمد أسماعيل

وزيادة فى الإحتفاء بمحى الدين ، كان بشير يأخذه لمقهى الجمال بشارع عدلى بالقرب من ميدان الأوبرا ، حيث يتوفر الهدوء والرواد الخواص ، ولم يكن يجلس فى الجمال من السودانيين فى ذلك الزمان غير الوجيه على البرير.. وفى أحد الأمسيات ، جاءت احدى بنات الزاوات ، وجلست بالقرب من محى الدين وبشير وكانت على جانب كبير من الجمال والأناقة . . . ولدهشة الصديقين انها ابدت رغبة فى التحدث معهما . . وبالفعل جاذبتهما اطراف الحديث ، وسألتهما عن السودان باهتمام . . مما كان له وقع عميق فى نفس جمال وصديقه بشير الفنان المرهف الحس ، كما تدل عليه اغتياته العاطفية عن السودان ، والتى غناها ، أحمد المصطفى وإسماعيل عبدالمعين وسيد خليفة وابراهيم عبدالجليل . . الخ .

اغنية (ست العربية).

فطلع علينا بشير فى اليوم التالى بأغنيته المشهوره (ياست العربية) التى غناها ابراهيم عبدالجليل ورددها الجمهور فى السودان لعدة سنوات .

عربيتك الصالون   خضرة وجميلة اللون ياست العربية
وقوله : دى قعدة فى الجمال   شغلت على البال   ياست العربية
. . . .   وخليت صديقنا جمال   ياست العربية

ثم يأخذ بشير صديقه محى الدين جمال فى جولة للنزهة ، فى حدائق الفردوس بالجزيرة غرب النيل ، ويذهب به الخيال الى (غادة الجمال) فيخاطبها وكأنه معها فيقول :—

يالله الجزيرة نكوس   فى حديقة الفردوس ياست العربية
نشرح هوانا جلوس   ونسعد نفوس بنفوس ياست العربية

ويعرج على تمثال سعد زغلول : القائم على مدخل كبرى قصر النيل من الجهة الغربية :

اهو داك ابو الأشبال وسعدنا فى التمثال ياست العــــربية
ده الدوخ الأبطال وجاب لينا الأستقلال ياست العــربية

وبهذه المناسبة ، فان بشير كان يؤمن بوحدة وادى النيل دون تحفظ وينتمى لحزب الوفد المصرى . . كما كان يزور مصر ايضا فى تلك الأيام السيد محمد الخليفة شريف القطب الإستقلالى المعروف . . وقد تكونت بينه وبين بشير صداقة حميمة بالرغم من اختلاف اتجاهيهما ، السياسية . . وعندما عاد السيد محمد الخليفة شريف الى السودان سعى مع بعض المواطنين لدى حكومة السودان لايجاد وظيفة لبشير فى مصلحة الزراعة بالخرطوم ، وتم لهم ذلك ، وجاءت لبشير الدعوة بالسفر للخرطوم للعمل هناك ، ولكن بشرط أن يترك مصر نهائيا . . . فسجل بشير رفضه لتلك الدعوة فى قصيدته (ياست العربية) فقال :ـ

طلبوه للتوظيف وقالوا لى سيب الريف (ياست العربية)
أنا ما بسيب الريف لو كان نفر فى رديف (ياست العربية)

وفى القصيدة ابيات اخرى ، يتمسك فيها بشير بالوحـــدة الأندماجية ذهبت كلها مع الذاكرة ، ولكنى اذكر شطرا من احد تلك الأبيات نصه : (من جوبا للمكس) أى أن حدود دولة الوحدة من الجنوب جوبا عاصمة الأستوائية ، ومن الشمال هى المكس الواقعة على البحر الأبيض المتوسط غرب الأسكندرية . . . .

ولم يرض هذا الأتجاه المتطرف نحو وحدة وادى النيل مـــن بشير بعض الشبان المثقفين فى السودان . . وكان فى الخرطوم شاب

عرف بحماسه الوطني في اوساط المتعلمين ، هو المرحوم خضر حسن سعد ، الذى كان يزاول نظم الأغانى العاطفية والوطنية مثل بشير عبدالرحمن ، فنظم اغنية معارضة لبشير غناها حسن عطية والأغنية هى : (ياشباب الوطنية الحرية الحرية) ، معارضا بها (ياست العربية) ولقيت اغنية خضر بعض الرواج عند المتعلمين . . . ومن الطريف ان أذكر اننا فى امسياتنا بمقهى متاتيا بالقاهرة ، كنا نمازح الأخ بشير احياناً ، عوض عقارب وأنا ، بمداعبات حول تطرفه في وحدة وادى النيل . . ونعمد احياناً الى اثارته ، بنظم ابيات من الشعر ، نعارض فيها بعض ابياته كما فعلنا ، حين عارضنا قول بشير : (أنا مابسيب الريف لو كان نفر في رديف) وقوله الآخر : . . . . من جوبا للمكس . . .

فقلنا :

القعدة مالا لزوم ــــ بتزيد همومنا هموم
آمالنا فى الخرطوم ــــ لا رشيد ولا السلوم

فثار بشير وصب علينا لعناته ، وتوعدنا بنظم اغنية يهجونا فيها ويصفنا بالتنكر للمبادىء . . ولكنه لم يفعل . . والواقع ان الحنين للوطن قد ارهف حس بشير ، وجعل منه شاعرا رقيقا ، ينظم الأغانى العاطفية ويحملها الكثير من وطنياته . . وكان لوجود الفنان الكبير إسماعيل عبدالمعين معنا فى القاهرة ، ومداومة الجلوس بمقهى متاتيا ، اثر كبير فى رواج بعض اغنيات بشير . . وكانت اول تجربة له هى اغنية (جبال التاكا) التى لحنها عبدالمعين بنغمة مبتكرة طريفة ، جعلتها على لسان الجماهير ، فكانت تتجاوب بها الأصداء فى كل مكان فى السودان :ــ

مين مثلك فى علاكا ــــ ياالساكن جبال التاكا

الله بيني وبينو والسحر في عينه
ده السلاح رموشه والقدر مايحوشـــه!

ومن اغنيات بشير الخالدة التي يغنيها أحمد المصطفى فيشجي بهـــا نفوسنا ويثير فيها كوامن الذكريات أغنية (بنت النيل) او (ظبية المسالمة) وما أعزبه ، حين يعتب على ظبية المسالمة بقوله (ياظالمة ياظالمة) وما اروعه كذلك حين يستبد به الحنين الى الوطن فيرسلها نفثة حارة مليئة بالتفجع : —

فقدنا الصواب ياشبابنا يا ابوعبده وين احبابنا
ان متنا هم اسبابنا العـــودة يا احبـــابنا
.. ولكن مااقسى الموت ....

وها هو بشير ينتهز قيام اول حكومة وطنية في السودان، فيبادر الى الإتصال ببعض اصدقائه ، ليعرض خدماته ، في المجال الذى تخصص فيه وهو وزارة الزراعة، بكل تواضع دون تحديد لما كان يريد ان يشغله من وظائف . . وكان وزير الزراعة آنذاك هو السيد حسن عوض الله الذى لم يتردد في الأستجابة لمطلب بشير ، فوافق على استيعابه كمستشار بوزارة الزراعة .. . ولكن ما اعجب تصاريف القدر وما اقساها . . اذ ما كاد خطاب استدعاء بشير يصل مدينـــة اسوان ، حيث كان يعمل بشير كبيراً للمهندسين الزراعيين . . حتى جاء النبأ الفاجع بوفاته . . فوالهفى على بشير الذى ظل يتلهف على العودة للوطن، وخاصة بعد ان جلا عنه البريطانيون ، ولكن الموت القاهر قد ابى عليه . . وانطوت صفحة من انصع صفحات الكفاح الوطني العامرة بالتضحية والاباء .. فرثاه صديق العمر وصنو الكفاح المغفور له توفيق صالح جبريل بقصيدة نبيلة مطلعها : —

تم تعيين بشير مستشاراً لوزارة الزراعة ولكن

توفيق صالح جبريل يرثى بشير .

مابين سري غدوه ورواح

ذهب البشير لعالم الأرواح

مالى أخي غير الرثاء تبثه

انفاسي الحرى وفيض جراحى

وخاطب توفيق فيها زميل نضاله الأستاذ توفيق البكرى بقولـه :

توفيق ابن بشير كم ضحيتما

ومنحتما للشعب خير كفاح

لا تبتئس ان المآتم ان تقس

متأملا لشبيهة الأفراح

زيارات السيد عبد الله الفاضل :

ومن الزيارات التى كان لها طعمها الخاص عندنا، زيارات السيد عبدالله الفاضل المهدي للقاهرة من وقت لآخر . وكان السيد عبدالله الفاضل شخصية جذابة حقا . . وكنا نحس بعطفه على الطلبة ومحبته لهم . وكنا نذهب اليه ونتحدث معه فى السياسة ايضا وبصراحة لا نعتقد ان غيره من الأستقلاليين كان يتقبلها فى تلك الأيام . لقد كان السيد الفاضل شخصية كبيرة حقاً، وكانت وطنيته تعلو على كل الخلافات وكان يتمتع بمواهب وصفات شخصية رفيعة، وكان يهتم بمشاكل السودانيين فى القاهرة . وقد خص مشكلة النادي السوداني والأختلافات حوله بعناية خاصة وجهد كبير، يعاونه بعض كبار المصريين كعبد الله اباظه بك الوزير الأسبق . وكان السيد عبدالله الفاضل يقيم المآدب بمنزله بالعباسية ليجمع بين اطراف النزاع فى النادي السوداني . وكذلك كان يفعل عبدالله بك اباظه .

جهود لحسم الخلافات بين السودانيين بالقاهرة

وبين اوراقى القديمة خطاب من المرحوم الأستاذ توفيق البكرى

للسيد عبدالله وهو احد الخطابات التى كانت تدور حول اختلافات النادى السودانى بين السيد الفاضل وبين سكرتارية النادى وعلى رأسهم الأستاذ توفيق البكري . . .

وكان الطرف الآخر قد تجمع خارج النادى وهو يضم الأغلبية الساحقة للمتعلمين الحديثى العهد بمصر ، كأعضاء رابطة الطلبة السودانيين وغيرهم . . . . .

من الموظفين والشبان ، وعلى رأس هذا التجمع الأساتذة على البرير وبشير عبدالرحمن وبشير محمد خير وحسين منصور ومحمد حسن خليل وبعض الضباط بالمعاش وبعض الموظفين والتجار . . ويتحدث الاستاذ توفيق البكرى فى خطابه للسيد عبد الله عن هذا الخلاف ويصف المعارضين بأنهم أقلية تريد فرض سيطرتها على من فى النادى وهم أغلبية . . . الخ . . .

والمطلع على حقيقة الموقف يعرف أن الأستاذ توفيق قد جانبه الصواب كثيراً فى قراره هذا ، وأن الأغلبية التى يشير اليها كانت زائفة يريدون بها إيهام الناس . . . وذلك أن الأشتات التى جمعها النادى كان أغلبها من السودانيين المتمصرين أو البعيدى العهد بالسودان ، وبعضهم لا تربطه بالسودان الا البشرة السمراء . وقد حشدوا بوسائل متعددة بعضها خفى جداً ، حتى ان الأستاذ توفيق نفسه وزملاءه الآخرون لم يكونوا على علم بخفاياها . فقد كانت اصابع حكومة السودان وراءها . . وكان غرض الوكالة هو محاربة رابطة الطلبة السودانيين كما ورد سابقاً . وهى بتلك الكثرة التى حشدتها فى النادى تستطيع أبعاد الرابطة والمتعاطفين معها من الشبان المثقفين والقادمين حديثاً من السودان حاملين أفكار الجيل الجديد وتطلعاته الوطنية والسياسية . . . ومن هنا يتضح بان الخطة المبيتة

بواسطة وكالة حكومة السودان وأعوانها أكثر مما كان يفكر فيه قادة النادى السودانى أنفسهم . .

كان هناك زحف سوداني حقيقي . . والوكالة تريد إبعاده من النادى السودانى ، حتى لا يتخذ منه قاعدة لمزاولة نشاطه الخطر ، على حكومة السودان فى ذلك الزمان . . فعمدوا الى تجميع تلك الأغلبية ، من عناصر أكثرها شبه سودانية ، واقل ما يوصف البعض منها أنه كان ينقصه الوعى ومعرفة ماكان يجرى فى داخل السودان من تحركات وطنية . .

وقد أدرك ذلك كله المواطن الكبير على البرير أول رئيس للنادى السودانى ، فابتعد عنه وآثر العمل مع مواطنيه المناضلين الذين يمثلون تطلعات إخوتهم فى داخل السودان . . والدليل الواضح على كل ما ذكرت هو ان التجمع خارج النادى السودانى ، كان هو المرجع الوحيد لشئون السودان فيما يتعلق بالأعمال الوطنية الكبيرة كلجنة المؤتمر الفرعية ولجنة التعليم وبيوت السودان والتخطيط للبعثات التعليمية الداخلية والخارجية وغيرها من المواقف السياسية والوطنية . . هذه كلها كانت فى يد التجمع المشار اليه ، وفى مقدمتهم على البرير وبشير عبدالرحمن وبشير محمد خير ومحمد حسن خليل وحسين منصور . . الخ . حتى أن الزائر السودانى للقاهرة فى ذلك الوقت لا يكاد يحس بوجود النادى السودانى . . ولهذا كله فقد كانت مهمة السيد عبدالله الفاضل وزميله عبدالله بك أباظه صعبة للغاية . . ولكن دبلوماسية الرجلين الكبيرين قد تغلبت فى النهاية وتم الصلح على يديهما فى أوائل عام ١٩٤٠م . .

ولكنه مع الأسف كان صلحا رخوا وعلى السطح ، فلم يدم إلا شهورا قليلة ، وكانت الحرب العالمية الثانية دائرة فكانت وكالة

حكومة السودان بالقاهرة ترقب باهتمام مسألة الصلح بين النادى ومعارضيه . . وبالطبع لم تعجبها النتيجة التى ستعود برابطة الطلبة والشبان المتعلمين الى النادى من جديد . . فما كاد الفريقان يلتقيان بالنادى حتى أخذنا نحس مرة أخرى بأصابع وكالة السودان ممثلة فى أعوانها وعملائها الذين بدأوا فى بذل مساعيهم الخبيثة بأكثر مما كانوا يفعلون فى ايام اختلافنا الأول مع النادى السودانى عام ١٩٣٦ ..أيام الأختلاف فى أمر اللوائح ، وتطور الخلاف حتى أصبح التعاون مرة أخرى متعذرا بين رابطة الطلبة وادارة النادى .. فكان من أهم اسلحتهم التى استعملوها ضد الطلبة هذه المرة هو أن جواسيس الوكالة قد انتهزوا فرصة الحرب العالمية الدائرة آنذاك وراحوا يكتبون للوكالة إتهامات وهمية لا وجود لها للطلبة السودانيين . . ويدبجون التقارير عن نشاطنا المعادى للحرب ، واتصالنا بدول المحور . . واتخذوا من صلاتنا القديمة ببعض الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية أدلة على زعمهم الكاذب . . وسارعت الوكالة برفع الأمر الى وزارة الداخلية المصرية باسم حكومة السودان !. وطالبت السفارة البريطانية بابعاد بعض الطلبة السودانيين من مصر لأنهم يقومون بنشاط معاد للحرب ويتصلون بدول المحور . . ومصر ملزمة بحكم معاهدة ١٩٣٦ بتأمين الجبهة الداخلية وتقديم كل مساعدة يحتاجها الموقف أثناء الحرب . وكان على رأس موظفى وزارة الداخلية رجل رهيب يثير إسمه الرعب بين المصريين ، هو حمدى محبوب باشا وكيل الوزارة . .

اتهام الطلبة بالاتصال بالمحور

السفارة البريطانية تطالب بابعاد زعماء الطلبة

وفى أحد الأيام جاء الى الجامعة أحد راكبى الدراجات البخارية من بوليس وزارة الداخلية ، يحمل خطابات بدعوة خمسة من الطلبة السودانيين ، للمثول فوراً أمام وكيل وزارة الداخلية حمدى محبوب

استدعاء الطلبة لوزارة الداخلية

باشا . . والطلبة هم عقيل أحمد عقيل وأحمد الطيب عابدون وأحمد السيد حمد وعابدين إسماعيل وشخصى ، عبداللطيف الخليفة ، وكانت الخطابات موجهة الى كل واحد منهم شخصيا فأثار هذا التصرف من قبل وزارة الداخلية ، أستياء بعض إساتذة الجامعة كالدكتور على بدوى عميد كلية الحقوق فى ذلك الوقت والمعروف بوطنيته .. فقد اعتبر تصرف وزارة الداخلية تخطيا للجامعة ، إذ كان الواجب مخاطبة الجامعة أولا فى أمر طلا بها، وألآ يؤخذوا بهذه الطريقة المستعجلة . .

وكان طلبة الجامعة قد أخذوا فى التجمع لاظهار شعورهم نحو زملائهم السودانيين . . ولكن الدكتور على بدوى عاد وقال للطلبة السودانيين : اذهبوا على أى حال وقابلوا الوكيل. وإذا حدث لكم أى شىء فسوف يكون لنا موقف . . . ولن نتخلى عنكم . .

ومن أهم الخلفيات أن الطلبة السودانيين فى أواخر عام ١٩٣٩ واوائل عام ١٩٤٠ قبيل سفر على ماهر للسودان ، قد أخذوا يترددون على النادى السودانى بالقاهرة بعد انقطاعهم عنه ، وكان فى جعبتهم برنامج مدروس لأجراء الأصلاحات التى ظل ينشدها أغلب السودانيين المثقفين ، لكى يصبح ناديهم بالقاهرة عنواناً مشرفا لهم . .

وعند ما جاءت رحلة على ماهر للسودان فى عام ١٩٤٠ تحمسوا لها ، واعدوا مذكرة اضافية بكل ما يأملونه فى تلك الرحلة ، وقد رفعت المذكرة باسم النادي ، تفاديا لأى خلاف حولها . والواقع أن الطلبة كانوا أكثر إهتماما بتلك المذكرة وهم الذين أعدوها وطبعوها ولم يفرغوا منها إلا فى اللحظات الأخيرة قبل السفر ، فأسرعوا بها الى مطار الماظة حيث سلمت لعلى ماهر وهو يتأهب للصعود على سلم الطائرة ، التى أقلته الى أسوان أولا ثم الى عطبرة ومنها الى الخرطوم (نص المذكرة) :

وقد تلقت وكالة حكومة السودان بالقاهرة أمر المذكرة بالكثير من عدم الرضا ، وأعتبرتها من مظاهر النشاط الضار ، الذى يجعلها فعلا تنظر بقلق لتواجد الطلبة بالنادى . ومن هنا فقد أخذت الوكالة تجمع ملاحظاتها المفرضة ، وتحيك بها الدسائس ضد الطلبة ، لأبعادهم من النادى مرة أخرى ، منتهزة ظروف الحرب وتطوراتها الخطيرة ، ولكى تنجح الوكالة بمساعيها الخبيثة رجعت الى تصرفات الطلبة فى النادى السودانى ، فى الماضى القريب ، حيث ذهب رئيس النادى للوكالة واعتذر عن حادث معين ، هو أن مظاهرة مصرية قد مرت بجانب النادى السودانى ووقفت أمامه لتحييه كأول واجهة للسودان تقوم فى أجمل ميادين القاهرة . . (ميدان سليمان باشا) فى ذلك الوقت (ميدان طلعت حرب) فى الوقت الحاضر . . .

فما كان من الطلبة السودانيين الا ان وقفوا فى شرفات النادى ورددوا التحية للمظاهرة . . . وهو امر طبيعى وعادى للغاية ولا يستحق أن ، يعتذر عنه كما قلت سابقا . . ولولا ان الوكالة كانت تريد ان تخدم أغراضها الخاصة ، فتأخذ ذلك الحادث البسيط كدليل على ان الطلبة يتخذون النادى قاعدة لنشاطهم السياسى . . لما كان هنالك داع لذهاب رئيس النادى للوكالة وأعتذاره لها . .

وردا على هذا المسلك الخاطىء من رئيس النادى ومن معه ، فقد أرسل الطلبة برقية للوكالة يرفضون فيها ذلك الأعتذار ، الذى لا موجب له ويعتبرون الوفد الذى ذهب به رئيس النادى للوكالة غير ممثل لهم . . . جمعت الوكالة تلك التصرفات كما قلت الى بعضها البعض ، واتخذت منها أساسا لتبنى عليه التهم الجديدة المتعلقة بالحرب والتخريب ضدها والأتصال بدول المحور الى غير ذلك مما لفقه عملاء الوكالة وجواسيسها فى النادى السودانى وفى غيره .. مما ادى

الى إستدعاء بعض كبار الطلبة بواسطة وزارة الداخلية المصرية كما ذكرت . . وتحذيرهم من الذهاب للنادى السودانى . .

زيارة دكتور بعشر ودكتور عبدالرازق المبارك لمصر:

ومن الذكريات التي لاتزال عالقة بذهنى تلك الجولة الممتعة التى قمنا بها في قلعة محمد علي وحي الأمام الشافعى، مجاملة لدكتور بعشر ودكتور عبدالرازق المبارك فى صباح أحد أيام الجمعة . . . وكان رائدنا فى الرحلة مولانا الشيخ مصطفى الطيب ، حفيد الشيخ الطيب الكبير (راجل امرح) وخريج الأزهر الشريف ، وكان يعمل مفتشا بوزارة الأوقاف ، مما سهل لنا مشاهدة مسجد محمد على أحد روائع فن المعمار الأسلامي ، بهندسته الفريدة ، وما احتواه من ابداع من زخارفه وزيناته وشرفاته ، التى تشبه شرفات المسارح ثم سقفه المكون من قبة هائلة بديعة النقوش والألوان وكأنها قبة السماء . . وكذلك نظام الأضاءة المكون من عدة ثريات ، تتدرج فى حجمها حتى تملا فراغ القبة الهائلة . . . وميزة جامع محمد على أن فناءه الداخلى خال من الأعمدة التى تشاهد فى المساجد الأخرى لان اسقفها تقوم على تلك الأعمدة . . اما مسجد محمد على فسقفه عبارة عن قبة هائلة كما قلت .

ومن اهم ماشاهدناه فى متحف القلعة ، تلك التحفة الرائعة من التماثيل الشمعية ، التى تمثل جلسة رسمية لمحمد على باشا مع وزرائه ومستشاريه بالحجم الطبيعي ، وانك لتقف ماخوذا بالمستوى الذى بلغته تلك التماثيل من الدقة والأتقان والبراعة فى صنعها ،حتى تشعر وكأنها حية تجرى فى عروقها الدماء .

وكذلك شاهدنا المكان الذى قفز منه (المملوك الهارب) ، الذى فضل ان يخاطر بالنزول الى الأرض ، من ذلك الأرتفاع الشاهق،

لينجو بنفسه من المذبحة التاريخية ، الفظيعة التى دبرها محمد على باشا للمماليك ، بالمأدبة الخادعة التى اقامها لهم بالقلعة ، فكان المملوك الهارب هو الوحيد الذى نجا ، اذ قفز بحصانه من اعلى القلعة ، فمات الفرس ونجا الفارس .

ثم واصلنا الرحلة الى الأمام الشافعى ، ثم استقبلنا هناك الشيخ محجوب نورى الطالب بالأزهر آنذاك والذى استضافنا فى منزله بعد جولة فى حى الأمام . . وقد أعد لنا الشيخ محجوب غدوة سودانية كاملة .

(كسرة وملاح خدرة مفروكة) كما قدم لنا عند دخولنا مشروب الآيرى المحبوب .

وقضينا وقت الظهيرة فى ضيافة محجوب نورى ، فكان مقيلا جميلا غمرنا محجوب بكرمه السودانى الأصيل وبشاشة وجهه وابتسامته التى لا تختفى وهو يتحدث الى ضيوفه .

خريجو الزراعة المتوسطة

وفى صيفية سنة ١٩٣٨ كانت لنا فرحة كبيرة ، وابتهجت معنا العاصمة كلها ، بقدوم اول فوج من خريجى المعاهد المصرية ، كنتيجة لهجرة الطابة الحديثة ، تخرجوا فى مدرسة مشتهر الزراعية المتوسطة ونالوا دبلوم الزراعة المتوسط وهم : محمد ابراهيم عبدالله وبابكر تلب ، وعلى طه مسلم ، وحمدى عبدالجبار ، . وكان قد تخرج قبلهم فى العام السابق يسن الحاج الخضر على كمير.

والدراسة فى مدرسة مشتهر ، التى تقع شمال القاهرة ولا تبعد كثيرا عنها ، دراسة عملية اكثر منها نظرية ، وهى وإن كانت دون الدراسة العليا ، ألا أنها بحكم اعتمادها على الحقول أكثر من الفصول فأن الخبرة العملية عند خريجها كبيرة جدا ، وخاصة فى مجال البساتين

وقد ابتهجت العاصمة بعودتهم لأنهم كانوا باكورة إنتاج حركة الهجرة التعليمية الحديثة الى مصر . . . ومن هنا كان إهتمام العاصميين بهم كبيرا . . فأقام لهم زملاؤهم بنادى الخريجين بالخرطوم حفل شاى مهيب ، اجتمع فيه وجوه العاصمة وأقطابها ، من كـــل الاتجاهات والتقى الجميع فى تلك الأمسية ، فى بشر وفرحة بطلائع العلم والنهضة ، وجلسوا يتبادلون التهانى وكأنما كل واحد منهم شقيق لهؤلاء المحتفى بهم . . . وكانت أحاديثهم تدور حول الآمال الزاهرة التى يتطلع اليها السودان فى مقبل أيامه ، حين تتابع أفواج الخريجين فى مختلف الجامعات والمعاهد ، حاملة شهاداتها العليا فى مختلف فروع العلم وفنونه ، فتمد البلاد بما هى محرومة منه من مثل هذه الدماء الجديدة .

وظل جمعهم الكبير غارقا فى أحلام هذا الأنس الشهى ، حتى

بدأت الكلمات والخطب والقصائد ، التي كانت كلها أيضا تضرب على نفس الوتر ، ثم ألقى شاعر العروبة في السودان المرحوم الشيخ عبدالله عبدالرحمن قصيدة رائعة حفلت أبياتها بالوطنية والآمال التي كان يتطلع إليها ذلك الجيل من وراء هجرة الطلبة الى مصر .

وهكذا كان تكريم خريجي مدرسة مشتهر الزراعية ، في الواقع تكريما لهجرة الطلبة جميعا الى مصر ، وللآمال العظيمة المعقودة عليهم. ومما يذكر ان الأخ يسن حاج الخضر ، الذي كان أول من تخرج من مشتهر قبل عام من الدفعة المحتفل بها ، قد تحدث في هذا الحفل وكان لحديثه وقع خاص ، لأنه كان من واقع دراسته ومن تجربته العملية في السودان ، في زراعة الخضر والفاكهة . . ومما لفت اليه الأنظار أنه كان حديثا ، بالرغم من أنه عابر وفي معرض الرد على سؤال من السيد أسماعيل الأزهري ، ألا أننا رأينا يسن يتدفق في الكلام عن زراعة الخضر وأهميتها وخاصة الطماطم بطريقة علمية دقيقة إعتمد فيها على الأرقام ، وهو يريد أن يحرك التفكير في مثل هذه المزارع بما قدم من ادلة مقنعة على مدى ما سوف تجنيه البلاد منها من فوائد محققة . .

وتأثر بحديث يسن المجاهد الكبير حاج الشيخ عمر دفع الله فوقف وأبدي إعجابه بكلام يسن وقال بصراحته المعهودة ، لا تنتظروا أن يفهمكم المعممون ولا المطربشون ، أو يتقدموا لكم العون في ما تفكرون فيه . . وتحمس حاج الشيخ وأبدى استعداده المطلق ، للتعاون مع يسن وزملاءه ، لتحقيق ما يصبون إليه في ميدانهم الجديد على المجتمع السوداني . . فياالحاج الشيخ من رائد وطني عظيم . . . عليه رضوان الله . .

هذا وقد كان تبادل الحديث بين يسن والسيد اسماعيل الأزهري

قد أخذ شكل مناقشة فيها اختلاف فى بعض وجهات النظر . . .
وكانت شيقة جذبت اليها شخصيات اخرى ممن لهم أعمال زراعية
للمشاركة وتبادل الرأى . . مثل السيد عبدالله الفاضل المهدى مما
أكسب النقاش خصوبة ، وجعل الأخ يسن يحس بأنه نجح فى إثارة
التفكير فى الموضوع الذى طرحه . . . وبالفعل خرج كثير ممن حضروا
ذلك الحفل وفى رؤسهم التفكير فى فلاحة البساتين ومزارع الدواجن
وإنتاج الخضر والفاكهة والألبان . . وما أسعد يسن حاج الخضر
وزملاءه اليوم وهم يشهدون هذا النشاط الزراعى الذى دعوا اليه منذ
اواخر الثلاثينات، يزدهر ويعمر شواطىء النيل شرقا وغرباً ابتداء
من منطقة الجيلى شمالاً الى منطقة المسيد جنوب الخرطوم . . .

زيارتنا للسيدين

كان علينا اثناء عطلتنا الصيفية ، ان نقوم بزيارات لكبـــار
الشخصيات ، وفى مقدمتهم الزعيمين الكبيرين ، السيد على الميرغنى
والسيد عبدالرحمن المهدى ، استكمالا للاتصالات الهامة التى كانت
فى برامجنا وكان اتباع السيدين فى الحملة ، ينظرون لهجرتنا الى
مصر على انها مغامرة غير مضمونة العواقب ، ولكننا شعرنا عند التقائنا
بالسيدين ، انهما يدركان حقيقة ماسوف تجنيه البلاد من هجـــرة
أبنائها لأجل التعليم . .

زيارة الميرغنى

وذهبنا لسراى السيد على بالخرطوم فى الميعاد الذى حدد لنا ،
وكان فى الصباح ، وجلسنا فى غرفة الأنتظار ، وجلس معنا أحد
كبار الخلفاء من التجار ، ليحدثنا لحين حضور السيد ، وكانت
هناك غرفة مجاورة خاصة بالزوار ، وضع فيها كرسى واحد فقط ،
ليجلس عليه السيد ويجلس الزوار على البساط . . وربما كان الخليفة
الكبير يريد اخذنا لتلك الغرفة حيث لا يجلس افندية صغار مثلنا على
الكرسى امام السيد على ، فوقف واشار بيده لاحد الأتباع . . ولكن

لحسن الحظ اقبل السيد على ، فى نفس اللحظة فوقفنا جميعا لتحيته .. وكأنما كان يعرف مايدور برؤوس اتباعه، فجلس على الفور واشار علينا بالجلوس على الكرسى ، فجلسنا وكانت مقابلة لطيفة ومفيدة لم يحضرها غير ذلك الخليفة الكبير ..

ثم حضر اثنا جلوسنا احد الشوام لا اذكر اسمه واشترك معنا فى الحديث ، وقد تبسط معنا السيد على ، واشعرنا بانه ملم بكل اخبارنا ونشاطنا فى القاهرة .. وسألنا عن حزب الوفد المصرى اسئلة كثيرة ، كأنما يريد أن يتأكد من صحة الأشاعات الخاطئة التى وصلته بأننا ننتمى لحزب الوفد ، وكذلك كانت اسئلة عن حزب مصر الفتاة ، ومدى علاقاتنا مع زعيميها أحمد حسين وفتحى رضوان .. ولم يشعرنا أثنا حديثه عن مواقفهما الثورية العنيفة ومهاجمتهما لكل الجهات السياسية ، بشى من الاستنكار ، كما كنا نسمع مـــن الكبار فى ذلك الوقت ، بل انه عندما تدخل فى الحديث الخليفـــة الكبير قائلا بالعامية : (ياسيدى الناس ديل) ويقصد احمد حسين وفتحى رضوان (مايدوهم شىء يخليهم اسكتوا) فضحك السيد على وقال مخاطبا الخليفة الكبير : (ديل مجاهدين ماقالوا دايرين شىْ) ديل دايرين اصلاح بلدهم بس (فعرفنا مدى سعة افق السيد على والمامه بكل شىْ ، وخرجنا من عنده ونحن نشعر بالتشجيع لمواصلة كفـــاحنا ..

زيارتنا للسيد عبد الرحمن

وجاء ميعاد لقاءنا مع السيد عبدالرحمن ، وكان فى المساء ، وذهبنا منذ وقت باكر لسراى المهدى بالخرطوم ، واستقبلنا بعض رجال القصر مرحبين ، ثم اخذونا فى جولة داخل القصر لمشاهدة مابه من تحف ومقتنيات نفيسة ، ملئت بها الغرف والأبهاء ، وبعضها اثرى يمت بالصلة الوثيقة للدولة المهدية ، أمضينا بعض الوقت فى

استعراضها والتعليق عليها فى انس جميل ، حتى وصل السيد عبدالرحمن فاخذنا احد رجال القصر الى المكان الذى اعد بعناية لتناول الشاى مع السيد .. واستقبلنا السيد عبدالرحمن واقفا وصافحنا واحدا واحدا . .

وما كدنا نجلس حتى انسحب الآخرون جميعا وتركونا مع السيد . . ولم يكن حديث السيد عبدالرحمن معنا اقل حلاوة مما دار بيننا وبين السيد على الميرغنى . . وكان صريحا فى تأييده لهجرة الطلبة ، بل ذكر لنا أنه قد اسهم فى الماضى فى تشجيع الهجرة التعليمية وقدم مساعدات لطلائعها ، كالأستاذ توفيق البكرى وزملاءه . . كما ابدى لنا سيادته ترحيبه بترددنا عليه من وقت لآخر قبل أن نعود لمصر . . فودعناه ونحن نشعر باننا كنا فى حضرة زعيم كبير يتطلع لمستقبل بلاده بأهتمام متزايد .

لقاءات مع المثقفين فى السودان

من خلال قضائنا للعطلات الصيفية فى السودان ،، كانت تتم بيننا وبين المثقفين — وخاصة جماعة أبى روف — تفهم عميق لمختلف المسائل الوطنية وماذا يمكن أن ننشره منها فى القاهرة، مما هو محظور داخل السودان وتحتيما لذلك ، كنا نكتب فى صحف القاهرة ، ونتصل بأعضاء البرلمان ونتردد على دور الأحزاب السياسية ،وأندية الهيئات والجامعات وغيرها ، للتحدث فى قضايا السودان ومآسى إلأستعمار فيه ، ومايبيت له من مصير مظلم ، ونتناول كذلك ما كان يعانيه الشعب من القهر والإرهاب بعد ثورة ١٩٢٤ ، وما نجم عنها كقانون المناطق المقفلة الذى يحرم على أبناء الشمال دخول الجنوب ألا بأذن يصعب الحصول عليه ، وذلك تمهيدا لفصل الجنوب عن الشمال . وكذلك ما أعقب ثورة ١٩٢٤ من تمكير الأنجليز فى نظرية الـ (Devolution) التى أشرت اليها سابقا، ومحاولة تطبيقها فى السودان

فأنشأوا نظام الأدارة الأهلية (native adminstration) والمحاكم الأهلية (native courts) وقـــد مهدوا لها بقفل المحاكم فى بعض الأقاليم ، كبداية لألغاء المحاكم فى كل أقاليم السودان ، بحيث لا تبقى إلا محكمة العموم بالخرطوم ، وذلك كله لتمكين حكومـــة السودان من إحكام قبضتها على البلاد والهيمنة عليها . .

ومن المآسى التى تناولناها أيضا تضييق مجال التعليم ، والأكتفاء بمدرسة ثانوية واحدة لكل السودان ، هى كلية غردون التذكـــارية الثانوية ، التى أنشئت لتزويد المصالح الحكومية بحاجاتها من الموظفين وعلى قدر تلك الحاجة كان يتم إختيار الطلبة . . فهى فى الواقع لم تكن أكثر من مصنع لأنتاج الموظفين لحكومة السودان .

وقد وصفها كتاب ذلك الجيل بأنها (مقبرة النبوغ وسجـــن العبقرية) كما جاء فى كتاب (رسائل محزون) لطه حسن ، وقد ظهر فى أعقاب ثورة ١٩٢٤م .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ، أننا قد كسبنا من خلال هذه الممارسات فى مصر صداقات حميمة مع شخصيات ذات وزن فى مختلف المواقع ، كان لها أثرها الأكيد فى تقويتنا وتبصيرنا بكثير من الأمور . .

الدكتور محجوب ثابت

منهم طيب الذكر الدكتور محجوب ثابت الذى كان حبه للسودان والسودانيين مضرب الأمثال . . وكانت عيادته بحى السيدة زينب مفتوحة للسودانيين على الدوام يجدون فيها العلاج ، ويجـــد بعضهم المساعدات المادية من الدكتور محجوب ، كما يتخذون منها منتدى لهم فى كثير من الأمسيات ، وقد آوت هذه العيادة اول دفعة من الطلبة السودانيين الذين افترعوا الهجرة لمصر فى مطلع العشرينات ، وهم توفيق البكرى وبشير عبد الرحمن ، ولعل عاطفة الدكتور

محجوب المشبوبة نحو السودان قد جعلته يقرض الشعر احيانا . . فقد داعبه مرة بعض أصدقائه ، بعد فترة صمت عن السودان ، فقالوا له انك هجرت السودان يادكتور .. فرد عليهم بقصيدة جيدة النسج لا اذكر منها غير قوله مستنكرا :

فكيف وفي السودان قوم احبه   اعاريب بيض اواشاوش سود

وقد رأيناه في ١٩٣٥ ، ينتهز فرصة ذهاب اول بعثة اقتصادية للسودان ، بعد اخراج المصريين منه ، فسارع الى الأنضمام اليها ، لكي يحقق امنيته بزيارة وطنه الثاني . . . . ومن صداقاتنا ايضا ، الرئيس محمد نجيب متعه الله بالصحة والسعادة ، فقد كان أخا السودانيين الأكبر وحبيبهم بمصر ، وقد كانت داره العامرة ، اينما كان موقعها عن أحياء القاهرة وخاصة بمصر الجديدة ، لاتفتأ تستقبلنا من وقت لآخر . . وطالما كان يحتفى فى منزله بزوار مصر من السودانيين ، وينتهز الفرصة ليجمعنا بهم على إختلاف مشاربنا ، دون ان يشعر احد بأى ميل منه لفريق خاص . وحتى بعد قيام الأحزاب فى السودان ظل محمد نجيب دون حزب ، بل ان وطنيته واخلاقه الكريمة ، كانت دائما تعلو على كل نزعة حزبية ، فكنت أرى فى منزله العامر فى المناسبات من السودانيين مايمثل كل الأتجاهات . ولا تكاد تفوته فرصة زيارة اى كبير سودانى لمصر ، دون ان يحتفى به فى منزله ، وان الصور الفتوغرافية التى كان يزين بها غرف الجلوس والردهات بمنزله . . والتى كانت تسجيلا لتلك المناسبات ولبعض الشخصيات السودانية فى منزل نجيب لتدل كلها على قومية محمد نجيب بالنسبة للسودانيين .

محمد نجيب :

ولعل كتيبه (رسالة عن السودان) الذى نشر فى عام ١٩٤٣ قد جاء معبرا عن ذلك كله ، سواء من ناحية افكاره او صوره الفتوغرافية التى كان بعضها يجمع بين افراد من بيت الميرغنى ، وافراد من بيت المهدى .

وعندما زار الأمام عبدالرحمن المهدى القاهرة فى ١٩٣٧ ، بعد عودته من لندن، كان محمد نجيب من اوائل المحتفين به، فأقام لـــه مأدبة بمنزله بجاردن ستى ، حضرها كبار السودانيين بمصر ، واهم الشخصيات المصرية .

اهتمام نجيب الباكر بشئون السودان

وبحكم نشأة محمد نجيب بالسودان وتعليمه فيه وقضاء فترات من خدمته الطويلة فيه ، وهو ضابط بالجيش، كان يتصرف وكأنه سوداني أكثر منه مصرى . . ولاتكاد تمر بنا مناسبة سودانية فى مصر الا ورأيناه بيننا وكأنه واحد منا . . ولهذا فأن محمد نجيب كان أكثر المصريين معرفة بمطالب السودانيين ومآخذهم على المصريين . . تدفعه غيرته المتوقدة وحرصه الشديد على سلامة العلاقه بين الشعبين الشقيقين ، الى التفانى فى العمل على سد اى ثغرة تنفذ منها مساعى الأستعمار الخبيثة للتفريق بين الأخوين .

وهكذا كنا نرى محمد نجيب دائما يعمل على توعية المصريين فى كل ميدان ، وتبصيرهم بواجبهم نحو اخوانهم أبناء السودان ، وخاصة اولئك الذين دفعت بهم الظروف السياسية ، والحركة الوطنية الى مصر ، أو أولئك الذين جاءوا لطلب العلم ومناهضة الأستعمار .

وعندما جاء الى مصر بعض قادة ثورة ١٩٢٤ ، كعرفات محمد عبدالله ومحمود فرغلى ، سارع محمد نجيب للأتصال بهم ، محاولا تخفيف وحشتهم ، فى تلك الظروف القاسية ، التى كانت فيها السلطة الأستعمارية تفرض نفسها على كل شئ ، وخاصة بعد حادث مقتل السردار ، حيث لعبت الصدفة السيئة دورها ضد عرفات ، فقبض عليه وأودع السجن ، لأكثر من شهرين ، بسبب شبهه الشديد لعبدالخالق عنايت ، المتهم الأول فى مقتل السردار ، والذى حـــكم عليه بالأعدام بالفعل فى ذلك الحادث ، فقام نجيب بزيارة عرفات

في المعتقل ، بالرغم من أنه كان ضابطا فى الحرس الملكى، الأمر الذى جعل الأنجليز يلفتون نظر القصر الى مسلكه ، فسارع القصر بنقله ، وكان هو سعيداً بذلك النقل ، لأنه وجد فيه بعض الحـــرية لمواصلة إتصالاته بالمجاهدين السودانيين .

كما نجد أيضا فى كتيب (رسالة عن السودان)،أن نجيب قد جمع أهم الملاحظات التى يأخذها السودانيون على أشقائهم المصريين ولعلاج ذلك ، نراه يضع برنامجا عمليا ، أمام المصريين ، ويحثهم على تنفيذه ، تلافيا لتلك المآخذ ،وتحقيقا لما كان يعلنه المصريون على الدوام ، من أنهم لا يكنون لأشقائهم السودانيين ،غير المساواة بهم ، بحيث يكون لهم ما للمصريين وعليهم ما عليهم .

ومن أهم اقتراحات نجيب فى هذا الأطار ، هو أن تنتهز الحكومة المصرية فرصة وجود السودانيين الذين سبق ذكرهم ،فتعمل على اشعارهم بأنهم حقا فى وطنهم الثانى . . . والسبيل الى ذلك هو اولا تخصيص نسبة معينة من مقاعد البرلمان ، يرشح لها بعض ابناء السودان ليفوزوا بالتزكية وثانيا تعيين بعضهم وزراء فى بعض الوزارات ، وثالثا يعين بعضهم مديرين لبعض المديريات ،وغير ذلك كتعيين المؤهلين علميا منهم فى وظائف ذات مسئولية . . وكان يفسح المجال فى الجيش والكلية الحربية لأبناء السودان وكذلك فى الجامعات والمعاهد، ينبغى أن تفتح ابوابها على مصاريعها لكل من جاء منهم مرتادا مناهل العلم والثقافة،التى حرمهم منها الأستعمار فى السودان .

وأخيرا نجد نجيب فى نفس الكتيب — يعتب على بعض السودانيين الذين يطلقون ألسنتهم،بلا حساب ، فى إخوتهم المصريين ، بسبب مصالحهم الشخصية التى لم تنقض ،ناسين واقع الاحتلال، وسلطانه على نفوس الكثيرين من المسئولين .

ويواصل محمد نجيب مساعيه النبيلة للوفاق، حتى بين الأفراد، ولم يقتصر اهتمامه على اصلاح ذات البين بين صديق وصديق بل نراه يبذل الجهود مضاعفة ، لأزالة الخلافات بين الهيئات السودانية ، بالقاهرة ،ويدفع جهود الوسطاء الآخرين فى هذا السبيل لتسوية الخلافات بين تلك الهيئات ، كما فعل فى ١٩٤٦ ، حيث امكن توحيد الهيئات السودانية بالقاهرة واستقامة العلاقات بينهما لبعض الوقت ، تحت اسم (الهيئات السودانية بالقاهرة) وكان اهمها النادى السودانى ، ونادى ابناء دنقلا ، ونادى أبناء شمال السودان ، ثم نادى (اتحاد مصر والسودان) الذى سبقت الاشارة اليه . . . ولعل أكثر تلك الأندية مناظرة للنادى السودانى كان نادى ابناء دنقلا ، وكان رئيسه المرحوم محى الدين على نصر الذى كان كثير الاهتمام بشئون العمال بصفتهم أغلبية فى ناديه ، كما ان الطلبة وخاصة الازهريين ، قد كان لهم حجم كبير ووزن مرموق فى تسيير دفة شئون النادى فى تلك الفترة .. ولا اكاد انسى مواقف الأستاذ عثمان نصر وزملائه فى محاولات اصلاح أحوال نادى ابناء دنقلا ومكافحة الاتهامات التى كانت تجرها عليه صلات بعض اعضائه بوكالة حكومة السودان بالقاهرة ...

وكانت وكالة حكومة السودان بالقاهرة ترقب صلات محمد نجيب باشقائه السودانيين ولا ترضى عنها .. فنرى السفارة البريطانية تلفت نظر الحكومة المصرية ، لنشاط محمد نجيب بين السودانيين ، متهمة إياه بالتحدث معهم فى السياسة وهو ضابط عظيم ..

معسكر قوة دفاع السودان في بني سويف

وفى عام ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية ، كان بعض السودانيين من ضباط قوة دفاع السودان قد جاءوا الى مصر واتخذوا لهم معسكرا فى بنى سويف بمديرية الجيزة ، فاتصل بهم محمد نجيب مرحبا بهم ودعاهم الى منزله ، كما حث الجهات المصرية المختلفة ، للاحتفال بهم وارسال الهدايا لهم ، وخاصة فى الأعياد والمناسبات القومية ، كما فعلت الجمعية الزراعية وبنك مصر والأمير عمر طوسون وغيرهم .

فما كان من السلطات البريطانية ، الا أن أصدرت أوامرها بعدم السماح لأولئك الضباط السودانيين ، بعدم النزول الى القاهرة ، وعدم قبول الهدايا من المصريين .

وفى حرب فلسطين ١٩٤٨ ، تجددت الفرصة لنجيب للألتقاء بأشقائه من رفقاء السلاح ، حيث كانت تعمل فصيلة من المتطوعين السودانيين تحت إمرة الأميرلاى محمد نجيب فى المجدل ..

ولنجيب دور هام مع المتطوعين السودانيين ، سنشير اليه عند الكلام عن فلسطين .

ولا يشك أحد فى أن جميع السودانيين ، يتبادلون التعاطف مع محمد نجيب .. ولقد رأيناهم عندما أصيب نجيب فى معركة فلسطين إصابة كادت أن تودى بحياته ، كيف أبدوا من المشاعر ما يدل على عمق تعلقهم بنجيب ووفائهم له .

وعندما تم له الشفاء فى تلك الاصابة القاتلة ، تسابق السودانيون لتهنئته وأقاموا له حفلات الابتهاج فى مختلف أنديتهم بالقاهرة .

وسنرى فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ، أنه عندما نشب الخلاف الاول بين قادة الثورة فى مصر ، وأبعد محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية ثم أعيد اليها ، نرى الوفود السودانية تحضر لمصر لتهنئة الرئيس محمد نجيب ، ومنها بعض كبار نظار القبائل ، وقد تحمس أحدهم ، وهو الحاج محمد ابراهيم فرح ناظر الجعليين ، فختم كلامه فى حضرة الرئيس نجيب بقوله ، فى لهجة سودانية صارمة : (على الطلاق ، إتحاد بلاك ما يبقى ...) يعنى أن الاتحاد بين مصر والسودان لا يمكن أن يتم إلا بوجود نجيب على رأس الجمهورية ..

وسوف أعود لتناول موضوع ثورة يوليو فى مصر بالتفصيل فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ان شاء الله .

ومن صداقاتنا فى مصر أيضا ، شخصية محمد محمود جلال ، نائب الحزب الوطنى عن دائرة بنى مزار فى مديرية المينيا ، جنوب القاهرة ، وذلك طوال الحياة البرلمانية فى مصر .. حيث كانت دائرته دائما مقفلة له ، حتى فى العهود التى كان فيها الوفد يكتسح الانتخابات بصفة عامة .

وكثيرا ما كانت احتفالات الحزب الوطنى بالمناسبات الوطنية تقام فى منزل محمد محمود جلال بالدقى ، وكان اهتمامه بالسودانيين وقضايا السودان كبيرا جدا ، وكثيرا ما كان يدعونا فى منزله ليحتفى بنا ويقدمنا لكبار رجال الحزب الوطنى . . من امثال الصوفانى وفكرى أباظة ..

وهو أيضا قد انتهز فرصة سفر البعثة الاقتصادية الاولى للسودان فى ١٩٣٥ وهى الاولى بعد اخراج المصريين فى ١٩٢٤ ، فكان أحد أعضائها وحقق أمنيته بزيارة وطنه الثانى .. ويذكر المثقفون السودانيون فى ذلك الوقت ، أنه قد كان لمحمد محمود جلال لقاءات خاصة ببعضهم وكان يبدى فيها إهتمامه بأحاديثهم وما كان يشغل أذهانهم من هموم وطنية .

ومن جهةأخرى كنا نلاحظ أنه ، وبجانب إحساس جلال الوطنى المرهف ، كان له أيضا حس فنى أدبى مرهف .. كان شغوفا بسماع الشعر وخاصة الوطنى منه .. وكم كان يبدو عليه الطرب حين يستمع الى أشعار الدكتور عقيل .. وأذكر من ذلك قصيدته التى قدم بها ديوان (الصدى الاول) ليوسف التنى ، وخاصة عندما كان يصل عقيل لقوله :

أقبسه من شفق الغروب ومن خرير الجدول
ومن الشباب المستعد الى كفاح مقبل
والملتقى فى هدئة أطراقة التأمل

فكان جلال بك يبدو فى نشوة عارمة ... ويطلب الإعادة ، ويحلل .. ويعلق ، بما يدل على أنه يتذوق الشعر تذوق أديب خبير ..

معاوية محمد نـور

كنا نعلم قبل وصولنا القاهرة بأن معاوية ، بعد تخرجه من لجامعة الأمريكية ببيروت ، جاء الى القاهرة وأقام بها . وربما كان في أيامه الأولى في ضيافة العقاد بمنزله بمصر الجديدة ، ولكننا علمنا فيما بعد أنه كان يقيم بمفرده في مصر الجديدة .

وكانت لقاءاتنا بمعاوية قليلة جدا ، لانشغاله بقضايا الأدب والفكر والكتابة وتفرغه لها .. ولانشغالنا نحن بالسعى للالتحاق بالمدارس – ولتثبت أقدامنا في مصر ، ولكنا كنا نتتبع اخباره ونقرأ مقالاته في الصحف العربية والانجليزية ، التى كانت تصدر في القاهرة، كالجهاد والبلاغ والسياسة الاسبوعية ،(والايجشان ميل) (والايجشان قازيت)،التى كان معاوية يكتب فيها بأسلوب لفت اليه الانظار ، وجعل اسمه في وقت قصير ، يلمع بين كبار الأدباء والكتاب .. وكان اعجابنا به بصفة خاصة ، عند تناوله سياسة حكومة السودان بنقده الجرىء في جريدة الجهاد المصرية، عن التعليم والزراعة ومشروع الجزيرة واضراب كلية غردون ، ووقوفه بجانب الطلبة وحمله على الكلية ووضعها الدراسي ومعلميها وادارتها ، وما كانت تصدره من أوامر وتعليمات تعسفية ترمى بها الى الاضطهاد والاذلال.

ولم تكن صحف القاهرة وحدها التى كانت تحتفى بمقالات معاوية ، بل كنا نسمع من بعض الأدباء من الذين تعلموا فى انجلترا ان جريدة التايمز اللندنية التى لا تلتفت الا لكتابات الكبار من الراسخين فى العلم والأدب والسياسة ، كانت تنشر مقالات معاوية ، وهو الشاب الصغير السن ، فور وصولها ، مما جعل البعض

يعجبون لهذا الفتى السودانى الناشىء ، الذى تعلم فى كلية غردون بالخرطوم ، كما قال فكرى اباظة فى احدى مقالاته بالمصور ، كيف استطاع ان ينفذ الى هذا المستوى الرفيع ، الذى عجز عنه ادباء تعلموا فى اكسفورد وكامبردج وعاشوا فترة طويلة فى لندن ؟؟

وشهد أيضا بذلك الاديب العربى الكبير ، ادوارد عطية ، فى كتابه (عربى يحكى قصة) حيث قال انه ظل يرسل مقالاته للتايمز لثلاثين عاما فلا تنشر له ، فى حين ان مقالات معاوية كانت تنشر بمجرد وصولها للتايمز ..) ثم مضت فترة انشغل فيها الطلبة بامورهم الخاصة وبالعمل على توسيع مجال التعليم للقادمين الجدد من السودان .. وانقطعت عنا اخبار معاوية ، ثم علمنا بأنه عاد الى السودان فى سنة ١٩٣٥م ...

حيرة الحكام الانجليز بعد عودة معاوية للسودان

وجاءت الاخبار بأن حكومة السودان فى حيرة من أمرها على معاوية وأمثاله ممن تعلموا فى خارج السودان .. فهى من جهة قد رسمت لها سياسة مسبقة ، ضد اولئك الشبان الذين تمردوا على مدارسها، وخرجوا من السودان طلبا للتعليم الحر واحراز الشهادات العالية ، سواء فى القاهرة أو من لندن أو من بيروت ..فهم متمردون فى نظرها ، فقد تقرر قفل الابواب أمامهم وحرمانهم من الوظائف فى حكومة السودان .. ولكنها من جهة أخرى ، وجدت نفسها امام شخص غير عادى ، اديب كبير وصاحب قلم شق طريقه الى اكبر صحف العالم فى لندن والقاهرة ..

فوقع حكام الخرطوم آنذاك فى حيرة ، ماذا يصنعون اذن وكيف يتقون شر ذلك القلم ، ان هم اهملوه ؟ وكيف يتقون شره ايضا ان هم افسحوا له المجال فى كلية غردون ليصبح مدرسا فيها استجابة لطلبه ؟؟

لقد حار بهم الدليل كما يقولون ، وخرجوا فى النهاية بتعليلات هزيلة ، كقولهم ان مستوى معاوية أعلى من التدريس فى كلية غردون ، وكقول مدير تلك الكلية بأن معاوية كان يتحدث معه وكأنه استاذ يخاطب تلميذه !! والواقع انه لا هذا ولا ذاك ، وانما هى تلك السياسة المرسومة ضد معاوية ... والتى اشرت اليها سابقا ، ويمكن ادراكها بوضوح من مجموعة الخطابات السرية التى جرى تبادلها بين القاهرة والخرطوم ، بمناسبة تخرج معاوية من جامعة بيروت واحتمال عودته للسودان ، وكانت تلك الخطابات شاملة لكل الشبان الاحرار الذين غادروا السودان للتعليم فى الخارج وقد ذكرتهم جميعا بالاسماء .. وهى فى جملتها صورة واضحة لسياسة حكومة السودان المعادية لاولئك الشبان .. وقد فضحت جريدة البلاغ القاهرية تلك السياسة المتعسفة فى سنة ١٩٤٧ ، حينما تحصلت على تلك الخطابات السرية فنشرتها كوثائق دامغة لحكومة السودان .. الوثيقة الاولى والوثيقة الثانية والثالثة ... الخ .

وثائق دامغة فى جريدة البلاغ القاهرية

وقد عثرت فى أوراقى القديمة على الوثيقة الثالثة المنشورة فى (البلاغ) بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٤٧ — تلك هى الاسباب الحقيقية التى جعلت حكومة السودان تضن على معاوية بأية وظيفة ، وهى التى تظاهرت عند ابرام اتفاقية ١٩٣٦ بالحرص على حق السودانيين فى الأولوية لشغل وظائف السودان ، وان لا يعين اجنبى فى وظيفة الا اذا لم يوجد لها السودانى الكفء .. ومن هم الأكفأ من معاوية فى ذلك الحين ؟؟

وهل كان مدير كلية غردون الذى تبدو السخرية فى كلامه عن معاوية ، يطمع فى جريدة التايمز اللندنية واكبر صحف العالم ، أن تنشر له آراءه الخاصة ، وتحتفى بها كما كانت تفعل مع مقالات

معاوية ؟ والجواب بلا شك معروف ، فلا هو ولا مدير الخرطوم ولا السكرتير الادارى ، كانوا يطمعون فى تلك المكانة المرموقة التى تمتع بها معاوية ، فى أرفع الاوساط الفكرية سواء فى القاهرة أو لندن ..

لقد تمخضت اريحية حكومة السودان عن وظيفة غاية فى الصغر وفى مجلة غاية فى الصغر ايضا، هى مجلة الغرفة التجارية بالخرطوم ، فتكرمت بها على معاوية ، لا ليكن رئيسا لتحريرها ، وهو الذى كان رئيسا لتحرير الا (ايجبشيان غـازيت) فى القاهرة وانما ليكون سكرتيرا لتحريرها فقط ، ظنا منهم انهم بذلك يستطيعون رفع الحرج عن انفسهم ، امام اسرة معاوية ذات الشخصيات المرموقة ، وامام اصدقائه ايضا ، كما انهم كانوا لا يريدون ان تكتشف نواياهم التى كانوا يبيتونها لحملة الشهادات الجامعية من ابناء السودان .. وهم فى واقع الامر انما كانوا يريدون فقط الانتقاص من شخصية معاوية اللامعة ، ولكن عن طريق دهائهم المعهود الذى استخدموه بمكر بالغ مع اسرة معاوية ، حيث اقنعوا بعض افرادها ، بأن الطريق سيكون مفتوحاامام معاوية بمجرد قبوله العمل المعروض عليه .. وتحت الحاح الاهل والاصدقاء قبل معاوية العمل على مضض شديد .. ولكنه ما كاد يمضى شهورا قليلة ، حتى شعر بالفخ أو القمقم الذى اراد الانجليز ان يحبسوه فى داخله ، كما هاله مدى الدرك السحيق الذى انحدر اليه بقبوله ذلك العمل ، بعد ان عاش فى شاهقات القمم ، كواحد من عمالقة الفكر والادب ... !!

شعور معاوية بالغبن ومغادرته السودان .

وسرعان ما تطرق اليأس الى نفس الاديب الكبير ، واحس بأن دوامة هائلة تعصف برأسه وتغمره بنوبات قاسية من مشاعر

الغبن والهوان والضياع .. فهزل جسمه وشحب لونه وأنتابته العلل والامراض ، التى اضعفت مقاومته وتركته نهبا للهواجس والهموم ، وقد تأكد له ان وعود الانجليز كانت خديعة يسترون بها ما يبتوه له من ملاحقة بالمضايقات والتكريه ، حتى تعاف نفسه البقاء فى السودان فيغادره .. وهكذا فعل معاوية وغادر بلاده الحبيبة ولسان حاله يقول :

يا دار عاتكة التى اتعزل حذر العدا وبها الفؤاد موكل
انى لامنحك الصدود وانني قسما اليك مع الصدود لأميل

لقد كان حكام الخرطوم فى ذلك الزمان يعيشون فى تعصب اعمى وتفكير عملى ضيق ، لم يتسع لأى رأى مستنير ، ولو كان مثل تلك النصيحة الواعية ، التى جاءتهم من احد زملائهم البريطانيين ، وهو المستر هملتون مساعد وكيل حكومة السودان بالقاهرة ، حيث اوصاهم فى أحد الخطابات السرية التى اشرت اليها ، بأن يحسنوا معاملة معاوية ، لعلهم يستفيدون منه فى المستقبل ولكن انجليز الخرطوم كان يتسلط عليهم الخوف الشديد من فتح الباب لكفاءة مثل كفاءة معاوية ، جزعا على سلطاتهم الواسعة ونفوذهم العريض ، الذى لا يحتملون أية مشاركة فيه ، ولو قليلة ، من ابناء السودان .

وفاة والدة معاوية .

وهناك مسألة خاصة ، اعتقد أنها كانت من العوامل التى تضافرت على معاوية ، وشكلت حالته النفسية السيئة التى عانى منها فى تلك الايام ، واسلمته الى الشعور بالضياع ، الا وهى فقده لوالدته التى حدثت وفاتها قبل مجيئه للخرطوم .. واهمية تلك الوالدة العظيمة لا تأتى من انها هى التى كفلته بعد وفاة والده فقط ، بل انها كانت صاحبة الفضل الأكبر فيما حققه من آمال فى تعليمه الجامعى فى الخارج .. فقد انفقت عليه كل ما كانت تدخره من

المال الذى ورثته من والدها ، محمد عثمان الحاج خالد ، العامل والسفير لحكومة المهدية ، لدى امبراطور اثيوبيا فى ذلك الزمان ، حيث عاد من هناك بكنوز من الذهب والنفايس الأخرى .. وكان نصيب والدة معاوية من ذلك كبيرا . . ولما اختلف معاوية مع رؤوس اسرته فى امر تركه لمدرسة الطب . وقد كانوا يريدون له ان يتخرج طبيبا مرموقا ، تقر به اعينهم ، وهو امر طبيعى لأية أسرة في ذلك الوقت ، حيث كانت وظيفة الطبيب هى أعلى ما يطمع اليه الشاب السودانى ، ولكن كان لمعاوية طموح آخر ، يحلق به فى آفاق عليا من عوالم الفكر والادب .. فأصر على موقفه مهما كانت النتائج .. وهنا تحرك قلب الأم العظيمة ، فلم تتردد فى الوقوف بجانب ابنها بالرغم من اعتزال الاهل له ، وكانت له السند والملاز ، واعطته الضو الاخضر ، ليذهب فى تحقيق آماله الى اقصى المدى ، فقد قالت له انها لن تبخل عليه بشىء ابدا .. لقد لعب الحب الكبير حب الأم ، دوره فجعل الوالدة العطوف تبدو وكأنها قد نفذت ببصيرتها لما كان قد استولى على قلب ابنها من تعطشه للعلم والثقافة ، وادركت مراميه البعيدة ، ليكون احد اعلام الفكر والادب .. وتخرج معاوية من جامعة بيروت وجاء الى القاهرة وأقام فيها .. ولكن امه قد مرضت وارسلت اليه تطلب حضوره وتبدى له تخوفها من ان يدركها الموت قبل ان تراه .. ولم يتمكن معاوية من تلبية نداءها ، وربما ظن انها مشتاقة اليه وتريد ان تستعجله فقط .. وكانت مشاغله تدعوه لتأجيل العودة للسودان بعض الوقت ، ولم يدرك المسكين ان والدته تعنى ما تقول .. فنفذ القدر وماتت الأم العظيمة .. وجاء النبأ المفجع لمعاوية ، فأدرك وهو فى غمرة حزنه انه ارتكب خطأ كبيرا فى حق والدته ، حين لم يأخذ نداءها له مأخذ الجد ، واحس بلذعة مؤلمة من وخز الضمير ، ظلت تلازمه

حتى رجع الى امدرمان حيث افتقد كنزه الثمين ومنبع الحب والحنان .. فاشتد به شعور الفقد مثلما اشتد به وخز الضمير والشعور بعدم الوفاء للوالدة التى اعطته كل شيء ، ولم تتركه وحيدا فى محنته حين تخلى عنه الآخرون .

شعور معاوية بالذنب نحو والدته .

اعتقد ان هذه الواقعة كانت من ضمن العوامل التى أدت الى المضاعفات النفسية التى أفسحت المجال امام مرض البرانويا لكى ينشب اظافره فى رأس معاوية ...

مضاعفات نفسية

وصل معاوية القاهرة هذه المرة لا كما كان يصلها من قبل ، فى ابهته ووسامته المعهودة ، بل ان الصدمات النفسية المتلاحقة وما الحقته بجسمه النحيل من امراض ، قد غيرت كثيرا من شكله ، فبدا هزيلا شاحب الوجه ، ليس بجبينه ذلك البريق الجذاب ، الذى كان يشع منه .. وفى القاهرة ظن معاوية — وهو فى غمرة آلامه — ان اسنانه هى السبب فى ما اصاب صحته من تدهور .. فعمد الى خلعها كلها مرة واحدة ، فنزف دمه بغزارة لم يحتملها جسمه العليل ، وكان قد اجرى قبلها فى الخرطوم عملية « بواسير » غير ناجحة . استقال على أثرها من الغرفة التجارية وسافر الى القاهرة ، حيث دخل مستشفى الكاتب بالروضة واجريت له عملية أخرى .

بداية «البرانويا»

فكان الدم الغزير الذى نزف من جراء تلك العمليات المتتابعة سببا فى اصابته بالاعياء الشديد ، فكانت فرصة مواتية لمرض « البرانويا » أو الشعور بالاضطهاد ، الذى كان مختبئا فى عقله الباطن ، ان ينشب أظافره فى جسمه العليل .

ولم تخف حقيقة المرض على اصدقاء معاوية فى القاهرة ، بل عرفوه منذ أول وهلة .. فقد حدثنا الاستاذ العقاد مرة ونحن فى ندوته الشهيرة بمنزله فى مصر الجديدة ، بأنه كان بالامس فى

زيارة لثلاثة من اصدقائه ، كلهم مصابون بالبرانويا .. وهم معاوية محمد نور ، والدكتور محمود عزمى ، والآنسة « مَيْ » الاديبة اللبنانية المشهورة .

ومحمود عزمى كان معروفا كواحد من قادة الفكر فى مصر ، واخيرا كان مندوب مصر الدائم فى الامم المتحدة ، وتوفى وهو يلقى خطاب مصر فى احدى الدورات للجمعية العمومية للامم المتحدة .

وحكى العقاد بأن تصرفات اصدقائه الثلاثة كانت متشابهة ، تقوم كلها على الوهم واتهام الجيران أو الشركاء فى السكن ، بأنهم يتربصون بصاحبهم لايذائه ، أو يحرضون عليه من يقوم بقتله . مما اضطر العقاد لبذل جهد كبير لكل واحد منهم ، لاقناعه بأنه واهم . فنجح فى تهدئتهم وطرد الاوهام من رؤوسهم بعض الوقت .

غير ان الظروف التى كانت محيطة بكل من محمود عزمى والآنسة « مَيْ » تختلف بالطبع عن ظروف معاوية .. فتوفرت لعزمى ومَيْ العناية الكافية للعلاج وتم لهما الشفاء .. اما معاوية ، ابن السودان فقد ادركته تعاسة بلاده ، وادركه ايضا عداء الانجليز السافر له ولامثاله ممن اغتربوا وتعلموا خارج السودان ، فلم يلق معاوية من العناية الطبية ، ولو بعضها مما لقيه زميلاه عزمى ومى .

بداية «البرنويا»

فتطور المرض فى جسم معاوية ، واسلمته ظروفه التعسة الى ايدى جاهلة ، من رجال بوليس القاهرة ، الذين لا يعرفون شيئا عن معاوية ولا عن مرض البرانويا .. فعاملوه على انه مجنون وأخذوه الى مستشفى الامراض العقلية بالعباسية . ثم نقل الى مستشفى الخانكة للامراض العقلية وهو مستشفى قديم ردىء المستوى .

تطور مرض معاوية فى القاهرة

ولما علم بالحادث الاستاذ العقاد ، ارسل احتجاجا شديدا للحكومة يبين فيه شخصية معاوية ، وكذلك فعل بعض الادباء والكتاب ، واهتم السودانيون بالقاهرة ايضا ، وشارك الاستاذ على البرير فى الجهود التى بذلها السيد (شرحبيل) شقيق معاوية ، بعد وصوله الى القاهرة .. فقد احضر على البرير خطابا من وزير الداخلية لاخراج معاوية من المستشفى ، وأخذ الخطاب شرحبيل وعوض عقارب ، فتمكنا من دخول مستشفى الخانكة بعد جهد كبير ، واخرجا معاوية بعد تعهد مكتوب . ولكن مع الاسف كانت هذه التجارب القاسية التى عاناها معاوية منذ خروجه من مستشفى الكاتب بالروضة ، الذى كان قد دخله للعلاج ، اثر عودته من السودان للمرة الأولى ، قد جعلت المرض يتمكن منه ، وأخذ يقوم بتصرفات غير واعية ، هى التى ادت به الى الوقوع فيما ذكرت .

وبعد أخذه من مستشفى الخانكة ، أقام بفندق الريفيرا جوار حديقة الازبكية لفترة اسبوع ، كان يزوره فيها كل السودانيين بالقاهرة ، وخاصة الطلبة ثم عاد للخرطوم بصحبة شقيقه شرحبيل ومكث فيها نحو ثلاثة شهور تحسنت فيها صحته الجسمية بعض الشيء.. ثم ظهر فجأة فى القاهرة ، قبل ان يشفى تماما من البرانويا ، فبدت منه مع الاسف مرة أخرى بعض التصرفات غير المتزنة .

منها انه دخل مستشفى الكاتب مرة بطريقة غير عادية ، بحثا عن ممرضة ألمانية ، كانت تعنى به عندما كان نزيل هذا المستشفى .. ويقال ان الممرضة الالمانية أعجبت بمعاوية ، ويبدو انها كانت على شيء من الثقافة ، ولفت نظرها بعض الكتب الانجليزية التى كان يقرأها معاوية ، ومن بينها (الف ليلة وليلة) ترجمة فيتز

جير الد ، وراعها تمكن معاوية من اللغة الانجليزية ، فأخذت تستمع اليه وتجاذبه الحديث ، وتلاطفه كلما واتتها الفرصة ، فوقع معاوية فى حبها ، واعتقد انها ايضا احبته .. فمعاوية كان على قدر من الوسامة ، وقد اكسبته الثقافة كثيرا من خفة الروح .. ولم يدرك المسئولون فى المستشفى شيئا من ذلك كله ، فظنوا ان معاوية مخبول واسلموه مرة أخرى للبوليس ، وكان لذلك اثره البالغ لمضاعفات المرض .. وذهب على البرير هذه المرة وأخذ معاوية الى مسكنه الخاص ، واتخذ كل الاجراءات اللازمة لترحيله الى السودان فى اليوم التالى ، وسافر معاوية بالفعل للخرطوم .. ولم يكن الغرض من ترحيله للسودان ان يجد به ما افتقده فى مصر من عناية علاجية ولكن لانه لم يكن ممكنا ان يترك فى الغربة بتلك الحالة المرضية المؤلمة .. غير ان القدر نفذ فى معاوية حيث انه فى غيبة الرعاية الصحية فى الخرطوم ، وتخلف مستشفياتها ، وعدم ادراك المسئوليين لواجبهم نحو علاج شخصية عظيمة كمعاوية ، انفتح الطريق مع الاسف الشديد للطب البلدى وما يتبعه من الشعوذة والدجل و (الفقرة) ..

معاوية فى قبضة الشعوزة والدجل

وهكذا أسلمت الاقدار السيئة معاوية لواحد من الدجاجلة الذين لا يمكن لهم ان يفهموا عن حالة معاوية الا أنها جنون .. وسرعان ما شمر (الفكى) الوحش عن ساعده وشرع فى اتخاذ مراسيمه واجراءاته الوحشية لاخراج الشيطان من جسم معاوية .. وليس هناك شيطان اكثر من الفكى نفسه .. وما افظعها من اجراءات تلك التى يمارسها امثال هذا الدجال .. اذ ليس فيها شفقة ولا رحمة بل التعذيب المضنى والاذلال ، وسحق نفسية المريض سحقا ، حتى يخرج منها الشيطان كما يزعمون ، والشيطان نفسه ارحم منهم .. فالمريض فى قبضتهم ، ينبغى ان يجوع الى الحد الذى لا يسمح له

الا بأكل الكسرة بالماء فقط ، ولا يسمح له بالرقاد على سرير مفروش ، بل على (عنقريب حبل) ، وان يلهب جسده بالسياط صباح مساء .

ويمكننا ان نتصور بعد ذلك ما حل بمعاوية من بلاء عظيم ، على يد ذلك المتشعوذ الغاشم .. والشيء الوحيد الذى كان يخفف على معاوية هو عدم وعيه احيانا بما يدور حوله .. والشر بالشر يهون ، كما يقولون .. وهكذا بدأ للمفجوعين بكارثة معاوية ، ان الموت أفضل لمن ليس له غير الموت من شفاء ، ولسان حالهم يقول :

كفا بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا

واسلم معاوية روحه الغالية .. ولسان حاله يقول :ـ

وفاة معاوية

اضاعوني واى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد رأى

وبموت معاوية ، أسدل الستار على مأساته الفاجعة ، وبلائه العظيم الذى تقشعر منه الابدان ..

ان الاستعمار البريطانى فى السودان ، ليتحمل الوزر كل الوزر فى مأساة معاوية ، فهو بلا شك احد ضحاياه وشهدائه ..

رثاء العقاد

وفى القاهرة كان لنعى معاوية وقع مؤلم لدى اصدقائه فى الفكر والقلم وفى مقدمتهم العقاد الذى رثاه فى حرقة بالغة ، بقصيدته الباكية وهو الذى ما (شوهد قط باكيا) كما قال فى القصيدة التى كانت بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة معاوية :

أجل هذه ذكرى الشهيد معاوية فيالك من ذكرى على النفس قاسية
أجل هذه ذكراه لا يوم عرسه ولا يوم تكريم ودنياه باقية
تبينت فيه الخالد يوم رأيته وما بان لى ان المنية آتية

وما بــان انى اطــالع سيرة أواخرها من بدئها جد دانيــة
فوا أسفى ذالك الشباب الذى مضى واغصانه تختال فى الروض نامية
بكائى عليه من فــؤاد مفجــع ومن مقلة ما شوهدت قط باكية
الخ ..

وقد حدثنى الاخ محمود متوكل المهندس الذى ناب عن اسرة معاوية فى مرافقة العقاد لزيارة قبر معاوية ، فقال ان العقاد عندما وقف على القبر لم يتمالك نفسه من فرط التأثر فبكى وابكاهم معه ..

تأبين معاوية بنادى الخريجين

وفى العاصمة المثلثة بكاه المثقفون بكاء مرا ، واقاموا له مأتما حزينا لتأبينه بنادى الخريجين بامدرمان تجلى فيه شعورهم بالفقد العظيم .

معاوية والعمل السياسى

واستكمالا للصورة الموجزة التى استطعت ان اقدمها لمأساة معاوية فى هذه العجالة ، أود ان اشير الى ما ما كان يزعمه البعض من ان معاوية ليست له نزعة سياسية ، ولم يجشم نفسه عناء الدخول فى ميدانها العملى كما فعل استاذه العقاد فى مصر .. والواقع ان معاوية بالرغم مما يبدو عليه من تفرغ لقضايا الفكر والأدب ، الا أنه كان ينطوى على استعداد كبير للعمل فى ميدان السياسة .. وان الخواص ليعرفون ان احجام معاوية عن دخول الميدان السياسى كان مؤقتا . لأنه كان يقول لهم ان الوقت لم يحن بعد لمثله لدخول السياسة العملية ، لأنه كان يرى أن الحركات السياسية فى ذلك الوقت ، تتسم بعدم الجدية ، وان قادتها يشغلون انفسهم كثيرا بالخصومات الشخصية .. والأدلة على ما كان ينطوى عليه معاوية من نزعة سياسية كبيرة ، أسوق منها :

تلك المقالات التى كان يكتبها فى الصحف المصرية ، ليفضح بها سياسة حكومة السودان ، فيما يتعلق بالتعليم ، وفى مشروع

الجزيرة والزراعة بوجه عام ، وكذلك المزارعين وعلاقات الانتاج ، ثم مؤازرته لاضراب كلية غردون المشهور فى ١٩٣٢/٣١ ، وانحائه باللائمة على ادارة كلية غردون وسياستها وبرامجها التعليمية الخ

وكذلك ما كتبه بمجلة الفجر الخرطومية ، من نصح للادباء بألا يحصروا أنفسهم فى الأدب والنصوص الأدبية ، بل يجب ان يفتحوا عقولهم لاستيعاب ما يجرى فى العالم من تيارات سياسية وتحركات حديثة للعمال فى الشرق والغرب ، وللتعرف على حركة الفابيان الاشتراكية فى انجلترا .. الخ .

كما اننا نجد ان معاوية عندما كان فى القاهرة ، إبان حكومة صدقى باشا الدكتاتورية فى مطلع الثلاثينات ، كان يشترك مع الكتاب ورجال القلم ، اشتراكا جديا فى محاربة العهد الصدقى ، والعمل على اعادة الحياة الديمقراطية وحكم الاغلبية الشعبية .. كما اننا نرى قلمه القوى ، يتجاوز الحدود الى اوربا فيتناول سياستها بالنقد واحيانا التنديد فى امور دولية خطيرة ، كمفاوضات نزع السلاح .. فيتصدى معاوية لتلك المفاوضات ، بأسلوب ساخر يكشف ما فيها من زيف ، ويؤكد انها اسلوب قاصر ، وان السلام لا يتحقق بنزع السلاح وانما بنزع الضغائن والاحقاد ..

وقد قرأت أخيرا فى (كتاب السلام) للاخوان الجمهوريين المنشور فى ديسمبر ١٩٨١ ، حيث تحدثوا عن سعى العالم للسلام ، وانه يسير فى درب مسدود ، لأنه لا ينفذ الى اصل المشاكل ، وانما يكتفى بمظهرها .. وقد قال الكتاب (إن معاوية قد لمس بيده الزكية ، هذا الامر لمسا عميقا منذ زمن بعيد ، فقد جاء فى كلمة له ، بمناسبة مؤتمر نزع السلاح فى عام ١٩٣١ ما يلى : « عادت الصحف الاوربية تتكلم عن نزع السلاح وضرورة الاهتمام به ، بعد ان

رأى العالم نتيجة الحرب الماضية تتجسم فى ازمة مخيفة بها وبوادر حرب جديدة ، واستنفاد للخزائن القومية ، فى معدات الحرب وآلات القتال المختلفة ، مع فقر هذه الامم وحاجتها الى المال تصرفه في غير هذه الشئون ، وغير تلك المرافق)..

ويقول : والذي تعجب له في هذه الحركة ان الحروب لا يمكن ان تتوقف بهذه الطريقة السلبية ، وإن السلام لا يمكن ان يكون هنالك سلام أو اخاء عالمي بهذه الطرق واشباهها ، وانما السلام يكون بنزع الضغائن لا نزع السلاح .

فهل يمكن ان تكون مثل هذه النظرة المتقدمة جدا ، فى اعوص المشاكل الدولية ، بعيدة عن الاهتمام بالسياسة وبالنزول الى ميدانها ؟ ان معاوية كان يدخر نفسه وقلمه للوقت المناسب .. ولكن ما أقسى تصاريف الاقدار .. ولا تعجب اذا علمت ان عمر معاوية العملى الحقيقى كان اقصر مما يتصوره الناس .. إنه ليس أكثر من خمسة سنوات ، منذ ان تخرج من جامعة بيروت الى ان اصيب بالداء العضال فى ١٩٣٧ . وكان عمره عند وفاته فى ١٩٤٢ ثلاثة وثلاثون عاما .

ولا يشك أحد ممن عرفوا معاوية ، فى ان عقليته النادرة ، لو امهلها العمر ، لشرفت بابداعها اسم السودان ورفعت له علما خفاقا بين اعلام الفكر والأدب فى العالم العربى .. فى القاهرة ايضا اهتم الطلبة السودانيون بجمع آثار معاوية ، فجندوا مجموعة منهم ذهبت الى دار الكتب المصرية والى غيرها من الاماكن الاخرى ، واستطاعت ان تجمع من مقالاته وابحاثه قدرا لا بأس به ورأوا في النهاية تسليم كل ما جمعوه لاستاذ معاوية وصديقه الكبير العقاد ، لتكون عنده كمعلومات للكتابة عن معاوية . . وفعلا كتب العقاد عن معاوية عدة مقالات .. .

وفاة الملك فؤاد الأول

وتولية فاروق الأول خلفا لوالده

وشهدت سنة ١٩٣٦ فيما شهدت من أحداث هامة — وفاة الملك فؤاد الاول والمناداة بابنه فاروق خلفا له ...

وكان لى انطباعاتى الخاصة العميقة فى كلا الحدثين ولكن حوالى نصف قرن من الزمان فى ظروف جيلنا المتاصل ، كفيل بان يمحو كل اثر لتلك الانطباعات . غير انى الححت على الذاكرة لاجد شيئا يمكن ذكره فى هذه المذكرات فلم اعثر الا على القليل .. وهو فى جملته يمثل جانبا من المقارنة التى كنا نعتمدها ، ونحن طلبة بالمدرسة السعيدية ، بين شعور الشعب المصرى نحو الملك فؤاد ، وشعوره نحو فاروق عند ولايته الملك . كان الملك فؤاد غير محبوب عند عامة الشعب المصرى ، ولقد ذكرت فى غير هذا المكان صورة مما حدث فى ميدان النادى الاهلى لكرة القدم ، حيث كانت المباراة بين المدرسة السعيدية وبين مدرسة فؤاد الاول الثانوية ، ورأينا كيف تحول تشجيع لاعبى المدرسة السعيدية من مناوشات بسيطة لفريق مدرسة فؤاد الاول ، الى هتافات مدوية ومظاهرات صاخبة ضد الملك فؤاد ، دون تورع أو خوف من رجال الأمن الذين كانوا يشاهدون كل شىء ولم يتدخلوا . وكنا نلمس مثل هذا الشعور ضد الملك فؤاد فى كل مناسبة وكل مكان .

توفى الملك فؤاد وابنه فاروق بلندن ، حيث كان يتعلم ، فعاد فاروق على عجل الى مصر .. وهنا كان مبعث المقارنة بين الابن وابيه ، بالنسبة لشعور الشعب المصرى نحو كل منهما .. لقد فرق الشعب المصرى تماما ، بين والد انطوى عهده بكل ما تورط

فيه من اعمال معادية لحرية الشعب ودستوره وديمقراطيته ، وبين ملك شاب يقبل على الملك بصفحة بيضاء وقلب نقى ..

فكان موقفا نبيلا من شعب مصر الذى عركته التجارب ، فأراد ان يشعر الملك الشاب بما يكنه له من عميق الحب وأبلغ الترحاب ..

ولقد تجلى ذلك فى مواقف ومناسبات كثيرة ، اذكر منها اول استقبال لفاروق بالاسكندرية ، عند عودته من لندن ، حيث خرجت الاسكندرية عن بكرة ابيها للقاء الفاروق والترحيب بمقدمه .. واستقبلت فاروقها وكأنها عروس فى ليلة زفافها .. والموقف الثالث كان بمناسبة القران الأول لفاروق بالملكة فريدة ...

فقد كانت ليالى ذلك القران اكبر دليل على حب الشعب المصرى لملكه الشاب ، فقد غمرت الفرحة كل طبقات الشعب ، وتجلت مشاعر الود والابتهاج واكتظت القاهرة بالجماهير ، وازدحمت شوارعها بالوفود القادمة من الاقاليم للمشاركة فى الفرح .. وخرجت الفرق الموسيقية الشعبية وفرق المغنيين والمنشدين الى الميادين العامة والحدائق ، يصفقون ويرقصون ويملؤون الدنيا فرحا ، وكان أبناء الصعيد اكثرهم الفاتا للنظر ، وكانت أغانيهم الساذجة المرحة ، على جانب كبير من الجاذبية وخفة الدم .. وما ألطف اغنيتهم الشعبية التى ملأت الاسماع فى تلك الايام واصبحت على كل لسان :

ملك البلاد يا زين

يا فاروق يا نور العين

يا أبو وردة على الخدين

يا ملكنا تعيش لينا

يا ملكنا تعيش لينا

يا ملكنا تعيش لينا

الباشوات والانجليز حالوا بين فاروق والنحاس

وهكذا منح الشعب المصرى الطيب القلب حبه كله لفاروق .. وشجعه غاية التشجيع ، وأولاه قيادته بكل اخلاص وأمل ... فكانت الفرصة أمام فاروق ذهبية ، وطريقه مفروشه بالرياحين .. ومما ضاعف من ملاءمة الموقف بالنسبة لبداية ملك فاروق ، ان الحكومة كلها كانت من حزب الوفد الممثل للأغلبية الشعبية فى مصر ، فسعى النحاس باشا رئيس الحكومة ورئيس الوفد سعيا حثيثا لاحتضان فاروق الملك الشاب ، وتوجيهه نحو شعبه الوفى حتى يصبح ابنه البار وملكه الممثل لرغباته وتطلعاته للحرية والديمقراطية .. ولكن الاقدار كانت ترسم لفاروق طريقا آخر غير ما اختاره له النحاس ، وغير ما كان يأمله شعب مصر ، الذى فتح قلبه لفاروق كما لم يفعل مع أى سلطان أو ملك من أسرة محمد على الكبير ..

كانت فى مصر قوى ضخمة تنافس النحاس فى السعى لاحتضان فاروق لتوجيهه الوجهة التى يريدونها له .. كان هناك باشوات القصر ، وقادة احزاب الأقليات ، ومن ورأهم فريق من الساسة الاتوقراطيين المستقلين .. وكانت هناك دار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة ..

فباشوات القصر بحكم ممارساتهم الطويلة فى معاداة حزب الوفد وزعماءه طوال سنوات حكم الملك فؤاد قد تشبعوا بالروح العدائية لذلك الحزب ، حتى أصبحوا لا يعملون الا فى جو معاد له .. ومن هنا قد التقت أيديهم بأيدى تلك العناصر المستوزرة ، التى تستمد وجودها السياسى من إستنادها الى القصر الملكى وحده ، لان بعضها قد فقد مكانه وسط الجماهير ، فلجأ الى تكوين حزب لا سند له من الشعب ، أو إدعى أنه سياسى مستقل ، والبعض الآخر من الاتوقراطيين الذين لا يؤمنون أصلا بالشعب أو الحياة الديمقراطية،

والتجأ هؤلاء وأولئك جميعا الى القصر أيضا كقلعة منيعة يسندون اليها ظهورهم فى صراعهم مع الوفد حزب الأغلبية الشعبية ، والمطالب دائما باحترام الدستور والحياة الديمقراطية .

استحواذ الملك على السلطة

فالوجود السياسى لتلك العناصر المستوزرة ، أو على الأصح وصولها الى الحكم والسلطة ، لا يمكن تحقيقه عن طريق الدستور ، لأن الدستور أعطى حق تولى الحكم لصاحب الأغلبية ، وصاحب الأغلبية هو حزب الوفد ورئيسه مصطفى النحاس .. فالدستور اذن هو العقبة الكؤود في طريقهم ، أى الأقليات ، الى الحكم ، وهكذا كان العمل على كسب قلب الملك الشاب بالنسبة لهم ، مسألة حياة أو موت ، وبحكم خبرتهم السياسية ، عرفوا أن الوتر الحساس ، عند اجراء الانتخابات العامة ، كلما أسقطوا الحكومة الدستورية ، أى حكومة الاغلبية ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يعدون لتلك الانتخابات كل وسائل التزييف ، إذ تضع الحكومة المكلفة باجرائها كل سلطتها ، مع نفوذ السراى ، فى تنفيذ عمليات التزييف هذه ، دون تورع من انتهاك الدستور أو القوانين ، فتخرج النتائج كما يريدون ، فتستولى أحزاب الأقليات على الحكم ، بوزارة غير دستورية ، وبرلمان غير دستورى وأبرز الأمثلة فى عهد الملك فؤاد كانت تجربة محمد محمود باشا رئيس حزب الاحرار الدستوريين الذى تولى الحكم بعد طرد حكومة الوفد سنة ١٩٣٠ ، وأقام حكما ارهابيا باطشا ، حتى لقبوه بصاحب اليد الحديدية . وقال أنه سيحكم مصر عشر سنوات قابلة للتجديد . ولكنه لم يكمل العامين ، وجاءت بعده تجربة أخرى أشد وأنكى وهى تجربة اسماعيل صدقى باشا (أبو السباع) ورب الكفاءات كما كانوا يتندرون به فى ذلك الوقت ..

وفى هذه التجربة ، بلغ الانقلاب الدستورى مداه ، فسلط أبو السباع كلما كان تحت يد الحكومة من قوة ، لقمع الشعب المصرى والفتك به ومنعه عن التحرك فى طلب الحرية والديمقراطية ، ولم يتورع عن قتل الناس بالأفراد والجماعات حين ألغى دستور سنة ١٩٢٣. ووضع دستور سنة ١٩٣٠ ،وأقام به برلمانا جاء عن طريق انتخابات غير مباشرة ، كما نص دستور سنة ٢٣. وقد أشير سابقا الى ذلك كله .. ولكن صدقى أيضا لم يستمر حكمه الا ما يزيد عن العامين بقليل. غير أن تجربة صدقى قد استمرت بالرغم من اختفائه من الميدان . ولكن بشخصيات باهتة أخرى كعبد الفتاح يحى ومحمد توفيق نسيم وبالنسبة لأى ملك فى مصر فإن الخط الرئيسى ، هو الأستحواذ على أكبر قدر من السلطة والتدخل فى شئون الحكم.. وهذا لا يكون الا على حساب الدستور ، لأن الدستور يقول أن الملك (يملك ولا يحكم) ..

واذن فلا بد لأولئك المستوزرين من إغراء الملك بالدستور ، للأعتداء عليه . لأفساح الطريق أمام نفسه وأمامهم أيضا .. فيصطادو عصفورين بحجر : لإشباع رغبات الملك الشاب فى الاستحواذ والتدخل من جهـــة ، ووصولهـــم الى الحكم والسلطة من الجهة الأخرى . . والقوة الثالثة الكبرى التى كانت تقف وراء هؤلاء جميعا ، هى دار المندوب السامى البريطانى بالقاهرة التى كانت تنظر الى دستور سنة ١٩٢٣ بأنه أعطى للشعب المصرى حـــرية وديمقراطية أكثر مما يستحق .. وأن فى تطبيق ذلك الدستور بحذافيره تعويقا كبيرا للنفوذ البريطانى ، ولأغراض بريطانيا السياسية فى مصر ..

فكانت هى الأخرى سندا قويا للسراى ولرجال الأقليات فى إحداث الانقلابات الدستورية واستيلاء الأقليات على الحكم ،

بعد الاطاحة بالحكومات الدستورية التى كانت تصل الى الحكم كلما أجريت انتخابات عامة بمقتضى الدستور ..

وصحيح أن الدستور أعطى الملك حق إسقاط الحكومة وحل البرلمان ، ولكنه قيد ذلك الحق بأجراء الانتخابات العامة فى مدى ثلاثة شهور .. وذلك حتى تعطى الفرصة للشعب صاحب الحق الأول ليقول كلمته فى الحكومة التى أسقطها الملك ، فأما وافق الملك على اسقاطها ، وإما أعادها الى الحكم مرة أخرى .. وبالطبع لن يكون ذلك الا اذا كانت الانتخابات حرة نزيهة . ولهذا فأن ما كان يحدث هو للتظاهر بالمحافظة على الاجراءات الدستورية فقط كل تلك الانقلابات والتجارب غير الدستورية ، كان المقصود بها الحيلولة دون تطبيق دستور سنة ٢٣ ودون حكم الاغلبية الشعبية . فلو نجح النحاس فى كسب فاروق وجعل منه ملكا شعبيا يحمى الدستور ويحمى الديمقراطية ، لانتهى الوجود السياسى لرجال الاقليات ، واصبح لا سبيل لهم للوصول الى الحكم . كما ان الانجليز من جهة أخرى ، كان يتعذر عليهم أيضا التدخل فى شئون مصر الداخلية ، فلا يجدون فرصة كالتى اتاحها لهم صدقى باشا بتعطيله دستور سنة ٢٣ حيث انتهزت الحكومة البريطانية الفرصة واعلنت سحبها لهذا الدستور ، لانه فى نظرها كما اسلفت اكثر مما يستحق المصريون ، مع ان الدستور من شئون مصر الداخلية ، باعتبارها دولة مستقلة وذات سيادة فكان مسلك الحكومة البريطانية ، اعتداء صريحا على مصر ، وتدخلا فى شئونها الخاصة .. ولهذا فقد ظلت الجهود مشتركة بين تلك الجهات الثلاثة رجال السراى والاقليات والانجليز ، للاستئثار بقلب فاروق وابعاده عن النحاس ، حتى جعلوا منه فى النهاية خصما لدودا له ، كما كان الحال فى عهد

تعطيل دستور ١٩٢٣

والده فؤاد الأول، مع ان النحاس من جانبه، لم يدخر وسعا فى مرضات فاروق ، وذهب فى ذلك لابعد الحدود ، حتى وصفت بعض تصرفاته بالتزلف للملك ، ووصفت بعض تصرفاته الاخرى بالتهاون فى حق الدستور ، حينما كان رئيسا للحكومة، حيث بالغ فى التسامح مع السراى ، وافسح لها المجال فى التدخل فى بعض الشئون الخاصة بالحكومة ، كاختيار رئيس الديوان واختيار بعض كبار موظفى الدولة وتعيينهم.. وغير ذلك مما اختص به الدستور ورئيس الحكومة، ولكن مع الاسف كان ذلك دون جدوى .. فقد خسر النحاس بعض حقوقه القانونية ولم يكسب قلب فاروق ، بل على العكس استغلت السراى تنازلات النحاس كفرصة للتغول وللمزيد من التدخل فى شئون الحكم ..

وظلت لعبة اختطاف الحكم من يد النحاس زعيم الأغلبية الشعبية تدور على هذا النحو ، حتى سنة ١٩٣٥ ، حين بدأت النذر الدولية تلوح فى سماء أوربا كما ذكرت سلفا ، وتوجس العالم شرا من تكوين المحور بين هتلر وموسيلينى ،فاضطرت انجلترا للتفكير فى تغيير سياستها فى مصر ، فعمدت الى مهادنة حزب الوفد والتقرب اليه ، باعتباره ممثلا للشعب المصرى ...

واتخذت فى هذا الاتجاه خطوات سريعة .. واستجابت لمطالب الثورة الشعبية فاعادت دستور سنة ٢٣ ، وبمقتضاه أجريت الانتخابات العامة التى كانت نتيجتها فوز الوفد كالمعتاد ، وتولى النحاس رئاسة الوزارة،وقبل ذلك اتخذت بريطانيا خطوة هامة فطالبت بتكوين جبهة قومية برئاسة النحاس لتتولى المفاوضات معها لتسوية المسائل المعلقة بين مصر وبريطانيا ، فيما يتعلق بالجلاء واستكمال استقلال مصر .. تمهيدا لايجاد الجو الودى الذى أصبحت تنشده

بريطانيا .. وتكونت الجبهة بالفعل وسافروا الى لندن حيث دارت المفاوضات ..

وفى أثناء ما كانت تدور المفاوضات فى سنة ١٩٣٦ بلندن ، كلف على ماهر باشا بتولى رئاسة الوزارة الانتقالية لاجراء الانتخابات التى أسفرت عن فوز الوفد كما قلت ، وأصبح النحاس رئيسا للحكومة فتمت على يده معاهدة سنة ١٩٣٦ .. وبمجرد تشكيل الحكومة الوفدية الجديدة ، عين على ماهر رئيسا للديوان الملكى ، وما كاد النحاس يعتلى رئاسة الوزارة ، حتى دب النشاط المعادى له ولحزبه من جديد ، بين الاقليات والمستوزرين .. وتدل تصرفات على ماهر منذ أن تولى رئاسة الديوان ،على أنه جاء الى هذا المنصب الخطير ، وفى رأسه خطة ضخمة لمحاربة النحاس وحزبه والقضاء عليه سياسيا ، وقد أشرت الى شىء من ذلك فى غير هذا المكان ..

على ماهر رئيساً للديوان الملكي لمناهضة النحاس

ومما يذكر أن على ماهر قد حاول فى ما حاول من وسائل اضعاف شعبية النحاس ، ان ينقل معاداة الانجليز من الوفد ، كمركز قديم لمناهضة السياسة البريطانية فى مصر ، الى السراى الملكية — ولكن البريطانيين الذين يعرفون متى يصادقون ومتى يخاصمون ، كانوا قد انصرفوا الى النحاس ، وأخذوا فى التقرب من الأغلبية الشعبية ، تحسبا لما قد تأتى به النذر الدولية من حرب عالمية جديدة .. وأصبح كسب الشعب المصرى عندهم أهم بكثير من كسب القصر الملكى ، والمهم أن التعاون أصبح وثيقا بين على ماهر ممثلا للقصر ، وبين رجال الاقليات ، لتحطيم النحاس واقصائه بعيدا عن الميدان السياسى ، وقد اطلع على ماهر الملك فاروق على الخطة وتفاصيلها .. وتطورت الأمور الى معارك سياسية عنيفة ، تسلح فيها على ماهر والاقليات ، بكل مافى يد السراى من مال وسلطان ، لأقامة مراكز

النذر الدولية غيرت موقف الانجليز

ضخمة للدعاية ضد النحاس وحزبه فى جميع الميادين : الجامعة والازهر والصحافة والاحزاب والهيئات ، وذلك بدعم بعضها وتبنى البعض الآخر ، حتى أصبح صوت المعارضة للنحاس بين المتعلمين بوجه عام ، وخاصة فى القاهرة ، عاليا جدا ، له ضجيج وضباب كاد يحجب الحقيقة عن الأنظار .. ولكن النحاس ، بالرغم من اخطائه الكثيرة ، كتهاونه مـــع فاروق فى الامور الدستورية ، التى اشرت اليها ، وكتكوين فرق القمصان الزرق ، ذات الطبيعة النازية ، وما تورطت فيه من أعمال اساءت كثيرا الى حزب الوفد ..

بالرغم من كل ذلك ، بقى النحاس كالصخرة العاتية فى مكانه ، من زعامة الشعب المصرى .. وتحطمت كل المحاولات مع ضخامتها ، ولم تكسب الاقليات غير فاروق وخصومته للنحاس .. وليس غريبا من على ماهر أوغيره من الساسة ذوى العقلية الاتوقراطية ، أن يلجأوا الى السراى ويتخذوا منها حصنا لمحاربة الارادة الشعبية ، ولأحداث الانقلابات الدستورية .. ولكن من المؤسف حقا أن ينضم الى هذه العناصر المعادية للديمقراطية ، شخصيات لها مكانتها فى تاريخ الحركة الوطنية ولها كفاحها الطويل من أجل الحرية والديمقراطية كأحمـــد ماهر والنقراشى ومكرم عبيد فيما بعد ، وأمثالهم من الشخصيات الوطنية الكبيرة ..

ومهما كانت حجة هؤلاء فيما يأخذونه على النحاس والوفد ، فلن يقبل التاريخ من أمثالهم ، أن يتورطوا فى محاربة النحاس على حساب الدستور والديمقراطية ، وكل القيم الاخرى التى أنفقوا أعظم شطر من حياتهم من أجل تحقيقها لشعب مصر العظيم . وتكون النتيجة هى وصولهم الى كراسى الحكم ، لا عن طريق الدستور الذى كافحوا من أجله ، وانما عن طريق انتهاك الدستور وعن طريق التزييف

والتزوير .. وحيا الله الاستاذ العقاد ، الذى لم تدفعه خصومته مع النحاس بالرغم من عنفها ، للسير فى ركاب الملك أو فى الموكب المعادى للديمقراطية والدستور ، وهو الذى زج به فى السجن من أجل الدفاع عن الدستور .

ورحم الله الدكتور محجوب ثابت ، فقد كان يتمثل دائما بتلك الحكمة القديمة : (أذل الحرص أعناق الرجال) ...

هذه نبذة موجزة لما تهيأ لفاروق عند توليه الملك ، من ظروف مؤاتية ، كان من الممكن ان تجعل منه ملكا دستوريا يتعاطف مع شعبه ويقوده نحو المجد والرفعة ..

انحرافات فاروق

ولكن تلك العناصر التى ألتفت حوله ، وهو حدث صغير ، قد حجبت عنه الحقائق ، وزينت له التغول على شئون الحكم ، حتى يكون هو مصدر السلطات ، وليس الشعب كما يقول الدستور ، وهكذا سار فاروق في ذلك الاتجاه المنحرف ، حتى اصبح طاغية متجبرا ، بل مستهترا بالدستور والديمقراطية ، ولا يطيق بقاء الحكومة الدستورية الا ريثما يدبر لها خطة للاطاحة بها . وظل الملك فاروق على هذا الحال ، الى أواخر الاربعينات واول الخمسينات ، حيث شاع الفساد وعمت الفوضى والاستهتار ، بكل شـــىء حتى تمنى الناس زوال ذلك العهد والخلاص منه .. ولم يمتد باالناس الوقت ، حتى قام الجيش المصرى بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى أطاحت بفاروق وبالنظام الملكى كله ، ثم أعلنت الجمهورية .

(هذه لمحات موجزة عن موقف فاروق بين شعب مصر وبين الاقليات ، وهو آخر ما بقى فى الذاكرة لذلك العهد من انطباعات ..

نحن ومصر الفتاة :

ما كدنا فى أيامنا الاولى، نتقدم نحو التعرف على الشعب المصرى، شعب القاهرة فى ذلك الزمان ، حتى بدأ يغمرنا شعور بخيبة الأمل ..

فقد وجدنا شعب القاهرة بمختلف طبقاته ـ عدا نفر في قلة الكرام ـ بعيدا كل البعد عما ظلت توافينا به الصحف المصرية ونحن في السودان، عن جيل ١٩١٩ وما بعده ، وعن فوراته الوطنية وثوراته العارمة التى سيبقى ذكرها عاطرا ابد الدهر ... لقد بدا لنا شعب القاهرة فى تلك الأيام ، وكأنه قد انصرف عن هموم ماضيه القريب وحاضره المظلم ، وانغمس فى حياة عابثة لاهية ، لا تنطوى على أية مسئولية وطنية ، أو مبالاة بشيىء مما يدور حولهم ، ويؤرق الأحرار ، سواء من تصرفات الانجليز أو الباشوات أو الأجانب المحميين بالامتيازات الأجنبية .. وكأن شيئا من ذلك لا يعنيهم . بل انصرفوا تماما الى حياتهم الخاصة المادية البحتة ، بكل ما فيها من التعلق بالمظاهر والمفاخرة والتباهي وما الى ذلك من انحدار الى الحضيض .. كما قال حافظ ابراهيم فى احدى قصائده الثائرة :

وهل فى مصر مفخـــرة　　سوى الالقــاب والرتب
وذى ارث يكاثرنـــــا　　بمال ليـــس مكتســـب

والشباب ــ ما اضيعهم ــ كانوا غارقين فى توافه الامور ، ولا حديث لهم غير الحب والغزل واللهو بكل الوانه ، كانما هم يعيشون فى فترة التيه التى عناها العقاد فى رثائه لسعد زغلول حين قال :

فترة التيــه تغشت أمــة　　غاب موساها على طور سنين

وكثيرا ما كنا نسمع من بعض الشباب فى معرض الدفاع عن تقاعسهم وانصرافهم عن الجد ، قولهم : (سعد باشا آل مافيش فائدة) وهى كلمة قالها سعد فى معرض الدفاع عن بعض المواقف الخاصة بالتفاوض مع الانجليز .. فحولها العابثون الى شعار للتخاذل والاستسلام.. اما الاحزاب فقد بدأت لنا وكأنها شاخت قياداتها

وترهلت ، فلم تعــد قادرة على بعث الهمم والعزائم الوطنية التى يتطلبها النهوض بمصر من ذلك الركود القاتل ، الذى حل بها بعد موت سعد زغلول ، واغرى بها الطامعين والمتسلطين .

اما الانجليز فقد تنكروا لكل وعودهم ، فى الأخذ بناصر مصر لتحقيق الحرية والديمقراطية ، بعد فشل مفاوضات ١٩٣٠ (النحاس هندرسون) واستنكروا من المصريين تمسكهم بدستور ١٩٢٣ الذى يعطيهم اكبر قدر من الضمانات الديمقراطية ، فنقموا عليهم ، وجعلوا من ذلك الدستور ، هدفا للانقلابات الدستورية ، والوزارات الدكتاتورية بقيادة الساسة الحاقدين امثال صدقى ومحمد محمود .. وفى الجانب الاقتصادي تقف الامتيازات الاجنبية لتمارس تسلطها على الاقتصاد المصرى وتسلبه القدرة على النهوض ، وحتى صغار الأجانب ، كانوا يستبيحون حمى مصر ، فيعربدون فى المجتمع المصرى ويعتدون ويقتلون الابرياء تحت مظلة الامتيازات الاجنبية ، دون ان يجدوا من يردعهم أو يأخذ للمصريين بحقهم . وكثيرا ما كان المصرى البسيط يتخلى عن حقه للمعتدى الاجنبى قائلا : (لاياعم ده حماية) وفى ذلك يقول حافظ ابراهيم :

وفى الرومى موعظة لشعب جد فى اللعب
يقتلنا بــلا ديّة ولا قود ولا رهب
ويمشى نحو رايته فتحميه من العطب

ولعل أصدق من وصف حال المصريين فى ذلك الزمان هو السير برسى لورين ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ، حين سافر فى اجازته الصيفية الى لندن ، فسأله الصحفيون هناك عن المصريين والحياة فى مصر فقال : يعيش المصريون اليوم وكأنما قد فرغوا من يوم الحساب !!

وفى تلك الظروف العقيمة القاسية التى كانت مصر تتلهف فيها لمن يأخذ بيدها ، ويدفع عنها الضيم والاخطار المحدقة بها ، كنا نسمع عن قصار النظر من يقسم ان هذا الشعب لن تقوم له قائمة .. ولكن كنانة الله — كما يقولون محروسة .. فقد كنا كلما اتسع تعرفنا على الاحزاب ، نجد ان هناك بعضا من الشباب الاحرار ، كانوا يحملون هموم بلادهم ويتعذبون من أجلها .. شبان قد ولدتهم المدارس الوطنية الكبرى ، من تراث جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول .. تجدهم فى مختلف الاحزاب والهيئات ، وبرغم قلتهم كانت أعيننا لا تخطئهم ، ومن بين هؤلاء الاخيار ، انبثقت حركة (مصر الفتاة) أو هكذا بدت لنا فى ذلك الحين ، كواحدة من فرق الانقاذ التى كان يتطلع اليها شعب مصر ، لتنتشله من وهدته السحيقة . . ظهرت لنا مصر الفتاة لاول مرة ، كحركة يحس بوجودها الناس فى اوائل الثلاثينيات ، قبل ان تصبح حزبا . وكانت تسمى (جمعية مصر الفتاة) وبينما كانت الحياة الرتيبة تمضى بنا فى مدرسة النيل الأهلية بشبرا ،وهى أول مدرسة ثانوية نهارية التحقت بها ، اذا بى اشاهد ذات يوم افرادا من طلبة المدرسة ، لا يزيد عددهم عن اصابع اليد الواحدة ، يتجمهر حول كل واحد منهم ، عدد كبير من الطلبة ويدور بينهم نقاش حاد ، اثناء فترات الراحة ، وكانت أغلبية الطلبة بطبيعة الحال وفدية بالوراثة ، وزعماؤهم فى نظرهم شبه مقدسين ، لا يقبلون مهاجمتهم بمجاهرة علانية بأى حال .. ومن هنا كانت تدور المعارك الكلامية ، ويحتدم الجدل بينهم وبين اشبال مصر الفتاة .. وكان الطلبة السودانيون ينظرون لهذه المعارك الكلامية ، كشىء جديد لم يألفوه من الشبان المصريين من قبل .. فيعجبهم على أى حال ويقتربون رويدا رويدا فيتبينون ، انها المعركة الخالدة بين القديم والجديد .. بين التعصب

مصر الفتاة

الاعمى للقيادات والاحزاب التى شاخت وترهلت ، وبين هذه الافكار الثورية المتمردة التي يجهر بها فتيان مصر الفتاة ، في أسلوب ثورى متمرد .. ونحن الذين صدمنا اول الأمر فى الشبيبة المصرية لانصرافها عن روح الجد والغيرة الوطنية ، قد بهرتنا مواقف فتيان مصر الفتاة وهم يزارون كالاسود ، يهاجمون الحكومة القائمة فى جرأة بالغة ، ويحملون على قيادات الاحزاب ، ويندون بالطلبة المتاعسين ، وينعــون عليهم ركونهم للدعة ، والميوعة ، وانعدام الشجاعة الوطنية ، واللامبالاة بما يجرى فى بلادهم ، سواء من الاحتلال البريطانى أو من عملائه باشوات مصر . كل ذلك والاصوات المعادية لهم كان يتسم بعضها بالسذاجة كقولهم : (هو يعنى احمد حسين يساوى ايه ؟ هو راجل فقير ما يقدرش يعمل حزب سياسى) . ولكن اشبال مصر الفتاة كانوا لا يبالون فيندفعون فى طرح مبادئهم وافكارهم الجريئة الجديدة ، محاولين طرد الخوف والضعف من نفوس الشباب ، وحتى الاغانى كانوا يحملون على المائع منها ، والتى تبث الضعف والخور فى نفوس الشباب ، كأغنية الاستاذ محمد عبد الوهاب (يا لوعتى يا شقاى ، ويا ضنا حالى .. الخ) مما كان على الألسنة فى تلك الايام .. ويصفها اشبال مصر الفتاة بالسموم التى تسرى فى جسم المجتمع ، ويقولون : ان الفتاة التى تقبل الشاب الضعيف المتهافت على اقدامها ، لهى فتاة منحرفة ، ولو كانت انوثتها معافاة ، لرفضت مثل هذا الشاب وطردته ، حتى يعود اليها قويا شجاعا يستمد جاذبيته عندها من قوة شخصيته .

وهكذا كان أشبال مصر الفتاة يمضون فى الكشف عن أمراض المجتمع ويشنون عليها حربا بلا هوادة ، وكثيرا ما كنا نسمعهم يرددون اشعار حافظ ابراهيم الثائرة ، التى تنعى على المصريين امراضهم الاجتماعية فى تلك الايام ، وما أفضت اليه من الوهن

واعتلال الروح الوطنية .. كنا نعجب بهم ونشعر بأننا نسترد آمالنا في الشبيبة المصرية يوماً بعد يوم .. كلما تقدموا في بسط مبادئهم التي كانت تمثل في الواقع جماع ما كنا نصبو اليه كشباب ، سواء في غيرتهم على الاخلاق أو الوطن أو حالة البلاد الاقتصادية أو الاجتماعية .. الخ وكانوا يوزعون الكتيبات الصغيرة والنشرات التي تحوي مبادئهم ، فنتلقفها في لهفة لنقرأ مبادئهم وتعاليمهم التي بدت لنا وكأنهم قصدوا بها ان تكون متطرفة ، كرد فعل للجمود والتحلل المخيم على المجتمع في ذلك الزمان .. وزاد تعلقنا بمصر الفتاة عندما نشرت جريدتهم المبادىء العشرة الواجب اتباعها من جنود مصر الفتاة وهي :

١ — لا تتكلم الا بالعربية ولا ترد على من لا يخاطبك بها ولا تدخل محلا لا يكتب اسمه بالعربية .

٢ — لا تشتر الا من مصري ولا تلبس الا ما صنع في مصر ولا تأكل الا طعاما مصريا .

٣ — تطهر فقاطع الخمور ودور اللهو الحرام والسينمات الأجنبية .

٤ — تطهر فصل لربك وأم المسجد يوم الجمعة ان كنت مسلما والكنيسة يوم الأحد ان كنت مسيحيا ويوم السبت ان كنت يهوديا .

٥ — احفظ نشيد اسلمي يا مصر ورتله بكل نفسك في كل حفل وليكن انشودتك في كل مكان .

٦ — حاسب نفسك كل ليلة : ماذا قدمت في يومك من أجل بلادك وسر في كل مكان واثقا بنفسك كمصري وامتلىء بها مجدا وإيمانا .

٧ — احتقر كلما هو أجنبي بكل نفسك وتعصب لقوميتك حتى الجنون .

٨ — بلادك هى مصر والسودان معا لا تتجزآن ولا تنفصلان .
٩ — غايتك أن تصبح مصر فوق الجميع .
١٠ — ليكن شعارك دائما الله الوطن الملك .

لقد كان لثورية مصر الفتاة صدى قويا بين الشباب فى السودان .. فكان الواحد منهم لا يكاد يصل القاهرة حتى يسارع بزيارة مصر الفتاة .. ومن الذين فتنوا بنشيد مصر الفتاة المهندس عبد الحميد أبوالقاسم هاشم الذى كان يذهب صباح كل يوم ليحضر طابور النشيد فى دار مصر الفتاة ثم يعود إلينا وهو يردده فى حماس بالغ ..

أسلمى يامصر أننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
ومعى قلبى وعزمى للجهاد ولقلبى أنت بعد الدين دين
لك يـا مصر السـلامة وسـلاماً يا بـلادى الخ

وكان الاستاذ فتحى رضوان المحامى ، الامين العام لمصر الفتاة من أوائل الشخصيات التى تعرفنا بها فى القاهرة .. فقد كنا نعجب بكتاباته وخاصة كتابه عن حياة (المهاتما غاندى) وقد نشأت بيننا وبينه صلات فكرية .. ووطنية عميقة ، وكان من أكبر مؤازرى رابطة الطلبة السودانيين عند نشأتها كما ذكرت سابقا .

كنا نتردد على مصر الفتاة لنرشف من المنهل العذب الذى كنا نجده فى خطب الاستاذ أحمد حسين رئيسها ، فى عباراتها الثورية التى كانت تملؤنا حماسا ، كما كنا نلتقى بالاساتذة مصطفى الوكيل وفتحى رضوان وفؤاد شكرى ومحمد صبيح والمشهدى ، ونستمع إلى أحاديثهم الشائقة فى الوطنية والسياسة ، خاصة عندما يعرجون على أوربا ويتناولون الانظمة الثورية كالنازية والفاشية التى نشأت فى بعض الدول التى دمرتها الحرب العالمية الاولى وخرجت منها مقهورة محطمة ، وكيف نشأت بها تلك التنظيمات ، وكيف استولت تلك

الانظمة على الحكم ، وكيف عملت على تجديد شباب بلادها وجعلتها تنهض من كبوتها ، كايطاليا والمانيا اللتان تغلبتا على ما خيم عليها من فقر وبؤس وخراب شامل ، وكيف أصبحتا قوة مرهوبة الجانب في سرعة لم تخطر لاعدائهما على بال .. تلك هي النازية على يد هتلر في المانيا والفاشية على يد موسليني في ايطاليا ، وكيف كان لكل منهما فعل السحر في نفوس الشباب .. فانخرط في حركة القمصان الخضر النازية ، كل شباب المانيا كما احتوت حركة القمصان السود كل شباب ايطاليا .. وذخر كل من البلدين بحركة فتية فوارة ، اهتزت لها الأرض في أوربا كلها .. وما كادت تشعر المانيا باستعادة قوتها ، حتى تقدمت نحو معاهدة فرساى التي كبلها بها الحلفاء ، عقب الحرب الأولى ، فحطمتها وتحررت من قيودها مرة واحدة ، ومضت في طريقها لتأخذ مكانها كأقوى دولة في أوربا .

وعجب العالم لهذه الدولة التي ظن الكثيرون انها لن تقوم لها قائمة .. كيف استطاعت في اقل من جيل ان تبنى نفسها من جديد ، وتصبح بهذه القوة التي تجعلها تطل برأسها كخطر يتهدد العالم من جديد .. كما عجبوا كذلك لايطاليا التي أخذت تجدد اوصالها بنفس سرعة ألمانيا وتقيم الصناعات الضخمة في طول البلاد وعرضها ، وتجعل من مساقط المياه قوة كهربائية هائلة هي (الفحم الابيض) كما كانوا يسمونه .. وكيف قامت ايطاليا بردم العشرات من البرك المتعفنة التي كانت كالدمامل المتقيحة في جسم ايطاليا ، وأقامت مكانها أزهر المدن وأحدثها في الهندسة وفن المعمار .. وكل ذلك بفضل النظام النازى الذى ابتدعه هتلر ، والنظام الفاشي على يد موسليني .. وكان قوام كل من النظامين هو الشباب ، في جيل ما بعد الحرب الاولى الذى أخضع لاساليب ثورية خاصة في التربية ، يتلقى فيها الشباب شحنات هائلة من حب الوطن والنظام والعمل ،

وتشحذ فيها عزائمهم وعقولهم بتعاليم ثورية جديدة ، تجعل من كل شاب قوة ايجابية ، تبنى وتعمر وتمضى دائما الى الامام .. وقد بدا لنا قادة مصر الفتاة وكأنهم كانوا ينقلون لمصر من تلك الانظمة ما تستعين به على تحريك الحياة الراكدة المتردية .. وهكذا اسست حركة القمصان الخضر ، التى كان لها صدى واسعاً ، لمسنا أثره فى جميع الاحزاب ، حتى ان حزب الوفد اكبر احزاب مصر ، قد جاراهم فيما بعد فأسس حركة القمصان الزرق .

وهم كانوا يهدفون بالطبع لخلق جيل قوى ، يقود النضال الوطنى ومعارك الاصلاح فى ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ويتهيأ لخوض المعركة الكبرى المرتقبة ، لانهاء الاحتلال البريطانى . ولم تكد تمضى سنوات قليلة ، حتى أصبح لحزب مصر الفتاة صحافته القوية وأقلامه المتخصصة التى تكتب هنا وهناك ، فأصبح لها وزنها القيادى فى تكوين الرأى السياسى العام بين المثقفين .

اثر مصر الفتاة فى السودان

ووصلت كتابات قادة مصر الفتاة للسودان ، واهتم لها الشباب ، وكتب محمد صبيح كما كتب فتحى رضوان عن السودان وعن مؤتمر الخريجين الوليد بالسودان ، مقالات متعددة .. وبالرغم من الغيرة الوطنية فأن محمد صبيح قد وقع فى الخطأ الشائع فى ذلك الوقت عند المصريين ، عن مؤتمر الخريجين بالسودان ، من أنه أداة فى يد الاستعمار لينفصل به السودان عن مصر .. ولكن سرعان ماتبين لهم جميعا نور الحقيقة بعد زيارة علـى ماهر للسودان ، وبعد الاتصالات التى قام بها رواد الحركة الوطنية فى السودان مع قادة مصر الفتاة ودعوتهم للاستاذ احمد حسين للسودان ، وسفره للخرطوم والجزيرة ، فعرفوا ان مؤتمر الخريجين حركة وطنية صرفة تجسدت فيها كل آمال السودان وتطلعاته .

وأرى بين الخطابات التي كانت ترد الينا من السودان عن مصر الفتاة ، خطاب من المرحوم خضر حمد كما ذكرت سابقاً يسأل عن محمد صبيح وعنوانه « لأنه يريد ان يدخل معه فى مناقشة طويلة » فقد قرأ خضر واخوانه ما كتب محمد صبيح فى صحيفة مصر الفتاة التى هو رئيس تحريرها ، عن المؤتمر وهو لا يزال وليدا لم يكتمل نموه بعد ، ولم تتوفر عنه المعلومات الصحيحة الكاملة لأية جهة ، فأراد خضر حمد ان يكاتب محمد صبيح ليتعاون معه على اعطاء فكرة صحيحة عن مؤتمر الخريجين . وبالفعل تم الاتصال بينهما كما تمت اتصالات أخرى مع قادة مصر الفتاة مكنتهم من فهم المؤتمر على حقيقته الوطنية ووفرت لهم المعلومات الكافية عنه وعن السودان وجنوبه بنوع خاص ، مما ظهر فى كتاباتهم وخاصة مقالات فتحى رضوان عن السودان .. التى ازعجت وكالة حكومة السودان فى ذلك الوقت ، والتى كان يمدهم بأكثر معلوماتها الاستاذ احمد خير المحامى والاستاذ محمد عامر بشير (فوراوى) .. قويت الصلات بين قادة مصر الفتاة والمثقفين فى السودان ، حتى ان الجمعية الأدبية بنادى ود مدنى وقد كانت أكبر حركة فكرية فى ذلك الوقت ١٩٣٧ ، قد وجهت للاستاذ احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة الدعوة لزيارة السودان — كما أشرت من قبل — وقام بالفعل احمد حسين بتلك الزيارة والقى محاضرة فى تلك الجمعية ، كما ذكر احمد خير فى كتابه « كفاح جيل » .. وقد أغضبت تلك المحاضرة حكام السودان الانجليز فأنهوا زيارة أحمد حسين للسودان فورا .. ولا يفوتنى ان اشير مرة أخرى الى ان الاستاذ محمد عامر بشير (فوراوى) كان من أوائل السودانيين المثقفين الذين اتصلوا بمصر الفتاة وزودوا قادتها بمعلومات كثيرة عن السودان .

مصر الفتاة والاقتصاد المصرى

وعنيت مصر الفتاة عناية فائقة باصلاح الاقتصاد المصرى ، فقامت بمبادرات ومشاريع متعددة ، كمشروع القرش وكمؤتمر الوطن الاقتصادى الذى دعوا له بين المثقفين والمتعلمين ، فوجد قبولا واسعا لدى مختلف الاوساط العلمية .. واقيم له مهرجان قومى كبير فى ارض المعرض الزراعى بالجزيرة ، اشتركت فيه كل الجهات الاقتصادية ، ودعمته باساتذة الاقتصاد ، وكذلك فعل المشتغلون بالاقتصاد فى كل المجالات . فكانت له حلقات حافلة بالابحاث العلمية لكل مجالات الاقتصاد المصرى ..

وساهم فيه أيضا قادة الفكر ورجال السياسة من كل الاحزاب والهيئات ، فقدمت الابحاث العلمية وعقدت حلقات النقاش لدرس الموضوعات والمقترحات دراسة علمية .. واستمر المهرجان عدة أيام وخرج على الناس بقرارات وتوجيهات كان لها أثر كبير فى تحريك غيرة المصريين على اقتصاد بلادهم ودفعهم للعمل على إنقاذه من السيطرة الأجنبية .

والآن وبعد هذا المسح الموجز لحركة مصر الفتاة ومبادئها التى كانت لنا زادا وطنيا شهيا فى مقتبل العمر ، خلال شطر كبير من سيرتنا الوطنية .. ماذا بقى لنا من علاقات مع قادة تلك الحركة ؟ الواقع ان حركة مصر الفتاة كمرحلة تاريخية ، كان لها اثر بالغ فى التكوين الايجابى لمشاعرنا الوطنية الفضة ، من منتصف الثلاثينات والى أواخرها ، ولا زلنا حتى الآن نكن لها فى نفوسنا التقدير والاحترام .. ولكن ما يحتاج اليه الانسان للكفاح الوطنى فى عهد الشباب ، ليس هو بالضبط ما يحتاج اليه فى أواسط العمر أو أواخره .

فمنذ مطلع الاربعينات ، قد أخذت مداركنا تتسع لمفاهيم جديدة وأفكار علمية فى السياسة والاجتماع .. وذلك بحكم دراستنا الجامعية وقراءاتنا الخاصة .. وكلما كنا نقترب من الافكار الديمقراطية

والاشتراكية كنا نبتعد عن النازية والفاشية وهى المبادىء التى قامت عليها حركة مصر الفتاة .. كما كنا قد بدأنا نلاحظ ان الاستاذ أحمد حسين ، كثرت حوله الاتهامات بأنه عميل للمحور ، وخاصة بعد زيارته لايطاليا وألمانيا ، ومقابلته لهتلر وموسليني واتفاقه مع الأخير على أن تكون مصر الفتاة تابعة لهم .. ثم ما كان يقوم به احمد حسين من تصرفات في حزب مصر الفتاة تصبغه نهائيا باللون النازى كرفع العلم النازى على الحزب والتنظيمات العسكرية .. والقيام بتوزيع المطبوعات النازية من كتب ونشرات وكتيبات ... الخ حتى اصبح الحزب دارا للنازية فى القاهرة .. واهم من ذلك كله اننا وجدنا احمد حسين يضع نفسه فى خدمة السراى الملكية بصورة مكشوفة ، ويكون من دعاتها ومؤازريها ضد المعارضة الشعبية ، وبذلك ينضم علنا الى اعداء الدستور والديمقراطية فى مصر .. ونجد ان قادة مصر الفتاة أو على الأقل الشرفاء منهم ، قد انفضوا من حول احمد حسين حين بلغ به الانغماس فى زمرة المطبلين للملك والداعين لزعامته وتجميد السلطات كلها فى يده ، والغاء الاحزاب والدستور .. الخ . بل اصبح احمد حسين من اكبر الدعاة لكى يكون الملك فاروق (الملك الصالح) خليفة المسلمين ، ويتزعم العالم الاسلامى كله !!

وهكذا ينتهى فى نظر احمد حسين عهد التدامى ، ويتقدم الشباب وعلى رأسه الملك الشاب ، لقيادة الحياة السياسية فى مصر والسودان والعالم الاسلامى !! وبالطبع ستكون الحكومة كما كان يأمل الاستاذ أحمد حسين فى يد شباب مصر الفتاة وسيكون احمد حسين هو رئيس تلك الحكومة .. وبذلك يتحقق له الوصول الى السلطة ، ويصبح هو الآخر كهتلر أو موسليني فيقدم على تحقيق

ما كان يراوده من احلام فى تأسيس الدولة المصرية ، على مبادىء (برلين روما) لكي تصبح (امبراطورية تكون من مصر والسودان وتتزعم العالم الاسلامى والعربى) .

ونحن كسودانيين يؤمنون بالديمقراطية وبالمعارضة الشعبية ، التى كانت تتمسك بتلك الديمقراطية وتقف سدا أمام الملك ، لتحول بينه وبين الاعتداء على الحياة الدستورية .. ، لابد لنا من أن نؤيد حزب الوفد الممثل لتلك المعارضة الشعبية ، والذى كان يسعى الى استقامة الحياة السياسية على طريق الحرية والديمقراطية .. وبما ان قضية السودان ومصر فى ذلك الحين كانت واحدة ، لم يكن لنا بد من الوقوف بجانب المتمسكين بالحياة الدستورية ، لأن الدستور هو الحارس الامين ضد عبث الملك واتباعه ، وتعويقهم للحياة الدستورية ، وكذلك ضد تدخل السفارة البريطانية فى شؤون مصر الخاصة واهمها الحياة الدستورية ، وذلك إدراكا منا بأنه كلما صلحت الحياة السياسية بمصر ، وتحققت لها الحرية والديمقراطية ، كلما وضح السبيل أمام المناضلين السودانيين للوصول الى الحرية والديمقراطية .

واذا كانت الاتجاهات قد باعدت بين الاستاذ أحمد حسين وابناء السودان ، فانهم على العكس قد احتفظوا بعلاقات طيبة مع الاستاذ فتحى رضوان سكرتير مصر الفتاة السابق ، الذى لم يغير شعوره نحو السودان والذى ظل يقدم لاصدقائه السودانيين خدماته ، كلما لزم الأمر .

ولن انسى اهتمامه البالغ بمحاكمات الطلبة السودانيين الشيوعيين وكيف كان يترك اعماله وهو من كبار المحامين ، ليلبى رجاءنا له بتولى الدفاع عنهم فكان يقبل على المهمة بحماسه المعروف دون أى مقابل أيا كان .

اقالة حكومة النحاس فى آخر ديسمبر ١٩٤٨

نص الاقالة :

نظرا لما تجمع لدينا من الأدلة ، على أن شعبنا لم يعد طريقة الوزارة فى الحكم ، وانه يأخذ عليها مجافاتها للروح الدستورية وبعدها عن احترام الحريات العامة ، ولتعذر إيجاد سبيل لاستصلاح الامور على يديكم ، امرنا بأقالتكم ، تمهيدا لاقامة حكم صالح .. الخ

بهذه العبارات القاسية ، أقال الملك فاروق رئيس وزرائه مصطفى النحاس . والملاحظ على هذه الاقالة التى لم تخف عباراتها المحكمة ، ما تنطوى عليه من روح العداء والتشفى : أن الملك قد اعتمد بصفة أساسية على مجافاة الوزارة للروح الدستورية فى الحكم ، فى الوقت الذى لم يتورع فيه هو نفسه عن ارتكاب هذه المخالفات الصارخة للدستور . فيقيل الوزارة دون الرجوع الى البرلمان لا تمام رأيه ... ولو كان هو يعمل بروح الدستور ، لما أقدم على إقالة حكومة تتمتع بثقة الأغلبية الساحقة فى البرلمان ، بادعاءات لا يقرها البرلمان .. ولم يجر فيها أى تحقيق .. فتصرف الملك هذا ليس مجافيا للروح الدستورية فقط ، بل هو إعتداء شنيع على الدستور .. ولكن هكذا كان حال القصر مع الوفد ، منذ العشرينات وحتى سنة ١٩٥١ ، فهو لا يقبل حكم الوفد الا تحت ضغط الظروف ... وفى كل مرة يبيت النية على إبعاده قبل أن يستقر به المقام ...

غير أنه أى النحاس فى هذه المرة قد بقى فى الحكم منذ سنة ١٩٣٦ الى آخر سنة ١٩٣٨ ، أى أكثر من عامين ، وهى مدة طويلة فى نظر القصر ، صبر فيها على مضض على حكم النحاس . فكان لا بد للقصر من ايجاد وسيلة للتخلص من كابوس النحاس الثقيل .. !! ولذلك كانت تلك العبارات الرصينة ، التى وضعت بعناية فائقة ، للتحايل بها على الدستور ، وايهام الناس بأنهم غيورون على الدستور ، ولكنها حيلة لم تنطل على احد ..

الواقع أن أحزاب الأقليات قد اجهت كلها الى القصر ، عقب موت الملك فؤاد فى سنة ١٩٣٦ ، وأحاطت بالملك الشاب فاروق الاول وتآمرت ما شاء لها التامر مع رجال القصر ضد حزب الوفد ، للحيلولة بينه وبين قلب الملك الشاب .. وخاصة بعد أن أخافتهم محاولات النحاس التى كادت أن تنجح فى كسب ود فاروق . ولكن طبيعة الأمور فى القصر المشحون بالدسائس ضد حزب الأغلبية ، الذى ظل يقود المعارضة الشعبية ضد الملك منذ بداية الحياة الدستورية فى مصر ، قد مكنت الاقليات المتساندة كما كانوا يسمونها ، من حبك المؤامرات ، ولما كانوا هم الاقرب الى الملك فقد عملوا ، فى جهد لا ينقطع لتحقيق مطامعهم فى الحكم والسلطة .. فالوفد فى نظرهم جميعا خطر مشترك تجب مكافحته والقضاء عليه ، ليخلو لهم وجه الملك ، ويصفو لهم الجو ، للتعاون على رسم السياسة المعادية للوفد .. وقد تم لهم كل ذلك ، وأصبح العداء بين السراى والوفد سياسة ثابتة .. ولكن العقبة الكؤود التى تقف فى وجوههم ، هى الدستور الذى يستوجب بصراحة ، الحق للأغلبية فى أن تتولى الحكم .. ولذا كانت الانتخابات العامة تنتهى دائما بفوز الوفد بأغلبية ساحقة ، وتجلسه على كراسى الحكم ..

فلا بد إذن من إيجاد الوسائل الكفيلة بالتغلب على هذا الدستور .. ومن هنا كانت اقالات النحاس المتعددة ، والانقلابات الدستورية وإقامة الحكومات الدكتاتورية منذ العشرينات وحتى المرة الأخيرة فى سنة ١٩٥١ . (ولعل المراقبين الذين عايشوا تلك الفترة ، يذكرون كيف تظافرت جهود القصر بقيادة على ماهر رئيس الديوان الملكى ، مع الاقليات المتساندة على شن الحملات الضاربة ضد الوفد والنحاس ، وكيف نشطت الدعاية المسمومة ، وإنتشر عملاؤها فى كل مكان .

يتلقفون الاخطاء ويجسمونها ، ويعملون على نشرها فى أوسع نطاق ..

حتى بدوا وكأنهم قد حققوا نصرا كبيرا فى الاوساط المتعلمة ، فى مجامع الشباب ، كالجامعة الازهرية وجامعة فؤاد .. وانعكس ذلك كله على الصحف المعادية للوفد ، والتى لم تكن تكف عن مهاجمة حكومة الوفد وتكبير أخطائها ، والتنديد بها فى كل كبيرة وصغيرة .. ولكن ليس كل الصحف التى تعادى الوفد مرتبطة بالقصر ، بل أن بعضها كانت له خلافاته الخاصة المزمنة مع الوفد كصحف الحزب الوطنى مثلا ..

القمصان الزرقاء

وصحيح أن حكومة الوفد كانت لها أخطاء كبيرة فى ذلك الوقت ، ساعدت خصومه على ضربه وتحقيق النصر الذى أشرت اليه فى أوساط الشباب بالقاهرة .. وهو فى حقيقته نصر جزئى ومؤقت ، لم يلبث ان زال وبقى الوفد كما كان ، صاحب الأغلبية الساحقة فى البلاد ، واهم تلك الاخطاء الوفدية هو ظهور تنظيم القمصان الزرقاء ، وهو تنظيم شبابى ضم جميع شباب الوفد واصبحت لهم حركة واسعة غمرت كل أحياء القاهرة ، فى مظهر أشبه بالمليشيات النازية عند هتلر ، والفاشست عند موسولينى .. وكان ذلك خطأ جسيما ، ما كان يجدر بحزب الوفد أن يقع فيه ، أو ينحرف اليه ، لأن هتلر وموسلينى قد أتخذاه أسلوبا للتربية العسكرية ، وجعلا القوة بديلا عن السياسة ، بعد أن كفرا بالسياسة والديمقراطية . والوفد هو حارس الدستور وحامى الديمقراطية فى البلاد ، منذ اعلان الاستقلال ولم يأل جهداً فى العمل على تأصيل هذه المبادىء وترسيخها ، بالتضحيات الجسام حتى أصبحت الديمقراطية منهج الحياة السياسية فى الوطن المصرى .. فكيف اذن يأتى هذا الحزب الشعبى العملاق ، ويأخذ بمثل هذه التنظيمات العسكرية المنافية

للمبادىء التي ارتبط بها كل حياته السياسية ؟؟ وبعد أن عرف أنها كانت وسيلة هتلر وموسليني للاطاحة بالديمقراطية والوصول للحكم بالقوة ؟؟

أغلب الظن أن الوفد لم يذهب الى شيء من هذا .. ولكنه لما رأى تنظيمات القمصان الخضر عند (مصر الفتاة) ، ورأى تنظيمات الإخوان المسلمين ، خشي على شبابه من الانجذاب اليها ، فعمل على مجاراتها .. ولكنها اصبحت في النهاية ، حركة واسعة أدخلت الخوف على السراى وعلى أحزاب الاقليات على السواء ، غير أن هذا التخوف لم يدم طويلا لان حركة القمصان الزرق قد تطورت الى شيء مبتذل وغير منضبط ولا مقبول .. وكانوا يبدون في انتشارهم في الطرقات والأسواق ، بحالة فوضوية ، وكأنما أفلت الزمام من يد القائمين على أمرهم ، فتركوا لشراذمهم الحبل على الغارب ، لتعيث فسادا وتدعي أنها جزء من السلطة القائمة .. وكثيرا ما كانوا يقومون بمضايقات الناس فيستنزون هذا ويبتزون ذاك . حتى ضج الناس بالشكوى وسخطوا على الحكومة التي ترعاهم . وهكذا ، بدل ان يكونوا سلاحا في يد الوفد ، أصبحوا سلاحا بيد خصومه ، ليشنوا به حملات الدعاية المعادية له ..

وفي ذلك الجو المشحون بالعداوة لحكومة الوفد ، وجد الملك فاروق ورئيس ديوانه على ماهر ، الفرصة المؤاتية لطرد النحاس من الحكم بتلك الصورة المتحاملة المشنجة ، التي عبرت عنها صيغة الاقالة ، بكلماتها وعباراتها المحكمة التي أريد بها إيهام الناس بأنهم قد كسبوا تأييد الرأي العام ، وسلخوا الجماهير عن الوفد ، أو هكذا أرادوا .. ولكن الوفد كان كالقدر الذي لا حيلة لهم فيه .. اذ كلما أرغم الدستور الملك على إجراء الانتخابات العامة يقوم

الوفد باكتساحها والفوز بالحكم، رغم أنف الملك وأحزاب الأقليات .

وكان المقصود من كل ماحوته صيغة الاقالة من تعسف ، هو اسناد الحكم لعلى ماهر رئيس الديوان الملكى ، الذى أثبت أثناء توليه رئاسة الديوان أنه يستطيع أن يعمل الكثير ضد النحاس ، وأنه قادر على تقليم أظافره . كما خيل اليهم .. فقد عمل على ماهر بنجاح لازكاء العداوة ضد الوفد ، وأشعل حوله النيران فى اوساط الشباب وألب عليه جمهرة الطلبة فى الازهر والجامعة ... وشجع كل الصحف المعادية له وكذلك بعض الأحزاب الجديدة ، كمصر الفتاة والاخوان المسلمين .. كل ذلك وهو رئيس للديوان والآن تريد السراى من على ماهر بعد توليه الحكم أن يكمل دوره فى محاربة الوفد وتحطيم النحاس وتجريده من سلاح الاغلبية الذى لا يفتأ يشهره فى وجوههم بجدارة ، فى أية انتخابات عامة ولكنهم كانو كناطح صخرة ..

زيارة على ماهر للسودان :

تولى على ماهر رئاسة الوزارة فى أول سنة ١٩٣٩ ولسوء حظه ما كادت تمضى شهور ، حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية .. وقد حاول الانجليز منذ اللحظة الأولى ، كسب على ماهر الى جانبهم ، لمساعدة الحرب وتنفيذ التزامات مصر المنصوص عليها فى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، والعمل على وقف التيار المعادى للحلفاء ، الذى أخذ يتطور الى اتصالات بدول المحور ، من قبل بعض الشخصيات ، بل وبعض الضباط فى الجيش والشبان .. فدخل الانجليز فى مفاوضات مع على ماهر ، ثم عمدوا الى تحريك الوتر الحساس عند جميع المصريين وهو السودان ، فمنوا على ماهر بزيارته وتمكينه من عمل شىء لمصر هناك ..

ولا شك في أن كل مسئول مصري يتمنى أن تتاح له الفرصة لكى يحقق لمصر شيئا فى السودان .. ولو إستطاع على ماهر أن يحقق شيئا من ذلك ، لأمسك بيده (كرتا) رابحا يلعب به بنجاح ضد النحاس وحزبه . وفعلا قدم حاكم السودان العام الدعوة لعلى ماهر لزيارة السودان فقدم بذلك هدية كبرى تصلح فى إعتقادهم لفتح شهية على ماهر للمساومة المقبلة .. وتلقى على ماهر من جانبه الدعوة بكل إرتياح ، وشرع على الفور فى إعداد نفسه للرحلة الميمونة . وبالرغم من أن الانجليز كانوا يعرفون أن على ماهر غير مؤيد من أغلبية الشعب المصرى ، إلا أنهم لم يترددوا فى التعامل معه لإستغلال وجوده على رأس السلطة ، واعتمادا على أنه رجل دولة قوى ومسنود من القصر ، وله دعايات واسعة فى أوساط المتعلمين والشباب ، قد تفيدهم فى الرأى العام لصالحهم . ومن الغريب ان يكون هذا رأى الانجليز ، فى حين ان المراقبين كانوا يعلمون أن فى مقدمة الاسباب التى جاءت بعلى ماهر للحكم من قبل القصر ، هو انه كان يضمر للحلفاء شيئا آخر عكس ما كان يريده منه الانجليز .. كما سيتضح لنا بعد عودة على ماهر للسودان مباشرة . والمهم ان نبأ هذه الزيارة كان له وقع طيب فى العاصمة السودانية ، وسرعان ما تردد صداه فى جنبات البلاد ، وتلقاه الجميع بالرضا والأبتهاج ، لأنهم أخذوه دليلا على ان الحكومة المصرية أصبح على راسها رجل قوى .. والسودانيون كانوا دائما تواقين ليروا مصر تأخذ مكانها في السودان على الأقل كشريك قوى ، لكى تخفف وطأة السيطرة البريطانية عليهم .. وكون على ماهر هو اول رئيس حكومة مصرى يقوم بزيارة للسودان فى اثناء حكمة ، لهو بلا شك مؤشر يعطى املا فى احداث تحسين فى وضع مصر الرسمي فى السودان .

وفى القاهرة اهتمت رابطة الطلبة السودانيين بأمر الرحلة كما ذكرت سابقا .. واعدت مذكرة ضافيـــة فـــى مختلف المطالـــب السودانية ، كأصلاح معهد امدرمات الدينى والحاقه بالأزهر وكأنشاء الثانوية المصرية بالخرطوم المذكرة (انظر الوثائق)

مذكرة رابطة الطلبة لعلى ماهر

واذكر ان المذكرة سلمت لعلى ماهر وهو يستعد للصعود الى سلم الطائرة التى اقلته الى اسوان ثم عطبرة ومنها الى الخرطوم . كما ذكرت من قبل .

وتمت الرحلة التى ناهزت الأسبوعين تقريبا من ١٨ فبراير الى ٣ مارس ١٩٤٠ م ، وكان الاحتفال بعلى ماهر بالخرطوم شعبيا باهرا عبر بصدق عما يكنه الشعب السودانى لشقيقته مصر ، فى شخص عـــلى ماهر ورفاقه ، من حب وتقدير .. وسارت الرحلة الميمونة كل ايامها محوطة بقلوب السودانيين اينما توجه ركابها ..

ومن عجب ان حكومة السودان قد بدا عليها ، من أول وهلة انها لم تكن خالصة النية فى دعوتها لعلى ماهر لزيارة السودان .. لانها لم تترك الأمور تسير على طبيعتها ، او تمكن الشعب السودانى من تأدية واجبه كاملا فى الترحيب بضيفه العظيم وزملائه الكرام .. بل نراها تحتكر الرحلة لنفسها وتحاول وضعها فى اطار رسمى فقط ... فترسم لها برنامجا محددا وخط سير ضيق لايسمح لجماهير الشعـــب باظهار شعورها نحو على ماهر ...

تناقض فى موقف حكام الســـودان

وكانت اغلب التنقلات لاتعلن ، كما كان يحدث بها تغيير فى خط سيرها من وقت لآخـــر ، ولكن الجماهير كانت دائما تكشفها وتملأ الطريق الذى يمر به موكب الرحلة .. وقد حاولت حكومة السودان حرمان اكبر الهيئات السودانية ، كنادى الخريجين بود مدنى ، من فرصة خاصة لتكريم على ماهر وزملائه ، ولكن

بالرغم من كل العراقيل ، تمكنوا من انتزاع حقهم باصرارهم العنيد....

فاقاموا فى النهاية احتفالاتهم ، وفقا لمشيئتهم واخرجوها فى الثوب القشيب الذى يليق بهم كاكبر ممثلين للشعب السودانى.. سواء فى مؤتمر الخريجين او فى نادى الخريجين بالجزيرة ، ونادى الخريجين بالخرطوم، وفى نقابة التجار الى آخره الخ . . .

احتفال نادى مدنى بالرغم من الانجليز

وكانت لنادى الخريجين بالجزيرة قصة فى مسألة الترحيب بعلى ماهر وزملاءه .. وذلك ان النادى عندما علم بأن البرنامج الرسمى لا يعطيه الفرصة لتكريم على ماهر ، بينما اعطى النادى المصرى فرصة إقامة حفل شاى لعلى ماهر ، سارع قادة النادى واتصلوا باخوتهم المصريين ، واقنعوهم بأن اظهار شعور السودانيين نحو على ماهر ، اكثر جدوى من اظهار شعور المصريين ، وان المسألة مقصودة لتفويت الفرصة على السودانيين .. ولا بد اذن من افساد التدبير الانجليزى الخبيث .. فتفهم المصريون الامر وتنازلوا لنادي الجزيرة عن فرصتهم لاقامة حفل الشاى ، واكتفوا بزيارة عابرة من على ماهر للنادى المصرى .

عندئذ سارع نادى الخريجين بالجزيرة بارسال برقية لعلى ماهر وهو لا يزال باسوان ، يدعوه فيها لحفل تكريم يقام له فيه .. ورد عليهم على ماهر بالقبول .. وتم لهم ماأرادوا ، دون اتصال بالسلطة الحاكمة وسكت الانجليز على هذه اللطمة التى رد بها نادى الخريجين اعتبارة.. واقاموا احتفالهم الذى كان مفخرة للسودان، ولن ينساه على ماهر طوال حياته .. وليس من اغراضى هنا وصف ايام الرحلة وتفاصيلها .. ولكن الذى يهمنى هو آثارها ونتائجها بقدر الامكان .. والواقع ان الرحلة قد هزت الركود الذى كان مخيما على

الموقف السياسي في ذلك الوقت .. فاحيت الآمال في بعض الوقت ، في ان يظهر المصريون على مسرح الاحداث ليقوموا بدورهم كشركاء حقيقيين في حكم السودان .. فهل تحقق شيء من ذلك .. ؟ انى استطيع ان اقول بلا تردد كلا !!

لم تحقق الرحلة

فلم تجر خلال الزيارة التي استمرت زهاء الأسبوعين ، محادثات عن أي أمور جوهرية تمس الوضع القائم في السودان ، ولم تعط أي وعود رسمية بأن تغييرا ما سيحدث في ذلك الوضع !! ان الانسان ليعجب احيانا من تصرفات هؤلاء الانجليز . . لقد غابت حقا عنا الحكمة من دعوتهم لعلى ماهر ، بسبب تصرفاتهم معه في اثناء الرحلة.. فهل كانوا يريدون ان يكسبوا الى صفهم في ظروف الحرب سياسيا داهية كعلى ماهر ، لمجرد السماح له بزيارة السودان ، الذى لم يكن شأنه فيها أكثر من سائح ، كما قال له السفير البريطاني في مصر بعد ان اكتشفوا اتصالاته السرية بالمحور ؟؟ ام تراهم كانوا يريدون اطلاع على ماهر – عن قرب – على حشد الجيوش الايطالية في الحبشة وارتريا بقيادة الجنرال فيروتشي واحتمال انقضاضه على السودان في أي وقت ! ربما ، ولكن سواء أكان هذا أو ذاك ، فقد انتهت الزيارة دون اعطاء أي دليل على حسن نوايا الانجليز لا في الحاضر ولا في المستقبل..؟؟

واذا كانت تلك الخطورة العسكرية التي أرادوا ايقاف على ماهر عليها لا تحملهم على ابداء حسن النية ، ففي أي وقت اذن ، ستجدها منهم مصر ؟ وعلام اذن تخويف على ماهر أو غير على ماهر ، من الجنرال فيروتشي وجيشه ، ما دام العدوان البريطاني سيظل باقيا لا يتزحزح عن وادي النيل .. ؟!!

ربما كان هذا كله يخامر نفس على ماهر عند عودته لمصر ، وهو خالي الوفاض من أي شيء يقدمه لمصر عن زيارته للسودان ..

ومن الغريب ان البريطانيين قد أخذوا يتملصون من دعوة علي ماهر لزيارة السودان قبل أن تبدأ .. فقد فاتح السفير البريطاني في مصر علي ماهر في عدم سفره للسودان ، فقال له ان سافرت (ستكون سائحا فقط) كما ذكر الدكتور محمد انيس في كتابه (٤ فبراير ١٩٤٢م) .

تراجع الانجليز عن دعوة علي ماهر

ولعل الانجليز قد وقفوا في اللحظات الاخيرة قبل الرحلة على بعض الاسرار عن اتصالات علي ماهر بدول المحور ، مما جعلهم يشعرون بأنهم قد تسرعوا في دعوته لزيارة السودان .. وقد يرى البعض ان مالقيه علي ماهر من تكريم وشعور غامر في السودان من أكبر هيئاته وجماهيره ، وخاصة لدى مؤتمر الخريجين ، وفي نادي الجزيرة .. كان له أكبر الأثر في تغيير موقف الانجليز منه .. ولكننا لو ألقينا نظرة على برنامج الزيارة كما اعدته حكومة السودان ، قبل حدوث الزيارة وقبل التكريم والاحتفالات .. لرأينا بوضوح مدى تخطط الحكومة ، مسبقاً في كل خطوات تلك الزيارة ، التي يبدوا انهم قد تورطوا فيها كما ذكرت ..

نجد ذلك واضحا في التحكم على تحركات موكب علي ماهر ، وفي تغيير خط سيره ، عندما يعرفه الجمهور وعدم افساح المجال لاتصاله بالخريجين وبالجماهير بصفة عامة في كل مدينة يمر بها علي ماهر ، ثم التضييق الذى حاولت حكومة السودان فرضه على المؤتمر وأندية الخريجين ، في العاصمة والجزيرة ، وعدم اتاحة الفرصة لهم لتكريم ضيفهم العظيم .. حتى رأيناهم يبذلون تلك الجهود المضادة التي ذكرناها ، فينتصرون على كل التدابير الخفية ، ليتمكنوا من ممارسة حقهم في تكريم ضيفهم العظيم .. فالانجليز يعرفون سلفا شعور السودانيين الودى نحو مصر ، وخاصة في مثل هذه الزيارة

التي يقوم بها رئيس الوزارة لأول مرة ، ويريدون بمسلكهم المتعنت ان يحولوا دون ظهور ذلك الشعور .. فلو كان الأمر عكس ذلك ، اذن لفتحوا الابواب على مصاريعها ، امام كل هيئة أو ناد ، حتى يثبتوا للمصريين عـدم ترحيب السودانيين بهم .. والشيء الجدير بالذكر ، ان احتفال مؤتمر الخريجين بعلى ماهر ، قد كان منعطفا تاريخيا خطيرا ، بالنسبة لمؤتمر الخريجين وعلاقته بالمصريين ، وتغيير فهمهم الخاطيء له ، من أنه كان أداة من أدوات الاستعمار لفصل السودان عن مصر ..

فقد كان احتفال المؤتمر أو مهرجانه الضخم ، وما تجلى فيه من مشاعر الاخاء والتكريم لمصر ، فى شخص على ماهر ، أثر عميق محا كل أثر لتلك الأفكار الخاطئة ، ووضع أمامهم صورة جديدة مشرقة وعامرة بالوطنية وروح التعاون الاخوى بين الشعبين الشقيقين .. ومن الغريب ان نقرأ فى صحف حزب الوفد المصرى فى تلك الايام ، ان النحاس باشا كان غاضبا وثائرا على السودانيين ، لما لقيه على ماهر عندهم من تكريم .. وما اضفت بعض اقلامهم عليه ، من اطراء كبير لشخصه ولزيارته . مع الأسف الشديد لقد غمت الرؤية الصحيحة على الرجل الكبير وهو فى غمرة عدائه مع على ماهر . فلم يبد له تكريم مصر فى شخص على ماهر ، غير تكريم لخصمه اللدود ..

غضب النحاس باشا لتكريم على ماهر

ولكن لجنة الاعلام والدعاية التى كونها المؤتمر من أقوى شخصياته ، فى تلك الايام قد تولت الرد على اتهامات زعيم الوفد ، والصحف الوفدية وأوضحت لهم ان ما قدمه السودانيون لعلى ماهر يمكن تقديمه لأى مصرى كبير يزور السودان ، وخاصة اذا كان رئيسا للحكومة .

ولو كان النحاس قد اطلع على المقاومة الضمنية التى بذلها السودانيون ضد تدابير حكومة السودان ، لم تعبهم من تكريم على ماهر ، لاثنى عليهم ، بدل ان يلومهم ويعتب عليهم .. ثم يعود على ماهر بعد ذلك لمصر ، من رحلته الحاوية ، ولم يمض على عودته غير شهور ثلاثة ، حتى أعلنت ايطاليا دخولها الحرب ضد الانجليز وفرنسا .. وكان هذا هو المحك الأخير لمعرفة نوايا على ماهر .. اذ بادر الانجليز بمطالبة مصر بدخول الحرب الى جانبهم ، فلم يجدوا تجاوبا من على ماهر ، الذى بادر بدوره الى عرض الأمر على البرلمان ، فحصل على موافقة منه على سياسة عدم دخول الحرب .. كما رأينا فى تلك الأيام أن الاستاذ الأكبر الشيخ المراغى شيخ الجامع الازهر ، يطلق قولته المشهورة (هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل) داعياً بذلك لعدم دخول الحرب .. والمراغى معروف بأنه من رجال القصر . ولكن فى مقابل عدم دخول الحرب ، قدم على ماهر التزامه بتنفيذ كل ماجاء فى بنود معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وتقديم كل المساعدات التى تتطلبها الحرب ، بما فى ذلك الشروع فورا باتخاذ الاجراءات اللازمة نحو الشخصيات الأجنبية المعادية للحلفاء ، كتجميد اموال الايطاليين وتعيين حارس عام عليها الخ .. ولكن الانجليز الذين كانوا يخشون من التيارات الخفية المعادية لهم وللحرب ، لم يكتفوا بكل ماوعد به على ماهر ، فعادوا وطالبوا الملك فاروق باقالة على ماهر ، لأنهم يشكون فى نواياه ، وبأنه يضمر لهم العداء ، وان معلوماتهم كانت تدل على أنه وبعض أعوانه ، على اتصال بدول المحور .. وفعلا قدم على ماهر استقالته وقبلها الملك فى أواخر عام ١٩٤٠ وكان الملك قبل استقالة على ماهر ، قد جمع زعماء الاحزاب ورؤساء الحكومات السابقة وعرض عليهم سياسة على ماهر بعدم دخول مصر

رفض على ماهر دخول الحرب

مطالبة الملك باقالة على ماهر

الحرب ، فوافقوا عليها ولكنهم جميعا طالبوا باستقالة على ماهر. وجاء بعد على ماهر حسن صبرى باشا الذى بقيت وزارته زهاء العام ونصف ، وانتهت بوفاته في البرلمان أثناء إلقائه لخطاب العرش .

نشاط العناصر المعادية للحلفاء

وفى أثناء حكم حسن صبرى ، نشطت العناصر المعادية للانجليز وحلفائهم ، وأصبح ملحوظا أن هذا التيار يشتد كل يوم ، من الطبقة المستنيرة ويتصاعد غباره ويملأ الأفق كما كان يراه الحلفاء .

ومع هذا ، لو أمعنا النظر فى للتيار المتجه نحو دول المحور لوجدناه فى الحقيقة لا يقوم على أقتناع حقيقى بتفضيل هذه الدول ، ولا على تعاطف حقيقى مع سياستها أو فلسفة الحكم فيها . ولكن الشعور باليأس من الإستعمار البريطانى فقط ، هو الذى كان يدفع الناس الى مكايدة الانجليز بالاتجاه نحو أعدائهم ، عملا بالمثل السودانى القائل (عدو عدوك أخـــوك) فالمصريون والسودانيون جميعهم كانوا يشايعون هتلر وموسولينى ، لا حبا فيها وأنما مكايده للانجليز . . .

محاولة عزيز المصرى الهرب بالطائرة

واتجهت اتهامات الأتصال بالمحور فى النهاية الى جهات كبرى كالسراى الملكية نفسها ،والى شخصيات كبيرة كعلى ماهر والفريق عزيز المصرى ومعه بعض العناصر فى الجيش ، وعلى الخصوص سلاح الطيران الذى كشفت امره الطائرة الحربية التى استقلها عزيز المصرى وحسين ذوالفقار وعبد المنعم عبد الرؤوف وحاولوا الهرب منهـــا للحاق بثورة رشـــيد الكيلانى بالعراق وهـــو موال للألمان ... ولكنها وقعت بهم فى قليوب ونجوا بانفسهم .. والفريق عزيز المصرى هو القائد الذى عينه على ماهر أركان حرب الجيش المصرى وهو معروف بميله للألمان ، وله اتصالات بهتلر ومحاولات للهرب للالتحاق بالجيش النازى ،لأحضاره الى مصر لطرد الجيش البريطانى ، وقد قام بتكوين تنظيمات داخل الجيش المصرى ، معادية للحلفاء ، و لها اتصالات بالمحور .

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ :

تأزم الموقف فى مصر على هذا النحو ، واصبحت هناك حساسية شديدة عند الانجليز ، وتخوف من وقوع احداث معادية للحرب .. فكان لا بد لهم من تصرف سريع وحازم ، لايجاد مخرج لوقف الخطر المتصاعد ... ولم يكن امامهم بعد تجاربهم الفاشلة مع القصر واحزاب الأقليات ، الا المطالبة بعودة النحاس للحكم فهو صاحب الأغلبية الساحقة ، التى تجعله اقدر من غيره ، على تهيئة الرأى العام ليكون وديا حول الموقف .. وكان النحاس منطويا على شعور بالغبن من الانجليز لأنهم كثيرا ما اشتركوا فى ابعاده من الحكم ، أو ساندوا الحكام غير الدستوريين ، وكان الانجليز يعرفون هذا جيدا ، ويعرفون ان النحاس ليس هو رجلهم المفضل ،ولكن لابد لهم من الاتصال بالرجل ، كما كانت تحتمه الظروف ، لازالة ما علق بنفسه من مرارة ، واشعاره بجسامة واجبه الوطنى ، فى انقاذ بلاده مما سوف يحل بها ، إن هو لم يقبل ان يتولى الحكم ..

ومن هنا وقعت حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ ، حيث جاء الى قصر عابدين السير ميلز لامبسون المندوب السامى البريطانى فى مصر ، بعد ان احاط القصر بالجنود والدبابات البريطانية .. فدخل على الملك فاروق وقدم له انذارا من الحكومة البريطانية بضرورة اعادة النحاس باشا للحكم .. ويقول الانذار للملك : (اذا لم يتولى مصطفى النحاس باشا الحكم الى الساعة العاشرة من صباح الغد ، ستتحملون جلالتكم مسؤلية ما يحدث فى هذه البلاد) ...

ومما يذكر بهذه المناسبة أن اللواء عبدالله النجومى باشا السودانى الياور بالقصر الملكى كان مسئولا عن حراسة الملك فى وقت تقديم الانذار .

النجومى باشـا

وما أن رأى النجومى سير ميلز لامبسون ومرافقيه يقتحمون الممر المؤدى لغرفة الملك شاهرين مسدساتهم حتى هب النجومى شاهرا سلاحه فى وجه لامبسون معترضا اياه وقائلا بأعلى صوته : (لن تدخلوا على الملك الا من فوق جثتى ..) وكادت تحدث معركة هائلة لولا خروج الملك من غرفته واشارته للنجومى باشا بتركهم يدخلون ..

وخرجت الصحف فى اليوم التالى تتحدث عن الموقف الشجاع للنجومى باشا وتشيد بما انطوى عليه من أمانة وتقدير عميق للمسئولية .. وشعرنا نحن السودانيين بالفخر لموقف النجومى الذى يدل على الاصالة السودانية ...ولم يجد الملك بدا من قبول الانذار .. ولكنه قبل ان يكلف النحاس بالحكم ، استدعى كل رؤساء الاحزاب ورؤساء الوزارات السابقين ، بما فيهم النحاس ، ودارت مناقشات حول الانذار البريطانى ، وظهر فيه زعماء الأحزاب بمظهر الغيورين على الدستور ، وسيادة مصر على نفسها .. وحملوا النحاس مسئولية قبول الحكم تحت هذا الانذار ، وفى النهاية لم يجد الملك بدا من استدعاء النحاس ، وتكليفه برئاسة الوزارة ، ولم يجد النحاس بدا من قبول تكليف الملك له لنفس السبب الذى قبل به الملك الانذار البريطانى ، وهو انقاذ البلاد من كارثة احتلال جديد .. وفى هذا المعنى قال النحاس للملك ، فى لحظة تكليفه ، عندما شعر بأن لهجة الملك فيها لون من التعريض به أمام رجال الأقليات : (انا لا أقبل الحكم يا مولاى الا اذا كلفتنى به انت ..) ولم يلتفت النحاس لتباكى زعماء الأقليات على الدستور وسيادة مصر ، لأنهم طالما انحنوا لرغبات الانجليز ، فى الاعتداء على الدستور ، والتدخل فى شئون مصر ، بما ينافى سيادتها على نفسها ..

فهل يترك النحاس الميدان لأعدائه هؤلاء وأعداء الدستور فى هذا الموقف الخطير ؟ وهل هم مؤتمنون عليه ؟! قال النحاس فى نفسه كلا !! ولهذه الأسباب الجوهرية .. ولسبب آخر هو انهم بحكم فقدانهم للسند الشعبي سيكونون دائما فى موقف الضعيف امام الانجليز ، ولا يملكون الا تنفيذ رغباتهم ....

لم يكن النحاس متواطئاً مع الانجليز فى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ كما أراد ان يصوره خصومه السياسيون ، وانما هى تلك الأخطار التى كانت تكتنف الموقف من الداخل والخارج ، قد اجبرت الانجليز على اعادة الحكم لمستحقيه ، لحزب الأغلبية الذى ظلوا يعملون على حرمانه من حقه فى الحكم سنوات طويلة ، ومع هذا فقد وجدوه آخر الأمر هو وحده القوة الشعبية الكبرى القادرة على قيادة الجماهير ..

كما أن النحاس من جهة أخرى ، هو الذى وقع معهم معاهدة سنة ١٩٣٦ وهو اذن أأمن على تنفيذ التزاماتها من غيره .. وهو على أي حال ليس من دعاة المحور ، بل هو من جهة أخرى قريب الى الحلفاء لانه نصير الديمقراطية فى مصر .. هذا فى الوقت الذى اصبح فيه اشياع النازية ، وعلى رأسهم الملك صداعا حادا للانجليز .. واصبح الخطر يتهددهم من جهتين رئيسيتين من الجنوب الشرقى ، الجنرال فيروتشى الطلياني وجيوشه ، فى الحبشة وارتريا واحتمال هجومه على السودان فى أي وقت ..

وفى الصحراء كانت قوات المحور قد استولت على سيدى براني ووصلت السلوم .. وموسليني ملأ الارض بتهديداته المتلاحقة .. (البحر الابيض اصبح بحيرة طليانية) .. وانه قد نصب نفسه (حاميا لحمى الاسلام) وانه أعد لنفسه كقوله جوادا أبيض ليدخل به الاسكندرية .. الخ ..

كما ان حادثة محاولة الفريق عزيز المصرى وزملائه الهرب بالطائرة ، كانت مؤشرا مزعجا على ان الجيش المصرى لم يعد مأمون الجانب بالنسبة للحلفاء .. هذه هى أهم الاسباب التى اجبرت الانجليز على الاتجاه الى النحاس الذى كانوا يتجاهلونه فيما مضى ، لانه معتد بأغلبية ، ومتمسك بدستور ١٩٢٣ ، وبما جاء فيه من ديمقراطية وسيادة لمصر على نفسها .. ولكنهم اليوم أصبحوا ، يجدون أن اقوى خصوم النحاس وعلى رأسهم الملك، يشايعون دول المحور ، وتتكشف لهم كل يوم اتصالاتهم الخفية .. فلا بد اذن من الاستعانة عليهم بالنحاس .. وان مثل ذلك الموقف المتأزم الخطير ، لا يمكن مواجهته الا بحزب الأغلبية الشعبية الساحقة بالبلاد ..

ولكن النحاس بالرغم من أنه غير مشايع للمحور ، الا انه ليس من دعاة دخول الحرب ، كما كان يشتهى الانجليز .. وهو اذ يقبل الحكم فى تلك الظروف الحرجة ، لانقاذ بلاده ، انما يريد من جهة أخرى ، ان يرد بعض اللطمات التى كثيرا ما وجهت اليه من القصر والانجليز وزعماء الأقليات .. وانه بتوليه الحكم انما يريد ان يقطع عليهم السبيل ، حتى لا يستمروا فى تخريب الحياة الدستورية والديمقراطية .. وهو فوق ذلك كله يعتبرهم غير مؤتمنين على الا يغامروا بمصائر البلاد ، أو يساوموا فى مصالحها العليا ، لبقاء على وضعهم غير الدستورى والمستند الى القصر والانجليز ، ولا يستبعد ان تجرف البعض منهم مطامعهم الخاصة الى الوقوع فى هاوية الحرب الى جانب المحور .. وذلك لأن فقدانهم لسند الشعب يجعلهم اضعف من ان يقفوا بصلابة فى وجه أى معسكر .. أما النحاس ، بحكم استناده الى الشعب والدستور يستطيع أن يقول لأى معسكر لا .

وها نحن نرى أول أعمال النحاس بعد قبول الحكم ، هو انه بادر بالكتابة للسفير البريطاني ، واشترط عليه عدم التدخل في شئون مصر الخاصة وسيادتها على نفسها .. كما اشترط للتعاون معهم على تأمين الموقف الداخلي وفقا لاحكام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ان يزال كل قيد على استقلال مصر مما ابقته معاهدة سنة ٣٦ .. وذلك بعد الحرب مباشرة . وسارع السفير البريطاني بالرد على خطاب النحاس مستجيبا لكل اشتراطاته ، ولكن النحاس قد أبعد مرة أخرى من الحكم قبل انتهاء الحرب .. !! هذا وقد شهد بعض خصوم النحاس ومنهم الاستاذ جلال الدين الحمامصي الذي ذكر في كتابه الأخير (حوار بين الاسوار) ان النحاس بمجرد توليه الحكم بادر بانذار الانجليز بعدم السماح لهم بالتدخل في شئون مصر الداخلية .

كما ان هناك كاتب بريطاني زار مصر في تلك الايام وهو ادمون استيفنسون ، الذي كتب في الصحف البريطانية يقول : (ان الوفد في مقابل التزامه بتنفيذ نصوص المعاهدة الانجليزية المصرية الخاصة بالحرب ، يطلب من بريطانيا بعض الضمانات الخاصة بحكم مصر بعد الحرب) . ويقول الاستاذ محمد زكي عبد القادر في كتابه (محنة الدستور) « ومهما يكن فان النحاس لا ينبغي ان يكون وحده متحملا لتبعة ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وانما هو زعماء الاقليات السياسية جميعا الذين قبلوا التدخلات البريطانية ، وقبلوا الاعتداء على الدستور ، منذ اعلان الاستقلال في فبراير سنة ١٩٢٢ ، وحتى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ » واخيرا فكما أشرت سابقا ، فان الاسباب التي حملت الملك فاروق على قبول الانذار البريطاني وتكليف النحاس بتولي الحكم ، هي نفس الاسباب التي حملت النحاس على

القبول ، ولهذا رأينا النحاس يقول للملك فى اجتماع الزعماء انه لن يقبل الحكم الا اذا صدر التكليف من الملك شخصيا .. وقد نطق الملك بالتكليف وكان فى امكانه أن يرفض ويتحمل النتيجة التى يريدون من النحاس ان يتحملها وحده ..

وجدير بالذكر أن الاحداث فيما بعد قد جاءت مؤكدة حرص النحاس على استكمال استقلال بلاده وازالة كل القيود عنها ، سواء ما تبقى فى معاهدة سنة ٣٦ أو ما أضافته ظروف الحرب من تبعات جسام .. ذلك أنه عندما عاد الى الحكم فى سنة ١٩٥١ وأيقن أن لا فائدة من المفاوضات والمساعى الطويلة التى ظل يبذلها لتحقيق تلك الأهداف العليا ، رأيناه يقدم على خطوته النهائية الجريئة ، فيلغى معاهدة ٣٦ التى كان قد أسماها معاهدة الشرف والفخار .. ويلغى معها معاهدتى ١٨٩٨ ، ١٨٩٩م الخاصتين بالسودان ، وأتبعها باجراءات فى تعديل بعض مواد الدستور ، ليصبح لقب الملك ، ملك مصر (والسودان) ، ويصبح وجود الحاكم العام فى السودان غير شرعى . وسوف أتناول فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ما أقدمت عليه حكومة السودان من اجراءات دستورية ، كرد على ما أعلنته حكومة النحاس فى القاهرة .

الاخوان المسلمون

سمعنا عن الاخوان المسلمين فى أوائل الثلاثينات ، وكنا بعد ان ظهرت دعوتهم في الجامعة ، نذهب في مطلع الاربعينات لمقرهم (الذى كان بحى عابدين مؤقتا) لكى نستمع الى مرشدهم حسن البنا ، كوجه جديد من وجوه النشاط الفكرى ، فنجده فعلا جديدا فى أساوبه الخطابى ، وفى دعوته للأصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، عن طريق البعث الدينى .. والرجوع الى الكتاب والسنة وتكوين حكومة إسلامية تحكم بما أنزل الله ..

وعلمنا فى ذلك الحين أن ، حركة الاخوان نشأت فى أواخر العشرينات ، ببلدة الاسماعيلية ، ثالثة مدن قناة السويس ، على يد مرشدها الشيخ حسن البنا الذى كان يعمل مدرسا هناك ، وهو أحد خريجى دار العلوم ، كما أنه من بيت عريق فى الدين ، فقد كان والده من العلماء المتخصصين ، وله مؤلفات مطبوعة فى السنة .. وفى القاهرة أخذت دعوة الاخوان تقوى ويتسع نشاطها ، ويمتد الى الاقاليم ، وتنشأ فيها فروع الدعوة في طول البلاد وعرضها .. فالدعوة الى احياء الاسلام جذابة بلا شك ، وتستهوى النفوس المؤمنة الطيبة .. وفى أواخر الثلاثينات كان للأخوان فتح جديد ، حين إرتفع صوتهم فى الجامعة المصرية لأول مرة فى محيط الطلاب وأصبح لهم حجم كبير من المؤيدين .. ولهم خطباؤهم الذين يقودون المظاهرات ، ويلهبون المشاعر والحماسة بين الطلاب ، وأشهرهم مصطفى مؤمن ، طالب الهندسة الذى كان يمتلك مقدرة خطابية ساحرة .. وكان يخاطب شباب الاخوان بقوله (يا رهبان الليل وفرسان النهار) .

وأنا هنا كشأني في هذه المذكرات ، لا أكتب تاريخا للاخوان المسلمين ، وانما أود أن أقدم بعضا من إنطباعاتي الخاصة ، التي لا زالت عالقة بذهني ، والتي قد تلقي الضوء على الملامح الهامة لتلك الحركة الكبيرة ، من وجهة نظري الخاصة ، كما فعلت مع التيارات الفكرية والسياسية الأخرى ، التي عايشتها في مصر لسنوات طويلة .. ولقد أعجبنا في حركة الاخوان ، أنها لم تقتصر في تربية الشباب على الارشاد والتوجيه النظري فقط ، وإنما أقاموا لهم المعسكرات في بعض الأماكن ، لتدريبهم على حمل السلاح وحياة الجندية ، كأنما كان الأمر تأهبا لدخول المعارك المقبلة ضد جنود الاحتلال البريطاني ، وان كان البعض يقول أنه كان تأهبا لأخذ الحكم بالقوة .. وبالفعل نشأ جيل من الاخوان عليه سمات الرجولة والصلابة والإقدام . ولعل هناك وجها للشبه بين حركة الاخوان وحركة مصر الفتاة ، وهو أن كلا منهما قد كفر ، كما كانوا يقولون ، بتلك الرتابة التي كانت تسير فيها سياسة الأحزاب المصرية ، التي أصبحت في نظرهم عقيمة ولن تؤدي الى استخلاص الحقوق الوطنية .. فقد بدت لقادة الحركتين ، الأساليب التقليدية ، وكأنها قد شاخت وأصبحت عاجزة عن النهوض بأعباء الكفاح الوطني لإجلاء الاحتلال البريطاني وتحقيق استقلال مصر ، واصلاح ما فسد من جوانب حياتها المختلفة . وهكذا على الأقل كان يبدو أمرها للشباب في ذلك الحين .. غير أن الأهداف لكلا الفريقين كانت مختلفة ، فسياسة مصر الفتاة ، كما أشرت سابقا كان هدفها تأسيس دولة نازية فاشية ، (على مبادىء روما وبرلين) ، كما كان يقول أحمد حسين ، وإن كان قد حاول أن يلبس دعوته ثوبا إسلاميا ، كمظهر يلائم المجتمع المصري المسلم .

وأما الاخوان المسلمون فقد كان همهم الاول ان يكون الاسلام هو الكل فى الكل ، فتسود الشريعة الاسلامية كما تركها الاولون ، وتقوم الحكومة الاسلامية على أساس الكتاب والسنة ، لتحكم بما أنزل الله .. وأن الاسلام ليس دينا فقط ، وانما هو دين ودولة .. الخ.

واذا كان الشيخ البنا قد إقتبس بعض الأنظمة والتدريبات العسكرية من الفاشيين ، وأنه فى بعض أقواله أشاد بهتلر وموسولينى كقيادة جديدة لأوربا ، إلا أنه قد وقف عند الحد العملى من الأنظمة ، دون أن يتعمق فى إقتباس التعاليم والفلسفات التى إبتدعتها الفاشية والنازية ..

أما أحمد حسين ، فقد إتخذ مبادىء النازى أساسا لحزبه ، مع العمل على تنشئة الشباب على تلك المبادىء .. ورفع العلم النازى فوق مقر الحزب كما ذكرت سابقاً .

ولكن لسان حال الفريقين يقول : ما العمل ، والأحزاب السياسية هي المسيطرة فى ذلك الزمان بحكم أنها صاحبة الأغلبية الشعبية ؟؟

ولا شك فى أن الوقت كان سيطول بقادة الحركتين ، حتى يصلوا الى السلطة والمواقع التى تمكنهم من تحقيق أمانيهم .. كان ذلك هو لسان الحال عند الاخوان ومصر الفتاة ..

ولعل السرعة التى وصل بها الى الحكم ، كل من موسولينى وهتلر ، عن طريق التنظيمات العسكرية ، قد كانت حافزا لهم على إتخاذ التربية العسكرية لشبابهم ، كأفضل وسيلة ، بعد أن أيقنوا بأن لا فائدة لهم ولا جدوى من وراء الديمقراطية وإنتخاباتها وبرلماناتها وما إليها ..

ومن هنا فقد وصف الكتاب ، كلا من الأخوان ومصر الفتاة ،

بالفاشست مع الفارق بينهما فى درجة الأخذ من تلك المبادىء ، لأن الأخوان قد وقفوا فى مجاراة الفاشست ، كما قلت ، عند التنظيمات العسكرية ، ومحاولة الوصول بها الى السلطة ، بينما نرى الأستاذ أحمد حسين يصبغ حزب مصر الفتاة باللون النازى الصارخ حتى أصبح حزبه فرعا للحركة النازية فى مصر .

وأما من الناحية الداخلية ، فقد حاول كل من الأخوان ومصر الفتاة الإستناد الى القصر الملكى والتعاون معه ، للقضاء على الاحزاب السياسية وزعمائها ، حتى يخلو لهما الجو للوصول الى السلطة .. وهنا أيضا نجد الفرق كبيرا بين المقصدين — فبينما يلقى احمد حسين بنفسه فى أحضان القصر ويطلق لنفسه العنان كداعية عالى الصوت ، يسبح بأسم الملك الشاب والملك الصالح .. الخ ، نجد الشيخ البنا قد سار منذ البداية متحفظا بعض الشىء فى علاقاته مع القصر .. وصحيح أن الشيخ البنا قال فى إعلان دخول الأخوان الميدان السياسى ، أنه لم يعد لهم أمل الا فى الملك المسلم ، إلا أنه لم يلبث أن انسحب تدريجيا من موكب السايرين فى ركاب الملك ، بل وأخذ موقفه يتطور حتى أصبح عداء سافرا للسراى ، بعد أن تبين الشيخ البنا ، ان مطامع الملك فى التغول على حقوق الشعب ، بما فيه الأخوان لا تحدها حدود ، وأنه قد وطد العزم على الإستحواذ على جميع السلطات ، وعلى الاطاحة بالدستور ، ليكون مطلق الحرية فى حكم مصر .. (يملك ويحكم) على خلاف ما قرره الدستور ، وقد أعلن فاروق ذلك الاتجاه بالفعل فى الرسالة التى أذاعها فى فبراير ١٩٣٩ ، مخاطبا بها العالم الاسلامى ، لأول مرة ، بمناسبة رأس السنة الهجرية . . وفى هذه الرسالة اشارات واضحة لمطامعه فى خلافة المسلمين والتى كان يغريه بها

بعض المخادعين ، وعلى رأسهم محمد كامل البنداري باشا وكيل الديوان الملكى ، وحزب مصر الفتاة ، وبعض المشايخ بالأزهر .

كما تبين للشيخ البنا من جانب آخر ، أنه يسير فى ركاب ملك كثير المساوىء لا يتورع عن إرتكاب الأوزار والموبقات ، فى سبيل غايته المرسومة .. وبالفعل قد تطور العداء بين القصر والشيخ البنا ، حتى تم اغتياله على يد رجال السراى كما أشارت أصابع الاتهام آنذاك .. على ان الشيخ البنا وان كان فى دخيلة نفسه لا يؤمن بالدستور ، ويعد نفسه لأخذ الحكم بالقوة ،الا أنه لا بد له من أن يعمل حسابا كبيرا للجماهير المؤيدة له ، والجماهير التى يريد أن يكسبها ، فهى جميعا تؤمن بالدستور والديمقراطية وترى أنها ثمرة لكفاحها الطويل ، ولا يمكن أن تقبل الاعتداء الصارخ على الدستور بالصورة التى كان يمارسها الملك فاروق وزعماء الأقليات ومصر الفتاة .. واذا كانت حركة مصر الفتاة قد قامت فى نطاق محدد ، وهو الشباب ، وعلى مبادىء فاشية واضحة ، بالرغم من ان أحمد حسين قد عمد الى التمويه ببعض المظاهر الاسلامية ، فأن حركة الاخوان المسلمين قد قامت ، أساسا على مبادىء إسلامية بحتة ، مما أفسح المجال أمامها للعمل فى نطاق أرحب ، بين المسلمين والمؤمنين من جماهير الشعب المصرى .

كما أن موضوع الخلافة الاسلامية التى يتطلع اليها الملك فاروق وزمرته المخادعة هى مسألة أخرى ، كان ينظر اليها الأخوان من زوايا أخرى وإعتبارات مختلفة عن ما كان يفكر فيه دعاة الملك فاروق .. وصحيح أن الاخوان يؤمنون بأعادة الخلافة الاسلامية .. الا ان الملك فاروق لم يعد فى نظرهم هو الشخص الصالح لتولى تلك الخلافة .. التى كانوا يعدونها فى أول برنامجهم ، كما قال

الشيخ البنا فى إحدى خطبه .. وإذن فقد أصبح واضحا أمام الأخوان أنهم لن يكسبوا شيئا من إستنادهم على الملك الذى يصر على الإستيلاء على كل شيء ، حتى الدعوة الاسلامية نفسها .

ابتعاد البنا من الملك

لكل هذه الأسباب ، قد رأى الشيخ البنا ، أنه لا يليق بقائد اسلامى مثله أن يكون فى ركاب ملك هذا شأنه .. وإذا كان غيره يحتاج كليا الى سند السراى ، فأن سنده هو دعوته الإسلامية العريضة ، التى كان ينفسح أمامها الأفق كل يوم ، فى المدن والقرى ، وتعطيه الأمل فى إنضمام جماهير واسعة عريضة ، سوف تكون له وحدها السند والعون ..

الاخوان وحرب فلسطين

وبالرجوع للتنظيم العسكرى للاخوان ، نجد أن حرب فلسطين كانت فرصة طيبة للاخوان ، جربوا فيها قدرتهم على الكفاح المسلح .. لقد حملوا السلاح بجدارة ، جنبا الى جنب مع جنود الجيش المصرى ، وشاركوا فى المعارك الميدانية مشاركة ، إعترف بها كل من خاض معركة فلسطين ، وقد أشاد بهم الرئيس محمد نجيب فى كتابه (كلمتى للتاريخ) .

وهكذا خرج الاخوان من حرب فلسطين بخبرات ومهارات حربية جديدة ، أكسبت معسكرات تدريبهم قوة كان لها وزنها بين دوائر الرأى العام فى القاهرة .. كما أنهم عرفوا من خلال معركة فلسطين ، كيف يجلبون الأسلحة والمعدات لتلك المعسكرات .. ومن المؤسف أنهم قد أنكشفت أمامهم صحائف سوداء من الفساد والمخازى التى كان يقترفها بعض الكبار والمسئولين الذين لم يتورعوا عن شراء الأسلحة الفاسدة والمتاجرة بها وتقديمها للمجاهدين فى الميدان ، لتحصدهم قبل أن تحصدهم أسلحة اليهود ..

ومن هنا فقد إنطوت نفوس الاخوان ، كما انطوت نفوس غيرهم من شباب الجيش المصرى على الحقد ضد أولئك الحكام الفاسدين ، وأزدادوا جميعا إصرارا على تغيير نظام الحكم بالقوة .. وهو ما فعله (الضباط الاحرار) الذين قاموا بثورة يوليو ١٩٥٢ .

ومن هنا أيضا أخذت عيون مخابرات السلطة ، تلاحق الأخوان وترقب نشاطهم ومعسكراتهم التى جلبوا لها الأسلحة الكثيرة والتى أخذت تحاك حولها الإشاعات ، فتجعل منها مصدر خوف وقلق ، ليس للحكومة فقط ، بل للقصر الملكى نفسه .

الاخوان والارهاب

وهكذا أخذت الحرب الباردة تدور ، بين الحكومة والاخوان من جهة ، وبينهم وبين السراى من جهة أخرى ، بأعتبارهم خطرا على الجميع ، لإتهامهم بالتدبير لأخذ الحكم بالقوة .

هذا فى الوقت الذى أخذ فيه الاخوان مكانهم فى ميدان السياسة كحزب له وزنه الخاص . . غير أن الأخوان قد أقدموا على القيام بحوادث دموية مريعة ، تؤكد الاشاعات التى نسجت حولهم وحول حركتهم .

فقد ظهرت لهم فرق إرهابية تمارس الارهاب بصورة علنية غير مألوفة ، وبأساليب جديدة على المجتمع المصرى ، تبهر الأنظار بالجرأة البالغة والدقة فى استعمال الأسلحة والمفرقعات الحديثة .

ولعل القدر الذى ما زالت ذاكرتى تعيه من حادث إغتيالهم للخازندار قاضي المحكمة العليا ، لدليل كاف على صورة الأخوان المثيرة ، التى ظهروا بها لدى الرأى العام فى ذلك الحين .. فقد كانت خطتهم المحكمة فى ذلك الحادث ، تقضى بأن يتربص جنود الأخوان بالخازندار ، فى منطقة فم الخليج بالقرب من كبرى الملك

الصالح ، وما كادت عربته تمر بالمكان المختار ، حتى أمطروا المنطقة كلها بالمفرقعات ، وحتى تعذرت الرؤية تماما ، فتمكنوا من إغتيال فريستهم ، ثم اختفوا في لمح البصر ، قبل أن ينقشع الدخان الكثيف وتلمحهم أعين البوليس .

فكان ذلك الحادث أبلغ دليل على أن شباب الاخوان قد شبوا عن الطوق ، وأصبحوا قوة ضاربة ينبغي أن يحسب لها ألف حساب .

وما أسوأ ما صارت اليه الأمور بعد ذلك ، فقد تطورت من سيء إلى أسوأ ووقعت حوادث إغتيالات متعددة ، وخاصة بعد أن كونت السراى فرقة إرهابية للأغتيالات ، وكان ضحاياها من الجانبين ، وكان بعضها فادحا جدا ، كأغتيال النقراشي ، ثم إغتيال الشيخ حسن البنا نفسه .

الاخوان والسودان

والواقع أن تلك الفترة قد تميزت بجنوح الاخوان نحو العنف والارهاب ، وقد ضبطت لهم أسلحة وجدت مخبأة في الصحراء وفي أماكن أخرى متعددة وأصبح المجتمع ينظر اليهم كجماعة إرهابية دموية تتهدد الجميع بالخطر ، ولم ترض تلك الأحوال بعض قادة الاخوان الذين كانوا ينظرون اليها كأنحراف خطير عن الطريق المرسوم .. ومن هؤلاء الأستاذ أحمد السكرى وكيل الجماعة آنذاك ، الذي إستقال نهائيا من الأخوان ..

وفي المحيط السوداني ، كان الشيخ البنا يعطى الشئون السودانية إهتماما كبيرا ، ويعقد لها حلقات النقاش والأجتماعات الكبيرة الموسعة ، ويدعو لها كل السودانيين بالقاهرة .. ولا زالت أوراقي القديمة تحتفظ ببعض الخطابات أو بطاقات الدعوات لبعض تلك الإجتماعات .

وعندما ظهرت مشكلة معاهدة صدقي – بيفن في ١٩٤٦ والتي أثارت الجماهير في السودان ومصر ، حتى تصدى لها (بيت السودان) بالقاهرة كما ذكرت لاحقاً ، فجمع الأحزاب المصرية كلها في جبهة موحدة ، لمعارضة المعاهدة وتحطيمها فقد اشترك الأخوان المسلمون معنا في ذلك العمل الكبير ، ودخلوا في (لجنة الاتصال) ، بالرغم من انهم كانوا لهم رأي خاص في التعاون مع الأحزاب ، ولكنهم تنازلوا من اجل السودان واشتركوا في التعاون مع الأحزاب .. وقد اشرت الى اشتراك الأخوان في معارضة مشروع المعاهدة المذكورة في مكان آخر من هذه المذكرات .

وفوق ذلك فان الشيخ البنا كان يستقبل بعض الشبان السودانيين من وقت لآخـــر للاستئناس بآرائهم في كثير من المواقف الهـــامة واعتقد اننا قـــد استفدنا كثيرا من الأخــــوان ، في التحركات العنيفة التي قاومنا بها معاهدة صدقي – بيفن ،وكان شباب الإخوان كعقائديين ، ينفذون تعليمات قيادتهم ، فكان لهم دور فعال في اقامة المظاهرات الضخمة وتسييرها في شجاعة واقدام ، وخاصة تلك التي كانوا يخرجون بها من المساجد في الصباح الباكر ، من مختلف انحاء القاهرة .. كما اني قد ذكرت في معرض الحديث عن تحطيم معاهدة صدقي – بيفن ماكان من امر المظاهرة الضخمة التي هبت كالعاصفة الهوجاء في لحظة واحدة ، من ميدان الأزهر ، فالعتبة الخضراء ، فالابرا والأزبكية وشارع فؤاد وما حولـــه متجهة غربا الى منطقة الاسعاف . . وكان قادتها الحقيقيون هـــم الأخــــوان .

ولا شك في ان الأخــــوان ، بجانب النظرة المصرية التقليدية

للسودان ، كانوا ايضا ينظرون اليه كميدان بكر لنشر دعوتهم الفتية .

هذا ومن اوائل الشبان السودانيين الذين انضموا للأخوان المسلمين ،جمال الدين السنهورى ،والشيخ عبد الرحمن الصايم ولكن جمال كان اكثر تفرغاً لدعوة الأخوان ، واكبر داعية لهم سواء بمحيطنا بالقاهرة ، أو بين الشبان فى داخل السودان .

غير ان الشيخ الصايم قد ظهر بعد عودته نهائيا للسودان ، كاكبر داعية للحركة الإسلامية وسعى جاهداً لتوحيد صفوفها فى جبهة موحدة ، فتم تكوين (جبهة الميثاق الإسلامية) .. وجاء فيما بعد الاستاذ صادق عبد الله عبد الماجد ليصبح احد الزعماء الأصلب عودا فى جماعة الأخوان المسلمين .

واعتقد ان معلوماتى عن امتداد دعوة الأخوان الى السودان غير دقيقة ، لأن انشغالى بالأحداث فى مصر ، لم يمكننى من متابعة تحركات الأخوان بالسودان ، ولكن الذى لاشك فيه هو انه قد كان لكل من جمال السنهورى والشيخ الصايم دور كبير فى نشر دعوة الأخوان بالسودان ، غير ان الصحافة المصرية ، المعبر الطبيعى لكل ما يحدث فى مصر ، قد سبقت كل رواد دعوة الأخوان الى السودان فقامت بنقل اخبارهم وتحركاتهم ومناشطهم ، كاكبر حركة اسلامية فى العهد الحديث تدعوا الى احياء الأسلام والى قيام حكومة اسلامية تحكم بما انزل الله ... فاتجهت بذلك انظار السودانيين نحو القاهرة لتتابع خطوات تلك الحركة التى احيت فى نفوسهم الآمال فى استعادة مجد الأسلام ... وعلى مر الاعوام اخذ الشبان يتعاطفون مع دعوة الأخوان وتتكون لها كوادر من المثقفين الغيورين عـلى دينهم الأسلامى من امثال على طالب الله وبابكر كرار والداروتى

وميرغني النصري . . وعندما حاول الانجليز استخدام المبادىء اليسارية لاضعاف (وحدة وادى النيل) كشعار وطنى بين الطلبة وقاموا بتاسيس مكتبة يسارية في كلية غردون حتى اخذت الشيوعية تطل برأسها بين الشبان المثقفين ، تحركت الغيرة فى نفوس اولئك الرواد الاسلاميين لمناهضة الشيوعية ، وسافر وفد منهم الى مصر واتصل بالأخوان المسلمين ... ولعل اهم حدث فى هذا الصدد هو وفد من جماعة الأخوان المسلمين الى السودان وعلى رأسهم عبد الحكيم عابدين سكرتير عام الأخوان فى ذلك الوقت .. فقام الوفد بزيارات لمختلف مدن السودان فى الشرق والغرب والجزيرة، واسس فيها اللجان للدعوة الأخوانية .. ومنذ مطلع الاربعينات ، بدأت تظهر الدعوة على بعض الشبان المتعلمين هنا وهناك فى بعض انحاء العاصمة المثلثة وبعض مدن السودان الاخرى على نحو ماذكرت، واخذ يتسع نطاق المؤيدين ، وتتكون لهم الفروع واللجان كأى كيان منظم له وجود . . . وظهرت اخيرا اسماء لامعة فى قيادة الأخوان مثل الدكتور حسن الترابى وصادق عبد الله عبد الماجد وعثمان خالد وأحمد عبد الرحمن ويسن عمر الأمام ومحمد يوسف محمد وميرغنى النصرى والكاروري وموسى ضرار وغيرهم من التفت حولهـم جماهير الأخوان المسلمين .

وسوف اعود لتناول دعوة الأخوان بالسودان في الجزء الثانى من هذه المذكرات فى شيىء من التفصيل كما قلت انشاء الله .

ومما اذكره للشيخ البنا ايضا انه كان يهتم بالشئون العربية وكان يستقبلنى كسكرتير لجماعة الطلبة العرب بالجامعة مع بعض زملائى ، ويتحـدث البنا في المواقف الهامة وكنا نشعر بالعمق والواقعية فى ملاحظات البنا وتعليقاته السياسية .. ولعله كان يعمد الى

القراءة وتجديد معلوماته عن الحركة العربية فتميز بذلك عن كثير من الزعماء فى ذلك الزمان ... فقد كان يستلف منا بعض الكتب عن الوحدة العربية ليقرأها ثم يردها الينا ، مع تعليقاته الذكية ،ومن تلك الكتب (كتاب الوعى القومى للاستاذ قسطنطين زريق اللبنانى ودستور العرب القومى) .

وعندما دوى النداء فى العالم العربى لجمع الأكتتاب لحرب فلسطين ، الذى شارك فيها الأخوان بالقتال فى الميدان كما ذكرت ، نراهم أيضاً يسارعون بأرسال مندوبهم جمال الدين السنهوري للسودان لهذا الغرض .. وقد قام بجولات ناجحة فى العاصمة المثلثة وفى بعض المدن الأخرى وخاصة فى الجزيرة .. واستطاع أن يستقطب كثيرا من المشاعر سواء لجمع الاكتتاب أو للدعوة الأخوانية نفسها .

وفى الوقت الذى أخذ فيه دعاة الأخوان فى شق طريقهم وتوسيع مجالاتهم ، كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ قد قامت فى مصر ، ثم ما لبث أن نشب بينها وبين الاخوان المسلمين ذلك العداء الدموى المعروف ، والذى سوف أوضحه فى الجزء الثانى من المذكرات .. وقد رأى الاخوان فى مواقف جمال السنهورى إنحيازا لجانب الثورة المصرية فأعتبروه منفصلا عنهم .

ونجد اليوم جمال السنهورى فى القاهرة يتولى الإشراف على نشاط الطريقة البرهانية ، وكيلا للشيخ محمد عثمان عبده ، شيخ هذه الطريقة المقيم بالسودان . فأذا ذهبت الى جهة سيدنا الحسين بالقاهرة تجد زاوية البرهانية تعج بأنصار الطريقة ومؤيديها من مختلف الطبقات وهم فى نشاط دائم باقامة الأزكار والابادات وعلى رأسهم الشيخ جمال أو (سيدى) جمال كما يقول أتباع الطريقة البرهانية بمصر .

والآن لعلى أكون قد أعطيت رأيى الخاص عن دعوة الأخوان المسلمين من خلال السطور الموجزة لهذه الانطباعات ، غير أنى أحس

بأنه لا يزال هناك ما يستحق أن أشير اليه .

لقد كان لمجتمع القاهرة في ذلك الزمان بعض الملاحظات التي يأخذها على دعوة الأخوان المسلمين .

ولا أكاد أجد اليوم في ذاكرتي من تلك الملاحظات ، الا القليل ، ولكنه الأهم على ما أعتقد ، والأبلغ أثرا في حياة الدعوة الأخوانية ، وتعثر سيرتها بعدما أحرزته من إنطلاق وانتشار .. وأول تلك الملاحظات ، ما كان يدور حول الأهداف الرئيسية للأخوان ، كالقول بتطبيق النصوص الفقهية الأولى للشريعة الإسلامية وقيام حكومة اسلامية .. الخ . وقد جاء ذلك في تعميم وإطلاق ، جعل الكثيرين من المثقفين يتساءلون عما يعنيه الشيخ البنا ، وهل هو يعني تطبيق حرفية النصوص القديمة كما تركها الأولون ؟ ويقولون أنه لو دعا الى قيام حكومة تستهدى بالقرآن والسنة أو تستنبط قوانينها وأحكامها منها ، لكان ذلك أقرب الى افهام الناس وواقعهم في هذا العصر ، الذي ينعدم فيه اى وجه للتماثل مع العصور الأسلامية الأولى ، التي طبقت فيها نصوص الشريعة كما تركها الأولون . وقد يلمح الانسان في بعض عبارات الشيخ البنا هنا أو هناك ، ما يشير الى مثل هذا الأتجاه ، الا انه كما قلت ، كان ذلك تعميما واقتضابا ، لم يشفعها لنا بالشرح والتفصيل أو وضع البرامج العملية او التنفيذية التي تؤكد بوضوح ، ان كان الهدف الحقيقي هو السعي لايجاد المواءمة بين النصوص القديمة وبين مقتضيات الأوضاع القائمة في حياتنا الراهنة ، كما حاول ان يفعل الامام محمد عبده ، حينما سعى لتطويع الشريعة القديمة لاحتياجات العصر الحديث .

ولكن البنا ، كان في الواقع ، اقرب الى الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار حينما كان يتحدث عن شمولية الاسلام ، وأنه صالح للحكم في جميع العصور وفي العصر الحاضر ، كما قال الدكتور عبدالعظيم رمضان في كتابه (تطور الحركة الوطنية في مصر) .

والواقع ان التحول عن اوضاع المدنية الحاضر وما اصلته في النفوس

من عادات ، او الأنفكاك منها بالصورة التى تتبادر الى الأذهان من وراء التعميم فى دعوة الأخوان ، ليعد امرا لا سبيل اليه ، إلا بمعجزات كمعجزات الأنبياء .

ولعل هذا التوهم هو الذى جعل الكثرة الغالبة من المثقفين حينذاك ، تعزف عن دعوة الأخوان ، وترى فيها تجاهلا للحقائق وتعذرا فى التنفيذ ، كما تتجاهل قبل كل شىء طبيعة الفكر البشرى وما جُبل عليه من قابلية هائلة للتغير والتطور والنزوع الى الكمال .. ومن المؤسف حقا الا يجد قادة الحركات الاسلامية اليوم ما يقدمونه للناس ، غير الرجوع للنصوص الفقهية القديمة .. وليس الأسف من أجل الرجوع الى الدين ، كلا ، فأنه ما أفلح شعب لا دين له . وان المسلمين بالذات ما هانوا الا بعد ان اهملوا دينهم ، ولكن الاسف انما هو من اجل القصور عن الفهم الصحيح لروح الاسلام وعن عدم القدرة على استخراج ما كمن فى نصوصه من امكانيات واسعة للتطور والانفتاح على حياة الناس واستيعابها فى كل زمان ومكان .

وان ضرورة الحفاظ على الدين نفسه ، لتملى علينا اليوم ان نسارع بالاقدام على عمل يوائم حتما بين مقتضيات حياتنا العصرية وبين النصوص الفقهية الاولى للشريعة ، وان نستحدث من التشريعات والقوانين ما نزيل به اوجه التناقض بين تلك النصوص وحياتنا المعاشة ، والتى ان تركت على حالها القديم فسوف تزداد الفجوة والجفوة بين الدين والأجيال القادمة ، مما يجعلها عرضة لاخطار المنازع المادية البحتة التى سوف تحجب عنا حقائق القوى الروحية الزاخرة المتجددة الكامنة فى تعاليم الدين الإسلامى العظيم .

وان الغيرة على الدين قد كانت من اهم الدوافع التى حدت بالائمة الأجلاء : مالك وابى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، وهم

فى فجر الاسلام ان يقدموا على (الاجتهاد) فى النصوص الجامدة لفك مغالقها وتحليلها وتطويرها لمواجهة التغيرات الواسعة التى حدثت فى المجتمع الاسلامى آنذاك ، من جراء انفتاح العرب على من حولهم من الامم ذات الحضارات ، واخذهم الكثير من علومها وفلسفاتها وصناعاتها .

فذلل الأئمة بذلك صعوبات النصوص القديمة وبسطوها وقدموها للناس فى قوالب عملية تلبى احتياجات الحياة المعاشة فى ذلك الزمان البعيد ، كما جاء فى مذاهبهم الفقهية الاربعة ، التى كانت ملائمة تماما لظروفها وللافهام الدينية السائدة فى عصر قريب العهد من حياة الرسول الكريم وصحابته التابعين .

واذا كان الأئمة الاجلاء قبل اكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، قد ادركوا ضرورة ان ييسروا للناس امور دينهم ، وان يمدوا بينهم وبينها جسورا من السهولة والطواعية ، حتى لا يقع بينها و بين الحياة الجديدة تناقض ولا جفوة .. فما بالنا اليوم ونحن فى اواخر القرن العشرين ، وبعد ان بلغ الفكر الإسلامى مبلغا شامخا من النضج والاكتمال ، نقفل باب (الاجتهاد) ، ونقف جامدين أمام الحاجة الصارخة والضرورات الملحة ، لايجاد مخرج مما نحن فيه من تناقض ، بين ممارسات حياتنا اليومية ، وبين مقتضيات النصوص الفقهية كما تركها الأولون..

اننا ندرك بلا شك أن الأخطار التى تهدد الاسلام اليوم ، لا يمكن ان تقاس بما حدث فى عصر الائمة الأجلاء .. وأن ما نقدمه من اصلاحات فى القوانين لا ينبغى أن يقف عند سطح النصوص القديمة ، بل يجب ان ناخذ بكل اعتبار مدى مايمكن فهمه وقبوله بعقلية اليوم ، وما يمكن ان نزيل به التناقض الذى اشرت اليه .

اننا يجب ان نعترف بأننا قد انغمسنا الى اخمص اقدامنا فى حياة المدنية الاوربية الحاضرة ، وانها قد اصبحت وعاءا شاملا لحياتنا وان التعليم الحديث السائد فى معاهدنا ، لا يزال يطبع عقول الأجيال المتعاقبة بالطابع العلمانى المتحرر من الدين ، وان ناشئة البلاد الاسلامية انما يحسون بفراغ نفوسهم من القيم الدينية التى كان ينبغى ان تعمر بها قلوبهم ، فيجدون فيها الحلول الشائية للمشاكل التى تحيط بهم فى مختلف ميادين الحياة ، فتؤرق وجداناتهم وتجعلهم طعمة للتيارات الجارفة غير الدينية ، التى تجذبهم اليها وتقدم لهم حلولا براقة لمشاكلهم فيقبلون عليها دون ان يدركوا ما فى باطنها من زيف وتضليل .

الحكومة الاسلامية وكيف تكون

ان المتصدين لقيادة الحركات الاسلامية ، ليخطئون اشـد الخطأ ان ظنوا انهم يستطيعون اقناع تلك الاجيال ، بانها ستجـد الحلول الحاسمة لمشاكلها بمجرد العودة الى النصوص الفقهية القديمة .

واذا كان الدين اصلا قد جاء لأصلاح المجتمعـات ، فلا بد اذن للمصلحين من ان يقدموا لتلك المجتمعات ما هو مفهوم ومقبول عندها ، او بعبارة اخرى (أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم كما قال الرسول الكريم . هكذا كان مجتمع القاهرة فى الاربعينات يناقش الأهداف الرئيسية لدعوة الأخوان المسلمين .

والملاحظة الثانية الهامة فى معرض النقاش، كانت (الحكومة الاسلامية) التى لم يوضح لنا الشيخ البنا أيضا كيفية تكوينها من خلال الاوضاع السائدة فى أيامه ، وهل تكون اجراءاتها متفقة مع مادرجنا عليه من ممارسات فى تكوين الحكومات على الأسس الديمقراطية ، وهل هى الديمقراطية التى تقضى أولا بقيام برلمان يأتى عن طريق الانتخابات المباشرة (صوت واحد لكل فرد)، ثم يقوم

هذا البرلمان أو حزب الأغلبية فيه بتشكيل الحكومة ، كما هو متبع في النظام البرلماني ؟

أم هي ديمقراطية النظام الرئاسي حيث الشعب هو الذي يختار رئيس جمهوريته عن طريق الانتخابات المباشرة أيضا ، ثم يقوم الرئيس بتشكيل حكومته ؟ لم يقدم لنا الشيخ البنا شيئا عن ذلك ، ولا عن الدستور كمصدر لكل ذلك .. ولكن هذه هي الديمقراطية التي لا نجدها في النصوص القديمة ، حيث الولاية تأتي عن طريق الصفوة وأهل الحل والعقد ، طريق (وشاورهم في الأمر) ، الذي كانت تقتضيه مكانة الرسول الكريم ، كوصي من عند الله تعالى على الناس في الارض .. وثالث موضوعات النقاش كان الخلافة الاسلامية ، باعتبارها من الاهداف الرئيسية أيضا عند الاخوان المسلمين .

الخلافة الاسلامية وتعذر تنفيذها

وكان الاتجاه الغالب للنقاش ،هو تعذر تنفيذ فكرة الخلافة كرباط جامع موحد للدول الاسلامية ، في عصر ارتفعت فيه حواجز الاستقلال عالية بين تلك الدول ، واصبح التمسك بالكينونة الخاصة والسيادة على الأرض ، مبادىء ثابتة ،يعتنقها كل قطر في العالم الإسلامي .

ولو كان من الممكن ان يتنازل رؤساء الدول الاسلامية لواحد منهم ، بمبايعته على الخلافة ، لكان ذلك اقرب الى التحقيق بين الدول العربية الحاضرة وهي اسلامية بالطبع .. ولكن هذا هو واقعها يشهد بغير ذلك ، بالرغم من الأخطار التي تهددها وعلى رأسها قيام اسرائيل التي يستهدف وجودها القضاء على الدول العربية والاسلامية معا .. دينها وتاريخها وكل تراثها الفكري والحضاري .

هذا وان نظام الخلافة في حد ذاته ، لا يخلو من الدكتاتورية

التى لا تستساغ فى العصر الحاضر، عصـر الديمقراطية العريضة التى تشبعت بها النفوس، مما يجعل فكرة الخلافة مصدرا للثورات والقلاقل.

ولا تصح هنا المقارنة بما تم من ممارسات على يد الرسول الكريم (ص) فهو مرسل من الله سبحانه وتعالى ووصى على الناس بحكم هذه الرسالة .. كما ان الاختلاف الهائل بين البيئة والظروف فى ذلك العهد البعيد و العهد الحاضر امر لا يمكن تجاهله ..

تعجل الاخوان بدخول الميدان السياسى

ونعود بعد ذلك لنقول ان الدعوة الى الرجوع للنصوص الفقهية الاولى و للحكومة الاسلامية وللخلافة، حيثما تقف عند حد التعميم والاطلام، تصبح دعوة استهوائية ،اذا جاز لها ان تجتذب جماهير الدهماء، فهى لا تصلح لمخاطبة المثقفين وذوى الوعى والأذهان المتفتحة .

ثم نقول ايضا ان المتصدين للقيادة الاسلامية ،لا مناص لهم من تقديم مخرج جديد لما نحن فيه من تناقض بين مقتضيات الدين وممارسات الحياة المعاشة كما اشرت من قبل .. والا فان محاذير الخشية على الدين، قد لا تقتصر على التيارات الفكرية الخارجية، بل انها قد تاتى من داخل العالم الاسلامى ذاته ..

والمأخذ الرابع الذى كان مدار النقاش فى ذلك الزمان ، هو تسرع الأخوان المسلمين فى دخول ميدان السياسة .. وقد نظر الكثيرون الى ذلك كخطأ اكبر ، قاد الأخوان الى الفشل والضياع .. وكانوا يرون ان لو تريث الشيخ البنا ،واستمر فى اعمال التربية الدينية والاعداد للمستقبل ، وان يعمل ولو مؤقتاً بنصيحة الاستاذ رشيد رضا صاحب مجلة المنار حينما الف (جمعية الدعوة والارشاد) ووضع فى قانونها ألا تشتغل الجمعية ولا أحد من قادتها بالسياسة .. لقد كان اجدى للحركة الاخوانية ان تفعل ذلك ، ولو الى المدى

الذى يضمن لها إكتمال تهيئة الشعب لتقبل الحكم الاسلامى المنشود والمشاركة الفعلية فيه .

يقول الدكتور عبد العظيم محمد رمضان فى كتابه (تطور الحركة الوطنية فى مصر) (الأمر الذى لا شك فية ان ما كانت مصر فى حاجة اليه فى ذلك الحين ، لم يكن الحكومة الاسلامية ولا الخلافة الاسلامية») الى ان يقول : وانما كانت مصر فى حاجة الى الدين كخلق وعقيدة تملأ جوانح الروح ،ومبادىء سامية تصلح للفرد وتهديه سواء السبيل .

ويقول اصحاب هذا الاتجاه ، ان الأخوان لو استمروا فى خطتهم الرامية لبعث الروح الاسـلامية فى الشعب المصرى ، باساليبهم التى ظهروا بها لأول مرة ، لكانوا قمينين بكسب اغلبية تحقق لهم ما كانوا يصبون اليه من حكم اسلامى.. ومما يستند اليه هـذا الاتجـاه أيضا ، ما ذهب اليه الاستاذ على عبد الرازق فى كتابه (الاسلام واصول الحكم) عند ما قال عن الحكومة الاسلامية والخلافة الإسلامية ، (أنها خطط دنيوية صرفة ، لا شأن للدين بها ، وقد تركها لنا لنرجع فيها الى افكار العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة) .

ولكن الاستاذ البنا كان له منطق آخر ، لا بد لنا من ان نقف عنده بعض الشىء ، فهو يقول الاسلام الذى يدين به الأخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من اركانه ، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الارشاد (ويقول ايضا الحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والاصول ، لا من الفقهيات والفروع ، فالاسلام حكم وتنفيذ ، كما هو تشريع وتعليم ، كما هو قانون وقضاء ،لا ينفك واحد منها عن الآخر) ويقول فى مكان آخر :(أن المصلح الاجتماعى إن رضى لنفسه أن يكون فقيها مرشدا يقرر الاحكام ويرتل التعاليم

ويسرد الفروع والأصول فان النتيجة الطبيعية أن صوت ذلك المصلح سيكون صرخة فى واد ونفخة فى رماد) .

لا خلاف مع الاستاذ البنا من ناحية المبدأ ، وأن الاسلام دين ودولة ، ولكن ، اذا كان الشيخ البنا يريد تطبيق الحكومة التى قال عنها أنها (معدودة فى كتبنا الفقهية من العقائد والاصول) ، دون تطوير أو تجديد مما تقتضيه ظروف الحياة الحاضرة ، فذلك هو التضيق والشطط ، اللذان لا يقدمان فرصة للعمل على تحقيق الموازنة والمواءمة المنشودة ، بين الدين والحياة المعاشة .

ولعل الاستاذ على عبد الرازق ، كان أقرب الى الاهتمام بهذه الضرورة حين ذهب إلى اخراج الحكومة والخلافة من ربقة النصوص الفقهية القديمة فقال أنها (خطط دنيوية صرفة) ، والمرجع فيها هو (أفكار العقل وتجارب الامم) ..

ثم نعـــود مرة ثانية إلى الخطأ الأكبر الذى كان وبالا على الاخوان وجرعليهم كل ما حل بهم من دمار ، ألا وهو الاستعجال فى النزول الى ميدان السياسة وعدم وزنهم الامور بميزان دقيق ، قبل أن يأخذوا تلك الخطوة المشئومة .

والواقع أن حسابات حسن البنا فى هذا الصدد ، كانت خاطئة منذ البداية، وقد أخذ عليه المراقبون فى ذلك الزمان عدة أخطاء .. ومن أهمها ، أنه دخل السياسة فى ظروف مشبوهة ، بلغ التآمر الرجعي ضد الديمقراطية والدستور قمته ، بين القصر الملكى وأحزاب الاقليات ، الذين عقدوا النية على تجميد الدستور ، وطرد حكومة الأغلبية الشعبية ، لكى يخلو الجو للملك فاروق ليكون هو الكل فى الكل يملك ويحكم ، ويأخذ بيده جميع السلطات ، فيصبح دكتاتورا مقنعا .. وجلس على ماهر باشا فى رئاسة الديوان الملكى يجمع خيوط

المؤامرة ، ويدبر اقالة حكومة الوفد ، بالصورة التي ذكرتها في غير هذا المكان ، وقد فاحت روائح هذه الاقالة وملأت الافق قبل أن تحدث .

في ذلك الوقت المشبوه جاء حسن البنا يشارك في تأييد الملك فاروق ، فأرسل فرق الاخوان العسكرية الى قصر عابدين ، لتحيى الملك وتبايعه بمناسبة إعتلائه العرش .. ثم وقف البنا بجانب المتآمرين على الديمقراطية ، وأخذ يطلق التصريحات السياسية المؤيدة لفاروق ، مثل قوله أن أمل الأخوان المحقق (في جلالة الملك المسلم) .

هذا ما جعل البنا معتبرا في عداد الرجعيين وأعداء الديمقراطية في ذلك الحين .. كما أن علاقات البنا مع حزب مصر الفتاة الذى رفع علم الفاشية عاليا في مصر ، وما قيل عن علاقات البنا نفسه مع دولتى المحور ، المانيا وإيطاليا .. كل ذلك قد ألصق تهمة الفاشية بتنظيم الاخوان المسلمين .

وقد قيل من جهة أخرى أن الشيخ البنا قد أغرته الانتصارات التى لفقها الملك لنفسه ، ضد حزب الوفد ممثل الاغلبية الشعبية ، وجعلت البنا يعتقد أنها نهايته ، ولن تقوم للوفد بعدها قائمة ، فقرر البنا أن يعتمد على القصر ، فولج ميدان السياسة .. فكان حسابه خاطئا تماما ، كحسابه في تقدير قوة فرق الاخوان ومدى امكانية الاعتماد عليها في استعمال القوة للوصول الى الحكم . وكذلك حسابه في الاعتماد على الجماهير التى اجتذبتها دعوة الاخوان بمبادئها الدينية ، لأنها جماهير مؤمنة تجاوبت مشاعرها الدينية مع الاخوان ، ولكنها في الواقع كانت مرتبطة بحزب الوفد من الناحية السياسية والوطنية ، بدليل أنها ، بالرغم من تجاوبها الديني مع الاخوان ، كانت في الانتخابات العامة تذهب وتعطى أصواتها لمرشحي الوفد ، بدافع من ولائها الضارب في القدم .

الفرق الارهابية اضرت بالأخوان

والخطأ الكبير الآخر ، الذى شوه وجه الإخوان وأثار عليهم الرأى العام ، هو تكوينهم للفرق الارهابية ،. التى اندفعت تمارس أعمال العنف وتشيع الارهاب ، وترتكب أبشع جرائم الاغتيالات ، حتى ضاق بها كل الناس ، بل ضاق بها قادة الاخوان أنفسهم فأبدوا استياءهم وسخطهم عليها وعلى تصرفاتها الاجرامية ، ومن هؤلاء الأستاذ أحمد السكرى وكيل الجمعية الذى قدم إستقالته وترك الاخوان المسلمين كما ذكرت سابقا ..

ولما طفح الكيل ، أخذ الأستاذ البنا نفسه يبدو وكأنه واقع فى إحراج شديد ، وكان يدلى ببعض التصريحات ، يحاول بها دفع الحرج عن نفسه ، حتى جاء حادث إغتيال النقراشى باشا ، رئيس الحكومة آنذاك ، إنتقاما منه لحله جمعية الاخوان المسلمين .. وهنا بلغ الحرج بالبنا أن أصدر بيانا فى اليوم التالى للحادث يستنكر فيه الجريمة ويتبرأ من فاعليها ويقول فى عنوان التصريح : (أنهم ليسو أخوانا وليسو مسلمين).

فظهر الشيخ البنا فى ذلك الوقت ، وكأن الأمور قد أفلتت من يده ، وأن الارهابيين قد كونوا لهم مراكز قوى فى داخل الجمعية ، وأصبحوا أقوى سلطانا من البنا نفسه ، وهو الذى أنشأهم ليضرب بهم الآخرين (عندما يستكملون أعداد أنفسهم من النواحي الروحية والفكرية والجسمانية) . كما قال فى خطابه عام ١٩٣٨ بمناسبة مرور عشر سنوات على الجمعية ، فقد قال للاخوان : « فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجج البحار ، وأقتحم عنان السماء ، وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فأنى فاعل ان شاء الله) . وقال أيضا فى نفس الخطاب : (أن الاخوان سوف يستخدمون

القوة ، حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون بأنهم قد استكملوا عدة الايمان والوحدة . وغاب عن ذهن البنا أن الطبيعة الغالبة لمثل هذه التنظيمات الارهابية ، أنها إنما تكون سلاحا ذا حدين ، وكثيرا ما تنقلب على منشئيها وتفلت من يدهم ، كما فعلت مراكز القوى التى أنشأها جمال عبد الناصر ليضرب بها خصومه ، فاذا بها آخر الأمر تفلت من قبضته ، وتعمل بمعزل عن ارادته ، حتى قال فى أواخر أيامه : (أنا مش عارف مين البيحكم مصر) .

ولعل الشيخ البنا قد وجد نفسه فى النهاية فى موقف أشبه بموقف جمال عبد الناصر من مراكز القوى .

هذا هو مجمل ما استطعت أن أتذكره من المآخذ التى كان المثقفون فى الاربعينات يأخذونها على حركة الاخوان المسلمين . وكان المخلصون منهم يتمنون ان لو خلص منها وجه الاخوان ، اذن لتبينوا طريقهم السوى الى غاياتهم الكبرى ، فى تحقيق البعث الاسلامى وإعلاء كلمة الاسلام .. وأعتقد أنهم كانوا جديرين بذلك لولا تلك الأخطاء .. والآن مهما يكن فان حركة الاخوان المسلمين سوف تأخذ مكانها فى تاريخنا المعاصر ، كأكبر حركة اسلامية استطاعت فى سنوات قليلة أن تمد نفوذها الى مختلف الاقطار العربية والاسلامية ، وأن تبعث الأمل فى نفوس الملايين العديدة فى أحياء ماضى الاسلام وأمجاده .

ورحم الله الاستاذ حسن البنا ، فقد كان قائدا قوى الارادة والشخصية والنفوذ والقدرة المتفوقة فى التخطيط والتنظيم .. ، وكلها تشهد بما كان يتمتع به ذلك الرجل الحديدى من مواهب القيادة والتوجيه ، وقد كان خليقا به أن يحقق الكثير من أهداف حركته الواسعة لولا تلك الأخطاء التى أشرت اليها ..

الحركة اليسارية فى مصر

لقد ذكرت فى مكان آخر أنى لا أقصد بالكتابة فى أى موضوع من هذه المذكرات ان اسرد وقائع التاريخ ولا تفاصيله ولا ارقامه ، وانما اهدف الى تسجيل انطباعاتى ومعايشاتى ، بما أورده من ملامح عامة أعطى بها فكرة عن المناخ الذى كانت تجرى فيه الأحداث ، حتى يمكن للقارىء ان يدرك ، مدى تأثير الموضوع المطروح على مجرى الاحداث العامة ، فى فترة كانت من أدق الفترات فى تاريخنا المعاصر .

وكتابتى عن اليسار المصرى ، أو النشاط الشيوعى فى مصر فى الثلاثينيات والاربعينيات ، انما هى من هذا القبيل .

فالحركة الشيوعية كما عايشتها فى تلك الحقبة ، كانت تيارا فكريا وسياسيا من أقوى ما شاهدت فى مصر ، بل لا أبالغ اذا قلت أنها كانت تيارا جارفا بين الشباب ، لا تحده القيود ولا السدود ، ولا توقفه الضربات القاتلة التى كانت توجهها له السلطات الحاكمة ، ولا توهن من عزمه الحرب الشعواء من الاحزاب والهيئات وغيرها.

وبالرغم من كل ذلك ، كان قادة الشيوعية يواصلون العمل باصرار ، تحت الأرض كلما تعذر عليهم العمل العلنى .

وكانت معاناتهم فى ذلك طويلة ومريرة .. ولكن أفكارهم وشعاراتهم الجذابة ، ظلت تتسرب الى المجتمع المصرى من كل زواياه .. وكانوا هم ، عقب كل ضربة تصيبهم ، لا يكفون عن المحاولات للتجمع من جديد ، لتنظيم أنفسهم فى هيئة أو حزب يعبر عنهـــم .. وان المراقب أو المؤرخ يستطيع ، على مرسى الثلاثينات ، ان يرصد مدى تأثير التيار اليسارى على مجرى الاحداث العامة فى مصر ، ويرى بصماته الواضحة على الاعمال السياسية

والاجتماعية في كل الاوساط .. وبقدر ما كان التنديد بالشيوعية والشيوعيين يتصاعد ، وتشترك فيه شخصيات واقلام مصرية كبيرة ، بقدر ما كانت شعارات المساواة والعدالة الاجتماعية والاصلاح الزراعي ، وعلاقات الانتاج والتأميم وغيرها، تزداد لمعانا وجاذبية ويتعلق بها الشبان والعمال .

وانتهى الأمر بالاحزاب والهيئات ان تعيد النظر ، من وقت لآخر في برامجها ومواثيقها ، لتدخل عليها الكثير من التعديلات المنطوية على الافكار اليسارية ، والآخذة من تلك البرامج بعض طلاوتها، وما زالت بها ، حتى وضعتها آخر الأمر في مكان الصدارة ، وأصبحت كلمة الاشتراكية هدفا سياسيا لكل الاحزاب والهيئات .

لم تؤمن الاحزاب بالشيوعية بل اقتبست شعاراتها واصطلاحاتها فقط

وكذلك الصحافة وكتابها ، نجدهم يقصدون الى تلوين مقالاتهم بألوان يسارية ، مجاراة للتيار اليسارى الجارف ، وما ذلك لان الاحزاب أو كتاب الصحافة ، قد آمنوا بالشيوعية ، ولكنه الخوف من شعاراتها وتعبيراتها الجذابة ، التي أخذت تستهوى شباب الاحزاب وعمالهم وتبهرهم بجدها وطلاوتها وتنسيقها ، وتملأ في نفوسهم ذلك الفراغ الذى لم تستطع احزابهم ان تملأه .

فقد كانت رؤوس الشباب في ذلك الجيل ، تزدحم بمشاكل وأسئلة كثيرة عن المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يجدون لها الحلول ولا الاجوبة الشافية، في ما يتلقونه من أحزابهم أو هيئاتهم .. بينما كانوا يجدون الكثير من الحلول والأجوبة في تلك البيانات أو المنشورات أو الكتيبات الشيوعية السرية ، التي كانت تتسرب اليهم بالرغم من الحظر الشديد المضروب عليها .. (واحب شيء الى الانسان ما منعا) ..

ولهذا فان تلك الشعارات والتعبيرات الشيوعية ، قد بقيت

عند الاحزاب على السطح ، مفرغة من محتواها الحقيقى .. فتقد قدموها للشباب والعمال ليرددوها كالببغاوات ، من داخل تنظيماتهم الحزبية ، حتى لا يأخذونها من أفواه الشيوعيين ، ايهاما لهم بأن احزابهم قد أصبحت تقدمية .. ولقد ظهرت محاولات متعددة ، لمحاربة الشيوعية وتعويق زحفها بهذا الاسلوب المنطوى على الأخذ بالمظهر دون الجوهر ، وعلى التمويه وعدم الجدية .

حـزب الوفد يحاول عمل تنظيمات عمالية يناهض بها الشـيوعية

فنجد فى كتاب « اليسار المصري » للدكتور رفعت السعيد ، ما يفيد بأن حزب الوفد ، اكبر الاحزاب ، والمتمتع بتأييد الشعب المصرى يعهد الى شخصية كبيرة كعبد الرحمن فهمى ، سكرتير لجنة الوفد المركزية والذى كان له دور رئيسي فى ثورة ١٩١٩ ، عهد اليه الحزب بأن يقوم بهذا الدور بين الشبان والعمال والفلاحين منذ وقت باكر فى عهد حكومة سعد زغلول ، حين تقرر ان يدخل الوفد ميدان العمل على تنظيم العمال وقياداتهم ، لكى يسحب البساط من تحت أقدام القادة الشيوعيين ، الذين استطاعوا ان يهيمنوا على نقابات العمال فى ذلك الوقت ، ويحركوها في اتجاههم الاحمر .. فقام عبد الرحمن فهمى اولا بتكوين نقـابة للعمال ثم تدرج بها حتى اصبحت اتحادا عاما فيما بعد .

محاولات أخرى لعرقلة سـير الشـيوعية . . . محجوب ثابت وعزيز بك ميرهم وغيرهم وعباس حـليم

وفى غير الوفد ، نجد محاولات أخرى ، بعضها من شخصيات وطنية كبيرة ، كمحاولة الدكتور محجوب ثابت لانشاء اتحاد العمال بعيداً عن الاحزاب ، حيث ناشد العمال الابتعاد عن الاحزاب وحذرهم منها ومن (الزعماء والمتزعمين وسماسرتهم المستغلين .. الخ

ومن المحاولات الفردية أيضا ، تجربة عزيز بك ميرهم (من الوفد) أيضا وتجربة داوّد راتب بك ، من حزب الاحرار الدستوريين .. وتجربة ادجار جلاد باشا ، من رجال السراى الملكية فى عهد

فاروق الاول ، وصاحب امتياز جريدة الزمان القاهرية اليومية .

ولكن تلك التجارب قد باءت جميعها بالفشل وتوقفت عن العمل لقيادة جماهير العمال وتوجيههم .

ومن أهم تلك المحاولات وأكبرها ، تجربة عباس حليم أحد أبناء الأسرة المالكة في مصر ، الذى تمرد على أسرته وقامت بينه وبين رئيسها الملك فؤاد الاول ، خصومة حادة ، جعلت الملك يجرد عباس حليم من لقب (النبيل) ويحرمه من كافة امتيازاته ، وينبذه بعيدا عن العائلة المالكة .. فأكسبه ذلك عطف الشعب المصرى ، واطلقت عليه الصحف لقب (الشريف) بدل النبيل ، فاصبح يسمى (الشريف عباس حليم) .. ، واعتقد أن هذه الخصومة كانت من أقوى الدوافع لعباس حليم فى اتجاهه نحو اليسار .

ويقول البعض ان هنالك عاملين هامين قد شجعا عباس حليم للسير فى الاتجاه اليسارى ، أولهما هو غياب القادة الحقيقيين لهذه الحركة عن الميدان ، بسبب التشريد المستمر لهم ، والثانى هو الرغبة فى الانتقام من الملك فؤاد والاسرة المالكة بامتطاء حركة العمال وتصعيدها ضد القصر .

حركة عباس حليم جذبت كثيراً من الطلبة والشبان والعمال ومنهم السودانيون

وحركة عباس حليم ، وان لم تستمر طويلا ، الا أنها وجدت فى بادىء الأمر ، إقبالا كبيرا وتلقت مساعدات حتى من بعض اليساريين أنفسهم ، واصبح اسم عباس حليم يذكر فى مختلف الاوساط ، وانضم اليهم كثير من الطلبة والعمال والشبان ، وكذلك بعض الطلبة السودانيين .. ولعل الاخ قيلى احمد عمر هو اول من خاض تجربة عباس حليم ، من بين صفوفنا .. فقد كنت اسكن معه فى حى الوايلى بالعباسية ، وفي صبيحة احد ايام العطلة الصيفية ، فوجئت باثنين من رجال الامن يريدان دخول المنزل وكان وراءهما

قيلي .. فكان منظرا مثيرا لى حيث ان قيلي لم يبت الليلة الماضية بالمنزل ، وسارع رجل الامن الى تطميني بقوله المسألة بسيطة ، سنطلق سراحه فورا اذا لم نجد شيئا محظورا فى غرفته ، ثم أخذنا فى تفتيش مكتب قيلي ولم يعثرا على شيء وبالفعل اطلقا سراحه وذهبا ، وكان القبض على قيلي قد تم ضمن مجموعة من الشباب وجدوا فى احد الاجتماعات التى كان يعقدها عباس حليم .

ولكن الفشل حالف تلك المحاولات

ومن الطرائف التى كانت تروى عن عباس حليم فى تلك الايام ، ما حدث بينه وبين الاستاذ سليمان فوزى ، صاحب مجلة الكشكول التى كان لها رواج خاص .. وكان سليمان من الكتاب الذين تحرضهم السراى ضد عباس حليم .. ولما ضاق عباس حليم زرعا بمهاجمات سليمان فوزى ذهب يوما الى دار الكشكول ، ومعه كلبه الضخم المدرب ، فأوقفه امام مكتب سليمان فوزى ، للحيلولة دون دخول أى شخص ، ثم دخل هو على فوزى حاملا كورباجا كبيرا ، فهوى به على صاحب الكشكول واستمر يجلده لعدة دقائق ، وهو يستغيث دون ان يجد من ينقذه حتى شفى عباس حليم غليله تماما ، ثم غادر المكتب ، يتبعه كلبه المخيف وركب سيارته وذهب .. وفى اليوم الثانى خرجت الصحف على الناس بالقصة المثيرة .. ولم تخل بعض الصحف من الشماتة على سليمان فوزى صاحب القلم المشبوه بتهمة العمالة للسراى الملكية ولغيرها .

هذا أقصى ما استطعت ان اجمعه من شتات ذكرياتى عن حركة عباس حليم .. ولكن ذكرياتى عن الحركة اليسارية فى مصر ما زالت لها بعض انطباعاتها فى الذاكرة تحضرنى كلما امتد تفكيرى اليها عبر السنين الطويلة .

زراع البحار

ومن أطرف ما أذكره قصة عبد الرحمن فضل ، أو زراع

البحار كما كانت تسميه الصحف المصرية في ذلك الزمان .

حدثت تلك القصة المثيرة التي شغلت الرأى العام كله .. الاحزاب والبرلمان وكلية الحقوق ورجال القانون والصحافة المصرية والعالمية في ١٩٣٤ تقريبا .. كان عبد الرحمن فضل عاملا بسيطا (نجارا) وانخرط في أول تنظيم يسارى في مصر (الحزب الاشتراكى) وتعلقت نفس عبد الرحمن بالماركسية لدرجة أنه اصبح لا يتمنى شيئا أكثر من الفرصة التي تمكنه من دراسة تلك النظرية وفهمها .. ولهذا صمم على السفر الى روسيا في أوائل العشرينات ، وعبر سفر طويل ، مر فيه بفلسطين وتركيا ، متنقلا من مركب الى مركب حتى وصل الى الاتحاد السوفيتي ، وتحققت امنيته . فالتحق (بكلية استالين لكادحى الشرق) ، فدرس فيها والتحق بعمل هناك وأقام نحو العشر سنوات تزوج خلالها .

عودة عبدالرحمن لمصر

ولكن الحنين الى الوطن قد عاوده ، فسافر عائدا الى مصر ، بلد الإهل والاحباب .. ولم يكن عبد الرحمن بدرى ان السلطات المصرية كانت واقفة له ولامثاله بالمرصاد ، فقد كان على رأس الحكومة دكتاتور مصر الاكبر في الثلاثينات ، اسماعيل صدقى باشا ، الذى اصدر منذ ١٩٣١ ، قانونا بسحب الجنسية من عبد الرحمن فضل ، ضمن من شملهم ذلك القانون الجائر .

قانون لسحب جنسية عبدالرحمن وآخرون

ونقلا عن النص الرسمى للمرسوم بتعديل قانون الجنسية كما اورده (كتاب اليسار المصرى) ، اثبت الفقرة الآتية : « وكذلك يجوز اسقاط الجنسية المصرية بمرسوم ، عن كل شخص يقيم خارجا من القطر المصرى ، ويكون منضما الى هيئة غرضها نشر دعاية ثورية ضد النظام الاجتماعى ، أو الاقتصادى للدولة ، أو ضد النظام الأساسى للمجتمع ، أو ترمى الى الوصول الى نفس الغرض ،

بأية وسيلة أخرى ، أو يكون منضما الى مركز أو فرع أو معهد دراسي ، أو الى مكتب أو جماعة تابعة لمثل تلك الهيئة أو متصلة بها أيا كان وجه التبعية أو الانصال ، وسواء كانت تلك الهيئة موجودة في القطر المصرى أو في الخارج ، وكذلك يجوز اسقاط الجنسية عن كل شخص يتلقى في مثل هذه الشروط المتقدمة ، تعاليم مثل تلك الهيئات وأساليبها ، سواء كان ذلك بحضور دروس ام بأية طريقة أخرى .

وبمقتضى هذا القانون المتعسف كان رجال الأمن يقفون بالمرصاد في انتظار عبدالرحمن فضل ، الذى قيل أنه كان على علم بكل هذا ، ولكنه اصر على العودة للوطن .. وقرر ان يخوض المعركة ضد اسقاط الجنسية ، وبهذا الاصرار سافر من موسكو الى باريس ، فالى ميناء بيريه باليونان ، ومنها الى الاسكندرية ، التي ما كاد يصل اليها حتى اعتقله البوليس وأعاده الى الباخرة ، وأخذ تعهد على قائد السفينة بابقاء عبد الرحمن على ظهرها حتى يعود به الى حيث أتى ..

اعتقال عبدالرحمن بمجرد وصوله الاسكندرية واعادته للباخرة

وعادت السفينة الى ميناء بيريه ، ولكن عبد الرحمن رفض النزول منها ثم عادت به السفينة الى الاسكندرية .. ومرة أخرى رفضت السلطات السماح له بالنزول من الباخرة .. ورفض عبد الرحمن التراجع أو التنازل عن حقه في العودة لوطنه .. وقد أوردت مجلة المصور بتاريخ ٦٦،٣،١١ ما قاله عبد الرحمن في هذا المعنى : « وتكرر ذهابى وايابى من ميناء بيريه اليونانى الى الاسكندرية والعكس ٥٤ مرة ، وفى كل مرة اصل فيها الى ميناء الاسكندرية كنت أجد عشرات من مندوبى الصحف المحلية والعالمية » .

نجح عبدالرحمن باصراره في أثارة الرأى العام لصالحه

وهكذا نجح عبد الرحمن فضل باصراره العنيد ، كما يقول

الدكتور رفعت السعيد ، فى اثارة الرأى العام ، فى جميع الاوساط ، ضد قانون اسقاط الجنسية الذى اصدره صدقى باشا ضد الشيوعيين المصريين فنشطت الصحف فى الكتابة عنها من مختلف النواحى الوطنية والانسانية والقانونية .. وارتفعت اصوات بعض النواب فى البرلمان كفكرى أباظة وعبد الحميد عبد الحق ، ضد ذلك القانون ، وكذلك تناوله اساتذة كلية الحقوق فى الجامعة . وشعرت الحكومة انها فى مأزق .

استطاع زملاء عبدالرحمن كسب الصحافة والنــواب واساتذة الجامعة

وضاقت السفينة التى تحمل عبد الرحمن ذرعا بمشكلاته ، وفكرت الشركة المالكة لها فى بيعها ، كوسيلة للتخلص من المشكلة .

وزاد حرج الحكومة المصرية ، عندما قرر قبطان السفينة عدم تقديم الطعام لعبد الرحمن ، لكى يلفت النظر الى مشكلته ، التى لم تجد الاهتمام وكذلك عندما اضرب عبد الرحمن نفسه عن الطعام .. وكان لزملاء عبد الرحمن الشيوعيين فى داخل مصر ، يد طولى ، وراء كل ما كان يحدث .. ونجحوا تماما فى اشعال نيران الحملة ضد قانون اسقاط الجنسية فى كل مكان ، حتى اصبح الرأى العام كله عاطفا على قضية عبد الرحمن فضل وزملائه المحرومين من جنسيتهم المصرية ، واشتد الضغط على الحكومة فى الصحف والبرلمان والجامعة .. ورفعت قضية دستورية ضد اسقاط جنسية عبد الرحمن وزملائه .. باعتبار انه أمر مناف للدستور .

نجح عبدالرحمن باصداره فى أثارة الرأى العام لمصالحه .

وكانت مجموعة الشيوعيين فى مصر لا تكف عن تقديم المساعدات لعبد الرحمن داخل الباخرة .. كما انها استغلت المشكلة استغلالا واسع النطاق ، لتعبئة الرأى العام واستقطاب الشعور .. وكان كسبهم كبيراً فى هذا المجال ، حتى بين رجال الأمن انفسهم .

وكان احد الشيوعيين اليونانيين المتعاونين مع زملائه المصريين ،

رفعت قضية دستورية

قد استطاع أن يبذل جهوده فى اليونان ، حتى امكن ان يغير قبطان السفينة بآخر ، من الرفقاء ، لكى يساعد عبد الرحمن على التسلل الى مصر فقد نضجت القضية ، ومارست كل الاوساط نوعا من الضغط على الحكومة لكى تعيد النظر فى ذلك القانون المناقض للدستور والذى تسبب فى هذه المشكلة التى اصبحت فضيحة وسبة فى وجه مصر .. حتى ان كبار رجال الامن بوزارة الداخلية ، اصبحوا يعطفون على قضية عبد الرحمن وزملائه ، وتحت هذا الضغط المتزايد ، تقدموا بمذكرة لوزير الداخلية ، لتعديل القانون أو الغائه ، والسماح لأولئك الشيوعيين بالاقامة فى بلادهم .. وهنا وجد الشيوعيون ان المناخ قد اصبح ملائما لهرب عبد الرحمن من السفينة ، عندما تصل الاسكندرية .

حتى رجال الامن اصبحوا يطفون على عبدالرحمن

وهنا تظهر اهمية تغيير القبطان .. فقد أعد رفاق عبد الرحمن كل شيء لهربه من السفينة .. وكان دور القبطان الجديد ، كما ذكر الدكتور رفعت السعيد هو : « عندما تتحرك السفينة من ميناء الاسكندرية ، يقف القبطان بنفسه ليراقب الحالة .. ثم يشعل سجاره بمثابة اعطاء الضوء الاخضر ، فيلقى عبد الرحمن بنفسه فى البحر ، حيث يجد فى انتظاره مركبا مصريا بالقرب منه فتنشله من الماء .

وكذلك يظهر تعاطف رجال الأمن انفسهم مع عبد الرحمن .. وذلك حين احس رجل البوليس الذى كان يلازمه على ظهر السفينة اثناء بقائها فى ميناء الاسكندرية ، احس هذا البوليس بأن هنالك شيء غير عادى .. فسأل عبد الرحمن : « هل تنـوى ان تعملها هذه الليلة ؟ فقال نعم .. فقال البوليس : « حسنا اذن لا تذهب من الجهة الشرقية فهناك كمين معد لبعض مهربى المخدرات » .

وهكذا انتهت مشكلة السفينة مع زراع البحار بهربه واختفائه

في احد احياء الاسكندرية .. ثم بدأت مشكلته على البر والتي تجاوبت اصداؤها هي الأخرى على صفحات الجرائد ، وتضاربت اخبارها تارة بالنفي وتارة بالاثبات .. نفى رجال الامن وجوده على ارض مصر ، وتجاوبت البرقيات بين ميناء الاسكندرية وميناء بيريه اليونانية ، بالاستفسار من قبل سلطات الامن ، وجاء التأكيد من اليونان بأن ظهر السفينة اليونانية اصبح خاليا من ذراع البحار .

نزول عبد الرحمن في بر الاسكندرية بعد منعه عشرات المرات

وجدير بالذكر ان العهد الصدقي كله قد زال في تلك الفترة ، وعاد حزب الوفد الى الحكم بعد انتخابات عامة وألف حكومة دستورية .

ويقطع عبد الرحمن نفسه الشك في أمر وجوده في مصر ، ويوجه من مخبئه بالاسكندرية نداء الى الشعب المصرى ، والى النحاس باشا ، رئيس الحكومة في ذلك الوقت .

واخيراً الغي قانون اسقاط الجنسية لعبد الرحمن ورفاقه على يد حكومة الوفد

واخيرا انتهى الأمر بعبد الرحمن الى الالتجاء لرئيس مجلس النّواب باعتبار أن مسألته هو ورفاقه مسألة دستورية قبل كل شيء ، ولم يكف عبد الرحمن فضل ورفاقه من اعضاء الحزب الشيوعى القدامى ، عن اتخاذ الخطوات المثيرة ، حتى تم لهم ما ارادوا ، وانتصروا على خصومهم ، بنجاحهم في الغاء القانون الذى اسقط عنهم جنسيتهم .. وسمح لهم بالاقامة والظهور بين المواطنين .

وبذلك انتهت قصة ذراع البحار المثيرة ، وطويت صفحة ناصعة من الكفاح من أجل حرية الرأى ، اشترك فيها الجميع شيوعيون وغير شيوعيين ، وان كانت الامانة التاريخية تقتضى بأن تثبت للشيوعيين الفضل والقدح المعلى في تلك المعركة التي انتصرت فيها حرية الفكر والديمقراطية .

واذا عدنا مرة أخرى لرصد آثار التيار اليسارى في المجتمع

المصرى نرى فوق ما سبق ذكره .. ان الانجازات الكبيرة التى كانت تتحقق فى داخل روسيا ، كانت تلفت اليها أنظار المثقفين كاشراقات جديدة يتلقون اخبارها بشغف ، وهم يعيشون فـــى مجتمع راكد الفكر ، متخلف فى كل شىء ، وخاصة فى الأقتصاديات ، التى كانت برامجها فى روسيا تحقق كل يوم انجازات باهرة .. وكم كان لتعبيرات مثل مشروع الخمس سنوات مـــن اصداء واسعة لما حققه من نجاحات .. حتى احتل مثل هذا التعبير مكانة اثيرة فى صدارة الخطط الاقتصادية فى مصر واصبح مثلا يحتذى فى التخطيط والاصلاح .. هنا وقد كان التجاوب والاصداء التى احدثتها قصة ذراع البحار ، اثر كبير فى احياء الحركة اليسارية التى كانت راكدة فى الثلاثينات ، او على الأقل لم تظهر على السطح .. وصحيح ان فترة الثلاثينات تميزت باختفاء النشاط اليسارى فى الظاهر ، حيث لم تكن لهم مواقع للعمل كما كان لمصر الفتاة أو الاخوان المسلمين مثلا ، ولكن المراقب للاحوال السياسية كان يحس بأنهم يعملون فى الخفاء ، بعيدا عن انظار السلطة الحاكمة وزبانيتها.

أثر قصة زراع البحار فى انعاش الحركة اليســارية وظهورها على السـطح

كنا نحس بأثرهم فى الصحف ، كانوا يكتبون عن افكارهم الاشتراكية ومبادئهم الماركسية .. وما كانوا يشنونه من حملات على تسلط الرأسمالية وعلى الاحتكارات والشركات الاحتكارية والبنوك الأجنبية ، وعلى كبار الملاك وغطرسة الباشوات واستغلالهم المذل للفلاح المصرى ، ثم حملاتهم على مراكز الجاسوسية والارهاب سواء فى السراى الملكية أو فى القلم المخصوص بوزارة الداخلية ، وعلى رأسه المستركين يويد الانجليزى واعوانه فى البوليس وعلى رأسهم سليم زكى مدير البوليس (المباحث) .

ان ذاكرتى لتعى اكثر من ذلك ان النشاط اليسارى فى مصر

كان له اكبر الفضل فى تغيير كثير من المفاهيم العتيقة المنحدرة من عهود الاستبداد ومجتمعات العبيد والاسياد .. فكلمة فلاح فى مصر مثلا ، كانت تساوى (عبد) فى السودان كما يقول الاستاذ داؤد بركات فى كتابه (السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية) . . فقامت ثورة عرابى فى مصر لتحرير الفلاح وقامت ثورة المهدى فى السودان لتحرير ابنائه ايضا ، وكنا الى الثلاثينات نسمع بعض الاصوات النشاز من بعض كبار الملاك فى مصر ضد تعميم التعليم . فيقولون مثلا : من الذى يزرع الارض اذا علمتم الفلاحين وكانت كلمة فلاح سبة اذا وجهت لابناء القاهرة ، ولو لم يكونوا من ابناء (الذوات) ، ولكن بفضل الافكار الاشتراكية والدعوة المستمرة للمساواة وازالة الفوارق بين الطبقات ، اعتنقت الجماهير هذه المبادىء ، واصبح لها وعى تفرض به رغباتها وارادتها على القادة الذين يتصدون لزعامتها ، حتى اصبح حجر الزاوية فى سياسة كل زعيم هو التقرب للجماهير .. وللعمال والفلاحين .. وسادت هذه الافكار وتأثر بها ايضا كبار الكتاب والشعراء حتى ان شاعرا يعتبر ارستقراطيا مثل شوقى ، القريب جدا من الاسرة المالكة ، نراه يسجل هذه المعانى فى شعره فيقول :

زمان الفرد يافرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
واصبحت الرعاة بكل ارض على حكم الرعية نازلينا

وليست مصر وحدها التى تأثرت بالافكار اليسارية ودعاياتها . . .. ولكننا نجد ان تعاليم الاشتراكية قد غزت معظم بلاد العالم ، واقتبس منها اكبر الاحزاب اقتباسات واضحة ، فى مختلف برامج العمل ، فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ولعل تجربة (الفبيان) فى حزب العمال البريطانى اكبر دليل على ما كانت تبذله البلاد

الرأسمالية من محاولات لأقلمة الافكار اليسارية والأخذ منها بما يفيد في تضييق الشقة بينها وبين النظام الرأسمالي وتلطيف شعور العمال والفلاحين ، حتى لا تستأثر بهم الشيوعية .. واني لأذكر ان السير ونستون تشرشل قد استهل مرة احدى خطبه في مجلس العموم البريطاني في الاربعينات فقال : « اننا نعيش اليوم في عصر الاشتراكية » وقد كان تشرشل زعيم المحافظين في بريطانيا في ذلك الحين .

وانقلبت الأمور في مصر ، حتى صار الزعماء يفتخر الواحد منهم بأنه (فلاح بن فلاح) .. كما حدث من محمد محمود باشا ، رئيس حزب الاحرار الدستوريين ، وأحد رؤساء الحكومات الارستقراطيين عندما قال في (كلب محمد علي) وهو ناد ارستقراطي معروف في ذلك الزمان . قال محمد محمود ، اثناء المعركة التي نشبت بين العناصر التركية والمصرية بسبب عضوية النادي وعدم التوسع فيها أو في امتيازات النادي للمصريين ولو كانوا من الوزراء ، فقال محمد محمود : بأنه فلاح وابن فلاح ، في مواجهة الغطرسة التركية وتغولها على حقوق المصريين في انتمائهم لنادي محمد علي .

ومن جهة أخرى ، فان كل ما كان يتخذه الاستعمار البريطاني من خطوات في تراجعه أو تفاهمه مع الحكومات المصرية ، انما كان يقوم دائما على الحساب الدقيق للتحركات الشيوعية في مصر ، ومراقبة أي ظاهرة يعتقدون انها من عمل اليساريين ، حتى ولو كانت في داخل حزب كبير كحزب الوفد المصري .. فقد رأينا كيف اهتم البريطانيون وصحافتهم بمسألة تبني الوفد للحركة العمالية في الثلاثينات واصداره (قانون المجلس) الاعلى للعمال ، وابدى الانجليز تخوفهم من احتمال تطور ذلك التنظيم الى حركة هدامة أي شيوعية .

هذا ما امكنني ان اتذكره بصفة اجمالية بعد السنين الطويلة ، من تأثيرات الحركة اليسارية على المجتمع المصرى ، مما كنا نعايشه فى فترة الثلاثينات بالرغم من اختفاء تنظيماتهم ، وعدم معرفتى بمخابئها أو اساليبها أو جماعاتها أو كوادرها ، التى كانت تعمل بلا انقطاع .

وليس ماسطرته هنا محاولة لكتابة تاريخ اليسار المصرى ، انما هو انطباعات كما قلت عن معايشتى لهذه الحركة فى مصر سواء فى فترة الثلاثينات أو بعدها .

صحيح أننا لم نشاهد نشاطا ظاهرا فى السنوات الاولى ولكن ما كادت تنتهى فترة الثلاثينات وتبدأ الاربعينات ، حتى أخذ النشاط اليسارى يأخذ له مواقع ظاهرة .. فى شكل اندية ومجتمعات ثقافية ومكتبات وجرائد ومجلات ، وظهرت اسماء من كوادره العاملة .. مثل هنرى كوريل واسعد حليم وانور كامل وفتحى الرملى وعبده دهب .. الخ .

وظهرت رموز للحركة مثل (ح.د) أي الحركة الديمقراطية التى اصبحت فيما بعد ح.د.ت وحدتو أى الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى وكانت بقيادة هنرى كوربيل المليونير المعروف وهو شاب يهودى من اصل ايطالى ، ولد فى مصر ، واختار الجنسية المصرية واحب المصريين وتأثر بالحركة الوطنية المصاحبة فى ١٩٣٥ .. وكان والده من اصحاب البنوك ، فكان هنرى يذهب مع والده الى مزرعتهم بالريف ، كما يقول هو فى الحوار الذى اجراه معه الدكتور رفعت السعيد ، وهناك فى الريف كان يشاهد ما عليه الفلاحون من فقر وبؤس يندى له جبين الانسانية .. فدفعه ذلك الى محاولة نوع من الاصلاح لمساعدة الفلاحين .. وكانت هذه هى

نقطة انطلاقه نحو الشيوعية فقرأ وتدرب حتى اصبح من مؤسسى الحركة الاشتراكية الجديدة فى الثلاثينات وبرزت شخصيته فى الاربعينات .

كما اننا نجد فى نهاية الثلاثينات جمعيات يسارية مقنعة مثل (جمعية الخبز والحرية) أو (الفن والحرية) ونادى الاتحاد الديمقراطى .. وكذلك نجد من جمعياتهم ما كان يتجه نحو الثقافة والمثقفين ، كجمعية نشر الثقافة الحديثة ، وكذلك بعض الصحف كمجلة التطوير وكجريدة حرية الشعوب وغيرها .. ومكتبة الحرية .. وغيرها .. والواقع انني حين اعود بالذاكرة الى مطلع الاربعينات ، اجد ان الحرب العالمية الثانية ، كان لها اكبر الفضل فى تهيئة الظروف التى مكنت الشيوعيين من ترك مخابئهم ، والتصدى للعمل على نشر مبادئهم بوسائل علانية ظاهرة للعيان .

الحرب العالمية الاخيرة ساعدت على ظهور الشيوعيين على السطح

ولا شك فى أن بريطانيا والحلفاء كانوا يبذلون اقصى جهدهم لمناهضة الدعايات الفاشية والنازية فى مصر .. ولا شك أيضا ان الشيوعيين هم اكثر حرصا على محاربة الفاشية والنازية والقضاء عليها .. لذلك فقد سكت الحلفاء عنهم واغمضوا أعينهم عن النشاط اليسارى فى مصر اثناء الحرب ، بل سعوا الى ايجاد تنظيم للتعاون بينهم وبين اليساريين ، لمناهضة أى أثر لخصمهم المشترك (المحور) .. ومن أمثلة ذلك جماعة (اخوان الحرية) كما ان تحالف الاتحاد السوفيتى مع بريطانيا وحلفائهما وانتصارات روسيا على هتلر فى استالنجراد وغيرها .. ثم اعتراف الحكومة المصرية بالاتحاد السوفيتى ، وتبادلها معه التمثيل الدبلوماسى .. كل ذلك قد شكل المناخ الصحى للحركة اليسارية فى مصر . ويقول هنرى كوربيل فى هذا الصدد ، فى حواره السابق الذكر : « فقد كانت الظروف مهيأة

تماما للعمل .. وبهذا انتقلت الماركسية من الحلقات الضيقة والنوادى الى العمل الجماهيرى .. والى التنظيم العلنى الجاد .. ومما يدل على تسامح الحلفاء مع الشيوعية ، أثناء الحرب ان الجامعة الامريكية بالقاهرة ، قد سمحت لشخص كبير ، كالدكتور محمود عزمى ، بتدريس كتاب ماركس الاكبر (رأس المال) فى احدى غرف دراستها .. فكنا نذهب مرة أو اثنين فى الاسبوع لنستمع الى الدكتور عزمى وهو يشرح لنا فى كتاب (رأس المال) .

واذا كان كوربيل قد استأثر باهتمامى فى هذه المذكرات اكثر من غيره ، فذلك لاهتمامه هو بربط السودان بالحركة الشيوعية .. واتصاله ببعض الشبان السودانيين والعمل على تعليمهم وتدريبهم ، حتى اصبحوا من أقوى الكوادر التى عملت لنشر المبادىء اليسارية ، سواء فى مصر أو فى السودان ، وبالطبع أول من يذكر هنا هو عبده دهب حسنين الذى ابلى بلاء حسنا فى هذا الميدان .. وهو اول من شاهدته من ابناء السودان يقوم بعرض المبادىء الاشتراكية فى المحيط السودانى ، منذ اوائل الاربعينات ، ليس بين العمال وحدهم ، بل بين الطلبة والمثقفين ، حتى فى الازهر كان له نشاط كبير ، كسب من ورائه الكثير من الطلبة ، واسس بينهم تنظيما يساريا قويا .

شعار الكفاح المشترك نقطة لقاء للاحزاب السودانية

ان اهتمام كوربيل الباكر ، بالسودان كان بمساعدة عبده دهب وصالح عرابى ، وإن ما وضعه بين اهداف حركة (التحرير الوطنى) من مبدأ ، بضرورة ربط كفاح الشعب السودانى بكفاح الشعب المصرى ، فى البند الثالث من ذلك التنظيم ، والذى عبر عنه (بالكفاح المشترك) ، كل ذلك هو الذى جعلنى أسلط عليه أضواء هذه المذكرات ، ولقد كان لهذا التعبير (الكفاح المشترك) اكبر

الاثر في تغيير الاسلوب السياسي للحركة الوطنية بالسودان اذ كانت تسير في خط واحد هو (وحدة وادي النيل) دون التفات لما كان يثور حولها من خلافات وتضارب في الآراء ، حتى كادت أن تتعرض الحركة كلها للفشل ، وتعطي الفرصة للاستعمار ، لاستغلال الانقسامات والانشقاق لتحقيق أغراضه .. فجاء تعبير (الكفاح المشترك) يحمل الينا شيئا جديدا ، لم نتبله في بادئ الأمر .. ولكننا كلما تطورت الخلافات بيننا كنا نلتفت اليه ونتبصر فيه ، حتى وجدنا فيه آخر الأمر نقطة الالتقاء التي تبلورت حولها آراء الاتجاهات المختلفة .. لأنها دعوة لتوحيد الكفاح لانهاء الاحتلال والاستعمار فقط ، دون التطرق لما ستكون عليه العلاقة بين مصر والسودان ولم يكن في وسع أي حزب أن يرفض هذا المبدأ ، لان الخلافات اصلا ، كانت حول مستقبل العلاقات بين السودان ومصر ، وليس حول انهاء الاحتلال والاستعمار .. ولو امعنا النظر لوجدنا اثر الافكار اليسارية ، حتى في قرارات تقرير المصير التي اتخذها مؤتمر الخريجين ، سواء الاولى منها أو الاخيرة ، التي قبلتها كل الاحزاب ، وتكون بمقتضاها وفد السودان الذي سافر لمصر ١٩٤٦ ، ليلحق بالمفاوضات التي دارت بين حكومة صدقي باشا ، والوفد البريطاني برئاسة سير استانس جيت في الاسكندرية .

فاذا ما قارنا صيغة الاندماج كما كان يقول بها السيد محمد نور الدين ، وبين صيغة قرارات المؤتمر حينما اصبحت (حكومة سودانية ديمقراطية حرة في اتحاد مع مصر .. الخ) لوضح لنا التأثر بالاوضاع في الاتحاد السوفيتي ، وخاصة عندما نقف عند كلمتي ديمقراطية وحرة ، فالديمقراطية اصبحت سمة غالية لانظمة الحكم واطارا لا بد منه .. والحكومة الحرة في اتحاد مع مصر قد

كانت اشبه بالجمهوريات الحرة فى الاتحاد السوفيتى ، كذلك نرى الطلبة السودانيين بمصر قد التقت كلمتهم عند الكفاح المشترك بين شعبي السودان ومصر ، لانهاء الاحتلال واخراج الاستعمار من وادى النيل ، ثم يجلس الشعبان بعد ذلك لاختيار نوع العلاقة بينهما .. وقد رفعوا بذلك مذكرة للجهات المسئولة ورئيس هيئة المفاوضات المصرى ووفد السودان والنحاس باشا زعيم المعارضة ، فمهروها بدمائهم واسموها (وثيقة الدماء) كما اشرت سابقا ، وجاءت فيها الفقرة التالية : (ان طلبهم الاول هو جلاء الانجليز عن وادى النيل ، مصره وسودانه ، جلاءا تاما ، عسكريا وسياسيا واقتصاديا .. وبعد تحقيق الجلاء التام ، فللمصريين والسودانيين وحدهم ان يقرروا نوع العلاقة بين شطرى الوادى المستقل وفق مشيئة اهله ..) .

واذا عدنا لمصر لنرصد أثر اليسارية فى تفكير بعض الشخصيات الهامة ، يمكنني ان آخذ شخصية محمد نجيب أول رئيس لاول جمهورية فى مصر ، لانه اقرب المصريين لنا واكثرهم اهتماما بالسودان واتخاذه اساسا لكل عمل سياسى يقدم عليه أو يشارك فيه .

يقول هنرى كورييل فى حواره السابق : « وقد اتصلنا فى ح . م . بعدد من الضباط ، منهم محمد نجيب عن طريق احد اعضائنا النوبيين (صالح عرابى) فقد اتصل بى أى كورييل صالح عرابى وقال ان هنالك ضابطا من اصل سودانى يريد ان يعرف ما هو موقف الشيوعيين من السودان . وكان هذا السؤال فرصة لبحث الموضوع ، واعددنا تقريرا مفصلا عن وجهة نظرنا فى المشكلة ، واعلنا فيه اننا نوقع شعار (الكفاح المشترك) مع الشعب السودانى ضد العدو المشترك ، فى مواجهة نيل واحد ملك واحد — وبعد اتصالات عديدة مع محمد نجيب شعرنا انه لم يكن له تكوين سياسى

محدد ، ولكنه كان يواصل اتصالاته بالوادي النوبية — وبما ان النوبيين هم اكثر الفئات فقرا — فانه كان قريبا من المفهوم الشعبي) .

هذا ما قاله كورييل عن محمد نجيب .. ولكني استطيع ان اقول من واقع معايشتي لنجيب ، ان تفكيره في مشكلة السودان يختلف فعلا عن تفكير زعماء مصر وساستها . . فهو بالرغم من انه كان كأى مصرى يرى ضرورة اتحاد مصر والسودان ، الا انه لم يكن يتطرف في نوعية هذا الاتحاد ، ولا يتشبث باقامته فورا . أو يقدمه على انهاء الاحتلال البريطاني عن وادى النيل ، كما نراه يخفف في بعض الأحيان ويقول للسودانيين : (اتحدوا واو ضدنا) أي ولو ضد مصر . وكانت تصرفاته الاجتماعية وعلاقاته بمختلف السودانيين متساوية ، وكان يعمل دائما على التوفيق بين الأندية والهيئات السودانية بمصر . وكما ذكرت سابقا هو اول من احتفى بالامام عبد الرحمن المهدى في منزله بجاردن سيتي في الثلاثينات ، بمأدبة كبيرة حضرها اكابر المصريين والسودانيين . والامام عبد الرحمن هو رأس الحركة الاستقلالية في السودان كما نعلم .. وهكذا كان شأن نجيب مع كبار السودانيين الذين يزورون مصر ، يجمعهم دائما في داره وهم من مختلف الاتجاهات .

ومن أقيم ما تحتفظ به ذاكرتي من تصرفات محمد نجيب السياسية ، برقية لهيئة المفاوضات المصرية ، برئاسة صدقي باشا في ١٩٤٦ ، والتي كانت تدور في الاسكندرية .

محمد نجيب أول مصرى يقبل استقلال السودان

جاءني نجيب ، في احدى الليالي ، ببيت السودان بالدقي — وكان قائد فرقة الصحراء الشرقية برتبة قائمقام — وكان على خلاف حاد مع السراى الملكية — فقال لى : « انى قادم سرا من الصحراء .. وقدم لى صورة البرقية التى ارسلها لرئيس هيئة المفاوضات .. واهم

فقرة بقيت في ذاكرتي من تلك البرقية ، هي قوله : اعطوهم الاستقلال (يقصد السودانيين) فلا بد يوما ان يلتقي الشقيقان .. وذلك بعد ان تعثرت المفاوضات كالمعتاد بسبب السودان .. وطلب مني نجيب ان انشر البرقية في الاهرام وفي صحف السودان ، وكان الامضاء هو (الآنسة شقيقة القائمقام محمد نجيب) وذلك لان القانون لا يسمح لضابط مصري ان يقوم بمثل هذا العمل السياسي .. وصادف ان كان الاستاذ اسماعيل العتباني ، صاحب جريدة الرأي العام ورئيس تحريرها في زيارة للقاهرة فاعطيته نسخة من تلك البرقية ، كما اعطيت نسخة اخرى للمرحوم الكباشي خلف الله خالد الذي اصبح وزير الدفاع في أول حكومة وطنية لنشرها في جريدة صوت السودان بالخرطوم .

ولا شك في أن نجيب ، باتجاهه هذا ، قد سبق كل زعماء مصر للتحرر من صيغة وحدة وادي النيل ، كشرط ضروري لنجاح المفاوضات مع البريطانيين .. وليس معنى هذا انه كان يقبل تجزئة القضية .. كلا .. بل انه كان يتمسك بالاستقلال للوادي كله وخروج الاستعمار من الشطرين معا وفي وقت واحد ، وذلك لان البريطانيين كانوا يعمدون احيانا للتلويح بانهم لا مانع عندهم من استقلال السودان .. معتمدين على رفض المصريين القاطع لذلك الاستقلال .. فاراد نجيب ان يسقط هذا الكارت من ايديهم . والمهم هو جلاؤهم عن شطري وادي النيل اولا .. وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ واصبح محمد نجيب رئيسا للجمهورية رأينا كيف تغير موقف الحكومة المصرية من حل مشكلة السودان .. لقد كان حجر الزاوية في الموقف كله .

هو قبول مصر مبدأ (تقرير المصير) ، أي

تمكين الشعب السودانى من تقرير مصيره بنفسه ، بواسطة انتخابات حرة ، توفر لها جميع الضمانات .. وهو امر جديد ، ان تقبل مصر لاول مرة وضع مستقبل السودان فى كفة القدر .. ولكنها العقلية الجديدة المتحررة من تزمت الماضى ..

ولا استطيع ان انسب هذا التغيير الذى حدث لاول مرة فى تاريخ مصر السياسى لمحمد نجيب وحده .. فان اتصالات اليساريين بصلاح سالم وغيره من الضباط لا بد أن يكون لها أثرها فى تفكيرهم السياسى .. ولكنى اعتقد ان محمد نجيب قد تأثر ومنذ وقت باكر بالتفكير اليسارى فيما يتعلق بمشكلة السودان ، وخاصة بشعارهم الذى وضعوه فى ذلك الوقت وهو (الكفاح المشترك) .

وأما الحركة اليسارية فى محيط السودانيين بالقاهرة ، فقد اشرت الى ان عبده دهب كان أول داعية للماركسية ، وقد جعل من داره بالقرب من ميدان عابدين قبلة للشباب السودانيين يؤمونها فى كل وقت .. ويجد بعضهم فيها المساعدات ، وقد يجد الوجبات الغذائية ايضا والمأوى احيانا .

عبده دهب

وكان عبده فى كل ذلك متعاونا مع كورييل ومعتمدا عليه ، وكان عبده يقدم كورييل للسودانيين ويقدمهم له .. ويجمعه بالشخصيات السودانية ، كلما قدم زوار منهم الى القاهرة .. كما اتاح الفرص لكورييل لاجراء بعض اللقاءات مع وفد السودان فى ١٩٤٦ واذكر انني حضرت بعضها ، وبصفة خاصة ذلك اللقاء الذى تم فى منزل كورييل بمصر الجديدة وحضره الرئيس الازهرى ويحيى الفضلى وبعض اعضاء وفد السودان ..

واكرر انني لا اكتب تاريخا كما قلت سابقا ، وانما اسجل فقط انطباعاتى عن نشاط عبده دهب ، ولا ابالغ اذا قلت انه قدم

للحركة الوطنية السودانية بمصر ولنشاطها من الخدمات ما جعله احد الروافد الهامة .. وتشهد بذلك جريدة (حرية الشعوب) ثم من بعدها (مجلة امدرمان) اللتان كانتا تحت مسؤولية عبده ، وزيادة على انه جعل من صفحات كل منها منابر لقضايا السودان ومشاكله .. فقد جعل أيضا من دار كل منهما منتدى تعقد فيه الحلقات والاجتماعات والمؤتمرات الخاصة بالحركة الوطنية .. فقد كانتا مفتوحتين على الدوام لمزاولة النشاط الوطني .. وكما كنا نتخذ من دار مجلة السودان لعلي البرير مكانا لعقد الاجتماعات التحضيرية قبيل حضور وفد السودان للقاهرة في ١٩٤٦ ، كذلك كانت امدرمان تتيح دارها لعقد تلك الاجتماعات وقد كانت بغرض توحيد صفوف السودانيين وتوحيد كلمتهم فيما يتعلق بمجيء الوفد الى القاهرة .. حتى تم لنا ذلك واصدرنا نداءا موحدا للشعب السوداني بضرورة توحيد كلمة الأحزاب السودانية ، وألا يحضر الى مصر الا وفد موحد من جميع الاحزاب ولا زالت اوراقي القديمة تحتفظ بمسودة هذا النداء ، وكذلك ببعض المحاضر لتلك الاجتماعات الوطنية، كما ان عبده كان يعمل من وقت لآخر على تحريك افكار الشبان السودانيين بمصر ، بما يقوم به من توجيه بعض الاسئلة اليهم مكتوبة وصادرة من جريدة حرية الشعوب.. كما تدل عليه بعض اوراقي القديمة ، ومن بينها واحد بعنوان :

(استفتاء للهيئات السودانية وبعض زعماء الطلبة بمصر) :

١ — ما هي الاهداف القومية التي تسعون اليها ؟

٢ — لماذا لا تتعاون هيئتكم مع غيرها من الهيئات السودانية بمصر ؟

٣ — ماهي وسيلتكم لتحقيق اهدافكم ؟

٤ — ما رأيكم في توحيد السودانيين بمصر ، وماهي الوسائل التي تقترحونها لذلك ؟

وكانت الاسئلة في صدر الخطاب الآتي المرسل لكل الهيئات والافراد من جريدة حرية الشعوب :

تحية واحتراما ، وبعد فيشرف (جريدة حرية الشعوب) ان ترسل لكم هذه الاسئلة للاجابة عليها بالصراحة التامة لخدمة المجتمع السوداني ، ونرجو ان يصلنا قبل يوم الثلاثاء ١٦,١٢,١٩٤١م

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

عبده دهب حسنين — ٢٨ شارع المدابغ بمصر

وعندما جاء وقت العمل في داخل السودان رأينا عبده دهب يسافر الى الخرطوم ليلتقي باعضاء التنظيم اليساري الذي سمعوا عنه في القاهرة أنه قد تكون في الخرطوم . ونترك الآن عبده دهب يروى لنا وقائع رحلته في السودان بنفسه. (نوردها في الطبعة الثانية انشاء الله)

حرب فلسطين ١٩٤٨

عندما اهتز ضمير العالم العربي كله لغزو اليهود لفلسطين ، كان لا بد للشعب السوداني من التحرك ، لمشاركة اشقائه فيما كانوا بسبيله من جهود للتعبئة العامة واعداد المتطوعين والجيوش ، للزحف على فلسطين وانقاذها من براثن الصهيونية .

دور مؤتمر الخريجين

فاهتم مؤتمر الخريجين بأمر التطوع وجمع الاكتتاب .. وتكونت لجنة من كبار أعضائه وبعض رجالات العاصمة والطوائف والهيئات المختلفة ، فكانت لجنة قومية شاملة ، ارتفعت فيها الوطنية والقومية العربية فوق الاعتبارات الحزبية والطائفية ، وجعلتهم جميعا يتناسون خلافاتهم ويتجهون بقلوبهم خالصة لنصرة فلسطين ، ودفاعا عن العروبة التي باتت تحت رحمة الصهاينة .. وفور انتهاء تكوين اللجنة ، رفع أمرها الى الجامعة العربية ، وكان المرحوم خضر حمد في

ذلك الوقت يعمل بالجامعة العربية بالقاهرة ، فذهب بنفسه ، كما جاء فى مذكراته ، الى امينها العام عبد الرحمن عزام ، ليقف على رأى الجامعة فى الأمر ، ثم يذهب به الى السودان لابلاغه للمؤتمر ، وانصرفت اللجنة التى تكونت فى السودان الى ممارسة نشاطها ، سواء فى جمع الاكتتابات ، أو فى تنظيم حركة التطوع فى كل انحاء البلاد ..

عبدالرحمن عزام مشاركة رمزية فقط

وقال خضر حمد انه وجد الرأى عند عزام باشا ، هو أن يكون تطوع السودانيين فى حدود ضيقة كرمز للمشاركة فى معركة فلسطين ، وأن يقتصر الجهد على جمع الاكتتابات ، لأن السودان نفسه فى حاجة الى أبنائه ، لما هو مقبل عليه من مواجهة مع الاستعمار .. وذكر خضر ان اللواء محمد صالح حرب باشا كان يشارك عزام هذا الرأى .

رأى محمد نجيب حرب عصابات

ومن جهة أخرى ، أعرف أنا أن رأى محمد نجيب فى المعركة كلها كان مخالفا لما حدث .. اذ كان يرى ألا تدخل الجيوش العربية فى حرب نظامية مع اليهود ، بل كان ينبغى أن يعتمد العرب على حرب العصابات ، كما فعل اليهود قبل أن يكون لهم جيش نظامى مكتمل الاعداد .. وقد لعبت عصابات الأشتبرن ، والارقون زفاى ليومى ، والهاجناه دورها الخطير ، كما نعلم وحققت لليهود كل ما وصلوا اليه من نصر على العرب .

ومحمد نجيب كان خبيراً بدخيلة الجيوش العربية وضعفها وعدم اعدادها للحرب ، لا من جهة الأسلحة ولا من الناحية النفسية ، لأنها فى الواقع كانت مهيأة دائماً للمظاهر ، كالتشريفات والاحتفالات واستعراضاتها البعيدة كل البعد عن خوض الحرب . . ولكن علا الحماس وتدفقت العواطف ، واندفعت الجيوش العربية بالروح العنترية إلى الحرب ،

دون تبصر بواقعها ودون مقارنة بين امكاناتها وامكانات العدو ، ودون ادراك لحقيقة من كانوا يقفون خلف الصهاينة ويقدمون لهم كل عون.

وفي رأى نجيب اننا لو اعتمدنا على حرب العصابات ، لما كانت هزيمتنا بتلك الصورة المؤلمة ، ولكان موقفنا افضل بكثير مما حدث ، وكانت الحرب ستطول حتماً وتعطى الفرصة لتسوية عادلة . . ولكن الأمور قد سارت على غير ما يهوى نجيب او عبدالرحمن عزام او صالح حرب ، الذى كان يرى أيضاً ان يكون تحرير فلسطين ، أولا بيد أبنائها ، على ان تقدم لهم البلاد العربية العون والمؤازرة .

أما فى مؤتمر الخريجين ، فقد وجدت لجنة التوعية نفسها امام رغبة عارمة من آلاف المتطوعين الذين هبوا من كل مكان للذود عن حياض العروبة والأسلام فى فلسطين . . فجاءوا يعلنون تأهبهم للتضحية والفداء ، فكان لا بد للجنة من المضى فى تسجيل اسمائهم واعدادهم ليكونوا على أهبة الأستعداد اذا ما دعت الحال .

ويقول خضر حمد فى مذكراته ما يأتى : وكانت فكرة التطوع والجهاد فى سبيل الله والوطن ، تملأ نفوس الكثيرين من المواطنين من مختلف القبائل ، وكانوا كلهم يرون أن حرب فلسطين حرب دينية لا جزاء للشهيد فيها إلا الجنة ، فاندفعوا راغبين ، حتى بلغ عددهم السبعة آلاف رجل ، وسارت أيضاً حركة التبرعات بصورة مشرفه على يد اللجنة التى تكونت بأمدرمان .

كما ان هناك هيئات أخرى اهتمت بجمع التبرعات كالأخوان المسلمين بالقاهرة ، الذين أرسلوا الأستاذ جمال الدين السنهورى لهذا الغرض ، فقام بجولة نشطة في العاصمة والجزيرة وبعض الأقاليم . . وكان موفقا الى حد بعيد .

وليس هذا مجال التحدث عن الأخوان المسلمين ودورهم العظيم فى حرب فلسطين ، وجنودهم الذين كانوا يمثلون اكبر حجم مع المتطوعين والتدريب العسكرى العالى ، الذى مكنهم من احراز البطولات ، التى تحدثت عنها جميع الأوساط فى ذلك الزمان .

وكان مؤتمر الخريجين يود ان يضطلع بمهمة اعداد المتطوعين وجمع الأكتتابات بواسطة اللجنة القومية ، وهو امر طبيعى ، لأن المؤتمر هو الممثل للشعب السودانى ولأن اللجنة التى كونها كـــانت ممثلة لجميع الإتجاهات السياسية والإجتماعية . . كما انه قام بأبلاغ أمانة الجامعة العربية بكل ما تم .

حامد صالح ذهب الى مصر وتولى المهمة بدلا عن المؤتمر

ولكن الأمور لم تأخذ مجراها الطبيعى . . فقد جاء فى مذكرات خضر حمد ما يفيد بأن القائمقام حامد بك صالح الملك ذهب إلى مصر وأتصل بحيدر باشا وزير الحربية آنذاك ، فأعطاه الأخير تكليفــاً بالقيام بمهمة إعداد المتطوعين السودانيين وإحضارهم لمصر ، وفعلا باشر حامد بك مهمته منفرداً مما كان محل دهشة رجال المؤتمر . . ولكنهم لم يثيروا أى غبار فى طريق الحركة ، لأن الموقف كان أكبر من تلك الإعتبارات . . فمضت اللجنة فى تسجيل المتطوعين وجمع الإكتتابات . . . . وعاد حامد بك صالح من مصر ليقـــوم وحده بالمهمة ، فأختـــار من المتطوعين ٢٥٠ رجلا معظمهم (من الجنود المسرحين الذين إشتركوا فى الحرب العالمية الثانية) كما قال خضر حمد . . وقال أيضاً : (وجاء بهم إلى مصر ، واستعرضهم وزير الحربية فى معسكر هاكستب ، وخطب فيهم شاكراً ومعبراً لهم عن إعجابه بنظامهم والدوافع التى حملتهم على مشاركة أخوانهم المصريين القتال . وكلف حيدر باشا حامد صالح بك فى الحـــال ، بالرجوع إلى السودان لتجنيد ألف متطوع آخرين) .

وكانت ترد الينا أخبار معركة فلسطين فى تلك الآيام ، ونحن فى القاهرة وكنا نستمع بنوع خاص إلى أخبار المتطوعين السودانيين وما كانوا يقومون من بطولات وتضحيات ، كانت محل الفخر والإعتزاز . . ولكنها مع الأسف كانت تصلنا بوسائل خاصة ، وعن طريق الأفراد ، ولم تظهر للناس كأمجاد بأسم السودان أو إسم كتيبة سودانية ، الشيء الذى كان محل إستياء شديد لدى أولئك المتطوعين السودانيين ، وسبب لهم حالة نفسية غير ملائمة لما كانوا فيه من بذل وتضحيات .

المتطوعون السودانيون فى المعركة

وقد كنا نسمع عن مشاكل بين متطوعينا فى معركة فلسطين ، ولكنى فى تلك الأيام كنت منهمكاً فى تأثيث بيوت السودان ، وتنظيمها ، فلم أقف على تفاصيل تلك المشاكل . . وقد وجدت فى مذكرات خضر حمد أن السبب فى ضياع أمجاد السودانيين فى ميدان حرب فلسطين ، هو توزيعهم على الفرق المصرية ، بدل خوضهم المعركة كفرقة سودانية مستقلة لها قيادتها الخاصة . ولما كثرت الشكوى ، ذهب خضر حمد إلى حامد بك صالح ليستطلعه الأمر ، فقال له حامد بك أنه بعد التشاور مع المواوى باشا ، قائد حملة فلسطين خيره المواوى بين طريقتين : أما أن يوزع المتطوعين السودانيين على الفرق المصرية ، وأما أن يقودها هو بنفسه فى الميدان كفرقة سودانية . . . فأختار حامد بك توزيع المتطوعين على الفرق المصرية . . وإتخذ له مكتباً بفندق الكونتنينتال بالقاهرة لإدارة شئون المتطوعين . . وقد نتجت عن ذلك مشاكل ومضاعفات كادت تؤدى إلى ثورة بين المتطوعين ، ودفعت بهم إلى ترك الميدان للعودة إلى السودان .

كان السودانيون غير راضين عن وضعهم فى الميدان

وأهم تلك المشاكل هى شعورهم بالضياع فى غمار المعركة .

جهودهم وتضحياتهم وإستشهاد الكثيرين منهم ، كلها لا تنسب اليهم ولا للسودان ، كما أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ما تم فى أمر شهدائهم ، ولا الجرحى ولا المفقودين . . أنهم مهملون إهمالا تاماً .

شعورهم بالضياع

ومن مشاكلهم أيضاً المعاملة غير المفهومة التى كانوا يعاملون بها من قادة الفرق المصرية المنتمين لها . . فهم فى الميدان يعاملون كجنود رسميين يعرفون القوانين والنظام ، ولهم خبرة وتدريب . . ويحاسبون وفقاً لذلك . . . وفى الأوقات العادية يعاملون على أنهم متطوعون لا تعطى لهم الحقوق التى تعطى للجندى المصرى . . فحزت هذه التفرقة فى نفوسهم . . وهنا أترك المجال لمذكرات خضر حمد ، لتوفى الموضوع حقه فتقول : « لهذه الأسباب ولأسباب أخرى ذكرها المتطوعون عندما عادوا من الميدان ، يريدون الرجوع إلى السودان . . فذهبت اليهم فى هاكسبت لأعرف الأسباب التى دعتهم إلى العودة ، وقد بدأت المعركة الحاسمة بقيادة اللواء فؤاد صادق ؟ كانوا حانقين على رئآستهم ، وكانوا يقولون : إن حامد صالح بك لم يزرهم فى الميدان إلا مرة ، وقاموا بتحيته وهو داخل السيارة . . وانهم أهملوا ،وأعمالهم لم تظهر وأن من إستشهدوا منهم لا يعرفون ماذا تم فى أمرهم ، وكذلك الجرحى والمفقودين ويقول خضر : « فطمأنتهم وكنت على علم بكل ما قامت به الجامعة نحو الأسرى والمفقودين والجرحى ، ومعاملة أسر الذين أستشهدوا وقلت لهم أن الجامعة لم تهملهم ، وذكرت لهم أسماء أخوانهم الذين جرحوا وماذا كان من أمرهم ، وكيف عولجوا . . ووضحت لهم كل شيء ، حتى رضوا تماماً وعرفوا الحقائق . . »

والواقع أن خضر حمد ، حين قام بتلك الجهود ، إنما كان مدفوعاً بغيرة وطنية أثارها عزام باشا حين استنكر عودة المتطوعين

السودانيين من الميدان ، وقال عزام (أنه عامل السودانيين معاملة أحب الناس إلى قلبه ، هم والليبيون ، كيف عادوا وظهروا بأنهم مرتزقة لا غير) . . وهنا طلب خضر (أن يفسح له المجال لمعرفة الحقيقة (فكتب عزام باشا للادارة العسكرية) الخاصة بحرب فلسطين وطلب منهم إطلاع خضر (على كل شيء حتى الأسرار المالية) وذهب خضر وقابل رئيس تلك الإدارة ، وعرف منه كل شيء بالتفصيل . . ثم ذهب إلى حامد بك في الكونتينتال ، حيث كان مكتبه ، وأخذ منه كل ما أراد من معلومات . . كل ذلك قبل أن يذهب لمقابلة المتطوعين الذين عادوا من الميدان في هاكستب . . ولذلك كان خضر مزوداً بكل ما يحتاج اليه من معلومات ، تمكن بها من إقناعهم بسلامة موقف جامعة الدول العربية حيالهم من جميع الوجوه فتم له ما أراد على الوجه الذى أشار اليه . . وقد أثنى خضر على مجهود الأستاذ عبد الله شوقى الأسد الذى ذهب مع المتطوعين كأمام وواعظ لهم (ولكنه في الحقيقة كان أكثر من ذلك) فكثيراً ما كان يتصدى لمشاكلهم ويعمل على حلها . . وفى الأزمة الأخيرة التى أشار اليها خضر حمد ، كان دور شوقى الأسد كبيراً فى تهدئتهم والتغلب على التمرد الذى إستحوذ على نفوسهم . .

ومن الجدير بالذكر ، التنويه بالدور العظيم الذى قام به اللواء محمد نجيب نحو المتطوعين السودانيين . . . . فقد كان بشعوره الوطنى الحساس يكاد يعتبرهم وكأنهم مسئوليته الخاصة ، وكثيرا ما تصدى لبعض مشاكلهم سواء فى الميدان أو بعد أن انتهت الحرب حيث ساعد خضر حمد على تسوية أمور (من أصيبوا أو استشهدوا أو أسروا . . (كما تعاون نجيب مع خضر بعد جهود مضنية) فى تعيين بعض ضباط الحملة فى الجيش المصرى) .

ومن جهة أخرى ، فلا يسعنى إلا أن أشارك الأخ خضر حمـــد بسؤاله وإستغرابه . . كيف أمكن لحامد بك صالح أن يترك جنوده الذين أحضرهم بنفسه ، ليذهبوا إلى الميدان وحدهم ، ويبقى هو فى القاهرة ، طوال فترة الحرب ؟؟؟ وكيف تطمئن نفسه للبعد عنهم ، وهم يواجهون الموت والإصابات والأسر ؟؟؟ أن الإنسان ليلتمـــس العذر لأولئك الجنود الغرباء فى حنقهم على حامد بك صالح وأنحائهم اللائمة عليه ..

وزيادة فى التكريم فأنى أعيد هنا ذكر أسماء الضباط الأربعـــة الذين استشهدوا فى حرب فلسطين وهم كما أوردهم خضر حمد :

١ — بشرى محمد خير　　فى موقعة الكبيبة
٢ — على رمضـــان　　فى موقعة بيت دارس
٣ — على محجـــوب　　فى موقعة بيت دارس (كـــان) (مفقـــوداً)
٤ — بشير باديـــه　　فى موقعة عراق المنســـية

كما أعيد ذكر أسماء من كانوا بالأسر وهـــم :

١ — الصاغ زاهر سرور السادات　　أسر فى بيت دارس
٢ — أمباشى آدم أبكر　　أسر فى بيت دارس
٣ — أمباشى سيف الدين أحمد حســـن　　أسر فى بيت دارس
٤ — أمباشى الشيخ جلال سعد　　أسر فى بيت عبديس
٥ — أمباشى رمضان عبد الله　　أسر فى بيت دارس
٦ — أمباشى جبريل إدريس　　أسر فى بيت دارس
٧ — قائد فصيلة سيد أحمد محمد أحمـــد　　أسر فى جبهة رفح

وأخيراً لعله مما يكمل الصورة التي أود أن أعطيها هنا لإنطباعاتي عن فترة حرب فلسطين ، أن أذكر إحدى القصص الطريفة المبسلية ، قصة أحد الدراويش أو المتدروشين . . الذي جاء إلى القاهرة ، بهوية شيخ صالح ، من أصحاب البركات الذين ينتفع الناس بجاههم عند الله . . واتخذ الشيخ له داراً بأمبابة ، مدينة العمال ، الواقعة غرب النيل في الطرف الشمالي الغربي للقاهرة .

وجلس هذا الشيخ في داره لقضاء الحاجات وشفاء المرضي ببركاته ، وكان له دعاة ينشرون على الناس أخبار صلاحه ويتحدثون عن ما تم على يديه من كرامات . . حتى إشتهر وأصبحت لـه صلات ودية ببعض كبار المصريين ، ومنهم من كانوا في السلطة . . كان يذهب اليهم للتوسط عندهم لقضاء حاجات زواره . .

المهم أن تلك العلاقات الودية مع الكبار كان أصحابها يتبسطون معه فكان يدور أحياناً بينهم الحديث عن حرب فلسطين أثناء تواجد الشيخ معهم ، دون أن يلتفتوا لوجوده ، ولما كان الشيخ يسمع مـن السودانيين عن جهود السودان في إرسال المتطوعين لحرب فلسطين ، فقد أغرته أحاديث أصحابه الباشوات وحركت فيه نزعته الانتفاعية ، فقال في نفسه ، لم لا أدلي بدلوي في مسألة حرب فلسطين ، وأقول لهؤلاء الباشوات إنى سأقوم بأحضار متطوعين لحرب فلسطين مـن أتباعي الكثيرين بالسودان . . فأحصل من وراء ذلك على المساعدات المالية والإمدادات الأخرى ، التي يحصل عليها من يقومون بذلك العمل . . . وبالرغم من مسحة السذاجة التي كانت تعلو وجه الشيخ فأنه لم يكن يخلو من الدهاء ، دهاء أولاد البلد . . وتحت مظلة الصلاح ، الذي كانت توحي به لحيته المستديرة وصباحة وجهه ، إستطاع أن يقنع بعض أصدقائه من كبار المصريين ، بأنه يستطيع أن يساهم في

مد معركة فلسطين بالمتطوعين . . . وما هى إلا أيام ، حتى رأينا خياماً قد نصبت فى بعض الأماكن الخالية من مدينة أمبابة ، وأقام بها رجال يشبهون الجنود فى أزيائهم . . يقومون بتدريبات عسكرية على أيدى بعض الخبراء . . واستطاع الشيخ أن يجلب لهم المساعدات والملابس والأغذية . . الخ

ولكنى ، إذا لم تخنى الذاكرة ، فانى لا أذكر أن ذلك المعسكر الأمبابى قد وصل إلى شىء فيما يتعلق بالإشتراك فى حرب فلسطين ، بل أنهم قد أنفض سامرهم قبل أن يصلوا ميدان المعركة . ولا أعتقد أن شيخهم كان جاداً فى إرسالهم إلى الميدان . . كان الشيخ ساذجاً فعلا ولكنه كما قلت لا يخلو من الدهاء الذى يجعله يبالغ فى إصطناع السذاجة والدروشة . . وقد سمعته مرة يتحدث فى التلفون مع أحد المسئولين المصريين ، فذهلت للطريقة العجيبة التى كان يتحدث بها عجبت لصوته وكيفية تمطيطه وألفاظه الموغلة فى عامية الأقاليم السودانية مما جعلنى أستهجنه كل الإستهجان ، ولا أعتقد أن المصرى الذى كان يحدثه قد فهم شيئاً من كلام الشيخ ، كما أنى لا أعتقد أن سودانياً مهما كانت درجة إنجذابه ودروشته ، يتكلم مع غير السودانيين بتلك اللهجة التى هى أقرب إلى لغة عجائز النساء فى أقاليم السودان النائية . . ومن ألطف ما أذكره من قصص الشيخ فى تلك الأيام أيضاً أنه كان مرة فى لقاء مع النقراشى باشا ، رئيس الحكومة حينذاك ، ليتحدث معه فى مسألة المتطوعين ، الذين أعدهم ويمكن له أن يحضرهم من السودان للإشتراك فى حرب فلسطين . . وما يحتاجه من عون مادى للقيام بالمهمة . فسأله النقراشى : كم أتباعك فى السودان يا مولانا الشيخ ، فقال الشيخ : أتباعى أظنهم عشرين مليون يا سعادة الباشا . فقال النقراشى باللهجة المصرية : (أمال

سكان السودان كله كم يا شيخ ؟ (فرد الشيخ باللهجة الخاصة (والله يا سعادة الباشا لا أقولك ٦٠ ولا ٧٠ ألف . .)

فأدرك النقراشي ما عليه الرجل من جهل وعدم جدية ، فضغط على الجرس فجاء الأستاذ حافظ جلال مدير مكتب النقراشي ، فقال له الباشا ، بأشارة مفهومة بينهما : خذ يا حافظ الشيخ وتفاهم معه .

وخرجت القصة فى اليوم التالى على أيدى الرواة الذين لم يبخلوا عليها بالرتوش و (المحسنات البديعية) أن صح التعبير . . وآخر ما أذكره من عجائب الشيخ الموغل فى العامية والجهل ، أنه تجرأ وأخرج كتاباً عن السودان بأسمه . . فقد أطمعه تلطف الكبار المتصل بهم وإقتناعهم بصلاحه ، أن يحاول أيضاً إقناعهم بأنه أكثر من رجل صالح ، فهو قادر على العمل أيضاً فى ميادين الوطنية والسياسة . . وكما فعل فى إحضار المتطوعين لحرب فلسطين . . هو أيضاً قادر على تأليف الكتب عن السودان وفعلا قام بطبع كتابه الذى لا أذكر إسمه حوالى ١٩٤٨ ، ولكن الناس قد تحدثوا عنه فى تلك الأيام ، وتندروا ما شاء لهم التندر . . وقالوا أن أحد طلبة بيت السودان من كلية الحقوق هو الذى صاغ مواد الكتاب وقام بالجهود الخاصة بالطبع . . ولم يتورع الشيخ فى إصدار الكتاب بأسمه ، أى والله بأسمه ، غير مدرك لخطورة العمل الذى أقدم عليه . . فخرج كتابه يحمل عوامل فنائه بين دفتيه . . فلم يكن له أى رواج بالطبع ولا تشرف بأخذ مكان له فى المكتبات كغيره من الكتب . . ولله فى خلقه شئون . .

ولكن بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ تبددت أحلام الشيخ وإضطربت حياة الدعة والدجل التى إستمراها . . فقد فطن لأمره قادة الثورة، فزجروه وما زالوا به يضايقونه، مرة بالإعتقال ومرة بالتهديد ، حتى غاب عن مجتمع القاهرة ثم غاب عن أذهاننا بعد ذلك مرة واحدة ، لأن الأحداث التى تتابعت فيما بعد كانت أكبر من أن تبقى مكاناً لقصص ذلك الدجال .

جماعة الطلبة العرب

وفي عامي ٤١ ، ١٩٤٢ ، تجمعت في كلية الآداب بالقاهرة ، أعداد من أبناء البلاد العربية . . سوريا ولبنان والعراق والأردن السعودية واليمن ثم ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية ومصر والسودان .

وكانت الوحدة العربية شعاراً له سحر وسلطان على نفوس الشبان العرب يرفعونه عالياً في كل محافل الرأي العام ،وتوليه الصحافة إهتماماً كبيراً ، ويقود الكتابة فيه كبار الأدباء وقادة الفكر والقلم ، سواء في مصر أو غيرها من البلاد العربية كالعراق وسوريا ولبنان . . . .

بجانب العمالقة من أدباء مصر ، الذين داوموا على الكتابة في الوحدة العربية ، وخاصة على صفحات مجلتي الرسالة والثقافة وكانت تصلنا أسماء لامعة من العراق كالحصري وكميشيل عفلق وبعض زعماء حركة البعث ، وكعبد الرحمن الشاهبندر من سوريا ، وكقسطنطين زريق من لبنان وغيرهم ممن غابوا عن ذاكرتي .

العروبة بالمعنى الرحب

وكان الرأي العام ، في جملته ، قد إتجه في تعريف الوحدة العربية ، إلى قولة الدكتور - زكي مبارك : (العروبة لغة لا جنس)

كما أن الدكتور محمود عزمي كان يحرص على قولة : بلاد العربية (بدلا عن البلاد العربية) وكان المقصود بهذه التعبيرات وأمثالها توسيع معنى العروبة ، أو الوحدة العربية وإعطائها المرونة والرحابة ، التي تنأى بها عن المفهوم الضيق القائم على العرق والدم ، وأن تنطلق بها نحو آفاق اللغة والثقافة والعادات ، حتى تنضج الدعوة إلى العروبة وتصبح قادرة على إستيعاب تلك الأقليات ، التي

عدم التعصب لاستيعاب الاقليات

توجد فى معظم البلاد العربية ، ولكنها تنتمى إلى أصل غير عربى ، أو تتكلم بجانب العربية لغة أخرى خاصة بهم . . . ولكن أغلب تلك الأقليات قد إنصهرت فى العرب . . . لغتهم وطباعهم وأزيائهم ما أزال كثيراً من حواجز التعصب عند الفريقين . . غير أن الإستعمار كثيراً ما كان يعتمد على تلك النعرات التعصبية ، لإثارة تلك الأقليات ضد مواطنيهم (العرب ، ولإحداث الإنقسامات التى تفسح له مجال التدخل فى شئون البلاد المعنية والإبقاء على نفوذه فيها .

فالموارنة فى لبنان ، والأكراد فى العراق ، والأقباط فى مصر والبربر فى شمال إفريقيا ، وأفارقة جنوب السودان ، كلها كانت تعتبر عند الإستعمار نقاط إرتكاز ، يدير منها مؤامراته . . ودفعاً لهذه الذرايع ،وتعبيراً أيضاً عن الواقع الفعلى وهو تعزر وجود الدم العربى الخالص فى أى قطر عربى ، فقد صح شعار (العروبة لغة لاجنس) ، وكان معبراً عن معنى الوحدة كما أرادها جيل الثلاثينيات والأربعينات ، وفى العام الدراسى ٤١ ، ١٩٤٢ توافق الطلاب العرب بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول القاهرة الآن) على ضرورة إنشاء هيئة يرتكزون عليها ، لخدمة تلك الأغراض القومية فتكونت (جماعة الطلبة العرب) . . وكانت فكرة الجامعة العربية أيضاً لها رنين فى ذلك الوقت يستهوى الشبان ويدفعهم للعمل على تحقيقها . . ومن هنا جاء برنامج جماعة الطلبة العرب فى جملته عبارة عن تمهيد لقيام الجامعة العربية ، مبتدئاً بالعمل على التعريف بالبلاد العربية بواسطة أبنائها وخلق تعاون وثيق بينها .

تقول الفقرة الثانية من الأهداف الأساسية للجماعة الواردة ضمن برنامجها لعامى ٤١ ، ٤٢ (وربط ذلك التعاون ـ أى تعاون البلاد

العربية – بالجهود الفكرية التى يبذلها رجال الفكر فى الجامعة المصرية ورجال الفكر فى العالم العربى . . .) .

وتقول الفقرة الثالثة : (غاية هذا التعاون توحيد مناهج التفكير فى العالم العربى ، وخلق ثقافة عربية موحدة المثل ، تتمثل فى البلاد (العربية جميعاء).

وكان موسم محاضرات الجماعة ، دائماً حافلا بدعوات للفطاحل من المشتغلين بالقضية العربية . . فنجد مثلا بين المحاضرات العامة للموسم ٤١ – ٤٢ ما يعطى فكرة عن ذلك فى الفقرات ١ ، ٢ ، ٣ :

١ – عناصر الوحدة العربية للدكتور عبد الوهاب عزام .
٢ – التنظيم السياسى للشرق العربى بعد الحرب لمصطفى بك عامر .
٣ – خصائص الحضارة العربية للأستاذ عبد الرحمن بدوى .

كما نجد فى جانب آخر من نفس الموسم ، أسماء بعض كبار العلماء كالدكتور محمود عزمى والأستاذ محمد فريد أبو حديد ومحمد مظهر سعيد وأحمد أمين وغيرهم . . وكذلك نجد الدكتور طه حسين يتكلم عن مبادىء الجماعة فى مناسبة أخرى . . كما أن هناك محاضرات أخرى للتعريف بالبلاد العربية ، يقوم بها أعضاء الجماعة وكان نصيب السودان منها محاضرتين ، وكان لى شرف تقديمهما ، غير أنى لم أعثر على نصهما إلا بعض نقاط رئيسية كنت قد أعددتها عن إحداهما :

المحاضرة الأولى بعنوان (السودان فى الوقت الحاضر) .
المحاضرة الثانية بعنوان (مشكلات الدعوة العربية فى السودان)

وكان للجماعة لجنة للدعاية والإعلام لها نشاط وفير فى الأوساط العربية ليس فى القاهرة فقط ، وإنما فى جميع البلاد العربية مما أكسبها المؤيدين من قادة الفكر ورجال السياسة الذين كثيراً ما

توافدوا إلى مصر . فتغتنم جماعة الطلبة العرب الفرصة وتدعوهم للتحدث فى الوحدة العربية وفى قيام الجامعة العربية . .

وقد غاب عن الذاكرة ، كثير من الأسماء ، ولكنى لا أزال أذكر ذلك الزعيم السورى المجاهد عبد الرحمن الشهبندر الذى كثيراً ما هز مشاعرنا وهو يتحدث عن الوحدة العربية بحماسه الخطابى الأخاذ .

وجاء مرة إلى القاهرة أحد وزراء خارجية العراق اللامعين فى ذلك الوقت ١٩٤٦ ، حين دعاه نادى الإتحاد العربى للتحدث عن الوحدة وقيام الجامعة العربية،وذلك هو الدكتور فاضل الجمالى الذى أسمعنا حديث سياسى بارع ضليع . . (نص الحديث) فى كتيب صدر فى القاهرة فى ١٩٤٦ .

وكذلك كانت تصلنا بعض الأحاديث التى جادت بها قرائح بعض رواد الوحدة العربية ، أمثال ميشيل عفلق من العراق . . وكذلك كانت تردنا بعض الكتب من سوريا ولبنان مثل كتاب (دستور العرب القومى) و (الوعى القومى) لقسطنطين زريق .

وكنا نقرأ ما يصلنا بنهم شديد ، لكى نقف على حقائق الدعوة للوحدة العربية ونصبح قادرين على حمل رايتها . . والواقع أن النشاط الواسع النطاق الذى قامت به جماعة الطلبة العرب ، خلال النصف الأول من الأربعينات من أجل الدعوة العربية ، ليضع أعمال هذه الجماعة فى قمة الجهود غير الرسمية . . التى مهدت لقيام جامعة الدول العربية فى ١٩٤٥ . . . وقد كان الطلبة السودانيون فى جملتهم قليلى الإهتمام بالقضية العربية ، ولكن علاقاتى مع طلبة (بيت المغرب) كانت تجرنى إلى حضور الإجتماعات العربية ، وإجتماعات التمهيد لإنشاء جماعة الطلبة العرب ، وفى تلك

الإجتماعات تعرفت على اللبنانيين والسوريين والعراقيين . . ونشأت بيني وبينهم صداقة حميمة ، جعلتهم يلحون على في الإنتماء لجماعة الطلبة العرب ، بل وينتخبونني أميناً عاماً لها ، كما هو مبين في برنامجها العام ٤١ — ١٩٤٢ .

ولفرط إهتمامي بالدعاية للسودان ، التي كنا نعتبرها في مقدمة أعمالنا بمصر ، فقد أقبلت على العمل في جماعة الطلبة العرب ، واضعاً نصب عيني إنها فرصة عظيمة لذكر إسم السودان بين البلاد العربية ، كشقيق له كينونته الخاصة . . وذلك لأن العرب كانوا ، إلى ذلك الحين ، يكتفون بذكر مصر فقط ، عند تعدادهم للبلاد العربية ولا يذكرون إسم السودان . . . فيقول الشاعر حافظ البارودى :

بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغداد
ومن نجد إلى اليمن ... إلى مصر فتطوان

ويقول الآخر التقديم :

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط خلاني

ولكن ، بعد أن إشترك الطلبة السودانيون في النشاط العربي وقاموا بدور مرموق فيه ، أخذ الحال يتغير بالنسبة للسودان ، إذ أصبح إسمه لا يغفل عند الطلبة العرب في عمل تذكر فيه البلاد العربية . . . .

وكان أول تطبيق لذلك ، أنهم عندما وضعوا خريطة تمثل الوحدة العربية لعرضها في دار الإتحاد العربي في ١٩٤٦ ، رأينا السودان يأخذ مكانه في تلك الخريطة .

وبحلول عام ١٩٤٤ ، كانت أصداء العمل للوحدة العربية قد

تجاوبت في كل الشعوب المعنية وتصاعد الشعور بضرورة إيجاد صيغة للتعاون بين الدول العربية للعمل المشترك .

قيام الجامعة العربية :

ومما ساعد على حسن سير الأمور ، أن الحكومة المصرية كانت في يد حزب الوفد صاحب الأغلبية الشعبية ، فسارت الإتصالات الرسمية بسرعة ، حتى إذا حل صيف تلك السنة ، رأينا إنعقاد أول مؤتمر للدول العربية في الأسكندرية ، مقر الحكومة الصيفي ، وتوصل المؤتمر إلى إتخاذ قرارات للتعاون والعمل المشترك بين الدول العربية وسميت تلك القرارات (ببروتكول الأسكندرية) الذى كان تمهيداً قوياً ومباشراً لقيام الجامعة العربية ولميثاقها ، الذى وضع فى السنة ، التالية عند إعلان ميلاد الجامعة . فسارت الخطى بسرعة . . وسمع العالم المستر إيدين رئيس الحكومة البريطانية ، يلقى خطاباً فى (الجيلد هول) يؤيد فيه قيام الجامعة العربية ويرحب بها .

وما كاد يحل شهر مارس ١٩٤٥ حتى أعلن عن قيام جامعة الدول العربية ، حتى رأينا الإجراءات العملية النهائية لإنشاء الجامعة في القاهرة ، تأخذ طريقها للتنفيذ بصورة عظيمة .

وفى ٢٢ مارس ١٩٤٥ أعلن عن قيام جامعة الدول العربية ، وأخذت مكانها فى سراى المناسترلى ، بالقرب من ميدان الفلكى في الجهة الغربية . . . ووضع ميثاق الجامعة على أساس بروتكول الأسكندرية ، بل لعله كان نفس البروتكول بتعديلات بسيطة ، وكذلك أبرمت معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الإقتصادى بين دول جامعة الدول العربية . .

وكانت الدول العربية المستقلة فى ذلك الحين سبعة ، ولكن التى وقعت على الميثاق كانت ستة ، هى مصر والعراق والسعودية وسوريا ولبنان والأردن وإكتفت اليمن فى بادىء الأمر أن يكون ممثلها

عضواً مراقباً ، وهو الشيخ الكبس ، ولكنها انضمت رسمياً فـــى النهاية ، وأمضت الميثاق وكذلك معاهدة الدفاع المشترك والتعـــاون الإقتصـــادى .

كان ميلاد الجامعة العربية أكبر حدث سياسى فى ذلك العـــام وقد عمت الفرحة والإبتهاج به كل البلاد العربية ، التى ظلــــت تنتظره وتعمل له منذ الحركة العربية فى تركيا فى أواخر القـــرن الماضى وأوائل القرن الحالى . . فقد إنشغل جميع المفكرين العـــرب وكتابهم وشعراؤهم بالوحدة العربية ، والفوا فيها الكتب والكتيبات وملؤوا صفحات الجرائد والمجلات بالتطلعات عن ذلك الحلم الذى راود اذهان الشعوب العربية ، دهراً طويلا كاكبر امل تتمثل فيـــه قدرتهم على بعث امجادهم وتاريخهم العظيم ، وكاكبر درع واق يدفع عنهم الاخطار المحدقة بهم من كل حدب وصوب ، ويبطل نذر الشر المستطيرة التى رانت آنذاك على افقهم العربى . . وارهصتهـــم بقرب تنفيذ (وعد بلفور) لليهود ، بانشاء وطن قومى لهم فى فلسطين . . كما انهم كانوا يعلمون عن تقاسم الاستعمار للدول العربية كمناطق نفوذ . . فكانت مناطق الخليج وجنوب الجزيرة العـــربية واواسطها ووادى النيل وليبيا ثم الاردن ،والعراق ،حيث يتمركز حلف بغداد ،بزعامة نورى السعيد ، رئيس حكومة العراق فى ذلك الزمان . . يغلب فيها كلها النفوذ البريطانى .

وكانت سوريا ولبنان و شمال إفريقيا وتونس والجزائر ومراكش كلها مناطق نفوذ لفرنســـا .

ولقد رأينا كيف رحب المستر إيدن بقيام جامعة الدول العربية باعتبارها منظمة إقليمية موالية لسياستهم ، مما جعل الجهات الأخرى المعادية لبريطانيا تهاجم الجامعة العربية وتندد بتبعيتها لبريطانيا ، كما

أظهرها المستر إيدن .

كانت الشعوب العربية تعانى من ذلك كله ، وتنظر اليه كالشر الجاثم على صدر الأمة العربية ، ليفرق كلمتها ويشتت شملها ويمحق كل جهد لبعثها من جديد كأمة موحدة .

من هنا كانت الفرحة والإبتهاج ، باعلان ميلاد الجامعة العربية كمخلص أو منقذ ، فهل كانت الجامعة عند ذلك المستوى الرفيع من آمال الأمة العربية ؟؟ ولقد تنبأ بعض المفكرين العرب بفشل الجامعة ، نظراً لتلك الظروف التى تحيط بدولها ، ونظراً لما جبل عليه قادة العرب من طبيعة تغلب عليها البداوة والتعصب للقبلية ، والتزعم وحب الذات . . وهى المثالب التى فطن اليها الإستعمار ، وإستند عليها فى تقسيم البلاد العربية ، ليقيم بينها الحواجز العالمية من الوطنية المحلية الزائفة القصيرة النظر ، التى تجعل منها لقماً سهلة الإزدراد .

ومهما كانت الدوافع عند بعض المتشائمين ، فأن الجامعة قد كانت فى الواقع مخيبة لآمال المتفائلين إلى حد كبير .

وها هى اليوم بعد نيف واربعين عاماً ، لا نجدها تحقق للعرب ما كانوا يصبون اليه من وحدة ، ولم تحرز لنفسها الثقة أو الكلمة المسموعة التى يقبلها الجميع ، ويدينون لها بالولاء والإذعان . . بل أن صوتها كثيراً ما يبح فى المشاكل العربية ، دون أن تستمع له دولة من المتخاصمين ، وحتى بعض المشاكل التى تم حلها ، كثيراً ما كانت تجرى المحاولات لها بواسطة بعض الدول ، وليس بواسطة مجلس الجامعة نفسه . . ربما تكون الجامعة قد حققت بعض النجاحات فى بعض المشاكل والأمور . . ولكنها حتى الآن لم تحقق صلاحيتها فى إصدار القرار الملزم لحسم المشاكل والنزاعات.

وقد كان من واجبى أن أعرض الأدلة المتوفرة ، على فشل الجامعة وعجزها مما سوف أورده فى الجزء الثانى من المذكرات ، إنشاء الله . . ولكنى قد حددت لهذا الجزء أن تكون نهايته بعام ١٩٤٨ وبخروج قضية وادى النيل إلى المحافل الدولية .

كان لجماعة الطلبة العرب أناشيد وطنية وقومية ، تلهب حماس الشباب وتدفعهم للتفانى فى العمل للوحدة العربية .

ولقد عثرت على نص لنشيد العلم لجماعة الطلبة العرب ، وآخر لنشيد (موطنى) ويقصد الوطن العربى كله . .
(أنظر الوثائق) :

وفيما يلى أسماء أعضاء أول لجنة إدارية عليا لجماعة الطلبة العرب نقلا عن برامجها العام لموسم ١٩٤١ — ١٩٤٢ :(انظر الوثائق)

وكانوا يشرفون على اللجان المتخصصة الأخرى تحت إشراف رئيس الجماعة الأعلى ، الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام .

كما عثرت على نسخة بأسماء أعضاء الجماعه بصفة عامة . .
(انظر الوثائق)

وعثرت أيضاً على نسخة من المحاضرة التى القاها الدكتور فاضل الجمالى وزير خارجية العراق فى ذلك الزمان ، عن (الإتحاد العربى فى عالم اليوم) وذلك فى دار الاتحاد العربى مساء الأحد ٢٤ نوفمبر ١٩٤٦ كما سبق أن ذكرت وسوف أثبتها فى الطبعة الثانية .

انشاء بيت السودان فى القاهرة

كان لقبول الطلبة السودانيين فى المدارس الثانوية ذات الأقسام الداخلية ، أكبر الأثر فى حل مشكلة السكن والمعيشة ، التى إكتوى بضائقتها الأوائل منهم . . ولكنه كان حلا مؤقتاً ، رهيناً بمرحلة الدراسة الثانوية . . فما كادت تتخرج الدفعات الأولى من الثانويات وتلتحق بالجامعة ، حتى بدت مشكلة السكن والمعيشة تظهر من جديد . . وكلما تخرجت أفواج جديدة من الثانوى ، كانت أبعاد المشكلة تتسع وتشغل أذهان قادتهم . . فكان هناك إحساس عام بضرورة قيام دار تجمع شتاتهم وتحل لهم هذه المشكلة ، التى تستنفذ الكثير من وقتهم وجهودهم . . وقد يضطرهم ضيق مواردهم المالية إلى السكن فى أى مكان ، ولو كان حياً بلدياً لا تتوفر فيه ولا فى مساكنه الظروف الصحية الملائمة للطالب الجامعى .

وكان قد تجمع فى القاهرة عدد كبير من الجامعيين ، وخاصة بعد أن أخذ حملة الشهادات العامة كاكسفورد وكيمبردج يفدون إلى مصر للالتحاق بكلية الطب وغيرها . . وكذلك بعد أن التحق عدد كبير من الطلبة السودانيين بكلية دار العلوم.. لذلك إشتدت الحاجة للمأوى الذى ينشدونه لا لحل مشكلتهم فقط ، وإنما فتحا للطريق أمام الراغبين فى الإلتحاق بالجامعات المصرية من أبناء السودان الذين سيجدون فى الدار المنشودة الضمان لحياة مستقرة تمكنهم من الدرس والتحصيل .

وبالرغم من ظروف الحرب المعوقة لكل مسعى فى مثل هذا المشروع ، فقد عقد الطلبة السودانيون العزم على السعى لتحقيق أمنيتهم العزيزة .

وفى أواخر ١٩٤٣، أخذوا يعقدون الإجتماعات لهذا الغرض..

وفي يناير ١٩٤٤ ، نشرت لهم الصحف السودانية نداءاً مذيلاً ، بأسماء ممثلين من خريجى الجامعة وطلبتها وطلبة المعاهد والمدارس المصرية الأخرى .. يناشدون فيه الجميع للتبرع لإنشاء (بيت السودان) بالقاهرة . . وكان لهـــذا النداء صدى واسع فى السودان كله . . ولم تمض أيام على نشر النداء، حتى تحرك مؤتمر الخريجين العـــام لجمع الإكتتابات وتنظيمها . . ولم تكد جـــولة التبرعـــات تمض خطوات، حتى جاءتنا مفاجأة سارة . . وهى أن الملك فاروق قد قرر أن يكون تأثيث بيت السودان عـــلى نفقته الخاصة ، ونشر ذلك بمناسبة عيد ميلاده فى ١١ فبراير ١٩٤٤م . .

تأثيث البيت على نفقة الملك فاروق

كانت التفاتة الملك حافزاً قوياً، دفع بالمشروع خطوات كبيرة إلى الأمام . . ومن ثم فقد بادرت لجنة التعليم السودانية بالقاهـــرة لتولى مرحلة التنفيذ الأخيرة . . إعداد البيت وتأثيثه وتنظيمه ، وإفتتاحه فى يناير ١٩٤٥ لإستقبال الطلاب . . ثم تولت الإنفاق عليه فى المرحلة الأولى ، من الأموال التى كان يرسلها مؤتمر الخريجين من السودان لهذا الغرض .

نفق عليه المؤتمر فى المرحلة الأولى

وكانت ظروف الحرب وتعذر الحصول على المنازل ، قـــد إضطرتنا إلى إختيار العمارة رقم ٢٥ بشارع وزارة الزراعة بالدقى ، بالرغم من أن أعمال البناء فيها كانت لا تزال فى مراحلها الأولى . . فأتفقنـــا مع صاحبهـــا بواسطة الســـيد عبد العظـــيم ، المهندس المشرف عليها ، أن يخصص لنا الدورين الأرضى وما فوقه لإقامـــة بيت السودان ، وكان الدور مكوناً من شقتين كبيرتين . وكـــان الإيجار الشهرى ١١٠ جنيهاً (مائة وعشر جنيهات) يدفعها مؤتمر الخريجين ، وتكفلت وزارة المعارف المصرية بمد الطلبـــة باغذيـــة ، من القسم الداخلى للمدرسة السعيدية الثانوية) ، وهى أقرب مدرسة

لبيت الســـودان .

ولكن لم تكد تسير الأمور على هذا النحو شهور قليلة ، حتى توقف مع الأسف المؤتمر عن دفع الإيجار الشهرى . . وبـــدأت المتأخرات تتراكم . . وبدأت المطالبات من المهندس عبد العظــيم تأخذ شكل ملاحقات للاستاذ على البرير رئيس لجنة التعليم السودانية وكان عبد العظيم شخصية لها بعض الطرافة . . وله قصص مســلية فى مطالبة على البرير بايجار البيت ، طالما تندرنا بها أنا والأخ أحمد مختار ، الذى أبلى معنا بلاء حسناً فى إخراج بيت السودان إلى الوجود وشارك مشاركة فعالة فى كل الجهود التى بذلت لإنشائه فى صبر ومثابرة على العمل ومؤازرة صادقة ، كأنما كان يشعر بأنه جاء من السودان نيابة عن كل المثقفين ، للقاهرة للمشاركـــة فى تحقيق ذلك الحلم الذى كانوا يتطلعون اليه جميعاً .

احمد مختار

كان على البرير يجلس فى الأمسيات فى مقهى الجمال بشـــارع عدلى وهو مقهى أرستقراطى بعض الشيء . . وكان أخونا عـــبد العظيم المهندس يذهب لعلى البرير هناك ليطالبه . . ويستقبله البرير ببشاشته المعهودة ثم يطلب لعبد العظيم ، أعظم مشروب فى الشتاء فى ذلك الوقت ، وهو (السحاب) وفى إنتظار السحلب ، يأخذ البرير فـــى الإعتذار لعبد العظيم ، بأن المؤتمر لم يرسل بعد أى مال . . وسوف يسدد الإيجار قريباً بمجرد وصول رسالة المؤتمر من السودان . . ثم يعود عبد العظيم الينا ، فنسأله أنا وأحمد مختار : (إن شاء الله خير باشمهندس ؟ (فيرد علينا :) والله أخذنا واحد سحلب وبـــس) . . وتتكرر المسألة من وقت لآخر . . ونسأل عبد العظيم أيضـــاً فيقول لنا (واحد سحلب يا سيدى . .) بطريقته المصرية ، فنضحك لها كثيراً .

وكنا كلما التقينا بعلى البرير نتندر معه بقصة السحاب مـــع عبد العظيم .. وفى إحدى الأمسيات ذهبت مع أحمد مختار إلى المقهى إياه ، ورحب بنا على البرير .. وما كدنا نفرغ من السلام حتـــى طلب البرير لكل منا واحد سحلب .. تماماً كما كان يفعل مع عبد العظيم .. فضحكنا وقلنا للبرير : (أوعى تكون فاكرنـــا مندوبين لعبد العظيم ..) وإستغرقنا كثيرا فى الضحك .. يا لها من ذكريات .. (وبهذه المناسبة أذكر أن أحمد مختار جاء لمصر ، للالتحاق بمعهد التربية العالى وقد تم له ما أراد .. وفى الحق كان أحمد مشرفاً للسودان سواء فى أخلاقه أو فى إقباله على الدراسة وتفوقـــه فيها وإحرازه تقدير أساتذته وخاصة عميد المعهد الأستاذ محمد فريد أبو حديد الذى أصبح فيما بعد مراقباً عاماً لشئون السودان الثقافية بوزارة المعارف المصرية .... وعندما تكونت بعثة فاروق إلى جامعات أوربا بادر الأستاذ أبو حديد بترشيح أحمد مختار ليكـــون ضمن أعضائها .... ولكن أحمد مختار إعتذر ولم يسافر ...

ولكن ما كادت تمضى أسابيع قليلة ، حتى أصبح بقاء بـــيت السودان مشكلة تستدعى التفكير الجاد .. فقد توقف مال المؤتمر تماماً ، وتراكم الإيجار الشهرى .. وتأزم الموقف .. وإجتمعـــت لجنة التعليم القاهرية لتنظر فى الأمر .. وكانت جلسة صاخبـــة بمكتب على البرير رئيس اللجنة ، قلب فيها الأعضاء جميع الأوجه لإيجاد مخرج مالى يضمن إستمرار البيت .. فلم توفق اللجنة إلى شىء ... وكانت لحظة رهيبة ، تبادل فيها الأعضاء المعنيون بأمر بيت السودان ، نظرات الحيرة والتوجس من مصير البيت ، وما قد تتخذه الأغلبية فى تلك اللحظة ، دون وعى منها ، من قرار خطير بقفل البيت ، وإعلان عجزها عن الصرف عليه .. وما اسرع ما

نفد مال المؤتمر وتأزم الموقف

لجنة التعليم القاهرية اجتمعت

قرار خطير بقفل البيت

نادى أحد الأعضاء بالتصويت على قفل البيت وثناه آخر . وأجرى التصويت ، وكانت النتيجة المحزنة كما تصورناها : (بقفل بيت السودان لعدم قدرة اللجنة على الإنفاق عليه) . . . .
فأسقط فى يدنا برهة ، لا لأننا نشارك أغلبية أعضاء اللجنة اليـــأس الذى غمر تفكيرهم ، ولكن لأن القرار الخطير كان قانونياً وبأغلبية حقيقية ، ولا سبيل إلى تخطيه إلا باجراءات مطولة . وهو لابد أن ينشر فى اليوم التالى . . وماذا يكون إذن وقعه وصداه وأبعاده . . ؟؟
كل ذلك أخذ يدور بسرعة فى رؤوسنا نحن المعنيين بأمر بيت السودان وكنت أجلس بجانب الرئيس على البرير ، وكان فى غاية الإنفعال وتبادلنا نظرات سريعة وذات معنى وقفنا على أثرها نعلن إنسحابنا (على وأنا) من اللجنة التى تتخذ مثل ذلك القرار . . وخرجنا مـــن اللجنة بسرعة ، وعلى البرير بادىء الغضب.. فأسرع بعض الأعضاء يعدون خلفنا ، والبرير يزيد فى سرعته حتى يتكاثروا من خلفـــه ويظهروا إهتمامهم بضرورة عودتنا إلى الإجتماع . . وفعلا تجمعوا حولنا . . وحلف بعضهم الإيمان المغلظة علينا لنعود إلى الإجتماع . .

إلغاء القرار الخطير

فوافقنا ولكن بشرط أن يلغى القرار وتستأنف المناقشة من جديد . . فوافقوا فعدنا للجلسة . . وبدأت أنا الكلام ، وطلبت إعطاءنا مهلة ندبر فيها أمر إستمرار البيت ، قبل أن يتخذ قرار قفله . . فهاجمنى بعض الأعضاء بأنى لا أملك ما يضمن تسديد المتأخرات ، ولا ما يستجد من الإيجار فى حالة عدم نجاح المسعى لضمان إستمرار البيت وطالبوا بأن يتكلم على البرير ، لأن وضعه المالى يمكنه من تحمل أى التزام مالى يترتب على إمهالنا بعض الوقت ، إذا ما تجاوزنا الوقت المحدد . . ثم تكلم البرير وقبل بدون تحفظ أن يدفع أية تكاليـــف مالية تترتب على قرار اللجنة بأعطائنا مهلة شهر واحد لإيجاد مخرج ثم نجتمع بعد شهر لننظر عما إذا كان بيت السودان سيستمر أم لا . .

فى الواقع إننا حينما قبلنا مهلة الشهر ، لم نكن نفكر كبقية الأعضاء فى الأساليب العادية من جمع المال من الأفراد والهيئات . . وإنما كان تفكيرنا ومنذ الوهلة الأولى لإنشاء البيت ، هو إسناده إلى الحكومة المصرية طال الزمن أو قصر . . لأن الوسائل الأخرى مهما أعطت هذا العام فلا ضمان لعطائها فى العام المقبل . . كما أن الحكومة التى فتحت أبواب جامعاتها ومعاهدها على مصاريعها للطلبة السودانيين لا يمكن أن تضن عليهم بمثل هذا المأوى الذى يكفل لهم الإستقرار اللازم لمواصلة دراساتهم . . لذلك ، كم كبر فى نظرى على البرير يوم ذاك ، حيث تعهد بدون تحفظ ، بدفع أى التزام يترتب على قرار اللجنة باعطائنا مهلة الشهر . . . وإنى لأؤكد هنا أنه لولا موقف على البرير لكان مصير بيت السودان بالقاهرة يومذاك فى كفة القدر . . مهدداً بنهاية محزنة ، أوشكت أن تطيح بحلمه الجميل وبكل الجهود المخلصة التى بذلت فى سبيل تحقيقه .

ولم يطل بنا الوقت أكثر من يوم واحد ، حتى إتفقنا على ميعاد نذهب فيه لمقابلة معالى السنهورى بك ، وزير المعارف فى ذلك الوقت . . وكلفنا البرير باخذ ميعاد مع الوزير . . وفى صبيحة اليوم الثانى كنا بمكتب وزير المعارف .. على البرير وعقيل واحمد الطيب عابدون وشخصى . . . . .

لقاء السنهورى وزير المعارف

استقبلنا الدكتور السنهورى بكل ترحاب . . وما كاد يطلع على قصة تعثر بيت السودان ، والعجز المالى الذى يهدد بقاءه ، حتى تحمس للأمر وقال ، كيف يسمح بان يقفل (بيت السودان) وهو على راس وزارة المعارف ؟؟ ثم دعا مدير مكتبه والسكرتير المالى للوزارة واصدر لهما تعليماته بضم بيت السودان الى وزارة المعارف فوراً ، والالتزام بكل نفقاته ، وحتى متاخرات الايجار . . ثم امر

ضم بيت السودان لوزارة المعارف نهائياً

بتعيين موظف يشرف على البيت من قبل الوزارة . . تم كل ذلك قبل ان نخرج من مكتب السنهورى . . فخرجنا من عنده ونحن فى منتهى الغبطة والامتنان . . واطمأنت نفوسنا نهائيا لمستقبل بيت السودان الذى كفل له معالى السنهورى البقاء والاستمرار . . ومنذ ذلك الوقت، بدأ بيت السودان صفحة جديدة من الاستقرار والتوسع فى استيعاب المزيد من الطلاب الجامعيين الجدد . . محل الاهتمام الخاص للدكتور السنهورى ، فقد قام بزيارة مفاجئة للبيت قبيل سفره للسودان لافتتاح المدرسة الثانوية المصرية بالخرطوم فى يناير ١٩٤٦ . وكانت مفاجئة سارة لطلبة البيت ، التقوا فيها بمعالى الوزير ، الذى تبسط معهم فى الحديث ، وافسح لهم المجال لعرض ارائهم ومطالبهم . . فوقف عليها جميعاً ، وتعرف على احوال البيت من كل الوجوه ، بعد ان طاف بكل اجزائه متفقداً مستعلما . . وفى ختام الزيارة اصدر اوامره بتنفيذ مطالب الطلبة جميعها . .

زيارة السنهورى للبيت

وقد اوردت هذه المطالب (مجلة السودان) القاهرية بعددها الخمسين بتاريخ ٥ يناير ١٩٤٦ كما يلى :-

١- انشئت مكتبة للبيت تضم جميع المراجع العلمية المختلفة، لكليات الجامعة هذا الى جانب الكتب الأدبية العامة التى لايستغنى عنها الطالب فى ثقافته العامة .

ولقد أنتدب مشرف البيت طالباً من كل كلية ، فتكونت بذلك لجنة لأختيار الكتب اللازمة . . ولم يظهر العدد التالى من هذه المجلة الا ومكتبة بيت السودان تحتل مكانها فى البيت . . ولا نشك فى ان الطلبة سيقبلون على هذه الكتب بشغف ونهم شديدين ، وبذلك نطمئن على كتبنا ، ويطمئن الاستاذ عبداللطيف الخليفة على ما بقى من كتبه .

٢- اعداد مطبخ فى البيت لطهى طعام الطلبة ، بدلا من احضاره من

معهد التربية أو المدرسة السعيدية . وبهذا ينعم الطلبة بغذاء ساخن
٣ — توفير المراجل اللازمة لتسخين مياه الحمامات فى فصل الشتاء .
وبذلك ينتهى عهد الطلبة (بالدش البارد) وأخوف ما نخافه ، أن يفضل بعضهم سكن الحمامات ، فلا يخرجون منها . . .
٤ — انشاء نادى في البيت ، مع إمداده بادوات التسلية ومااِلى ذلك وتخصيص ملعب للطلبة بالقرب من البيت لكرة السلة .

وقد سبقت الإشارة الى ان السنهورى أمر بتنفيذ هذه المطالب. . وسارت الامور فى بيت السودان على حال يبعث الامل فى المستقبل كمارسمناه له .. واصبح البيت قبلة السودانيين جميعاً .. فما يكاد يصل القاهرة زعيم أو شخصية كبيرة ، حتى يقوم بزيارة لبيت السودان . واذكر من زواره في ايامه الاولى فى ١٩٤٥ ، ميرغنى حمزة والسيد عبدالله الفاضل ، وعبدالله عبدالرحمن نقدالله ومكى عباس . . كما إستقبل بيت السودان أيضاً بعثة من حكومة السودان إلى إنجلترا لتلقى دراسات مختلفة . وقد كانت مكونة من ثلاث مجموعات ،

كان بيت السودان قبلة الزوار السودانيين

هذا وقد رجوت الأخ الأستاذ أحمد حسن فضل السيد عضو تلك البعثة أن يذكر لى شيئاً عن إستقبالهم ببيت السودان لأنى نسيت تفاصيله . . فكتب الآتى :—

والحرب العالمية الثانية تشارف نهايتها ، إختارت مصلحة المعارف السودانية فى نهاية أغسطس ١٩٤٥ الأساتذة :—

عبد الله الطيب
التوم فوزى
سعد الدين يعقوب
محمد المهدى دوليب
عبد الرازق عبد الغفار

محمد عمـــر أحمد
أحمد حسن فضل السيد

وذلك للذهاب لإنجلترا لفترة سنتين — وإختار — مكتب السكرتير الإدارى السـادة :—

خليفة محجـوب	
بابكر الديـب	من الشرطة
أمين أحمد حسـين	
عبد العزيز عمر الأمين	
عبد الله محمد الأمين	من الإدارة
النور عثمـان	
حسن على عبد الله	

ومن كلية فكتوريـا لإنجلترا السـادة :—

كمال عبد الله الفاضل	وكان هؤلاء عـلى
إسحق محمد الخليفة شريف	نفقتهم الخاصـة
مـامون بحيرى	

وقد قمنا بزيارة خاصة لبيت السودان بدعوة من الأخ عبـد اللطيف الخليفة مديره فى ذلك الوقت وأقام لنا حفل شاى دعا اليه كبار السودانيين المقيمين بمصر آنذاك ومن بينهم على البرير ومصطفى أبو العلا . . . وكان حفلا رائعاً تبودلت فيه الخطب والكلمات .

أحمد حسن فضل السيد

وبين أوراقى القديمة كلمة بخط السيد عمر الأمين (قمنـدان



بوليس الخرطوم) آنذاك كتبها عند زيارته لبيت السودان ، عبر فيها عن إعجابه وإعجاب زملائه بالبيت ، بعبارات جميلة ، أثنى فيها على مصر ، وقدر لها جميلها وأفضالها على السودان بهذا العمل النبيل ، فناب بكلمته هذه عن السودان كله . . (نص الكلمة). وقد أقام ببيت السودان أيضاً حفل تكريم للسيد عبد الله الفاضل المهدى ، كما أقيمت للسيد عبد الله الفاضل عند عودته للسودان حفلة وداع أيضاً . . وكنا من قبل قد إحتفلنا بالأستاذ عبد الله عبد الرحمن نقد الله الذى جاء إلى القاهرة مستشفياً . وكان إحتفاؤنا بالأستاذ مكى عباس فى جلسة خاصة إستعرض فيها تقريباً كل ما يشغل بال المثقفين فى ذلك الوقت وكان مكى ذاهباً إلى لندن للدراسة . . وقد طلب منى أن أمكنـــه من لقاء بعض أساتذة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لأنه يريد أن يحصل على أسماء بعض المراجع فى الدراسات الإجتماعية ، التى كان ذاهباً إلى لندن من أجلها . . فذهبنا إلى كلية الآداب والتقينا ببعض الأساتذة أذكر منهم الدكتور على عبد الواحد وافى ، الذى كان رئيساً لقسم الفلسفة وكان مختصاً بالدراسات الإجتماعية . . فكان لقاءاً جميلا ، أبدى فيه الدكتور سروره أن يرى أبناء الســودان يذهبون إلى جامعات العالم ليتزودوا منها بالعلم والمعرفة . . ثم أخذ فى تزويد الأستاذ مكى بالمراجع ، بعد أن عرف أنه ذاهب لعمـــل دراسات إجتماعية ، فكانت قائمة كبيرة من الكتب بعضها إنجليزى وبعضها فرنسى . . وأذكر أن الدكتور على ، قد لاحظ أن الأستاذ مكى كان مرة يقول العلوم الإجتماعية ، ومرة يقول علم الإجتماع ، كأنما هو يعنى بالتعبيرين شيئاً واحداً . . فأوضح له ما قد كان ملتبسا عليه فى فهمه للتعبيرين .

وجدير بالذكر أن الدكتور على عبد الواحد ، كان من كبـــار

الأساتذة الذين إستطاعت الجامعة الإسلامية بأمدرمان أن تستقدمهم للتدريس بها في السنوات الأخيرة . . ثم تردد على بيت السودان فيما بعد ، كل أعضاء وفد السودان وعلى رأسهم الرئيس إسماعيل الأزهرى . وكلما تقدمت الأيام ببيت السودان ، كان يأخذ وضعاً أشبه بالقنصلية العامة للسودان بمصر في ذلك الوقت الذى لم تكن تمثله فيه أية جهة غير وكالة السودان الإستعمارية . . وسيتضح فيما بعد كيف كان يؤمه الأفراد والهيئات السودانية ، فى كثير من قضاياهم ، كيف كان المحرك للقضايا الوطنية والمواقف السياسية الخاصة بالسودان . . والواقع أن تفكيرنا فى بيت السودان من أول وهلة ،

كان بيت السودان كقنصلية أوسفارة

لم يكن لمجرد الأقامة بل ان اقامة الطلبة كانت فى نظرنا مرحلة مؤقتة ، ريثما يتم بناء المدينة الجامعية ، التى كانت مزمعة فى ذلك الوقت.. وكنا ننوى أن ينتقل اليها الطلبة السودانيون للإقامة مع زملائهم المصريين . . ويتحول بيت السودان إلى مؤسسة ثقافية إعلامية ، تقوم بالعمل الكبير الذى كنا نشعر بأن السودان فى أشد الحاجة اليه . ألا وهو التبادل الثقافى ، ليس بينه وبين مصر فقط ، وإنما بينه وبين البلاد العربية والإسلامية .

مؤسسة ثقافية اعلامية

لقد وجدنا السودان مجهولا فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى ، وحتى النذر اليسير المعروف عنه ، كان مشوهاً يحتاج إلى التصحيح والتعديل . . فقيام مؤسسة تعنى بتلك الأغراض ، وتعمل على تحسين وجه السودان فى نظر جيرانه وأشقائه ، على الأقل كان أمراً لابد منه لشعب يتطلع إلى الحرية .

وفى ١٤ فبراير ١٩٤٦ ، أقيم حفل رسمى كبير لإفتتاح أول بيت للسودان فى مصر ، حضره أكبر رجالات الدولة وأقطابها ، وفى مقدمتهم مندوب جلالة الملك فاروق . . وكان خطاب معالى وزير المعارف ، عبد الرازق السنهورى بك ، معبراً حقاً عن مدى

الافتتاح الرسمى لاول بيت

عناية مصر ببيت السودان ، بل وعن آمال الشعبين الشقيقين في هذه المؤسسة الثقافية ، إذ رسم لها برنامجاً حافلا ، يصور مستقبلها العظيم كما تصورناه منذ البداية ، حيث تأخذ مكانها في القاهرة كمركز لنشاط ثقافي وإعلامي واسع النطاق ، يقوم على التعاون الوثيق بين الشباب السودانيين والمصريين . . كان لذلك كله صداه القوى في السودان . . فما من شاب طموح إلا وقد أخذ يعد نفسه للرحيل إلى القاهرة ، لكى يساهم في تحقيق تلك الآمال العريضة . . وما هى إلا أيام حتى أخذت مجموعات من الطلبة السودانيين تتوافد على ، القاهرة بلا إنقطاع . . حتى ضاق بهم البيت الأول رقم ٢٥ شارع وزارة الزراعة بالدقي ، والذى انتقل إلى بيت آخر على النيل في يناير ١٩٤٧ . وكان قد حضر من الخرطوم في مطلع ذلك العام أكبر فوج من الطلبة ، قيل أنهم طلبة السنة الأولى في كلية الخرطوم الجامعية الذين تركوها جملة واحدة ، وجاءوا إلى مصر بدعوة من وفد السودان . . وكان من بينهم الأساتذة : عبد الخالق محجوب وأحمد سليمان والتيجانى الطيب وأحمد الطيب بابكر وعبد الغفار عبد الرحيم والوسيلة وعثمان محجوب وعلى محمد إبراهيم وعمر محمد إبراهيم وعوض عبد الرازق وغيرهم ممن غابوا عن ذاكرتي . .

حضور أكبر فوج من طلبة الخرطوم

كان عدد الطلبة السودانيين عند إفتتاح أول بيت ، نحو الأربعين وقد أصبح في ١٩٤٧ أكثر من ٢٥٠ طالباً . . ولذلك توسعت وزارة المعارف في إستيعابهم ، فأنشأت بيتين آخرين . . وتوزعت مواقع البيوت الثلاثة على أحياء المبتديان والمنيرة والمنيل . . كما أنشىء بيت رابع للطلبة السودانيين بجامعة الأسكندرية ، وقد أنشأت وزارة المعارف مراقبة عامة للتعليم بالسودان ، تشرف على كل أعمال التعليم المصرى بالسودان ، وأنشأت تحت إشراف هذه المراقبة العامة (إدارة شئون السودان الثقافية) ، وعلى رأسها مدير وعدد من

نشاء بيتين آخرين

الموظفين لترعى شئون بيت السودان والطلبة السودانيين بمصر ، كما نكونت (لجنة شئون السودان الثقافية من مختلف الشخصيات السودانية والمصرية ، بالاضافة الى بعض كبار المسئولين بوزارة المعارف.

بعثات دراسية لمصر ولاروبا

ومن النتائج التى أعقبت قيام بيت السودان ، إنشأ بعثتين دراسيتين للطلبة السودانيين كل عام ، إحداهما خارجية إلى جامعات أوربا وسميت (بعثة فاروق الأول) والثانية داخلية إلى الجامعات والمعاهد العليا المصرية. وقوام البعثة الخارجية فى كل سنة عشرة من خريجى الجامعات والمعاهد العليا المصرية. أما البعثة الداخلية فقوامها ٢٥ طالباً من المتفوقين من خريجى المدارس الثانوية ومن الحاصلين على شهادتى كمبردج وأكسفورد ، وقد بلغ أعضاء هذه البعثة فى ١٩٤٨ أكثر من المائة طالب .

وتكونت أول بعثة خارجية من الأساتذة عقيل أحمد عقيل ، أحمد الطيب عابدون وأحمد السيد حمد ، وبشير البكرى ومحى الدين صابر وصلاح عثمان هاشم وغيرهم . . . وقد سافروا إلى فرنسا والتحقوا بالسوربون وغيرها من الجامعات الفرنسية ثم الأستاذين كامل الباقر ومحمد المعتصم مجذوب وقد سافروا إلى إنجلترا والتحقوا بجامعاتها للتخصص فى التربية والإجتماع . . وكان طلبة البعثة الداخلية يمتازون عن بقية زملائهم من أعضاء بيت السودان بأنهم يصرفون خمسة جنيهات شهرياً كمصاريف جيب ويسافرون على نفقة الحكومة المصرية . . كل تلك المكاسب العظيمة ، تحققت فى عهد السنهور بك ، الذى لا أبالغ إذا قلت أنه كان أكثر وزراء مصر تفهماً لإحتياجات السودان ومطالبه ، ليس فى ميدان التعليم فقط ، ولكن فى كل المجالات الأخرى ، التى كنا نلتمسه فيها فنجد منه تجاوباً فوق ما كنا نتوقعه وفوق مستوى المحيطين به من كبار

الموظفين . . وتحضرني في هذا الصدد قصة القدوم المفاجيء لفريق الهلال لكرة القدم إلى مصر في ١٩٤٨ ، دون أن تكون هناك أية جهة تتولى إستضافته . . فتولى أمره السنهوري بك بمجرد إبلاغه النبأ . . كما سأشرحه فيما بعد .

وعند ما تخوفنا على المجال المحدود في بيوت السودان من ان يملأه أبناء السودان المولودون في مصر والمقيمون مع أهلهم فيها . . تفهم السنهوري الأمر وأصدر قراراً بضرورة ارتباط الطالب واسرته بالبئه السودانية . . وجاء في طلب الالتحاق ببيت السودان شرط أساسي نصه كالآتي :ـ

(أن هذا الطالب من أهل السودان ، وأن والده (أو ولي أمره) وأسرته من المقيمين في السودان بصفه دائمة . .) لقد كسب السنهوري بأعماله قلوب السودانيين وتقديرهم . .

ولهذا كان الطلبة السودانيون يتعاطفون معه أينا ذهب في مناصب الدوله . وبين يدي مسودة برقية كان قد ارسلها طلبة بيت السودان للسنهوري باشا عندما نقل رئيسا لمجلس الدولة . . ووقعها نيابة عنهم أحمد هاشم أبوالقاسم ونصها كما يلي :

معالي السنهوري باشا رئيس مجلس الدولة :ـ

في الوقت الذى تستجمون فيه من عناء جهودكم الطويلة الموفقة لخدمة التربية والتعليم في وادي النيل جميعه ، وتستقبلون أعباءكم الجديدة في مجلس الدولة ، يطيب للطلبة السودانيين أن يرفعوا لمعاليكم خالص تمنياتهم ذاكرين لكم أفضالكم الخالدة على السودان في نهضته الحديثه .

عشتم لوادي النيل وحالفكم المجد والتوفيق . .

الطلبه السودانيون

عنهم / أحمد هاشم

وإذا تذكرت طلبة البيت الأول لا أكاد أجد منهم فى ذاكرتى غير محمد عبدالفراج (طب) ومنصور أحمد الشيخ (تجارة) وصلاح زروق (تجارة) وخاطر ابوبكر (آداب) وابراهيم خوجلى (طب) وأحمد هاشم ابوالقاسم (آداب) وعثمان فاضل (تجارة) وعزالدين على عامر (طب) وتاج الدين البيلى (زراعه) وعبدالماجد ابو حسبو (حقوق) وبدوى طيب الاسماء (دارالعلوم) ومصطفى طيب الأسماء (دار العلوم) وعمر محمد الطاهر (حقوق) ومحمد الحسن عثمان وسعيد صالح ومحمد ابوشكيمة ومصطفى سالم وأحمد الحسين أبودقن و محمد أحمد باجى (دار العلوم) ومحمد على مختار وعثمان شاهين (كلية الآداب) . وأحمد عباس بدر (هندسة) وأحمد عبدالقيوم (طب) وكذلك ابوالقاسم عثمان وأحمد البيلى وصادق عبد الله عبد الماجد . . . ثم جاء بعدهم مدثر الزين (طب) ومحمود محمد نور خوجلى (هندسة) وصلاح مالك (طب) والهادى الزين (طب) وصالح سليمان عيسى (صيدلة) وأحمد الزين النحاس (صيدلة) وحسن دراوى (حقوق) والهادى عابدون (حقوق) وسعد لطفى (طب) وأمين الطاهر الشبلى (حقوق) ومحمود محمد الأمين الضرير وعمر حسن مدثر (معهد التربية) وعوض عبد الله إبراهيم (هندسة تطبيقية) وبابكر محمد بابكر (هندسة تطبيقية) ومحمد زكى الحاج (فنون وزخارف) وعثمان نورين (معهد التربية العالى) .

وكان بيت المنيرة هو محل إشرافى المباشر ، وكان قريباً جداً من كلية طب قصر العينى ، ولذلك كان طلبته أغلبهم ينتمون إلى كلية

الطب ، وكان بعضهم من كلية دار العلوم ، فهى لا تبعد كثيراً عن هذا البيت ، وأفراد منهم من كلية الحقوق كعبد الله الحسن وأحمد فضل وعباس موسى وعثمان سعيد والحاج الطاهر ، وأنى لأذكر من طلبة الطب محمد عبد الفراج وعز الدين على عامر وزكى منصور خليل ومحمد حسن جابر وحمدى القبانى والهادى الزين وأبو حسن أبو . . وأحمد حسن آدم وعثمان عوض الله وعلى موسى وعمر القبانى وسعيد عقباوى وأحمد صابر ، وسيد أحمد إبراهيم وطه طلعت وعزيز مالك وعلى إبراهيم وخالد حسن التوم والفاضل النور شمس الدين ووديع صليب وأديب صليب وأحمد أبو الفتوح ، وشاكر السراج وعبد الغفار عبد الرحيم وعمر محمد إبراهيم ومرضى المامون وعباس مختار وكمال الدين نجار وعلى البدوى وعبد الكريم المنشاوى وعزيز عزت ناصر وشرف الدين الطيب ، وإبراهيم خوجلى ومحمد أحمد جحا ويحى شمس الدين وآدم فضل الله وحسن وهبى ، ومحمد السيد إبراهيم ، والفكى الطاهر ومضافاً إلى ما ذكر من دار العلوم ، إدريس جماع ، وسعيد صالح وكامل الباقر وسعيد عبد القادر ومعتصم مجذوب ومحمد أحمد عبد القادر ومحمد محمد على وحسين حمدنا الله والهادى العمرابى ، وفرح عبد الحميد ، ومن كلية التجارة : منصور أحمد الشيخ وحسن عبد العزيز القبانى ومحمد محمد على باشا ومن الهندسة عبد الباقى عمر عطية . وأذكر أيضاً محمد أنيس عبد المجيد (تربية) ثم محمد الحاك عامر ويوسف فخرى (طب) وخالد العجبانى (مسرح) ومحجوب البدوى (هندسة) وزهير على نور .

ملتقى الشبان السودانيين والمصريين على اختلاف مشاربهم

كان تجمع الطلبة السودانيين فى بيت السودان وسيلة منتظمة للاتصال بأبناء السودان والتعرف عليهم وعلى أحوالهم ، وإيجاد أسباب التعاون معهم . . ودعوتهم للمشاركة فى المناسبات القومية ،

والقيام بدورهم كذلك فى المواقف الوطنية والسياسية . .

وفعلا أصبح بيت السودان من هذه الناحية ، وجه السودان المشرق ، الذى يسمع الناس صوته كلما دعا الداعى . .

كما أنه من جهة أخرى كان أشبه بالجزيرة المحايدة ، بالنسبة للاحزاب المصرية ، وخلافاتها العنيفة . . فكثيراً ما كانوا جميعاً يخلعون خلافاتهم عند دخولهم بيت السودان ، ويبدو منهم الشعور القومى فقط ، وقد كان الواحد منهم يلتقى بخصمه أو بعض خصومه الذين لا يكاد يحيهم منذ وقت طويل ، فلا يملك فى داخل بيت السودان، ألا أن يقبل عليهم ويتبادل معهم الحديث والآراء الوطنية والسياسية . . وكانت هذه السياسة المتوازنة التى سار عليها طلبة بيت السودان ، قد أكسبت هذه المؤسسة تعاطف الجميع ورضاهم ، كما جعلت الكثيرين من شباب الأحزاب يتخففون من التزمت الحزبى عندما يلتقون مع خصومهم فى بيت السودان . . وما زال الطلبة السودانيون يعملون على تنمية هذه الروح بين الشبان المصريين ، حتى نشأت بينهم صلات قوية ودية ، قادتهم آخر الأمر إلى التفكير ، المشترك ، على الأقل ، فيما يتعلق بالسودان . وما أسرع ما ساقت الينا الظروف ، أخطر المواقف فى ذلك الوقت وأشدها إثارة للجماهير فى مصر والسودان . . ذلك هو مشروع معاهدة (صدقى — بيفن) الذى وقع فعلا بالأحرف الأولى ، وكان قد أرجأ مسألة السودان ، وإكتفى بأمور سطحية . . وزاد الطين بلة تصريح صدقى باشا الذى قال فيه : (لقد أتيتكم بالسيادة على السودان) فهاجت النفوس هنا وهناك ، وتحركت المظاهرات والإضطرابات . وهب الشعب كله لمعارضة تلك الإتفاقية وتحطيمها ، قبل أن يتم إبرامها نهائياً .

كنا نخطط للتعاون مع الشبان المصريين

معاهدة صدقى بيفن كانت على مقاومتها

وكان على بيت السودان أن يقوم بدوره في تلك المعركة الوطنية .. ولكنه قرر ألا يعمل منفرداً ، بل متضامناً ومنسقاً مع جميع الأحزاب والهيئات المصرية ، بحيث يكون الجميع جهة متحدة ورأياً موحداً .. ولكن كيف السبيل إلى هذا الهدف العظيم ، والأحزاب المصرية ظلت منذ آخر محاولة لتكوين الجبهة الوطنية لإجراء معاهدة ١٩٣٦ ، وهى متخاصمة متدابرة لا يقبل بعضها البعض ، ولا يتعاطف حتى أفرادها مع بعضهم البعض ، ولكن الطلبة السودانيين ، أصروا على السير فى طريقهم لجمع كلمة الأحزاب المصرية ، فى هذا الأمر الذى يجمعون على رفضه ، وهو مشروع صدقى – بيفن .. وكان طريقاً شاقاً ، تعاونوا عليه ، بتلك المحاولات التى بذلوها فى بيت السودان لإذابة الحواجز الحزبية بين المصريين وإيجاد أرضية مشتركة لهم ، على الأقل ، فى قضايا السودان ، وبالذات فى مشروع معاهدة صدقى – بيفن . وفعلا كانت نتيجة تلك التجربة مشجعة .

كانت مهمتنا شاقة بين شباب الاحزاب المصرية

وأخيراً تنفسنا الصعداء عندما وصلنا إلى إتفاق على تكوين جبهة قومية موحدة لشباب جميع الأحزاب ، لمعارضة مشروع معاهدة صدقى – بيفن وإسقاطها ، وتم الإتفاق على صيغة القرارات ، والنداءات كما سبق .

تمت المعجزة وتكونت جبهة وطنية قومية لاسقاط مشروع صدقى – بيفن

وكانت الساعة الرابعة صباحاً عندما فرغنا من الصياغة وإعداد النسخ لنشرها بالصحف .. ومن الطريف أن الشبان المصريين ، إشترطوا ألا يخرج واحد منهم من بيت السودان ، إلا بعد أن تصل الصحف فى الصباح التالى حاملة لهم قراراتهم ونداءاتهم ، وأن الطلبة السودانيين وحدهم هم الذين يذهبون إلى دور الصحف للنشر .. وفعلا ظلت أبواب بيت السودان مغلقة حتى وصلت الصحف فى

الصباح الباكر وبها بياناتهم .

وكانت مفاجأة كبرى مدهشة للقاهرة أن يرى الناس تـلك القرارات موقعاً عليها من مندوبى الأحزاب والهيئات على إختلافها وإستبشر المجتمع المصرى كله بهذه المعجزة التى فاجأهم بها بيت السودان . . وتوقعوا أن تفتح صفحة جديدة من الكفاح الوطنى . . وتوقع الطلبة السودانيون من جانبهم أن تبدأ تلك الخطوة الهامة ، فى طريق الكفاح المشترك الذى كانوا قد رفعوه شعاراً لهم . . وبـدأ التحرك الواسع نحو هدفين ، الأول : هـو أن يتم بين قيادات الأحزاب مما تم بين شبابها من قيام جبهة وطنية متحدة . . فـكان مندوبو كل حزب فى (جبهة شباب وادى النيل) المشار اليها لاحقاً ، يقومون بالإتصال بقادة حزبهم أو هيئتهم ، ويعدون لنا فرصـة للقاء معهم . . وبذلك تمت إجتماعات متعددة ومتلاحقة فى دور الأحزاب والهيئات ، أدت إلى قيام (لجنة الإتصال) كما سأذكر والهدف الثانى للتحرك هو التعاون مع تلك الأحزاب والهيئات ، على القيام بمظاهرات ضخمة للتعبير عن سخط الشعب وعدم رضاه عن مشروع المعاهدة . . وإنى لأذكر — للوفاء والتقدير إسمى عبد السلام وفا ورشيد النحال وهما من المحامين الشبان . . فقد اشتركا معنا فى معركة تحطيم معاهدة صدقى — بيفن خطوة بخطوة بجهد يستحق الاشادة كلما هزتنا تلك الذكرى العطرة .

فوجئت القاهـرة بالبيان الموقع من شباب جميع الاحـزاب

وربما كان الاخوان المسلمون فى ذلك الوقت أكثر الجهـات قدرة على أحداث المظاهرات التى كانت أحيانا تبدأ بعـد صلاة الفجر مباشرة من عدة مساجد ، فى أنحاء متفرقة من القاهرة وكذلك الشيوعيون لهم قدرة أيضا فى قيادة المظاهرات . . ولكن كانت المظاهرة متى بدأت تجد متجاوبين معها من الجماهير العريضة المعبأة

من كل الاحزاب . .

وأترك هنا هذه الفقرة من مسودة الخطاب المطول ، الذى كنت قد أرسلته فى ذلك الوقت للأخ أحمد مختار صاحب دار الأديب بالخرطوم ، لكى تروى لنا ما حدث فى إختصار :

. . . . هذا هو حالنا والله ياأحمد منذ أن أطلت النذر المشئومة بالأفق ، تقلقنا بأنباء مشروع (صدقى — بيفن) ومايخفى وراءه من مصير بغيض . . ولا أستطيع أن أذكر كل شيء . . ولكن أهم ما نحاول القيام به هو التمهيد لقيام حركة شعبية قوية ملفتة للأنظار ، تكون بمثابة الرد الحاسم على هـــذا المشروع المخيب للامال ، وتضع صدقى باشا والقلة التى يحتمى بها أمام ثورة محققة . وليس أمامنا بالطبع إلا هذا السلاح لتحطيم هذه المعاهدة التى يتحدى صدقى باشا بامضائها إرادة الشعب فى مصر والسودان .

ميثاق وطنى تمهيداً لقيام جبهة من الاحـــزاب

وسعى بيت السودان أول ما سعى لتوحيد كلمة الشباب واستطاع أن يحصل من كل حزب وكل هيئة على عضوين ، أحدهما شاب فى إدارة الحزب أو الهيئة ، والآخر رئيس للطلبة فيها . . وبذلك تكونت لدينا مجموعة من الشباب أطلق عليها (جبهة شباب وادى النيل) وأصدرت هذه الهيئة قرارات قومية نشرت بالصحف المصرية وبعض السودانية . . وكانت هذه القرارات بمثابة ميثاق ، تقدمنا به إلى جلالة الملك ثم تقدمنا به إلى الأحزاب والهيئات ، فقبلته جميعا — ما عدا السعديين والدستوريين بالطبع — واعترفت كلها بهذه الجبهـــة إعترافا رسميا . . وما كادت تنعقد هذه الجبهة ، حتى قامت بسعى آخر أكبر ، هو محاولة اتحاد الأحزاب والهيئات نفسها فى جبـــهة شعبية ، تكون بمثابة القيادة لما ينتظر وقوعه من تحركات كبيرة .

فبذلنا فى سبيل ذلك محاولات كثيرة ومضنية للغاية ، كاد

اليأس يستحوذ علينا مرات كثيرة ، بسبب تعنت الوفد المصرى وتمحكاته الكثيرة ، ولكن إرادة الشباب التى كانت تبدو للكثيرين وكأنها الجبال التى لا تتزحزح . وهكذا بعد شهر تقريباً تمت المعجزة وإجتمع بالأمس فقط ، ما سميناه (لجنة الإتصال) بين الأحزاب والهيئات . . مكونة من فؤاد باشا سراج الدين عن الوفد المصرى ، والصوفانى بك عن الحزب الوطنى وصالح حرب باشا عن الشبان المسلمين ، ومصطفى الشوربجى بك عن جبهة مصر ، والأستاذ السكرى عن الإخوان المسلمين (حضر نائب عنه) والأستاذ أحمد حسين عن مصر الفتاة (نائب عنه) والأستاذ زهير صبرى عن الكتلة الوفدية . . وسينضم اليهم الدكتور حامد محمود عن السعيديين الأحرار ، وكذلك علوبة باشا وعبد المجيد إبراهيم باشا .

والمحاولة الثانية ، هى ضم أعضاء من لجنة المفاوضات السبعة المعارضين . . والمحاولات جارية أيضاً لتوحيد الزعماء أنفسهم . . وفاتنى أن أذكر أن الأستاذ إسماعيل الأزهرى قد حضر إجتماع (لجنة الإتصال) كعضو فيها يمثل وفد السودان . . وغداً سينشر الميثاق الذى إتفقوا عليه وفى القريب إن شاء الله تصل هذه الجهود إلى أهدافها كلها . . وعندئذ سنواجه الحوادث ، لا كما كنا ، نواجهها فى الماضى ، مفرقين متدابرين ، ولكنا سنواجهها هذه المرة صفاً واحداً ، ونقوم فى وجهها قومة رجل واحد . . حقق الله لهذه اللجنة التاريخية ، أن تبلغ مداها من الخطورة التى يرقبها كل مواطن أبى . . . (إنتهى الخطاب) .

تكونت لجنة الاتصال من قادة الاحزاب المصرية والسودانية

ولكى يأخذ القارىء فكرة عن صعوبة العمل الذى أنجزناه ، سأحاول إعطاء وصف موجز لأول إجتماع انعقد ببيت السودان لشباب الأحزاب المصرية ، الذين لم تكن حواجز التعصب الحزبى لتسمح للواحد منهم بمجرد التفكير فى لقاء مشترك مع الآخرين . .

ولولا بيت السودان والجانب السوداني فى معاهدة صدقى — بيفن لما أمكن لمثل ذلك الإجتماع أن يتم . . وقد كان حقاً إجتماعاً صاخباً رهيباً ، حتى تصورنا بيت السودان فى تلك الليلة وكأنه سفينة تشق طريقها فى عباب متلاطم الأمواج ، وكان الطلبة السودانيون ، كفرقة المطافىء ، يقفون على أهبة الإستعداد لإطفاء الثورات العاطفية الملتهبة ، وتلطيف حدة المهاجمات المنبعثة من الخصومات القديمة والأحقاد المختزنة . . وظللنا إلى ما بعد منتصف الليل ، حتى إستطعنا أن نهدىء من الغليان الحزبى ونكبح جماحه . . وكان السودان بالطبع هو أقوى وسيلة للتغلب على الخصومات . . فكنا نذكرهم من وقت لآخر بأن السودان سيضيع ويبقى فى قبضة الأنجليز . . وبذلك نثير فيهم نخوة الشباب ومسئوليته نحو المستقبل . . . ولكنى لن أنسى أبداً تلك الظاهرة الغارمة ، التى كان مسرحها مناطق واسعة جداً فى قلب القاهرة ، تبتدىء من الأزهر إلى ميدان العتبة ، فميدان الأوبرا والشوارع المحيطة بها إلى شارع سليمان باشا ، وإلى منطقة الإسعاف مخترقة شارع فؤاد من أوله إلى آخره . . .

كان صدقى باشا مسلطاً على الشعب المصرى سيف حكم الطوارىء بصورة صارمة بسبب حرب فلسطين . . وكان الإرهاب شديداً لا يتوقع معه نجاح أية مظاهرة ، ولكن ما كاد يحل ميعاد المظاهرة المشار اليها ، حتى رأينا العجب . . فقد كانت الخطة محكمة وبالغة الدقة والخفاء ، حتى أن زبانيه صدقى باشا على كثرتهم لم يدركوا شيئاً منها . . حددت ساعة الصفر بلحظة غروب الشمس ، وكان على قادة كل منطقة ، أن يحشدوا جماهيرهم بطريقة لا تلفت النظر ، وهى أن يحتلوا مقاعد المقاهى والمحلات العامة منذ وقت

باكر ، على طول الشوارع والميادين ، فى تلك المناطق المشار اليهـا سابقاً ، وأن يدخلوا كذلك المتاجر ويقفوا على الأفاريز . . كل ذلك بطريقة عادية هادئة . . فكانوا مثلا يشربون الشاى أو القهوة ، ويلعبون الطاولة أو غيرها . . ولكن كل منهم قد ضبط ساعته تماماً ، وأخذ يسارق النظر اليها كلما إقترب الوقت ، حتى إذا ما حلت لحظة الصفر ، هب كل مـن بالمقاهـى والمحـلات العامـة والمتاجر وغيرها ، على طول مسرح المظاهرة وعرضه والشوارع المؤدية اليه . . فرأينا كيف تهب العاصفة العاتية الجبارة ، حينما إندفعت تلك الجموع الهائلة إلى الشوارع ، تهتف ضد حكومة صدقى ومعاهـدة صدقى ، وتنادى بسقوطها وتحطيمها . . واندفع البعض نحـو المركبات العامة ، وأعمل فيها الحرق والتحطيم . . واختفى رجال الشرطة والأمن تماماً ، وفرض المتظاهرون سيطرتهم نحو الساعتين ثم تركوا الميدان وفقاً لخطتهم المرسومة ، دون أن يقبض البوليس على أحد لأنه إختفى تماماً من الميدان . .

فكانت تجربة ناجحة جيدة . . أعطت الأمل فى القيام بأعمال أكبر منها فى المستقبل ، بالرغم من الحكم العرفى والبطش الإرهابى الذى كان يسلطه صدقى باشا على الشعب المصرى .

وفى السودان إندلعت أيضاً المظاهرات وسارت فى شوارع العاصمة معبرة عن الشعب السودانى وسخطه على الإتفاقية ، وخاصة على قولة صدقى باشا : (أتيتكم بالسيادة على السودان) .

وكان طلبة بيت السودان قد أجروا إتصالات متعددة بالسودان مع الأفراد والجماعات . . فتجاوب الطلبة والعمال مع إخوانهـم بمصر وتفجرت المظاهرات التى ألهبت حماس الشعب بأناشيدها الوطنيـة . .

أخــي ما نحن بالأحرار　　لكن نحـــن عبــــدان
أخي ضاقت بنا الأوطان　　مــا للعبــد أوطــــان
إذا كنــا شـــرارات　　فنحــن اليـــوم بركان

وهكذا سارت تعبئة الشعور العام في مصر والسودان . . وبينما كنا نعد العدة للقيام بخطوات أكبر ، نحو قيام الثورة العامة لإسقاط حكومة صدقي وإتفاقيتها . . كانت الأقدار تعد لنا مفاجأة كبرى ، فقد كانت حكومة السودان الإنجليزية ، تعمل هي الأخرى عـلى إستغلال الموقف كله ، واستغلال مشاعر السودانيين ، وخاصة بعد تصريح صدقي باشا . . ولكن بالطبع لصالحها ولبقائها في السودان . فرأينا حاكم السودان العام ، يطير فجأة إلى لندن ، حاملا معــه صورة الموقف الملتهب ، فأطلع عليه المستر أتلي ، رئيس الحكومة البريطانية ، وهدد بأندلاع الحرب الأهلية ، أن لم يتدارك الأمر ، وتلغى الإتفاقية أو تعدل . . . واستطاع بالفعل التأثير على المســتر أتلي ، الذي إنتهز فرصة غياب المستر بيفن وزير الخارجية في أمريكا في مهمة ليومين فقط ، فألغى المعاهدة كلياً ، ولم ينتظر حضــور المستر بيفن ، الذي وقع مع صدقي باشا الإتفاقية بالأحرف الأولى . . فكأنما كانت المسألة مؤامرة للتخلص من الإتفاقية بهذه الصورة التي ساعدهم عليها تصريح صدقي باشا وما فيه من تحريف للأمور .

وكانت مفاجأة مذهلة أن تطالعنا الصحف بنبأ الغاء المعاهدة ، من جانب المستر أتلي . . فأسقط في يد صدقي باشا ، وأصبح عليه الصباح فسكت عن الكلام غير المباح . . . . كما فعلت شهرزاد في الف ليلة وليلة . . .

وهكذا انتهت زوبعة معاهدة صدقي — بيفن وتوقف غليــان المرجل الذي كان على وشك الإنفجار . . ومن الأمانة التاريخية أن

أشير إلى أن ستة من أعضاء لجنة المفاوضات قد تجاوبوا مع الحركة المعارضة لإتفاقية صدقي – بيفن ، وأصدروا بياناً برفض المشروع بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٤٦ ، (يورد النص) من كتاب د . راشد البراوي . . . قام بيت السودان بهذه الحركة الضخمة ، وهو لا يزال وليداً في عهده الأول ، في حي الدقي بالجيزة ، وبدا يبني له مكانة مرموقة ، تكسبه إحترام الناس وتجعله محل تقديرهم . . وكانت له سياسة ثابتة للإحتفال بالأعياد والمناسبات العربية والدينية ، وكذلك تكريم كبار السودانيين عندما يزورون مصر . . وقد أشرت سابقاً إلى تكريم السيد عبد الله الفاضل وقد إحتفينا أيضاً بالسيد إسماعيل الأزهري ورفاقه أعضاء وفد السودان . . كما أقمنا له وللسيد محمد نور الدين عدة إستقبالات .

وعندما أصبح بيت السودان ثلاث بيوت ، واصل بيت المنيرة إهتمامه بالمسائل العامة ولكل ما فيه دعاية للسودان ، فقام بعدة إستقبالات وإحتفالات ببعض الشخصيات ، وبعض كبار المواطنين أمثال الأستاذ الدرديري أحمد إسماعيل ، والدكتور فضل بابكر عند عودته من فرنسا . . والدكتور إبراهيم المغربي لمناسبة إحرازه الأولية على الأطباء النواب بكلية طب قصر العيني . . وكذلك زميله الدكتور الطاهر عبد الرحمن ، ثم الإحتفال بفريق نادي الهلال لكرة القدم وكذلك فريق الموردة والمريخ . . ولا يمكن أن أتذكر كل شيء ، ولكن هناك إستقبال طريف وهام لا زلت أذكره بارتياح هو الإستقبال الثقافي الفريد في نوعه ، الذي أقيم إحتفالا بالشاعر السوداني ، الفحل محمد سعيد العباسي . . فقد كان حقاً إحتفالا ثقافياً بالشاعر وبديوانه ، في شكل ندوة أدبية كبيرة ، حضرها بعض كبار أساتذة الجامعة ودار العلوم والأدباء والشعراء ورجال الصحافة من مختلف ألوانها . .

فعندما تقررت إقامة هذه الندوة ، قمنا بتوزيع نسخ من (ديوان العباسى) على بعض كبار الأساتذة الجامعيين فى كليتى الآداب ودار العلوم ، وطلبنا من كل واحد منهم أن يتناول جزءاً من الديـــوان ليقوم بشرحه ونقده وتقييمه فى الندوة . . وجاءت الأمسية المضيئة التى التقى فيها هؤلاء الأساتذة بكبار الضيوف من سودانيين ومصريين وكبار الصحفيين . . وجلس الأستاذ العباسى فى الصدارة من الندوة بثيابه البيضاء الفضفاضة ووجهه الوقور . . وتبارى المصورون ، الصحفيون فى أخذ مناظر متعددة للعباسى وللندوة العظيمة . .

وانبرى الأساتذة ، كل يؤدى دوره فيما وكل اليه من قصـــائد الديوان ، بالنقد والتحليل والتعليق حتى غطوا معظم أجزاء الديوان . فألقوا بذلك ضوءاً باهراً على ديوان العباسى ، وأعطوا الحاضريـــن تقييماً علمياً دقيقاً ، رشحه كعمل أدبى عظيم ، لأن يأخذ مكانته بين دواوين كبار الشعراء المعاصرين ، فى العالم العربى . ثم تكلم العباسى المحتفى به معبراً عن إمتنانه العميق وتقديره البالغ لما أضفى على أشعاره من تقييم وما لقيه من تكريم ، كما أبدى بعض الملاحظات والتوضيحات ، حول ما قيل عن أشعاره .

وأخيراً تبارى الشبان والطلبة ، بقصائدهم وكلماتهم فأضفوا ، على الندوة من حماس الشباب ما أكسبها مزيداً من الحيوية .

و هكذا أخرج بيت السودان بالمنيرة حفل تكريم العباسى فى تلك الصورة الفريدة ، التى جعلتها ندوة عكاظية ، جلس فيها العبـــاسى وكأنه النابغة الذبيانى فى أبهته وجلاله .

كانت الظروف مهيأة لبيت السودان ، لكى يمضى فى هـــذا الطريق ، ويصبح مركزاً مرموقاً فى كل أمر يهم السودان ، أو يبرز وجهه المشرق الذى ينبغى أن يطل به على العالم : ولكن مع الأسف الشديد

جاءت المعوقات من الداخل ومن صفوف الطلبة أنفسهم .

وقد استقدم وفد السودان كما أشرت سابقاً بعض اخوتنا من الطلبة السودانيين ، بعد أن أخلوا الفرقة الأولى فى كلية الخرطوم الجامعية فى كل فروعها . . وسبقت الإشارة أيضاً إلى بعض البارزين منهم . . وكان ذلك فى أوائل ١٩٤٧ .

لقد استقبلنا تلك المجموعة فى بيت السودان بكل ترحاب وأفسحنا لهم مجال الإقامة فيه ، قبل أن يكملوا شروط الإلتحاق به ، وقبل أن يلتحقوا بالجامعة .

وأذكر إنى قد تركت غرفتى الخاصة ، للأخ عبدالخالق محجوب حتى يجد الهدوء الذى يمكنه من الإستعداد لأداء بعض الإمتحانات التكميلية . . ولكن ما كادت تمضى أيام قليلة على وصولهم ، حتى لاحظنا عليهم بعض التصرفات الغريبة . . فقد كانوا يغيبون اليوم كله ، ويأتون فى المساء بأخبار ومعلومات تدل على أنهم قد إندمجوا فى المجتمع المصرى بسرعة لا تتناسب مع حداثة عهدهم التى لا تتعدى الأيام . . فقد كانت فى القاهرة تحركات ومظاهرات ضد حكومة النقراشى باشا . . وبحكم أنها كانت حكومة أقليات ، فقد كانت المظاهرات ضدها صاخبة ، يقودها بالطبع الوفد المصرى صاحب الأغلبية الشعبية ، وتتعاون معه جميع احزاب المعارضة الأخرى ، وفى مقدمتهم الشيوعيون الذين كانوا يبنون (تاكتيهم) دائماً ، على إستغلال مثل ذلك الجو المتوتر ، لإحراز مكاسب جديدة لهم . . ويبدو أن طلبتنا القادمين حديثاً من الخرطوم ، قد كانت لهم إتصالات وثيقة بالتنظيمات الشيوعية فى مصر التى تلقتهم بالأحضان بمجرد وصولهم القاهرة ، وجعلتهم يندمجون بتلك السرعة — التى أشرت اليها — فى التنظيمات ، وينخرطون فى صفوف المظاهرات ،

بل ويأخذون منها مكان الصدارة .

فقد جاءنا مرة عبد الخالق محجوب ، فى الأسبوع الأول من وصوله ، وعليه آثار ضرب . . فقال أن البوليس قد قبض عليه مع آخرين من المصريين وأعتدى عليهم . . ولكنه ترك عبد الخالق فى النهاية عندما علم أنه طالب سودانى ويقيم ببيت السودان . . وقد جاء البوليس بالفعل معه للبيت ليتأكد من صحة الأمر ، وكنا لا نزال نقيم فى أول بيت بشارع وزارة الزراعة بالدقى ولم نلبث أن نقلنا إلى بيت آخر على شارع النيل . . وكان واسعاً يحتوى على أماكن متعددة وبعضها متباعد عن البعض . . وحاول الطلبة الجدد إشاعة روح التمرد على نظام البيت ، وعدم إحترام القائمين على إدارته ، وعدم التقيد بالمواعيد ، ويتناولون وجبات الطعام ليس فى داخل المطعم كما تقول اللائحة . . فكان بعضهم يأخذون وجباتهم إلى داخل غرفهم لكى تنتظرهم حتى يعودوا فى وقت متأخر بالليل . . كما لاحظنا عقد إجتماعات كبيرة متوالية، من البارزين منهم ، ويحضرها دائماً مصريون ، تعرف بعض الطلبة عليهم ، بأنهم شيوعيون ومن بينهم المشهورون جداً بالشيوعية . . وكانوا يحملون إلى البيت الكتيبات والنشرات بل كل المطبوعات الدعائية لمبادئهم المحظورة .

هنا بدت الخطورة . . وبدأ التخوف من البوليس الذى كان مرهف الحس نحو الشيوعية والشيوعيين . . وتخوفنا بالطبع كان على بيت السودان ، ذلك الوليد الجديد الذى بذلنا وعانينا وضحينا من أجله أغلى التضحيات . . فهل نتركه لهؤلاء الشبان الإغرار ، لكى يتخذوا منه مركزاً للنشاط المحظور ، الذى تحرمه قوانين مصر أشد التحريم . . ؟ هل نغض النظر عن كبار الشيوعيين الذين أخذوا

يترددون على تلك الإجتماعات الليلية ، مستغلين حصانة بيت السودان وأبناء السودان لكى يمارسوا علناً مالا يستطيعون ممارسته فى أى مكان آخر من أوكار إختفائهم ؟ فقد أخذ بعض المصريين المخلصين لنا ، يهمسون معنا بذلك ويحذروننا من السماح لأبنائنا بالتورط فى جلب هذه التهم لبيت السودان . . وأن الملك شديد الحساسية فى هذه الناحية وكذلك الحكومة . . وكنا نحاول نصح الطلبة ونحاول فى نفس الوقت التكتم على تصرفاتهم المريبة خوفاً على البيت . . ولكن لم يطل بنا الحال ، فأن أنف البوليس المصرى كانت طويلة وآذانه مرهفة . . فأخذ رجال الأمن يوافوننا ، ليس بما كان يحدث داخل البيت (بيت السودان) فقط ، بل بكل الإتصالات التى كان يقوم بها بعض الطلبة السودانيين فى المخابىء ، والمظان الشيوعية ، التى لم نكن على علم بها من قبل . فقد كانوا يتتبعونهم وفقاً لخطة خاصة ، ولكنهم كانوا يطلعوننا على طرف من أخبارهم وإجتماعاتهم . . وأخيراً بدأ القبض عليهم ، ويبدو أن الدعاية الشيوعية كانت فعالة فى داخل بيت السودان . . بحيث أصبح بعض الطلبة يحضرون الإجتماعات السرية خارج البيت . . فقد فوجئنا مرة بأن البوليس قد أخذ عدداً كبيراً من طلبتنا ، من إجتماع شيوعى عقد خارج بيت السودان ، ووضعهم فى الحراسة ليومين ، فأسرعنا بالإتصال هنا وهناك ، حتى تم إطلاق سراحهم .

وظللنا بعد ذلك نبذل النصح لهم دون جدوى ، فقد كنا فى نظر الكثيرين منهم ، رجعيين وربما متهمين بالعمالة لبعض الجهات فى مصر ، أو على الأقل كان بعض قادتهم يقولون ذلك ، حتى يخففوا من تأثيرنا على الطلبة . . وكنا نقول لهم أشفقوا على بيت السودان الذى بذلنا فى تحقيقه كل شبابنا ، لكى نعوض به السودان بعض

ما فقده من فرص التعليم والمعارف ، ويستمد بالعلم للكفاح المقبل ولمواجهة عهد ما بعد الإستقلال كذلك . . فكان ردهم غاية في العجب . . (هذا تعليم رجعي وبرجوازي ، وسوف نلغيه قريباً بجرة قلم . . لأن الضربة القادمة لنا ، أي الشيوعيين ، ستكون في وادي النيل بعد أن أخذنا الصين والهند الصينية ، وسيطرنا على برلمان إيطاليا ، وأصبح برلمان فرنسا على وشك السقوط في أيدينا . .) ونرد عليهم (حسناً . . أتركوا بيوت السودان تؤدي مهمتها الحالية ، إلى أن تتمكنوا من السلطة في وادي النيل كما تقولون . . ثم أقفلوها ولكن سحر الدعاية الشيوعية وسلطانها على عقولهم كان شديداً ، جعلها مغلقة على ما كان يرد اليهم من تعليمات (الكمن تيرن) والسياسة الإستالينية ، القائمة على المد الثوري والعنف ، والنظر إلى ما كل ما عدا الشيوعية بأنه باطل الأباطيل — ولسوء الحظ ، كانت هناك أحزاب وطنية كبرى كحزب الوفد ، تشجع طلبتنا الشيوعيين وتمد لهم يد العون ، على إعتقاد أنهم شبان تدفعهم مجرد الدوافع الوطنية ، لمعارضة حكومة الأقلية القائمة ، ولإفساح الطريق أمام الأغلبية لتتولى السلطة ، كما يقضي الدستور والديمقراطية . . أو على الأقل كان الشيوعيون في نظر الوفد ليس لهم وزن خطير في مجرى الأحداث السياسية . فهو يستعين بهم على إسقاط الحكومة القائمة دون أن يخشى رد الفعل من جانبهم .

وعندما كان طلبتنا يؤخذون إلى الحراسة ، كانت تأتيهم الأغذية الفاخرة بكل أنواعها من الوفد . . وإنعكس ذلك كله على موقفنا في بيوت السودان التي بدأ عليهم فيها ، عدم المبالاة بالسلطة القائمة ، إذ لم يكتف طلبتها بالأعمال الشيوعية ، بل زادوا عليها ، المشاركة العلنية لأحزاب المعارضة في العمل على إسقاط الحكومة . كما أن

نشاطهم فى داخل البيوت ، قد أخذ صورة متحدية للمسئولين عن الإدارة . . كانوا يعملون على إسقاط اللجان القائمة للطلبة لإقامة لجان موالية لهم ، ويشنون حملات التمرد على اللوائح . . ويوزعون النشرات والبيانات من وقت لآخر ، حتى أصبح المناخ داخل بيوت السودان ، غير صالح لحياة الطالب الجامعى . . وبدأ لنا الحال ، وكأنما أولئك الطلاب كانوا يعملون فعلا على جر السلطة الحاكمة إلى قفل بيوت السودان ، وإيقاف ذلك التعليم الرجعى البرجوازى كما كانوا يزعمون .

وكنا نعرف ، أن وراء كل ذلك ، كبار القادة الشيوعيين الذين إستطاعوا أن يجتذبوا أعداداً كبيرة من طلبتنا، ويلقنوهم من التعاليم ما جعلهم فى حالة هوس لا يرجى الشفاء منه . . وكانت الحكومة ورجال الأمن على علم بالكثير مما نعرف نحن في بيت السودان . . إتصالاتهم المريبة المتعددة وإجتماعاتهم . . ومشاركتهم وتنفيذهم لخطط الشيوعية وقيادتهم للمظاهرات واعتلاؤهم كتوف الطلاب فى الجامعة لإرسال صيحاتهم المدوية بالهتافات ضد الملك والحكومة . . ولكن الحكومة تزرعت بالصبر ، وتورعت كثيراً عن مد يدها للطلبة السودانيين وبيوت السودان ، وإذا قلنا لإخوتنا قادة الحركة اليسارية ، نحن هنا ضيوف ، وأن بيوت السودان وفرص التعليم ، كلها منحة من مصر ، وأنه لا يحق للضيوف أمثالنا أن ، ينضموا علناً للمعارضة الحزبية ، دخلوا معنا فى مغالطة بأنهم ليسوا ضيوفا . . الـخ والمهم أنهم كانوا لا يبالون بقفل بيوت السودان إن لم يكن ذلك من أهدافهم .

وجاء ذات يوم حادث مؤلم ومحزن ، هو وفاة الطالب صلاح بشرى ، فى أحد السجون ، متأثراً بالدرن الرئوى . . كان هذا الطالب المسكين من طلبة الطب ويسكن فى بيت المنيرة ، ولكنه

مع الأسف كان أحد المغرر بهم إلى الدرجة التى جعلته يستهين ، بمسئولية الدراسة فى كلية كبيرة الأعباء ككلية الطب ، والتى كانت تستعصى فرص الإلتحاق بها على كثير من المصريين . . فكان صلاح يترك حصص الدراسة ويذهب نهاراً لتوزيع المطبوعات والمنشورات الشيوعية . . فقبض عليه البوليس وهو يقوم بهذا العمل ، الذى كان من الممكن أن يقوم به أى إنسان بسيط ، وليس شاب مسئول فى مستوى طالب الطب . .

وجاء البوليس بصلاح إلى بيت المنيرة ، وفتش غرفته وكانت فى سطوح المنزل ، كما أراد هو من قبل ، لكى يكون بعيداً عن الأنظار ، فوجدوا فيها كثيراً من المحظورات الشيوعية . . وثائق ومطبوعات وآلة كاتبة ، مما يقع تحت طائلة قانون العقوبات المصرى وكانت النتيجة ، الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات .

ولا أدرى إن كان صلاح قد أصيب بالسل الرئوى فى السجن أم كان مصاباً به من قبل . ويقول الطلبة اليساريون ، فى منشور أصدروه بهذه المناسبة ، حملوا فيه على سلطات السجن ، واتهموها بالإهمال وإنها لم تستجب لطلب نقله إلى المستشفى فحرمته من العلاج . . وربما كان ذلك صحيحاً لأنه كان معروفاً عن سلطات السجون فى ذلك الوقت ، إنها قاسية لا تعرف الرحمة وخاصة بالشيوعيين . . وكان هذا المنشور فى شكل نداء للطلبة ، حددوا فيه ميعاد تشييع الجنازة من بيت المبتديان إلى مطار القاهرة ، حيث أعدت الحكومة المصرية طائرة خاصة لنقل الجثمان إلى عطبرة ، بلدة المرحوم صلاح بشرى . . وكان ذلك بأمر من الدكتور طه حسين وزير المعارف فى ذلك الوقت .

وجاءت لحظة التشييع بعد أن اكتمل لها إعداد هائل قامت به

التنظيمات الشيوعية ، وشمل كل أحزاب المعارضة . . وفى الساعة التاسعة من صباح يوم التشييع ، كانت وحدات المواكب وصفوفه قد إنتظمت ، وامتدت على طول شارع قصر العينى حتى ميدان (سليمان باشا) . . وفى اللحظة المحددة خرج النعش ملفوفاً بالعلم الشيوعى الأحمر . . فكانت جرأة بالغة أثارت الدهشة عند المراقبين وأخذ المسئولون ينصرفون عن الموكب حتى أصبح فى النهاية ، كالمظاهرة المضطربة . . وزاد الحال فى محيطنا إضطراباً بعد هذا الحادث ، ونشطت حركة البيانات والمنشورات فى داخل بيت السودان ، فمرة يهاجمون لجنة الطلبة ، بقصد تغييرها والتمهيد لإقامة الإتحاد العام . . ومرة يهاجمون لائحة البيت ويصفونها بالقيود وعدم الديمقراطية ، ومرة يهاجمون السيد إسماعيل الأزهرى ووفد السودان ويتهمونهم بالإنحراف فى الكفاح الوطنى ، ومرة يهاجمون شخصى بقصد إستبدالى بمشرف مصرى . . لأن المصرى لا يعرف من أسرارهم ما أعرفه أنا كمواطن سودانى ، ولأن المصرى كثيراً ما كان يتهيب بيوت السودان وطلبتها ، لما كانوا يتمتعون به من حصانة شبه دبلوماسية ، أضفتها عليهم الظروف السياسية السائدة آنذاك . . كما أن المصرى من جهة أخرى لا يعنيه شىء من أمر بيت السودان ، إذا ما تعرض للقفل ، كما يعنى السودانيين الذين يعتبرونه من غرس أيديهم . . (مذكرة) وكنا نلاحظ كذلك على تلك المنشورات أحياناً عدم الجدية . . والهجوم لمجرد الهجوم ومجرد الإثارة ضد الشخص المعنى . . ولا ينتبهون إلى ما كانت تحمله تلك المنشورات من تناقض فى أفكارهم . . لأن الغرض كما قلت هو الإثارة الوقتية فقط . . ففى منشور مهاجمة ترشيح على البرير للبرلمان المصرى . . وصفوا البرير بأنه حارب وفد السودان والسيد إسماعيل الأزهرى

فى مصر ، بينما هم فى منشور آخر لم يبقوا للسيد الأزهرى ، ولا لوفد السودان أى (جنب يرقدون عليه) كما يقول المثل السودانى . . فأتهموهم بالإنحراف والتآمر على القضية مع الحكومتين المصريـــة والبريطانية . . لفصل قضية السودان عن قضية مصر . . وكانـــوا يتتبعون الأزهرى فى تحركاته ونشاطه للدعاية . . فتتعالى هتافاتهم ضده . . ويقتحمون عليه الإجتماعات السياسية العامة ، ويعكرون صفوها باثارة الفوضى والهتافات . . كما فعلوا فى نادى إتحاد خريجـــى الجامعة بشارع الألفى ، حيث كان يلقى الأزهرى محاضرة شاملة عن موقف السودان السياسى .

أما عن على البرير فى ترشيحه للبرلمان ، فقد كانت تهمهـــم خرافية جداً وغرضها الإثارة فقط كما قلت سابقاً . . فلم يكن على البرير ولا من كانوا يساندون ترشيحه للبرلمان المصرى ، من السذاجة بحيث يعتقدون بأن انتخاب على البرير سوف يحقق وحدة وادى النيل ، لسبب بسيط جداً وهو أن البرلمان المصرى آنذاك ليس هو القوى التى تحقق الوحدة . . وقد كان موجوداً هذا البرلمان منذ عشرات السنين بعد إعلان الإستقلال الناقص ، ولم يحقق وحدة وادى النيل . ولكن الذى كنا نهدف اليه ، فى حقيقة الأمر ، هو الحصول عـــلى فرصة لإسماع صوت السودان من خلال البرلمان المصرى ، ولـــو وجدنا الفرصة فى أى برلمان آخر ، ولو كان مجلس العموم البريطانى ، لما تأخرنا فى إنتهازها ، حتى نستطيع أن نشفى غليلنا بالتنديد بسياسة الإستعمار الإنجليزى وفضح خباياه ومآسيه فى السودان .

وما أشبه موقف الشيوعيين من ترشيح على البرير للبرلمـــان المصرى ، بموقف صدقى باشا ، من فكرة وضع دستور للســـودان ، فى مقابل الحركة الدستورية المزيفة التى قام بها الإنجليز فى السودان ، من إنشاء جمعية تشريعية وحكومة سودانية فى شكل وزارة ورئيس

وزراء دستوريين ، كما كانوا يسمونهم إفكاً وتضليلا للعقول . .
فقد أراد المصريون والسودانيون أن يكشفوا تضليل الإنجليز وعدم جديتهم ، بعمل دستور حقيقي مكتمل الجوانب والركايز الأساسية للحريـــة والديمقراطيــة . . والعدالـــــة . . والمســاواه الــخ كما ينبغي ان تكون الدساتير . . ولم يكن بالطبع مقصوداً به التنفيذ والتطبيق ، لأن حكومة السودان قد رفضت حتى التعديلات البسيطة التي إقترحتها الحكومة المصرية لتعديل ما أسمته حكومة السودان بالتطورات والإصلاحات الدستورية هناك . . ففات كل ذلك على دولة صدقي باشا ، فوقف في لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ ، مهاجماً فكرة وضع دستور للسودان ويقول : (إننا لن نستفيد منه ، إلا إذا كانت هناك معاهدة ، لأن حكومة السودان هي التي ستطبقه بعيداً عنا) - ولكن الشيوعيين كانوا يبدون وكأنهم محكومون بنظريات خاصة ، ولا يعنيهم ، في أي أمر من الأمور أكثر من تطبيق تلك النظريات حرفياً مهما كانت النتائج .

أما إتهام على البرير في ذلك المنشور بالخيانة والعمالة والإنتهازية . . الخ فاني أود مخلصاً في هذه المذكرات ، وبعد أن انتقل على البرير إلى الدار الآخرة . . أن أقول ما أعتقد أنه الحق ، وهو أننا « وإن كنا قد إختلفنا مع على البرير يوماً في رابطة الطلبة والنادى السوداني بالقاهرة ، إختلافاً حاداً جعلنا نضيق به ويضيق بنا ، إلا أنه والحق يقال ، كنا كلما تقدمت بنا السنين نشهــد لعلى البرير مــن المواقف والتصرفات الوطنية ما يقربه إلى نفوسنا ويكسبه الإحترام . . فكنا كلما ننتدبه لمشكلة أو لموقف كبير بحكم مكانته الإجتماعيــة ، كلما كنا نجد فيه إستجابة أكبر مما توقعناه . . ولا يمكنني سرد تلك المواقف والتصرفات كلها ، ولكني أذكر أن حركة إصلاح معهد

أمدرمان الديني والمطالبة بضمه للأزهر الشريف ، التي قمنا بها ونحن طلاب في الثانويات والأزهر الشريف في ١٩٣٧ ، كان قد تحتم فيها إحضار موافقة من الزعماء الثلاثــة في ذلك الوقت : السيد عــلى الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي كشرط من الشيخ الأكبر مصطفى المراغي شيخ الأزهر الذي تحدانا به ، وقال أنه لا يمكنه الشروع في تحقيق مطلبنا إلا بتلك الموافقة كما ذكرت سابقاً ، ولم يتردد علي البرير في السفر إلى السودان فوراً لأداء ذلك الواجب الوطني بالرغم من وطأة السلطة الإنجليزية ورقابتها اليقظة في تلك الأيام ، وما قد تتعرض له أعمال علي البرير من أضرار . . .
ثم أذكر دور علي في حركة إنشاء جامع جوبا ومثابرته في العمــل حتى تم إنشاء المسجد وحتى أقيمت فيه الصلوات ، وتعددت مواقف علي بعد ذلك في لجنة التعليم وخدماته للطلبة ولجنة المؤتمر الفرعية بالقاهرة ورحلاته السياسية للسودان ، كلما جد موقف وطني كبير . . فكان البرير يحمل للسودانيين آراء المصريين ويحمل للمصريين آراء السودانيين . . ويشــترك أحياناً في وضع القرار الهام ، كما حدث في قرار مؤتمر الخريجين العام في مذكرته التي طلب من الحكومة السودانية رفعها لدولتــي الحكم الثنائــي لإصدار تصريح يقرر مستقبل السودان . . (ذكر نصه في غير هذا المكان) وكذلك في القرار الأخير للمؤتمر . .

وأذكر أنه عندما قرر علي البرير التنازل عن ترشيح نفسه للبرلمان المصري بسبب الخطر الذي كادت تتعرض له مصر ، من جراء تهديد الحكومة البريطانية لها ، إذا هي سمحت لعلي البرير بدخول برلمانها . وأذكر أن كلا من الدكتور أحمد ماهر رئيس الحكومة والسراي الملكية ، قــد عرضا على علي البرير أن يدفعا له تكاليف الحملــة

الانتخابية التي تكبدها ، وكانت تناهز العشرة ألف جنيه ، وهو مبلغ يسيل له لعاب أي إنتهازي في ذلك الوقت ، فرفض البرير ذلك العرض قائلا : إني لا أقبل تعويضاً في عمل وطني ، ثم تعاقبت ، الأحداث الوطنية . . فعندما بدأ دولة صدقي باشا رئيس الحكومة المصرية ١٩٤٦ إتصالاته مع الحكومة البريطانية لإجراء مفاوضات لتعديل معاهدة ١٩٣٦ . وتسوية الخلافات بين الحكومتين ، بدأ للجميع ضرورة حضور وفد سوداني من مؤتمر الخريجين إما للإشتراك في المفاوضات أو ليكون قريباً من المتفاوضين على الأقل . حتى يكونوا على علم بما يدور في السودان ، حرصاً على توحيد قضية الحرية بين شطري الوادي . وبدأنا نحن في القاهرة نعقد الإجتماعات والمؤتمرات لتحقيق هذا الغرض كما ذكرت في موضع آخر . . أولا ضرورة حضور الوفد ، وثانياً ضرورة تكوينه « تكوينه من جميع الأحزاب وعلى رأي موحد ، وألا يحضر أي وفد لا يمثل كل الأحزاب . حتى لا تعطى الفرصة للطعن فيه . . وكان الأمر يحتاج إلى إتصالات يومية ومطولة بالهاتف ، وكان غالياً جداً ، فجمعنا بعض التبرعات لذلك ، ولكننا كنا نحس بأن علي البرير كان يتجاوز دائماً ما جمعناه ، فقد كانت المحادثة في الليلة الواحدة تبلغ الثلاثين أو الأربعين من الجنيهات .

وبين أوراقي القديمة محاضرة لإجتماعاتنا بدار مجلة السودان ، التابعة لعلي البرير ، وكذلك صورة للبرقية التي أرسلها علي للمؤتمر نيابة عن السودانيين بالقاهرة في ذلك الوقت ، وفيها النصح بالا يحضر وفد لا يمثل جميع الأحزاب . (نص البرقية) .

وعندما تقرر قدوم الوفد وبالصورة القومية الشاملة ، كان على البرير أكثر الناس نشاطاً وبذلا في القاهرة للتمهيد ، وإعداد ما يلزم

الوفد من كل الوجوه . . . الإقامة والتحركات ، والمكتب الرسمي لوفد السودان ، وما لزمه من أثاثات وغرفة للإجتماعات . . الخ وبالجملة فقد وضع على البرير شخصيته وإمكاناته ، تحت تصرف وفد السودان طوال أيامه الأولى ، وكان دليلا ومرشداً في كثير من الأمور . . . وأما إتهام على البرير بالمتاجرة بالقضية الوطنية ، لتنمية تجارته عن طريقه ، وتعاونه في ذلك مع شقيقه الأكبر محمد أحمد البرير ، فليس في واقع حياة على البرير ما يؤيد هذه التهمة. فقد كان وسطاً في مظهره ومسكنه وكل ممارساته اليومية . . ومات في ميدان الأعمال الوطنية، فقيراً لم يورث أبناءه شيئاً من أعراض الدنيا . . وهو الذى كان الثراء بين يديه . . ولو كان متاجراً بالقضية لكان اليوم من أكبر أصحاب الملايين . . والواقع أن من يعرف على البرير عن قرب ليشهد له بأنه لم يكن ينظر للمجد من خلال المال والثراء العريض ، وإنما المجد في نظره هو الأعمال والمواقف الوطنية والصعود بها إلى أعلى القمم . . وكان شقيقاه محمد أحمد وأحمد البرير في السودان يلاحظان هذه النزعة المستحوذة على شقيقهما ، ويرقبان أثرها على أعمالهم التجارية ، وإنها قد جارت بالفعل على تلك الأعمال ، وجعلتهما يفكران في فصل شركتهم معه ، حتى يحل محله من يستطيع التفرغ للعمل التجارى كما ينبغي . . وهذا ما حدث بالفعل كما أشرت من قبل ذلك . . فجاء محي الدين محمد أحمد البرير وحل محل عمه على البرير ، وجاء بعده هاشم محمد أحمد البرير . . وهناك من يأخذ على البرير طموحه الشديد في هذا الميدان ، وحبه للصدارة وإستعداده للبذل من أجلها وتحمل كل أعبائها وتبعاتها . . وهي نزعة لا يتصف بها على وحده ولكنها غالبة بين من يتصدرون للأعمال العامة في بلادنا ، ولعل حال

على البرير بصددها يقول :

(من كان منكم بغير خطيئة فليرمها بحجر)

ومن مواقف على البرير التى تدل على شخصيته واتساع أفقه ، موقفه فى المدرسة السعيدية التى تضم أكبر عدد من الطلبة السودانيين ، ماذكره الاستاذ عماد الدين خاطر المحامى حيث قال : « فقد إشتركت هذه المدرسة مرة فى إضراب سياسى قام به طلبة الجامعة والمعاهد الأخرى ضد حكومة النقراشى باشا ، وتضامن الطلبة السودانيون مع زملائهم المصريين حيث كان الإضراب عاماً ، وكان لقضية السودان صدى واسـع فيه . . وتضايقت الحكومة من سلوك الطلبة السودانيين . . وكانت تريدهـم ألا يشاركـوا فـى ذلك الإضراب باعتباره من أعمال المعارضة التى يجب عـلى الطلبة السودانيين أن يكونوا بمنأى عنها .

وكان ناظر السعيدية ، الأستاذ جعفر النفراوى قد إتهم بملاينة الطلبة فنقل من المدرسة ، فازداد فيها الهياج . . ورأت سلطات ، المدرسة أن ترسل لبعض كبار السودانيين فى القاهرة ، لتتحدث معهم فى أمر الطلبة السـودانيين وضرورة إبتعادهم عـن تلك الإضرابات فتحمس أحد السودانيين فى زجر الطلبة وهددهم بأخذ أسمائهم وإبعادهم إلى السودان . . ثم جاء على البرير وكان موقفـه مختلفاً تماماً . . وأول ما قاله للطلبة : هل كنتم قادة للمظاهرات أو حرضتم عليها ؟ فنفوا له ذلك بشدة وأكدوا له أنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا ، بل أنهم فقط ساروا مع الأغلبية ، فقال البرير : الحمد لله ، أن موقفكم لا غبار عليه ، بل أنى لأفخر بموقفكم هـذا ، ولا أريد من أبناء السودان أن يكونو خارجين على إجماع إخوانهم المصريين أو ينعزلوا منهم فيصبحوا منبوذين بين زملائهم . . كل ما نرجوه منكم أن تفهموا أن هذه بلد الطلبة المصريين ، وليس من شـأنكم

أن تتودوهم للمظاهرات . . ولكن فى نفس الوقت ينبغى ألا ، تتخلفوا عنهم . . . . . وتؤذوا شعورهم . . وذهب على لسلطات المدرسة ، ودافع بهذا المنطق عن مسلك الطلبة السودانيين بل أظهر إعتزازه بهم . . ثم ذهب وقابل معالى السنهورى باشا وزير المعارف وتحدث معه بنفس الأسلوب ، ثم أقنعه بضرورة إعادة الأستاذ النفراوى للسعيدية فأستجاب له السنهورى . . وجاء على البرير فى اليوم التالى إلى السعيدية وبرفقته ناظرها الهمام جعفر النفراوى . .
ولا يزال طلبة السعيدية القدامى يذكرون لعلى البرير ذلك الموقف المشرف ،ومن هؤلاء الأستاذ عماد الدين عثمان خاطر . .
الذى تحدث إلىّ عن ذلك الموقف فى إعجاب وتقدير . . وأذكر لعلى البرير أنه عندما قبض على بعض الطلبة الشيوعيين فى المظاهرة التى أعقبت محاضرة السيد إسماعيل الأزهرى بنادى إتحاد الجامعات المصرية بشارع الألفى بالقاهرة . . إحتاجوا لكفالة مالية لإطلاق سراحهم . . فذهب أعضاء إتحاد الطلبة ، لكبار السودانيين لجمع تلك الكفالة المالية . وعندما ذهبوا لعلى البرير ، كان نصيبه أكبر مما دفعه أى سودانى آخر . . وإعتذر بأنه جالس فى مقهى ، وغير مستعد حالياً لدفع مبلغ أكبر . . كما طلب منهم أن يعودوا اليه فى مكتبه ، لكى يتمكن من دفع أى مبلغ يحتاجون اليه . . ولم يأبه على البرير بما كان يقوم به الطلبة الشيوعيون ضده من مهاجمات وإصدار المنشورات .

وأما إتهام على البرير بأنه شق الطلبة إلى قسمين ، فالواقع أن الطلبة السودانيين بمصر كانوا قد إنصهروا فى بيت السودان وأصبحوا كلمة واحدة .. وقد بلغوا فى ذلك درجة لم يبلغها أى مجتمع للطلبة من قبل ، وذلك أن غيرتهم على سمعة السودان ، قد جعلتهم يكونون مجلساً خاصاً لمحاسبة من يخطىء فى حق السودان ، أو يأتى بأعمال أو مسالك مشينة بسمعته.وكان الطالب المخطىء يتقبل محاسبة ذلك المجلس بكل إرتياح ، وقد تطورت المحاسبة أحياناً ، فتصبح توبيخا

وفقاً لما إرتكبه الطالب أو تكرر منه ، مما يؤذى سمعة بلاده . . .
فكان المخطىء يتقبل التوبيخ أو العتاب من المجلس الخاص بنفس راضية تكفيراً عن أخطائه . . وكان هذا كله قبل أن يصل الطلبة الشيوعيون القاهـرة .

فالطلبة السودانيون فى الواقع لم ينشقوا إلى قسمين ، إلا بعد مجىء الشيوعيين وإذا أنصف هؤلاء أو إهتموا بمعرفة الحقائق ، فأن الطلبة لم ينقسموا إلى بريريين وغير بريريين ، وإنما إنقسموا إلى شيوعيين وغير شيوعيين وحتى لا يجعلوا بيت السودان مجالا للشقاق وللشيوعية ، بحث الطلبة غير الشيوعيين عن دار لهم ، فوجدوا النادى السودانى يفتح لهم أبوابه كالمعتاد ، فكونوا فيه رابطتهم ، وليس لعلى البرير سلطان عليهم وإنما كانوا يحترمونه ويقدرون له مواقفه الوطنية ، وتاريخه الطويل فى خدمة الطلبة والتعليم . . كما أن النادى لم يكن يمن عليهم بوجودهم فيه ، لأنهم ، أولا لهم حق العضـوية فيه ، وثانياً كان من دواعى فخر النادى أن ينضم اليه مثل هذا العدد الضخم من الطلبة الجامعيين وأن يزاولوا مناشطهم المشروعة فيه . كما أن الشيوعيين كانوا يتهمون على البرير بالعمالة ، وأن ذلك العـدد الضخم للطلبة الذين إنضموا إلى الرابطة ، كانوا أذناباً لعلى وللسراى الملكية . . والواقع أنه لم يبد أى أثر من ذلك ، لا على البرير ، ولا على طلبة الرابطة ، فعلى البرير كما قلت سابقاً ، كان يعيش عيشـة وسطاً أو دون الوسط بالنسبة لأقرانه فى القاهرة . . وأما طلبـة الرابطة فلم يكن بينهم من كان إنفاقه على نفسه يربو على إحتياجاته الضرورية جداً ، وكانت مظاهر النعمة عندهم أقل بكثير مما هى عند قادة الطلبة الشيوعيين . . فى حين أن عملاء القصر على مستـوى شخصية كعلى البرير ، او الطلبة الجامعيين ، وخاصة إذا كانـوا من أبناء السودان ، فقد كان المفروض أن يفرش طريقهـم ، (بالبنكنوت) كما يقولون .

وكما كان الشيوعيون يتهمون غيرهم بالعمالة والذيلية . . الخ

فان خصومهم أيضاً كانوا يردون عليهم بأنهم عملاء وببغاوات يرددون الأفكار المستوردة غير الأصيلة ، فى تبجج وإرهاب الآخرين وتنكرهم لتقاليد بلادهم ومثلها الطيبة ، وكذلك إنصياعهم الأعمى وراء السياسة الخارجية للإتحاد السوفيتى ، ودفاعهم عن تقسيم فلسطين ، ضد مشاعر الأمة العربية والإسلامية ، كل ذلك قد جعل خصوم الشيوعيين يتمسكون بالوحدة تحت تاج الملك فاروق ، ويبنون كل مواقفهم على هذا الأساس . . وهو موقفهم القديم ، ليس فيه عمالة ولا ذيلية ، لأنه كان مبنياً على السياسة العامة التى قررها مؤتمر الخريجين العام، نيابة عن الشعب السودانى . . أما الشيوعيون فلا قرار لهم ، فهم دائماً مع سياسة الإتحاد السوفيتى سواء إتفقت مع السياسة الوطنية أم إختلفت عنها . .

ومن جهة أخرى فهم خياليون مغرقون فى الخيال . . وذلك أنه ما يكاد يتحقق لهم جزء من سياستهم أو أهدافهم ، ولو كان يسيراً جداً ، حتى يطلقوا لخيالهم العنان بأنهم مكتسحون ، وأن الأمور قد دانت لهم ، وأنهم أصحاب الموقف . . الخ فتأتى كل تصرفاتهم بعد ذلك وفقاً لخيالهم الجامح ، الذى كان يسد عليهم المنافذ ، ولا يعطى الفرصة لناصح أو موجه مهما كان إخلاصه . . ولعل هذا سر فشلهم فى كثير من مواقفهم . . ونعود لبيوت السودان لنجدها قد فقدت هدوءها وسادها التشويش والضوضاء . . حتى ضاق الطلاب بتلك الأحوال وكتبوا بشأنها المذكرات لوزارة المعارف ، وذهبوا للأستاذ إسماعيل الأزهرى ، ورجوه فى الإتصال بالوزارة التى مدت فى حبال الصبر أكثر من اللازم (مذكرة الطلبة)

وأذكر أن الرئيس إسماعيل الأزهرى جاء لزيارة البيت مرة لتفقد أحواله . . وعند خروجه كتب على لوحة البيت كلمة وجهها للمسئولين فى وزارة المعارف يرجوهم فيها أن يكفوا عن المبالغة فى التسامح الذى أصبح تدليلا يفسد الطلبة السودانيين . . وساق لهم الحكمة الإنجليزية (“ Do not spare the rope Spoil the Child ”
والحكمة العربية أيضاً :

وقســا ليزدجروا ومن يكن حازمــاً

فليقس أحياناً على من يرحــم

وذلك فى الوقت الذى يشكو فيه الطلبة الشيوعيون ، من أن الخناق مضيق عليهم فى بيوت السودان ، ويحملون بنوع خــاص على عدم السماح لهم بالمناقشات السياسية داخل البيت . . وهم يعلمون أن المنع ليس مقصوداً به القضايا الوطنية ، لأن بيت السودان كــان مركزاً للنشاط الوطنى . . كان يخطب فيه الرئيس الأزهرى ورفاقه . . كما ذكر الشيوعيين فى منشوراتهم . . ولعب كذلك بيــت السودان ، أكبر دور فى تحطيم مشروع معاهدة (صدقى – بيفن) كما أشرت ســابقاً . . وذلك كله قبل أن تحضر مجموعــة الطلبــة الشيوعيين وتقوم بنشاطها وتصرفاتها المشبوهة .

فمنع المناقشات السياسية داخل بيت السودان ، سببه تـــلك الإجتماعات الكبيرة التى كان يعقدها الطلبة الشيوعيون فى داخــل البيت ، وتستمر إلى وقت متأخر من الليل ، ويتردد عليها كبــار الشيوعيين المصريين ، وسببه أيضاً تلك الدعاية البالغة الخطورة التى كان يبثها الشيوعيون بين الطلبة ، من أنهم يؤيدون تقسيم فلســطين وأن حركة العرب لإنقاذ فلسطين رجعية . . الخ

وعندما بلغ السيل الزبى ، وضج المشرفون على بيت السودان بالشكوى من التحدى وعدم المبالاة من أولئك الطلبة . . وتكررت الحوادث المنذره بالخطر ، كتهجم أحد الطلبة على معاون البيت ومحاولة ضربه وكأخلال أحد الطلبة بالنظام فى كلية الطب مرات متعددة ، حتى إضطرت الكلية لوقفه عن الدراسة وعدم السماح لهبدخولها . . وكان مسلك هذا الطالب بالبيت أسوأ منه فى الكلية . . ثم كمسلك ذلك

الذى جاء متأخراً جداً بالليل وبحالة سيئة ، وتحرش بزميله وإنهال عليه بالضرب ، لولا أن أسرع زملاؤه الذين أيقظتهم الضوضاء ، فأنقذوا زميلهم المعتدى عليه . .

عندئذ رأت لجنة الشئون الثقافية للسودان ، صوناً لكرامة البيوت وحماية لأغلبية الطلاب ، حرمان الخارجين على النظام ، من الإقامة في بيت السودان ، ومن إمتيازات البعثة الداخلية . . وقصرت هذا العقاب على تسعة من الطلبة فقط . . وقد عثرت على أسمائهم في البيان الذى نشروه فى تلك الأيام بعنوان (تقرير عن مشكلة الطلبة السودانيين) وهم أحمد سليمان ، على محمد إبراهيم . وعوض عبد الرازق ، حسان محمد الأمين ، عمر حسن مدثر ، عبد الخالق محجوب ، عبد الغفار عبد الرحيم ، التيجانى الطيب . وأحمد خوجلى . . ولكن هؤلاء قد ردوا على العقاب . باثارة بعض زملائهم وقرروا الإعتصام ببيت المبتديان الذى كانت توجد به مكاتب إدارة شئون السودان . . فتجمهروا بداخل هذا البيت وأقفلوا جميع أبوابه . . . وفى منتصف الليل إقتحموا أبواب . مكاتب الإدارة ، وحطموا بعض نوافذها وأدراج المكاتب وعبثوا بمحتوياتها وأوراقها . . وبقوا فى داخلها لليوم الثانى . يقفون على الشرفات المطلة على الشوارع ويرسلون هتافاتهم العدائية ضد الحكومة وضد الملك وضد الإدارة الخاصة ببيت السودان ، فأضطر المسئولون لإستدعاء البوليس لوقف عدوان هؤلاء الطلبة وتخريبهم . . ولم يفت الوزارة أن تقدم للطلبة المفصولين من بيوت السودان المساعدة ، التى تمكنهم من الوصول لأولياء أمورهم ، فأعطت كل واحد منهم خمسة جنيهات وتعهدت بدفع نفقات سفره إلى بلده متى ما أراد ذلك .

هذا من جانب وزارة المعارف ، أما جهاز الأمن العام فقد كانت له تنيماته وأساليبه الخاصة . . وقد أصر على إبعاد أفراد قلائل منهم فرحنهم للسودان . . ولعل المراجع الشيوعية وقياداتها ، قد إرتاحت جداً لإبعاد الطلبة الشيوعيين إلى السودان ، فان قيادة حركتهم هناك أهم بكثير عندهم من التعليم الرجعى البرجوازى . . !!!

وكم كان حرجنا شديداً جداً نحن السودانيين ، من تصرفات أولئك الطلبة وعدم تقديرهم لأى شيء . . ومن الغريب أنهم ذهبوا لمحمد عبد الهادى بك مراقب عام التعليم المصرى بالسودان ورجوه أن تعفو عنهم الوزارة وتعيدهم إلى بيوت السودان ، فرفض عبد الهادى بك وبلغهم أن الوزارة جادة فى الأمر حرصاً على بقاء بيوت السودان وسمعة طلبتها . . كما ذكروا فى أحد منشوراتهم .

وعندما يئسوا ، قاموا بتحريض عدد من الطلبة على الإنسحاب من بيوت السودان ، إحتجاجاً على فصل الشيوعيين . . فأستجاب لهم البعض ولكنهم كانوا أقلية صغيرة لم يتأثر بهم تكوين بيوت السودان .

على أى حال فان البيوت قد تنفست الصعداء بأخراجهم منها وأخذت تستعيد هدؤها وإستقرارها وإستتباب النظام فيها .

ومما أزال عنا — كسودانيين — بعض الحرج ، أن أغلبية الطلبة السودانيين كانوا بخير ، ولا يقلون عنا حماساً لبيوت السودان ، وغيرة على سمعة طلبتها . . وتقديراً لما يلقونه من عطف الحكومة المصرية ورعايتها . . فقرروا أن يتعاونوا للقضاء على أى نزعة للتخريب ، تقتحم عليهم حياتهم الداخلية ، وتبدل هدؤهم بالفوضى والإضطراب . . فكونوا لذلك جهازاً أو لجنة من طلبة البيوت الثلاثة

اسموها (لجنة الإتصالات العليا) ، أخذت على عاتقها التعاون مع الإدارة على تحسين سمعة البيوت وإستتباب النظام فيها .

وأذكر أن لجنة الإتصال هذه قد بعثت بمذكرة لمعالى وزير المعارف كما أشرت سابقاً ، بواسطة المراقب العام للتعليم المصرى بالسودان . . يعتذرون فيها عما حدث من زملائهم فى بيوت السودان ويصفونهم بأنهم قلة لا ينبغى أن تؤاخذ بأخطائها الإغلبية الساحقة من طلبة البيوت . . ويقطعون على أنفسهم العهد بأن يكونوا حماة لتلك البيوت ، يقفون بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه بتعكير صفوها . كل ذلك فى عبارات تنطوى على العرفان بالجميل لمصر وبالشكر الخاص للوزير نفسه (لما يلقونه فى أحضان وزارة المعارف من حب صادق ورعاية كريمة . . وأن وزارة المعارف حين تفتح صدرها لأفواجهم المتعاقبة إنما ترمى إلى النهوض بجنوب الوادى وبناء مستقبله على أقوم الأسس وأبقاها . .) . . وقد أشارت هذه المذكرة بأنه لا يزال فى داخل البيوت أفراد من نوع المبعدين ، يحاولون مواصلة الدعاية الخبيثة وتنفيذ تعليمات المبعدين . . ويقترحون إبعاد هؤلاء أيضاً من بيوت السودان ، ويمكن إعطاؤهم فرصة خارج البيوت مع ضمان تعليمهم ومعيشتهم ، بعيداً عن بيوت السودان . .

وتبدى المذكرة أيضاً تخوف الطلبة مما ترامى إلى أسماعهم ، من أن الطلبة المفصولين قد إتصلوا ببعض الصحفيين الذين جاءوا من السودان لحضور المعرض الزراعى الصناعى ، ورجوهم أن يلتمسوا من وزارة المعارف إعادتهم لبيوت السودان . . فيقولون فى ذلك : أما كفانا ما حدث فى السنة الماضية ، وما يقوم به بعضهم فى الوقت الحاضر أيضاً ، من محاولات لتخريب بيوت السودان من الخارج . بواسطة أذنابهم الذين أشرنا اليهم . . ولكن البيوت والحمد لله (قد

إرتاحت من شرهم وتذوقت طعم الهدؤ) منذ أن غادروها وذلك ، (بالرغم من أنهم لم يكفوا عن محاولة إفسادها من الخارج كما تبين أخيراً) ويهيبون بالوزارة (ألا تقبل فى أمرهم أى وساطة مهما كان شأنها ،) (والمصلحة العامة فى نظرنا أعلى من كل إعتبار . .) ولتعطف عليهم الوزارة ما شاءت بالتعليم والمعيشة (بشرط ألا يسكنوا فى بيوت السودان) .

ووقع نيابة عن لجنة الإتصال العليا لبيوت السودان الطلبة : حسن عبد العزيز القبانى وعثمان عوض الله ، أحمد عباس بدر ، عبد الباقى عمر عطية ، عباس موسى ، محمد مرضى المامون ، أحمد هاشم ، محمد محمد على باشا ، محمد السيد إبراهيم . . وهناك ، ملاحظة هامة لابد من إبدائها فى هذا المقام ، وهى إختيار الموظفين لإدارة السودان الثقافية أو بيوت السودان . . فقد كانت نوعية اولئك الموظفين محل إنتقاد عند السودانيين المعنيين بقضايا السودان ومصر . . فقد كان الملاحظ على موظفى إدارة شئون السودان الثقافية أو بيوت السودان ، إنهم من عناصر عادية جداً ، من ذوى العقليات المحدودة المحصورة فى العمل الخاص أو الروتين الديوانى ، وليست لهم من الإدراكات العامة ولا الآفاق السياسية ما يجعلهم يدركون خطورة مؤسسة ، (كبيت السودان) أو يتفهمون عمق أبعادها السياسية والوطنية .

وأغلب الظن أن الذين كانوا يختارونهم لم يكونوا ليأخذوا تلك الإعتبارات فى حسبانهم . . وأن الطلبة السودانيين فى نظرهم أشبه بطلبة الأقاليم أو أكثر بساطة منهم ، ولا تحتاج إدارة شئونهم إلى إختيار دقيق أو لتوفير حصافة خاصة فيمن يعهد اليهم بمهمة رعايتهم .

وكثيراً ما كنا ننبه المسئولين لخطورة ذلك المسلك ، بالنسبة

لأهمية بيوت السودان وما تنطوى عليه من أبعاد وطنية وسياسية . .
وأن الطلبة الجامعيين السودانيين ليسوا بالبساطة التى يتصورها رجال وزارة المعارف ، لأنهم نشأوا فى مجتمع يعمل كل المتعلمون فيه بالحركة الوطنية ، وطلبة المدارس الثانوية فى السودان كانوا فى مقدمة تلك الحركة . . فطلبة بيت السودان ، من هذه الناحية ، قد جاءوا لمصر بعد أن شاركوا فى الحركات الوطنية ، وكانت لهم ممارسات سياسية أيضاً . . ومن جهة أخرى كانوا طليعة النضال الوطنى ضد الإستعمار . . كما أن هناك تيارات فكرية وسياسية كانت تعمل فى محيطهم وتؤثر عليهم .

وفوق هذا وذاك ، كانوا رسل ثقافة لتقوية الأواصر بين مصر والسودان ، وربط الكفاح الوطنى بين الشعبين الشقيقين .

ولهذه الإعتبارات كلها كان ينبغى التدقيق فى إختيار من يعملون فى محيط بيوت السودان ، على هدى ما ذكرت من إعتبارات ، وعلى هدى الأهداف العظيمة التى كان ينطوى عليها إنشاء بيت السودان بالقاهرة .

وهذا ما لم يتم مع الأسف ، إذا كانت الإختيارات تتم كما يتفق ، ولعل بعض الموظفين كانوا من غير المرغوب فيهم ، فى مواقعهم القديمة أو من الذين يراد ترقيتهم روتينياً إلى وظيفة جديدة .

ولا أبالغ إذا قلت أن مسلك وزارة المعارف من هذه الناحية قد أضر كثيراً بالمصلحة العامة المشتركة بين السودان ومصر ، وأنه قد جر على الطلبة السودانيين الكثير من المشاكل والمضايقات ، بجانب ما كان يقوم به بعض أولئك الطلبة من تصرفات خاطئة ، تجر أيضاً إلى المشاكل والتعقيدات . .

وعندما رجعت بذاكرتي إلى ١٩٤٦ ، وجدت بعض الأخبار تشير إلى مجموعة الطلبة الشيوعيين التى إبتلينا بها فى بيت السودان من أنها كانت قد بدأت تمارس نشاطها فى داخل حزب الأشقاء وفى أروقة مؤتمر الخريجين بأمدرمان ، وتدعو لمبادئها الشيوعية ، بنفس الوسائل التى غمرت بها محيط الطلبة السودانيين فى مصر . . ومن بينها قولهم للشباب فى تلك الأيام ، أن مبادئهم الشيوعية قد جعلتهم يهتدون إلى أقصر الطرق لإخراج الإستعمار . . وأن الأساليب ، المتبعة فى ذلك الوقت غير مجدية . . الخ ، وحتى يمكن لهم إجتذاب الشباب من هذه الزاوية الوطنية البحتة .

ولكن يبدو أن قادة الشباب الأشقاء وعلى رأسهم أمين المرضى ، كانوا لهم بالمرصاد . . ولا أدرى إن كان مجيئهم الجماعى لمصر وغيابهم عن العاصمة ، ولو لفترة سنوات كان من أجل التعليم فقط أم أن لخبث بعض قادة الأشقاء يد فى تشجيعهم على الهجرة لمصر ، تخلصاً من مضايقاتهم وضوضائهم بعض الوقت ، أم أن المراجع الشيوعية فى مصر كانت على إتصال بهم وكانت تحاول إستخدامهم أو إستقدام قادتهم على الأقل ، دون أن يعلم أذكياء الأشقاء بذلك . . ؟؟ على أى حال فقد كان صوت الشيوعيين هو أول صوت جماعى يرتفع فى مصر ضد . . الأشقاء وبكل الوسائل . . التظاهر والهتافات والمنشورات ، والمهاجمات العنيفة والتشويش أثناء الإجتماعات أو المحاضرات . .

والمصيبة الكبرى ، أن أفكار العنف والمد الثورى ، هى التى كانت تستحوذ عليهم ، وكان إعتقادهم جازماً ، بأن الشيوعية هى وسيلة الإنتصار والإستيلاء على السلطة فى مصر والسودان ، متأثرين فى ذلك بأخبار الإنتصارات العسكرية التى أحرزها الشيوعيون فى

الهند الصينية والصين ، ثم الإنتصارات الجماهيرية الأخري في أوربا . . وفي البرلمان الإيطالي ، وفي فرنسا ، وما كان وراءها من آمال لهم في دول (أثيني او كس ؛ أي غرب أوربا ، لولا مشروع مارشال الأمريكي الذي بدد أحلامهم . . بمعوناته المالية والعينية ، ومشروعات الإنعاش والإنقاذ لشعوب غرب أوربا من بؤسها ، الذي خلفته لها الحرب العالمية الأخيرة .

هذه هي العلة الكبرى التي كانت تجعل الطلبة الشيوعيين لا ، يأبهون ، بل يستخفون بأي شخص غير شيوعي ، وكذلك كانت نظرتهم لأي فكر غير ماركسي .

وبعد أن مرت سنوات ، وهدأت الأفكار العاصفة ، وتلطفت المشاعر الجامحة ، أمكن لبعض الأخوة الشيوعيين ، أن يبصروا نقاطاً كثيرة ، للالتقاء مع غيرهم ، فأفدنا من ذلك وسارعنا للالتقاء بمن كانوا بالأمس لا يبادلوننا مشاعر الود التي كنا نكنها لهم في جوانحنا ثم جاء عهد الزعيم الروسي الكبير خروشوف بعد سنوات من تلك الأحداث ، فأرسل قولته المشهورة : (التعايش السلمي) فكانت فتحاً جديداً في عالم السياسة الدولية ، إذ أحال خروتشوف الشيوعية من بعبع يرهبه الناس ، إلى مخلوق مقبول يمكن التعايش معه . . . وكنت في السنوات الأخيرة أداعب بعض أصدقائي من الشيوعيين الذين إكتوينا بنارهم في مصر ، وأقول لهم : (ليت خرشوف كان قد ظهر قبل تلك الحوادث المؤسفة . .)

والآن نعد مرة أخرى لمكانة بيت السودان الأدبية ، التي إكتسبها أثناء مسيرته العاذية ، حيث نجد بعض الأوراق القديمة ، التي تساعد الذاكرة على إستعادة بعض ما عفت عليه السنين . . فمن مدينة بورتسودان نجد المواطن الكبير مولانا الدرديري محمد عثمان

قاضي بورتسودان في ذلك الزمان، يكتب إلى في بيت السودان بالمنيرة بالإشتراك مع الوطني الغيور الأستاذ محمد أحمد سليمان ناظر مدرسة بورتسودان الإبتدائية ١٩٤٨ . . فيعرفاني أولا بالمدرسة ، ثم يطلبان مني القيام بمهمة إختيار عدد من المدرسين لمدرستهم . . وقد أعلنوا عن ذلك في الصحف المصرية، ويعطياني كل الصلاحيات . لإختيار أما أراه صالحاً ممن يتقدمون . . كما نجد أيضاً من الخرطوم، البروفسور مكي شبيكة رئيس نادى الخريجين بالخرطوم يرسل لنا قائمة الكتب التي يريد تزويد مكتبة النادى بها ، لكي يتصل بوزارة المعارف ونعمل على إرسالها لنادى الخرطوم . . كما ألمح بين وقائع بيت لمنيرة في ذلك الوقت ، نوفمبر ١٩٤٧ ، أنه أقام حفل إستقبال كبير للشاعر الكبير إبراهيم دسوقي أباظة وزير المواصلات آنذاك الإهتماماته بشئون السودان . . وقد كان حفلا عامراً بالشخصيات الكبيرة من الساسة والأدباء والصحفيين ، وقد كان حلقة الوصل في ذلك اللقاء العظيم : الأستاذ محي الدين الحلواني ، صديق بيت السودان وصديق الوزير المحتفى به ، وهو من خريجي كلية دار ، العلوم ، وقد عمل مدرساً بمدارس السودان بعض الوقت تحقيقاً لرغبته وحبه للسودان . . وقد تبودلت كلمات الود والتقدير للأديب الكبير والشاعر الفحل السيد دسوقي أباظة وتجلت فيها عبارات ، العرفان بالجميل لصديق السودان الكبير .

وأذكر أننا خاطبنا السيد الوزير في ذلك الحفل بأن السودانيين يتحدثون عن الثمن الباهظ لمحادثات التلفون، ويبدون شكايات بلا إنقطاع . . وللأهمية القصوى للمحادثات التلفونية بين البلدين ، وخاصة في تلك الظروف ، التي تحركت فيها القضية الوطنية . . فأنا لنلتمس من السيد وزير المواصلات أن يشمل الأمر بعطفه

ويأمر بتخفيض أجور المحادثات التلفونية ، بما يخفف على الناس عبئها ويسهل الإتصالات التي أصبحت ضرورية في تلك الأيام .. وكانت الإستجابة سريعة هذا الرجاء .. إذ ما كاد يمضي الأسبوع ، حتى خفضت أجور المحادثات التلفونية إلى النصف . واتسع أيضاً في طيات الذاكرة بعض الزيارات لبيت المنيرة ... كزيارة أبي الأطباء الدكتور علي بدري ، وإحتفاء الطلبة به وتجاذبهم معه أطراف ، الحديث ، وإستفادتهم من علمه وتجاربه الغزيرة ، ليس في ميدان الطب وحده وإنما في مختلف مجالات الحياة ، مما جعل زيارته ذات أثر طيب ... ومن زوار بيت المنيرة من الشبان المهتمين بمستقبل التعليم والحركة الوطنية في السودان في ذلك الوقت . خلف الله بابكر والمرحوم عثمان أحمد عمر (عثمان) وصديقه حسن مختار اللذان نزلا ضيفين على بيت المنيرة في صيف ١٩٤٧ .. حيث وقفا على معلومات وافرة عنه وعن كل ظروفه وأحواله .. ثم زيارة الطبيب محمد خير (الزعيم) كلما وصل القاهرة وكذلك كان يزورنا كثيراً شاعر العروبة المغفور له عبد الله عبد الرحمن الأمين .

زيارة فريق الهلال لمصر

وتشير أوراقي القديمة فيما تشير اليه ، إلى زيارة الأندية الرياضية السودانية وإجراء مباريات في أنديتها المختلفة مع فرق كرة القدم المصرية وأن أول تحرك من هذا القبيل كان من نادي الهلال العاصمي.. وقد أشرت اليه في موضع آخر ، فقد وصلتني منه برقية في مارس ١٩٤٧ على ما أذكر من وادي حلفا ، يقول فيها أن الفريق سيصل القاهرة بعد يومين ، ويناشدنا العمل على راحتهم وضمان نجاح الرحلة ، والإتصال بحيدر باشا رئيس الإتحاد الرياضي .. وكنت منهمكاً في إستكمال تأثيث بيت المنيرة وتنظيمه .. ولكني تركت

كل شيء ، بمجرد إستلامي للبرقية . وذلك لضيق الوقت وانعدام معرفتي بأي شيء عن هذه الرحلة المفاجئة . . وأول خطوة لي ، كانت هي ذهابي لحيدر باشا مدير عام السجون ، ورئيس الإتحاد الرياضي في ذلك الوقت . . فقابلته وكان معي الدكتور إبراهيم المغربي ، الطبيب الجراح المعروف ، حيث كان ملتحقاً بقسم النواب بكلية طب قصر العيني . . لكن حيدر باشا أثار دهشتنا بتملصه من الزيارة ، وعدم التزامه بأي شيء نحوها . . وقال أنه سيكون غير موجود بالقاهرة في يوم وصول الفريق السوداني . . وقال إني نصحتهم بألا يحضروا لأننا في أواخر الموسم الرياضي ، ولن يجدوا من الفرق الكبرى من يتبارى معهم . . الخ وحاولنا إقناعه بأن فريق الهلال السوداني ، يزور مصر لأول مرة ، وأن أعضاءه كلهم مـن الشبان الموظفين ، وقد رتبوا إجازتهم السنوية ، حيث تكون متفقة مع بعضها في هذا الوقت . . إنهم ومن ورائهم كل السودانـيين يعلقون على هذه الزيارة آمالا كبيرة . لتنشيط الصلات بين الشعبين الشقيقين . . الخ . ولكن دون جدوى ، فقد خرجنا منه ، دون وعد قاطع بشيء ، غير قوله لي ، إتصل بي غداً . . ولم أضيع الوقـت مع حيدر باشا ، فذهبت فوراً إلى وزارة المعارف ، لمقابلة الدكتور السنهوري وزيرها الهمام . . فكتبت مذكرة صغيرة ورجوت بشير بك حامد مدير مكتبه لإدخالها له . . وبعد تردد دخل بشير بك على الوزير وقدم اليه المذكرة وهو غير مقتنع بأن زيارة الفريق الرياضي السوداني من إختصاص وزارة المعارف . . ولكنني كنت واثقاً من موقفي بالنسبة لما أعرفه من الأفق الواسع الذي يتمتع به السنهوري . . وفي لحظة عاد بشير بك مسرعاً ليأخذني إلى الوزير وما كدت أحييه حتى أخذ يسألني عن قصة فريق الهـلال . . وما كدت أتبـادل

معـه بعض الكلمات ، بأنه أكبر فريق رياضى فى السـودان ، وأنه يزور مصر لأول مرة . . . وأن نجاح هذه الرحلة سيكون له صدى طيباً لا يخفى على معاليكـم . . كما أن فشلهـا سيكـون له على العكس صداه السيء وأن الإنجليز سيستغلونه فى الدعاية ضد مصر . . . . . الخ حتى بدأ الإهتمام على ملامحه . فأستدعى السكرتير المالى للوزارة وطلب منه أن تتحمل وزارة المعارف كل نفقـات زيارة فريق الهلال الرياضى لمصر ، بما فى ذلك الإقامة والتغذيـة والمواصـلات . . الخ . . فشكرت الوزير بكل ما إستطعت مـن العبارات ، وما كدنا نخرج من مكتب الوزير حتى أخذنى بشير بك لمكتبه ليشهدنى على الإتصالات ، التى أجراها مع نظار المدارس ، الثانوية ذات الأقسام الداخلية . . وقد حدد لإقامتهم أى أعضـاء الهلال نادى المعلمين بالجزيرة ، كأنسب مكان ، لأن مبانيه تطل على ميادين النادى الأهلى وأبوابه تفتح على تلك الميادين ، مما يمكنهم من إجراء تمارينهم الرياضية فى أى وقت . . وما كاد ينتهى نهار ذلك اليوم حتى وصلت إلى نادى المعلمين كل الأدوات المطلوبة للنوم أو المائدة أو الطهى وكذلك عدد من الفراشين والطباخين والسفرجية . . وبذلك تمكن المشرفون على ضيافة نادى الهلال من إعداد كل شيء . جعله على أهبة الإستعمال ، قبل نهاية اليوم السابق لوصول الهلال بما فى ذلك العربات ، التى كانت بمحطة القاهرة قبل وصول القطار المقل للفريق الزائر . . والذى ما كاد ينزل من القطار حـتى دوى التصفيق من الجماهير الغفيرة التى كانت بالرصيف . . فكان إستقبالا عظيماً . إنشرحت له نفوس الزوار الكرام . . ونشط الصحفيون فى التقاط الصور التذكاريـة التى ظهـرت فى صحف اليوم التالى بصورة معبرة عن حرارة اللقـاء . . . .

وكان سرور السنهورى باشا عظيماً عندما قرأ أخبار وصـول

الهلال ورأى الصور التى تدل على الإستقبال الحافل للفريق الزائر . . فكلف بشير بك حامد وشخصى بزيارتهم نيابة عنه والترحيب بهم والإعتزاز به حتى يتمكن من زيارتهم فى أقرب فرصة . . وإلى ذلك الوقت لم يكن أعضاء الهلال يعرفون قصة إستضافتهم كيف تمت . . وذلك لإنى كنت منهمكاً كما أشرت سابقاً فى تأثيث بيت المنيرة . ولم أتمكن من الذهاب لمحطة القاهرة لإستقبال الهلال الذى كان قد تم له كل شيء . . . وبذلك فقد شرح لهم بشير بك وأنا كيف كانت تفاصيل ضيافتهم ، وكيف تمت إجراءاتها بسرعة غير عادية (فى ٤٨ ساعة) بعد وصول برقيتهم من حلفا . . وكيف أننا يئسنا من حيدر باشا رئيس الإتحاد الرياضى . . كما نقلنا لهم كيف تفهم السنهورى باشا وزير المعارف الذى لا شأن له فى الواقع بأمور الأندية الرياضية ، غير أنه تفهم الموقف تماماً وأدرك أبعاده الوطنية فتحمس له وتبنى إستضافة فريق الهلال بكل سماحة ، منذ يوم وصوله حتى يوم سفره عائداً إلى السودان . . هذا وقد إحتفل بيت المنيرة بفريق الهلال فى داره وأقام له ليلة ساهرة حفلت بالغناء والسمر فكانت أمسية لن تنسى .

وقد عثرت بين أوراقى القديمة على هذه المذكرة عن إعانة نادى الهلال الرياضى التى رفعتها (لجنة الشئون الثقافية للسودان) بوزارة المعارف لمعالى وزير المعارف بتاريخ ١٣-٧-١٩٤٨ ونصها ، قدم إلى مصر فى مارس ١٩٤٧ فريق كرة القدم بنادى الهلال الرياضى بامدرمان . . . الخ .

وعندما عدت إلى السودان فى العطلة الصيفية فى ١٩٤٧ ، غمرنى أعضاء نادى الهلال بالمشاعر الطيبة . . ورجانى بعضهم أن أقبل إقامة حفل تكريم لى ، فرجوتهم بدورى أن يعفونى من الأمر

إستجابة لطبيعتي التي يحرجها مثل ذلك المظهر الكبير . . ولكنهم مع إستجابتهم لرجائي ، فقد دبروا الأمر على نحو آخر لإبداء شعورهم الطيب نحوي . . وقد وصلني قبيل سفري للقاهرة في أواخر سبتمبر ١٩٤٧ خطاب من الأخ هاشم ضيف الله بتكليف من لجنة نادي الهلال يدعوني بالحاح لزيارة النادي . . عزيزي الأستاذ . . . . الخ .

وذهبت إلى دار الهلال في تلك الأمسية ، فوجدتهم قد أعدوا حفلا رمزياً ، دعوا اليه ، على ما أذكر لجنة نادي الموردة ولجنة نادي المريخ . . وكانت لحظات عاطرة بعبارات الوفاء والتقدير . . ولم تقتصر الجلسة على شئون الرياضة بل إرتفعت إلى أعلى آفاق الوطنية . . وفي الختام قدموا لي هدية ثمينة ، . . لا تزال تعمر بها ذاكرتي . . شنطة جلد فاخرة ، وقلم باركر مكتوب عليه إسمي وكان قلماً فاخراً في تلك الأيام . . وخرجت من نادي الهلال وملء جوانحي مشاعر الغبطة والإمتنان لحرارة ذلك اللقاء ، الذي وجدت فيه من إخوتي أعضاء الهلال أكثر مما أستحق من الوفاء والتقدير . . وهناك وثائق وخطابات . .

بيت السودان وطلبة الازهر :

كانت معاناة الطلبة الجامعيين السودانيين من مشكلة السكن ، هي السبب المباشر لتكاتفهم على العمل من أجل مأوى لهم . . ولم يكن في الحسبان الطلبة الأزهريون السودانيون ، باعتبار أن الأزهر الشريف قد كفل لهم المأوى ، منذ أجيال ولا يزال يكفله لهم كلما ضاقت بهم الأروقة المخصصة لهم ، فيستأجر لهم المساكن الجديدة لإستيعابهم .

ومن جهة آخرى فقد كان حرص الطلبة السودانيين على النجاح

في مسعاهم قد جعلهم يتقدمون باقتراحهم بانشاء بيت السودان ، على نطاق ضيق ، بقدر حجمهم في ذلك الوقت ، مع وضع التصور في احتمال التوسع في المستقبل كلما تزايد عدد الطلبة الجامعيين .

ومع ذلك فان اللجنة التمهيدية لإنشاء بيت السودان والمكونة من . توفيق البكرى ، بشير محمد خير ، عبد اللطيف الخليفة ، عبد الماجد أبو حسبو ، أحمد السيد حمد ، قد عنيت بأمر الطلبة الأزهريين السودانيين ، في المذكرة التي رفعتها لرئيس الديوان الملكي ، وللمسئولين في مصر في مارس ١٩٤٤ فذكرت في الفقرة الأخيرة من هذه المذكرة ما نصه :

يمتاز طلبة الأزهر من قديم الزمان عن طلبة الجامعة وغيرها ، بوجود أروقة خاصة بهم ، كالرواق السنارى ، ورواق دارفور ورواق شمال السودان ، ولهذه الأروقة أوقاف يوزع ريعها على الطلبة كل عام .

فلما زاد عدد الطلبة ، ضاقت بهم الأروقة ، وقل نصيب كل طالب في حصة الوقف التي توزع عليهم فأضطرت إدارة الأزهر حيال هذه الزيادة ، إلى أن تؤجر داراً أخرى بحي الحسين ، لسكن طلبة رواق شمال السودان . . . واللجنة تأمل :

١ — أن يطلب إلى وزارة الأوقاف وإدارة الأزهر الشريف أن تتعاونا معاً في تزويد الأروقة ، بما يحتاج اليه طالب العلم من وسائل الراحة ، وأن تعملا على إيجاد دار أخرى فضلا عن تلك الأروقة ، لتجمع شمل الزايدين من الطلبة على سعتها .

٢ — أن تقرر وزارة الأوقاف ، من الإعانات الخيرية ، رواتب تمنح للطلبة ، حتى تعينهم على طلب العلم ، فوق تلك الحصص

قليلة القدر التى لا تكاد تقوم بالضرورى من وسائل عيش الطلاب .

٣ ـ تأمل اللجنة فى تنظيم شئون الأزهريين وأروقتهم ، تنظيماً دقيقاً تقوم به إدارة الأزهر ، مع لجنة يختارها الأزهريون السودانيون ..

هذا ولما كان عطف جلالة الملك قد شمل الطلبة السودانيين فاللجنة ترجو أن ينال طلبة الأزهر السودانيون فيضاً من هذا العطف السامى ، فيستظلوا بالرعاية الملكية الجليلة .. وبهذا يكون طلبة الجامعتين المدنية والدينية ، من السودانيون، قد وجدوا من حسن الرعاية وجميل الإهتمام ، ما يحقق الأمانى المنوطة بهم وما يجعلهم بحق رسلا لوحدة وادى النيل ..

ومع هذا أذكر عند إفتتاح بيت المنيرة ، فوجئنا بأفراد قلائل من الطلبة الأزهريين يحتلون أماكن لهم فى بعض الغرف دون إستئذان .. وبالرغم من أن البيت كان مخصصا رسمياً لطلبة الجامعة ، وتحت إشراف وزارة المعارف .. فقد تركناهم يقيمون ريثما يتم التفاهم ودياً معهم .. بل لعل بعضهم لم تعجبه الإقامة فى بيت السودان ، وهى لا تخلو من بعض القيود التى تفترضها لوائح البيت ونظمه .. فتركوه من تلقاء أنفسهم وذهبوا .. فوجدنا آخر الأمر أن المشكلة قد انتهت من نفسها أيضاً .

وفى واقع الأمر لم تكن للأزهريين مشكلة مع بيت السودان ، وإنما كانت حركة مفتعلة ، أو عز بها الخبثاء وأزناب حكومة السودان ، الذين كانوا دائماً يعملون على إثارة الفتنة بين الأزهريين والمدنيين من الطلبة .. وقد أشرت إلى طرف من هذا سابقاً ، وكيف إننا إستطعنا أن نخمد نار مساعيهم الخبيثة ، فى أوائل مسيرتنا فى

مصر بما أوجدناه من تعاون وثيق بيننا وبين إخوتنا الأزهريين في مختلف القضايا الوطنية .. ولكن أخيراً ظهر عامل تحريض جديد مع الأسف ، هو الطلبة الشيوعيون الذين يجدون في الإختلافات ، الجو الملائم لنشاطهم .. فهم كما يقول المثل ، يصطادون في الماء العكر .. وصحيح أن الشيوعيين استطاعوا أن ينشئوا لهم شعبة في الأزهر الشريف بين الطلبة السودانيين وغيرهم .. إلا أن ذلك لم يؤثر في الرأى العام لطلبة الأزهر السودانيين الذين ظلوا على وئام مع إخوتهم من طلبة الجامعات والمعاهد الأخرى .

دعابة ضاحكة :

ومن الذكريات الضاحكة لبيت المنيرة ، تلك الدعابة التي أثارها أحد موظفى الحسابات بوزارة المعارف المصرية حول إسم الدكتور أبّو حسن أبّو عندما كان طالباً ببيت السودان بالمنيرة . . .

والمعروف أن كثيراً من الأسماء السودانية غير مألوفة عند المصريين ، فيأتى نطقهم بها مثيراً للضحك ، كما كان يحدث في مدرسة حلوان الثانوية حينما كان الموظفون ينادون يسن جبارة الله ، بقولهم : (يسن جبّارة ألله) أو الزّيّح محمد الريّح بقولهم : (الريّح محمد الريح) .

كما أن المصريين أحياناً يتعمدون نطق الأسماء السودانية بطريقة تثير الضحك - وذلك ما حدث من موظف حسابات المعارف حين مرت أمامه إستمارة الصرف الخاصة بأبو حسن أبو ، فقرأها بدون تشديد الباء : (ابو حسن ابو) وفهم أن ابو حسن هو الإسم الأول فكانت ابو الثانية ناقصة في نظره ، فصاح ليسمع رئيس المكتب الذى كان بعيداً عنه ، لإتساع المكتب وكثرة الموظفين . . .
(يا سيدنا البيه موظفين بيت السودان دول بيكتبوا لنا أسماء ناقصة

فى إستمارات مالية . . . وفى هذه اللحظة دخلت أنا المكتب الكبير دون أن يشعر أحد . . . فسمعت أحد الموظفين يسأل : إيه هــو النقص اللى فى الإستمارة ؟) فيرد عليه صاحبنا بيكتب لى يا سيدى (أبو حسن أبو) (ويروح آطم) . . . أبو مين؟ أنا مش فاهم . . . فيقول له آخر : (يا خى هى دى مشكلة ؟ أنا أكمل لك الإســم ، أكتب أبو حسن أبو عــلى يعنى الراجل نسى كلمة على ، فيها إيــه يعــنى ؟) .

وهنا التفت الموظف إياه ليجدنى بجانبه ، فصاح : الحمــد لله يا جماعة أهو الأستاذ المشرف حضر ، وحيحل لنا الإشكال . . . فأدركت أنا أن المسألة كلها هزل فى هزل . . . فقلت له يا أخى من فضلك لا الإسم الثانى ناقص ولا ابو على صحيح . . . فقــال : (امال إيه ؟)

وعندما صححت له الإسم، صاح بأعلى صوته: (إسمعوا يا جماعة آنت وهــو صحة إسم بيت السودان – وهــو يقصد بالطبـــع إضحاكهم – فقال لى بأعلى صوته (أبو حسن أبو . . .) مشدداً على تعطيش الباء بصورة مضحكة ، فضج الجميع بالضحك . . . . . وإنهالت التعليقات المرحة الخبيثة . . . فقال واحد : (والنبى تعيدها تانى) وقال آخر : (عاشت لسامى يا سيدى) وقال ثالث أفادكم الله يا سيدى ، والله الدنيا دى فيها حاجات كثيرة ما نعرفهاش . .)

وهنا خرجت أنا مسرعاً من المكتب الصاخب لأتركهم يمرحون فى جوهم الضاحك المرح . . .

زيارة فريق الهلال بقلم ريشه

إستجابة لرغبة المواطن الغيور الأخ عبد اللطيف الخليفة الــذى طلب منى أن أكتب له نبذة عن تاريخ زيارة فريق الهلال السودانى لمصر فى عام ١٩٤٧ ، وإرتباطها بالحركة الوطنية فى توطيد عرى

الصداقة والمودة والتكامل الرياضي بين القطرين الشقيقين ، وذلك لتكملة مذكراته عن الحركة الوطنية التي ينوى نشرها قريباً ، وقبل أن أسرع في سرد تلك الزيارة ، أرى أن أسجل نبذة عن تاريخ تأسيس هذا الفريق العملاق ، الذى تأسس في مطلع عام ١٩٣٠ ، بواسطة الرياضيين المثقفين ، من خريجي المدارس ، ممن أكملوا تعليمهم الإبتدائي فما فوق ، وهو الفجر الأول للثورة الرياضية الحديثة في السودان ، الذى ارتبطت بالحركة الوطنية والثقافية والسياسية في شتى المجالات . وقد إشترك مع نادي الخريجين في تحركاته الوطنية التى نشطت في مطلع الثلاثينيات ، إلى أن تبوأ قادته مقاماً مرموقاً في مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٨ ولما قام وفد الأحزاب السياسية السودانية المؤتلف إلى القاهرة فى عام ١٩٤٦ ، مطالباً بإستقلال بلاده وتخليصها من نير الإستعمار ، فقد رأى الهلال أن يشاركه فى تلك البطولة لدعم القضية . فشد رحاله إلى مصر الشقيقة فى عام ١٩٤٧ ليتبارى ودياً مع الفرق المصرية بغرض التكامل السياسى الرياضي ووقوفاً جنباً إلى جنب لتحقيق الهدف المنشود ، وقد مهد لهذه الزيارة كل من الأخوين عبد اللطيف الخليفة والمرحوم على البرير ، الذين ذللا كل الصعاب والعقبات التى وضعها المستعمرون للحيلولة دون القيام بتلك الرحلة ، كما يرجع الفضل في ذلك أيضاً إلى السيد وزير المعارف المصرية السنهورى باشا ، الذى تكرم خاصة بأمر إستضافة بعثة فريق الهلال فى نادى العلمين ، طيلة مدة إقامتهم فى مصر ، ووضع لنا برنامجاً لزيارة معظم الأماكن المهمة التي ينبغي للرجل المثقف السودانى أن يزورها .

وعند وصولنا محطة القاهرة بالقطار ، إستقبلتنا جماهير غفيرة من السودانيين والمصريين ، كانت تهتف بحياة فريق الهلال وحياة

مصر والسودان . وسار بنا الركب إلى نادى العلمين حيث حططنا رحالنا وشكرناهم على حسن إستقبالهم لنا متمنين دوام الأخوة والمودة بين القطرين الشقيقين ، وكان فى طليعة البرنامج زيارة القصـــر الملكى ، وهنالك إستقبلنا كبير الياوران فسجلنا أسماءنا فى ســجل الزيارة ، هاتفين بحياة جلالة الملك فاروق طيب الله ثراه . وبعـد ذلك إستقبلنا السيد رئيس الوزراء النقراشي باشا فى مكتبه ، مرحباً بنا وقال لنا ما فى معناه ، لن يكون النيل حراً إن غدا السودان عبداً فأعملوا جميعاً على نيل حريتكم وإستقلال بلادكم وطرد المستعمرين.. وبعدها إستقبلنا السيد وزير الشئون الإجتماعية محمود باشا حسن فى مكتبه مرحباً بنا وقال لنا أهلا بكم نزلتم سهلا وحللتم أهلا ، فأنتم فى وطنكم الشقيق . وقد أبدى رغبة كريمة فى المساهمة فى بنـاء نادى الهلال ، على غرار نادى الخريجين بأمدرمان ، فشكرنـاه على هذا الشعور الكريم ، وقد أهدى لكل أعضاء البعثـة كمية مـن السكر المصرى .

والزيارة الرابعة كانت لسيادة وزير المعارف السنهورى باشا ، حيث إستقبلنا فى مكتبه بحضور وكيـل الوزارة بشير بك حامـد والأستاذ عبد اللطيف الخليفة ، فشكرناه على تكرمه باستضافته لنا بنادى العلمين . وبعد ذلك إستقبلنا السيد رئيس الإتحاد العام المصرى لكرة القدم ، محمد حيدر باشا فى مكتبه فوضع لنا برنامجاً للمباريات التى لعبناها مع الفرق المصرية فى القاهرة والأسكندرية ، فكسـبنا مباريتين وخسرنا مباريتين ، وتعادلنا فى مباريتين ، فكانت النتيجة فى جملة الست مباريات التعادل . وكانت بعثة الهلال تتكون مـن إداريين هم :ـ مكى عثمان أزرق وحمدنا الله أحمد ومحجـوب عوض الله وفتح الله بشارة وأحمد فرج ، ومن اللاعبين طلعت فريد

كبتن الفريق وهاشم ضيف الله ومحمد عبد الرحيم وفايز فهيم ووليم عيسى ويوسف عبد العزيز وعبد الخير صالح وعوض أحمد ومحمد بله وعكاشة جفت وحامد منزول وقسوم وعبد الرحيم سرور وقد أخذت لنا صورة تذكارية ، ضمن جميع أعضاء البعثة مع إخوانهم المصريين ، وغادرنا القاهرة مودعين بمثل ما إستقبلنا به ، وكان فى طليعة المودعين المرحومين إسماعيل الأزهري وعلى البرير ومبارك زروق ويحى الفضلى ومحمد عبد الرحمن محمد وآل ابو العلا فآمل أن أكون قد وفقت فى إستجابة رغبة أخى عهد اسطيف الخليفة متمنياً له التوفيق والسداد فى مهمته وغيرته الوطنية .

حمدنا الله أحمد

نحو مؤتمر جوبا ١٩٤٧

بينما كانت الأحداث السياسية فى شمال السودان تدور على النحو الذى أشرت اليه سابقاً ، كان جنوب السودان منطقة ركود يخيم عليها الصمت كما أراد الإنجليز . . وظلت تحجبه الغيوم ، التى نسجتها السياسة الإستعمارية لكى تحول بينه وبين مشاركة الشمال ، فى صنع تلك الأحداث ولكيلا تتاح لأبنائه الفرصة للظهور فى أى موقف ، ولو كان إتصالا مباشراً بتكييف مستقبلهم المشترك مع أبناء الشمال . . . ومضت هذه السياسة الرامية إلى فصل الجنوب فى مسار غامض ، كما تدل الرسائل والمذكرات السرية التى كانت تدور بين سلطات الخرطوم وحكام الجنوب ، وكذلك بين حكام الخرطوم ولندن والقاهرة .

مذكرة ماكايكل سنة ١٩٣٠ فصميم على تصل الجنوب

لقد دارت تلك المكاتبات الماكرة عشرات السنين ، بعيداً عن أعين المصريين وأبناء شمال السودان ، دفعاً للحرج الذى يصيب كلا الحكومتين البريطانية والسودانية ، إذا ما انكشفت مشاريعها الخبيثة نحو الجنوب.. لقد بلغت تلك المشاريع ذروتها فى مذكرة ١٩٣٠ التى رفعها السير هارولد ماكمايكل السكرتير الإدارى فى ذلك الوقت ، لحاكم السودان العام . . فقد كانت هذه المذكرة عبارة عن حصيلة وافية لكل الجهود التى بذلها الإنجليز ، لأحداث التفرقة بين أبناء الجنوب وإخوتهم فى الشمال ، وبرز فيها التصميم والعزم الأكيد على فصل الجنوب . . كما يتضح من تفاصيلها أيضاً ، إن واضعها كان يسيطر عليه الإتجاه لإقامة دولة مستقلة فى الجنوب أكثر من أى إتجاه آخر ، مما سوف يظهر فيما

بعد . . بل لعله الهدف الأساسى الذى كانوا يسعون إلى تحقيقه ، ولو إقتضاهم الأمر أن يرتكبوا ما إرتكبوه من حماقات قاسية ، لم يتورعوا فيها عن إستعمال العنف وعدم العدالة والتنكيل بكل من كانوا يعتقدون أنه يشكل عقبة فى سبيل تنفيذ سياستهم الآثمة . . وإن ما لقيه الشماليون والمسلمون ، وحتى من تأثر بهم من الأفارقة ، من القسوة والمعاملة الخشنة المتعسفة ، لتزدحم به صفحات الكتب الخاصة بالجنوب ، كما تنطق بهم المكاتبات السرية بين إدارى الجنوب وحكام الخرطوم بشأن تنفيذ مذكرة عام ٣٠ ، لقد أزالت تلك المذكرة ، كل الغموض فى سياسة الجنوب وتحددت فيها المعالم لفصله ، وكانت كلها عداء سافراً للشمال والشماليين والإسلام واللغة العربية ، ولكل ما يمت اليها وإلى الشرق الأوسط بصلة ، من عادات أو تقاليد أو ملابس . وتمثل ذلك بأبشع الصور ، فى معاملة الجلابة ، لإبعادهم من الجنوب هم ومن يلوذ بهم . . وكان الحكام الإنجليز يتذرعون « بكل الأسباب لإقصائهم وطردهم عن أعمالهم كما حدث لتجار مدينة راجا الشماليين ، وإخلاء المدينة نفسها ، و إجلاء كل من كانوا حولها من السكان الذين تأثروا بالعرب والإسلام ، وذلك إما بارسالهم إلى مديرية دارفور للإقامة نهائياً ، كما حدث لقبائل الفلاتة ، وإما بابعادهم إلى مناطق نائية منعزلة من مديرية بحر الغزال ، بحيث يتعذر إتصالهم بالعرب والمسلمين . . وكانوا قد مهدوا لتلك التصرفات الجائرة منذ عام ١٩٢٢ ، بقانون (المناطق المقفلة) ، الذى حرم دخول المديريات الجنوبية ، إلا بتصريح خاص ، حتى تتم لهم السيطرة الكاملة على العلاقات أو الإتصالات بين الشمال والجنوب وقد مارس حكام الجنوب من أجل الوصول إلى هذه الأهداف ، ألواناً من الإضطهاد والتنكيل بالتجار الشماليين للتخلص منهم ،

قانون المناطق المقفلة ١٩٢٢ مهد لمذكرة سنة ٣٠

عداء سافر للشماليين والاسلام واللغة العربية

تعرض التجار الشماليون لالوان لاضطهاد التنكيل والابعاد ...

فحرموهم من كل شيء حتى طفح الكيل ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل ، وخاصة في راجا شمال بحر الغزال ، حيث أصبحوا في سنة ٣١ أربعة تجار فقط ، كما يقول البروفسور محمد عمر بشير في كتابه (جنوب السودان) . . وحتى هؤلاء لم يلبثوا أن غادروا تلك المنطقة ، ولم يبق بها في ٣٢ غير التجار اليونانين والسوريين واليهود . .

* ويقول محمد عمر في كتابه هذا : (وتطبيقاً لهذه السياسة ، منع كافة أبناء دارفور وكردفان من دخول بحر الغزال ، كما لم يسمح لأبناء بحر الغزال بدخول دارفور وكردفان ، وبذلت جهود للتقليل إلى أقصى حد من الإتصالات التقليدية بين الدينكا والعرب . . الخ وإستدعى أبناء الدينكا الذين استوطنوا في الشمال إلى العودة لديارهم حتى يمكن (إيجاد إنفصال أكمل) وبما أني أكتب هنا مذكراتي الخاصة ،التي أعنى فيها بانطباعاتي الخاصة أكثر من تقصي تفاصيل التاريخ وأرقامه ، فأني أكتفي بما قدمت ، وأضيف اليه هذه الفقرة القصيرة من خطاب سير ماكمايكل لحكام المديريات الجنوبية في سنة ١٩٣٠ .

التجار اليونانيون والسوريون المسيحيون بدل الجلابة

«إن الحكومة تريد إتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة بتشجيع التجار اليونانيين والسوريين (المسيحيين) ، ليحلوا محل الجلابة ، ولابد من التشديد في إعطاء التصاريح لهذه الفئة الأخيرة » .

« فالجلابة» كما ترى كانوا يمثلون الخطر الأكبر في نظر حكام جنوب السودان آنذاك ، لا لشيء إلا أنهم كانوا يحملون لإخوتهم في الجنوب الوعي والحضارة وإيقاظهم من ثباتهم العميق . . . . . والبريطانيون يريدونهم بلا وعي ولا حضارة . . . . وألا يفتحوا

أعينهم لما يدور حولهم ، من تدابير آثمة ، لإبقائهم في قيود التخلف والحرمان ، حتى يضمنوا خضوعهم المطلق (للاله الأبيض) ، وهكذا رأينا السياسة البريطانية تسخر كل طاقتها وتبذل الجهود والأموال ، وتجلب المبشرين والكنائس وتوظف كل ذلك لسحق العرب والمسلمين وابادة كل أثر لهم في الجنوب أو هكذا أرادوا في غمرة تفكيرهم الجامح نحو الإنفراد بحكم الجنوب .

أخيراً تغلبت اللغة العربية

ولكنهم بعد ان قطعوا شوطا بعيدا في هذا المضمار وعقدوا المؤتمرات لمحاربة اللغه العربية واحلال الانجليزية محلها (كمؤتمر الرجاف) سنة ٢٩ تبين لهم أن العرب كان شوطهم أبعد ، وأن اللغة العربية لم تعد تجدى في محاربتها المؤتمرات ، بعد أن أصبحت الوسيط المشترك ، للتفاهم بين القبائل المختلفة . . وقد أبدى بعض دهاقنة منهم مثل هذا الرأى منذ وقت باكر ، كالسير ونجت حاكم السودان العام ، عقب زيارته للجنوب في أوائل القرن الحالى ، لأنه رأى كما رأى غيره : أن أكثر المتطرفين ضد اللغة العربية في الجنوب لا يسعه إلا استعمال هذه اللغة ، عندما يريد مخاطبة جماهير مختلطة هناك .

وهكذا حار دليلهم ، فجنحوا إلى التسليم بواقع اللغة العربية وتركوها وشأنها ، أثراً خالداً لتعاقب الأجيال ، وإختيارها الطبيعى الناتج من الإختلاط بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب . . .

ولابد أن يكون بعض الدهاقنة الإنجليز في السودان قد أطلعوا على آراء الباحثين التى تقول : « إن اللغة العربية لها قوة خاصة فى إمتصاص غيرها من اللغات » .

ومجمل القول أن مذكرة ١٩٣٠ ، كانت تمثل السياسة

الإنفصالية ، التى درجت عليها حكومة السودان فى الجنوب ، وأنها قد حددت المبادىء والموجهات للعمل على فصل الجنوب ، سواء إنضم جزء أو أجزاء منه لمستعمراتهم فى شرق إفريقيا ، أو بقى كما هو ، وأقيم فيه حكم مستقل .

وكانت العقلية الإستعمارية المتطرفة ، هى التى تقود حكام السودان سواء فى الجنوب أو الشمال ، وهى التى توحى اليهم بأنهم خالدون فى مستعمراتهم ، وأن شعوب تلك المستعمرات ، ينبغى إخضاعها بالقهر والقوة ، لكى تبقى على الدوام جاهلة متخلفة ، ترهبهم وتسبح بحمدهم .. لكن الظروف الدولية ، التى حجبها التعصب الإستعمارى عن إدراك إنجليز السودان ، قد كان لها أثر كبير فى تغيير الأسلوب السياسى ، الذى كان يجرى العمل به فى وزارة المستعمرات البريطانية ، معقل الإستعمار والرجعية .. فقد تمخضت الحرب العالمية الأولى عن آفاق جديدة .. وأشاعت التطلع للحرية والديمقراطية بين شعوب العالم .. وكان حكام السودان إلى منتصف الثلاثينات ، فى شغل شاغل عن تلك النذر الدولية التى تمخضت عنها الحرب العالمية الاخيرة ، وماينسحب آنذاك على السياسة فى السودان من تأثيرات .. كان هذا حالهم عقب الحرب الأولى ، والثانية ، وخاصة حكام المديريات الجنوبية .. وقد ظلوا كذلك جميعاً ، إلى منتصف الثلاثينات ، حين بدأ حكام الخرطوم يتأثرون ببعض التطورات العالمية .. وأهمها غزو إيطاليا للحبشة فى سنة ١٩٣٥ ، وظهور المحور بين هتلر وموسلينى ، إلى آخر ما تلبد به الأفق الدولى من غيوم آنذاك .

رياح تغيير تهب من خارج السودان

النذر الدولية تؤثر فى سياسة الانفصال

ومذكرته سنة ١٩٤٤ بداية التغيير نحو الاتحاد

كانوا جميعاً متمسكين بمذكرة ماكمايكل .. ولكن أعباء الحكم كانت قد آلت إلى شخصية خطيرة ، عميقة التفكير ووثيقة

الصلة بالتيارات العالمية ، تلك هي شخصية نيوبولد أو الســـير دوقلاس نيوبولد ، السكرتير الإدارى لحكومة السودان .

فقد إستطاع ذلك الداهية الحصيف ، أن يستوعب الأحداث الدولية ويدرك أن تطوراتها التى حملت الحكومة البريطانية ، عميدة الإســتعمار العالمى على إحداث تغــيرات واسعة ، فى أســاليبها الإستعمارية ، لابد لتلك التطورات أن تحملهم هم أيضاً بدورها فى السودان على التغيير . . ومن هنا تقدم نيوبولد بمذكرته المشهورة فى ١٩٤٤ ، التى دعا فيها للتغيير فى السياسة التقليدية المتبعة فــى الجنوب ، وإعادة النظر فيما قامت عليه من سلبية وجمود ، فكانت حقاً نقطة تحول بين عهد مذكرة ١٩٣٠ ، التى كان يجرى العمــل بها على أساس فصل جنوب السودان ، بصراحة ووضوح ، وبين عهد مذكرة ١٩٤٤ التى قادت الحكومة فى إتجاه جديد يقوم على أساس التنمية فى جميع المجالات ، لإنهاض الجنوب وجعله قادراً على الوقوف فى وجه الزحف الحضارى ، من الشمال والشرق الأوسط . . . . ولا بأس أن يكون ذلك فى إطار توحيد السودان ولو نظرياً ، مع الإحتفاظ بالوجود البريطانى فى الجنوب أطول مدة ممكنة ، عن طريق الضمانات والتحفظات ، ونظم الحكم الــتى يعملون لتطبيقها هناك كالإتحاد الفدرالى .

أخذت رسائل الخرطوم لحكام المديريات الجنوبية ، تحمــل بعض سمات هذا التغيير ، ولكن فى المظهر دون الجوهر . . غير أنها كانت تهيء اذهانهم إلى ما قد تأتى به الظروف الدولية ، مــن ألتزامات جديدة قد تؤثر على سياستهم المطبقة فى الجنوب . . وأكرر القول بأن التغيير الذى أراد حكام الخرطوم إدخاله على السياسة المنفذة فى الجنوب ، وعلى مبادىء مذكرة ماكمايكل ، لم يقصد بها العدول

عن سياسة فصل الجنوب نهائياً ، بقدر ما قصد به تدعيم تلك السياسه ولكن بأساليب جديدة إيجابية وعملية ، أكثر عمقاً مما تضمنتـــه مذكرة ١٩٣٠

يقول البروفسير محمد عمر بشير : (وهكذا تحولت ، منذ ١٩٤١ السياسة المقررة للجنوب ، فبعد أن كانت تهدف إلى إيجاد وحـدات قبلية تتمتع بالإكتفاء الذاتي ، أصبحت ترمي إلى فصـل الجنوب عن الشمال) .

انهاء الحرب العالمية الثانية والغاء مبـدأ الاستعمار وقيام مؤتمر الخريجين كلها عوامل للتغيير

ولكن الأحداث قد تعاقبت في الداخل والخارج بما جعـل عروش الإله الأبيض في جنوب السودان ، تهتز قوائمها . فقـد انتهت الحرب العالمية الثانية ، وقامت الأمم المتحدة ورفعت شعار تقرير مصير الشعوب ، فالغت بذلك مبدأ الإستعمار من أسـاسه ، وقامت الحركة الوطنية في السودان متمثلة في مؤتمر الخريجـين ، الذي أخذ يمارس التزاماته الوطنية ، ضد الحكومة ، بمذكراتـه السياسية التي طالب فيها حكومة السودان بتقرير المصير ، وإحداث تغيـيرات في الجنوب تمهيداً لضمه إلى المؤسسات الدسـتورية في الشـمال . . ثم جـاء خـروج المؤتمر بالقضية إلى المحـافل الدولية ، إلى القاهرة ولندن ممثلا في (وفد السودان) ، الذي انضمت اليه جميع الأحزاب السودانية ، وما أعقب ذلك من تطورات هامة كالمفاوضات بين مصر وبريطانيا في ١٩٤٦ ، وما أسفرت عنه من مشروع معاهدة (صدقي – بيفن) . وما بذل من جهود في تحطيمها بواسطة الشعب وكذلك من قبل الحكومة .

وجاءت بعد ذلك محاولات حكومة السودان لوقف دعـوى مؤتمر الخريجين بأنه ممثل الشعب السوداني ، فأنشأت المجلـس ، الإستشاري لشمال السودان . . وشكلت (مؤتمر إدارة السـودان)

لتقديم إقتراحاته عن ما أسموه بالإصلاحات أو التطورات الدستورية ، الشاملة للشمال والجنوب معاً . . ثم إعتزام الحكومة إنشاء (الجمعية التشريعية) ، بعد فشل المجلس الإستشارى لشمال السودان ، وسعى الحكومة لتمثيل الجنوب فى هذه الجمعية . . وغير ذلك من الأحداث التى إنعكست آثارها على الجنوب ، وأخذت تغير وتبدل فى سياسته منذ إعلان مذكرة نيوبولد ١٩٤٤ وحتى مؤتمر جوبا فى ١٩٤٧ .

ولكن الممارسات الطويلة لسياسة فصل الجنوب ، قبل مذكرة نيوبولد ، قد كونت لحكام المديريات الجنوبية عقلية محلية خاصة ، ممعنة فى التسلط على شعب الجنوب ، والعمل على إبقائه فى ربقــة التخلف والبدائية . . ولذلك فقد إضطربت آراءهم ، فى تلقــى السياسة الجديدة ، وإنقسموا حولها بين أقلية مؤيدة وأغلبية معارضة .

العدول عن الانفصـال يقوم على تنمية الجنوب على أسس افريقيــة

ولكن حكومة السودان ، قد تكون لديها إقتناع بالخطة السياسية التى دعا لها نيوبولد ، والقائمة ، كمــا قلت ، على التنمية وتطوير الإنسان الجنوبى ، لا من أجل التطور فقط ، ولكن لكى يكون قادراً على الوقوف فى وجه المواطن الشمالى ، ووقف زحفه الحضــارى والثقافى على الجنوب . فالتنمية التى هدفوا اليها كانت مغرضة ، لأنها ترمى إلى إيجاد المغايرة ، وإقامة الحواجز بين أبناء الوطن الواحد ، بوسائل مصطنعة ، بدل أن تفسح المجال (لقانون الإنتخاب الطبيعى) كما يقول الأنثربولوجيون ، ليعمل عمله فى إحداث التجانس الذى بدأ بالفعل منذ أجيال ، بحكم الإختلاط والجوار . . ومن أجل هذا النوع من التنمية المغرضة إستخدمت حكومة السودان بعض الخبراء فى مختلف المجالات . . كالمستر توتهل الذى كان يعمل فى يوغندا ليقدم إرشاداته فى المجال الزراعى . . ثم عين مديراً لمصلحة الزراعة بالخرطوم . . ثم المستر إيفانز رتشارد ، الذى قدم إستشارته فى بعض

شئون التربية والإدارة . . ثم المستر كوكس مدير معارف السودان الذى قدم إقتراحاته للنهوض بالتعليم فى الجنوب .

كما نجد اللجان والهيئات ، قد شكلت للزراعة والصناعة والتجارة فى الجنوب ، وأقيم مشروع الزاندى الزراعي الصناعى . . الخ .

وفي يونيو ١٩٤٥ وافق مجلس الحاكم العام على قيام (هيئة المشروعات الزراعية بالمديرية الإستوائية ، وقسم للتجارة ملحق بها ، مع الإعتمادات المالية اللازمة)

وتتضح أكثر ملامح هذه السياسة المفرضة ، من هذه الفقرة التى وردت فى خطاب الحاكم العام ، للمندوب السامى البريطانى بالقاهرة فى ١٩٤٥ ، حيث قال : « إن السياسة المقررة هى ، مراعاة الشعوب القاطنة جنوب السودان ، هى بغير شك شعوب إفريقية وزنجية ، وإن واجبنا الأسمى هو العمل بأسرع ما نستطيع ، لإتمام التنمية الإقتصادية والتعليم بين هذه الشعوب ، على أسس إفريقية وزنجية ، لا على أسس عربية أو منتمية إلى منطقة الشرق الأوسط ، تلك الأسس التى تتناسب مع شمال السودان . فالتنمية الإقتصادية والتعليم هى التى تمكن تلك الشعوب من الوقوف على قدميها فى المستقبل .

وسواء إتخذ القرار فيما بعد ، بارتباطها بشمال السودان أو ، بأفريقيا الشرقية أو بتوزيعها بينها .

وسيكون عليها فى الحالة الأولى ، أن تقف كأقلية كبيرة تقدمة ومتماسكة ضد ذلك الموقف العدائى الغريزى ، الذى ما زال يتصف به الشمال العربى الأكثر ثقافة . . الخ .

ويقول محمد عمر : (وقد أقرت الحكومة البريطانية هذه السياسة دون أن تخطر بها مصر ، شريكتها فى الحكم الثنائى ، بل أن هذه

السياسة لم تعلن فى أى وقت من الأوقات ، خوفاً من أن تضع حكومة السودان فى حرج مع مصر) . ومن الغريب أن تدفع الرغبة الجامحة فى فصل جنوب السودان ، شخصية كبيرة كحاكم السودان العام لأن يلقى بتهمة خرافية خطيرة كوصفه للشماليين إجمالا بأنهم (ما زالوا يتصفون بموقفهم العدائى الغريزى ضد الجنوبيين) .

الرق لم ينفرد به شمال السودان

ولا يدرى الإنسان ، ماذا كان يعنى حاكم السودان (بالعداء الغريزى) ؟ هل يعنى النخاسة وبيع العبيد الذى كان فى الماضى ، وهو أمر لم ينفرد به شمال السودان وحده ، وإنما كان شائعاً فى مختلف أنحاء العالم ، كمرحلة تاريخية متخلفة للمجتمع البشرى ، إستبد فيها القوى على الضعيف ، سواء فى أوربا أو فى آسيا أو فى إفريقيا ؟ واليوم قد عفى عليها الزمن والحمدلله وتجاوزها الفكر البشرى بتقدمه المطرد.

الانجليز كانوا على رأس النخاسة فى العالم

وعلى أى حال ، إذا جاز إطلاق وصف (العداء الغريزى) على تجار الرقيق ، فأن الإنجليز هم الاجدر بهذا الوصف . . فقد حفظ لهم التاريخ أنهم كانوا رأس الحربة ، بالنسبة للنخاسة فى العالم وأن الملكة فكتوريا كانت تشرف بنفسها على تجارة الرقيق ، وتمدها بالسفن والأموال والرجال ، لشحن العبيد وإرسالهم إلى مصايرهم المظلمة فى أمريكا ، كما يشهد بذلك ملايين السود فى أمريكا الوسطى وغيرها . . بل أكثر من ذلك نجد أن ميزانية إنجلترا ، فى عهد الملكة فكتوريا ، كانت تعتمد إلى حد كبير على تجارة الرقيق . . . . وها نحن من جهة أخرى حتى اليوم ، نجد فى بريطانيا نفسها أبناء أسكتلندا لا يزالون يعانون من آثار إضطهاد الإنجليز لهم . . أما أبناء شمال السودان فلم يتجاوزوا دورهم أكثر من أنهم كانوا وكلاء للأوربيين ، الذين أقاموا لهم مراكز ومحطات لتجارة الرقيق ، فى شرق وغرب إفريقيا .

وليس من أغراضى هنا ، أن أذهب بعيداً فى عرض تلك الجوانب التاريخية المظلمة للإنجليز ، أو الأوربيين ، وما إقترفوه من جرائم بشعة موغلة فى الوحشية، نحو ضحاياهم من قطعان العبيد، ثم جاءوا اليوم ليتنصلوا من تبعاتها ويلقوا بها على كاهل الشماليين ، وإذا كان ذلك فى عهود الظلام والتخلف البشرى ، فأن جرائم الإستعمار الإنجليزى فى جنوب السودان فى العصر الحديث ، وتحت شعار التمدن والتقدم ، لهى أبشع وأعظم خزياً لدعاة النهوض وإنقاذ البشرية من التخلف . . ففى الوقت الذى لمسنا فيه آثار العرب من أبناء الشمال ، على مواطنيهم الجنوبيين ، واضحة فى التمدن والتحضر فى كل مكان وصلوا اليه . . رأينا فى الجانب الآخر كيف كان الإنجليز — منذ أن وطأت أقدامهم أرض السودان — يرسمون ، السياسات ويبرمون الخطط والتدابير الآثمة البالغة حد القسوة والوحشية أحياناً ، لإبقاء الجنوبى على حاله البدائى عارياً متخلفاً ، يفتك به الفقر والجهل والمرض ، وتخنقه العزلة فى الأماكن السحيقة . . وقد عرضت طرفاً كبيراً من ذلك ، بما ذكرته سابقاً عن التنكيل ببعض القبائل ، بمديرية بحر الغزال ، وما تعرضوا له من معاملات غاية فى القسوة والخشونة أثناء إجلائهم قسراً عن مواطنيهم وما لاقوه فى ذلك من أهوال ، تتمثل فى تخريب مدنهم وقراهم وتدمير مساكنهم بل وإحراقها عن بكرة أبيها، حتى لا يعودون اليها مرة أخرى . . وكذلك طرد البعض إلى خارج المديرية ، وإرسال البعض الآخر إلى أماكن سحيقة ، فى مجاهل الغابات للأقامة فيها والعيش فى عزلة قاتلة ، بعيداً عن أى مصدر أو مظنة للحضارة والمدنية ، هذا فضلا عن القتل الجماعى دون رحمة ، عند أية معارضة لطغيان الحكام الإنجليز ، كما حدث للنوير فى ١٩٢٧ وكما

حدث قبلهم فى ١٩١٩ لقبيلة الدينكا العالياب . . . هذه معادلة بسيطة جداً ، بين ماقدمه أبناء شمال السودان ، لإخوتهم فى الجنوب عبر إختلاطهم البسيط البرىء وتفاعلهم الطبيعى معهم ، وبين ما لقيه الجنوبيون على أيدى المستعمرين الإنجليز ، تحت شعارهم الزائف (إنقاذ الجنوب من ظلم الشمال) . . . وتلك شنشنة قديمة ، عرف بها الإستعمار أينما كان . . .

فهم حينما يتظاهرون بالعطف على الجنوبيين وإنقاذهم من ظلم الشماليين المزعوم إنما يهدفون فقط إلى إبعاد العين الواعية التى تدرك نواياهم المستورة وتكشف سرها ، وإلا لوكان النهوض بالجنوبيين والأخذ بأيديهم فى طريق الرقى والمدنية ، هى الأغراض الحقيقية ، لكان الأولى بهم الإحتفاظ بوجود الشماليين ، بعد ما قطعوا شوطاً بعيداً فى تحقيق تلك الأهداف النبيلة . . . . وإذن لما كانت هناك حاجة لدعاوى الإنجليز المغرضة ، بأنهم يعملون على « إنهاض الجنوب على أسس زنجية إفريقية ، وليس على الأسس التى تناسب حضارة الشمال والشرق الأوسط » . . . إلا أنهم فى واقع الأمر لا يهدفون لغير إحداث المغايرة والتفرقة ، بين الشمال والجنوب ، ولأنك حينما تبحث عن (الأسس الإفريقية والزنجية المزعومة ، فى تربيتهم لأبناء الجنوب ، لا تكاد تجد شيئاً غير قشور من المدنية الأوربية وقشور من اللغة الإنجليزية .

ونسألهم لماذا الحضارة الإنجليزية وليس حضارة الشرق الأوسط ؟ وهل الإنجليز أقرب إلى الجنوبيين من أهل الشرق الأوسط ؟ وممن سيتعايشون معهم بحكم الجوار والمتاخمة ؟

إن نوايا الإستعمار والأعيبه قد أصبحت مكشوفة منذ أجيال . . وقد عرف العالم أن تظاهرهم بالعطف على شعوب مستعمراتهم

إنما هو من قبيل دموع التماسيح عندما تهم بالأطباق على فرائسها . .
وقد يبدون الإستنكار لقتل فرد أو أفراد قلائل ولكنهم لا يتورعون عن إزهاق أكبر عدد من الأرواح ، لأقل الأسباب – لأنهم دائماً يضعون القضية فى إطار خادع ومضلل . . وفى هذا يقول أحد مفكرى العرب ولعله الفيلسوف أمين الريحانى :–
قتل إمرىء فى غاية جريمة لا تغتفر وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر
وتوجيهات نيوبولد التى الحث على الإسراع بالتنمية فى الجنوب ، وتظاهرت بقبول فكرة إتحاد السودان ، كانت من وجهة أخرى ، تعمل على بذر بذور التفرقة ، وتبث السم فى الدسم ، لتخلق من أبناء الجنوب جيلا يختلف عن الشماليين فى كل شىء ، ولكنها على كل حال ، كانت دعوة جديدة وجريئة فى المطالبة بأعادة النظر فى سياسة الجنوب الناشئة التى (لم يعد فى الإمكان الدفاع عنها)
وفى هذه المعنى قال السير نيوبولد أمام مجلس الحاكم العام فى ١٩٤٤ (إن هناك أسباب قوية تضاف إلى الأسباب الأدبية والإقتصادية ، تتطلب إتباع سياسة أكثر إيجابية فى الجنوب ، وكل ذلك فى ضوء التطورات الداخلية والخارجية) وقال عن الأوضاع فى الجنوب : « إنه لم يعد من الممكن الدفاع عنها » . . وشخصية نيوبولد كما قلت شخصية غامرة ، لما كان يتمتع به نيوبولد من عمق الثقافة وإتساع الأفق ، كما شهد له بذلك الأستاذ عباس العقاد ، أبان زيارته للسودان فى ١٩٤٢ . . لذلك فقد ظلت تأثيرات نيوبولد على مجرى سياسة حكومة السودان فعالة لسنوات طويلة بعد وفاته التى كانت فى ١٩٤٥ . فبعد مذكرة ١٩٤٤ المشهورة وجدنا مذكرة الحاكم العام إلى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة فى ١٩٤٥ وقد أشرت إلى فقرة منها، كانت تاريخية تحمل فى طياتها كل المعالم والسمات للمرحلة السياسية الجديدة، التى إنبثقت من مذكرة نيوبولد فى١٩٤٤.

الاعتراف بان سياستهم في الجنوب لايمكن الدفاع عنها

وقد حددت مذكرة الحاكم العام سياسة حكومة السودان نحو الجنوب فى ثلاثة إحتمالات :

١ — دمج الجنوب فى الشمال .
٢ — دمج الجنوب فى إفريقيا الشرقية .
٣ — دمج أجزاء من الجنوب فى إفريقيا الشرقية .

وأول ما يمكن ملاحظته هو أن المذكرة سكتت عن ما يمكن تسميته بالإحتمال الرابع ، الذى تضمنته مذكرة ماكمايكل فى ١٩٣٠ وهو (إقامة حكم مستقل فى جنوب السودان) . وفى إعتقادى أن الإحتمال الأول هو المقصود فى مذكرة الحاكم العام ، لأن حكام السودان كانوا إلى ذلك الوقت قد عرفوا فى سرهم ، أن جهودهم لتحقيق الإحتماليين الثانى والثالث ، قد باءت بالفشل لأسباب متعددة ذكر منها (كتاب جنوب السودان) : (أن إفريقيا الشرقية لم تبد حماساً للمشروعات الرامية إلى ضم جنوب السودان اليها) .

فقد كانت مشاكلها كثيرة وخشيت أن يزيدها ذلك الضم صعوبة وتعقيداً . . . كما أن يوغندا أبدت تردداً شديداً ، حيال ضم تلك البلاد الشاسعة ، ذات الإنتاج الضئيل . . وكما أن مشروع المواصلات بين إفريقيا الشرقية وجنوب السودان قد فشل ، وأما اقامة حكم منفصل فى جنوب السودان ، فقد تعذر أيضاً لأسباب متعددة . . أهمها أنه ليس للجنوب طرق توصله إلى البحر ، وليس له موانىء ، ولا يمكنه الإعتماد فى إتصاله الخارجى ، إلا على النهر المشترك بينه وبين الشمال (نهر النيل) . . . ومن جهة أخرى تجد أن عوامل التداخل والإنفتاح بين الشمال والجنوب قد أخذت تتسع

وتجدث أثرها ، كاضطرار حكومة السودان لإستخدام أبناء الشمال فى مشاريع التنمية فى الجنوب ، وكفشل خطة الفصل الإقتصادى بين الجزئين ، وكذلك تسهيل وسائل المواصلات بين الشطرين ، قد أزال الكثير من حواجز العزلة التى حاولوا فرضها على الجنوب . وغير ذلك من العوامل السياسية ، التى جعلت حكومة السودان تعترف بالفشل على لسان سكرتيرها الإدارى : (بأن كل الإجراءات ، المماثلة ، التى أصبحت مع الزمن أكبر أثراً وأصعب معالجة ، والتى لم يعد يمكن معها تقديم أية حجة عملية للإستمرار فى السياسة القديمة) وفى إعتقادى أن الظروف الداخلية والعالمية قد وضعت إتحاد شطرى السودان ، أمام حكومته ، كأختيار لابد منه ، أو شر لابد منه ومن هنا بدت فى أقوال حكام الخرطوم ومذكراتهم ، أعراض التحلل من سياسة فصل الجنوب ، التى كانت متبعة قبل مذكرة ثيوبولد ومذكرة الحاكم العام المشار اليها سابقاً . . وبقدر ما نجد فى مذكرة الحاكم العام أو مذكرة ثيوبولد ، من الحرص الشديد على تنشئة الجنوبيين ، بصورة مغايرة للشماليين ، نجد الحاكم العام يضطر إلى القول : (غير أن العوامل الجغرافية ، بقدر ما يبدو منها فى الوقت الراهن . . تعمل متضافرة فى الربط بين هذه الشعوب وبين التطور لبلاد الشرق الأوسط وشمال السودان الذى تسوده النزعة العربية) .

وإذا كانت الظروف قد أجبرت إنجليز السودان على التفكير فى توحيده ، فأنهم لم يتقبلوا الإتجاه الجديد عن إقتناع أو رضى ، ولكنه كما قال السكرتير الإدارى (أخف الضررين) .

وهكذا جاءت خطواتهم متسمة بالحيطة والحذر . . وكانت نزعتهم القديمة ، لا تلبث أن تطل من بين السطور ، أو من وراء

المواقف والتصرفات . . يقول ثيوبولد (قد يكون من الأفضل أن نعمل بالتدريج لإيجاد روابط متعددة بين الجنوب والشمال ، وإعداد أبناء الجنوب اعداداً أفضل، لمواجهة هذا الإتصال ، ونحن نملك القدرة على ذلك ، وهذا خير من أن نتركهم فى عزلة من التيارات الخارجية ، حتى نفقد القدرة على إعدادهم لمواجهة مثل تلك التأثيرات ، ثم نضطر إلى تركهم فجأة فريسة سهلة لثقافة أرقى كمجرد أقلية مغرقة فى التخلف (إلى أن يقول) وفى تقديرنا أن السياسة الجديدة هى أخف من الضررين) .

صدمة لحكام المديريات الجنوبية

أما حكام المديريات الجنوبية ، فقد صدمتهم السياسة الجديدة ، وإضطربت آراؤهم فى مواجهتها ، بين قلة مؤيدة وأغلبية معارضة ولكنهم جميعاً يتفقون فى التظاهر بالغيرة على الجنوبيين ، والمطالبة بضمانات وتحفظات لحمايتهم من الشماليين ، ولكنهم فى واقع الأمر يريدونها لأنفسهم ولضمان بقاء (الإله الأبيض) متربعاً على عرشه أطول مدى ممكن .

موقف رجال الكنائس

وأما المبشرون ورجال الكنائس ، فقد كان موقفهم الرفض منذ البداية ، لأن توحيد السودان فى نظرهم ، معناه إفساح المجال للدين الإسلامى لإكتساح الجنوب ، وقفل الطريق أمام المسيحية التى يدعون أنها أقرب إلى طبيعة الجنوبيين من الإسلام . . ولو كان الأمر كذلك لما جزعوا من إفساح المجال للإسلام ، كل ذلك الجزع الذى جعلهم ينقمون على حكام الخرطوم ويصفونهم بالرضوخ (للأفندية فى الشمال) . . ولو كانت المسيحية أقرب لطبيعة أهل الجنوب ، لما كان محصول الكنائس ، قرابة قرن من الزمان هو ذلك القدر الضئيل الذى وصفه شهود منهم بالفشل ، وذلك بالرغم من أنها كانت تعمل فى كنف الحكومة الإستعمارية ورعايتها وتعاونها

الوثيق ، حيث كانت تعتمد عليها فى تنفيذ جوانب خطيرة من سياستها ، كالتعليم والتربية ، على الأسس التى جاءت فى وثائقهم بأنها مغايرة لأسس الثقافة العربية السائدة فى الشمال .... وكان ذلك بالطبع يقوم على العون المادى والأدبى بجانب المعونات الطائلة من مراكز التبشير فى كل أنحاء العالم .

وبالرغم من كل ذلك جاء فى تعداد ١٩٥٥ أن المسيحيين فى الجنوب من كاثوليك وبروتستانت ، كانوا أقل من ربع مليون .. فى حين أن الإسلام وهو خالى الوفاض من المعونات التى لقيتها الكنائس ، قد وجد إستجابات واسعة ليس فى جنوب السودان وحده وإنما فى مختلف البقاع الإفريقية ، مما أذهل بعض الباحثين الأوربيين وجعلهم يصفون الإسلام بما وصفت به اللغة العربية ، بأنه (له قوة الإمتصاص) للأديان والحضارات الأخرى .

فالإسلام فى الجنوب قد انفتحت له القلوب ، لبساطة فكرته ويسر شعائره ، ومساواته التامة بين الناس — : الله واحد ومحمد رسوله .. والصلاة تؤدى فى أية بقعة طاهرة .. والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على زنجى ، ولا أبيض على أسود إلا بتقوى الله . :

هذا هو سر تفوق دعاة الإسلام على المبشرين ، وسر جزع الآخرين من مجرد تفكير حكومة السودان فى الأخذ بمبدأ توحيد شقى البلاد .. ومن هنا فقد بذل كل من إداريى الجنوب ورجال الكنائس جهوداً طائلة لأثناء حكومة الخرطوم عن الإتجاه الجديد .. غير أن الحكومة قد أصبح لديها إقتناع بأن خطتها ، المتحررة بعض الشىء فى سياسة الجنوب ، لهى أسلم من تعصب الإداريين ، فمضت فى طريقها دون أن تستجيب لهم ، أو تلتفت إلى

إنتقاداتهم أو تطمئن مخاوفهم على الوضع هناك . . . .
مما جعلهم يشنون عليها الهجوم ، ويصفونها بالرضوخ لضغط المثقفين الشماليين .

كانت الحكومة المركزية فعلا مشغولة بمؤتمر الخريجين العام ، الذى أخذ يتطور تطوراً مخيفاً لها نحو تمثيله للرأى العام فى السودان، وهى تريد أن تسارع لتقطع عليه السبيل قبل أن يستفحل أمره ويتمكن هو من قطع السبيل عليها . . فأعتزمت تحويل المجلس الإستشارى لشمال السودان بعد فشله ، لما أسمته (بالجمعية التشريعية) ، لتكون الممثل الرسمى للسودان بدلا عن المؤتمر ، وشكلت بعد ذلك (مؤتمر إدارة السودان) من بعض كبار الموظفين السودانيين، وعهدت إلى هذا المؤتمر بتقديم إقتراحات عن دستور السودان،وأسمته بالتطورات الدستورية، مع إبداء الرأى فيما يتعلق بوحدة السودان ، وبتمثيل الجنوب فى الجمعية التشريعية ، كما أسلفت . . .

قرارات مؤتمر ادارة السودان عن الجنوب اثارت حكامه

وجاءت قرارات هذا المؤتمر مؤيدة للوحدة ولتمثيل الجنوب فى الجمعية التشريعية. وهنا ثارت ثائرة أحكام الجنوب ، فرفعوا عريضة إحتجاج صارخة إلى السكرتير الإدارى ، موقعة من أربعة عشر منهم . . أبدوا فيها إعتراضهم على إقتراحات (مؤتمر إدارة السودان) وقدموا فى مواجهتها إقتراحات سياسية أهمها إنشاء (مؤتمر إدارى لجنوب السودان) وتذرعوا لذلك بأسباب أهمها ,, أن مستقبل الجنوب قد ناقشه الأشخاص غير الملائمين وفى المكان غير الملائم ،، . وكذلك اقترحوا انشاء (مجلس إستشارى للجنوب للدفاع عن مصالحه) وطالبوا بالضمانات الكفيلة بعدم تطبيق التشريعات التى تصدرها الجمعية التشريعية فى الشمال ، على مديريات الجنوب ، إلا بعد موافقة الحاكم العام ، وبعد التشاور مع

عريضة من أداريي الجنوب مضادة لقرارات المؤتمر

المجلس الاستشاري للجنوب .. كما أعلنوا في تلك العريضة أنهم لا يؤيدون غير التقسيم الأقليمي أو الفدرالي ، فهو الإجراء الوحيد الذى يلائم مصالح الجنوب . وهم يقصدون في الواقع مصالح حكام الجنوب فوق كل شيء . . فقد أصبح ذلك هو الشعار الذى تمسك به المعلمون الجنوبيون حتى إنعقاذ مؤتمر المائدة المستديرة فى مارس ١٩٦٥ . . . ولجنة الأثنى عشرة التى إنبثقت من المؤتمر ، مكونة من الشماليين والجنوبيين ، لمواصلة التفاوض والوصول إلى حل سياسى وسط لمشكلة الجنوب . . على أن عريضة حكام الجنوب قد لقيت إهتماماً كبيراً من السير جيمس روبرتسون ، السكرتير الإدارى الذى خلف نيوبولد . . فقد أبدى روبرتسون موافقته على عقد (مؤتمر إدارى للجنوب) كما إقترح أولئك الإداريون ، إلا أنه قال صراحة فى خطابه لحكام المديريات الجنوبية فى ديسمبر ١٩٤٦ :

مؤتمر إداريي الجنوب

" غير أننا ينبغي أن نعمل الآن ، على إفتراض أن السودان سيبقى موحداً ، سواء فى إطار حدوده القائمة الآن ، أو مع إدخال تعديلات طفيفة عليها ، إذا لزم الأمر . . وينبغى أن نعيد رسم سياستنا المقررة للجنوب على هذا الأساس .

وبالرغم من قوله هذا فان روبرتسون — كأي حاكم انجليزى آخر فى ذلك الوقت ، كان ينظر إلى الإتجاه نحو توحيد السودان ، على أنه قرار ليس نهائياً ، ولكن نزولا مؤقتا على حكم الظروف ، ولذلك فانه كان حريصا على إعطاء الفرصة لإدارى الجنوب لإظهار آرائهم ومطالبتهم بالضمانات والتحفظات ، على مسرح النقاش فى (مؤتمر جوبا) المقترح فى ١٩٤٧ ، كسبا لشعورهم وطمأنة لمخاوفهم ، والاحتفاظ بهم كصمام أمان ، ضد الاندفاع المتطرف نحو وحدة السودان ..

وثانيا قد كان هو شخصيا يرى فى مطالبهم ، خير ضمان لبقاء الإمور في أيديهم ، إنتظارا لما قد يأتى به المستقبل . . .

فهو يقول فى فترة أخرى من نفس الكتاب : (من المؤكد أن العمل سيستمر ، لاعداد شمال السودان للحكم الذاتى ومايتطلبه ذلك من انقاص عدد الموظفين الانجليز منه بالتدريج وزيادة الاهتمام بالجنوب) .

مؤتمر جوبا

فى هذا الجو المشحون بالنزاعات المتضاربة ولد (مؤتمر جوبا) الذى انعقد فى يونيو ١٩٤٧ .

كان المؤتمر فى ظاهره استجابة لرغبة إدارى الجنوب التى أبدوها فى عريضتهم التى أشرت إليها ، ولكن من جهة أخرى ، كانت الحكومة المركزية تبطن إهتمامها ، بأن يسفر المؤتمر عن قرارات مؤيدة لسياستها الجديدة ، والاتجاه الحذر نحو توحيد السودان . . فهى فى الوقت الذى تدعو فيه إداريى الجنوب ، لأنتهاج سياسة (يمكن الدفاع عنها) (وأن تحوز على قبول أبناء الشمال المثقفين) ، (على الأقل أولئك المعتدلين ، الذين هيئت أذهانهم لتقبل مثل هذه السياسة . . .) ، نراها أيضا حريصة كل الحرص على كسب إداريى الجنوب والاحتفاظ بهم إلى جانبها ، كصمام أمان أو (فرملـــة) لمواجهة الضغوط المتعددة وبعضها من ,, مؤتمر إدارة السودان ,, نفسه . . ومطالبته بتوحيد شطرى السودان دون تحفظ ، وبعضها ماكانت تأتى به الأخبار من القاهرة ، عن نشاط وفد السودان برئاسة السيد اسماعيل الأزهرى وعن إعتزامه تكوين حكومة سودانية حرة خارج السودان .

على العموم ، كان مؤتمر جوبا شيئاً جديدا بالنسبة للأساليـــب السياسية التى درجت عليها حكومة السودان ، فى إتخاذ قرارآتهـــا

السياسية حيال أية مسألة هامة . . فقد كانت شيمتها فى الماضى التكتم والمناورات وإصدار البيانات الغامضة ، فما بالها اليوم تطرح مسألة توحيد السودان ، أكبر مشكلاتها الإستراتيجية وأكثرها التواء ، على الرأي العام ، بهذه الطريقة المكشوفة، وتجعل منها مساجلة أو مناظرة بين أطراف النزاع، ثم تجلس فى مقعد الحياد لتلقى النتيجة وتتقبلها؟؟!

ولهذا اختلفت نظرات المراقبين لمؤتمر جوبا : فقال البعض : أنها مجرد مناورة سياسية لا تلبث أن تجمد وتزول ، بعد امتصاص قرارات مؤتمر إدارة السودان ، الملحة بتوحيد السودان ، وتمثيل الجنوب في الجمعية التشريعية .

وقال البعض أن حكومة الخرطوم بعد أن أملت عليها الظروف السير فى اتجاه توحيد شطرى البلاد ، لم يهن عليها أن تترك الامور لطبيعتها ، لكى تصل إلى تحقيق الوحدة الحرة الحالية من المعوقات والمكدرات ، كما ينبغى أن يكون السعى النبيل ، لضم شطرين لهما مستقبل مشترك . . ولكنها راوعت كعادتها فأعدت العدة سرا لمسرحية مؤتمر جوبا ، الذى حشدت له نخبة من أهم أبناء الشمال والجنوب ، مضافا إليهم إداريو الجنوب الانجليز وبعض مديرى المصالح بالخرطوم . . فجاء اخراجه فى تلك الصورة البسيطة فى مظهرها والتى أخفت فى باطنها الكثير من دهاء حكومة السودان ومكرها .

وفى اعتقادى أن هذا هو الصحيح ، إذ ليس من المألوف من حكومة السودان أن تدخل فى مغامرة كهذه ، فى أخطر امورها وأكثرها إلتواء وتعقيداً ، دون أن تكون قد اتخذت كل الاسباب لضمان النتيجة على الوجه الذى تريده . . وليس من المعقول فى حساب ذلك الجيل أن تختار لذلك المؤتمر شخصيات محترمة من

اصدقائها ، لكي يقفوا في مؤتمر جوبا ويعلنوا معارضتهم لسياستها ، بوحدة السودان ، دون أن تكون قـد أعـدت للأمر عدته . .
وكان خطاب السير جيمس روبرتسون ، الـذى افتتح به مؤتمر جوبا في ١٧ يونية ١٩٤٧ ، عبارة عن الاطار الذى وضعته الحكومة المركزية لأعمال مؤتمر جوبا . . فقد جاء في بعض فقرات ذلك الخطاب تعبيرات واضحة لاتجاه الحكومة نحو الوحدة كقوله : (وإذا أردنا أن يتولى السودان حقاً حكم نفسه ، وأن يعتمد على موارده ، فلابد من ألا ينقسم إلى وحدات صغيرة ضعيفة) ويقول أيضا : (والكثيرون من أبناء الشمال ، يأملون في أن يؤدى دخول أبناء الجنوب الجمعية التشريعية القادمة ، الى التعجيل بعملية الوحـدة . وأني لعلى ثقة من أن توصيات هذا الفريق ، تستند إلى حسن النوايا ولا أظنهم يريدون استغلال القبائل المتخلفة في الجنوب) .

ثم يعيد ما سبق ذكره في خطاب الحاكم العام ١٩٤٥ عن سياسة حكومة السودان نحو الجنوب ، ويؤكد مرة أخرى أن العوامـل الجغرافية والتاريخيـة تعمل على الربـط بين قبائل الجنوب والشرق الأوسط والعرب المقيمين شمال السودان بروابط لاتنفصم) . . وأخيرا قال : (إذا كانت هذه سياسة حكومة السودان ، فاني أود أن أتعرف على آراء الحاضرين . . الخ) ولايخفى على أحد ما تنطوى عليه هذه العبارات من إيحاء وتوجيه . .

ولعل المتتبع لمسرحية مؤتمر جوبا يستطيع أن يلخص أغراض حكومة السودان التى توختها من اقامته في ثلاث أمور رئيسية :

١ـ تريد الحكومة أن تتظاهر بالاستجابة لقرارات مؤتمر إدارة السودان المستوحاة من مطالب الحركة الوطنية .

٢ـ تريد أن تكسب المظهر الديمقراطى ، وتبدو للناس وكأنها قد تركت الامر لابناء الشمال وأبناء الجنوب ، ليحسموا النقاش

فيما بينهم ، دون تدخل ، منها ، وهى فى الواقع كانت تعمل فى كل أيام المؤتمر ، من وراء الكواليس ، وتمارس كـــل وسائلها المعروفة بين الجنوبيين لضمان النتيجة .

٣ ـ كانت تريـــد أن تطمئن أولا على السياسة، التى كثيرا ما حثت اداري الجنوب على وضعها من قبل ، بحيث (يمكن الدفاع عنها) ، أو بأن تكون قادرة على كسب تأييد أبناء الشـــمال المهيئين لتقبل وجهات النظر المنطقية ، وأن يكون مؤتمر جوبا فرصة لاداريي الجنوب ، لابداء تحفظاتهم وضماناتهم ، وكأنها صادرة من أبناء الجنوب أنفسهم ، قبل أن تكون صادرة من الانجليز . (خطاب روبرتسون ١٩٤٦) .

وكان الهدف العاجل من وراء كل ذلك ، هو مواجهة ما أشارت إليه الفقرة الثالثة من خطاب روبرتسون لعام ١٩٤٦ ، بأنه قد (طرأ تغيير كبير على النظرة السياسية إلى هذه البلاد بأسرها) .

وما أشارت إليه نفس الفقرة من ترقب لنتيجة المفاوضات ، التى كانت دائرة فى ذلك الوقت (يقصد مفاوضات (صدقي ـ بيفن) بين الحكومتين المصرية والبريطانية ، وكذلك الاشارة إلى (اعداد شمال السودان للحكم الذاتي ، ولانقاص عدد الموظفين الانجليز فيه) . إلى أن يقول : (وقد أصبح من الضروري أن تتبلور السياسة المقررة للجنوب ، فى أقرب وقت ممكن) .

وفى الفقرة الخامسة أيضا قوله (إلى جانب التطورات السياسية السريعة التى طرأت فى الشمال فى الفترة الأخيرة ، حدثت مجموعة من التطورات المتصلة بالجنوب ، منذ إرسال خطاب فخامة الحاكم العام ١٩٤٥) . لقد أجبرت تلك التغيرات السريعة حكومة السودان ، على التظاهر بغير ما تضمر ، وما أكثر ما يبدو ذلك من خـــلال المراوغات الواردة فى خطاب روبرتسون ١٩٤٦ ، فنراه يوصى إدارى الجنوب بأن : ,, تتم بلورة سياستهم فى صورة يمكن شرحها

للجماهير (والدفاع عنها كما أشرت سابقاً . . كما نراه يوصى أيضا . (أن تبدد مخاوف الموظفين الانجليز) أى تضمن لهم البقاء فى الجنوب.

ويقول فى الفقرة الرابعة أنه : ,, لا يريد أن يتأثر مصير مايونين من سكان الجنوب ، بمحاولة قد تبذل لارضاء ساسة السودان ، ممن لم يصلوا بعد إلى مرحلة النضج ، أو لم تتوفر لديهم المعلومات الكافية .

ثم يعود فيستدرك بقوله : (غير أننا لا نستطيع اغفال أن أبناء السودان ، شمالا وجنوبا ، هم الذين سيعيشون فى هذه البلاد ، ويقيمون فيها حياتهم المتباة . . ولذا ينبغى أن تتركز جهودنا فى المرحلة الحالية ، فى وضع سياسة ، لا يكفى أن تكون سليمة فى حد ذاتها ، بل ينبغى أن تكون مقبولة لدى الوطنيين السودانيين ذوى الاتجاهات المعتدلة ، من أبناء الشمال والجنوب معا ، بل وأن يتولوا آخر الأمر تنفيذها بأنفسهم . . .) .

لقد فرضت إذن السياسة الجديدة على حكام السودان وفرض عليهم أيضا التعجل فى بلورتها . وهذا هو سر تخبطهم بين ما يظهرون وما يضمرون . . . .

ولكن الاحداث التى أعقبت مؤتمر جوبا ، كانت أسرع وأقوى من تدابير انجليز السودان وتصوراتهم للموقف السياسى . فقد تتابعت التطورات فى أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات ، بما جعل حكومة السودان تتعجل الخطى ، لاعداد السودان للحكم الذاتى – ولكن بينما كانت فى ١٩٥٢ منهمكة فى تجهيز ما أسمته بالتطورات الدستورية ووضع دستور نهائى للسودان ، وبينما هى منهمكة فى ذلك إذا بحدث تاريخى عظيم يقع فى مصر ، وهو ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فقد تحرك الجيش المصرى وأطاح بالملك فاروق الاول ونظام حكمه واستولى على السلطة نهائيا في مصر . وكان من صدى ذلك فى السودان ، أن توقفت حكومته عن السير فى اتخاذ الخطوات الدستورية

التي قررتها من قبل ، وهنا اشرأبت أعناق حكام السودان إلى القاهرة ليروا ماذا هناك . . .

ولكن انتظارهم قد طال ، لأن ثورة يونيو كانت قد وضعت مشكلة السودان على رأس برنامجها . . وكان رجالها يرون أن يجلوا الانجليز عن السودان قبل جلائهم عن مصر . . ودارت الامور في هذا الاتجاه بسرعة لم يكن يتصورها حكام السودان ، فتمت اتصالات مستعجلة بين الحكومتين المصرية والبريطانية وتوصلوا إلى تفاهم مبدئي ، أدى إلى الدخول في المفاوضات ، التي انتهت بجلاء القوات البريطانية والمصرية واعطاء السودان الحكم الذاتي ، وحق تقرير المصير . . وكان للولايات المتحدة دور هام في انجاح المفاوضات كما سوف أفصله في الجزء الثاني من هذه المذكرات انشاء الله .

أما النتائج التي أسفر عنها مؤتمر جوبا فنجد تلخيصا لها في كتاب جنوب السودان السابق الذكر على النحو التالي :

١ — أعلن جميع ممثلي الجنوب ، باستثناء واحد أو أثنين ، من زعماء المديرية الاستوائية ، ضرورة قيام الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب . وأكدوا الرأي القائل ، بأنه لا يجوز أن ينفصل الجنوب عن الشمال .

٢ — وافق الجميع على أن الجنوب لا يمكن أن يبقى مستقلا ، وكما أعلنوا عدم موافقتهم على الاتحاد مع يوغندا .

٣ — أعلن المثقفون من أبناء الجنوب في المؤتمر ، معارضتهم للانفصال عن الشمال إذ يكون ذلك في غير مصلحتهم ، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية .

٤ — تحدث أبناء الجنوب طويلا عن تخلف مناطقهم .

٥ — ظهر بين ممثلي الجنوب ، شعور قوي بعدم الثقة بنوايا الشمال ،

وتصميم على عدم الخضوع لأوامر تصدر من الشمال . . وكان هذا التصميم من جانب الجنوبيين ، سندا قويا لمطالبة الاداريين بانشاء مجلس استشارى للجنوب ، (كما سيأتى) ممايدل على أن الاداريين قد بذلوا جهدا كبيرا فى اعداد أذهان الجنوبيين ، لكى تأتى أراؤهم منسجمة مع السياسة الانجليزية . . ولكننا من جهة أخرى قد لاحظنا كيف عبر السير جيمس روبرتسون فى خطابه لافتتاح المؤتمر عن ثقته التامه فى توصيات الشماليين الخاصه بالوحده لانها تستند إلى حسن النوايا ، (ولاأظن أنهم يريدون استقلال القبائل المختلفة فى الجنوب) . . وكانت مثل هذه اللفتات من السير روبرتسون ، بلاشك لها أثرها فى توجيه الجنوبيين والاداريين نحو الوحدة ، ويوحى إليهم بالاعتدال ، فيما تعودوا أن يتطرفوا فيه من اتهامات للشماليين . . .

على أن المتتبع للنقاش فى مؤتمر جوبا ، يلاحظ بوضوح أن الاداريين الانجليز لم يعملوا على تصعيده نحو انفصال الجنوب عن الشمال ، كما كان متوقعاً ، ولكنهم قد ركزوا بصفة رئيسية ، على محاولة تعطيل إرسال ممثلين للجنوب فى الجمعية التشريعية عند تشكيلها والمطالبة بانشاء مجلس استشارى للجنوب ، لتدريب الجنوبيين قبل إلحاقهم بالجمعية التشريعية فى الخرطوم . . . . والمطالبة بضمانات لعدم سريان قرارات الجمعية التشريعية على الجنوب ، إلا بعد موافقة الحاكم العام والمجلس الأستشارى للجنوب . . إلى غير ذلك من الضمانات الأخرى ، كتأسيس مجالس الحكم المحلى فى المديريات الجنوبية . . . . ولكن الحكومة المركزية فى الخرطوم لم تستجب لادارى الجنوب ، وتشكلت الجمعية التشريعية فى ١٩٤٨ ، دون أن ينص فى مرسومها على الضمانات ، التى كان يلح فى أمرها إداريو

الجنوب »، ولا أشير إليها حتى مجرد إشارة . . مما أثار سخط تلك الفئة ، ومعها المبشرون ورجال الكنائس ، الذين لم يكفوا عن معارضة السياسة الجديدة نحو توحيد السودان ، منذ البداية ، خوفاً من الاسلام واللغة العربية وتوحيد مناهج التعليم ، واشراف الحكومة على التعليم بكل أنواعه .

لقد انتهت إذن محاولات فصل الجنوب أو إقامة حكومة مستقلة فيه ، وكذلك محاولات ضمه او ضم جزء منه إلى مستعمرات شرق أفريقيا . .
وإذا تذكرنا ما سبقت الاشارة إليه من قولهم : (أن سياسة حكومة السودان تجاه الجنوب ، تقوم على مراعاة أن شعوب جنوب السودان أفريقية وزنجية ، غير أن العوامل الجغرافية والاقتصادية ، بقدر ما يبدو منها في الوقت الراهن ، تعمل متضافرة للربط بين هذه الشعوب ، وبين التطور المقبل لبلاد الشرق الاوسط وشمال السودان الذى تسوده النزعة العربية . . الخ) .

إذا تذكرنا ذلك ، وضح لنا أن المناخ الذى انعقد فيه مؤتمر جوبا ، كان مبعثه التغيير الجوهرى لسياسة الجنوب ، وأن الارضية التى قام عليها المؤتمر هى اقتناع حكومة الخرطوم بضرورة توحيد السودان ، ولكن في إطار بقاء الانجليز فى الجنوب أطول مدة ممكنة ، للوصول إلى أهداف مستورة ، قد يكون من اهمها ، إتخاذ وحدة السودان كعامل فعال لفصله عن مصر . . .

دار السودان للاستعلامات

الدعاية للسودان :

من أهم المشروعات التى أضاعها إختلاف رابطة الطلبة مع النادى السودانى بالقاهرة ، انشاء (دار السودان للاستعلامات) ففــى ١٩٣٦ كان التفكير قد تركز فى شعبة الاعلام بالرابطة ، والتى كان يقودها الاخوان قيلى أحمد عمر وعوض عقارب ، لانشــاء دار الاستعلامات ، لتكون مرجعا لكل من يريد الحصول على أى معلومات عن السودان ، من أى نوع ، وخاصة عن مرافق الحياة آنذاك .

فكرنا فى الاتصال باخوتنا فى السودان ، لنناشدهم العون والقيام بحركة (لانشاء هذه الدار ، التى تصورناها فى ذلك الوقت ، كأكبر نافذة لبلادنا على العالم . . . وطالبنا بتزويدها بكل ما يمكنها من أداء مهمتها فى الدعاية للسودان والتعريف به ، والاستجابة لكل ما يطلب من معلومات عنه أو معرفة أى شىء فيه . . سواء الافراد أو الهيئات والشركات . . الخ . كما ينبغى أن تكون تلك الدار دائما علــى مستوى رفيع ، بحيث تصبح مستقبلا مركزا لنشاط ثقافى عام ، أو تبادل وتعاون فكرى بين أبناء السودان وغيرهم ، كما تكون معرضا لكافة مصنوعاته وخاصة اليدوية من الابنوس والعاج والفضة . . الخ وكذلك قاعة للمحاضرات تصلح للعروض المسرحية والفنية وعرض الافلام وخاصة الوثائقية . . والواقع اننا انشغلنا بالتفكير بانشــاء (بيت السودان) ، وبعد قيامه تحول تفكــيرنا إلى إلحــاق (دار الاستعلامات) ببيت السودان فى المستقبل .

وقــد ظهر ذلك واضحــا فى خطاب الدكتــور عبد الرازق

السنهورى وزير المعارف المصرية ، آنذاك فى الحفل الرسمى الذى أقيم ابتهاجا بافتتاح أول بيت للسودان بالقاهرة فى فبراير ١٩٤٦م ، حيث أشار السنهورى إلى نقل الطلبة السودانيين مستقبلا إلى المدينة الجامعية ، عندما تكتمل ، وعندئذ يحول البيت إلى مؤسسة ثقافية ذات وضع جديد تصبح فيه مركزا للتعاون والتبادل الثقافى بين أبناء السودان ومصر .

ولكن تطورات الظروف السياسية بعد استقلال السودان ، لم تبق على بيت السودان حتى يتم رسالته النبيلة .

وكنت قد أشرت سابقاً إلى أن المواطن السودانى الكبير محمد ضرار الموظف بوزارة الزراعة المصرية ، قد أقام للسودان معرضا دائما أنيقاً فى مبنى وزارة الزراعة المصرية ، بالدقى فى الثلاثينات ، وكان يعطى فكرة طيبة عن نباتات السودان ومحصولاته وبعـــض أقاليمه ، وقدم فيه منظراً صحراويا تظهر فيه الغزلان والنباتات . . الخ فكان ذلك نموذجا لما كنا نفكر فيه .

فما أحرى بسفارتنا بالقاهرة اليوم ، بل سفاراتنا فى كل بلد من بلاد العالم ، أن تلحق بها مثل هذه الدار فتقدم لبلادها خدمة هى فى أمس الحاجة إليها من الدعاية والاعلام . . وحبذا لو تعاون فى اخراج هذه الدار بعض الوزارات والمصالح ، بل والافراد أيضا ، كوزارة التربية ووزارة الاعلام ومصلحة الغابات للصناعات الخشبية الجميلة ، وكذلك مصلحة السجون وكذلك بعض الفنانين والمشتغلين بصناعة الفضة والابنوس والجلود . . الخ .

وكثيرا ما كنت أتساءل عند دخولى مبنى سفارتنا بالقاهرة ، ومشاهدتى لمدخلها الجميل وردهاتها وابهائها الواسعة الخالية من أى

عرض ، لم لا يتخذ من هذه كلها فرصة لاقامة معرض سودانى دائم على نحو ما ذكرت سابقاً ؟ ؟ إذ من المؤسف حقاً أن عين الزائـــر لتلك السفارة ، لا تكاد تقع على شيء من ذلك ، مما يعكس بعض الملامح المضيئة للسودان الجديد . .

مجلة الســودان القاهرية

مجلة اسبوعية انشأها المواطن الكبير على البرير ، وكان لها دور كبير في الدعاية للسودان والتعريف به وعرض مشاكله وقضاياه وايراد أخباره والتعليق عليها ، ولقد كانت مجلة السودان محظوظة حقاً ، فقد ولدت في وقت تجمع فيه عدد كبير من الطلبة والخريجين السودانيين بالقاهرة ، وكان من أعز أمانيهم أن تكون لهم صحيفة خاصة بهم ، تحمل أفكارهم وتطلعاتهم الوطنية . . وكان لعلـــى البرير نفس التطلعات ، فقامت المجلة على أكتاف الشباب السوداني وجهده وحده ، فتوفر للمجلة ، منذ أول وهلة ، كل ما يكفل لها النجاح ، من طاقات زاخرة وأقلام فتية متحفزة . . وهكذا وجدت طريقها مفتوحا فاندفعت فيه . . وكان رئيس تحريرها الدكتور بشير البكرى ، أكثرهم بذلا وعطاء . . وكان منهم أحمد السيد وأحمد عابدون وعتيل وزملاؤهم الآخرون ثم الشيخ عثمان عبد الرازق مدير الادارة وسكرتير التحرير وأعوانه . . ولم يكن بعد ذلك من الصعب على وطنى طموح كعلى البرير أن يتحمل ما تبقى مـــن تكاليف المجلة المادية . . وقد كانت يسيرة في ذلك الوقت لا تحوجه إلى عون من جهة كبرى كالسراى الملكية ، كما قال البعض .

ولعل في مظهر المجلة البسيط جدا ، الذى لم يكن يختلف عن أوساط المجلات في ذلك الوقت ، سواء في الحجم أو نوع الورق أو الغلاف ، لعل في ذلك كله ما يجعل تلك المجلة قادرة على الاكتفاء الذاتي ، لاعتمادها على أقلام تحرير متطوعة وإدارة أيضا متطوعة . . واعتقد أن علاقات على البرير الحسنة بالقصر الملكى هى التى جرت عليه تلك التهمة . ولكن كيف لا يكون على البرير على علاقـــة

طيبة مع القصر ، وهو كبير السودانيين بمصر وبيده قضايا السودان ومشاكله ؟ ؟ ولم نذكر علاقة البرير مع السراى ونسكت على علاقاته الطيبة مع الجهات السياسية الأخرى وخاصة حزب الوفد المصرى ممثل الاغلبية الشعبية وأكبر المناهضين لسياسة السراى . . لقد كان الوفد يكن للبرير مشاعر طيبة ، حتى أنهم ساندوا ترشيحه فى انتخابات ١٩٤٤ ليكون نائبا عن احدى دوائر القاهرة فى حين أن القصر كان ضد ذلك الترشيح وإذا كان الوفد لم يساند ترشيح على البرير للبرلمان ، فى المرة الأخيرة ١٩٥٠ أثناء حكم الوفد ، فذلك لان بعض منافسى البرير قد دسوا له ووشوا به عند النحاس كما ذكرت من قبل ولكن ذلك لم يفقد على البرير ، الحرص على توازن علاقاته السياسية مع الجميع ، كما تدل عليه تصرفاته . . هذا ، ولو أن علاقة البرير بالقصر كانت من أجل تنمية تجارية كما قال البعض لوجدناه ينفذ سريعاً إلى الثراء العريض ، إذ كانت الفرص لهذا الثراء عنده أكثر مما هى عند غيره . . لقد عاش على البرير فى مظهر متوسط ، وحدود معقولة ، بالنسبة لامثاله من ذوى المكانة ، وكان انشغاله بالمسائل العامة وعدم تفرغه لأعماله التجارية ، واضحا ، حتى تعرضت مصالحه ومصالح أسرته للضرر ، مما جعل الاسرة تفكر فى إجراء بعض التعديلات فى مكتب القاهرة . . وأنا غير ملم بالتفاصيل على وجه الدقة ، ولكنى أذكر مجىء المرحوم محى الدين البرير لمكتب القاهرة ، كما قلت سابقاً ، واقامته فى حى جاردن ستى ، ثم مجىء هاشم البرير بعد محى الدين البرير لنفس المكتب . وأخيرا أين ثراء على البرير الذى كان يمكن أن يحققه لو كانت علاقته بالقصر من أجل التجارة كما قيل ، لقد عاش على البرير على ما دون البذخ والترف ، كما يشهد الجميع . . وكان صرفه على المسائل العامة والتعليم والطلبة ، فوق طاقته المادية . . ومات وهو فقير لم يورث أبناءه شيئا يذكر من المال .

وجدير بالذكر أن اهتمامات مجلة السودان القاهرية بقضايا السودان ومشاكله كانت كبيرة جدا ، إذ لم تكتف هيئة تحريرها الفتية بما كانت تزودها به وسائلها الخاصة في السودان ومصر من أخبار ومعلومات ، بل كانت ترسل من وقت لآخر للسودان من يقوم بجمع المعلومات والاخبار كلما جد في الامور موقف كبير .

ولعل بعض الاخوة يذكرون زيارة الدكتور بشير البكري رئيس تحرير المجلة للسودان في ١٩٤٥ ، والتي كان هدفها الاساسي جنوب السودان والتعرف على أحواله ، واعداد أبحاث خاصة عن مختلف مشاكله ، لتزويد المجلة بها ، ولكي تكون في حوزتها كرصيد ثابت لها عن ذلك الجزء الهام من الوطن .. ولكي نعرف مدى ما كانت تتمتع به مجلة السودان ، من مكان في السودان ، نذكر ذلك التكريم الذى اضفاه نادى الخريجين بأمدرمان ، على الدكتور بشير البكرى ، إذ أقام له حفل شاي ضخما ، تحدث لنا عنه الدكتور بشير كثيرا بعد عودته للقاهرة ، وقال انه كان تكريما مبالغا فيه ، أخجل تواضعه وجعله يتلفت ليرى هل المحتفى به هو أم شخص آخر .

أسوق هذا كدليل على المكانة الادبية الكبيرة التى أحرزتها مجلة السودان القاهرية ، عند جمهرة المتعلمين في السودان ..... حيا الله ذكراها العطرة ، وذكرى مؤسسها الوطنى الغيور على البرير ، وحيا الله أولئك الاحرار المناضلين الذين قادوا التحرير فيها متطوعين بالرغم من حالتهم المالية التى كانت على الدوام ، أبعد ما تكون عن الانتماء لصحيفة يقال عنها زوراً إن القصر الملكى كان ينفق عليها .

وأؤكد هنا أن بين أوراقى القديمة ما يثبت أن بعض البارزين في قيادة مجلة السودان القاهرية كانوا يطلبون منى أن أمدهم بشيء من النقود من القليل الذى كنت أملكه ، وذلك لان (الكلفة بيننا كانت مرفوعة) ، وأن الامر متبادل بيننا على الدوام على مبدأ : (الفقراء اتقاسموا النبقة) .. ولايمنعنى من نشر مثل هذه الوثائق إلا عدم استئذانى من صاحبيها .

بعثات تعليمية من حكومة السودان لمصر لأول مرة

أشرت فى غير هذا المكان ، إلى السياسة المعادية التى انتهجتها حكومة السودان الانجليزية ، نحو أبنائه الذين ذهبوا إلى الخارج لاكمال تعليمهم فى الجامعات والمعاهد العليا . . وكيف نظرت إليهم تلك الحكومة كمتمردين وخوارج ، يجب حرمانهم من العمل فى دواوينها وكان المقصود بذلك أساسا ، هم الذين هربوا إلى مصر . وان كان العداء قد شمل حتى الذين تعلموا فى بيروت ، مثل معاوية محمد نور الذى عومل أسوأ معاملة ، بعد تخرجه وبعد أن علا نجمه وتألق اسمه فى محافل الفكر والادب ، فى كل من لندن والقاهرة .

كان ذلك هو موقف حكومة السودان إلى ما بعد معاهدة ١٩٣٦ ، حيث حدث التسامح فى سفر الطلبة لمصر ، وحيث اتسع مجال التعليم فى مصر أمام أبناء السودان بذلك التيار الجارف المتدفق نحو مصر ، والذى لا تسمح لها الظروف الجديدة بالتصدى له . . فعمدت وهى مكرهه ، إلى التفكير فى التوسع من جانبها ، فى انشاء المدارس الثانوية والعليا ، كترياق مضاد ، يمكنها من تعويق تيار الهجرة نحو مصر . . وبالفعل بدأت تنشىء المدارس الثانوية العليا كما أشرت سابقاً ولكن دون جدوى .

وما كادت تحل الاربعينات حتى تعقدت الامور فى وجه حكومة السودان ، وكانت لها مضاعفات فى كل الميادين . . فذهاب السودانيين لمصر يزداد كل يوم ، وتفكير كبار المصريين فى السودان أيضا يزداد كل يوم ، والحرب يزداد أوارها . . ومؤتمر الخريجين يزداد قوة ومنعة ــ فتشكل هذه كلها كابوسا مزعجا لحكام الخرطوم

يقلق خواطرهم ويسبب لهم الحيرة والارتباك . . ولكن الوحـــى يأتيهم من لندن كالمعتاد ، عن طريق سفارتهم بالقاهرة ، بأن الظروف تقتضى بعض التغيير وبعض التساهل ، فيما يتعلق بسياستهم نحـــو التعليم ونحو مصر . . وبدأت بالفعل تظهر مؤشرات للسياسة الجديدة فى مطلع الاربعينات ، ولكنها كانت خافتة جدا . . فقد رأينا فى القاهرة ، لاول مرة ، ثلاثة من مدرسى مدارس السودان ، يتتابع قدومهم للالتحاق ببعض الكليات .
والمعاهد المصرية ، لا ليكملوا تعليمهم فيها ويحرزوا شهاداتها العليا ، ولكن ليتلقوا بعض الدراسات بقصد التقوية والتدريب ثم يعودون للخرطوم . . وهم الاساتذة : أحمد بشير العبادى الذى التحق بكلية العلوم ، فالمرحوم عبد القادر ابراهيم (تلودى) الذى التحق بمدرسة الفنون العليا لدراسة الفنون الزخرفية ثم المرحوم النور ابراهيم الذى التحق بكلية الآداب بشهور قليلة . . ثم أخذت بعثات حكومـــة السودان تتسع شيئا فشيئا . . فجاء إلى معهد التربية العالى بالأورمان ، على ما ذكر كلٌ من الاساتذة شفيق شوقى وشريف خاطر وابراهيم ضو البيت وجمال الدين المبارك ، وعبد الرازق متولى وعبد المنعم حمدى وادريس عبد الله البنا وعبد الله محى الدين الجنيد ، وعثمان عبد الله وقيع الله . . .

وحوالى منتصف الاربعينات ، كانت الامور فيما يتعلق بتدريس اللغة العربية فى السودان قد أخذت تتغير بسرعة . . فالتوسع فى إنشاء المدارس الثانوية : وادى سيدنا وحنتوب وخور طقت . . الخ ثم التوسع فى أنهر هذه المدارس . . كما أخذت بعض التغييرات تحدث فى برامج اللغة العربية ، ومناهج تدريسها واستبدال المدرسين القدامى بآخرين جدد .

كل ذلك كان يجرى بسرعة ، ويشكل ضغطا شديداً على مصلحة المعارف السودانية ، لكي تسارع في إعداد الكوادر الجديدة ، التى تواجه بها تلك التطورات . . ولم يكن أمام معارف السودان حينذاك مايسعفها في الحصول على تلك النوعية الجديدة من معلمى اللغـــة العربية ، غير جامعات مصر ومعاهدها . . وكانت حكومة السودان في ذلك الوقت مصابة بعقدة الخوف من التعليم في مصر ، واحراز الشهادات العليا من جامعاتها ، ولكن الامور كانت تضغط بشدة . . فاتجهت في النهاية راضية أو مكرهة ، إلى جامعات مصر . . وتركز تفكيرها في كلية دار العلوم التابعة لجامعة فؤاد الاول . . وانقسمت خطة معارف السودان إلى هدفين :

١ ــ بعثات عاجلة لمدة سنتين لاسعاف الموقف ، فيما يتعلق بالحاجة الملحة لمعلمى اللغة العربية .

٢ ــ بعثات طويلة الأجل لاكمال الدراسة في دار العلوم وبعض المعاهد الاخرى واحراز شهاداتها العليا .

ففى نطاق البعثات العاجلة كانت الدفعة الأولى مكونة مـــن الاساتذة : في ١٩٤٦م . . .

أحمد حامد الفكى ، محمد الحسن الصديق ، الطيب شبيكة . ومن تابعى الدفعة الاولى ولكن في الخطة طويلة الأجل الاســـاتذة : عثمان الفكى بابكر ، محمد الطيب عبد الله ، محمد أحمد محى الدين ، حامد الجعيلى ، محمد صالح هارون ، عثمان محى الدين .

والاربعة الأوائل ، اكملوا دراسة الكلية وأحرزوا شهادتها . . أما الاخيران فقد انفصل أولهما من بعثة الحكومة ، وتوفى الثانى إلى رحمة الله وحل محـــلهما الأستاذان : أحمد اســـماعيل البيلى ، ومصطفى طيب الاسماء . .

كما أرسل مع الدفعة الاولى لكلية دار العلوم :

محمد الغزالى السراج للمعهد العالى للعلوم المالية والتجارية } لمدة ثلاث
وكذلك محمد النذير لدراسة الاقتصاد } سنوات

وفى ١٩٤٧ كانت الدفعة الثانية فى خطة البعثات القصيرة ، مكونة من الأساتذة : الهادى أبوبكر ، عز الدين الحافظ ، ومحمد عـلى يوسف .

ثم الدفعة الثالثة من الأساتذة : عثمان على ابراهيم والهادى أحمد محمد صالح أما بعثات الدراسة النظامية فى كلية دار العلوم فقد استمرت . وانشأت حكومة السودان داراً لطلبة هذه البعثة .

سودنة وكالة حكومة السودان بالقاهرة

كانت سودنة منصب مساعد وكيل حكومة السودان بمصر من التغييرات المظهرية التى أحدثتها حكومة السودان ، لتواجه بها ضغط الحركة الوطنية ومطالبها بضرورة تسليم السلطة لابناء السودان ، وكان أول وكيل سودانى لحكومة السودان بمصر هو الاستاذ محمد حسن عبد الله وكيل وزارة التربية الاسبق وسكرتير عام الغـــرفة التجارية فيما بعد ، وقد تســلم مهام منصبه فى ١٩٤٨ . ولم تكن حكومة السودان جادة فى ذلك ، لانها كانت قد نقلت كل المهــام السياسية إلى السفارة البريطانية بالقاهرة ونقلت أيضا الوكيل الانجليزى معها لكى يقوم بتصريفها فى السفارة .

وكان هذا فى حد ذاته عملا غير أمين ولا دستورى ، لان شئون السودان ، سواء أكانت سياسية أو غير سياسية ، لا يمكن أن تتبع السفارة البريطانية وتكون جزءاً من أعمالها ولذلك لم يبق لوكالة حكومة السودان بالقاهرة من الاعمال إلا العادية شبه القنصلية ، كالترحيلات والشئون الشخصية وشئوون الطلبة . . الخ

وقد روى لى الاستاذ الهادى أبوبكر قصة تؤكد ذلك ، جرت بينه وبين المستر هيزلدن وكيل حكومة السودان بمصر عام ١٩٤٧ ، وكان الهادى موفدا من معارف السودان للالتحاق بكلية دار العلوم فنزل فى أحد الفنادق لان منزل بعثة معارف السودان كان مزدحما جدا . . فيقول الهادى : (إلا أن المستر هيزلدن طلب منى بالحاح شديد أن انتقل إلى منزل البعثة لاتولى إدارته وشئون البعثة ليرتاح هو – على حد تعبيره – مما كان يحال إليه من مشاكل ، وذكـــر هيزلدن أن جل عمله يصرف فى سفارة بريطانيا بالقاهرة وأنـــه

لا يحضر إلى مكاتب حكومة السودان ، الا لماماً وفي فترات قصيرة ، يعطى فيها توجيهاته ويطمئن إلى سير العمل فيها ، وقال أنه لا يجد الوقت الذى يستمع فيه إلى شكاوى تقدم إليه من تصرفات أعضاء البعثة ، وانه اتخذ ذلك القرار بالتشاور مع مدير معارف السودان) ، وواضح من هذا أن شئون السودان الكبيرة ذات الطابع السياسى كانت تدار فى السفارة البريطانية بالقاهرة .

فتعيين سودانى كبير فى ذلك المنصب الخطير ، كان المراد به التمويه على العقول ، لان المنصب فى الواقع أصبح مظهريا فقط . . ولكننا نجد أن طبيعة السودانيين بوجه عام ، قد أدركت محمد حسن فأعانته بعض الشيء ، على التدابير الانجليزية وذلك أن الســودانيين ، ما يكاد الواحد منهم يجلس على منصب مسئول ، حتى تستيقظ فيه خصائصه المميزة له ، وأولها حرصه على كرامته الشخصية ، وحسن سمعته بين مواطنيه ، وخاصة إذا كان مثقفاً كمحمد حسن .

وصحيح أن وضع محمد حسن فى ذلك الموقع الخطير لاول مرة ، كان شائكا جداً ، وتحتاج إلى كثير من الخبرة واللباقة . . ولكن محمد حسن قد إستطاع أن يواجه تلك المعاناة ، بين السلطة الانجليزية وبين الاحتفاظ لنفسه بكرامة المواطن السودانى الكبير ، عندما تضعه الاقدار فى مثل ذلك الاختبار القاسى . . .

فقد ظلت وكالة حكومة السودان بالقاهرة ، قبل محمد حسن عبد الله ، لعشرات السنين ، مكاناً مشبوها يبغضه السودانيون ويبتعدون عنه ، ولا يعتبرونه ممثلا لبلادهم ولم يكن يتردد عليه غير الجواسيس والعملاء من بائعي الضمائر ، الذين لا أخلاق لهم ولا وطنية . . وكان هؤلاء يشكلون حاجزا دائما بين المسئولين فى الــوكالة وبين السودانيين بالقاهرة . . . .

وما كاد محمد حسن يقبض على ناصية الامور فى منصب الوكيل حتى أخذ فى ابعاد تلك العناصر الخبيثة ، لتطهير الوكالة من أدرانها التى رانت عليها عشرات السنين .

ونجح محمد حسن فى تصفية تلك العناصر المشبوهة ، إلى حد جعل الناس ينظرون إلى الوكالة نظرة جديدة ، على أنها قد تحسن وجهها وأصبحت على حال غير ما كانت عليه بالامس . . وانفتح بذلك الطريق أمام محمد حسن للاتصالات الشخصية المباشرة ، مع الافراد والجماعات والهيئات السودانية بالقاهرة ، ليتبادل معهم الرأى حول كل الامور ، حتى أحس السودانيون بمصر ، لاول مرة ، أن الوكالة قد أصبحت ممثلة لبلادهم . . وأول عمل وفق فيه محمد حسن هو نقل الوكالة من مكانها القديم بميدان توفيق بحى التوفيقية ، إلى مكان جديد بشارع رستم بحى (جاردن ستى) وهو المقر الحالى لسفارة السودان بالقاهرة ، فكان لذلك أثر نفسى كبير ازال تلك الوحشة التى كانت تحول بين السودانيين والوكالة ، كما أوحى للناس بما سيحدث من تغييرات فى أعمال الوكالة وأحوالها ، أولعل العمل الرئيسى لمحمد حسن عبد الله ، بعد أن أفرغت الوكالة من مهامها السياسية قبل تعيينه ، هو الاشراف على البعثات الدراسية التى توسعت فيها معارف السودان ، وفقاً للخطة التى أشرت إليها من اعداد كوادر لمعلمى اللغة العربية . . واستأجرت الوكالة بيتا ليكون مقراً لاقامة الطلاب . . ولحسن الحظ كان هذا البيت بالقرب من بيت السودان بالمنيرة محل اشرافى المباشر . . مما سهل لطلبة البيتين الزيارات وسهل لى شخصيا التعرف على بعض مبعوثى معارف السودان . . فكان لذلك أثره الحميد فى بعض المواقف فيما بعد . .

فقد نشبت مشكلة بين الطلبة المقيمين فى بيت معارف السودان ، وبين الاستاذ محمد حسن عبد الله وكيل حكومة السودان . . وأعتقد أن

المشكلة كانت حادة جداً ، بدليل أن الطلبة قد قرروا الاضراب وترك البيت المخصص لهم . . وقد محت السنين الطويلة من ذاكرتي حقيقة تلك المشكلة . . ولكني أذكر أنني عند ما سمعت الخبر خشيت أن يتعرض الطلبة ، على الاقل ، للتفرقة ولاضاعة الوقت في البحث عن المساكن فذهبت إليهم بسرعة ومعي بعض الاخوة من طلبة كلية دار العلوم . . فحاولنا وقف الاضراب بجهد كبير ، وعند ما أيقنا من تصميم الطلبة على الاضراب ، عرضنا عليهم حلا وسطا مؤقتاً ، وهو أن ينزلوا ضيوفا على زملائهم ببيت المنيرة ، حتى تحل المشكلة ، أو الحصول على السكن . . فقبلوا الحل وأقاموا في بيت المنيرة . . فنشأت بيني وبينهم صلات ودية ، مكنتني مع طلبة بيت المنيرة من القيام بدور الوساطة بينهم وبين الاخ محمد حسن عبد الله ، وهو رجل حصيف ومدرك تماما لكل أبعاد مسئوليته نحو أولئك الطلاب ، مما سهل مهمة الوساطة . . وما هي إلا جولة بين الطرفين ، حتى تم لقاء بين الاستاذ محمد حسن وطلبته في بيت المنيرة ، انتهى به الاشكال وعاد الطلبة لمنزلهم ، وعادت الامور إلى طبيعتها .

ورحمة الله على محمد حسن عبدالله فقد ظل ذاكراً لبيت السودان بالمنيرة موقفه الوطني حيال تلك المشكلة حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى أكرم الله مثواه . . . .

ليالى رمضان المعظم

من أمتع ذكرياتنا فى مصر ، ليالى رمضان فى القاهرة قبل أكثر من ربع قرن ، فبالرغم من أن أول رمضان نشهده هناك كان لا يخلو من المرارة ، لفرط ما كان يغمرنا من الشعور بالغربة والحنين لما تعودناه من جو رمضان الروحى العميق الممتع بالسودان ، إلا أنه قد سرى عن نفوسنا كثيراً وأزال منها الوحشة ما كنا نشاهده من مظاهر الابتهاج والفرحة ، التى كانت تعم أحياء القاهرة فى ليالى شهر رمضان المعظم ، منذ أول ليلة وحتى يوم الوقفة وأيام العيد . . فقد كان الشعب المصرى يحتفل احتفالا عظيما ، ويستعد الناس له فى داخل بيوتهم وخارجها ، استعداداً يدل على ما فى نفوسهم من اكبار له وفرحة بقدومه . . كانت تزدهى المنازل والشوارع والميادين والمتاجر والمحال العامة ، بالاضاءة الباهرة والزينات والانوار والقناديل والثريات فى كل مكان . . فتعيش القاهرة فى كل ليلة وكأنها العروس أو مدينة الانوار كما كانوا يقولون.

كانت ليالى رمضان اعيادا ترفل فى المباهج ، وتعمر بكل وسائل التسلية ، فى المقاهى والمسارح والميادين ، وفى دور السينما والاذاعة . وكل مجال منها قد أعد له برنامجه الخاص لشهر رمضان المعظم . . وحتى فى الاحياء البلدية الفقيرة كان ينتشر نوع من المسارح ، على المستوى الشعبى ، يسمونها (التياترو) تقدم فيها التمثيليات الشعبية والاناشيد والمواويل والمنلوجات والاهازيج . . الخ ومن ألطف المناظر التى كانت تشاهد فى كل مكان ، منظر أسراب الإطفال وهم يحملون فى أيديهم المصابيح (فوانيس) ملونة وهم يرددون بأصواتهم الرقيقة .

(وحوى يا وحوى .. اياحة)
(البنت البيضة الفلاحة)
(شفتها خوخة وتفاحة)
(وحوى يا وحوى اياحة) الخ . .

وكانوا يغنون إمام المتاجر والمقاهى وغيرها ، فتقدم لهم الهدايا أو النقود وهى عادة قديمة عندهم . .

وكنا نحن الطلبة السودانيين ، نحس بوطأة الغربة كلما جاء شهر رمضان بما يثيره فى نفوسنا من الذكريات ، ونحن فى تلك السن الباكرة من أعمارنا . . . وكثيرا ما كنا نفطر عند صديقنا أو زبوننا صاحب محل الفول ، الذى يقع فى نفس مبنى مقهى متاتيا الذى تعودنا الجلوس فيه ، ولكن من الجانب الغربى المقابل لخلف الاوبرا الملكية . . وكان افطارنا بصفة عامة هو الفول والبيض والجبنة ، ثم شوربة العدس . . وحل ميعاد الافطار مرة ، فذهب معنا بعض الاخوة ، إلى محلنا المختار ، وتناولوا معنا افطارنا الدسم (ولا فخر كما يقول المصريون) . ولم يسكت أحدهم ، فقال لنا : (باللـه عليكم ، يا هو دا فطوركم ، كل يوم ، فول وبيض وجبنة) فرد عليه قيلى متهكما : (لا ، مرة بنغير ، فيكون جبنة وفول وبيض . . ومرة بيض وجبنة وفول) . .

وكان صاحب المحل شخصية طريفة ، من أولاد البلد المصريين وأول من اكتشفه ، هو قيلى ، وكان الرجل محدودب الظهر ولكن قيلى يصر على أن له حدبتين ، ولذلك أطلق عليه اسم البخت ، والبخت كما نعلم هو الجمل ذو السنامين فأصبح اسم صاحب محل الفول إياه عندنا جميعا هو البخت .

من الطريف أيضا أن قيلي كان يمسك دفتر الحسابات لمحل الفول وأصبح له مكانة كبيرة عند أخينا (البخت) وقد استفاد من هذه المكانة كثير من الطلبة ، حيث كان قيلي يفتح لهم الحساب فى دفتره ، فيتناولون وجباتهم حتى آخر الشهر . . ولا تزال ذكرى العم البخت ، محل تندر عند كثير من الطلبة السودانيين ، لأنهم جميعاً لهم معه قصص لطيفة . .

موسى بدرى الطيار ومطعم الفول

وبمناسبة مطاعم الفول ، التى التجأ إليها كثير من الطلبة السودانيين ، أذكر قصة إكتشاف أخرى ، لاحد مطاعم الفول ، قام بها الاخ موسى بدرى ، الذى دفعته ظروف ، غاية فى السوء ، إلى محل فول صغير جدا ، بالقرب من محلات أفرينو ، الواقعة شمال حديقة الازبكية فى ذلك الوقت . . فقد حدث أن ظل موسى بدرى ليومين أو أكثر ، لم يتناول أية وجبة غذائية . . . فدخل على صاحب المحل واسمه (عم عثمان) فصارحه موسى بموقفه . . وطلب منه أن يفتح له حسابا يتناول وجباته حتى آخر الشهر ، أو إلى أن يفتح الله . . . . . فتأثر الرجل بصراحة موسى ، ورحب به وفتح له حساب . . وظل موسى يتناول الفول والطعمية والبيض والجبنة الخ

ثم بدأ موسى يمسك للرجل حساباته وينظمها له ، بعد أن كانت مبعثرة ، فارتاح الرجل لمساعدة موسى القيمة ، وأصبح يثق فيه ويستشيره ويعتمد عليه فى أعماله كلها ، وحتى من كانوا يريدون فتح حساب عنده ، يرجع فى أمرهم إلى موسى . . وكان موسى يدرس الطيران فى (شركة مصر للطيران) . . ثم تخرج منها كأول طيار سودانى ، وكان بلا شك محل فخرنا كسودانيين . . ولاتعجب إذا رأيت موسى بدرى بزيه كطيار يحضر إلى محل العم عثمان ، على الدوام ويقوم بالعمل كما كان بالامس وقد سعى قبل ذلك لنقل

بمحل العم عثمان من مكانه الصغير بالقرب من محلات أفرينو إلى محله الحالي ، خلف مبنى الاوبرا الملكية . .

ثم أخذ موسى بدرى فى العمل على توسيع محل عـم عثمان وادخاله الكثير من التحسينات عليه . . ولم يتوقف عن مساعدة عم عثمان حتى أصبح محل تقدير الرجل وتقدير كل زملائه واعجابهم بوفاء الشاب السوداني ، الذى أصبح عندهم مضرب الامثال .

ولا تعجب كما قلت لك ، فموسى هو إبن الشيخ بابكر بدرى الذى كان مثلا على التواضع والحلم ، وعدم الترفع عن أى عمل مفيد .

وحتى بعد أن عاد موسى إلى السودان وعمل فيه كطيار ، كان لايكاد يصل القاهرة حتى يسارع إلى محل عم عثمان . . وحتى بعد أن أصبح له أبناء وبنات أطباء ، كنت تراه هو وأولاده وبناته فى محل عم عثمان عندما يزورون القاهرة . . وقد يقومون بالبيع ومقابلة الزبائن كما كان يفعل والدهم موسى وهو طالب . . وهكذا ضرب موسى بدرى وأولاده أروع الامثلة على الاصالة السودانية والوفاء النبيل . . .

الطيارون السودانيون

وبمناسبة موسى بدرى فقد كان هناك طيارون سودانيون تخرجوا بعده .. ولكنى لاأكاد أذكر منهم غير بابكر عباس وزكريا سلامة وقد درسا بكلية الطيران المدنى ، ولكن الكلية قفلت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فارسلهم المسئولون عن الكلية إلى فرنسا حيث أكملا تعليمهما وتخرجا وعادا إلى السودان وعملا فيه كطيارين ناجحين .. وكان الطيار أبوبكر عباس يعمل بقسم وقاية النباتات لسنين طويلة . هذا وان أبوبكر عباس قد كان شابا نشطا فى مصر ، له صلات وعلاقات واسعة بمختلف الهيئات والاحزاب والشخصيات السودانية والمصرية.

محلات الافطار فى رمضان :

ومن أجمل ما كنا نشاهـــده فى ليـــالى رمضان ، محلات بيع الافطار ومشروبات رمضان ، المنتشرة فى كل مكان ، بحيث يمكن للصائم ، إذا حل به وقت الافطار ، أن يتناول فطوره على الفور ، فهو بالقرب منه أينما اتجه .

ففى ميدان العتبة الخضراء وحده مثلا ، عدة أماكن موزعـــة على شرق وغرب وشمال وجنوب الميدان .. وكذلك الحال ، نجد محلات الافطار على نواصى الشوارع ، فى مختلف الاحياء ، وخاصة ميدان الازهر ، وعند سيدنا الحسين ، وبميدان السيدة زينب ، وباب الخلق ، وباب اللوق وباب الشعرية ، وباب الحديد ، وميدان محطة مصر .. وهى محلات أعدت اعدادا مؤقتا أشبه بمحلات الحلوى فى مولد النبى (ص) وكان أهم مشروباتها القمر دين والخشاف والليمون والبرتقال والتمر هندى ومن الفطائر نجد الكنافة والقطائف والبسبوسة والزلابية (والرز باللبن) وأنواع المهلبيات .. كانت

هذه الاماكن تظل مفتوحة من المغرب وتستمر إلى وقت السحور . .
وكنا قد تعودنا أن نذهب بعد الافطار إلى أية جهة لنتمشى ونشاهد المباهج ، فى أماكن تجمعات المصريين ، سواء فى دور المساجـد الكبرى كالازهر ومسجد الحسين ومسجد السيدة زينب ، أو فى المقاهى وبعض أماكن التسلية ، التى يسهرون فيها إلى ما بعد السحور

مقهى الفيشاوى

ومن مباهج حي الحسين ، (قهوة الفيشاوى) التى تعود كبار المصريين أن يسهروا بها فى شهر رمضان ، وهى فى الواقع مقهى بسيط ، ولكن صاحبه قد أعد أثاثاته وأماكن جلوسها بطريقة شرقية ، أضفت عليها جواً خاصا يناسب شهر رمضان وذكرياته . . ولذلك كان يرتاده فى ليالى رمضان كبار المصريين ، من السياسيين والعلماء وقادة الفكر والكتاب والصحفيين . . الخ وحتى إذا صادف رمضان موسم الصيف وكان بعضهم فى الاسكندرية ، نجدهم يحضرون للقاهرة لقضاء بعض الامسيات بمقهى الفيشاوى ، الذى كان يأخذ فى بعض الامسيات شكل ندوة بين الفطاحل من الادباء أو رجال السياسة .

وكثيرا ما كان المرحون من رواد الفيشاوى ، فى ليالى رمضان يهيئون بعض الفرص الضاحكة المرحة ، التى يشترك فيها الكبار أيضا . وأذكر من ذلك أنه كان فى حى الازهر والحسين ، رجل معتوه يلبس زيا عسكريا ، ويملأ صدره بالنياشين والميداليات بصورة ملفتة ويسمى نفسه (مارشال الاسلام) ، ويروح ويجىء فى الشوارع بخطى عسكرية صارمة . ولكنه إذا تحدث أثار الضحك والسخرية . . وكانوا يستدرجونه إلى الفيشاوى ليتسلوا بأحاديثه المضحكة .

وفى مرة ، خطر لهم أن يقيموا لمرشال الاسلام ، حفل تكريم فى الفيشاوى وفى احدى ليالى رمضان ، . . وبالفعل أعد الحفل ورتب له كل شيء ودعى له كبار المصريين ، من رواد الفيشاوى ،

وصفت المقاعد ، ووضعت منصة الخطابة ، كأى حفل جدى . ولا أكاد أذكر ممن تكلموا فى ذلك الحفل غير فكرى أباظة ، وعبد الرحمن الحميسى . وجلس مارشال الاسلام فى صدر الحفل منتفخا كالديك الرومى تماما ، وكان كلما أعجبه كلام رد بصوت أجش (بخ بخ بخ . .) وقد غاب عن ذهنى كل شيء قيل فى تلك الحفلة الهازلة الماجنة ، لبعد السنين الطويلة . . ولكنى لن أنسى افتتاحية قصيدة الحميسى حين قال :

التحيات رصعت بالنعال

تتهاوى على قفا المارشال

فوقف المارشال وصفق وهو يقول بأعلى صوته المتحشرج بخ بخ بخ . . فاغرق الحاضرين فى الضحك .

الفطاطرى :

ومن المناظر التى كنا نعجب بها أثناء طوافنا فى ليالى رمضان بحى الازهر والحسين ، حانوت الفطاطرى من داخله . فقد رأينا مرة من باب معرفة كل شيء — أن تدخل حانوت الفطاطرى ، الذى لم يكن يختلف فى مظهره الخارجى عن بقية الحوانيت ، ولكنا ما كدنا ندخله ، حتى بهرتنا اناقته وجماله . . فالفرن قد بنى فى مكان مرتفع وبجانبه مكان الفطاطرى أو منصته التى يقوم فيها بدحو الرقاقة وتطبيقها وادخالها الفرن بعد معالجتها بالسمن أوالزبدة ، وبعد اخراجها من الفرن يقوم برشها بالسكر لتقديمها للزبائن .

أما مبعث الاناقة والجمال فهى الالواح النحاسية الحمراء اللامعة التى اكتسى بها الفرن والحوائط من حوله ، وكذلك الحائط الذى يفصل بينه وبين رواد المحل ، ألواح وأعمدة نحاسية زاهية لماعة وعليها نقوش وزخارف ، جعلتنا نقف لنتأملها كلما دخلنا

محـــل الفطاطرى لتناول مـــا لذ مـــن الفطائر الشهية . . وهـــى بالمناسبة أنواع : فطير بالزيت وفطير بالسمن وفطير بحشوات مختلفة .. الخ وكان منظر الفطاطرى وهو منهمك فى عمله يذكرنا دائما بقول ابن الرومى :

إن انس لا أنسى خبازا مررت به
يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها حوراء كالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة
فى أليم يلقى فيه بالحجر

وبهذه المناسبة أذكر أن الفول قد لعب دورا اساسيا فى تغذيتنا اليومية ، أو على الاقل فى تغذيتى أنا شخصيا ، عندما كانت ظروفى المالية تنزل ، فى أغلب الاحيان ، إلى درجة الصفر ، فلا أجد بجانبى غير الفول أسد به رمقى . . . وقد كنت مرة فى زيارة بعـــض الطلبة الأزهريين برواق السنارية ، حيث شاهدت لاول مرة ، أن الفول يمكن طبخه بطريقة طبخ الخضار واللحمة . . . فيحمر البصل فى السمن القادح أوالزبدة ثم يلقى عليه الفول المستوى والطماطم ، وهو على النار ، ثم يرفع من النار فيصبح اداما شهيا . . وأحيانا يقدح السمن ويلقى عليه التوم ثم يغطى به وجه طبخه الفول السابقـــة فتزداد طعما ولذاذة . . فاستفدت أنا من ذلك ايما فائدة . . وبجانب الفول كانت هناك خضروات شعبية رخيصة جدا كالبصل الأخضر والكرات والجرجير والحص والفجل والخيار .. كما انى لاانسى البلح الرطب ، الذى تكثر انواعه فى الصيف مع ثمنه الزهيد .. كالزغلول والأمهات والحيانى والسمانى . . الخ ولاانسى ايضا العنب بانواعه فقد كان الكيلو بقرش ونصف .. وكان لذلك ايضا اثر فى تنويع وجباتى

الرخيصة .. اما اثر الفول فى حياة الشعب المصرى ، فيعرفه كل من خالط اولئك الدهماء الغبش فى ذلك الزمان ، فهو بجانب الخضر والفاكهة الشعبية الرخيصة ، يمثل العمود الفقرى بالنسبة لتغذيتهم ، ولا يكاد يتصور الانسان كيف كان يمكنهم العيش بدون الفـــول ، انهم يتفننون فى طهيه ، فمرة عادى بالزيت او الزبدة ، ومرة يطهونه بالطريقة التى اشرت اليها سابقا ، ومرة يأكلونه اخضر ، ومرة يصنعون منه البصارة ، ومرة يصنعون منه الطعمية أو الفلافل .. على ان هناك مكملات غذائية عندهم ، مثل عسل القصب والطحنية واللبن السلاطة (الروب) . . الخ فالفول حقا هو الطعام الأول للدهماء المصريين الغبش ، ومما كان يساعد على رخص الفول وجعله فى تناول الفقراء ، ان تكاليف طهيه كانت زهيدة جدا ، وذلك انه قد كان فى جبل المقطم فى الجزء الجنوبى نار متأججة ، يقال انها لم تنطفء منذ اجيال بعيدة ، وقودها هو قمامة القاهرة التى تلقى فى جوفها كل يوم باطنان رهيبة ، وكانت محلات بيع الفول ، واعتقد لا تزال ، ترسل كميات كبيرة من بلاصـــات عســل القصب المعبـــأة بالفول والمقفلـــة بالطين والقش بطريقة محكمة ، الى من يتعهد وضعها فى نار المقطم الخالدة ، الى ما قبل الفجر ، ثم يستردونها ، بعد ان يكون ما بداخلها من الفول ، قد بلغ درجة من السواء تجعله كالزبدة كما كانوا يقولون .
ومن جهة اخرى كانت مدينة القاهرة فى ذلك الزمان ، آية فى الجمال والاناقة والتنسيق مما يجعلها بحق عروس الشرق وكوكبه الباهر ..
كانت شوارعها الأنيقة دائما محتفظة بنظافتها ، لما توفر لها البلدية من عناية فائقة فما يكاد ينتصف الليل ، فى كل مساء ، حتى ترى عربات النظافة تنطلق فى قلب كل شارع ، حاملة صهاريج الماء ، ومن خلفها

المكانس (الأتوماتيكية) . فالعربة ترسل الماء بغزارة من مقدمتها، ومن خلفها تدور المكانس بسرعة شديدة ، فينحدر الطين والأوساخ الى جانب الشارع ، حيث البالوعات الكثيرة التى تجتز به ، وتساعدها فرقة من حاملى المكانس الطويلة ، حتى لا يبقى أثر للطين والاوساخ ويصبح الشارع كله لامعا من فرط النظافة .

إن ما نشاهده فى السنوات الأخيرة من مناظر مؤذية فى شوارع القاهرة ، من حفر ومطبات وبحيرات المياه التى تدفع بها المواسير المتفجرة ، الى غير ذلك ، ليبعث فى نفوس أمثالنا التحسر على القاهرة الزاهية الرافلة فى عزها وبهائها منذ ربع قرن ، وحتى الفنـــادق التى كانت تبدو فى ذلك الوقت راقية فاخرة ، تراها اليوم وكأنها شاخت وغُشيها الاهمال . . وكم كانت نظافتها بالامس تجتذب الشباب السودانيين لقضاء إجازاتهم فى القاهرة . . وكان مدعاة لفخر رواد القاهرة من الموظفين الشبان ، ان تأتى جريدة السودان من الخرطوم ، حاملة نبأ وصولهم القاهرة ، وأنهم نزلوا فى (لكوندة) فندق البرلمان ، الواقعة على ميدان العتبة الخضراء من جهة الشرق ، ثم يعودون للسودان ، وقد انتشت نفوسهم بما نهلوا وعبوا من مباهج القاهرة ، التى يعيشون على ذكرياتها الحلوة حتى يأتى الصيف المقبل ، فيذهبون اليها مرة أخرى فما ابعد البون بين الامس واليوم . .

وسلام على عروس الشرق يوم كانت ترفل فى ذلك البهاء والرونق والنضار .

المطربون السودانيون

من الذكريات اللطيفة في السنوات المبكرة لنا في مصر (في الثلاثينات) ، زيارات السودانيين المغنيين للقاهرة . . سرور وابراهيم عبد الجليل ، في بادئ الامر في الثلاثينات ، ثم احمد المصطفى وحسن عطية وأبراهيم الكاشف وعبد العزيز محمد داوؤد وعوض شمبات الخ فيما بعـــد في (الأربعينات ؛ وخاصة أثناء الحرب حيث كانوا يقومون برحلات ترفيه للمحاربين السودانيين في الصحراء الغربية . . والواقع أن تلك الزيارات كانت بالنسبة للطلبة السودانيين ، فرصا شائقة للترفيه وتلطيف ظروفهم التي لم تكن مواتية في ذلك الوقت ، وكانت جميع الاوساط السودانية ترحب بالفنانين وتدعوهم لاقامة الحفلات الغنائية . . بعضها في الاندية وبعضها في المسارح وبعضها في الاماكن العامة كالمقاهي وغيرها .

وكنا نحن الطلبة السودانيين مع بعض الخريجين والموظفين الذين جاءوا لزيارة مصر ، نحتفي بأبراهيم عبد الجليل مثلا في لقاءات خاصة. وكثيرا ما كان يحضر معنا طيب الذكر العم محمد حسن خليل ، وكانت له كلمة طريفة هي قوله (الله لا شكرك) يرسلها بأعلى صوته عندما يحس بالاستحسان الشديد ، كما ذكرت من قبل . .

وكذلك كان يفعل كلما سكت ابراهيم من أغنية . . فيقول له : (الله لا شكرك) . . وقد سمي محمد حسن خليل (بالله لاشكرك) لكثرة استعماله لهذه الكلمة . . وكان سرور في أوائل الاربعينـــات يقول انه حضر للاشتراك في أول فليم سينمائي سوداني . . ولم اتتبع هذا الفلم ولا أرى ماذا صار . . وفي احدى الامسيات أقام ابراهيم عبد الجليل حفلا في احدى المقاهي السودانية ، في الجزء الجنوبي من

شارع عماد الدين ، وكان يؤمها في الامسيات بعض ابناء السودان الشمالى الذين عاشوا في مصر فترة طويلة . وحضرت الحفلة وكانت ممتعة جدا . . ولكن الاخ قيلي لا يمكن أن يترك مثل هذه المناسبة تمر دون أن يؤلف حولها النكات والقفشات . . ومن أغنيات ابراهيم في تلك الليلة أغنية خليل فرح (في الضواحي وطرف المدائن . .) ومنها قوله (غرد العصفور فوق عودك) . فيقول قيلي انه سمـع بعض السودانيين المقيمين بمصر يسال زميله الآخر ، باللهجـة الخاصة . . (أيه معناه قرد العصفور فوق عودك) ؟ فيجيب الآخر (ودي حاجة يا أخي ؟ العصفور لما يشيل حتة الرغيف ويطلع بيه فوق الشجرة مش بيقرده ؟ ؟) وهو بلا شك معنى لم يخطر على بال خليل فرح . . . . .

ورحمة الله على الاخ السر عازف الكمان . . فقد كان يتندر بهذه النكتة كلما لقيني أو لقى قيلي . . وبهذه المناسبة أن السر قد أمضى فترة بالقاهرة غير قصيرة ، تلقى فيها دراسات موسيقية عالية في معهد الموسيقى ، دعم بها نبوغه وابداعه في العزف على الكمان ، حتى أصبح منفردا بتفوقه .

ومن ذكرياتي في هذا الصدد أن لقاءاً علويا تم بيني وبين الاخ أحمد المصطفى في صيف ١٩٤٤ في حي الدقي بالقرب من الجامعة ، وذلك انه كان للاخ عبد الماجد أبو حسبو غرفه مستأجرة في العمارات البلجيكية المشهورة بذلك الحي ، فأقمت أنا في تلك الغرفة ، أثنـاء ذهاب عبد الماجد إلى السودان لقضاء العطلة الصيفية . . فزارني الاخ أحمد المصطفى في تلك الغرفة ، وأمضى معي وقت الظهيرة . . ولا أدري ان كان يحمل معه عوده ، أو وجد العود في غرفة عبد الماجد . . ولكنى أذكر انه كان يحاول تسيير اللحن الذى ابتدعه لاغنية خالـد أبو الروس المشهورة التى لازالت تغنى :

ما أحلى ساعات اللقاء * * في الشاطيء عند الملتقى
أنا والحبيب عند الغروب

فهل يذكر الاخ أحمد المصطفى ذلك اللقاء العابر اللطيف ؟

ومما أذكره جيدا تلك الامسية الجميلة التي احياها لنا ابراهيم الكاشف في بيت السودان بالدقي باغانيه الحلوة ، وتفنن فيها بألحانه ونغماته العذبة ، التي اجتذبت إليها عددا كبيرا من المصريين من سكان العمارة التي كنا نقيم فيها ، وكذلك من المنازل المجاورة ، وكان يبدو عليهم الارتياح والاعجاب . . والحّ بعضهم على الكاشف أن يستمر فبقي حتى منتصف الليل .

أما حسن عطية فكنا نلتقي به كثيرا في منزل الاخ عبده دهب حسنين وقد كان قبلة الشبان في ذلك الوقت .

وفي احدى زيارات الزعيم أزهرى الى القاهرة في صيف ١٩٤٤ ، على ما اعتقد اقام له الاخ عبده دهب مأدبة عشاء بمنزله بحي عابدين ، دعا لها بعض الشخصيات المتصلة بالوسط السوداني المحيط بالازهرى ، وقد دعا ايضا المطربين الكبيرين محمد احمد سرور وابراهيم عبد الجليل .

نكته بارعه لازهرى

فحضرنا كلنا وعلى رأسنا اسماعيل الازهرى . . وبعد العشاء جلسنا لتشنف آذاننا بأغاني سرور وابراهيم عبد الجليل ، فغنى أولا سرور فابدع . . ثم أخذ ابراهيم في الغناء ، وكان خضر حمد يجلس مواجها لازهرى ، فاوحى ذلك لازهرى بنكته ، ظل يعدها أثناء غناء ارابهيم . . وخلفيتها ان خضر حمد كان قد كتب مقالامنذ سنوات ، أثناء المعركة بين أزهرى وابراهيم احمد حول رئاسة المؤتمر . . وعنوان المقال (آمنت بابراهيم) تأييدا لابراهيم احمد ، فأراد ازهرى ان يستعمل هذا

العنوان ، لابداء اعجابه بأبراهيم عبد الجليل ، تماما كما فعل خضر حمد مع ابراهيم احمد . . وما كاد ابراهيم عبد الجليل يسكت حتى ارتفع صوت ازهري عاليا . . (آمنت بابراهيم في نبرة خاصة . . فدوى المكان بالضحك لنكتة الازهري ذات الخلفية السياسية .

نـــدوة العقـــاد

من رواقد عذائنا الفكرى فى مطلع الأربعينيـات ، النــدوة التى كان يعقدها الأستاذ العقاد فى منزله بشارع السلطان سليم بمصر الجديدة صباح كل جمعة .. وكنا نذهب لتلك الندوة بعقول وقلوب مليئة باكبارنا للعقاد ، ويخرج الينا العقاد ونستمع اليه بكل جوارحنا ، وهو يتحدث فى كل ما يعرض له من موضوعات .. فى الأدب . فى علم النفس .. فى الذرة وفى العلوم الرياضية وعلم الفلك ..وفى نظريـات آبـن شتاين .. فى النسبة وغيرها .. وفى نظرية النشوء والارتقاء واصل الانواع ، وعن سلامة موسى الكاتب الكبير والباحث فى هذه النظرية ... يتكلم العقاد فى كل ما يعرض، كلام الاستاذ العالم المتمكن فهو موسوعة فى علوم عصره ، معتز بقدرته فلا يكاد يحس بان احدا يحاول اختباره او تحديه فى اى علم ، الا وتراه يتدفق وينهمر بما يبهر السامعين .. كان ذلك فى اوائل عهدنا بالجامعة، ولكن مالبثت المشاعل الوطنية واحداثها المتلاحقة ان حرمتنا دوامتها الهائلة من الندوة وحالت بيننا وبين ذلك النبع الروى . .

وكذلك كان العقاد يعرج على الموقف السياسى .. ويتطرق الى الشيوعية ويصفها بالدكتاتورية والتسلط .. وكثيرا ما كانت تشغلنا احيانا احداث الحرب العالمية الثانية فلا نكاد نذهب لندوة العقاد .. وفى مرة دخلنا عليه والندوة منعقدة وهو يتكلم بشـىء من المرارة . . كان يدافع عن نفسه ضد اتهامه بأنه ماجور فـى مؤازرته للحلفاء فيرفع صوته بكلام كثير نفد اغلبه من الذاكرة

ولكنني اذكر جيدا قوله (انا أوجر (ليه) ؟.. وهذه داري منذ ربع قرن ، لم يتغير اساسها ولا اي شيء فيها .. وليس لى ادمان فى شيء غير القراءة .. وليس لى ادخار فى بنك .. ولا املك سندات مالية ولا عقار ولا مزرعة .. انا اقف بجانب الحلفاء لانهم مع الديمقراطية وانا دائما وابدا ضد الدكتاتورية والحكم المطلق .. وقد ألفت كتابي (الحكم المطلق فى القرن العشرين قبل اكثر من عشرين عاما ... كان ذلك فى عام ١٩٤٦ م . والواقع ان مواقف العقاد السياسية الداخلية ، تسجل كلها اصالة العقاد فى التمسك بالديمقراطية .. ولو كان ممكنا ان يبيع قلمه لاستجاب لمساعي السفارة البريطانية بعد انشقاقه عن الوفد بسبب تاييد الوفد لوزارة محمد توفيق نسيم عقب الدستورية ، ورأى العقاد فى ذلك انحرافا عن مبادىء الديمقراطية. ... وكان من الممكن ايضا ان توقعه خصوماته للنحاس باشا — وقد كانت عنيفة جدا — ان يسير فى ركاب الملك عدو الدستور والديمقراطية ، ولكنه لم يفعل كما اشرت فى مكان آخر ..

وبالرغم من ان عواطفنا كانت تلقائيا مع المحور ، كأكبر عدو للاستعمار البريطاني ، الا ان منطق العقاد كان يغلبنا على امرنا ولكننا كنا ما نكاد نخرج من عنده حتى نعود ، متأثرين بالراى المحيط بنا من كل جانب .. وقد لازم مجتمعنا ذلك الشعور المعادى للحلفاء ، وجرنا ذلك لعدم الرضا عن العقاد ، حتى انه عند ما عاد من السودان بعد رحلته المفاجئة ، التى قام بها على اثر اقتراب الالمان من منطقة العلمين فى الصحراء الغربية ١٩٤٢ ، اقام نادى خريجى اللغة الأنجليزية بكلية الآداب ، احتفالا بالعقاد حضره كثير من ابناء السودان ، وظهرت فى هذا الاجتماع بعض الحساسيات

بين العقاد وبعض الطلبة ، ويبدو ان العقاد ، منذ ذهابه للسودان وبعد عودته منه ، كان قد ترامى الى أسماعه بعض الآراء التى لا تعجبه ولذلك نراه يتلقى بعض الأسـئلة ، فى ذلك الأجتماع بالامتعاض وعدم الارتياح ..

ولا اكاد اذكر الآن شيئا مما دار فى تلك الاسئلة ، ولكنى اذكر جيدا ثورة العقاد عليها وانفعاله ، الذى لفت الانظار ،.. ولكن ما لبس الموقف ان عاد الى صفائه ، لان مكانة العقاد فى نفوسنا من الناحية الفكرية اكبر من ان تفسدها شوائب سياسيـة طارئة مهما علا غبارها .....

حسـين منصور :

غنى عن التعريف ، فهو الاديب الكبير والشاعر المعروف صاحب ديوان الشاطىء الصخرى ، وهو بعد ذلك شخصية مرموقة بين السودانين فى القاهرة ، وقد تحدثت قبل ذلك عن دوره القيادى فى الجمعية الأدبية لمعهد امدرمان العلمى ، وخوض المعارك القلمية المشهورة ، التى هاجر بعدها الى مصر . وكان الاستاذ حسين منصور ولوعا بالصحافة والتردد على دورها و الكتابة فى اكثر من مجلة وجريدة .. ومنذ وقت باكر فى الثلاثينات كان يكتب فى مجلات (البعكوكة) و (انا وانت) و (الأثنين) وفى جريدة البلاغ وغيرها .

وفى مجلة البعكوكة كان يهاجم النادى السودانى بالقاهـرة وبالذات توفيق البكرى سكرتير النادى ، كان ينظر اليه الاستاذ حسين كرأس للخصومة ... وكان يشترك معه فى الهجوم احيانا الاستاذ بشير محمد خير المحامـى ، الـذى كـان هـو وزميله

المهندس الزراعي بشيرعبد الرحمن يتقدمان المجموعة المختلفة مع النادى السوداني .. وكان حسين منصور احيانا يهاجم توفيق ومعـه الصحفى المصـرى ، حسن صبحى ، الذى كان رئيسا لتحرير جريدة النيل السودانية بالخرطوم ، ثم عاد منه فى تلك الايام بعد ان ترك جريدة النيل ، عقب معارك قلمية ساخنة بينه وبين مجموعة من ألمع الشباب المثقفين هناك .. وما كاد يصل القاهرة حتى انضم الى صديقه الاستاذ توفيق البكرى فى النادى السودانى، وشاركه فى خصومه المجموعة الاخرى خارج النادى، ولذلك كان حسين منصور يشن عليهما الهجمات وينشىء فى ذلك القصائد المشحونة بالمهاترات ، حيث يقول فى واحدة منها :

توفيق يا تلفيق يا نفعى

مـاذا ترى وما يري صبحي

ويضيف اليها آخر لعله زميله بشير محمد خير قوله :

كـلاكما فى رأيه دعى

لا بالاديب ذى الحجا ولا باللـوذعى

ولحسين منصور طاقة هائلة من الحماس والغيرة المتطرفة ، التى يعمد اليها كلما اراد الهجوم العنيف ، فى بعض المواقف ، فيوجهها نحو الخصوم كالقذائف المدفعية ، بلاحساب فيصيب بها احيانا من لاينبغي ان يصاب .. وعندما لاتسعفه، الصحف لمهاجماته العنيفة ، كان يعمد الى المنشورات . وما اكثر ما كان يطالعنا فى الامسيات بمنشوراته ، التى لاتبقى ولاتذر ، والتى قد يبلغ بها التطرف الى حد السباب والمهاترات . مما أفسد عليه الكثير من تحقيق اهدافه .

وكان احد تلك المنشورات قد وجه مرة ضد الاستاذ احمد يوسف هاشم ، ولسوء حظى ان احمد يوسف اعتقد ، أنى

مشترك مع حسين منصور فى الاساءة اليه ، وقبل ان يتثبت من الامر ، هاجمنى مع حسين منصور فى (السودان الجديد) ولكنه كرجل كبير ، ما كاد يتبين انى بعيد كل البعد عن المهاترات أيا كانت ، حتى أخذ يعتذر لى ، وعندما جاء الى القاهرة سارع للقائى وكرر لى الاعتذار فى اجتماع كبير كان قد حضره على البرير وعدد من السودانيين بالقاهرة .

ومن الغريب ان حسين منصور بالرغم من طبيعته الثورية ، كان ملكيا ينتصر لفاروق ، على خلاف المتحمسين من امثاله ، الذين غالبا ما يكونون مع التيار الشعبى ، الذى يمثله حزب الوفد المصرى .. ولعل السبب فى ذلك هو ان اغلبية السودانيين كانوا ينادون بالاتحاد مع مصر تحت التاج المصرى .. وكانت السياسة البريطانية من أجل ذلك تستهدف تاج مصر لاضعافه وزعزعة الثقة فيه .. ومن هنا كان تمسك حسين بالتاج .. وكان يكتب فى البلاغ القاهرية ، بعد انفصالها عن الوفد ، مقالات بعنوان (مع التاج) .

ومن طرائف حسين انه حينما كان على خلاف مع مجلة السودان القاهرية وهيئة تحريرها ، وجه اليهم احد منشوراته الذرية فبدأه بهذه الكلمات فى هجاء رئيس تحريرها : « الحجن واللجن فى رئيس تحرير آخر الزمن » يقصد الدكتور بشير البكرى .. ثم هاجم احمد السيد حمد واحمد الطيب ، عابدون ، وقد كانا من كتاب المجلة قائلا : والأحمدان اللذان طالا ولم يطولا وليس وراءهما طايل . . واما عقيل الذي يبدو انه تجاوز حدود الوعد الذى اعطاه لحسين منصور ، بانه فقط يتعاون مع هيئة التحرير فى نطاق محدود ، فقد اكتفى حسين بانذاره فى هذا المنشور فقال : واما عقيل الذى تجاوز حدود تعاونه معهم ، فلنا معه شأن

آخر . وحسين منصور فوق ذلك شاعر كبير وديوانه (الشاطىء الصخرى) معروف وهو تعبير صادق عن اسلوب حسين المتسم بالصراحة المطلقة ، القاسية احيانا ، في مهاجمة خصومه من اى نوع وبلا تحفظ ولا مجاملة ، فيما يعتقد انه الحق . هذا وقد اصدر حسين صحيفة في القاهرة لعلاج المشاكل السودانية ولكنها لم تعش طويلا .

وفى هذه الأيام من شهر اكتوبر ١٩٨٢ حملت ألينا انباء القاهرة نعى حسين منصور الثائر الذى لا يهدأ والمناضل الذى لا يستسلم ولا يلين ، حتى لقد اسمى نفسه رسميا (بآبى الضيم) وفى اعتقادى ان من يتصدون لرثاء حسين منصور لابد ان ينعوه كشاعر فحل وكاتب واديب وعليم ايضا باسرار اللغة العربية كما يشهد له من عرفه من كبار الكتاب كالاستاذ العقاد . فقد سمعت من الاستاذ محمود الفضلى ان الاستاذ محجوب بالشرى الذى لازم العقاد فترة طويلة ، قال له : ان العقاد كان يرسله احيانا للاستاذ حسين منصور لاخذ رأيه فى بعض المسائل اللغوية ... وهذه بلاشك شهادة عظيمة تدل على تمكن حسين من اللغة العربية ...

عبد الوهاب عبـــد الله :

لحق بنا في مصر ، الاخ عبدالوهاب عبدالله لمواصلة تعليمه ... وكان عبد الوهاب من اذكى ابناء دفعته .. فقد احرز الاولية على كل مدارس السودان الابتدائية فى امتحان الدخول لكلية غردون بالخرطوم ١٩٣١ ، ولهذا فقد كنا نأمل ان يمضى فى التعليم الى نهاية الشوط لكى يكون احد الذين نفاخر بنبوغهم من الطلبة السودانيين بمصر .. ولكن لسوء الحظ فقد اضطرت عبدالوهاب ظروف خاصة ، جعلته يقطع دراسته ويعود الى السودان قبل نهاية المرحلة الثانوية . . وقد جمع عبد الوهاب الى

ذكائه اللماح سماحة النفس وطيب المعشر .. وقد كان من الشماليين الذين ينتمون الى اصل جنوبي ، وكان والده من الضباط اللامعين في السـودان ..

وعاش عبد الوهاب بيننا وديعا متواضعاً ، تربطه بالجميع اطيب العلاقات ، وكان الدكتور محجوب ثابت يحب عبدالوهاب لدماثة خلقه وتفوقه في اللغتين الانجليزية والعربية .. وكان يعهد اليه بترجمة الكثير من اعماله ، ومن طرائف الدكتور محجوب ثابت انه كان يسمى عبدالوهاب بعبدالرحمن الدينكاوى .. فنقول له يا دكتور اسمه عبد الوهاب ، فيقول : نعم نعم عبدالوهاب ، ولكنه لايلبث ان يسأل : اين عبد الرحمن الدينكاوى .

وكان عبدالوهاب قارئاً واسع الافق ، يتجاوب معنا في كل ما كنا نتطلع اليه من آمال .... ولذلك اسفنا كثيراً لقراره قطع دراسته والعودة للسودان . وقبيل سفره ضمتنا جلسة خاصة نحن زملاه الذين تعودنا ان نلتقى به في الامسيات ، وحدثت محاولات اخيرة لاثنائه عن عزمه على العودة .. ولكن دون جدوى .. وقد بدأت على عبد الوهاب مظاهر التأثر ولكنه تظاهر بالاصرار على رأيه .. وكان بيده وريقة صغيرة كتب عليها هذا البيت من الشعر :

يا صحابى ودعـوني ودعـوني
واذا غابت رفاتي تحت رمسى فاذكروني

فقلت لعبد الوهاب متأثرا : انى ساحاول ان اكمل هذا المطلع المؤثر بابيات تناسبه ، ولم اكن من الشعراء أو تعودت قرض الشعر ولكنى تأثرت بوداع عبد الوهاب فقلت على لسانه مكملا :

انني صب شيق * لا تفارقني شجوني
وظروفي قُلَّب * لم تكن يوما بعوني
وصحابي لارعى الله صحابي * كم جفوني
هي دنيا رحبها * مثل جحر الضب دوني
كلما عالجت امالي * بها زادت ظنوني
ويح قلبي لم يعد * يتلهى بمجون
اوبدانية نعيم * او يمنى بركون
كلما قلب صفحا * من كتابي او متوني
عاده الهم وها * جت حرقات بجفوني

واهاً لنا من تلك الذكريات وايامها النبيلة . . . .

الطيب شبيكة :

جاء الطيب شبيكة الى مصر مرتين ، المرة الأولى فى ١٩٣٨ والتحق بالسنة النهائية بالمدرسة السعيدية الثانوية ، لكي يحصل على شهادة اتمام الثانوى ، فحصل عليها والتحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول حتى السنة الثانية .. ولكنه للاسف قطع دراسته وعاد الى السودان ليعمل مدرساً فكان من اللامعين فى ميدان التعليم ثم جاء مره ثانية ضمن بعثة المعارف السودانية لمصر فى ١٩٤٦ لكلية دار العلوم ، حيث قضى سنتين ثم عاد الى ميدان التعليم بالسودان ، فتدرج فيه حتى منصب ناظر مدرسة ثانوية عليا ثم الى مساعد وكيل لوزارة التربية والتوجيه .. ثم خانه ، مع الاسف نظره الذى ضعف لدرجة اقعدته عن مواصلة الترقى الذى كان اهلا له ، نظرا لثقافته العالية ونشاطه وحماسه الى العمل اينما كان .. ولكنك حين تشاهد الطيب اليوم ، ليعجبك فيه ان روحه المعنوية عالية ، لم تتأثر بما اصابه من ضعف النظر ، بل تراه يمضى فى حياته العادية

ويقوم بالتزاماته الاجتماعية وتلتقي به في كل مكان.. فهو يذهب للتهنئة في الافراح وهو يعزى ويشيع الاموات ، بل ويقف على قبـور بعضهم يرثي ويؤبن .. كما فعل عند دفن صديقه المرحوم خاطر أبوبكر وغيره .. ولم تفارقه أبداً روح الفكاهة والدعابة التي عرف بها في صدر حياته .

لقد قضى الطيب بيننا في القاهرة أياماً لطيفة تجلت فيها روحه الفكهة المرحة. . ولازلنا نذكر – كلما التقينا – بعض دعاباته ونكاته الشائعة . . فقد سكنا مرة في (بنسيون) واحد بشارع عبد العزيز بالقاهرة بالقرب من ميدان العتبة الخضراء . . وهناك اكتشفنا أن الطيب يتمتع بموهبة وافرة من القدرة على المحاكات والتقليد ، مما يؤهله لان يكون من قادة المسرح والتمثيل لو أراد . . وكم كنا نغرق في الضحك عند ما كان يقلد أحد أقاربه من اولاد البلد المتزمتين ، الذين يعتقدون الا فائدة من المدرسة إذا لم تعلم الولد كيف يملأ الابريق ويضعه أيضا وضعاً صحيحاً .. وياويل الطيب حينما يكون مسرعا فيضع الفروة والابريق كما يتفق ، لكي يلحق بزملائه الذين سبقوه إلى الطريق . . ولايكاد يتجه إلى الباب حتى توقفه صيحة قريبة (ياولد الله ينعلك) (تعال هنا) (الفروة تختوها كده ؟ اللبريق يختوا كده ؟ . . (المدرسة دى بتعلمكم شنو) (يا كلب يا حمار (. . ويصلح الطيب من وضع الفروة والابريق ويستمر في مكانه فاقداً الحركة . . حتى يشرع الرجل الرهيب في الصلاة ، فيتنفس الطيب الصعداء وينجو بجلده ، مندفعاً إلى الطريق . . وقد تتكرر هذه الغارة على الطيب كلما أخطأ . . .

ومن هذه الذكريات الضاحكة أيضاً اننا قضينا شهر رمضان في نفس (البنسيون) بشارع عبد العزيز .. ومن عادة المصريـين

في رمضان أن كل شارع أو حارة لها مسحراتي خاص ، يحترف ايقاظ السكان لتناول طعام السحور . . وفي نهاية رمضان يتقاضى الاجر والهدايا من كل شخص ، ولذلك فهو حريص على معرفة اسماء السكان لكل منزل وقت السحور وينادي المقيمين فيه واحداً واحدا ، دون أن ينسى أحد أو يخطىء في اسم واحد . . وفي احدى المرات لفتنا نظر الطيب إلى صوت المسحراتي ونغمته العجيبة في المناداة .. ودهش الطيب عندما سمع : (ياطيب افندي الصحور) والواقع ان المسحراتي كان يحصل على الأسماء مسبقا .. ولكن مع ذلك فمن المدهش ان يحفظ اسماء كل سكان الشارع او الحارة عن ظهر قلب فلا يخطىء أو ينسى .. والمهم ان الطيب شبيكة اعجبه اداء المسحراتي كمادة للمحاكاة . فاخذ يصحوا قبل وقت السحور فينادي الينا مقلدا الرجل بنفس صوته الأجش ونغمته المضحكة .. ونصحوا نحن فنجد ان الطيب قد تولى المهمة ، ولا زال الطيب يذكر ذلك المسحراتي العجيب فيردد — كلما التقينا (ياعبد اللطيف افندي الصحور ..) .

ومن ذكريات الطيب شبيكة ايضا انه عند ما كان طالبا بكلية الآداب كانت هناك فتاة آية من آيات الله في الابداع والجمال ، وعليها سمرة اكسبتها لون التبر الذي قال عنه حافظ ابراهيم : (صفرة تنسى اليهود الذهب) .. اسمها (تماضر) الهيفاء ذات القد الممشوق والعيون العسلية الساحرة .. فقد اعجب بها اخونا الطيب ايما اعجاب . واؤكد انه لو بقى سنة ثالثة في كلية الآداب لحاول . خطبتها .. ولكنه ذهب في العطلة الصيفية للسودان بعد السنة الثانية ولم يرجع لمصر .. وكان الطيب اثناء اجازته الصيفية ، لا يغيب اسم تماضر عن ذاكرته ولا لسانه .. وكلما رزق احد اقاربه او اصدقائه بنتا ، قال له الطيب سميها تماضر .. حتى تزوج هو شخصيا .. وما ان

رزقه الله بنتا حتى اسماها تماضر .. وصلا لما انقطع من ذلك الهوى العذرى واستعاده لذكرياته الحالمة البريئة .

اطال الله عمر الطيب شبيكة ومتعه بالصحة والسعادة الوافرة .. وقد فاتني ان اذكر من وحايد الطيب انه مرة سار في احدى المظاهرات الكبرى ضد حكومة النقراشى باشا .. وجاء البوليس بعصيه لتفرقة المظاهرة ، وليس للطلبة نجاة من عصى البوليس الا بالجرى والفرار .. ولكن اخونا الطيب ادركته عنترية سودانية فلم يطلق ساقيه للريح كما فعل الآخرون .. فتناوله احد رجال البوليس بعصاه من اليمين ومن الشمال والطيب يحاول ايقافه بكلمات سودانية : (يازول .. يازول اقيف يازول ما تضرب ..) واندهش الشرطى لهذا الذى لا يجرى ، وظنه من زعماء المظاهرة المتعصبين ، وكاد ان يرفعه الى (اللورى) الذى تعود ان يحمل فيه امثاله من المتمردين ، غير انه شعر بشيء من الغرابه : عدم الفرار والكلمات الغريبة ، والطول الفارع ، واللون الأسمر والشلوخ .. فادرك انه سودانى وانه ليس من قادة المظاهرة . والا لفر مع زملائه .. فاطلق سراحه وهو يقول للطيب باللهجة المصرية : (معليش ياعم حظك كده ..) .

فكى محمد صالح :

ومن الشخصيات التى لا تغيب عن ذاكرتى شخصية فكى محمد صالح ،من حجر العسل جنوب شندى ، كان قد ذهب الى مصر وهو صغير ١٩٢٢ فى رفقة الضابط المصرى الذى كان يعمل معه وهو صادق بك الحينى ، شقيق حيـدر بك الحينى المعروف فى ايـام الملك فاروق مدير عام السجون ثم وزيرا للدفاع .. واسرة الحينى كبيرة وغنية ولها مزارع واسعة .

وقد بقى فكى فى مصر ولم يعد الى السودان بسبب اصابته فى

حادث حركة ادى الى بتر أحدى ساقيه .. وعاش في القاهرة على دخل مالى محدود ، وكان صادق بك قد خصص له مرتبا عقب بتر ساقه كمعاش شهرى .. وربما كان له ايضا معاش شهرى من الاوقاف الخيرية .

والمهم ان فكى محمد صالح كان سودانيا اصيلا ، متصلا بمواطنيه السودانيين وفاتحا بيته لهم فى كل وقت ، ليستقبلهم ببشاشته وابتسامته الطيبة .. وكان يحتفى بنوع خاص بالطلبـــة السودانيين ويفاخر بهم ويدعوهم من وقت لآخر لتناول الأطعمة السودانية والمصرية .. وفى شهر رمضان المعظم، كنا نجد عنده الجو السوداني الخاص ، بما كان يعده من الأطعمة والمشروبات السودانية وكثيرا ما كان يجد بعضنا عند فكى محمد المأوى اذا ما تعذر عليه امر السكن وخاصة في أول العام الدراسى ، حين ما كان يعود بعض الطلبة من السودان متأخرين ، فلا يترددون فى النزول عند فكى حتى يحصلوا على السكن .. وقد نزلت عنده مرة لعدة شهور قبل ان التحق بداخلية معهد التربية العالى بالأورمان بالقرب من الجامعة .

وانك لتعجب ان منزل فكى كله كان عبارة عن غرفة واحدة كبيرة وسطح يربطهما ممر صغير بالسطوح .. ولكن صدق القائل (سم الخياط على الاحباب ميدان) ولكن السطوح كان فيه متسعا لنا فى امسيات الصيف .

وتزوج فكى متأخرا بعد عودتى الى السودان، وخلف ابناء لم اتتبع مجرى حياته ، لانى كنت فى السودان، ولم ارجع الى مصر طوال السنوات التى نشأ وتعلم فيها ابن فكى محمد صالح وقد علمت من الأخ عباس الدابى حينما كان وزيرا مفوضا بسفارة السودان بالقاهرة ، ان ابن فكى اتصل بهوهو طالب بالثانويات . . ولسوء

الحظ انى لم اجد فرصة لالتقى بابن فكى محمد صالح حتى الان .
وارجو من صميم قلبى ان اوفق لذلك فى زيارتى القادمة للقاهرة انشاء الله .

وكم كان فكى يتوق الى زيارة السودان واللقاء بالأهل والأحباب ولكن ما أقسى الأقدار .. فقد توفى فكى الى رحمة مولاه دون ان يحقق أمنيته أجزل الله له اطيب رحماته .

لقطات من أحداث الحرب العالمية الثانية

من خلال دوران الحرب وقعت معارك واحداث تميزت بالاثارة واجتذاب الانظار .

ولقد ذهبت تفاصيل تلك الأحداث من الذاكرة ، ولكن انطباعاتى عنها مازالت عالقة بالذهن .

واول تلك الأحداث هو هبوط (الهرهيس) الوزير الألمانى بطائرته فى اسكتلندا بانجلترا ، فى اوائل الحرب ، فلفت انظار العالم كله ، وانشغل به الناس لعدة اسابيع وذهبت فى امره التكهنات مذاهب مختلفة .. فقال البعض انها خطة المانية مرسومة لاجراء حوار مع القادة البريطانيين والاتفاق معهم .. وقال البعض ان هيس ذهب الى بريطانيا لاجئا لانه اختلف مع هتلر، فى حين قال البعض الآخر انها لوثة عقلية ، وان هيس كان يعانى من مرض عصبى .

واما الروس فيؤكدون ، ان هيس ذهب لاقناع المستر تشمبرلين رئيس الحكومة البريطانية انـذاك ، بأن روسيا هى العدو الحقيقى المشترك .. ويقولون انه نجح فى مهمته، ويستدلون ببعض التصرفات التى كان فيها التنازل من قبل الحلفاء كافساح المجال لبعض جيش هتلر ، وخاصة فى الحدود الشرقية لاوروبا الغربية .. مثل غزو جزيرة كريت ..

كما يستدلون ببعض تصريحات للمستر تشمبرلين، والكونت شيانو وزير خارجية موسولينى وكلها تدل على ما كان يجرى من تآمر بين المحور والحلفاء ضد روسيا ..

انها على اى حال كانت مفاجأة ، وقف عندها العالم فترة من عمر الحرب .

وثانى تلك الأحداث كان حصار ومعركة استالنجراد ، التى حفلت بها كتب التاريخ، لقد كانت حتما معركة فريدة من نوعهـا لاشبيه لها ولا نظير .. استمر حصار المدينة لاكثر من عشرين شهراً ثم اندلعت فيها المعارك الطاحنة وبلغ فيها اوار الحرب من الهول والفظاعة ، ما كانت تنفر منه مسامع الناس .

فقد اطبقت جيوش هتلر الجرارة على استالنجراد ، وفى حوزتها احدث ما انتجته المصانع الألمانية من وسائل التدمير والإبادة ولكن المدينة الباسلة قد صمدت ايما صمود ، بوقفتها الجسورة المستقتلة ، امام عدو شاكى السلاح ضارى الأنياب .. ثم دار بعد الحصار الرهيب ، صراع اشد ضراوة واكثر وحشية .. فقد استحالت المدينة كلها الى انقاض ورماد ، واستمر فيها التقاتل فى بادئ الأمر من منزل الى منزل ومن شارع الى شارع واحترق فيها كل شيء حتى هواءها قد انعدم به الأكسوجين ، لمسافات بعيدة وتعذر على الاحياء التنفس ، بل ان عود الثقاب كان ينطفيء بمجرد اشتعاله ، كما ذكرت صحف تلك الأيام ، . وبالرغم من كل ذلك ، فان الروعة كانت هى انتصار استالنجراد وخروج روسيا من المعركة رافعة لواء النصـر والفخـار .

والثالثة هى معركة (دنكيرك) الميناء الفرنسى على بحر المانش . . كانت محاولة جريئة لانسحاب الحلفاء نهائيا من أوربا ، بعد أن استولى الالمان على فرنسا فكانت مذبحة هائلة بلغ فيها دخان القتال والمتفجرات الجبارة حدا أحال جو الميناء إلى ظلام دامس أشد حلكة

من الليل البهيم . . وامتدت الدياجير الحالكة إلى مسافات بعيدة حول الميناء . . اما الجنود ، فقد وصفتهم الصحف وكأنهم مردة من الجن يتحركون في خضم ذلك الجحيم الرهيب ، وقد اسودت وجوههم من الادخنة الكثيفة ، التي احتوتهم لساعات طويلة .

ورابعا فيما أذكر ، غزو (جزيرة كريت) بالطائرات الشراعية وهي سلاح جديد ، لم نعرفه من قبل ، فكان غزوا خاطفا ، تدفقت فيه الطائرات الشراعية كالمطر ، وغمرت الجزيرة بجنود المظلات الذين استولوا عليها في لمح البصر فكانت من روائع تلك الحرب التي تحدث عنها الناس لايام عديدة .

ومن مدهشات تلك الحرب ايضا ، حادث اختطاف موسوليني بواسطة جنود هتلر من داخل الحصن الذي اعتقل فيه ، بعد أن استولى الحلفاء على إيطاليا .

وكان عملا غاية في الجراءة والاقتدار ، بهت له قادة الحلفاء ، وأثار في العالم موجة من الدهشة والاعجاب .

ومن تلك الروائع أيضا خطب تشرشل في مجلس العموم البريطاني والتي كنا نقرأها في الصحف باعجاب شديد ، بالرغم من شعورنا المعادي للانجليز ، وذلك لبلاغة تلك الخطب وما كانت تحمله من الصدق وقوة التعبير ، وما كان ينتهجه تشرشل في مخاطبة النواب ، من الشجاعة والصراحة ، فلا يخفي عنهم اية هزيمة مهما كانت مرارتها .

وما أروع كلماته يوم وقف في البرلمان البريطاني ليتحدث عن هزيمتهم الكبرى في الشرق الاقصى . . كقوله : « ليس لي ما أقدمه لكم اليوم غير العرق والدموع » . . (أو قوله :) اتحدث إليكم في

ظـــل هزيمة عسكرية شديدة بعيدة المدى. . لقد سقطت سيتغافورة ، واجتيحت شبه جزيرة الملايو كلها . . وتحطمت رووس اسطولنا الرابط هناك (البرنس اف ويلز) و (ريبالس) (والرويال آرك) . .

هكذا كان ذلك الرجل الحديدى يخاطب نوابه وشعبه ، فلا يخفى عنهم شيئا ولايجزع من شىء .

وكان ذلك زاده في رحلة الحرب ، ومصدر قوته التي خلدت ذكراه واكسبته اعجاب العالم قبل أن تكسبه الحرب .

وخاتمة تلك الروائع هي معركة العلمين الفاصلة . . فقد كانت وقائعها مثيرة حقاً ، صحك فيها القدر ، وانقلبت فجأة الكفة الراجحة إلى خاسرة ، وانعكست كل الحسابات والمؤشرات التى كانت تشير إلى انتصار (روميل) القائد الالمانى الرهيب والملقب بثعلب الصحراء . . انعكست كل تلك المؤشرات ، وتراجعت إلى الخلف مع التراجع المفاجىء لجيوش المحور .

وذهل الناس للموقف الذى تغير فى غمضة عين ، فأصبـــح مونتجمرى قدئد الجيش الثامن البريطانى هو سيد الموقف . . بعد أن انسحبت القوات البريطانية ، منذ أسابيع من السلوم وسيدى برانى ، وجلت عن مرسى مطروح ، وألقى المستر تشيرشل بيانا ساخنا فى مجلس العموم ، أعلن فيه توغل قوات المحور فى داخل الآراضى المصرية ، وأخذ المسئولون البريطانيون فى مصر ، فى اعداد أنفسهم للرحيل عن القاهرة ، . . وبعد أن أيقنت أيضا جماهير القاهـــرة بانتصار المحور ، وتهيئت النفوس لاستقبال روميل ، بل قامـــت بالمظاهرات تهتف (إلى الامام ياروميل) .

ولكن ما أعجب تصاريف القدر ــ فقد حدث بعد ذلك أن بدأ

الجيش الثامن هجومه فى العلمين بقيادة الجنرال (أوكنللك) الذى حل محل القائد السابق (ريتشى) فى ٤ يوليو ١٩٤٢ . . وما هى إلا جولة قصيرة ، حتى رد الجيش الثامن كـــل هجمات المحـــور واخترق خطوطه الدفاعية . . وأخذت قوات المحور فى التقهقر العام ، واستولى الحلفاء على كثير من الاسرى . . . بل أوقفوا زحف روميل تماما بحلول أكتوبر من نفس العام . .

وتلقت الجماهير الشامتة التى كانت تهتف : إلى الامام يا روميل تلقبت الصدمة ، القاسية وكأنها شريك فى القتال ، لان عداءها الشديد للاستعمار البريطانى ، كان يدفعها لتمنى زواله على يد روميل دون تفكير فيما سوف تأتى به العواقب .

مؤتمر الخريجين يتصدى للقضية الوطنية

بالرغم من المشاغل التى كانت تحيط بنا فى القاهرة من كل جانب ، كان انتباهنـــا دائما مشـــدودا إلى داخـــل السودان لكى نراقب أحداثه ونتتبعها . . وكان لباب تلك الاحداث هو تحركات مؤتمر الخريجين فى صراعه الظاهر والخنى مع حكومة السودان . . هو يحاول تجميع خيوط الرأى العام فى يده ، واستكمال تمثيله للشعب السودانى . . والسلطة الحاكمة تنكر عليه ذلك ، بل وتحذره حتى من مجرد المحاولة لكسب تأييد الرأى العام له . . ولكن المؤتمر كان قـــد قرر منذ وقت باكر ، ألا تقعده تحذيرات حكومة السودان ، عن المضى فى طريقه المرسوم لكسب الرأى العام والثقافة من حوله ، فهو سلاحه الوحيد فى مواجهة تحدى الحكومة ، فقد كانت جهـــود المؤتمر الوطنية ، تفسح الطريق امامه كل يوم ، لكسب قلوب أبناء وطنه وتنيله الثقة الغالية التى تجعله معقد الامل والرجاء ، والمعبر الوحيد عن مطالبهم الوطنية .

أول مذكرة سياسية لمؤتمر الخريجـــين

وفى أواخر ١٩٤٠ ، قررت لجنة المؤتمر الدخول فى تجربـــة مكشوفة مع حكومة السودان ، فى أمر تعتبر اثارته عند الحكومـــة من صميم الاعمال التى لاتعطى المؤتمر حق تمثيل الشعب السودانى فيها. فقد (رفع المؤتمر مذكرة للحاكم العام يعترض فيها على نقل وحدات من قوة دفاع السودان إلى جبهة ليبيا دون استشارة الرأى العام أو ابلاغه) كما يقول الاستاذ احمد خير (فى كفاح جيل) فكان ذلك فى نظر حكومة السودان ، أول تدخل سافر من المؤتمر فيما لايعنيه ، والخروج على نصائح السير انجس حيلان السكرتير القضائى ، التى

قدمها لرئيس مؤتمر الخريجين فى خطابه ١٩٣٨ ، بأن يحضر المؤتمر نفسه فى حدود اعضائه ، ولايدعى تمثيل الشعب السودانى . . وفى ١٩٤٢ ، أخذ الصراع بين المؤتمر والحكومة ، يطفو على السطح ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها . . والسودان مشترك فيها اشتراكا فعليا ، وأبناؤه يخوضون غمارها فى الميادين . . ففى شـرق السـودان شهد لهـم العالم بالشجاعة وحسن البلاء بما حققوه من انتصارات باهرة ، تأمنت بها حدود السودان الشرقية من خطـر الغزو ، الذى كان يهدده من قبل الجيوش الطليانية ، التى كانت تعجع بها الحبشة المحتلة آنذاك . . وفى الصحراء الغربية لمصر ،تدفقت وحدات قوة دفاع السودان وأخذت مواقعها فى الميدان ، جنبا إلى جنب مع جنود الحلفاء ، حتى تم انتصارها على قوات المحور .
وأما فى داخل السودان فقد جند السودانيون فى مختلف مواقع اعمالهم للاضطلاع بدور خطير آخر ، لاغنى للحرب عنه، بل كان بمثابة، الجسر الذى عبرت عليه جيوش الحلفاء لاحراز النصر .. ذلك هو دور السودان فى المجهود الحربى . . نشاطه للتوسـع فى انتاج المحاصيل الزراعية والمواشى بمختلف أنواعها وكذلك الخضـر والفاكهة . . وارسال ذلك كله لميادين الحرب بكميات هائلة وبلا انقطاع .. فكانت امدادات السودان تدعيما كبيراً للمجهود الحربى ، واعترفت وأشادت به البيانات الرسمية التى صدرت من المسؤلين ، عقب الحرب ، سواء من حاكم السودان العام، أو من المستر كايسى (وزير الحرب المقيم فى الشرق الاوسط) أثناء الحرب ، كما كان يسمى فى ذلك الوقت . فقد وصف المجهود الحربى الذى قدمـه السودان ، بأنه كان من أقوى أسباب النصر للحلفاء .

كان الأجدر بحكومة السودان ، ازاء تلك التضحيات الجسام ،

التى أكسبت السودان مكانا مرموقا بين كل البلاد التى أسهمت فى المجهود الحربى، أن يكون اعترافها بالجميل للسودان ، ليس مقصوراً على بيان يزاع أو ينشر . . فهى تعلم حق العلم أن ذلك لا يرضى مشاعر الشعب السودانى ، الذى أصبح على درجة من الوعى تجعله لايتطلع من وراء بذله وعطائه ، إلى شىء غير مطالبه الوطنية وحقوقه المشروعة . . فى أن يتولى مقاليد الامور فى بلاده . . كان الاجدر اذن بحكومة السودان أن تبدىء شيئا من الاستعدادللتفاهم حول تلك المطالب ، أو تقطع على نفسها وعدا ، على الاقل بمساندة المطالب الوطنية التى تقدم المؤتمر بالحد الادنى منها ، كشىء يمثل تطلعات شعبه المشروعة .

ولكن مع الاسف لم تفعل حكومة السودان شيئا من هذا . . بل تنكرت واستكبرت . . وكأن شيئا لم يكن . . سكتت حكومة السودان عن حقوقنا ، لا فى دماء أبنائنا وأرواحهم الغالية فقط ، بل سكتت حتى عن حقوقنا المادية المتمثلة فى تلك الفروق الهائلة بين الاسعار الاسمية التى كانت تشترى بها إدارة الحرب ، مواشينا ومحاصيلنا والمواد الاخرى الزاخرة ، وبين الاسعار الباهظة التى كانت تباع بها تلك السلع فى الخارج ، طوال سنوات الحرب ، . . وكان من الممكن أن نطالب به كله ، ولكن حكومة السودان تعلم أن الشعب السودانى لم يكن يهمه أن يجرى وراء شىء من تضحياته المادية ، بل انه قد قدمها جميعا عربونا صادقا لما انطوت عليه جوانحه من مطالبه الوطنية ، وحقه فى الحياة والحرية .

ومن هنا جاءت مذكرة مؤتمر الخريجين ، التى قدمها لحكومة السودان فى ١٩٤٢ ، معبرة عن روح شعبه وتعلقه بالحرية وتقرير المصير .

المذكرة السياسية الثانية للمؤتمر

وقد رأينا كيف برمت الحكومة بالمذكرة وردتها للمؤتمر ، رافضة مجرد رفعها لدولتى الحكم الثنائى . . بل أن اعتراضها كان واضحا فى عبارات خطابها لرئيس المؤتمر ، التى انطوت على الزجر والتهديد .

وكأنما كان لسان حال تلك الحكومة يقول : ,, انها قد ضاقت ذرعاً بذلك المؤتمر العنيد ، الذى لايراعى ، ولايجدى معه أى نصح أو تحذير ، ولا يريد أن يحصر نفسه فى نطاق الفئة التى يمثلها ، فلا يتحدث باسم السودان عامة . . وهاهو اليوم يضرب بكل ذلك عرض الحائط ، ويجنح إلى مسلك أشد خطورة من كل مواقفه السابقة . . فيطالب بتغييرات دستورية فى نظام الحكم القائم ترمى فى النهاية إلى تصفية وتسليم السلطة إلى السودانيين لقد نفذ صبر الحكومة ولم يعد فى وسعها السكوت على هذا المؤتمر ، الذى خيب آمالها فى كل ما كانت تهدف إليه ، من تحويله إلى أداة طيعة لخدمة اغراضها السياسية حينما أفسحت له المجال أكثر من اللازم

شب المؤتمر عن الطوق

لقد أصبح المؤتمر هو العدو اللدود لحكومة السودان . . وقد شب الآن عن الطوق ، وبدل أن يسعى لعون الحكومة ومساندتها ، أخذ يطالب جهاراً بتصفيتها وانهاء وجودها فى السودان . . ولو ترك له الحبل على القارب لتطور إلى قوة خطرة ، تعمل على مجابهة الحكومة ومنازعتها ، فى أخص شئونها الدستورية . . فلابد إذن من عمل سريع لكبح جماح هذا المؤتمر ورده إلى حجمه الطبيعى ، قبل فوات الاوان . . وقبل أن يكتمل له إلتفاف الشعب حوله .

وكانوا يقصدون بذلك إنشاء المجلس الاستشارى ، الذى ظنوا أنه بمثابة العصا السحرية التى تقطع السبيل على المؤتمر وتسقط من يده (**الكارت**) الرابح . .

الذى كان يلوح به فى وجه الحكومة ، وهو تمثيله للشعب السودانى . . وكان فى تقدير الحكومة ، أن المجلس الاستشارى سيصبح الاداة الرسمية لتمثيل السودان . . وفاتهم أن المؤتمر لم يتقدم بمذكرة تقرير المصير ، إلا بعد أن إكتملت لديه كل خيوط الرأى العام ، وأصبح موقنا بأنه الممثل لشعب بلاده والمتحدث الوحيـد باسمه .

ولكن حكومة السودان التى كانت تنظر بتملق بالغ للمؤتمـر وهو يكسب مزيدا من تأييد الرأى العام كل يوم . . كان لابد لها من الاسراع باجراء تجربة المجلس الاستشارى كترياق مضاد . . وهى تجربة كانت قد أعدتها قبل ١٩٢٤ ، كما ذكر الاستاذ أحمد خـير فى كتابه (كفاح جيل) ، لتموه بها على الشعب السودانى ، وتمتص بها انعكاسات ثورة ـ ١٩١٩ المصرية على الجيل الناشىء آنـذاك فى السودان . . ولكن الحكومة عادت فجمدته بعد ثورة ١٩٢٤ لانها كما يقول الاستاذ أحمد خير ـ قد وجدت من السودانيين من يتطوعون لتأييد السياسة البريطانية ويجمعون لذلك التوقيعات . . وها هم اليوم يعودون بعدما يقرب من عشرين عاما فى سبتمبر ١٩٤٣ ويخرجون مشروع (المجلس الاستشارى) المجمد من مكمنه ، لكى ينهوا به دور المؤتمر وصفته التى إدعاها لنفسه فى النيابة عن الشعب السودانى .

انشاء المجلس الاستشارى كترياق مضاد للمؤتمروفشله

ولكنها ـ كما وصفها الكثيرون ـ كانت تجربة هزيلة ، برهنت على مدى تعصـب حكام الـسودان فى ذلك الزمـان ، ، لخططهم الاستعمارية الضيقة مهما علاها الصدا والغبار ، ومهما كانت غير صالحة للزمن الذى يريدون تطبيقها فيه .

والواقع أن الانسان ليحار فى أمر أولئك البريطانيين المتمرسين بمختلف اساليب السياسة ، هل كانوا حقاً يعتقدون أن المجلــس الاستشارى لشمال السودان ، بذلك الوضع المتهافت الذى ظهر به ، يمكن أن يعزل مؤتمر الخريجين ويكون بديلا له فى تمثيل الشعب السوداني ؟ ؟

وهل حقاً ، كان نيوبولد الداهية المثقف ، ينظر لمذكرة المؤتمر بنفس السطحية التى ظهرت فى رد الحكومة المتشنج ، وما حواه من تحذير وتهديد للمؤتمر ، دون إلتفات إلى فقرات تلك المذكرة التى وضعت كل واحدة منها بدقة فائقة ، بحيث جاءت فى جملتها وتفصيلها ، معبرة أدق تعبير عن مطالبة الشعب السودانى وتطلعاته فى وقتنا ذاك .

مواجهة المؤتمر لحكـومة السـودان

كانت المذكرة بهذا الوصف ، منعطفاً تاريخيا واضحا ، واجه فيها المؤتمر حكومة السودان لأول مرة بمطالب سياسية ودستورية ، كلفت تعتبرها من اختصاصها وحدها ، وان تلك المطالب كما قال السير نيوبولد فى رده على المؤتمر :

انها تمس مباشرة ، مركز السودان السياسى ودستوره ، وهو مالا يمكن أن يغير إلا بعمل مشترك من قبل الدولتين المتعاقدتين . كان الاجدر بدهاقنة السياسة ، الحاكمين فى ذلك الوقت ، أن يدركوا انه لم يكن فى وسع المؤتمر الذى أولاه الشعب قيادته ، ومحضه الثقة ، أن يتقدم بأقل من تلك المطالب ، كمقابل لتضحيات السودان بأرواح ابنائه ودمائهم فى ميادين الحرب ، وكذلك لما قدمه مــن مشاركة فعالة فى المجهود الحربى ، مما كان له أكبر الاثر فى النصر الذى أحرزه الحلفاء ، كما أشرت سابقاً . . وفوق كل ذلك فان المؤتمر لم يطلب من حكومة السودان ، أن تقوم هى باجابة تلك

المطالب ، لانه يعلم انها كما قال نيوبولد لايمكن احداثها إلا بعمل مشترك من قبل الدولتين المتعاقدتين . وانما طلب المؤتمر فقط رفع مذكرته لدولتى الحكم الثنائى ، وهو يعتقد أن أبسط مقتضيات الواجب ، كانت تقضى على حكومة السودان ، أن تقوم برفع تلك المذكرة ، حتى ولو تعلق عليها بأنها رفعت تحت الحاح مؤتمر الخريجين .

ولو فعلت ذلك كانت بلا شك تخدم اساليب السياسة البريطانية المعروفة بالمماطلة، اكثر مما أقدمت عليه من رفض المذكرة وما تبعه من تصرفات ، لان رفع المذكرة كان من الممكن ان يفسح المجال على الأقل للاخذ والرد ، وهو امر قد برعت فيه السياسة البريطانية وكثيرا ما جنبها مواجهة المواقف الحرجة ، كالتى اوقعتها فيها حكومة السودان باقدامها على تجربة المجلس الاستشارى لشمال السودان ، وبعد، الجمعية التشريعية الفاشلة ، كرد على موقف المؤتمر المستند على تأييد قاطع من شعبه .فهل يكون الرد على مثل ذلك التحرك الوطنى الواعى الكبير المتسم بالجدية والاصرار مع الاحاطة التامة والادراك العميق لكل مقتضيات الظروف المحيطة بالموقف .. هل يكون الرد هو فقط محاولة تخطية بتلك الصورة المتهافتة التى تمثلت فى المجلس الاستشارى لشمال السودان ؟؟

اخطأت حكومة السودان في تقرير حقيقة المؤتمر

ومن الغريب جدا ان يتجاهل السير نيوبولد، العليم ببواطن الامور ،حقيقة ان المؤتمر قد شب فعلا عن الطوق ، واصبح هو الجهاز القيادى الوحيد للحركة الوطنية فى البلاد ، وانه لا يستطيع ان يتخلى عن ما ألقته على كاهله تلك الظروف ، من مسؤلية ، كان أقلها ان يتقدم بتلك المذكرة المعتدلة التى تمثلت فيها مشاعر امته وامانيها الوطنية .

كان الأجدر والأجدى اذن ، ان يعرف السير نيوبولد ان المؤتمر قد تحقق له ما جعله سيد الموقف فى قيادة الرأى العام ،وخاصة بين المتعلمين والمستنيرين ، حتى بلغ الامر بسلطانه على كبار الموظفين الذين لم تتعود الحكومة منهم كلمة (لا) مطلقا،ان يعتذروا لها عن عضوية المجلس الاستشارى لشمال السودان ، بعد ان عينتهم فيه بالفعل ..

ذلك لان المؤتمر قد قاطع المجلس الاستشارى ، واعلن ان حصره فى شمال السودان ، انما هو تمهيد لفصل الجنوب والاستقلال به عن السودان الواحد .

ولهذا السبب لم يكتف كبار الموظفين المشار اليهم بمقاطعة المجلس وفقا لخطة المؤتمر ، بل اخذوا فى مهاجمته ، من زاوية الارتياب المتمثل فى قصره على شمال السودان . وهكذا ولد المجلس الاستشارى ميتا كما قيل لأن كيانه الواهى لم يقو على الضربات القاتلة التى وجهها له المؤتمر ، وكانت المقاطعة الصارمة ، هى اقوى تلك الضربات وابعدها اثرا ، فسقط وتحطم قبل ان يكمل العامين من عمره .. ومهما يكن ، فمن الواضح ان حكومة السودان آنذاك قد فقدت الرؤية الصحيحة لموقف المؤتمر ،فلم توفق للاهتداء الى الحل المناسب .. كان هذا حالها ،حتى عندما وقفت على الحقيقة ، وتبين لها ان الأمرجد لاهزل فيه وانالمؤتمر يقود حركة وطنية قومية شاملة .. وانه حين قدم مذكرته المتزنة بتقرير المصير ، كان يعنى ما يقول ، ويسند ظهره الى اجماع شعب واع يطالب بانصافه وحقه فى الحياة والحرية .

لقد خانت الشجاعة حكومة السودان الاستعمارية ، فلم تقو على مجابهة الواقع وتعترف بالمؤتمر ممثلا للشعب السودانى بل اصرت

على خوضها تجربة المجلس الاستشارى لشمال السودان لالغاء وجود المؤتمر كممثل للشعب السودانى كما قلت .

وبالرغم من المصير المحتوم الذى لقيه ذلك المجلس ،نرى حكومة السودان تقدم على مهزلة اخرى ،هى (الجمعية التشريعية) كمحاولة لانقاذ موقفها المتردى فى الخطأ .. وقد جاءت كلمة (التشريعية فى الصياغة لتواجه نص الفقرة الثانية فى مذكرة المؤتمروهى

قيام الجمعية التشريعية كمحاولة ثانية ضد المؤتمر

(تاسيس هيئة تمثيلية من السودانيين لاقرار الميزانية والقوانين .. وكأن الأنجليز لم يكن يعنيهم فى شيىء امر ذلك الفرق الشاسع بين ما يقيمه المؤتمر وما تهدف اليه الحكومة .... فالمؤتمر يطالب بقيام مجلس نيابى ، يتم تكوينه عن طريق الا نتخاب الحر المباشر ليقوم باقرار الميزانية العامة ، وتشريع القوانين واقرارها .. وبذلك يصبح هو السلطة التشريعية فى البلاد .. وبيده كل اختصاصات المجالس النيابية .. والحكومة لا تعنى أكثر من التمويه على العقول وايهام الناس ، وخاصة بعض حكام مصر الذين خدعتهم حكومة السودان واعطوها مع الأسف موافقتهم على المبدأ مسبقا .. ظنا منهم انهم يدفعون حكومة السودان . . للتورط فى خطوة حقيقية لاعداد السودانيين للحكم الذاتى ، ولانشاء جهاز يعتمد عليه فى تمثيل السودان بصفة رسمية ، وهى فى الواقع لم تكن ترمى إلا لابطال دعوى مؤتمر الخريجين بانه الممثل للشعب السودانى .

ومن جهة اخرى فان الحقيقة هي ان (الجمعية التشريعية) كانت صفتها استشارية فقط ، وليس لها صلاحيات تشريعية ولا حق فى إقرار ميزانية البلاد او قوانينها او حتى مناقشة اى امر لاتوافق عليه الحكومة . فى حين ان كل شيء فى الدولة البرلمانية لا بد ان يخضع لسلطة مجلس النواب حتى ذلك المجلس التنفيذى (مجلس

كلا الجمعية ومجلسها التنفيذى فريقان

الوزراء) ولهذا لم تكن الجمعية التشريعية المزيفة ، اوفر حظا من سلفها .. المجلس الاستشاري لشمال السودان .. والواقع ان عقدة الخوف من فقدان النفوذ العريض، هي التي كانت تسيطر على تصرفات حكام السودان الانجليز وتدفعهم إلى التشبث الاعمى بما كان في ايديهم من سلطات هائلة ونفوذ عريض،جعل الحاكم منهم يسمى (باله الأبيض) . ومن هنا كان امعانهم في الخطأ ، واصرارهم على اختيار الطريق المسدود . . وهكذا احاطوا الجمعية التشريعية بمظاهر كاذبة ، من الاختصاصات ومن قشور الديمقراطية وادعاء تمثيل الشعب ، ثم توجوها — امعانا في التضليل — بمجلس تنفيذى على أنه مجلس وزراء . . وكلها في الواقع اسماء وأوضاع خاوية ، لم يقصد بها الانجليز سوى أحداث التمزقة في صفوف المؤتمر ، وتحطيم الجبهة الوطنية بما سوف تجتذبه تلك المناصب المزيفة من عناصر رخوة ، من الانتهازيين والمعتدلين وعشاق المناصب ، ولو كانت فارغة من أي محتوى حقيقي للسلطة والحكم .

قاطع المؤتمر الجمعية وانتخاباتها

• لم يشفع للجمعية التشريعية كل تلك الهالة المصطنعة ، التى أحاطوها بها ، فقد أحكم المؤتمر مقاطعتها ، ونبذ كل ما يتصل بها من مناصب مقاطعة اجماعية صارمة ، وأرسل قولته المشهورة : (نقاطعها ولو كانت مبرأة من كل عيب) ولاعبرة في هذا تمسك تلك القلة التي أشرنا إليها والتي لم تتورع من خوض انتخابات الجمعية ، بالرغم من مقاطعة الشعب لها ، واحالتها إلى مهزلة تاريخية ، انكشف فيها الادعاء الكاذب بتمثيل الشعب ، وجاءت نتائج التصويت مخيبة لآمال أولئك الذين أوقعهم سوء الحظ في خوض معركتها .

كانت نسبة التصويت في دوائر العاصمة ، منطقة الوعي والادراك ، في الحضيض : ١٪ ، ٢٪ ، ٣٪ ، وهي نسبة لاتشرف

مرشحها أو تسمح له بادعاء صفة النيابة عن الشعب .

هكذا جاء مصير الجمعية التشريعية ، دليلا آخر على فشل حكومة السودان فى ادراك الواقع ، وعلى عجزها عن التعامل مع المؤتمر ، الذى كان قد قطع شوطا بعيداً فى تكوين الرأى العام الواعى المناضل وامسك بخيوطه جميعا فى قبضة يده ، ثم انتضى سيف الكفاح الوطنى ومضى فى طريقه على هدى من قضيته الوطنية العادلة الواضحة المعالم ، التى حددها فى مذكرة ١٩٤٢ . و كان الغرض من تقديم تلك المذكرة أثناء الحرب ، كما يقول الاستاذ أحمد خير فى كتابه (كفاح جيل (هو) خلق قضية سودانية (تأهباً لاثارتها عقب الحرب مباشرة ، عندما تثار قضايا الشعوب . . كل ذلك وحكومة السودان كانت عاكفة على البحث عن صيغ لبعض تجاربها الاستعمارية ، التى تمكنها من تفادى واقع المؤتمر ، والحيلولة بينه وبين تمثيل الشعب السودانى . . ترك المؤتمر الحكومة ومضى بلوائه الخفاق ، ينظم الصفوف ويجمع الاحزاب ، ويوحد الكلمة ، ويكون الجبهة الوطنية ، تمهيدا لوضع ميثاق وطنى قوامه الحرية وتقرير المصير .

اول تجديد السودان

وما هي إلا جولة حتى تم للمؤتمر ما أراد ، فائتلفت الاحزاب الاتحادية . . الاتحاديون والاشقاء ، والاتحاديون الاحرار ، وهى أكبر أحزاب المؤتمر الممثلة للأغلبية الساحقة فيه .

ائتلاف الاحزاب الاتحادية ووضع الميثاق الوطنى

والى حين استعرضت تلك الخطوات الموفقة للمؤتمر تذكرت قول حافظ ابراهيم فى رثائه لسعد باشا :

قد جمعت الأحزاب خلفك صفا
ونظمت الشيوخ والنوابا
وملكت الزمام وأحطت للغيب
فادركت بالأناة الطلابا
كلما اسدلوا بأرضك فخا من فخاخ
الدهاء خابوا وخابــا

أو اطاروا الحمام يوما لزجل

قابلوا منك فى السماء عقابا

قام هذا الائتلاف بوضع الميثاق المنشود ، الذى طالب فيه بتقرير مصير السودان على النحو الذى اوضحه .. (قيام حكومة سودانية ديمقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى)..

وكان هذا هو قرار مؤتمر الخريجين عقب الحرب مباشرة فى ١٩٤٥ م ،الذى قدمه لحكومة السودان ، طالبا رفعه لدولتى الحكم الثنائى .

ولكن الحكومة كعادتها اخذت فى المماطلة وقالت أنها لا تنوى رفعها لدولتيى الحكم الثنائى ،متعللة باسباب واهية ، كعدم صحة انتخاب اللجنة التنفيذية ، كما اخبرهم مدير مديرية الخرطوم وكقوله ان المذكرة لا تمثل إلاوجهة نظر حزب واحد . . الخ .

رفض الحكومة رفع المذكرة كدولتى الحكم الثنائى

وكان وراء ذلك كله شيء واحد ، هو ان حكومة السودان كانت لا تقوى على الاعتراف بان المؤتمر يمثل الشعب السودانى.. ولكن المؤتمر تصدى لها بالرد الحاسم فى مذكرته بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٤٥ م مفندا كل ادعاءاتها التى اعتمدت عليها ، فى عدم رفع المذكرة لدولتى الحكم الثنائى .

تنفيذ المؤتمر للاسباب التى سندت على الحكومة

اولا :

فيما يتعلق بان المذكرة تعبر عن رأى حزب واحد (حزب الأشقاء)، فان حكومة السودان فى هذا انما تتجاهل ابسط قواعد النظم الديمقراطية المأخوذ بها فى كل انحاء العالم .. فتصف القرار الصادر من لجنة المؤتمر الستينية التى تكونت نتيجة لانتخابات حرة اشتركت فيها جميع الاحزاب، بانه رأى حزب واحد ،وهى تعلم انه قرار مؤتمر الخريجين العام .

ثانيا :

(اما الزعم بأن المؤتمر لا يملك حق الكلام باسم السودان ، فهو

زعم غريب ، ان دل على شيء ، فانما يدل على أن حكومة السودان كانت مصممة على أن لاتسمع للسودان رأياً ، وإلا فاين هي الهيئة التي ترى الحكومة بأنها أولى من المؤتمر بامتلاك هذا الحق . ؟ »

إلى آخر ما جاء في تلك المذكرة من حجج قوية ، بأن المؤتمر هو الهيئة الوطنية الوحيدة في البلاد ، وانه يتكون من المثقفين والواعين وانه أصبح محل القداسة من الشعب السوداني كله . وانه صاحب الحق الاول في التقدم بمطالب السودان على الاطلاق . .

ثالثاً :

اما فيما يتعلق بادعاء مدير الخرطوم بعدم صحة انتخاب لجنة المؤتمر الستينية ، فقد أبدى المؤتمر دهشته واستغرابه . . فما شأن مدير الخرطوم بانتخابات المؤتمر ؟ ؟ وبأي حق أمكن له التدخل فيها ؟ ؟ فهي من شأن أعضاء المؤتمر وحدهم ، وهم الذين يحق لهم الطعن في إنتخاب أي عضو أو أعضاء ، وفقاً للقوانين واللوائح الخاصة بذلك . . ولم يحدث أن تقدم أي عضو بالطعن في صحة تلك الإنتخابات ، وهو ما يجعل تدخل مدير الخرطوم أمراً لا مبرر له .

غير أن الروح التي خاطب بها المدير المؤتمر ، قد فضحت سره وكشفت ما كان ينطوي عليه من نيات عدائية نحو المؤتمر . . فلقد ألقى تهمه الباطلة الملفقة على المؤتمر ، دون أن ينتظر الجواب أو يتلقى الرد المقنع بل قفل الباب بعنف وأعلن وقف المكاتبات ، تخوفا من المنطق والبرهان .. ومهما يكن فان روح مدير الخرطوم ، انما هي من روح حكومة السودان . . . والغرض الوحيد هو عدم الاعتراف

بالمؤتمر. صحيح انه قد مرت فترة كانت فيها نظرة الحكومة للمؤتمر غير معادية وصدرت توجيهات من الخرطوم لحكام المديريات بالتعامل مع المؤتمر على هذا الاعتبار ، ولكن هذه الفترة كانت قصيرة كما كنا نتوقع لها ، (خطاب خضر حمد) . إذ ليس من الطبيعي أن تستمر العلاقات الطيبة بين حكومة مستعمرة وبين هيئة وطنية ، قامت أساسا لكي تصبح في النهاية أداة للكفاح الوطني ، واستخلاص حقوق البلاد في الحياة والحرية .

وقد كان الغبن الذى أحس به المتعلمون السودانيون ، عقب معاهدة ١٩٣٦ ، هو السبب المباشر الذى ولّد في نفوس الخريجين ، الشعور بضرورة التجمع وتوحيد الكلمة . . وما أبعد البون اذن بين مثل هذه الهيئة الوطنية ، التى قامت لتقود شعبها باسره ، وبـــين الحكومة التى كانت تعتقد ، بكل بساطة ، أن المؤتمر سيكون هيئة فئوية ، سوف لاتتحدث إلا باسم الفئة التى تمثلها وهى الخريجون .

ولهذا فان شهر العسل بين الحكومة والمؤتمر ، كان قصيرا جدا . . وإذا كان المؤتمر قد أجل الخوض في الاوضاع القديمة ، التى كانت قائمة فى السودان آنذاك ، أو تحاشى الدخول فى مناقشة مع حكومة السودان بشأنها ، فانما كان ذلك بناء على خطة مرسومة ، حتى يجىء الوقت المناسب . ولكن هناك أحداث قد استجدت ، ورأى المؤتمر ضرورة تصديه لها ، إما استجابة لمشاعر الشعب والرأى العام واثبات وجوده كقيادة وطنية . . واما استلفاتا لانظار الحكومة ، إلى الحقيقة التى غابت عنها ، وهى أن المؤتمر قد أصبح الممثل الوحيد للشعب السودانى ، وليس هيئة فئوية كما كانت تظن .

وسرعان ما تبدد اطمئنان الحكومة للمؤتمر وأخذت تحس بطلائع المعركة القادمة بينها وبينه . . ولاعبرة بأنها منذ وقت مبكر أخذت

نقدم نصائحها للمؤتمر بأن يحصر نفسه فى حدود الفئة التى يمثلها ولا يدعى تمثيل الشعب السودانى ، كما جاء فى خطاب المستر جيـــلان لرئيس المؤتمر فى ١٩٣٩ الذى أشرت إليه من قبل .

ولكن المؤتمر كان قد قرر أن تبدأ المعركة ، فاختار الموضوع والوقت الذى يحتك فيه بالحكومة لاشعارها بأنه لن ينصاع لنصائحها بعد الآن .

وانتهز فرصة نقل الوحدات السودانية أثناء الحرب، من حدود السودان الشرقية إلى ميدان الحرب فى ليبيا ، كما ذكرت سابقاً . واحتج المؤتمر لدى الحاكم العام ، بأن ذلك قد تم دون استشارة الشعب السودانى . . وثارت ثائره الحكومة . . ولكن المؤتمر يتصدى لها ويرسل المذكرات مطالبا بحق شعبه فى تقرير مصيره ، كما جا فى مذكرة ١٩٤٢ أثناء الحرب ومذكرة ١٩٤٥ بعد الحرب . وما تلاها من مذكرات لاتهدأ ، عن المجلس الاستشارى لشمال السودان والجمعية التشريعية ، ومجالس المديريات . . ثم تصديه بالمقاومـــة العنيفة لكل خطوات حكومة السودان السياسية وما كانت تسميه بالاصلاحات الدستورية . . الخ .

كل ذلك قد جعل حكومة السودان ، تستيقن بأن لاأمل لها فى المؤتمر ، وانها إذا كانت فى بادىء الامر قد اعتقدت بأنها تستطيع أن تجعل منه أداة سياسية ، تعمل بها ضد مصر ومطالبتها بوحدة وادى النيل ، فانها قد صحت من غفلتها لتجد المؤتمر وقد أصبح شيئا آخر . . أصبح قلعة النضال الكبرى وقائد البلاد الاوحد . .

جمع الحق كله فى كتاب   واستثار الاسود غابا فغابا
ومشى يحمل اللواء إلى الحق ويتلو فى الناس ذاك الكتابا

تغير إذن موقف الحكومة تجاه المؤتمر ، وأخذت تنظر إليـه كالخطر الداهم ، الذى سوف تتهاوى أمامه ، كل متاريسها وقلاعها السياسية ، التى تفكر فى احداثها . . بل لعلها قد لاحت لها ، بعد مذكرة ١٩٤٥ ، فكرة خبيثة ، وهى أن تستعين بالحكومات المصرية ، على المؤتمر لانها أحست بأنه سوف يكون أكثر خطورة على سياستها من مصر نفسها . . لذلك سمعنا اشاعة قد دارت أثناء المفاوضات مع صدقى باشا فى ١٩٤٦ ، لتعديل معاهدة ١٩٣٦ ، بأن الانجليز ، سيعرضون على صدقى اشتراكا فعليا لمصر فى حكم السودان . .

ولكن سرعان ما تصدى لها وفد السودان والصحافة السودانية والمصرية ، وحذروا المفاوضين المصريين من الوقوع فى ذلك الفخ الماكر ، الذى اراد به الانجليز فى الواقع أن يشركوا المصريين ، ليس فى حكم السودان ، وانما فى عداوة السودانيين . فتحدث الوقيعة بين الشعبين الشقيقين . . وقد أشار السودانيون فى تحذيرهم للمصريين إلى هذا المعنى وإلى الخوف من وقوع ١٩٢٤ أخرى يكون فيها الخصوم هذه المرة ، غير الخصوم السابقين . . أى يكون المصريون بدل الانجليز . . .

مذكرة سنة ١٩٤٥ وتأييد السـودانيين بمصر لها

وفى القاهرة كان السودانيون يترقبون صدور مذكـرة المؤتمر ١٩٤٥ ، التى طالب فيها بتقرير مصير السودان ، بحيث (يكون فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى) ، وبمجرد وصول ذلك القرار التاريخى إلى القاهرة ، بادرت لجنة المؤتمر الفرعية ، إلى دعـوة جميع السودانيين إلى إجتماع عام حضره كل السودانيين المعنيين بالقضية الوطنية . . . وأصدر المجتمعون قراراً اجماعيا بتأييد قرار المؤتمر . ولم يتخلف إلا أفراد ، أقل من أصابع اليد الواحدة . .

وأرسلت برقيات التأييد إلى المؤتمر وإلى مختلف الصحف فى السودان ومصر . وما كادت تمضي شهور قليلة ، حتى تحركت مسألة هامة هي اجراء المفاوضات بين حكومة صدقى باشا والحكومة البريطانية ، لتعديل معاهدة ١٩٣٦ ، وتصفية الامور المعلقة بين الدولتين . . فتحولت الانظار كلها نحو هذا الحدث الهام . . وبدأ تجمع السودانيين في القاهرة ، يفكر في أمر هذه المفاوضات التي كان يبدو غريبا أن تقدم عليها الحكومة البريطانية مع صدقى باشا دون إلتفات إلى مركزه السياسي ، كفرد لايمثل غير شخصه . . ومن هنا بدت لنا المخاوف فقد تكون هناك اتفاقيات سرية مسبقة بين الحكومتين ، على تجزئة قضية وادى النيل ، كما بدأ من بعض التصريحات التى أدلى بها صدقى فيما بعد . . وصدقى باشا دكتاتور مستبد كما هو معروف ، لايتورع عن اتخاذ القرار الذى يراه بالرغم مما قد يكون هناك من رأى مخالف له ، من قبل اللجنة شبه القومية ، التى تكونت لاجراء تلك الانتخابات . . وقد يكون البريطانيون ، من جهتهم ، مبيتين النية بالاعتماد على دكتاتورية صدقى إذا لزم الامر .

مفاوضات صدقي استأنفت

لقد تمخضت هذه المخاوف ، عن ضرورة قدوم وفد سودانى يمثل جميع أحزاب السودان ، لكى يكون قريبا من مسرح المفاوضات لمراقبة سيرها والاستعداد لمواجهة ما قد يطرأ من مفاجآت ضارة بقضية السودان . . وكان الاتجاه أول الامر هو المطالبة باشراك السودانيين فى المفاوضات ، حتى لايجدوا أنفسهم أمام الامر الواقع كما حدث فى اتفاقية ١٩٣٦ ، التى احتجوا على عدم اشراكهم فيها .

وفد سودانى لمراقبة تلك المفاوضات

وبالطبع لم يقبل هذا الاتجاه ، لا من الجانب البريطانى ولا من صدقى باشا ، فاكتفى وفد السودان بأن يكون مراقبا لسير الانتخابات فقط . . وكان تفكير السودانيين فى القاهرة ، فيما يتعلق بالوفد

مؤتمر السودانيين بالقاهرة يطالب بتكوين وفد قومى يمثل جميع الاحزاب السودانية

وطريقة تكوينه متجاوبة تماما مع رأى اخوتهم فى السودان . . فكان لهم نشاط واسع تعددت فيه الاجتماعات واتسع نطاقها ، تضم كافة الاتجاهات السياسية ، وتأخذ المظهر القومى الذى حرصنا عليه جميعا حتى كان هو الصفة التى وجه بها مؤتمر القاهرة ، نداءاته للاحزاب السودانية ، يناشدها توحيد الكلمة ، وتكوين وفد قومى موحد من جميع الاحزاب . . وألا يحضر ذلك الوفد للقاهرة إلا بهذه الصفة . . وفى الحق كان لمؤتمر القاهرة أكبر الاثر فى استقدام الوفد ، وتكوينه بالصورة القومية ، . . كما أن بعض المصريين المخلصين قد نصحوا بذلك ، حتى لاتعطى الفرصة للمفاوضين لعدم الاعتراف بالوفد أو الطعن فى تمثيله للشعب السودانى .

حضر الوفد السوداني القومى بالفعل الى القاهرة

والحمد لله تحقق ما أراده المخلصون والتقت كلمة الاحزاب السودانية وتم تكوين الوفد بالصورة القومية المنشودة .

ولكن بالرغم من الالتزام بذلك كله ، ومجىء الوفد للقاهرة بتكوينه القومى الممثل لجميع الاحزاب ، رأينا حكومة السودان تطالع الناس فى الصحف ببيان عجيب تقلل فيه من قيمة الوفد ، وتدعى أنه لايمثل الشعب السودانى ، كما توقعنا تماما .

المستر بيفن وحكومة السودان هاجموا وفد السودان دون ان يعلموا بأنه يمثل لجميع الاحزاب

اما المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا ، فقد سبق حكومة السودان ، وهاجم وفد السودان بمجرد تحركه من الخرطوم ، بانه وفد يمثل الاشقاء فقط ، بناء على المعلومات التى أرسلتها له حكومة السودان ، قبل اتفاق الاحزاب دون علمها بتكوين الوفد القومى الموحد . . وليس غريبا أن يتبعه صدقى باشا فى مهاجمة وفد السودان ولم يدر كلاهما أن الاحزاب السودانية قد فطنت للامر مسبقاً ، فاتفقت وقطعت عليهما الطريق ، فكونت وفدا قومياً لا مطعن فيه ،

وأسقطت بذلك من يد ، كل من صدقي باشا ومستر بيفن (الكارت) الذى أعده لمواجهة وفد السودان ، واجهاض مهمته وعزله نهائيا عن موقف المفاوضات ، حتى لايكون له أى تأثير على مجراها .

تعددت اجتماعاتنا فى القاهرة ، كما قلت ، للمشاركة فى استقدام الوفد ، فمرة نجتمع فى دار مجلة السودان التى يملكها على البرير ، ومرة فى دار مجلة هنا أمدرمان . . التى أنشاها عبده دهب حسنين نيابة عن هنرى كورييل الزعيم الشيوعى المعروف ، وكانت تمثل الاتجاه اليسارى ، وقد اجتذبت إليها بعض الشبان المتعلمين ، كمحى الدين صابر ، ومحمد أمين حسين الذى كان رئيسا لتحريرها ، وكعبد الماجد أبو حسبو ، وعز الدين على عامر ومصطفى كيشو وغيرهم ممن لم تحضرنى أسماؤهم . وفى أثناء تلك الاجتماعات كان الاستاذ أحمد يوسف هاشم طيب الله ثراه ، فى احدى زياراته للقاهرة فاندمج معنا فى اجتماعاتنا ، وأطلعنا على آخر ما وصل إليه التفكير فى السودان بشأن ارسال وفد المفاوضات . . كما قدم لنا خدماته الصحفية القيمة ، وكان يرسل لصحف السودان أخبار اجتماعاتنا أولا بأول وكان أهمها ذلك النداء الذى نشرته كل الصحف ووزع فى السودان كأول مخاطبة من مؤتمر القاهرة للشعب السودانى واستنهاض مشاعره لتكوين الوفد المنشود وضرورة . توفر الصفة القومية فيه . . وبين الاوراق القديمة أيضا ، بعض البرقيات الهامة كبرقية على البرير للسيد ــ اسماعيل الازهرى بضرورة قومية الوفد ، وكذلك البرقية التى أرسلناها لطلبة كلية جامعة الخرطوم الجامعية ، نناشدهم فيها التحرك الشديد للضغط على الاحزاب حتى يتم تكوين جبهة موحدة يمثلها وفد موحد ، وكذلك الاشارة لبعض المحادثات التلفونية كمحادثة الاستاذ توفيق البكرى مع السيد ــ اسماعيل الازهرى

نداء مؤتمر القاهرة بمناشدة الشعب السوداني تكوين وفد قومي

برقية لطلبة كلية الخرطوم الجامعية

دور طلبة الخرطوم في قومية الوفد

بشأن تكوين الوفد القومى . . نشرتها السودان الجديد فى حينها . .
وبالفعل قام الطلبة بواجبهم كاقوى ما يكون الشباب . . فخرجـوا
فى أول وأكبر مظاهرة وطنية تشهدها العاصمة وطافوا بموكبهم
العارم اكبر وأهم الاحياء ، فايقظوا النفوس وحركوا المشاعر ،
وأكدوا الضرورة القصوى لتوحيد الكلمة فى تلك الظروف الدقيقة ..
وانتهى مطاف موكب الطلبة إلى دار المؤتمر ، فأحاطوا بها ، تؤازرهم
الجماهير المحتشدة التى أشعلوا فى قلوبها الحماس الوطنى ، وفى أثناء
ذلك كان بعض الكبار من رجالات العاصمة يقومون بدور عظيم فى
الوساطة وتقريب وجهات النظر بين الاحزاب المختلفة وكان دوراً
شاقاً ، تغلبت فيه الروح الوطنية والحكمة وبعد النظر .
كانت تدور المفاوضات الساخنة بين مندوبى الاحزاب طول الليل
حتى خفت حدة الخلافات وهدأت العواطف ، وتهيأ الجو الملائـم
للتفاهم والاتفاق ، . . وكان اسم عبدالماجد أحمد ، يتردد طوال
الوقت الذى دارت فيه معركة المفاوضات بين الاحزاب . . فقد
أبلى الرجل بلاء حسنا وتذرع بصبر (أيوب) حتى استطاع هـو
وزملاؤه عند الفجر ، اقناع الاحزاب بالصيغة التى تم عليها الاتفاق
وبمقتضاها تكون الوفد ، وهى : (قيام حكومة ديمقراطية حـرة ،
فى اتحاد مع مصر ، وتحالف مع بريطانيا) وهى تقريباً نفس القرار
الذى تضمنته وثيقة الاحزاب التى تم عليها اتفاق الاحزاب من قبل ،
عقب قرار المؤتمر المشهور فى ١٩٤٥ وهو (قيام حكومة ديمقراطية
فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى) وكان عبد الماجد أحمـد
سكرتيرا (للجنة الاحزاب) التى تكونت فى ذلك الوقت من كل
الاحزاب بغرض الائتلاف . ولعب عبد الماجد كذلك نفس الدور
المقدر الذى لعبه فى الوصول إلى الائتلاف الاخير ، لتكوين وفـد
السودان القومى للمفاوضات .

عبد الماجد أحمد

وبالرغم من أن المؤتمر كان قد رفض وثيقة الاحزاب ، كما رفضت بعض الاحزاب قرار المؤتمر السابق ، إلا أن روح الوفاق وضرورة إضفاء الصفة القومية على وفد السودان قد تغلبت، كما ذكرنا في مكان آخر ، وقد قبل ادخال بعض التعديلات أو التغييرات ، على قرار الاحزاب . . على العموم كانت كلها اعتبارات جعلت الاتفاق يتم بتلك الصورة الشاملة . وبهذا كللت الجهود المخلصة بالنجاح ، وتحققت المعجزة ، التي ظن البريطانيون انها مستحيلة . . وتكون الوفد القومي المنشود ، وحمل معه القرار القومي التاريخي وقدمه للجنة المفاوضات . . ولحسن الحظ . . وجدت بين أوراقي القديمة ، تسجيلا لكثير من وقائع ذلك الموقف ، أغلبها مسودات وكذلك بعض الاسماء والاشخاص الذين تكونت منهم اللجنة التمهيدية ، والذين كان لهم دور بارز في تكوينها وإدارتها ، كما نجد محضر الجلسة الهامة التي عقدت بدار مجلة (أمدرمان) بتاريخ ١٨ مارس ١٩٤٦ وكانت عبارة عن امتداد لجلسات سابقة . . وفي هذه الجلسة أعدت بطاقات الدعوة للمؤتمر العام الذي انعقد بدار السودان في شارع قصر النيل ، وكلف بعض الاعضاء بابلاغ الدعوة لمختلف الجهات وهي في المحضر كما يلي :

حسبو ومحي الدين إلى حلوان ، وعبداللطيف وعز الدين إلى المدرسة السعيدية وبيت السودان ، والصائم وخوجلي إلى الازهر . .

وكان المتكلمون كما ورد في المحضر هم : علي البرير ، وأحمد يوسف هاشم ، وعبد اللطيف الخليفة ، ومحي الدين صابر ، وعبد الماجد أبو حسبو .

وكانت سكرتارية الاجتماع مسندة إلى : قيلي وعز الدين

وخوجلي . ولكن الاحداث كانت تسرع وتتلاحق خطواتها . . فقد تسربت من السودان أخبار أثناء انعقاد مؤتمر القاهرة العام المشار إليه بأنه قد تم تكوين الوفد بالصورة القومية المطلوبة ، وانه بمجرد تكوينه سارع الفوج الاول منه إلى السفر للقاهرة فى ٢٢-٣-١٩٤٦ مكونا من السادة : اسماعيل الازهرى ومحمد نور الدين ومبارك زروق ويحي الفضلى وابراهيم المفتى ثم ابراهيم جبريل مديراً لمكتب الرئيس (وهؤلاء جميعاً من حزب الاشقاء) .

وصول الوفد للقاهرة

ثم لحق بهم الفوج الثانى فى يوم الجمعة ٢٩ مارس وهم السادة : دريرى نقد وعبد الله عبد الرحمن نقد الله ويوسف مصطفى التنى (من حزب الامة) وأحمد يوسف هاشم (عن القوميين) وعبد الله ميرغنى (عن الاتحاديين) ومالك ابراهيم مالك(عن الاحرار) ومحى الدين البرير والطيب محمد خير عن (الاتحاديين الاحرار) وقررت لجنة الاحزاب ضم السادة : أحمد خير المحامى (مستقل) والتردبرى أحمد اسماعيل (حزب وحدة وادى النيل) فسافروا مع الفوج الثانى وضم كذلك الدكتور عقيل . وفى القاهرة ضم إلى الوفد كل من على البرير ومحمد المهدى الخليفة وعيسى بول كور . . .

وقد كان لهذا التعجل فى السفر ، سبب هام جداً وهو أنهم أرادوا به وضع حكومة السودان أمام الامر الواقع بسفر الوفد القومى الممثل لجميع الاحزاب ، حتى لاتجد الفرصة لاية مساع خبيثة لاحداث انشقاق فى الجبهة التى تكونت ، أو محاولة تكوين وفد آخر يعارض الوفد القومى .

وأعتقد أنهم أى أعضاء الوفد كانوا على حق ، إذ ما كاد الفوج الاول من الوفد يصل القاهرة ، حتى وجد نفسه فى صبيحة اليوم

التالى لوصوله مباشرة ، يخوض معركة صحفية عنيفة ، للدفاع عن كيانه ومهمته ، ردا على بيان حكومة السودان المهاجم له ، وبعده مباشرة جاء بيان المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا ، وبعده بيان صدقي باشا ، على نفس وتيرة بيان الوزير البريطاني ، مما سوف أثبته في مكان لاحق ، ولكن الجدير بالذكر هو أن التعجل فى سفر الفوج الاول من الوفد ، قد كان له من جهة أخرى ، رد فعل بعيد الاثر . . فقد أخذه البعض ، على أنه ارتجال لم يوفر الوقت الكافى للانسجام المفروض توفره بين أعضاء الوفد ، وهو مقبل على مهمته الخطيرة ، إذ كان ينبغى على الوفد أن يتمهل بعد تكوينه ، بعض الوقت ، حتى يتيح الفرصة لبعض اللقاءات الودية بين أعضائه ، لكى تتم الالفة وتزول الحواجز التى ظلت تباعد بينهم سنين عديدة ، بسبب الخلافات الحزبية . . كما أن بعضهم كان لايكاد يعرف البعض الآخر . . ولكن الظروف التى أشرت إليها أجبرتهم على التعجل فى السفر .

ويقول الاستاذ أحمد خير وهو أحد أعضاء الوفد فى (كفاح جيل) عن حالة الوفد : (وقد كان من آثار هذا النقص ، أى الارتجال أن اجتمع فى القاهرة نحو ١٧ رجلا متباينين فى كثير من الصفات والطبائع ، متباينين فى الثقافة والميول ، بل فيهم من لم تقم من قبل بينهم صلات أوتربط بينهم وشائج ، وفيهم من يتبادلون الفتور فى الاحساس وعدم التقدير . .)

ومن جهة أخرى فان الارتجال لم يمكن أعضاء الوفد من وضع مهمتهم موضع الدرس المشترك ، والنظر فيها مجتمعين ، حتى يتبينو جوانبها المختلفة ، وما قد تحتاجه من تقارب وجهات النظر حولها ، تأهبا لمواجهة ما قد يصادفهم من عقبات ومشاكل ، فيرسموا لذلك

خطة مشتركة مبنية على الدرس والتفاهم .. لذلك رأينا آثار هذا الوضع قد إنسحبت على ما ساد أعمال الوفد من خلافات وعدم انسجام ، حتى انفرط عقده في النهاية . .

استقبال الوفد بمحطة القاهرة

ولنعد الآن إلى وصول وفد السودان إلى القاهرة .. ففى صبيحة يوم ٢٥ مارس ١٩٤٦ ، كانت محطة مصر قد ازدحمت بالمستقبلين للوفد ، من مختلف قطاعات الشعب المصرى . . ولكن أبا السباع وصدقى كعادته فى المقالب مع المعارضة ، قد دبر خطة لانزال الوفـد فى محطة الجيزة بدل محطة مصر ، حتى يفوت الفرصة للقيام بمظاهرات أو أعمال معادية للحكومة . . ولكن خطته قد أكتشفت فى آخر لحظة فسارعت أعداد كبيرة من الجماهير إلى محطة الجيزة التى كان رجال البوليس قد طوقوها من جميع الجهات . . وبمجرد وصول القطار المقل للوفد اشتعلت المظاهرات فى كل من محطة الجيزة ومحطة مصر وتعالت الهتافات لتحية الوفد والترحيب به ، ثم ما لبست أن تطورت إلى صخب متزائد ضد الحكومة .

وكانت هناك اشاعة تقول بأن المفاوضات قد تتمخض عن قرار باستفتاء السودان على تقرير مصيره .. وهى فكرة مرفوضة بالطبع فى ظل الاوضاع التى كانت سائدة فى السودان فى تلك الظروف ولذلك كانت أعلى الهتافات فى مظاهرة استقبال وفد السودان هى : لا استفتاء ، لا استفتاء ، لا استفتاء .. وقد لاحظ البعض ان استقبال وفد السودان لم يكن بالضخامة التى كانوا يتوقعونها ، ولكن ، اذا لاحظنا تشتت الجماهير بين محطتى القاهرة والجيزة ، بسبب الخطة المفاجئة التى عمدت اليها حكومة صدقى ، فأنزلت الوفد فى محطة الجيزة ، بدل محطة القاهرة التى احتشدت فيها الجماهير .. واذا لاحظنا ايضا ان حكومة صدقى لم تعمل اصلا

على تشجيع تلك الجماهير لعمل استقبال شعبي كبير ، لاعتبرنا ان الاستقبال كان مناسبا جدا .

ولكن الفتور لوحظ فيما بعد ، في استقبال الاحزاب ، وفي مقدمتها حزب الوفد ، أكبر احزاب المعارضة ، اذ كان حماسه لوفد السودان ، دون ما كنا ننتظره بكثير .. ولعل مرد ذلك الى وثيقة الاحزاب التي جاء بها وفد السودان الى مصر ، وخاصة الفقرة الاخيرة فيها : (في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا) مما اعتبرته الاحزاب المصرية ، تشويشا على القضية لا يدعو الى الاطمئنان .. وذلك لعدم تعمق رجال الاحزاب المصرية في معرفة ظروف السودان وما يصطرع فيه من تيارات .. وقد اخذت بعض الصحف المصرية في التشويش على وفد السودان ، والتشكيك فيه ، كما أطلقت اشاعات لا معنى لها ..

فتور استقبال الاحـــزاب المصرية للوفد

ولكن الموقف أخذ في التحسن ، وأخذت المعارضة تهتم بالوفد وتبدي تأييدها له ، لا اقتناعا برسالته كما تقول مذكرات خضر حمد ، ولكن (احراجا لحكومة صدقي باشا) . والواقع ان صدقي باشا لم يعترف بالوفد ، ورفض دخوله في هيئة المفاوضات ، لأنه كان يعتبر وحدة وادي النيل قائمة ، واذا جلس وفد السودان عضوا في لجنة المفاوضات ، كان ذلك دليلا على وجود كيان منفصل عن مصر ، ومن جهة أخرى ما كاد الفوج الاول من الوفد يتخفف من وعثاء السفر ، حتى وجد نفسه مدفوعا الى العمل فورا كما اشرت سابقا .. وقبل ان يكتمل عقده .. ويبدو ان حكومة السودان قد سبقت الحوادث واعلنت بيانها بمهاجمة الوفد قبل تكوينه ، وبمجرد تحرك الفوج الاول من الخرطوم الى القاهرة ، ارسلت تلك

البيانات الى لندن والقاهرة ، وملأتها بالطعن فى تكوين الوفد ، وعدم تمثيله للشعب السودانى .. الخ ، معتمدة فى ذلك كله ، على اعتقادها الجازم بأن الاحزاب السودانية ، لن تلتقى كلمتها على شيء .. وهى لا تدرى بأن الزمام قد أفلت من يدها ، وان سلطان المؤتمر والقضية الوطنية على الرأى العام ، اصبح اقوى من سلطانها ، حتى على من كانت تعتقد انهم لا يخالفونها .. نشرت الصحف بيان حكومة السودان فى نفس اليوم الذى وصل فيه الفوج الأول من الوفد للقاهرة .. ثم جاء فى اليوم الثانى بيان المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا ، الذى أدلى به فى مجلس العموم وسبقه بيان صدقى باشا رئيس الحكومة المصرية ، الذى نشرته الاهرام يوم وصول الوفد .. وابدى فيه دولته ، عدم الثقة فى صحة تكوين الوفد من كل الاحزاب أوانه ممثل تماما للرأى العام فى السودان .. فقال الوفد فى رده على صدقى باشا (ولكن كل ما نخشاه ان تكون مصادر معلومات (غيرها) التى اشار اليها دولته ، والتى قد يرتكز عليها فى التعرف على وجهات نظر السودانيين ، مستقاة من نفس المصادر التى استمد منها وزير الخارجية البريطانية ، ما بنى عليه بيانه الاخير ، الذى أدلى به فى مجلس العموم) .

بيانات الطعن في قومية الوفد من حكومة السودان وصدقي باشا والحكومة البريطانية

وكانت لجنة المؤتمر الفرعية بالقاهرة ، وعلى رأسها السيد على البرير ، قد اعدت للوفد مكتبا كبيرا بميدان قصر النيل ، يتسع لكل اعمال الوفد من حجرات المكاتب الى قاعات الاستقبال والاجتماعات .. وعندما حضر الفوج الثانى من الوفد وتكاملت بقية الاعضاء الآخرين ، اصبح عددهم نحو الثمانية عشرة رجلا .. فنزل السيد اسماعيل الازهرى رئيس الوفد والسيد محمد نور الدين وبعض زملائهم فى فندق الكنتننتال ، بميدان الاوبرا ، ونزل يحيى

الفضلى ومبارك زروق واحمد خير وآخرون في سكن خاص مستأجر ، ونزل آخرون في فندق (ناشونال) بشارع سليمان باشا .. (وأقام بعضهم بفندق شبرد والبعض الآخر (ببنسيون مدام صديق) في عمارة بحرى بميدان قصر النيل .

وما كاد الوفد يستقر بالقاهرة ويعرف الناس وصوله اليها ، حتى اخذ يستقبل زواره الذين اقبلوا على داره من مختلف الاوساط وخاصة رجال الاحزاب والهيئات السياسية .

وبعد قليل بدأت المفاوضات بين الوفد والمعارضة ، ممثلة في الوفد المصرى برئاسة النحاس ، باعتباره اكبر الاحزاب ، ثم الكتلة الوفدية برئاسة مكرم عبيد ، وذلك لتكوين معارضة شعبية .. وما كادت تمضى تلك المفاوضات ، حتى تبين ان الاحزاب المعارضة لاتقبل توحيد القضية ، إلا إذا أزيلت من وثيقة الاحزاب السودانية ، الفقرة القائلة (وتحالف مع بريطانيا) . وتقول مذكرات خضر حمد :) وتذاكر رجال الوفد السودانى الامر فيما بينهم ، ثم رجعوا إلى أحزابهم في الجبهة الوطنية ، وقبلوا الشكل الجديد بما فيهم حزب الامة . . ولكن بعد محاولات بذلت في السودان ، رجع ممثلوا حزب الامة ، منسحبين من وفد السودان ،واستأذن باقى أعضاء الوفد جهادهم . وكان لابد لبقية أعضاء الوفد من مواصلة الكفاح لانهم كانوا مفوضين ومكلفين من قبل الجبهة الوطنية الممثلة للاحزاب ، وبالتالى للجماهير السودانية العريضة ، التى منحتهم تأييدها المطلق ، ليس من الناحية الادبية فقط ، ولكن بالتبرعات المالية التى انهالت على الجبهة الوطنية أيضا . . وكان الاتصال بين هذه الجبهة والوفد لاينقطع ، فتتلقى من الوفد ما كان يتوصل إليه أولا بأول ، كما أن الوفد من جانبه يستشير الجبهة ويسترشد

مطالبة احزاب المعارضة بسحب الفقرة التى وردت في وثيقة الاحزاب السودانية (وتحالف مع بريطانيا)

رجوع ممثل حزب الامة الى السودان

بتوجيهاتها في كثير من الامور . . وعلى أي حال فقد كان وجود وفد السودان في مصر بمثابة نقطة الارتكاز التي تجمعت حولها الأحزاب المصرية المعارضة للعمل المشترك ، على تحطيم معاهدة صدقي بيفن ، على النحو الذي وصفته سابقاً ، حيث بذل طلبة بيت السودان جهودا مضنية لجمع الاحزاب المصرية في صعيد واحد ، وتكون منها ما يسمى (بلجنة الاتصال) وكان واسطة العقد منها الرئيس اسماعيل الازهري . وبدأت تظهر آثار التعاون بين وفد السودان واحزاب المعارضة المصرية ، في تعبئة الجماهير في كل من القاهرة والخرطوم — ضد مشروع المعاهدة ، وتحركت الجماهير في العاصمتين ، بصورة فعالة ، أكدت رفض الشعبين لتلك المعاهدة الجائرة . . وهناك خطوات أخرى كانت أعدت للقضاء على معاهدة صدقي بيفن .. ولكن الله كفانا شرها فألغى المستر اتلي رئيس الحكومة البريطانية المعاهدة ، بالرغم من انها امضيت بالاحرف الاولى بين صدقي وبيفن . . وبعد أن قال صدقي قولته المشهورة للمصريين : (اتيتكم بالسيادة على السودان) . المهم ان المعاهدة ألغيت على النحو الذي وصفته قبل ذلك ، أثناء غيبة المستر بيفن في أمريكا . .

وانتهت بذلك الخطوات التي أعدتها المعارضة لتحطيم تلك المعاهدة . .

حكومة النقراشي والمفاوضات مع بريطانيا

وسقطت حكومة صدقي باشا على أثر إلغاء معاهدته المشئومة ، وتولى الحكم بعده محمود فهمي النقراشي باشا ، الذي ترأس الحزب السعدي المصري عقب مقتل الدكتور أحمد ماهر ، وسارع النقراشي بالاتصال مع الحكومة البريطانية للبدء في اجراء المفاوضات بصفة عاجلة ، لأن الاخبار جاءتهم من السودان بأن حكومته كانت تقوم بتحركات مشبوهة ، من شأنها أن تضر بمستقبل العلاقات بين مصر والسودان ،

وتشجع العاملين على فصله من مصر .

والواقع أن حكومة السودان ، قد بدأت منذ أواخر حكومة صدقي ، في اجراء تحركاتها ، نحو تنفيذ سياستها المقررة وخطواتها المرسومة ، للسير بالسودان نحو الحكم الذاتي ، كما يريده البريطانيون فقد انتهز حاكم السودان العام فرصة إلغاء معاهدة (صدقي – بيفن) ، فاوعز إلى وكالة أنباء رويتر ، بأن حكومة السودان تبحث في انشاء جمعية تشريعية ومجلس تنفيذى للسودان . وأرسلت رويتر برقية بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٤٦ إلى مصر نشرتها الصحف المصرية . . فبادر صدقي باشا بارسال خطاب للحاكم العام لمشار فيه لبرقية رويتر في الصحف ، وقال فيه ، (نظراً لاتصال هذين الموضوعين – يعنى الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى) بنظام الحكم في السودان . فان الحكومة المصرية ترى – فيما لو صح الخبر – ألا يتخذ أى اجراء في هذا الشأن ، قبل الاتصال بها ، واعلان موافقتها على هذه التدابير

فيرد عليه الحاكم العام بتاريخ ٤ يونيو ١٩٤٦ بنفى ما جاء في برقية رويتر ، وانه (لاينطبق على الواقع) ، (فان حكومة السودان لاتبحث في انشاء مجلس تشريعى ولامجلس وزراء في السودان) . .

ولايصعب على المراقب لاحوال حكومة السودان في تلك الظروف أن يتبين أن رد الحاكم العام هذا غير صحيح .. وأبسط دليل على ذلك هو أن هذا الحاكم العام نفسه ، قد أرسل خطابا النقراشي باشا الذى تولى الحكم بعد صدقي مباشرة ، يقول فيه : (أتشرف بأن أبعث لدولتكم مع هذا ، اربع نسخ من التوصيات (النهائية) لمؤتمر إدارة السودان ، باشراك السودانيين في الحكومة المركزية .. الخ ..

وكان ذلك فى ٢٤ أبريل ١٩٤٧ . . أى فى أقل من عام بعد نفى الحاكم العام لما جاء فى برقية رويتر ، وبعد قوله لصدقى باشا ان حكومة السودان لا تبحث فى انشاء مجلس تشريعى ولامجلس وزراء .

كما ان الخطاب الاخير ، قد كان مخادعا ايضا ، حين قال عن التوصيات : « ثم يعرض على حكومة المملكة المتحدة ، وحكومة مصر مشروع التشريعات ، المتضمنة لتلك التعديلات ، التى يرى من الضرورة إدخالها .. دون أن يذكر أى شىء عن موافقة الحكومة المصرية .. بل سكت عن هذه النقطة الجوهرية ، لكى تعتبر المسألة كلها ، مجرد تبليغ للحكومة المصرية ، كما ستوضحه الخطوات التالية .

وبينما كان النقراشى غارقا فى التفكير والمحاولات لانقاذ الموقف فى السودان ، والحيلولة دون الوصول (بالتطورات الدستورية) الى مداها النهائى .

اذا بصدمة أخرى تأتيه من حاكم السودان العام ، وتزيد الطين بلة .. فقد ارسل اليه الحاكم العام مذكرة بانهاء خدمة الشيخ حسن مامون ، كآخر قاضى قضاة مصرى ، واسناد منصبه لاحد السودانيين . فطار صواب النقراشى وتأكدت له الشكوك المصرية في نوايا الانجليز وعبثاً حاول النقراشى إقناع الحاكم العام بأهمية منصب قاضى القضاة فى السودان بالنسبة لمصر ، وانه بمثابة الرباط الروحى بين البلدين .. وبوجوده تطمئن مصر على تطبيق الشريعة الاسلامية فى السودان .. الخ .

انهاء خدمة قاضى القضاة المصرى

بل وصل بالنقراشى التمسك بذلك المنصب ، انه عرض على الحاكم العام ، ان تدفع مصر مرتب قاضى القضاة ، حتى يمكن

الاستفادة من مرتبه السابق ، فى التوسع فى ايجاد وظائف عليا للسودانيين فى مجال القضاء الشرعى ولكن دون جدوى ، لأن المسألة كانت قد خرجت من يد الحاكم العام نفسه ، على اعتبار أنها كانت خطوة مدروسة بعناية مع الحكومة البريطانية ، منذ وقت طويل ، وان وقت تنفيذها قد اختير له ذلك الظرف ، لكى يواكب التطورات الدستورية التى لم يكن قرارها أيضا ، فى الواقع بيد الحاكم العام ، كما كان يحاول الظهور بذلك ، بل ان الحكومة البريطانية هى التى كانت تخطط لمثل هذه المبادىء الكبرى ، ثم تعطى النور الأخضر للحكم العام فى اطار التنفيذ .

ولذلك فقد عاد النقراشى ، بعد كل الجهود المضنية .. من خطابات ومذكرات متبادلة ، بينة وبين الحكومة البريطانية من جهة ، وبينه وبين حكومة السودان من جهة أخرى .. عاد النقراشى فغالى يده خلواً من أى شيء ، وحتى فى البروتوكولات المتبادلة بين الحكومتين المصرية والبريطانية بشأن السودان والمفاوضات .. لم يحصل النقراشى على أية صيغة يمكن الاتفاق عليها للبدء فى المفاوضات ، مما جعله يقتنع بأن لا فائدة من اضاعة الوقت ، بالاستمرار فى طريق المفاوضات ... فقرر قطعها واللجوء الى مجلس الأمن .

قطع المفاوضات واللجوء الى مجلس الامن

ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد كان موقفه فى مجلس الأمن كالمستجير من الرمضاء بالنار .. ففى ٢٥ يناير ١٩٤٧ قرر مجلس وزراء مصر قطع المفاوضات والذهاب الى مجلس الأمن .. ونص القرار هو : (لقد ذهبت الحكومة المصرية فى سبيل الاتفاق مع الحكومة البريطانية الى أبعد حد ممكن ، ورغم ذلك لم نجد فى الاقتراحات والعروض التى تقدم بها الجانب البريطانى ما يرضى

حقوقنا الوطنية ، لذلك يقرر مجلس الوزراء عرض قضية البلاد على مجلس الأمن .

وقبل أن يذهب النقراشي الى مجلس الأمن ، كان قد أرسل مذكرة للحاكم العام بالسودان ، يخبره بأن المقترحات الخاصة بقانون المجلس التنفيذي والجمعية التشريعية ، قد أحيلت الى لجنة اختصاص لدراستها (وحال الفراغ منها سترسل لكم مع رأى الحكومة المصرية) بشأن تلك التوصيات . .

ولكن الحاكم العام لم ينتظر رد مصر ، وفى أثناء غيبة النقراشى فى مجلس الأمن ، تطورت الامور فى السودان بسرعة فائقة ، وخاصة بعد فشل شكوى مصر الى مجلس الأمن ، وعدم اتخاذ المجلس أى قرار فيها .. وكذلك بعد أن طالب النقراشي — فى مجلس الامن — بالغاء الادارة القائمة فى السودان ، وبطلان اتفاقية ١٨٩٩ التى تسند تلك الادارة ، لأنتهاء الظروف التى ابرمت فيها واستنفاد اعراضها .. فاخذ القناع المصطنع الذى طالما اختفى الحاكم وجه السودان الحقيقى ، ينحسر رويدا رويدا ، كلما تقدمت المكاتبات بشأن النظام الجديد لحكم السودان . .

فقد رأينا كيف تطور مسلك الحاكم العام من خلال مكاتباته للحكومة المصرية بشأن المجلس التنفـيذى والجمعية التشريعيـة .. فهو فى بادىء الأمر قد أبدى التزامه بضرورة الحصول على موافقة الحكومة المصرية ، قبل المضى فى تنفيذ المشروع ولكنه لم يلبث . فيما بعـد ، ان أخذ فى ابداء عبارات ، ثم عن التمحلك وعن التنصل من ذلك الالتزام ، ثم ما تكاد شكوى مصر لدى مجلس الامن تفشل ، حتى نرى الحاكم العام يزيح القناع نهائيا عن وجهه ، ويدخل فى مواجهة صريحة مع الحكومة المصرية .. اذ بعد يومين

فقط من توقف المناقشات فى مجلس الأمن ، ابرق نائب الحاكم العام الحكومة المصرية بأنه أصدر بيانا جاء فيه : (ان الحكومة السودانية مصممة على تنفيذ مشروعاتها باسرع فرصة ممكنة) وانه سيكفل المحافظة على الأمن العام والقانون والنظام) .. !!

ويقول النقراشي فى خطابه لوزير خارجية بريطانيا فى ١١ مارس ١٩٤٨ (ان السير روبرت هاو حاكم السودان مر بالقاهرة وسلمه خطابا مؤرخا فى ٥ يناير ١٩٤٨ ، واشار فيه الى التعديلات التى اقترحتها الحكومة المصرية لادخالها على الاصلاحات الدستورية للسودان ، ووعد بتضمين أغلبها فى المشروع النهائى الذى يجرى اعداده و (سيلاقى أغلب التعديلات المقترحة) (ولكن دهشتنا كانت عظيمة ، عندما تسلمنا المشروع بتاريخ ١٧ فبراير فوجدناه لا يشتمل على شيء من تلك التعديلات) .

والواقع أن الحاكم العام ومن ورائه الحكومة البريطانية ، لا يمكن أن يقبلوا التعديلات التى اقترحتها الحكومة المصرية ، على قانون الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى .. لسبب بسيط جدا وهو انها فى الحقيقة ليست تعديلا لمذكرة حكومة السودان فى هذا الشأن ، وانما هى الغاء لمحتوياتها واهدافها جميعا .

وانك حين تقراء مذكرة الحكومة المصرية بشـــأن ، تلك التعديلات ، تشعر وكأنها قد نحت مذكرة حكومة السودان جانبا ، ثم وضعت دستورا حقيقيا كاملا ، يمكن السودانيين من حكم انفسهم بأنفسهم ، بقيام جمعية تشريعية ذات صلاحيات كاملة فى التمتع بوضع التشريع واصدار القوانين ، واقرار الميزانية العامة . وبالجملة ان تكون برلمانا وخطوة حقيقية نحو الحكم الذاتى لابناء السودان .

ويقول النقراشي في الفقرة الثالثة من خطابه السابق لوزير خارجية بريطانيا بشأن التعديلات المشار اليها : (لذلك راعينا في التعديلات التي طلبنا ادخالها على النظام المقترح ، ان يكون من شأنها السير خطوات جدية في هذا الطريق . ولكن المشروع كما قدمنا لم يحقق ذلك ..

ويقول في الفقرة الرابعة : (طلبنا ان تفسح المجال لتمثيل السودانيين تمثيلا صحيحا في الجمعية التشريعية ، عن طريق انتخابات حرة بعيدة عن تأثير السلطات الادارية ، وألا يكون الموظفون اعضاء في هذه الجمعية مع بقائهم في وظائفهم .. ولكنا وجدنا المشروع لا يجعل الانتخابات مباشرة ، الا في عدد قليل من المدن ، وبالنسبة الى عشرة من الاعضاء . أما الباقون فعددهم لايقل عن الثمانين عضواً فطريقة اختيار هم هي التعيين، أو هي طريقة انتخاب أقرب ما تكون إلى التعيين ، وسمح المشروع للموظفين فيما عدا طبقة محددة — أن يجمعوا بين الوظيفة وعضوية الجمعية .

وفي الفقرة الخامسة من هذا الخطاب يشير إلى المطالبة بأن يكون للجمعية التشريعية رأي محترم في المشروعات التي تقدم ولاأقل في ذلك من أن يكون رفضها للتشريع ، سببا في تأجيله لدورة أخرى ، وأن يكون للجمعية رأي قطعي في اقرار الميزانية وفي تعديلها ، ولا ، اقل في هذا الصدد، من أن يكون لها حق اقرار الضرائب). (والا يكون رايها استشاريا محضا كما جاء في توصيات حكومة السودان . . كما أشار في الفقرة التاسعة، إلى ضرورة كفالة الحريات العامة بكل أنواعها ، وأن يكون مردها للقانون وليس للحاكم العام . . وبغير هذا لايمكن للسودانيين أن يمارسوا مسئولياتهم بحرية .

ويشير كذلك لضرورة تحديد مدة دورة إنعقاد الجمعية بقانون ،

وأن يكون حلها أيضا بقانون ، وألا يترك كل ذلك للحاكم العام كما يرى (وألا يكون له الحـق المطلق فى حل الجمعية ،فى أى وقت شاء) وعلى العموم فان المذكرة المصرية ، وافية جداً فى هذا الصدد، ويمكن الرجوع إليها فى مظانها المختلفة .

وكانت الحكومة البريطانية قد إقترحت تكوين لجنة من أربعة : ممثلين لها وممثلين لحكومة مصر ، لدراسة توصيات حكومة السودان ، واعطاء رأى بشأنها مع أن الحكومة البريطانية، قد سبق لها أن وافقت على تلك التوصيات ، وليس من المعقول أن يقدم الحاكم العام على تخطى الحكومة المصرية ، دون أن يكون للحكومة البريطانية ، على الاقل ، علم بذلك .

ومن جهة أخرى فقد اقترحت الحكومة المصرية فى الفقرة العاشرة من هذه المذكرة ، أمراً هاما جداً ، وهو أن يكون النظام الجديد كله ، نظاما انتقاليا للسودانيين ، مدته لاتزيد عن الثلاثة سنوات ، يتدربون خلالها بممارسة مسئولياتهم والاضطلاع بشئون الحكم . . الخ ، كما اقترحت أن (يقوم رقيباً على السودانيين فى فترة الانتقال هذه . (رأى عام سودانى يتمثل فى صفوة مـن السودانيين ، ينتخبون انتخابا حراً ، بعيداً عن أى تأثير) . وبعد فترة الانتقال يتسلمون جميع المناصب فى بلادهم . . الخ وتقول أيضا (وجدت المشروع لايحقق شيئا من ذلك ، بل هو فى جملته وتفصيلاته يرمى إلى بسط سلطان الحاكم العام على جميع الشئون ، والتوسع فى ذلك السلطان بما يتجاوز ، حتى ما جاء فى اتفاقيـة ١٨٩٩ ، وإحاطته بمظاهر صورية ، من هيئات ليس لها من الأمر شيء ، ولاتملك البت فى شأن من الشئون .

من كل الاعتبارات السالفة ، فقد رأينا الحكومة المصرية تعتذر

عن تكوين اللجنة الرباعية ، التى اقترحتها الحكومة البريطانية لتنظر فى توصيات حكومة السودان .

وقالت فى الفقرة (١٤) من مذكرتها (لن يكون هذا الاجتماع مفيداً — كما سبق أن بينا فى رسالتنا بتاريخ أول مارس — إلا إذا اعتمدت الحكومة البريطانية المبادىء التى أوضحتها الحكـومة المصرية) .

والواقع أنه ليس هناك أساس صالح لاجتماع اللجنة الرباعية المقترحة لإن الحكومة البريطانية وافقت عليها سلفاً ولأن الحكومة المصرية قد أبدت رأيها النهائى بحيثيات مطولة ، ولو كان المقصود من تكوين اللجنة الرباعية هو النظر فى التعديلات التى اقترحتها مصر ، لشكل ذلك أساسا للنقاش بالفعل .

والجدير بالذكر أن الحكومة المصرية أشارت مراراً إلى أن اشتراكها فى مناقشة توصيات حكومة السودان بشأن الحكم الذاتى ، لايعنى أنها عدلت من رائها الذى اعلنته امام مجلس الامن ، ببطلان النظام الذى كان قائما فى السودان ، وضرورة إزالته مرة واحدة .

وفيما يتعلق باللجنة الرباعية ، فيخيل إلى أن الحكومة البريطانية لم تقصد بها أن تنظر فى مشروع حكومة السودان ، بقدر ما كانت ترمى إلى شىء آخر كانت تخفيه على السودانيين ، وتريد أن تكاشف به المصريين فى اجتماع مغلق ، إذا استطاعت اقناع المصريين بعدم افشاء السر . . . ذلك هو انها حينما وافقت على مشروع حكومـة السودان بالمجلس التنفيذى والجمعية التشريعية ، كانت تعرف جيداً انه ليس فيه اصلاح دستورى ولاجهاز دستورى واحد ، لسبب بسيط جداً ، وهو انعدام الصلاحيات التى تمكن تلك الاجهزة من اتخاذ

أى رأى أو أى موقف مستقل عن رأى الحكومة ، او تبت فى أى مر بمعزل عن الحكومة ولا حتى أن تنظر – مجرد النظر – فى أمر لا تريده الحكومة ، فهى أجهزة أريد بها الاستهلاك المحلى فقط ، دون المساس بالوضع الدستورى للسودان ، كما أن النظام المقترح كله فى يد الحاكم جملة وتفصيلا ، ولـه الكلمة الأولى والأخيرة فيه ، يلغى أى قرار منه ، أو يلغيه كله متى شاء ، إذ ليس له أية مقومـات أو ضمانات دستورية . . وسلطاته كلها بالتفويض من الحاكم العـام وليس من القانون . . هذا ما كان يضمره البريطانيون ، ولكـن موقف المصريين من اللجنة الرباعية ، ومبالغتهم فى مساندة حقوق السودانيين والمطالبة بأخذ تلك الاصلاحات مأخذ الجد . . كل ذلك ، قد أقنع البريطانيين بأن لافائدة من السعى للافضاء للمصريين بالحقيقة . . وانى على يقين من أن مصر ، لو أقدمت آنذاك على رفع شكوى دولية ضد الحاكم العام ، بأنه تخطى حدوده باستحداث تلك الاوضاع ، لدافع الحاكم عن نفسه بأنها أوضاع صورية ، ولا تمس أى شىء جوهرى ، فى وضع السودان الدستورى ، كما جاء فى معاهدة ١٨٩٩ ، التى منحت الحاكم العام سلطات واسعة ، تمكنه من استحداث مثل تلك الاوضاع أو غيرها ، مما يرى فيه مساعدة له على إدارة السودان بكفاءة ، دون أن يخرج عن حدوده المرسومة ، وذلك بسبب بسيط وهو أن تلك الاجهزة تعمل كلها بتفويض من الحاكم العام . وهو يستطيع أن يسحب تفويضه بمحض ارادته . .

وما من شك فى أن القضاء الدولى ، لو نظر يوم ذاك فـى مشروع الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى ، لوجدهما كلاهـا أوعية فارغة ، ليس فيها معنى دستورى واحد ، لأن الدستور فى حياة الامم هو عبارة عن تقنيين لحياة الأمة ، فى أصول قانونية ،

تحكم ممارساتها ، وتكفل لها الحرية ، بكل أنواعها ، فى تلك الممارسات ، وتكون تلك الأصول هى المرجع الذى يخضع له كل شيء فى الدولة ، وخاصة العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فلا تكون كما هى فى نظام الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذى ، فى يد الحاكم العام وحده أولا وأخيراً . . وانما يكون مردها جميعا إلى الدستور الذى يجعل البرلمان هو المهيمن على كل تشريع فى الدولة ، فى استقلال كامل عن أية سلطة . . أى أن الجمعية التشريعية المعنية إذا كانت دستورية حقاً ، لكانت هى مصدر السلطات جميعاً : التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية وهى التى تفصل فصلا تاما بين تلك السلطات . وليس لهذا كله أى وجود فى المشروع المختلف عليه .

والآن ، فأنى أتساءل ، هل كل المقصود بذلك النشاط من قبل حكومة السودان ، هو فقط إضعاف علاقة مصر بالسودان ، وفقاً للسياسة التقليدية التى درجت عليها تلك الحكومة منذ أن وطئت أقدامها أرض السودان ، أم أن هناك عدوا آخر ، هذه المرة ، أشد خطورة على سلطانها من الحكومة المصرية نفسها ؟ ؟

المؤتمر اخطر من مصر

ان المعايشين لتلك الفترة ، ليعرفون أن مؤتمر الخريجين العام هو (البعبع) الذى كان يؤرق حكومة السودان ، ويدفعها للقيام بكل تلك المحاولات . . فقد أصبح الصراع بينهما مريراً ، أخذ شكل السباق على الزمن .

فمؤتمر الخريجين قد وصل فعلا إلى ماكانت تخشاه حكومة السودان وتجزع منه ، وهو أنه قد أصبح الممثل لأغلبية الشعب السودانى والناطق باسمه والمعبر عن أمانيه الوطنية . . وقد أشرت إلى ذلك من قبل ، وإلى أن الحكومة تريد قطع الطريق أمام المؤتمر

ويوم أرسل المؤتمر (وفد السودان) الى مصر والى المحافل الدولية ليفصح عن مطالب الشعب السودانى ورغبته فى الحرية والديمقراطية ، كان ذلك أقوى دافع لحكومة السودان للأسراع بأقامة هياكلها الخاوية التى أسمتها بالدستورية ، وما هى من الدستور فى شيء ، وأدعت أنها الممثل الرسمى للسودان ، وهى فى الحقيقة الممثل لحكومة السودان وحدها .

القضية فى مجلس الأمن

والآن لنذهب الى النقراشى باشا فى مجلس الأمن ، لتسجيل بعض الانطباعات الهامة ، وأولها أن قضية وادي النيل قد خرجت لأول مرة من المحور الضيق ، الذي ظلت تدور فيه منذ تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذى ألقت به انجلترا الحماية على مصر ، وأعلنت استقلالها بتحفظاته الاربعة التى جعلت منه استقلالا مبتورا صوريا ، الاسم فيه لمصر والفعل لبريطانيا (كما يقول المثل البلدى) وظل سعى مصر لا ينقطع لاستكمال استقلالها الناقص .. وظلت المفاوضات من أجل هذا ، تدور بين الدولتين فى حلقة مفرغة ، لا تكاد تبتدىء حتى تنتهى بالفشل ، وكانت مسألة السودان فى أغلب الأحيان هى الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات ، كما كان يقال ، وجاءت مفاوضات ١٩٣٦ بتحقيق بعض جوانب الاستقلال لمصر ، ولكنها أبقت مسائل هامة معلقة فيها قيود على استقلال مصر ، منها وجود القوات البريطانية فى منطقة القنال ، ومنها اعطاء بريطانيا الحق فى استعمال موانىء مصر ومطاراتها ، وضمان خطوط التموين ، أثناء الحرب .. وفعلا استفادت بريطانيا وحلفاؤها بأوسع نطاق من تلك الالتزامات المصرية ، طول فترة الحرب .. كما أن السودان بقى نظام الحكم فيه ، كما هو فى معاهدة ١٨٩٩ ، ما عدا بعض القوات المصرية التى أرسلت اليه ، ووضعت

وما كادت الحرب تضع أوزارها ، حتى بدا المصريون محاولاتهم لأنهاء الأمور المعلقة بينهم وبين بريطانيا لاستكمال استقلال بلادهم ، مستندين فى هذه المرة على ميثاق الأمم المتحدة ، الذى يحرم وجود قوات أجنبية فى أرض دولة أخرى بدون رضاها .

فأجرى صدقى باشا رئيس حكومة مصر ، مفاوضات مطولة فى مصر ثم فى لندن .. وخرج منها بمعاهـــدته المعروفة باتفاقية (صدقى — بيفن) التى ألغاها رئيس الحكومة البريطانية ، بعد أن أمضيت بالأحرف الأولى من صدقى وبيفن ، كما ذكرت سابقا . وجاء بعد صدقى النقراشى ، الذى سارع هو أيضا الى المفاوضات لأنهاء الموقف المعلق ، وإيقاف التحركات المشبوهة التى كانت تقوم بها حكومة السودان يومذاك .

القضية فى مجلس الامن

وعندما باءت كل محاولاته بالفشل — كما أشرت سابقا — توكل على الله وذهب الى مجلس الأمن ، بإعتباره منصة العدل الدولية الكبرى ، التى أقامتها الأمم المتحدة بعد الحرب ، والتى بهرت دول العالم بمبادئها العظيمة ، التى أعلنها ميثاق الأمم المتحدة ، عن الحرية والديمقراطية ، وتحريم وجود قوات لأية دولة فى أراضي دولة أخرى الا برضائها .. الخ . لقد بهرت تلك المبادىء الدول المستضعفة بنوع خاص ، كما بهرتهم من قبل عصبة الأمم ، التى تمخضت عنها الحرب العالمية الاولى ، وتمخضت هى عن الحرب العالمية الأخيرة .

وبهذا الانبهار ، ذهب النقراشى باشا بقضية وادى النيل الى مجلس الأمن ، يحمل قلبا مفتوحا وذهنا مفتوحا ، وقام بعرض

شكواه بكل أمانة ، تحدوه الآمال العريضة التى أثارتها مبادىء الأمم المتحدة .

وبالرغم من أن كثيرا من المصريين أنفسهم والسودانيين ، كانوا يشكون فى قدرة مجلس الأمن على استعمال صلاحياته بحرية كاملة ، فى ذلك العهد الباكر من ميلاده .. اذ كان واقعا تحت سيطرة الدول الاستعمارية الى حد بعيد ، الا أنهم جميعا قد أيدوا الخروج بالقضية من فلكها الضيق الى المحافل الدولية .

ولاشك فى أن موقف النقراشى كان قويا ، وعرضه للقضية كان واضحا ، وصريحا ووافياً ، لم يترك فيه حجة ولامنطقاً ، الا أورده سواء من الناحية التاريخية أو العلمية او القانونية أو السياسية . بمجهود ضخم ، اجتذب الانظار والافكار ، بتساوقه المنطقى المدروس ولهجته الاصيلة المليئة بالصدق والثقة فى عدالة شكواه .

ولكن بريطانيا كان لها دور آخر ، أجرته من وراء (الكواليس) وأوعزت لبعض الدول التى كانت تدور فى فلكها آنذاك كالبرازيل واستراليا .. ليقوموا ببعض الاقتراحات أو بعض مشاريع قرارات لمجلس الامن ، ترمى كلها الى التشويش على موقف مصر وحقها الصريح الابلج ، الذى ابرزته الشكوى بصورة ما كان لمجلس الامن ، الا أن يستجيب لهـا لوأنه كان معافى ، يملك الحـرية فى ممارسة صلاحياته العظيمة . . ولكن ما أشـبه موقفه بالقولة المشهورة : (فى فمى ماء ، وهل ينطق من فى فيه ماء) .

علقت القضية ولم يتخذ فيها أى قرار

وهكذا توقفت المناقشات فى مجلس الامن ، دون اتخاذ أى قرار ، وبقيت القضية معلقة ، وانتصر باطل الحكومة البريطانية المستند على القوة والنفوذ العريض ، على حق مصر المستند على المنطق والقانون والواقع .

ومن جهة أخرى فان الحكومة ، البريطانية ، قد كانت حريصة جداً لكى تتلقى مصر الصدمة القاسية من مجلس الامن ، حتى لاتعود إليه مرة أخرى ، فترجع القضية إلى محورها القديم بين الخصمين غير المتكافئين .

وبالفعل لم تعد مصر إلى مجلس الامن ، وظلت معاهدة ١٩٣٦ قائمة حتى جاء النحاس باشا إلى الحكم ١٩٥١ ، وهو الذى أبرم هذه المعاهدة ، من قبل واسماها معاهدة ، الشرف والفخار .

فتقدم النحاس إلى الحكومة البريطانية لانهاء الامور المعلقة فى هذه المعاهدة ، وتخليص بلاده من أى قيد على حريتها واستقلالها . . ولكنه عجز بالرغم من صداقته لبريطانيا . . فدفعه اليأس إلى عمل تاريخى كبير ، وهو إلغاء معاهدة ٣٦ ومعاهدة ١٨٩٩ ، وعدم الاعتراف بأى قيد أو شائبة على حرية مصر الكاملة ، واعتبار وجود القوات البريطانية ، فى منطقة القنال غير شرعى .

كما أعلن فاروقاً ملكاًعلى مصر والسودان ، منهيا بذلك الوضع الدستورى الذى كان قائما بالسودان . . الخ وسوف أتعرض لذلك كله بالتفصيل فى الجزء الثانى من هذه المذكرات .

وبالرغم مما حصل ، فان خروج القضية إلى المحافل الدولية قد كان ، فى حد ذاته ، حدثا تاريخيا له نتائجه الطيبة على المستقبل ، ولاشك فى أن العرض الذى قدمته الحكومة المصرية ، بتفاصيله الدقيقة الوافية ، قد نور دول العالم ، وكشف لها الغطاء عن الكثير من الحقائق والاسرار التي كانت تحجبها عنهم الأساليب السياسة الاستعمارية .

فضح السياسة البريطانية فى السودان على مستوى مجلس الامن بكسب كبير

ولاشك فى أن الحكومة البريطانية ، قد أصابها الكثير من الحرج

وهى تستمع إلى حجج النقراشى الدامغة لها بعدم الامانة ، والفاضحة لنواياها السيئة وممارستها المخلة بالمواثيق والعهود ، وخاصة فى السودان ، ما عرض بكرامتها كدولة كبرى ، وإدانتها بعدم الشرف فى معاملاتها الدولية .

كسب السودان توحيد القضية وعدم فشلها كما كان يحدث في الماضى

أما السودان ، فقد كسب هو الآخر ، من الخروج بالقضية إلى مجلس الامن اعتبارات هامه اولها انها انهت ما كان يشكو منه السودانيون، مما كانت تقع فيه الحكومة المصرية ، فى مختلف المفاوضات من المساومات على حساب قضية السودان .. فتحاول الحصول على أكبر قدر من المطالب لمصر ، وترك النظام القائم فى السودان على حاله كما جاء فى اتفاقية ١٨٩٩ .. حدث هذا فى اتفاقية ١٩٣٦ ، وكذلك فى اتفاقية (صدقى — بيفن) .

وكنتيجة لذلك ، كسب السودان توحيد قضية وادى النيل ، ووضعها أمام العالم موحدة ، لا تسمح لبريطانيا بالانفراد بالسودان أو تكييف مستقبله وفقا للمطامع الاستعمارية .

وقد كان ذلك متفقا الى حد بعيد مع الاتجاه العام للاغلبية فى السودان ، كما جاء فى قرار مؤتمر الخريجين العام : (حكومة ديمقراطية حرة فى اتحاد مع مصر ..) وكما أجمع عليه العاملون والشباب فى وثيقة الدماء التى أشرت اليها سابقا .

والمكسب الثالث هو مطالبة النقراشى بالغاء النظام القائم فى السودان واعتباره باطلا ، لبطلان المعاهدة التى أوجدته وهى اتفاقية ١٨٩٩ ، التى انتهت ظروفها واستنفذت كل أغراضها .. كما دمغ تلك الادارة بعدم الامانة وعدم الصلاحية لحكم السودان ... الخ .

وانى لاذكر فى هذا المقام، ما كان يدور من مناقشات فى

الاوساط السودانية، عندما قرر النقراشي الدخول في المفاوضات مع الحكومة البريطانية ١٩٤٧، وكانت كلها مخاوف ، من انصاف الحلول أو تجزئة القضية ، بحيث ترجأ مسألة السودان .. ، كما كان هنالك همس عن الحكم الثنائي في السودان ، وانه ربما عرض على المصريين اتفاقية تحقق المساواة بينهم وبين الانجليز في ذلك الحكم .. مما دفعنا الى الكتابة في الصحف محذرين الحكومة من مغبة مثل ذلك الاتفاق .

وقد عثرت على مسودة كلمة كتبتها لجريدة الأهرام آنذاك في هذا الصدد، اقتطف منها هذه الفقرة: (وارانا مضطرين الى تحذير المسئولين من عودة هذه الشركة البغيضة (شركة الذئب والحمل) ومن عودة ١٩٢٤ أخرى .

ومن يدرى فلعل الانجليز أرادوا أن يكون الخصوم في هذه المرة غير الخصوم في المرة الماضية . . . .

وكذلك الفقرة التالية : (وأود في هذا المقام أن ألفت نظر المسئولين بكل صراحة إلى الشيء الذى يخشاه السودانيون جميعا ، وهو استمرار الحكم الثنائي القائم في البلاد . .)

كما اقتطف منها : (فقد أصبح مفهوما لدى الجميع أن الهدف الذى التقت عنده مشيئة أهل وادى النيل جميعا ، والذى يتعين على المفاوض المصرى الاستناد إليه ، انما هو (الجلاء ووحدة وادى النيل) . وقد قيل في تلك الايام ، إن النقراشي باشا عند ما علم بأن أحزاب السودان قد اجتمعت على وثيقة واحدة مفادها (الاتحاد مع مصر) ، بادر بالاتصال بحكومة السودان محذراً إياها من التدخل لتغيير ذلك الاجماع . . مما اعتبر في ذلك الوقت مكرمة وطنية للنقراشي .

لذلك ، أرى أن النقراشي فى شكواه لمجلس الامن ، كان أمينا ومتجاوبا مع السودانيين تجاوبا تاما ، كما تدل عليه هذه الفقرة :
(لذلك ترفع الحكومة المصرية النزاع بينها وبين المملكةالمتحدة إلى مجلس الامن تطبيقاً للمادتين ٣٥ ، ٣٧ من الميثاق . . . طالبتهب

(١) جـلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جـلاء تماما ناجزا .

(٢) انهاء النظام الادارى الحالى فى السودان

وكذلك ماجاء فى خطابه الرسمى أمام مجلس الأمن ، من أقوال تؤيد ما ذهبت اليه ، منها قوله : (ولا يسعنى امام هذا الخطر ، الا أن اردد عزم الحكومة المصرية على العمل ابدا لحماية السودان من تقطيع أوصاله ، ولتمكين اخواننا السودانيين من ادارة شئونهم ، فى نطاق الوحدة تحت تاج مصر) .

وقوله : (انى لأعود فاؤكد ما قلته اننا لن نقبل آى مساومة على مستقبل الشعب السودانى) وقوله : (فما كان لنا أن نساوم ، مع الدخيل ، فى هذا المضمار ، ولو كان من شأن تلك المساومة الظفر ببعض امانينا الوطنية ، فلن نهدر على السودانيين مستقبلهم ، ولن ندع المسألة رهنا بأهواء السياسة الاستعمارية) .

وقوله أيضا : (ليس لحكومة المملكة المتحدة دخل فى الموضوع ولن نبحثه معها ، وانى لعلى يقين من أن السودانيين متى أصبحوا احرارا فى الاعراب من آرائهم ، فانهم والمصريين خليقون بالوصول الى حل يرضاه الطرفان ، ويكون متفقا مع مبادىء الميثاق والديمقراطية) .

مشكلة شخصية تنقلب الى فتنة عنصرية

من المشاكل التي واجهت الطلبة السودانين بمصر والتي أرى انه من المفيد ان أمر بها ضمن احداث هذه المذكرات ، هي اثارة العنصرية ، فقد كانت هنالك محاولة خبيثة ، لاثارة النزعة العنصرية الزنجية بين الطلبة السودانيين ، ممن ينتمون الى اصل جنوبى ، وتحريضهم على التكتل ضد اخوتهم الآخرين ، وقد جرى الاعداد لهذه الفتنة الخطيرة سرا وجمع لها افراد من اولئك الطلبة الاغرار الصغار ، الذين جاز عليهم الافتراء بان الطلبة (الجلابة) كما كانوا يقولون ، يعملون لابعادهم من المدارس المصرية ، وقفل الباب امام كل من هو من أصل جنوبى من السودانيين . ولم يفت المدبرين للفتنة ، ان يسلحوا من جندوهم ، بالعصى وغيرها من وسائل الاشتباك ، ويدفعوا بهم الى الشوارع والمقاهى التى يرتادها الطلبة السودانيون ، لكى يتحرشوا بأى طالب (جلابى) ويضربوه كلما التقوا به .. وهكذا فوجئنا بهذه الحركة الآثمة وما كانت تعكسه على المجتمع من مظاهر الطيش والصعلكة ، التى تهدم كل ما كنا نحاول أن نبنيه لبلادنا من سمعة طيبة .

لحسن الحظ ان هذه الحركة السخيفة التى كانت تؤذى مشاعرنا الوطنية ، لم تدم طويلا ، فقد ادرك مدبروها أنها لم تحقق لهم شيئا .. فاختفى مظهر الاشتباكات المشينة ، ولكنهم انطووا على فكرة أخرى اشد اثما من سابقتها .. الا وهى الدعوة العنصرية الصريحة .. وظلوا يعملون لها سرا مدة طويلة حتى اكتمل لهم عدد معقول فى نظرهم ، من النوعية التى أوقعوها تحت حبائلهم .. ولعلهم قد وجدوا من دعاة الكتلة السوداء التى قامت فى السودان فى أوائل الاربعينات ،

معيناً لهم وقـد أطلقوا عـلى أنفسهم (النسور السود) (Black Eagles) مجارآة لزنوج أمريكا الذين تجمعوا تحت هذا الاسم .. وكان بعضهم يفتخر بأنه فلان الاسـود ، مثلا (والى الاسـود) (Waly the Black)

والواقع أن محيط الطلبة السودانيين بمصر كان بريئاً كل البراءة من تلك النزعة الخبيثة ، لأنهم يؤمنون بوحدة السودان ، ويعملون بكل ما أوتوا من طاقة لكشـف السياسة الانجليزية التى كانت ترمى لفصل الجنوب عن الشمال ، وكتبوا فى ذلك المذكرات الشديدة لازالة الحواجز بين جـزئى الوطن الواحد والغاء قانون المناطق المقفلة .. فلا يعقل أن نكون مثل أولئك الطلبة ، المتناقضين مع أنفسهم الى الدرجـة التى يحاربون فيها من ينتمون أصـلا لذلك الجزء المبعد من الوطن ، والذى هم فيه فى شوق الى ضمه وتوحيده .. كما أنى لا أكاد أذكر عبر كل السنين ، التى كانت مسرحاً لاحداث هذه المذكرات ، حادثاً واحداً اتخذه دليـلا على صدق دعاة تلك الفتنة اللئيمة . بل على العكس ، بالرغم من تقادم السنين فان الذاكرة لتعى بعض الأمثلة الطيبة التى تدحض ذلك الافتراء المحض ، لاهل تلك الفتنة .. لقد عاشت بيننا نوعية من الطلبة التى كان يقصدها دعاة الفتنة .. أعزاء أكرمين ولم يشعروا فى يوم من الايام بأية تفرقة ، سواء فى المعاملة أو فى الخدمات التى كان يقدمها قادة الطلبة لمواطنيهم .. ولازلنا والحمد لله تربطنا بأولئك الزمـلاء أقوى صلاة الود والتقدير وقد تبوأ الكثير منهم مراكز اجتماعية مرموقة .. ولكى أوضح أن تلك الوقيعة لم يكن لها أى أساس تستند اليه من واقـع الطلبة السودانيين فى مصر ، أذكر أن أحد الزملاء ممن ينتمون انتماءاً ضعيفاً لاصل جنوبى ، غفر الله له ما تقدم من الذنب وما تأخر ، هـذا الزميـل ، كان قـد اتخـذ من



.(بيت السودان بالمنيرة) – القاهرة – عام ١٩٥١ احتفالا بزيارة الدكتور فضل بابكر أخصائى الأنف والأذن والحنجرة بمناسبة قدومه من الجامعات الفرنسية .

المنزل الذى كنت اقيم فيه مع الاخ قيلى احمد عمر ، مجالا لقضاء امسياته المترنحة بالانس المخمور كل ليلة بلا انقطاع ولما كنا طلبة ودعاة قضية وطنية ووقتنا اثمن من ان نهدره بهذا الشكل ، ولما كنا ايضا غيورين على سمعة السودان الى درجة التزمت ، فوجدنا ان ذلك العبث الصاخب فى منزلنا كل مساء ، يؤذى سمعتنا كطلبة سودانيين . ولذلك فقد قررنا ان نتغيب من المنزل ، حتى نوقف ذلك العبث الذى يضر بوقتنا وسمعتنا .. وتردد الاخ الكريم (اياه) على المنزل مرات فوجده مغلقا .. فثار علينا ثورة جامحة .. ولسوء حظنا كان شاعرا جيد العبارة .. فنظم فى هجائنا قصيدة عصماء ارجو ان تمكننى الظروف من العثور عليها أو على أبيات منها لاثبتها فى هذه المذكرات قبل طبعها ..

ولم يكتف الاخ الكريم بالقصيدة ، بل نشر اشاعة بين الطلبة يهددنى فيها شخصيا بالقتل ، اذا هو لقينى .. فقلت لمن ابلغنى ذلك التهديد : انى ذاهب للقناطر الخيرية لقضاء يوم الجمعة القادم .. وهى فرصة طيبة لمن يريد ان يقتلنى .. وذهبت فعلا الى القناطر يوم الجمعة وبقيت الى آخر اليوم .. ولم يصادفنى الاخ الكريم .. ولسؤ الحظ كان ذلك الاخ على سعة مالية لا بأس بها .. اذ كان يُصله من والدته من النقود ما يمكنه من اتخاذ شلة تقضى معه اوقات الشرب فى الامسيات . وبذلك امكنه ان يجمع من حوله بطانة ، اتخذ منها أعوانا لتنفيذ خطته الانتقامية التى تطورت فى النهاية وأخذت تلك الصورة البغيضة من الفتنة العنصرية ، التى تمثلت فى تكوين جماعة (النسور السود) وعهد أو ميثاق الدم (Blood Oath) التى انتهت والحمد لله الى التلاشى بفعل المخلصين الذين ينتمون الى أصل جنوبى .

كبش الفداء

كانت القضايا العامة ومشاكلها قد أخذت تتراكم أمامنا كلما توغلنا في مسيرتنا بمصر .. وألفيت نفسي ، مستغرقا فيها تماما .. كل وقتي وكل جهدي وفكري .. وكان هذا حال بعض الزملاء ايضا ..

فقد كان التعاون بيننا وبين مؤتمر الخريجين ، الذي بدأ على نحو ما ذكرته سابقا ، قد أخذ يتسع وأخذت الرسائل ترد إلينا من قادته ، تكلفنا ببعض المهام وبعض الأعمال المتصلة بالموضوعات التي أشرت اليها سابقا ..

وفي مجال المدارس والمعاهد ، أخذت أفواج القادمين من الطلبة تتزايد كل عام ، عقب معاهدة ١٩٣٦ ، وبعد أن أصبح قبول أبناء السودان بالمدارس والمعاهد الحكومية أمرا ميسورا .

وكان على بعض الطلبة الذين وضعتهم الاقدار في قيادة الحركة التعليمية بمصر ، أن ينهضوا دائما بمهمة التخطيط والتدبير لمواجهة الموسم الدراسي مع بداية كل عام ، كما كان عليهم أن يواجهوا مشاكل اخوتهم الطلبة ، سواء في القاهرة أو في الأقاليم .. وكان هناك بعض المواطنين الذين سبقونا الى مصر ، يمدون لنا يد العون ، كعلي البرير صاحب اليد الطولى في هذا الميدان ، ومحمد حسن خليل الذي لقب بأبي الطلبة ، وبشير عبد الرحمن وبشير محمد خير ، وتوفيق البكري .. ولكن كل هؤلاء على أهميتهم كانوا في الحقيقة عوانا للطلبة على حل مشاكلهم ، بحكم خبرتهم ومراكزهم

الاجتماعية ، أما مهمة التفكير فى تلك المشاكل والتخطيط لها ، لقد كانت تقوم بها رابطة الطلبة ، منذ ان وصل أعضاؤها القاهرة ، وحتى بعد أن قامت لجنة المؤتمر الفرعية ولجنة التعليم بالقاهرة ، وذلك لعدم من يتفرغ لتلك الشئون التى تحتاج قبل كل شيء للدوافع الوطنية مع ادراك عميق لأبعادها الحقيقية ..

الرابطة كانت وكالة عن الشـعب السـوداني

ولقد شاءت الأقدار القاسية أن تضعنى فى مقدمة المسئولين عن رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة ، فكانت معظم الخطابات والرسائل الآتية للرابطة من المؤتمر ومن المهتمين بأمورها ، ترد بأسمى ، وكذلك مكاتبات القاهرة ، كما أن بعض كبار المواطنين السودانيين بالقاهرة أصبحوا يعتمدون على الرابطة فى الحاق الطلبة السودانيين بالمدارس .

وبين أوراقى القديمة مثلا ، خطاب من السيد مصطفى أبو العلا ، يطلب فيه الحاق السيد عز الدين محمد المهدى الخليفة ، باحدى المدارس المصرية كرغبة الامام السيد عبد الرحمن المهدى .. وفعلا وجد السيد عز الدين طريقه ميسرا فألتحق بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وبعد اكمالها التحق بكلية الطب بالقصر العينى وتخرج فيها طبيبا ممتازا .. وأقبل على مهمته الانسانية دون كلال أو ملل منذ تخرجه وحتى الآن ..

لهذا كله قد وجدت نفسى — وأنا طالب في الثانوى — بين خيارين لا ثالث لهما : أما أن أترك كل تلك القضايا الوطنية وأنفض يدى منها مرة واحدة ، وأقبل على النجاح فى المدارس ثم الجامعة لأحرز الشهادات والدرجات الجامعية كغيرى من الزملاء ، وهو أمر غاية فى السهولة بالنسبة لى .. وأما أن أقبل على النهوض بأعباء تلك القضايا ، وأتحمل وحدى تبعة التضحية ، مهما كانت النتائج ،

ولو كان التعثر فى الدراسة والمجازفة بمكانتى الأدبية، وإعطاء الفرصة لاؤلئك الذين لاهم لهم الا تسقط أخطاء العاملين ، للتشنيع والتنديد بهم . . . وكان الخيار الاول بالطبع هو منطق الاكثرين ، الذين لايرون فى من هاجروا لمصر من الطلبة ، غير أنهم طلبة فقط ولاشأن لهم بأى شيء آخر . . وهؤلاء اما مغرضون لايوافقون أساسا على هجرة الطلبة لمصر ، وأما خليون لايدركون حقيقة تلك الظروف القاسية التى دفعت بنا ، ونحن فى سن اليفاع إلى الهجرة ، واحتمال الغربة وشظف العيش . . وما أشبه حالنا معهم بقول العرب ,, ويل للشجى من الخلى ،، . .

فنحن لم نهاجر لمصر مبعوثين من قبل الحكومة ، ولاحتى من قبل أسرنا أو من قبل أية جهة من الجهات ، بل اننا على العكس ، قد خسرنا كل جهة من الجهات . . نحن ثوار متمردون على الاوضاع الاستعمارية فى السودان ، وخاصة تلك التى كانت سايدة فى كلية غردون التذكارية ، باعتبارها صورة مصغرة لما كان يجرى فى السودان كله ، ونحن ثائرون أيضا على نوعية التعليم وقصورهـا وقعودها بنا عن ادراك المناهل العليا للعلم والثقافة . . ونحن متمردون على ما كانت تسومنا اياه إدارة كلية غردون من القهر والاضطهاد ، خلال الاوامر اليومية المتعسفة ، للقيام بأعمال قهرية ، كالكنس والنظافة وملىء جرادل الحريق المنتشرة فى كل مكان من مبانى الكلية ، وكان زبانية تلك الادارة ، لايكفون عن ملاحقتنا ملاحقة لئيمة ، يحملنا على أداء تلك الاعمال المنفرة . . وكانوا كلما أرادوا انزال العقاب بواحد غير من المرغوب فيهم ، لايجدون ما يتزرعون به غير قولهم (أنت لم تملأ جردلك) ، يقصدون جردل الحريقة . . وهكذا كانت حياتنا جحيماً كأننا فى سجن رهيب طالما سألنا الله أن يهبنا القدرة على تحطيمه .

اضطهاد وتعسف في كليـة غوردون

كلية غوردون كانت حقل تجــارب استعمارية

لقد أراد الانجليز بعد ثورة ٢٤ ، أن يجعلوا من كلية غردون حقلا لتجربة سياسية خطيرة ، تهدف إلى تنشئة أجيال الشباب ، على الخضوع والامتثال لهم . .

ومن الامثلة التى لازلت أذكرها ، أننى فى صبيحة أحد أيام الجمعة خرجت مع بعض الزملاء لنتمشي فى أحد ميادين الكليــة الواسعة، وجلسنا فى ركن بعيد نتذاكر جانبا من تاريخ بلادنا ، وما حواه من أمجاد وبطولات . . فما نشعر إلا وأحد الأنجليز يقف على مقربة منا ويصيح بصوت غاضب (لم لا تقفون لتحيتى ؟) و كان قد مر أمامنا ولم نحس به . . فقال أحدنا اننا لا نعرف شخصيتك لأننا حديثى عهد بالكلية . . وقد كان من موظفى معمل الجيلوجيا الملحق بالكلية ، وأنا شخصيا ما كنت أعرفه ولاأعرف أنه من واجبنا الوقوف لأى انجليزى . ولم يقتنع الخواجة . . وفى اليوم التــالى أرسل لنا المستر هبرت المشرف على داخليتنا لمقابلته عاجلا . . فأدركنا أن الخواجه اشتكانا . . وقابلنا المستر هبرت ولحسن الحظ كان معقولا فتفهم موقفنا .. ولولا ذلك لانزل بنا العقاب . . ولكن المســتر هبرت عاد وطلب منا الاعتذار للموظف الانجليزى . فذهب أحدنا واعتذر له بأننا لم نكن نعرف شخصيته ، وليس فى الامر أى قصد . واننا كنا فى يوم عطلة وفى جلسة عفوية للراحة والترويح عن أنفسنا وبعد لأى وجهد اقتنع موظف المعمل وانتهت المشكلة .

ارهاب وملاحقة

والقصة الثانية التى أذكرها كدليل على سوء الاحوال التى كانت سائدة فى الكلية ــ كلية غردون ــ آنذاك ، هى أننا بعد عودتنا من الاضراب المشهور ، وجدنا لجواسيس الادارة نشاطا ملحوظا . .

وكانت تقاريرهم السرية تستهدف أسماء معينة من الطلبة ، وقد كنت واحداً منهم . . ويبدو أن الخطة كانت ترمى إلى تكريهنا فى الكلية حتى ننفر منها ونتركها . . وذلك بالتحرش بنا ، بسبب وبلا سبب ، لانزال العقاب بنا . . . وأقرب حيلة عندهم ، كما قلت ، هى عدم ملىء جردل الحريقة ، المفروض ملؤه بواسطة الطالب المعين . . وذات مرة ذهبت لمقابلة المستر وارد ثوبرت نائب عميد الكلية بناء على طلبه . . وما كادت عينه تقع على ، حتى فاجأنى بعدة أسئلة دون أن ينتظر الاجابة : من هو والدك ؟ وأين يقيم ؟ . . . وقبل أن أجيب على واحد منها قال لى بكل غلظة : (من عينيك السيئة أنا أعرف ما فى قلبك) . . وأمسك بسماعة التلفون وتحدث فيه ثم قال : (اذهب إلى المستر ثيوبولد (وقد كان ثيوبولد من المسئولين فى الكلية . . وما كدت أدخل على المستر ثيوبولد حتى بادرنى بالتحايل المعهود (لم تملأ جردلك) وأنا اشهد الله ، بأنى قد ملأت جردلى ، لانى كنت حريصا جداً ألا أعطيهم الفرصة لمعاقبتى . . ولكننى عبثا حاولت اقناع ثيوبولد . . فأدركت الخطة . وهنا قلت له : اعتبرنى مفصولا من هذه الكلية منذ الآن ، ولم يأبه الخواجه لكلامى ، بل قال لى : خذ العقاب أولا ثم أترك الكلية ثم صاح : (سته جلدات يا فضل المولى) . . وفضل المولى هو جلاد الكلية المعروف . وعند ما كررت كلامى سمعت الاستاذ عبد الفتاح المغربى الذى كان يجلس بجانب ثيوبولد ، يصيح قائلا : (هاتوا فراشين زيادة) باللغة الانجليزية .. وذلك لاجبارى على اخذ العقاب ، وكأنه خشى من ان اشتبك مع الخواجة او اعتدى عليه.. والتفت فاذا بعدد من الفراشين قد امسكوا بى ، ووجدت نفسى فوق أكتافهم بطريقة أفقدتنى الحركة تماما لصغر جسمى فى ذلك الوقت ..

وسمعت الخواجة يقول (١٢ تيلة يا فضل المولى) .. فهوى الجلاد العملاق على جسدى الصغير بتيلته المكونة من عدة حبال تيل محكمة الفتل ، وبكل واحدة منها عدة عقد صلبة كالحصى ، تترك كل واحدة منها أثرها الدامى على الجسم .. فشعرت بأن جسمى يتمزق والدم أخذ يملأ ملابسى .. وعندما وصلت منزلنا كان أمرى محزنا للاسرة ، وخاصة لأنها لا تستطيع ان تقتص من المستر ثيوبولد الأنجليزى .. ومكثت ثلاثة أيام أعانى من الحمى بسبب تورم جسمى من تلك الجروح .

فصل من الكلية مع أحد عشرة من الطلبة

ولم يكن غريبا أن أتلقى أمر فصلى من الكلية فى نفس الأسبوع ومعى إثنى عشرة من زملائى بحجة أننا (قد أصبحنا خطرا على بقية الطلبة) كما جاء فى خطاب الفصل الموجه لولى أمرى .. اذا أضفنا الى ذلك كله نوعية التعليم الذى كنا نتلقاه فى الكلية ، وخاصة فى القسم العام ، حيث كان يتم اعداد الطلبة ليكونوا موظفين فى مصالح الحكومة فقط ، وليس لهم ممن المهارات غير العمل على الآلة الكاتبة ، مما جعل احد المدرسين الانجليز أنفسهم يسخر من طلبته قائلا : (لماذا تتباهون ؟ أعلى الآلة الكاتبة ؟ ان القرود فى أمريكا يعرفون العمل على الآلة الكاتبة ..) واذا أضفنا ذلك أيضا الى ما سبق ، لأدركنا مدى قسوة الظروف التى دفعت بنا الى الهجرة ، والتى ملأت قلوبنا الصغيرة ، آنذاك ، بالحقد والاصرار على الانتقام من الانجليز ..

الكلية كانت مصدقا لتقديم الموظفين للحكومة

هذه بعض دوافع هجرتنا لمصر

وكيف اذن ننتقم ؟ ولا سبيل لنا الى ثورة مسلحة قريبة ، بعد اخماد ثورة ١٩٢٤ ، وبعد ان انفض عقد الجيوش التى تملأ أرجاء السودان .. ولا سبيل لنا أيضا الى ثورة شعبية والبلاد يخيم عليها الجهل وتعانى من التفكك بعد ١٩٢٤ .

التمهيد لثورة مثقفة

فثورتنا اذن آجلة ، وسبيلها هو العلم قبل كل شيء ، العلم الحر الطليق ، نلج أبوابه المفتوحة لنا في مصر ، فنصعد فيه الى الذروة ، ونعمل على توسيع مداخله ومجالاته أمام الأجيال القادمة ما استطعنا .. العلم هو السلاح الأقوى الذى سوف نشهره في وجه الاستعمار .. فلنأخذ إذن أنفسنا بالعمل على أعداد هذا السلاح وتجويده وبثه في شرايين الأمة السودانية عاما بعد عام ، فنبعث فيها الوعى والنشاط والحيوية ، وترسخ أقدامها على طريق الكفاح من أجل الحرية .

فنحن اذن هاجرنا لمصر ، من أجل الكفاح الوطنى وعلى طريقه .. ثوارا تمردوا على أوضاع جائرة مؤلمة ، عاشوها فى كلية غردون ، ذلك المعقل الإستعمارى الخطير ، الذى وصفه كتاب ذلك الزمان بأنه (مقبرة النبوغ وسجن العبقرية) .. ومن هؤلاء الكتاب ، طه حسن صاحب كتاب (رسائل محزون) الذى صدر فى العشرينات .

خرجنا من ذلك السجن أو على الاصح هربنا منه .. لننطلق الى تلك الغايات الكبرى ، ونحاول التغلب على كل ما يعترض طريقنا من معوقات .. وأولها ذلك الحائط الحديدى الذى ضربه الاستعمار بين بلادنا وبين مصر وكل بلاد العالم الأخرى .. وبهجرتنا احدثنا فى ذلك الحائط تصدعا مازال أمره يتسع حتى إنهار الحائط تماما وانفتح الطريق للهجرة التعليمية بمصر ولغيرها من الهجرات والأسفار خارج السودان .

والآن ، وبعد كل هذا العرض ، أعود لأسأل : هل كان فى إمكانى أن أجد فكاكا من الالتزام بتلك القضايا التى كانت قد تراكمت ، كما قلت ، أمام رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة ؟

هل اتركها بلا سند ، ولا أحد يتفرغ لها لتتبدد وتنتهى الى لا شيء بعد ان عانت الرابطة الأمرين فى غرسها وسقيها ؟ هل أنفض يدى منها قبل أن نحقق شيئا من أهدافها ، التى حملناها فى حدقات عيوننا وانطوت عليها شغاف القلوب .

أنا لا أعتقد ان الخليون والشانئون الذين لا يعنيهم شيء من هذه الهموم ، يمكن أن يرفقوا بامثالنا ممن نفذت فيهم الاقدار ، فأفقدتهم الاهتمام بمصالحهم الشخصية وحملتهم حملا على التضحية والمركب الصعب .. ورحم الله من قال :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

هكذا وجدت دربى واحدا لا ثانى له : فتوكلت على الله وسلكته ، تقتادنى بعض الحداءات الوطنية التى ظل وجدانى يعمر بها وتتفتح عليها مشاعرى منذ نعومة أظفاري .. كقول خليل فرح فى أغنيته المشهورة (ما هو عارف قدمه المفارق) حيث قال :

يا بلادى كم فيك حاذق غير آلهك ما ام رازق
من شعاره دخول المآذق يتمانى وشرفــك تمــام

وقول أحمد محمد صالح :

حبذا السودان من بلـــد يفتدى بالروح والجسد
نحن نبنى مجــده لغــد بالطريق الواضح الحدد

وقول عبد الرحمن شوقى :

وليس الجود بذل دريهمات لمسكين على قيد الحيـــاة
بل الجود الممات على بـــلاد ليحيا أهلها بعـــد الممـــات

وقول الشاعر الاقليمى ولعله (ود ضحوية) :

أنا مِن قُـم تلباً مبرم وبرى حمّال للمصايب فوق خريرى ودبرى

ذلكم هو موقفى، وما جره على من متاعب ، علم الله أنى لم أعبأ بها أو أرضخ لضغوطها أو مضايقتها فى يوم من الأيام ، بل ظللت محتفظا باعتقادى الراسخ بسلامة طريقى الذى سلكته قائلا للدهر ما قاله الشيخ محمد سعيد العباسى :

زد عنوا ازدك من حسن صبرى ... واذقنى كأس العذاب الأمر

لست يا دهـر بالغا من شبـا عزمى فلولا ولو قلامة ظفر

و ماقاله الدكتور ابراهيم ناجى :

يا دهر لم أشك الكلالةولا ... ملكت خطوبك قط أرهاقى

عذبـت أيامى بعفتهـا ... وقتلتنى فى صفو أخـلاقى

تعثرى في الدراسـة

وفى مقدمة المتاعب التى جرها على مسلكى الوعر ، تعثرى فى الدراسة الذى تفرعت عنه كل مصائبى وبلواى ، ليس فى نظرى أنا ، ولكن فى نظر الآخرين .. فقد كنت فى المرحلة الثانوية التى ينهمك فيها التلاميذ فى أداء واجباتهم المدرسية ، واهمها تمرينات الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات .. الخ وهى فى مجموعها تشكل القاعدة الأساسية للنجاح فى الامتحانات ، كنت فى تلك المرحلة منصرفا تماما الى التفكير العميق فى كيف نشق طريقنا للعمل الوطنى الذى كان بين أيدينا .. ولسوء حظى أيضا كان بينى وبين الرياضيات تنافر قديم ، تمتد جزوره الى بدء حياتى الدراسـية . . وأنـا لم أدرس مرحـلة الكـتاب أو الأولية فى المدارس العـادية ، ولـكنى درسـتها فى معهـد أمدرمان العلمى ، وكان منهجه الدينى لا يعنى كثـيرا بالحساب ومسـائله ، وتركت المعهد أو هربت منه على الأصح بعد اكمال السنة الرابعة ،

لالتحق بالمدرسة الاهلية الابتدائية ، وكنت ضعيفاً بالطبع فى الحساب ودون مستوى السنة الاولى الابتدائية ، حيث كانوا يأخذون الكسور الاعتيادية والعشرية ومسائل عليها وعلى القواعد الاربعة . . فوجدت الفرق شاسعاً جداً بيني وبين زملائي (بينما كنت أنا متفوقاً فى كل المواد الادبية والاجتماعية) . . وكانت كل جوائز الانشاء من نصيبى كما كانت موضوعات الترجمة والانشاء الانجليزية التى كنت أكتبها تعرض على السبورة كنموذج يحتذيه التلاميذ .

وأذكر أني كنت في السنة الاولى (ب) وجاء ترتيبى فى امتحان النقل للسنة الثانية الاول بالرغم من ضعف درجتى فى الحساب . . ومن الغريب أيضا أني قبلت فى كلية غردون بالرغم مى رسوبى فى الحساب فى امتحان دخول الكلية .

الاهتمام الباكر بالقراء)جمعية القراء للناشئين)

ومن أسباب تنافرى مع الحساب ايضا ، اننا منذ منتصف المرحلة الابتدائية ، قد بدأنا نقرأ الصحف والمجلات والكتب الادبية . وكنا ننتمى لبعض جمعيات القراءة مثل(جمعية القراءة للناشئين) التى أشرت إليها سابقاً . . وقد أنشأها الدكتور ابراهيم المغربى والاستاذ عبد الله عشرى ، فى منزل الدكتور مغربى ، بقصد اتاحة الفرصة للناشئين لتثقيف أنفسهم ، والتعود على القراءة والارتقاء بمداركهم .

لقد أقبلنا بنهم شديد على القراءة واجتماعاتها . . وكانت كلها شايقة وجديدة علينا ، تستهوينا موضوعاتها واسماء كبار الكتاب من مصريين وغيرهم . . وكان الاستاذ عبد الله عشرى الطالب بجامعة بيروت الامريكية آنذاك يتحفنا أحيانا ببعض المحاضرات الطريفة ، فى موضوع جديد كل الجدة ، كموضوع (القرآن فى ضوء اليوم) . .

وأحيانا نكلف احدنا بدراسة كتاب أو موضوع معين ، ثم يأتى ليلخصه ويعرضه علينا فى ندوة خاصة . . وكان تكليفى أنا فى احدى المرات ، أن أعطى محاضرة عن حياة مدام كورى مكتشفة الراديوم ، مع شرح فى نظرية الذرة وما كشفت عنه من حقائق فى تكوين المادة . . كل ذلك وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية . . والواقع أنه بقدر ما كان لذلك الاتجاه من أثر بالغ فى اشباع نهمنا للاطلاع واتساع مداركنا وآفاقنا الفكرية . . ، بقدر ما كان له من رد فعل ضار بادائنا المدرسى . . فلم يقف الامر عند حد التهام اوقاتنا فقط ، بل أصبنا بشىء من التعالى والتمرد على بعض المواد الدراسية . كالمسائل الحسابية التى أشرت إليها من قبل . . فكنا نتندر بها ونتساءل عن فائدتها لامثالنا بصورتها التى كانت تقدمها لنا كتب الحساب والرياضة المدرسية . . كمسائل القطارات التى يسير كل واحد منها فى اتجاه مضاد للاخر . . وتفاوت فى السرعة . . الخ ومسائل عمل وتشغيل عمال تتفاوت قدراتهم وأعمارهم . . وحساب الفروق بين قوة الرجل بجانب المرأة أو بجانب الصبى . . الخ و مسائل الحنفيات والماء الذى تصبه فى الاحواض بأحجام وسرعات متفاوتة . . ويكون المطلوب هو معرفة حجم الماء الذى يبتلعه الحوض فى الدقيقة من حجم الماء الذى تصبه الحنفية فى الدقيقة أيضا . . الخ وغير ذلك من المسائل المماثلة . . . التى كنا نرى فيها إضاعة للوقت ولاتستحق اهتمامنا . . وهى ربما كانت ذات فائدة للاطفال أو من خلت مداركهم من الثقافة والاطلاع ولكنها ليست كذلك لكل إنسان . وليس معنى هذا أنى أقصد بأى شكل أن أمس قيمة العلوم الرياضية وأهميتها القصوى فى عالم اليوم ، كأساس ثابت تنطلق منه أكثر العلوم والمخترعات والتكنولوجيا والالكترونيات ، التى غيرت

التمرد على دروس الحساب

وجه الحياة المادية وأثرتها بالتطورات الصناعية المذهلة ، التى تعجز العقول عن ملاحقتها .

ولكنى أعنى فقط تلك الصورة المعينة من مسائل الحساب التى أشرت إليها بأنها لاتناسب عقول نوع معين من التلاميذ ، جنى عليهم ميلهم الباكر للقراءة وانشغالهم بقضايا الفكر والادب . . ولك بعد ذلك أن تتصور مدى ما لاقيته من عنت فى المدارس المصرية ذات البرامج المزدحمة بمثل تلك المواد . . لقد كان التنافر بينى وبينها اوسع مما كان عليه فى مدارس السودان . . وخاصة بعد أن بلـــغ اهتمامى بالمسائل العامة ذلك المدى البعيد ، وبعد أن إلتفت حـــولى مشاكل رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة ، وأخذت القضايا العامة تستحوذ عـــلى تفكيرى ، حتى لم أجد بدأ من الجرى وراءهـــا ومتابعتها والاتصالات المتعددة بشأنها هنا وهناك . . وكذلك كانت الكتابة عنها فى الصحف تشغلنى كما تشغل بعض الزملاء . . وكان من أكبر المشجعات لى أن أجد صحيفة كالاهرام أكبر صحـــف القاهرة تقبل مقالاتى وتنشرها احيانا فى الصفحة الاولى التى كانت تعتبر معبرة عن رأى الاهرام فى المواقف العامة . . وكان بعـــض المدرسين بمدرسة النيل الثانوية يعجبون لتلك المفارقة الواسعة بين ما احرزه من مستوى فى الكتابة فى أكبر الصحف وبين تعثرى فى مسائل الجبر والحساب وحساب المثلثات .. الخ وعندما رسبت فى امتحان النقل من السنة الثالثة الى الرابعة الثانوية ، اندهش الدكتور السيد باشا ناظر مدرستنا الذى كثيرا ما كان ينوه بما قرأه لى فى جريدة الاهرام أو فى جريدة البلاغ .

وهكذا انطوت نفسى على مشغولية شديدة .. ما العمل اذن مع تلك المواد التى يسمونها الرياضيات .. لقد أصبحت تشكل عقبة

فى سبيل وصولى للجامعة .. وفى غمرة هذا الصراع النفسى كنت ألتقى بأصدقاء لى من أبناء البلاد العربية من طلاب جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة اليوم) وكنت قد اندمجت معهم فى تعاون نشط حول القضايا العربية . فشكوت اليهم ما أعانيه وما أتخوف منه فيما يتعلق بدخولى الجامعة بسبب تعثرى فى الدراسة ، وما قد يؤدى اليه من عدم حصولى على الشهادة الثانوية .. فدهشت عندما رأيتهم يقابلون كلامى بشىء من السخرية .. ويقولون ليس فى الأمر مشكلة .. فان بعضهم التحقوا بالجامعة بمستوى علمى أقل مما كنت أحرزه .. فقد جاء بعضهم من معهد القيروان وهو أشبه فى مستواه الدراسى بمعهد أمدرمان العلمى القديم فى المرحلة الثانوية فقط .. وبعضهم لا يحمل حتى شهادة معهد القيروان .. وأغلبهم لم يدرسوا الرياضيات الا لماما .. وجميعهم قبلوا فى بادىء الأمر كطلبة مستمعين بكلية الآداب ، ثم سمح لهم بدخول الامتحان فى آخر العام ، ومن نجح منهم أصبح طالباً وسجل اسمه بالكلية .

وقالوا لى فى النهاية بكل بساطة : لم لا تفعل أنت ما فعله الطلبة المغاربة ؟ وما أن سمعت هذا الكلام حتى كدت أطير من الفرح ، لقد وجدت المخرج .. ولم يبق الا أن أصيح كما صاح الفيلسوف اليونانى (دايقنز) : « وجدتها وجدتها .. الخ .

ولم أتردد فى تقديم طلبى للجامعة بارشاد الاخوة المغاربة ...

التحاقي بالجامعة

فحصلت على بطاقة تسمح لى بحضور المحاضرات بكلية الآداب بجامعة فؤاد كطالب مستمع فقط ، ابتداء من الموسم الدراسى ٣٩–١٩٤٠ . وفى الموسم التالى ٤٠–١٩٤١ ، عمل لى أختبار خاص قبلت بعده بالسنة الاولى بقسم اللغة الانجليزية ، بعد أن بينت فى طلبى ما قطعت من مراحل الدراسة فى مدارس السودان والمدارس المصرية .

وبدخولى الجامعة شعرت براحة نفسية كبيرة ، بعد الجهد المضنى الذى بذل فى إحراز هذه الخطوة الجريئة ، التى كانت مفاجأة غير مفهومة عند الكثيرين ، وأحدثت صدى واسعا فى محيط الطلبة ، الذين تلقوا الخبر بين مصـــدق ومكـــذب .. وكانت فرصة للهامسين والمشنعين ، ممن كان استعدادهم الفكرى أضعف من أن يستوعب تلك الخطوة الجريئة ، المتجاوزة للفهم التقليدى المتوارث ، بأن بعض المواد الدراسية كالرياضيات لا يمكن تخطيها ، وأنها من الضرورة بحيث يكون ادراك الطالب بدونها قاصرا وناقصا .. وهذا اطلاق لا يتفق مع الواقع فى كثير من الاحيان ، لأننا نجد كثيرا من تألقت عقولهم وأبدعوا فى الحياة لاحظ لهم من الدراسات الرياضية .. كما أن كثيرا ممن تفرغوا للدراسات الرياضية لا تكاد ادراكاتهم تتعدى مجال تخصصهم فقط ولو أخذوا الى درب آخر من دروب المعرفة بالحياة لوقفوا (كما وقف حمار الشيخ فى العقبة) ، ورحم الله الدكتور على بدوى ، عميد كلية الحقوق فى أيامنا حينما كان يحذر الطلبة من الانحصار فى القانون وحده ، فيقول لهم : (ان الطالب الذى لا يعرف غير القانون لا يفهم القانون) . ومن جهة أخرى لو نظرنا فى تاريخ كثير من قادة الفكر فى مختلف الميادين لوجدناهم من المتعثرين ، فى سيرهم الدراسى .

ومهما يكن فان الامتحان المدرسى ، كما يقول الانجليز ، ليس هو مقياس للكفاءة ، وأن الرسوب فى مادة أو مواد دراسة ليس دليلا قاطعا على تخلف الفكر ، والأفضل من ذلك أن نقول مع الرسول الكريم : (كل ميسر لما خلق له .) هذا ولو نظرنا

بين الجامعة نفسها ، لوجدنا ان البرنامج الدراسى فى بعض أقسام الكليات أو كلها ، يزدحم بمواد كثيرة ، قد يرسب فى بعضها الطالب وينفقد سنة أو أكثر من حياته الدراسية ، مع أنها مواد لا يلتفت اليها الطالب الا عند الامتحان ،فيحفظها عن ظهر القلب ، ويثقل بها دماغه ، ولكنه ما يكاد يقوم بتفريغها على أوراق الاجابة ويعود الى منزله ، حتى تبدأ فى الانحسار عن ذاكرته ، ولو أعيد اختبار نفس الطالب فيها بعد اسبوع واحد ، لأختلفت درجة النجاح الى حد كبير .

ان ما يبقى فى الذهن دائما هو المبادىء العامة ، والافكار الاساسية وما يتصل بها من اصول المنهج ، الذى نستخدمه فى البحث العلمى ، للوصول الى الحقائق العلمية ، بأقل جهد واقصر طريق .. وذلك هو ما ينبغى أن نعول عليه فى تقييم العقول وبنائها ، وهو الهدف الحقيقى من الدراسة الجامعية كلها .

وما أصدق من قال ، ان الثقافة هى ما يبقى فى الذهن بعد أن ينسى الانسان كل ما حفظه ... كان هذا شعارى على طول رحلتى فى الجامعة ، التى لم أتوقع بالطبع أنها ستكون خالية من التعثر ، لنفس الأسباب السابقة من حتمية انشغالى بشئون رابطة الطلبة وبعض الاعمال الوطنية الأخرى التى ابتليت بها كما أوضحت سابقا .. ووصلت فى أمرها الى نقطة اللارجعة .

وعند بداية التحاقى بالجامعة فى السنوات ٤٠-٤١-١٩٤٢ ، كانت رابطة الطلبة تقف وحدها فى الميدان العام ، وتتصدى لكل المسائل العامة التى تحملها الينا الخطابات والرسائل من السودان وكان النادى السودانى بالقاهرة ، بحكم العناصر المكونة له ، اجتماعيا

بحتا ، وجد فيه بعض البارزين من التجار وغيرهم فرصة لتقديم
أنفسهم للمجتمع القاهرى .. وكانت رابطة الطلبة مكونة فى داخل
هذا النادى ، ولكن هذه العناصر انزعجت لمجرد زيارات المجاملة
التى كان يقوم بها أعضاء الرابطة لبعض الأندية والاحزاب السياسية
وفقا لخطة العمل التى وضعتها الرابطة للتعريف بالسودان وتطلعاته
الجديدة .. وتخوفت أيضا وكالة حكومة السودان بالقاهرة من
تحركات رابطة الطلبة واتهمت الطلبة بزج النادى فى ميدان السياسة ،
وتحرك عملاؤها داخل النادى ضد الطلبة ، وانتهى الأمر بفصل
الرابطة من النادى كما ذكرت سابقا .. فالرابطة اذن كانت تنهض
وحدها بأعباء الاعمال الوطنية العامة فى تلك الفترة ، وكان نصيبى
منها كالمعتاد مرهقا يلتهم الوقت والطاقة .

وفى الجامعة عاودتنى لعنة التعثر مرة أخرى ، فرسبت فى
امتحان النقل الى السنة الثانية بقسم اللغة الانجليزية مرتين ، فرأيت
ان أتحول الى قسم اللغة العربية أو الأدب العربى ، لعلى أجد فيه من
اليسر ما يمكننى من مزاولة التزاماتى قبل الرابطة والاعمال الوطنية
الاخرى الكثيرة .. ولكن أساتذة القسم العربى قد ترددوا فى
قبولى بحجة ان دراستى بمدارس السودان قد لا تكون كافية
للانخراط فى قسم اللغة العربية .. وكدت أفشل فى تحقيق رغبتى
ولكن انقاذى جاء فى آخر لحظة على يد الاستاذ مصطفى زيادة
رئيس قسم التاريخ ، بسبب مقال كنت قد كتبته فى مجلة كلية
الآداب التى يشرف عليها الاستاذ زيادة .. وكان عنوان المقال
(مستقبل الثقافة فى السودان) .. وقد أعجب به الاستاذ زيادة
اعجابا جعله يهنئنى وينوه به فى الكلية .. ولما علم بموقف أساتذة
القسم العربى من أمر قبولى بقسمهم ، ذهب الى مجلس الكلية وبيده

المقال المشار اليه ، وقدمه كدليل على المستوى الذى يؤهلنى للدراسة ، ليس فى السنة الأولى فقط ، ولكن فى أى صف من قسم اللغة العربية .. وما كاد ينتهى من قراءة المقال حتى اعتبر الاساتذة المسألة منتهية .. فقبلت بالسنة الأولى .. وفى آخر العام حالفنى التوفيق فى امتحان النقل الى السنة الثانية فجاء ترتيبى الرابع فى النجاح ، وكذلك حالفنى النجاح من الثانية الى الثالثة وكان فى ذلك الموسم الدراسى ٤٣–١٩٤٤ .

ولكن الأحداث قد أخذت تتلاحق منذ ١٩٤٢ ، كما سيرد فى أماكن أخرى من هذه المذكرات .. الحرب العالمية الثانية كانت رحاها دائرة .. وظهرت مسائل سياسية هامة .. ومؤتمر الخريجين تقدم بمذكرته المشهورة بأعطاء السودان حق تقرير مصيره بعد الحرب ، وطلب من حكومة السودان رفعها لدولتى الحكم الثنائى ، ورفضت حكومة السودان المذكرة .. وقد استوجب ذلك اعمالا متعددة الجوانب ، من قبل السودانيين فى مصر .

لقد أشرت سابقا الى مساعى الصلح ، بين النادى السودانى بالقاهرة ، وبين جمهرة المتعلمين والطلبة السودانيين ، ومن أكبر الشخصيات التى عنيت بأزالة تلك الخلافات ، السادة محمد نجيب ، وعبد الله الفاضل ، وعبد الله بك أباظة ، واستجابة لتلك المساعى النبيلة ، بدأ الطلبة السودانيون بالقاهرة يترددون على النادى السودانى فى سنتى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ وشطرا من عام ١٩٤٢ .. والواقع أن عودة الطلبة للنادى كانت محاولة لأدخال بعض الاصلاحات على قانونه ولائحته، تمهيدا لعودة جميع الخريجين والمتعلمين ، ثم اجراء انتخابات محايدة لتشكيل ادارة النادى واختيار رئيسه .. وكنا على يقين من أن الانتخابات المحايدة ، ستضع ادارة النادى فى أيدى

المثقفين ويصبح النادى عنوانا مشرفا للسودان وللسودانيين ،ولكن وكالة حكومة السودان بالقاهرة ، ذات العداء القديم مع الطلبة ، لم تنظر بعين الارتياح لعودتهم للنادى ، بعد أن حشدت فيه الكثير من عملائها وأصبح لها نفوذ فيه ، واذا تمت الاصلاحات التى ينشدها الطلبة ، فأن نفوذها قطعا سيهتز فى النادى ، وسوف يؤول أمره الى أبناء السودان المخلصين .. فتحركت الوكالة بسرعة لايقاف الخطر الزاحف على النادى .. واذا كانت منذ سنوات قد أمكنها اقصاء رابطة الطلبة من النادى ، بواسطة اعوانها ولأسباب واهية مزيفة ، كمخالفة لائحة النادى ، والعمل السياسى داخل النادى .. الخ .. فانها اليوم ، بلا شك تحتاج الى سبب أقوى ، لابعادنا عن النادى ، لاننا قد اشتد ساعدنا ، وأصبحنا طلبة جامعيين .. ولكن الوكالة لم تتلفت كثيرا ، فقد كانت أمامها أكبر فرصة لتلفيق التهم الخطيرة ، ضد الطلبة السودانيين ، وهى الحرب العالمية الثانية ، التى كانت تدور رحاها بشدة متزايدة فى تلك الايام .

وكالة حكومة السودان تلاحق الطلبة

وأخطر التهم التى كانت تدور مع دوران الحرب ، هى الاتصال بدول المحور والتعامل معها .. وهكذا نشط عملاؤها(الوكالة) لكتابة التقارير الكاذبة التى كانت تنسج كلها على منوال تلك التهمة الخطيرة ضد الطلبة .. سارعت الوكالة برفع الامر الى السفارة البريطانية بالقاهرة .. وسارع السفير البريطانى من جانبه للاتصال بالحكومة المصرية ، ولفت نظرها الى هذا الأمر الخطير .

اتهامات للطلبة

وكانت تتربع على وزارة الداخلية فى ذلك الزمان ، شخصية خطيرة مرهوبة الجانب من جميع المصريين ، هى حمدى محبوب باشا وكيل وزارة الداخلية ، الذى كان اسمه يثير الرعب ، لدرجة

ان من كان يؤخذ بواسطة زبانية حمدى باشا ، يصبح أمره مدعاة للترحم والشفقة .

وكان فى وزارة الداخلية أيضا الى ذلك الوقت ، ما يسمى بالادارة الاوربية ، وعلى رأسها المستر كين بويد ، الطاغية الاستعمارى المعروف ، وكانت من مخلفات العهد الاحتلالى .. ولكنها الى ذلك الوقت لا زالت تهيمن على الامور السياسية الخاصة بالانجليز ..

استدعاء كبار الطلبة لوزارة الداخليـــة

وفى صبيحة أحد الأيام من ١٩٤٢ ، جاء الى جامعة فؤاد الاول ، التى تضم الطلبة السودانيين ، أحد رجال وزارة الداخلية ، من راكبى الدراجات البخارية ، يحمل خطابات ، من حمدى محبوب باشا ، الى خمسة من الطلبة السودانيين ، ويدعوهم فيها لمقابلته بمكتبه بوزارة الداخلية .. وهم : عقيل أحمد عقيل ، وعابدين إسماعيل ، وأحمد السيد حمد ، وأحمد الطيب عابدون ، وعبد اللطيف الخليفة ..

وما كاد الخبر يبلغ بعض الطلبة المصريين بكلية الحقوق ، حتى قاموا بحركة واسعة لابلاغ طلبة كليات الجامعة المختلفة ، وتجميعهم أمام كلية الحقوق ، وبالفعل احتشد الطلاب فى شكل مظاهرة كبرى ، كانوا يودون الخروج بها فى موكب صاخب ، ألى وزارة الداخلية ، احتجاجا على أخذ الطلبة السودانيين بتلك الصورة .

وكان عميد كلية الحقوق فى ذلك الوقت رجل وطنى معروف ، هو الدكتور على بك بدوى ، فخرج الى الطلبة وخطب فيهم ، مناشدا إياهم التريث بعض الوقت ، حتى يعرف ماذا هنالك ..

وفى نفس الوقت أكد لهم إنتقاده وانتقاد الكلية لمسلك وزارة الداخلية الخاطىء .. فقد كان الواجب أن تخاطب الكليات فى أمر سياسى كهذا ، بدل أن تخاطب الطلبة شخصيا وبتلك الصورة المثيرة .

ثم قال أيضا ، أنه على أى حال سيرقب الموقف بنفسه .. واذا احس بأى سؤ يمكن أن يمس الطلبة السودانيين ، فسوف يكون إول من يستقيل من منصبه كعميد لكلية الحقوق .. ونصح بالتريث إلى الغد وحتى تتم مقابلة وكيل الداخلية .

في مكتب وكيل الداخلية

وفى الميعاد المحدد دخلنا على حمدى باشا ونحن نتوقع مواجهة ساخنة من طاغية الداخلية الجبار .. ولكن دهشتنا كانت كبيرة ، لما بدا على وجه الباشا من مظاهر الترحيب بنا . فقد وقف ليصافحنا واحدا واحدا بابتسامة ودية .. وجلسنا على كراسى كانت معدة لنا ، وقدم شراب الليمون على ما أذكر .. وأخذ الباشا يلاطفنا كأنما أراد أن يزيل ما قد يكون عالقا بنفوسنا من تهيب لشخصيته الخطيرة ..

ولكننا كنا نستمع بحذر لكل كلمة يقولها . . وكان مدخله للحديث معنا هو النادى السودانى بالقاهرة ومدى صلتنا به . . ثم تكلم عن الحرب . . وسألنا عن رأينا فيها . . وإلى هنا كان قد وقف على مستوى تفكيرنا وصراحتنا ، فصارحنا هو ايضا بالحقيقة ، وهى ان السفارة البريطانية قد طالبت بابعادنا الى السودان ، بتهمة الاتصال بدول المحور والعمل المعادى للحلفاء . . وأن الأتهام كان فى صفحة ونصف من الفلسكاب . . ولكنه لم يستجب لمطلب السفارة البريطانية ، لأنه لا يعتبرنا غرباء حتى نعاقب بابعادنا لبلادنا . . ثم قال انه يحمد الله على هذا اللقاء ، وان يجدنا بتلك

الدرجة العالية من النضج وسعة الافق . . وانه قد وجب عليه ان يفتح صفحة جديدة . . للجامعيين السودانيين ، بعد ذلك المستوى الرفيع من النقاش الذى دار بيننا وبينه . . كما أنه لايشك فى أننا كنا نعرف مدى التزامات الحكومة المصرية نحو الحرب ، بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ .. فنحن مطالبون أى الحكومة المصرية، بحكم تلك المعاهدة ، بتوفير كافة الظروف الملائمة لكسب الحرب ، ولسلامة الجبهة الداخلية والواقع اننا أبدينا لمحبوب باشا من الصراحة وذكر الحقائق، ما جعلنا نتحدى أمامه أى تقرير باتهامنا . . فقد أكدنا له أن المسالة لاتتجاوز رغبة وكالة حكومة السودان بالقاهرة فى ابعاد الطلبة الجامعيين من النادى السودانى،وأن الوكالة تحرك عملائها داخل النادى لخدمة أغراضها . . . . وتوجههم لكتابة التقارير الكاذبة ضدنا . . كما أن أولئك العملاء أنفسهم يتمنون ابعاد الطلبة عن النادى خشية من الاصلاحات التى ينادون بها لصالح المثقفين فى داخل النادى وختم حمدى باشا حديثه معنا بعبارات ودية فيها اطراء لنا . . ولكنه نصحنا بالابتعاد عن النادى السودانى ورجانا أن نعتبره أى حمدى باشا أخا أكبر ، وأن نزوره من وقت لاخر . . فشكرناه كثيراً وخرجنا منه بشعور طيب .

زيارة أزهرى لمصر كرئيس لمؤتمر الخريجين

كان صيف ١٩٤٣ بداية لاحداث أخذت تتلاحق ، وأولها زيارة السيد اسماعيل الازهرى للقاهرة ، وقد تعود السيد اسماعيل زيارة القاهرة من قبل ، ولكن زيارته هذه المرة كانت لها أهمية خاصة . . فهو رئيس مؤتمر الخريجين العام ، وصاحب المواقف الوطنية التى لفتت إليه الانظار ، وجعلت معالم شخصيته تتضح كزعيم يعد نفسه لخوض معارك وطنية ضد الاستعمار البريطانى .

جاء السيد الازهرى يحمل معه كتيبه الصغير (الطريق الى

البرلمان) وهو عبارة عن مجموعة من القواعد والاجراءات التى تضبط سير الجلسات البرلمانية وتكفل لها النظام الديمقراطى .

والكتيب فى حد ذاته يعتبر ارهاصاً لتطلعات ذلك الجيل نحو برلمانهم الذى كانوا يعتبرونه وشيك القدوم . . وشعر الطلبة السودانيون بالقاهرة بأن عليهم واجب كبير نحو مؤازرة الزعيم الازهرى . . فوقفوا بجانبه ، وعملوا على تهيئة الفرص المناسبة لتقديمه للأوساط المصرية المختلفة . . وكان ميدان الجامعة هو أقرب الاوساط إليهم ، ولذلك فقد كان أول لقاء للسيد أزهرى مع عدد من كبار اساتذة الحقوق . . وفى هذا اللقاء قدم أزهرى (الطريق إلى البرلمان) فرحبوا به ، وتعهد الدكتور عثمان خليل المشرف على مجلة كلية الحقوق ، بتلخيص الكتاب والتعليق عليه فى مجلة الكلية ، كما وعد باتاحة الفرص للسيد أزهرى لعرض فصول كتابه على صفحات المجلة نفسها كتكريم له ، متجاوزا بذلك تقاليد المجلة التى لاتسمح بالكتابة فيها لغير أسرة كلية الحقوق ، . . وكان ذلك بالطبع خير تمهيد لطبعه وتقديمه للجماهير بصورة موسعة ، وبالطبع كان ذلك كله مشغولية للطلبة السودانيين بالقاهرة .

وفى صيف ١٩٤٣ أيضا بدأ الطلبة السودانيون بالقاهرة التحرك نحو حدث تاريخى هام جداً ، هو إنشاء (بيت السودان) بالقاهرة . . فكانت بالفعل حركة كبيرة ، تلاحقت فيها الاجتماعات والاتصالات . . تم البيانات فى الصحف . . الخ ، ثم جاءت مرحلة التنفيذ ، وبدأ البحث عن المبنى للسكن وتأثيثه وتنظيم الاقامة فيه وإدارته . . الخ .

وهكذا استحوذت تلك المشاكل على كل جهدى ، وصرفتنى كلياً

عن الدراسة ، فرسبت فى امتحان النقل من السنة الثالثة إلى الرابعة بكلية الآداب مرتين . . وعندئذ قررت ترك الجامعة مؤقتاً لكى أتفرغ تماما لانشاء (بيت السودان) . . فغبت عن الجامعة زهاء الست سنوات تم فيها انشاء أربع بيوت للسودان ، ثلاثة فى القاهرة وواحد فى الاسكندرية .

وبعد أن اكتمل بها كل شيء كما ذكرت فى غير هذا المكان وتحقق حلم بيت السودان الذى راود نفوسنا منذ قدومنا إلى مصر ، رجعت مرة أخرى إلى الجامعة ، واستأنفت الدراسة بكلية الآداب بجانب عملى كمشرف على بيت السودان ، وذلك على نظام الانتساب الذى يتيح للطالب دخول امتحان النقل آخر العام ، دون تقيده بالمواظبة اليومية ، على المحاضرات . وجاء آخر العام الدراسى ودخلت الامتحان ونقلت إلى السنة الرابعة ، فانتهت بذلك صفة الانتساب . . وأصبحت طالبا عاديا مسجلا ضمن قائمة طلبة الليسانس ، وأصبح على واجب المواظبة وكل الالتزامات الأخرى ، من الابحاث العلمية واختبارات الفترة والامتحان النهائى . . الخ . وهنا نشبت مشكلة بينى وبين استاذ النحو ، الذى كلف كل طالب بالسنة الرابعة بتقديم بحث فى موضوع نحوى معين . . وأنا لعدم استطاعتى المواظبة بانتظام ، لم انتبه للاتفاق مع الاستاذ (السقا) على الموضوع الذى خصصه لى لتقديم بحث فيه . . وكان للبحث درجة معينة تضاف إلى مجموع الدرجات التى يحرزها الطالب آخر العام . . وجاء آخر العام ودخلت امتحان الليسانس دون أن أفطن لمسألة البحث النحوى . . وكانت النتيجة تنقصها درجات البحث النحوى التى لم يضعها الاستاذ ، بل وزاد عليها حرمانى من درجات الشفهى وأصر على رسوبى فى الليسانس ، وقال إنه كان لايكاد يرانى فى

حصص النحو . . وهذا حق . . ولم ينجح معه اى جهد، فاضطررت لأعادة السنة الرابعة . . وكان ذلك حافزاً قوياً لى أشبه شيء بالاستفزاز الذى جعلنى أشحذ عزيمتى وأسدد الضربة القاضية للأمتحان هذه المرة فخرجت من امتحان الليسانس ظافراً بمستوى مشرف فى درجات المرور فى جميع المواد . . وحصلت على شهادة الليسانس والحمد لله فى الموسم ٥٣-١٩٥٤ ،أى متأخراً نحو العشر سنوات عن السنة التى كان مفروضا ان اتخرج فيها، وهنا تجدر الاشارة الى ما كان يروجه بعض السودانيين من أقوال مغرضة عن الجامعة المصرية ، بانها تتساهل فى اعطاء الشهادات للسودانيين لأغراض سياسية . . بينما كانت جامعة مصر تعتبر من اكثر الجامعات تشددا فى امتحاناتها . . حتى ان كثيرا من الطلاب الذين كانوا يرسبون أكثر من مرة ويفصلون من كلياتهم ، نجدهم يذهبون الى انجلترا مثلا فيتفوقون وقد يعود بعضهم ليعمل استاذا فى نفس الكلية التى فصلته من قبل كما ذكرت سابقا عن أن أحد طلبة كلية الهندسة . . . ولو كان أمر الجامعة المصرية كما يقول المغرضون، لكنت أنا أحق من تحابيه وتمنحه الليسانس بدون استحقاق ، لأن جميع المسئولين كانوا يعرفون مدى انشغالى بالقضايا الوطنية والقومية سواء بالنسبة لقضية وادى النيل أو الوحدة العربية .

وكان الناس حينما ينظرون بمقاييسهم العادية لتعثرى الدراسي يتصورون أنه قد اشقانى وجر على التعاسة والكلال . . ولكن علم الله أن الامر ليس كذلك على الاطلاق . . فانا والحمد لله قد كنت اقبل على تضحياتى برغبة صادقة ووعى كامل نابع من اقتناع عميق .. وأن الراحة النفسية التى كانت تغمرنى كلما انجزت عملا وطنيا ، كانت تجعلنى أعيش فى نشوة لا يتذوقها الاخرون . . كان المنطق التجردى دائما رائدى . . فعندما قررت ترك الجامعة مثلا لاتفرغ نهائيا لانشاء بيت السودان ، كنت اقول فى نفسى : «الجامعة ملحوقة» ، فقد أعود اليها

في أي وقت . . ولكن الفرصة التي سنحت الآن لتحقيق حلم بيت السودان ، تفلت من ايدينا ، او على اقل تقدير قد يتعطل قيام البيت *لفترة طويلة ، تضر بالاهداف التعليمية الكبرى التي نسعى الى تحقيقها .*

وقال البعض :«انك لو تخرجت من الجامعة لكنت أقدر على خدمة القضايا العامة منك وانت طالب . . وهذا صحيح . ولكن من كان يضمن لنا بقاء تلك القضايا الملحة التي كانت بين ايدينا ، ألا تتبدد قبل أن نعود اليها بعد اكمال سنوات الدراسة ؟ هذا مالم يفكر فيه الا من كابدوه واكتووا بناره . . وهب مثلاانى تخرجت قبل العشر سنوات التي تخلفتها ، فهل كان لي من هدف غير الاعمال الوطنية ؟ أقول لا بكل تأكيد . . اذن انا لم اخالف منطقى التجردى ، لانى اعتقد ان الاعمال التي كانت بين ايدينا فى وقتنا ذاك ، لا تقل أهمية عن أى عمل كان يراد منى القيام به لو كنت قد تخرجت مبكرا كما اراد لى البعض . وخاصة عندما تقف امام عمل كبير كانشاء بيت السودان .

على ان سعينا لاحراز الشهادات الجامعية نفسه ، لم يكن اساسا الا من اجل الكفاح الوطنى . . وانى على بعد الزمن ، ليغمرنى الان الشعور بالغبطة والفخر ، كلما تذكرت ذلك اليوم السعيد ، الذى فتح فيه أول بيت للسودان أبوابه واستقبل الطلاب السودانيين . . لقد كان شعورى حقا لا يعدله اى شعور بالغبطة ، ولو كان لاحراز كبر شهادة جامعية . . وكنت من فرط فرحتى فى تلك الايام ، ابدوا فى صحة مزدهرة كانى قدعدت سنوات الى الوراء .. وكان البعض يداعبنى بقوله : (لقيت شنو ؟) فاقول لهم (لقيت بيت السودان). .

ولئن كان هناك مصدر للألم عندى ، فهو تنكر بعض العارفين للحقيقة وخوضهم مع غير العارفين والمغرضين وهم ينحون باللائمة

على ، فيما أصابنى من تعثر فى الدراسة ، مع علمهم التأكيد ، بأنى لم يكن لى من هم يستحوذ على تفكيرى ومشاعرى ، غير العمل على تحقيق تلك الامنية الكبرى ، التى دفعت بنا جميعا للهجرة إلى مصر ألا وهى فتح الطريق امام الاجيال القادمة للزحف على ميادين العلم والمعرفة ، والتسلح بهذا السلاح الفعال الذى سبقت الاشارة إلى أنه ليس أمامنا غيره فى ذلك العهد لمكافحة الاستعمار . . وما أظلم نفوس المغرضين ، التى عميت عن كل ما حرصت على انجازه مع زملائى من أعمال قيمة ، سوف يحتضنها التاريخ بين صفحات كفاحنا المضيئة . . فهم عفا الله عنهم لايذكرون إلا انى كنت متعثرا فى الدراسة . . يالله أية دراسة هذه التى تستعصى على مثلى ؟ ؟

أليست هى تلك التى كان ينجح فيها حتى الغبى والتافه والمأفون ، ممن تعودوا حشو روؤسهم بما حفظوه من المذكرات ، دون أن يتذوقوا معانيها أو يستقرفى أذهانهم شئ من حقائقها العلمية والثقافية.. ثم يذهبون فى يوم الامتحان مسرعين لافراغها عل ورقة الاجابة . .؟ وما أكثر ما ينجح مثل هذا الجاهل وينال الليسانس أو البكالوريوس ثم يقال أنه خريج الجامعة ، وهو فى الحتمية لايزيد عن كونه أحد المنضمين إلى موكب عوام المتعلمين — ان صح التعبير — .

سينصفنا التاريخ

ويوم يلتفت التاريخ لانصاف جيلنا المناضل ، فسوف يذكر للطلبة السودانيين بمصر ، أنهم كانوا وراء أكبر الاعمال الجليلة التى تمت لبلادهم هناك ، بل وفى داخل السودان أيضا ، ويكفى أن نشير هنا إلى أن افساح مجال تعليم السودانيين فى مصر ، وتدفق أفواجهم النازحة عاما بعد عام ، قد ازعج حكومة السودان أيما إزعاج . . وأجبرها على العدول عن سياستها المقررة فى حرمان السودانيين من التعليم ، إلا بالقدر الذى يؤهلهم للعمل فى مكاتب الحكومة كموظفين

تدفق الطلبة على مصر اصرت حكومة السودان على تغيير سياستها

فقط . . وهو ما كانت تقدمه كلية غردون ، المدرسة الثانوية الوحيدة بالسودان في ذلك الزمان ، وحتى هذه لم تكن لتقبل في أول العام الدراسي أكثر من مائة طالب . . لقد كان تيار الهجرة لمصر جارفا حقاً ، فسارعت حكومة السودان إلى العمل على وقفه بانشاء المدارس العليا كترياق مضاد ، ثم أعقبتها بعدد من المدارس الثانوية كوادى سيدنا ، وحنتوب ، وخورطقت . . وكانت عنايتها بالمدارس العليا كبيرة مما جعلها أى المدارس العليا تأخذ أسماء متعددة إلى أن اصبحت جامعة الخرطوم . . كل ذلك لكى تحول دون نزوح الشبان السودانيين إلى مصر ، ولكن دون جدوى ، لان تدفق الطلبة السودانيين نحو جامعات مصر ومعاهدها ، كان أقوى مما قدرت حكومة السودان .

وقد بلغ الحماس لذلك النزوح بين الطلبة في ١٩٤٧ مثلا ، كما ذكرت سابقاً ، ان قاموا باخلاء السنة الاولى بالكلية الجامعية بأكملها ، وسافروا جميعا إلى مصر واستقبلناهم ببيت السودان في القاهرة . . واستطيع أن اتذكر اليوم بعضا منهم كالاساتذة عبد الخالق محجوب وأحمد سليمان وعثمان محجوب والتجانى الطيب وأحمد الطيب بابكر شقيق التجانى وعلى محمد ابراهيم وشقيقه الدكتور عمر محمد ابراهيم وعبد الغفار عبد الرحيم والجنيد على عمر وعوض عبد الرازق وعبد الرحمن الوسيلة وشاكر مرسال . . وغيرهم ممن غابوا عن الذاكرة . . وتحت ضغط هذه التحركات الواسعة اضطرت حكومة السودان مرة خرى لاحداث تغيير في سياستها الخاصة بالبعثات الخارجية .

وذلك أنها كانت في الماضى ترسل بعض كبار موظفيها من السودانيين إلى انجلترا ، لا لكى يحرزوا شهادات جامعية عليا ، وانما لكى يتدربوا فقط ويكسبوا بعض المهارات العملية فيما كانوا يسمونه (Tour of duty) فعدلت حكومة السودان عن ذلك ،

وأخذت ترسل البعثات لاحراز الشهادات والرتب العلمية المتخصصة العالية ، كالدكتوراه وغيرها . . كما استأنفت أيضا ارسال البعثات لجامعة بيروت بعد أن توقفت لعدة سنوات .

نتيجة ذلك موارد علمية من لندن والقاهرة

وهكذا كسب السودان بفضل اتساع تعليم السودانيين بمصر ، موارد علمية ثلاثة هى جامعة الخرطوم ، وجامعات مصر ومعاهدها ، ثم جامعات انجلترا وبيروت . فكان خريجوا تلك الجامعات والمعاهد ، بمثابة الدماء الحارة المتدفقة فى شرايين نهضة البلاد ، ودعماً للحركة الوطنية وازكاءا لأدوارها بين الجماهير .

وتدور الايام فنجد أن حكومة السودان نفسها ، قد اضطرها التوسع فى تعليم اللغة العربية ، إلى ارسال بعثاتها لكلية دار العلوم بمصر ، حتى لاتترك الفرصة لخريجى الجامعات المصرية وحدهم لسد حاجتها إلى معلمى اللغة العربية فى مدارسها ، وقد أشرت إلى ذلك فى غير هذا المكان .

فهل ترانى بعد هذا كله اعطى اى وزن لمحاولة النيل من شخصى لانى ضحيت بمصلحتى فى سبيل المصلحة العامة ؟ انها بلا شك حملات جائرة لا تستحق الألتفات اليها .. هذا ،ومن جهة اخرى اذا نظرنا من زاوية التعثر الدراسى ، بعد ان اوضحت أسبابه بالنسبة لشخصى — فانه لم يعد مجهولا لدى اى مثقف،ان كثيرا من رواد العالم فى مختلف ميادين الفكر والحياة ، سواء العلمية او السياسية او الأجتماعية مع الفارق بينى وبينهم ، كانوا من المتعثرين فى حياتهم الدراسية .. وماذا يقولون فى تلك الشخصيات ذات الأثر البالغ فى سير الحياة الحاضرة، كآين اشتاين، وأديسون وفرويد وتشرشل، وغيرهم ممن ادهشوا العالم بابداعاتهم الفكرية كنظرية آين اشتين

مى النسبية ، واختراعات أديسون التى جاوزت الرقم القياسى فى الابداع والتعدد .. واكتشافات فرويد لأسرار النفس البشرية ، وقدرة تشرشل المتفوقة فى ممارسات السياسة والقيادة .

ولا ادل ايضا على تفاهة تلك الحملة المفرضة ، من انى مـا كدت اعود الى الجامعة بعد غيابى وطوافى الطويل مع بيوت السودان وغيرها ،حتى حصلت على الليسانس بدرجة مشرفة ، وذلك مع قيامى بالاشراف على بيت السودان .

ومهما يكن ، فان موقفى مع اولئك الشانئين ، وخاصـة الأصـدقاء ، هو الصفح والتسـامح ، بل والأشفـاق عليهم ولى اسوة حسنة فى الدكتور ابراهيم ناجى حين خاطب أمثال هؤلاء فقال :

ان كنت لم اغنم فقد ظفروا منى بمقفرتى واشفاقى
لكننى والجرح يؤلم لى حسى ويكوى كى احـراقى
هيهات انسى انهم عبثـوا ووفيت لم اعبث بميثاقى

وبالعودة الى صيف ١٩٤٢ فى اواخر يونيو ، نجد الجميع قد ارهقهم دوران الحرب وترقب نتائجها .. وبينما كنا مستغرقين فى دوامتها الهائلة ، اذا بالجو يتكهرب فجأة ، فى اول يوليو ،بدخول روميل (ثعلب الصحراء) منطقة العلمين ، داخل حدود مصر الغربية ،بعد ان تجاوزت قواته مرسى مطروح وفركة والضبعة .. وتلفت الناس ، فاذا بالبريطانيين فى ورطة ، وقفوا عندها مبهورين ثم ما لبثوا ان بدت عليهم اعراض من الوساوس والشكوك فى نتيجة المعركة كلها ،بل بلغ بهم الشعور بفقدان الموقف ان نصحوا لاصدقائهم بمغادرة مصر .

وأخذت السفارة البريطانية في القاهرة في حرق بعض الوثائق والمستندات تأهباً للرحيل . . وسارت الامور كلها في مصر في هذا الاتجاه . . وأخذ الناس يعدون الساعات لدخول روميل القاهرة ، وقامت جماهير الشعب المصرى بالمظاهرات تنادى . . الى الأمام يا روميل .. مكايدة للأنجليز . . ولكن ما لبثت الأخبار المثيرة أن توقفت ، واصاب الموقف الجمود والهدوء ، نحو الثلاثة اشهر ، حتى شهر اكتوبر ، والناس يعيشون على اعصابهم في انتظار روميل . .

ولكن الأقدار كانت تضحك في سرها ، حيث اعدت المفاجأة التاريخية المذهلة في ظلمة الليل ، لتباغت بها العالم في صبيحة من ايام اكتوبر ١٩٤٢ م ، بعد ان عين الجنرال اوكنلك ، بدلا عن الجنرال رتشى ، فدارت المعركة بقيادة اوكنلك وكانت حاسمة .. وهكذا حدثت المعجزة على يد المارشال مونتقمرى قائد الفرقة الثامنة الذى استطاع او شاءت له الأقدار ، أن يوقف زحف روميل ، بل ويضطره للتقهقر والانسحاب .. وهكذا انقلب الموقف في غمضة عين الى النقيض ، ولم تتم فرحة الجماهير المصرية التى اعدت نفسها للشماتة بالانجليز ..

وكان الحال في محيط السودانيين بالقاهرة اشبه بما عند اشقائهم المصريين إذ تلقوا هم ايضا إنتصار الحلفاء ، بالكثير من عدم الارتياح .. وكنت انا في اوائل يوليو قد سافرت الى السودان في اجازتى الصيفية . وكنت اينما حللت وجدت الناس موقنين بأن الحلفاء قد خسروا الحرب .. ولن انسى مشهد محطة شندى عند دخول القطار اليها .. فقد اكتظت تماما بالمواطنين وفي مقدمتهم كبار الموظفين الذين اصبح بعضهم في ما بعد وزراء ورؤساء حكومات .. جاءوا جميعهم لاستقبال القطار القادم من الشمال متلهفين لسماع اخبار

الحرب ، ولم يداخلهم الشك في رجحان كفة المحور ، بعد ان دخل روميل العلمين .. وما كاد يلمحني بعض الأصدقاء ، وفي مقدمتهم محمد أحمد محجوب قاضي مدينة شندى ، حتى اندفعوا نحوى بالتحية التي لم يضيعوا فيها اى وقت ، أذ إخذوا فورا في الأسئلة .. وكانوا متحمسين بالطبع لانتصار المحور.. وما لبث محمد أحمد محجوب ان اخذني جانبا ليقول لى في حماسه المعهود ، انه قد اعد قصيدة مطلعها (رويدك حتى يستمط العلمان ، مجاريا بها قصيدة حافظ ابراهيم عن فتح السودان الأخير : (رويدك حتى يخفق العلمان ، وننظر ما يجرى به الفتيان) .. وقال لى ايضا انه يريد ان يذهب الى القاهرة لألقاء محاضرات في (الاتحاد المصرى الانجليزى) عن مآسي السياسة الإنجليزية بالسودان باللغة الانجليزية .. وأردف في نفس الحماس قائلا : (فليثق المصريون بانى استاذ في هذه اللغة ، يقصد الأنجليزية ، وأني امسك بمفاتيحها بين يدى .

وصول العقاد الخرطوم

مجيء العقاد المفاجيء وفرحة المثقفين

وما كدت اصل الخرطوم ، حتى جاء اليها بعد ايام الكاتب العملاق عباس محمود العقاد مبتعدا عن خطر دخول جيوش قوات المحور ارض مصر ،.. وكان وصول العقاد الخرطوم حدثا تاريخيا ، ظل شباب ذلك الجيل يمنى به النفوس فترة طويلة وكانت فرحتهم عظيمة ان يروا الكاتب الجبار الذى تتلمذوا عليه وبهرتهم كتاباته واشعاره ، حتى حفظوا اكثرها عن ظهر القلب ، واليوم انما تغمرهم الفرحة والابتهاج بالرغم من الاختلاف الكبير بينهم وبين العقاد ، فيما يتعلق بنتيجة الحرب ، التى كانوا يريدونها انتصارا للمحور ، لا لأنهم يؤمنون حقا بالنازية أوالفاشية ، ولكنه انحراف عاطفي نحو مكايدة البريطانيين ، الذين يحتلون بلادهم ويسومونهم الوان القهر والحرمان من الحرية .. ويريدها العقاد انتصارا للحلفاء لا حبا في

الاستعمار البريطاني ،فقد كان العقاد من اقوى محاربيه طوال حياته ..
ولكن ، لأن العقاد انما يقيس الأمور بمقاييس فكرية بحتة، وتشغله
القضايا والنظريات الرئيسية الكبرى ،التى توجه التفكير السياسى
بين دول العالم .. .. وهى فى نظره اما الديمقراطية او الدكتاتورية
..وايهما احق بان يسود العالم .. وهو بطبيعته المعروفة منذ ان عرفه
الناس ، منحاز الى الديمقراطية ومناهض للدكتاتورية، وحكم الفرد،
فى كل ما كتبه فى السياسة وقد تلقى من الاضطهاد فى سبيل نصرة
الديمقراطية ما القى به فى السجون .. كما ان كتابه (الحكم المطلق
فى القرن العشرين) الذى صدر قبل الحرب العالمية الأخيرة بنحو
ربع قرن ، ليدل على ان الديمقراطية هى مبدأ العقاد الذى اصبح
ديدنه فى السياسة والحكم .. ولعل السودانيين المثقفين قد عرفوا كل
ذلك عن العقاد .

ولهذا فبالرغم من الأختلاف كما قلت ،فأن فرحتهم
وابتهاجهم بوجود العقاد بينهم قد فاق حد الوصف ،وبجانب
الاحتفاءات الخاصة ، اقاموا له ذلك الاحتفال العظيم ،بل
المهرجان الأدبى العظيم فى شيخ الأندية بأمدرمان .. وجلست
الجموع الحاشدة فى تلك الامسية الجميلة ، تستمتع بوجود العقاد بينهما
وترهف الآذان لسماع اى كلام يقوله الكاتب الجبار .

الاحتفال بالعقاد في شيخ الاندية

وكان تكريمهم له فى اسلوب ادبى فريد ، البسوه حلة زاهية
من ديوان العقاد وافكاره الأدبية ... وانتشى العقاد للعرض الفنى
الجميل الذي تعاقب فيه المتكلمون ، وبلغ ذروة النشوة حين سمع
بعض قصائده ملحنة بنغمة سودانية ، فانحدرت منه الدموع وهو
يستمع للاستاذ محمود الفضلى فى انشاده الأخاذ لأحدى قصائد العقاد

ابعداً نرجى ام نرجى تدانيا   كلا البعد والقربى يهيج مابيا

ولكن اقامة العقاد فى السودان كانت قصيرة جدا ، فقد انقشعت اخطار أزمة الحرب فاسرع بالعودة الى القاهرة .

أول مهرجان أدبى

وفى ١٩٤٢ م أيضا انعقد اول مهرجان أدبى بمدينة امدرمان وهو فى الواقع ثانى مهرجان ، لأن الأول انعقد فى مدينة ودمدنى ١٩٣٩ بنادى ود مدنى ، مقر الجمعية الأدبية التى صدرت عنها فكرة المهرجان ، كما صدرت منها من قبل فكرة مؤتمر الخريجين وغيرها كفكرة يوم التعليم .. الخ .

فما اعظم تلك الجمعية التى تدل آثارها على انها كانت بمثابة الرأس المفكر ليس للجزيرة وحدها بل للسودان كله ،.. ولا عجب فأن تلك النوعية من الشباب الذين جمعتهم ظروف العمل فى ودمدنى فى اواسط الثلاثينات ، قد كانوا جميعا من عشاق القراءة والأطلاع وجاءوا من جمعيات ادبية متعدده ، كانت تعمر بها أنحاء العاصمة السودانية وسرعان ما جمعت بينهم نزعة القراءة، فأتلفت افكارهم وقرروا استئناف هوايتهم القديمة فى جمعية موحدة . . فكانت (جمعية ود مدنى الأدبية) .

ولحسن حظ النهضة الفكرية فى السودان ، فقد توفر لجمعية ود مدنى الأدبية من الهدوء فى منطقة الجزيرة ، ما منحها الفرصة التى لم تجدها الجمعيات الأخرى ، لكى تنصهر فيها كل افكار الجيل وهمومه وتطلعاته ، فليس غريبا اذن ان تظهر جمعية مدنى بذلك المظهر القوى، وتصبح مصدرا للافكار القيادية التى تبلورت حولها النهضة الوطنية الحديثة واتخذتها منهجا علمياً لمسيرتها . . وما اعظم جيل الثلاثينات فقد ادمنوا كلهم حب .. القراءة وتحصيل الثقافة العامة التى حرمهم منها انعدام الجامعات والمعاهد العليا .. ولقد ادركت جمعية ود مدنى الأدبية كجيلها

الزاحف ،ان الكفاح الوطني الذى يعدون انفسهم لخوض غماره لا بد له من الاستناد الى الفكر والثقافة،، وان اى تحرك وطني لا يقوده الفكر والثقافة ، انما هو جعجعة فارغة ، لا يرجى لها الاستمرار ولا القدرة على تحقيق الأهداف الوطنية .

فالمهرجان اذن وسيلة جيدة لأستمرار الفكر ،يجد فيها قادة الكفاح المقبل فرصة لعجم اعوادهم والأطمئنان على مواطن القوة فيهم كما انه من جهة أى عامل قوة الشعور بالقومية وتقويته من عام لآخر ، كلما جاءوا من الأقاليم من مختلف الجهات والقبائل ليشتركوا فى عمل موحد من اجل السودان كله .

ومن هنا فقد تعلقت كل مدن السودان بفكرة المهرجان الأولى وتبادلها فيما بينها كشعار من شعارات الحركة الوطنية ..ويقول الأستاذ أحمد خير فى كتابه (كفاح جيل) : (وقد اصبح المهرجان عيدا وطنيا وقد اصبحت شعلته مثل شعلة الأولمبياد عند قدماء اليونان ، تنتقل من اقاليم الى آخر ، فأسلمها نادي مدني الى نادى امدرمان ، ومن ام درمان تسلمها نادى الخرطوم ، ومنه الى الأبيض (عروس الرمال).. والآن هى تتوهج فى عطبرة .. وهكذا دواليك..

ولنعد الآن الى نادى ام درمان شيخ الأندية ، فى تلك الأمسية الزاهية من ليالى صيف ١٩٤٢ م ،لنرى تلك الجموع الحاشدة التى ضاق بها النادى وضاقت بها الطرق المؤدية اليه ،وكلها ملتفة حوله ومتجه بانظارها الى منصة الخطابة ، التى جلست حولها النخبة المختارة من الأدباء المتكلمون فى المهرجان ، يحف بهم كل رجالات العاصمة والأقاليم ، وكل الوجوه المرموقة والشخصيات اللامعة .. ويتقدمهم بعض الضيوف من ابناء البلاد العربية .. وبينهم اديبان مصريان جاءا ليشاركا فى المهرجان ، باسم ادباء مصر الشقيقة ،وهما الأستاذان محمد حسنين مخلوف وحافظ جلال .

كانت مظاهر الفرح والابتهـاج تعـلو وجوه الجماهير الغفيرة ، المقبلة على نادى الخريجين بأمدرمان ، مكان المهرجان ، كأنما هم فى يوم عيد ،.. وذلك لأنهم انما يعتبرون المهرجان ،حلقة من حلقات الحركة الوطنية المبشرة بالمستقبل . السعيد .. الحرية والديمقراطية .. وما كاد القاء الكلمات ياخذ طريقه الى الآذان ، حتى اخذ دوى التصفيق يتصاعد من الجماهير ، كلما اثار اعجابهم متكلم أو هزتهم قصيدة عصماء . والواقع ان مشاهد المهرجان قد اضفت على نفسى كثيرا من الارتياح والغبطة ، بل ان كثيرا من الكلمات قد اخذتنى روعتها وما توفر فيها من الجدية سواء فى القائها او فى اعدادها ، حتى بدت وكأنها أبحاث علميـة أو رسالات تلقى فى مدرجات الجامعة لنيلى احدى الشهادات العليا ..

ولا شك فى ان القائمين بأمر المهرجان ، قد خرجوا بحصيلة قيمة من الابحاث ، حول مختلف القضايا والموضوعات ، التى كانت تهم الجيل ، الى جانب ما جادت به قرائح الشعراء والفنانين وكتاب القصص .

ومن الطرائف التى تندر بها الناس فى تلك الأيام ، ما حدث بين الشيخ محمد سعيد العباسى ، وبين رقيب المطبوعات الحكومى آنذاك ، وهو لبنانى اسمه العيسوى . وكان المفروض ان يوافق هذا الرقيب على اى كلام يلقى فى المؤتمر قبل القائه .. فذهب اليه الشيخ العباسى وقدم له قصيدته المعروفه التى اعدها للمهرجان .. ومطلعها :

زد عتوا ازدك من حسن صبرى

واذقنى كأس العـذاب الامر

لست يادهر بالـغا من شبا عزمى

فـلولا ولو قلامـة ظفـر

وما كاد العيسوى يقرأ اول القصيدة ، حتى طار صوابـه ، لظنه ان العباسى كان يخاطب حسن صبرى باشا ، رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت ، فدفع باوراق القصيدة وهو يقول باللهجة اللبنانية : (ايش حسن صبرى؟؟ ما هذا يامولانا ؟ أول القصيدة كفر؟؟) فدهش الشيخ العباسى ولم يكد يفهم شيئا . . ولكنه سرعان ما ادرك ان ما كانت تعانيه حكومة السودان من عقدة مصر ، وتعاطف ابناء السودان معها ، هو الذى جر الرقيب المسكين الى الوقوع فى ذلك الالتباس المتعجل المشين .. فلم يكن فى ذهن العباسى ادنى شىء مما خطر للرقيب الهمام ، فقد كان العباسى فى اعلى الموجة الوطنية ، يخاطب الدهر الخؤون ويتحدى عذاباته بالصبر والاباء .وأنه لن ينال من عزمه ولا قلامة ظفره .. وهى صفات لا تستغرب من العباسى الذى ترب على غرة النفس والشمم. ويريد العباسى ان يستهل نها اسهامه فى عمل وطنى جليل كالمهرجان الادبى السودانى البهجت .. فما شأن حسن صبرى بهذه القضية السودانية الأصيلة ؟؟ ومن هو حسن صبرى بالنسبة للسودان وقضاياه ، حتى يستهل به العباسى قصيدة المهرجان الادبى ؟ لعل هذه خواطر العباسى فى تلك اللحظة وهو يشعر بالأمتعاض المشوب بالسخرية من تصرف الرقيب العجيب .

وما كان منه إلا أن سحب أوراقه ، زاهدا فى القاء القصيدة فى المهرجان ، ضنا بها ان يكون تحت رحمة مثل ذلك الجهل الفاضح .. وقد ظلت هذه القصة محل التندر فى السودان لفترة طويلة .

انشاء جامعة القاهرة فرع الخرطوم

ودور محمد عبد العزيز اسحق :

عرفته في اول عهدى بكلية الآداب بجامعة فؤاد وكان واسطة العقد بين الأصدقاء الذين يربط بينهم الفكر والأدب .. وكان حركة دائمة ونشاطاً ملحوظاً .. وقد اتخذ هؤلاء الأصدقاء لهم اسما وهو (جماعة التعاون الفكرى) ، ومقرها كلية الآداب وكانت لها مجلة باسم (الفكر الحر) .. ومن ابرز ما بقى بذاكرتى من اعضائها : على باكثير الأديب المعروف ، ود . عبد العزيز الأهوانى ،وحسن انيس وتوفيق حنا ود . عبد القادر القط ، ود . بخاطرة الشافعى .. وكنت انا ايضاً من اعضاء هذه الجماعة .. وكان عبد العزيز اسحق هو المحرك الحقيقى لكل مناشط هذه الجماعة من ندوات ورحلات واستقبالات لشخصيات كبيرة .

وبعد ان تخرج عبد العزيز من كلية الآداب ،لم تجد الجماعة من يمنحها من وقته وجهده ، مثلما كان يمنحها هو .. فتعثرت ثم توقفت مع الاسف الشديد .

التحق محمد عبد العزيز فى باكورة حياته العملية بالسلك الدبلوماسى الاردنى فى القاهرة ، ثم سافر الى الجزائر .. ولكنه ما لبث ان ترك السلك الدبلوماسى عندما لاحت له فرصة العمل بالسودان كاستاذ بكلية غردون الجامعية .. فجاء الى الخرطوم وبقى مدرسا بالكلية لاكثر من عامين .. ولم تزاوله طبيعته ذات الحيوية البالغة .. فاجتذب اليه عدداً كبيراً من الشباب السودانيين ، من طلبة الكلية وغيرهم بافكاره واشراقاته .. وكون منهم جماعة اشبه

ما تكون بجماعة التعاون الفكرى الأولى .. وقد [illegible] عبد العزيز
تقدير تلك الشلة الادبية من طلبة كلية غردون الجامعيين وهـم
لايزالون يذكرونه بكل اعجاب . . ومن هؤلاء الأخ عبد الرحمن
مهدى الذى ارتبط باستاذه عبد العزيز وباسرته ارتباطا عميقـا،
حتى اصبح صداقة دائمة ، كانت تفرض عـلى عبد الرحمن زيارة
منزل عبد العزيز كلما زار القاهرة ولم يتخلف عن اداء هذا الواجب
حتى بعد وفاة عبد العزيز ، فكان يزور اولاده ويتفقد احوالهم وفاء
لاستاذه وصديقه العظيم .. وقد علمت من الأخ عبد الرحمن مهدى
ان الاستاذ مهدى مصطفى الهادى يعتبر مرجعا فى كل ما يتعلق
بعبد العزيز اسحاق فى السودان ، وعند ما حضرت الى السودان
بعد قيام الحكم الذاتى فى ١٩٥٤ تجددت صلاتى بعبد العزيز ولعب
(التعاون الفكرى) مرة اخرى دوره .. فرايت مع الأخوة عقيل
وأحمد السيد حمد وأحمد الطيب عابدون وبشير البكرى ، ان
نستفيد من نشاط عبد العزيز وتواجده معنا ، للعمل على تنفيذ فكرة
جامعة القاهرة فرع الخرطوم التى كانت من بين تخطيطاتنا القديمة
ونحن فى مصر . . ولحسن الحظ كانت صلات عبد العزيز بصلاح
سالم وجمال عبد الناصر وغيرهم من رجال ثورة يوليو ،وثيقة جدا ..
فكانت ظروف مواتية .. فلعب ذكاء عبد العزيز ولباقته دورا كبيرا
فى السعى بين مختلف الاطراف ، مما ساعد كثيرا فى تدعيم الجهود ،
التى كانت تبذل فى هذا الصدد ، فى ذلك الوقت .. وانى لاذكر
بكل تقدير ، كيف كان عبد العزيز يسارع الى الأجتماعات التمهيدية
الأولى بمنازلنا بامدرمان لهذا الغرض .. وكيف كان يطير عبد العزيز
الى القاهرة ثم يعـود الينا بما يطمئننا على ان المسألة قد دخلت
طور التنفيذ ، ولبساطة عبد العزيز وتهوينه للامور مهما كبرت ،

لم نكد نحس بان الامل الضخم قد تحقق ،وأن (جامعة القاهرة فرع الخرطوم) ،قد تقرر انشاؤها وما هى إلا ايام حتى رأينا الصحف المصرية والسودانية ، تزف البشرى العظيمة لشعب السودان .. وما هى الا شهور قليلة ، حتى رأينا محمد عبد العزيز ببساطته المعهوده يتولى تسجيل طلبات الالتحاق ويعلن عنها فى الصحف .. وعند ما جاءته سفرة مفاجئة الى القاهرة ، ترك مهمة تلقى طلبات الالتحاق فى مدة غيابه لشخصى واعلن ذلك فى الصحف ، وكنت فى ذلك الوقت اعمل فى مكتب الخبير الاقتصادى المصرى ، كمدير للمكتب الثقافى وفعلا تلقيت بعض الطلبات اكثرها من الموظفين ، لان الدراسة كانت مسائية .. ولم تسعفنى الذاكرة بالاسماء ولكنى اذكر منها احد ابناء السيد احمد مكى عبده الادارى السابق ولعله فؤاد واذكر المرحوم محمد حاج حسين .

ثم استدعى عبد العزيز الى القاهرة نهائيا للقيام بعمل اخر هام ، وهو المكتب الأفريقى الذى انشاته ثورة يوليو ... فتوقف العمل بعض الوقت ، وخاصة بعد ان اضطربت الظروف السياسية بين الحكومة الوطنية الجديدة فى الخرطوم وبين حكومة مصر.

ولكن كان امر الجامعة اكبر شأنا من الظروف السياسية العابرة .. ولذلك فقد استؤنفت خطوات التنفيذ وسارت بسرعة .. ولكنها كانت بعيدة عنى شخصيا .. فلم ادع للمشاركة ولم اتتبعها من جانبى ، حتى اكتملت وفتحت ابوابها للطلاب ولازالت تفتحها حتى اليوم .

وسوف اعود لموضوع الجامعة الفرع ، وللظروف التى ابعدتنى عنها ، واهمال المسؤلين عنها لشخصى ، فى الجزء الثانى من هذه

المذكرات ان شاء الله .. واكتفى الان بالاشارة الى تلك الأسباب في جملتها وهـي انـي نصحـت لبعـض رجـال الثـورة بقبول استقلال السودان وقطع السبل امام خصوم مصر وازالة الشكوك التي زرعوها ، واحلال الثقة محلها .. فلذلك اجدى لتحقيق الاتحاد في المستقبل ، من اتحاد يقوم على ارض بثت فيها الالغام والقنابل الزمنية .. فكان جزائي الاقصاء عن عملي والنظر الى شخصي كخارج على المبادى ...

رحم الله محمد عبد العزيز اسحق ، واجزل له من المثوبة والرضوان بقـدر ما بـذل واعطى في سبيل انشاء جامعة القاهرة فرع الخرطـوم .

لقاء أزهرى وديجول

لم تقف اهتمامات هنرى كوريل القيادى الشيوعى بقضية السودان عند لقاءاته مع كبار السودانيين وقادة الرأى فيهم، بل كان يسعى لكى تتم مثل تلك اللقاءات بينهم وبين بعض الشخصيات العالمية، كلما مر منهما احد بالقاهرة، خلال فترة الحرب العالمية الاخيرة. ومنها ذلك اللقاء الذى تم بين الجنرال ديجول قائد فرانسا الحرة والسيد اسماعيل الازهرى، رئيس مؤتمر الخريجين العام انذاك.

فقد حدثنى السيد عبده دهب عن ذلك اللقاء فقال فى احد الايام من اواخر عام ١٩٤٤ج، دعانى السيد هنرى كوريل لحضور لقاء قال انه سيتم بين شخصية عالمية والسيد اسماعيل الازهرى، دون ان يفصح كوريل بان الشخصية العالمية هى الجنرال ديجول رئيس حكومة فرنسا الحرة ورمز مقاومة الاحتلال الالمانى ابان الحرب العالمية الاخيرة.

وكان مكان اللقاء منزلا بميدان طلعت حرب (سليمان باشا) سابقا. فذهبت اليه بصحبة الاخ محمد امين حسين وزميل ثالث لعله عبد الوهاب زين العابدين. وبعد قليل جاء السيد اسماعيل الازهرى ومعه السيدان اسماعيل عثمان صالح ومحمد عبد الرحمن الكبيدة.

ثم جاء الجنرال ديجول فى ملابس مدنية، وقد كان قادما من الجزائر وما كاد يجلس حتى اخذ فى التحدث الى السيد اسماعيل الازهرى، وكان يترجم له الدكتور تحسين المصرى.

سأل الجنرال ديجول السيد اسماعيل الازهرى قائلا

الآن نحن فى المراحل الاخيرة للحرب، وسوف نقبل على مؤتمرات اخرى بعد مؤتمر يالتا ، نتناول فيها قضايا الشعوب الواقعة تحت وطأة الاستعمار ، فماذا نقول عن قضية السودان ؟ فقال الازهرى مطلبنا هو ان تقوم فى السودان حكومة سودانية ديمقراطية حرة ، فى اتحاد مع مصر ، تحت التاج المصرى .

فقال ديجول كيف تتفق كلمة (حرة) مع كلمة (تحت التاج المصرى ؟) فقال الازهرى : المقصود بالتاج المصرى هو تفادى تاج آخر تقوم بأعداده حكومة السودان فى الوقت الحاضر.

ثم سأل ديجول : هل السودان امة واحدة ام شعوب وقبائل ؟

فقال الازهرى : السودان امة واحدة .

فقال ديجول : هل تكور وتماسك ؟

فقال الازهرى : نعم .

فقال ديجول : اذن من حق السودان ان يطالب بتقرير مصيره . . ثم دارت بعد ذلك مناقشات عامة ، اشترك فيها كل الحاضرين حول مبدأ تقرير المصير ومدى انطباقه على الشعب السودانى .

مدرسة الحقوق فى زيارة مصر

فى ابريل ١٩٤٣ قام طلاب مدرسة الحقوق بالخرطوم بزيارة الى مصر للتعرف على اوضاعها واحوالها ، وهم على وشك التخرج والدخول فى معترك الحياة ، كمحامين وطلاب للحقوق التى فى مقدمتها حقوق بلادهم الوطنية والسياسية . . فقد كانوا يشعرون بأن ثقافتهم القانونية قد القت على كواهلهم مسئولية خاصة تجاه المعركة الوطنية التى كان الجيل كله يعد العدة لخوضها ضد الاستعمار .

وما كادت تصل البعثة الحقوقية القاهرة حتى رحبت بها كل الهيئات وخاصة جامعة القاهرة التى انزلتهم على ضيافتها ، واحتفى بهم الجميع واقاموا لهم حفلات التكريم والابتهاج . وكان القصر الملكى في المقدمة، حيث اخذ رجالة البعثة ، فى رحلة شائقة الى الحدائق الملكية فى ضاحية انشاص الشهيرة ، فقضوا فيها يوما بهيجا ، عادوا بعده محملين بالهدايا الثمينة و اقفاص الفاكهـــة .

وفى نهاية الرحلة الميمونة ، اقام السيد على البرير رئيس لجنة المؤتمر بالقاهرة ، حفلا كبيرا لتكريم كل الهيئات التى احتفت ببعثة مدرسة حقوق الخرطوم .

وقد تبودلت كلمات عامرة بالمشاعر والتطلعات الوطنية . . وتكلم من اعضاء البعثة الاستاذ احمد خير ، فاشاد بدور مؤتمر الخريجين وقيادته للحركة الوطنية . وقد اثارت كلمة احمد خير غضب حكام السودان البريطانيين ، فاستدعوه وحققوا معه

وقرروا فصله من الدراسة ، لولا ان زملاءه في السودان ومصر آزروه ووقفوا بجانبه وقفـــة صلبة جعلت الانجليز يتراجعون . والااكاد اذكر من اعضاء تلك الرحلة الميمونة الا الاساتذة احمد خير ومبارك زروق وزيادة ارباب وبابكر عوض الله .

اسماعيل عثمان صالح :

كان من الشخصيات السودانية المرموقة فى مجتمع القاهرة خلال الثلاثينات والأربعينات ، لا لانه كان يمثل بيت عثمان صالح احد البيوتات الأقتصادية الكبرى فى السودان ، ولكن لانه جاء الى القاهرة من خلفية وطنية عريقة ضاربة الجذور فى حليات النضال ضد الاستعمار البريطاني الذى كان جاثماً على صدر البلاد .

ففى نادى الخريجين ، يوم كانوا يحملون هموم الوطن كله ، وفى مؤتمر الخريجين ، يوم رفعوا لواء الجهاد عاليا خفاقا ، كان اسماعيل دائما فى الصف الأول بين اقرانه ، ومن ثم كان منزل اسماعيل بمنيل الروضة بالقاهرة مرموقا ايضا ، يؤمه كثير مـــن قادة الرأى والمهتمين بالقضايا الوطنية من امثال محمد نجيب وانور السادات وغيرهم ايضاً من قادة الطلبة السودانيين وزملائهم من الشبان المصرين المتحمسين للأعمال الوطنية . وكان لتردد بعض هؤلاء على منزل اسماعيل اثار شائكة ، عرضته احيانا للحرج ، كما حدث عقب مقتل الدكتور احمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدى ورئيس الحكومة المصرية فى ١٩٤٤ داخل مبنى البرلمان ، برصاصة من العيسوى ، احد المحامين الشبان . وذلك بعد ان القى الدكتور ماهر بيانه بضرورة دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء فى مجلس النواب وخرج لألقاء البيان نفسه فى مجلس الشيوخ فاغتيل فى الطريق بين القاعتين وكذلك

عقب مقتل امين عثمان باشا وزير المالية فى حكومة الوفد وقد اغتيل فى يونيو ١٩٤٦ عـلى يد حسين توفيق تلميذ انور السادات فى الحركة الوطنية .

وكنت اود ان يحدثنا الأخ اسماعيل بنفسه عما حدث فى الواقعتين ولكن سفر اسماعيل خارج السودان جعلنى اكتفى بذكر القليل مما لا يزال عالقا بذاكرتى من الحادثتين المروعتين .

ففى واقعة اغتيال احمد ماهر كان العيسوى القاتل قبيل الحادث يحضر من وقت لاخر الى منزل اسماعيل مع بعض كبار الطلبة السودانيين ، كما ان رجال المباحث قد عثروا اثناء التحقيق على صورة بطاقة زيارة لاسماعيل عند العيسوى، مما اثار الشبهة حول اسماعيل . وكاد زبانية الشرطة المتوترون ان يلقوا القبض على اسماعيل، لولا ان النقراشى باشا، خليفة احمد ماهر ورئيس الحكومة بعده ، كان يعرف اسماعيل معرفة وثيقة ، لانه كان بينهما تعاون على مسائل سودانية دقيقة ، عهد بها السيد اسماعيل لازهرى لاسماعيل عثمان صالح ، لكى يعالجها مع النقراشى باشا . . ولفرط ثقة النقراشى فى اسماعيل امر بان يكون التحقيق تحت الاشراف المباشر لمكتبه الخاص برئاسة مجلس الوزراء .

وقد تبين بوضوح انه لم تكن للعيسوى اية صلات باسماعيل اكثر من حضوره لمنزله مع بعض الطلبة السودانيين، وهكذا اتضح موقف اسماعيل وبعده عن اية شبهة فى ذلك الحادث الخطير .

اما فى الواقعة الثانية اى مقتل امين عثمان ، كان الصديقان اسماعيل وأنور السادات، على موعد للذهاب معا لتلبية دعوة فرح، ولحسن الحظ حدثت ظروف لاسماعيل، جعلته يتخلف عن مرافقة السادات ، فذهب الاخير بمفرده لتلك الحفلة . . وما كاد الليل

يرخي سدوله فى تلك الامسية . حتى روعت القاهرة بنبأ مقتل امين عثمان باشا وطارت الاشاعات فى كل مكان بأن أنور السادات كان وراء حادث الاغتيال . . وهكذا [illegible] لا تحوم اية شبهة حول اسماعيل فى هذا الحادث حيث تخلف [illegible] السادات فى الذهاب الى حفل الفرح المشار اليه .

الشيخ عبد الاه أبو سن

كانت القراءة ديدن ذلك الجيل وادمانه ، فلم تكن تهنأ لهم لقاءات او عطلات الا على كتاب يقرأونه ويحللونه او ينتقدونه ويعلقون عليه .

واذكر انى فى سنة ١٩٣٨ كنت عائدا من القاهرة لقضاء العطلة الصيفية فنزلت بالدامر لقضاء يومين فى منزل الاخوين الشيخ عبد الاه ابراهيم ابوسن والاستاذ داوود عبد اللطيف اللطيف . حيث التقيت عندهما بالعزيزين الراحلين الشيخ محمد الخاتم والاستاذ مبارك زروق ، بدعوة منهما لى قبل أن اتحرك من القاهرة .

وبالرغم من الهموم الوطنية التى كانت تؤرق امثالهم من المثقفين فقد كان محور ذلك اللقاء ، هو قراءة بعض الكتب والابحاث ، ذكر منها كتاب طه حسين (حافظ وشوقى) الذى اقبلوا على قراءته بشغف وتدقيق ، وتداولوا فيه النقاش الذى شمل كل جوانبه حتى النحو والصرف .

وكانت وقفتهم طويلة عند تفضيل طه حسين لحافظ على شوقى ، وما جرهم اليه ذلك من الموازنة الدقيقة بين الشاعرين العملاقين . ثم التعرض الى تلك الحملة الجائرة الى كان يقودها طه حسين والعقاد وزملاءهما ضد شوقى واشعاره ، بأنها كانت تقلب عليها الصنعة والتكلف واتهام شوقى بضعف الشعور الوطنى

... للأسرة المالكة وليس للشعب المصرى ، حتى ...حسين بدأ الكلام عن شوقى فى هذا الكتاب بقوله (رجل ولد بباب اسماعيل) استنادا على قول شوقى

أأخون اسماعيل فى ابنائه * * ولقد ولدت بباب اسماعيل

هكذا كان المثقفون فى ذلك الجيل يقضون اوقات فراغهم

وعندما نقل الشيخ عبد الاه قاضيا لمدينة كسلا، أنشأ بها حركة ادبية ناشطة ، عنت بالتراث الادبى والفنى فى تلك المنطقة وخاصة فى قصة تاجوج المشهورة . . وفى صبيحة احدى الجمع ، قاد الشيخ عبد الاه موكبا من الشبان المتعلمين لزيارة قبر تاجوج فى احدى ضواحى كسلا، وهناك وعلى قبر تلك الفاتنة الباهرة الجمال ، وقف عبد الاه وزملاءه خاشعين فى محراب الجماعة فالقى الشيخ عبد الاه قصيدة زاخرة بالمشاعر نحو مواهب الجمال الغامرة التى اودعها الله فى حسناء عصرها، تاجوج .

ولقد عفا الزمن على الكثير من ابيات تلك القصيدة التى طالما تغنينا بها ايام الشباب،ولكن مطلعها لازال حيا فى ذاكرتى :—

قبر تاجوج سلام * * انت للحسن مقام

فى بلاد شعبها * * جهل الحسن فنام

روح تاجوج تعالى * * خبرينى عن همام

خبرينى عن محلق * * عن وفى للزمام

وفيها يعرج على الاستعمار كعدو لدود فيقول :—

غير ان الخصم ند * * عبقرى فى اللئام

يقلب الانصاف جورا * * قلبه للحمد دام

وانى لارجو اليوم مخلصا ان يكون الشيخ عبد الاه محتفظا بتلك الاشعار الوطنية التى كنا نحفظها له ونسمع ترددها فى كل

مكان ، وان يقوم بجمعها واهدائها للاجيال الحاضرة، في ديوان يحمل اسمه ، فهي في الواقع جزء من التراث الوطني، وينبغي على مولانا عبد الاه الا يحجبه عن الاخرين .

وثائــق الـكتــاب



ـ تضم الصورة من الشخصيات السو انية السادة: على البرير ، أحمد السيد حمد ، عبد الماجـد أبوحسبو ، حسن عبد اللطيف ، محمد عثمان هاشم ، صلاح الدين عثمان هاشم ، أحمد دهب حسين عبد الرحمن الشلالى . عبد اللطيف الخليفة

الاحتفال بأحدى المناسبات القومية السو دانية بجامعة فؤاد فى فترة الاربعينيات .

كلمة

عمر الأمين العرابي
قومندان مدرسة البوليس
بالسودان

في زيارته لبيت السودان بالقاهرة يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٤٦
بمناسبة حفلة التكريم التي أقيمت للسيد عبد الله
الفاضل المهدي لسفره من السودان يوم ٢٥ يناير
سنة ١٩٤٦ ، قال :

لقد زرت بمعية السادة والأحباب بيت السودان
وسرني ما رأيت لديهم من حرارة ولقد شاهدت
مشاهدة فوجدت أن مصر قد أسدت للسودان
معروفا وجميلا يقدره السوداني إذ أوصت لنا
بوطننا الثاني وأحسنت رعاية أبنائنا وتثقيف
عقولهم والعناية بأمرهم إلى حد يجعلنا نشعر بأن
المصري صاحب معروف وفضل على ابن السوداني . أطال
الله عمر المليك وبارك في أعوانه إنه سميع مجيب

صورة من خطاب السيد عمر الأمين العرابى ، قمندان مدرسة البوليس بالسودان عام ١٩٤٥م
والذى زار القاهرة وحضر حفل تكريم السيد عبد الله الفاضل المهدى الذى أقيم ببيت السودان .

من خضر حمد الرد على الاتهامات التى وجهتها جريدة مصر الفتاة لمؤتمر الخريجين

عزيزى الاخ عبد اللطيف

لك تحياتى واشواقى - قضيت العيد فى الابيض ولم احضر المؤتمر تقريباً من دوشة الايام الاخيرة والدعايات السيئة التى لم استطيع احتمالها ولكن ولله الحمد كان الاجتماع هادئا مشرفاً وكانت الدعاية ضعيفة وفى وقت قصير ولذلك كانت لجنة السنين حسنة ومرضى عنها من كل الجهات اما الدعاية السيئة جدا فقد كانت فى اللجنة الخمسة عشر ولذلك ظهرت ضعيفة غير متجانسة كما تراها - استقال منها النيل ابتعاداً من ان يكون لاسمه اثر لا تكون صالح المؤتمر وابتعد عثمان القاضى ليضرب مثلا لمن يظنون ان العمل فى اللجنة شرف يتطلع اليه الناس وقد كان هذا رايه من زمن وقد عمل للمؤتمر كثيرا ودعى له ومجهوده لا ينكر ولكن لما كان منها فتخرص الناس كثيرا ولكن اريد ان انصفه واقول انه مخلص فى خطواته للمؤتمر

علمت ان الصرخة علقت على المؤتمر وكتبت عنه مطولا فارجوك ان ترسل لى المقال او العدد وعنوان احمد حسين او فتحى رضوان او محمد صبيح لانى اريد ان ادخل معهم فى حديث طويل عن المؤتمر وعن حزبهم وعن اتجاهاتهم الاخيرة .

ما هذه الرابطة التى ستاسسونها وهل جوكم صالح لها وهل انتم فى غنى عن المجهود الذى بذل فى تاسيسها والدفاع عنها ؟ ارجو ان تخبرنى مطولا عنها وعن خطواتها

تحياتى لليلى المريضة ولمن حولها ولابن البكباشى شكوك الذى اصبح هو نفسه شكوك آخر وسبحان الذى عما قال مهما ابتلى به غيرك لك تحياتى ولجميع الاخوان ٢٨ر٢ر١٩٣٨

اتصلنا بطلبة الجامعة واخذناهم فسحة حول امدرمان والى بيت الخليفة بالعربات ثم مررنا معهم على السوق ثم عرجنا بهم الى النادى وكان سمرا لطيفا ثم دعينا غيرهم فى حفلهم الساهرة وقابلت ابراهيم عبده ووجدت عنده عنوانى ومحجوب والتجانى ولكن التجانى كان مريضا فعرفته بمحجوب وغيره من الاخوان لعلهم يكونوا مسرورين من الرحلة

ردعلي بيان دولة صدقي باشا

وقد أطلعنا اليوم على تصريح لدولة رئيس الوزارة المصرية فى جريدة الاهرام ولا يسعنا إلا أن نعلق عليه بما يلى :-

إن أول واجبنا أن نشكر لدولته ترحيبه بالوفد ثم نود أن نوضح لدولته أن المعلومات التى انتهت إليه عن تكوين هذا الوفد وما يتصل به بعيدة عن الحقيقة . فالوفد يمثل السودان لانه مكون تكوينا اجماعيا من المؤتمرو الاحزاب والهيئات والطوائف السودانية جميعا التى تمثل بدورها الرأى العام أصدق وأتم تمثيل . وأنه لا يزعجنا أن تعرف دولته وهو رئيس وفد المفاوضات المصرى إلى رأى السودانيين فى مصيرهم؛ ذلك الرأى الذى يحمله وفدنا ولكن كل ما نخشاه أن تكون مصادر معلومات ,, غيرهم ،، التى أشار إليها دولته والتى قد يرتكن إليها فى تعرف وجهة نظر السودان مستقاه من نفس المصادر التى استمد منها وزير الخارجية البريطانية ما بنى عليه بيانه الاخير فى مجلس العموم .

ونرجو مخلصين أن يذكر دولة صدقى باشا ان سياسة التشكك فى صحة تمثيل الوفود الوطنية لبلادها سياسة بليت بها مصر من فجر جهادها فان تكن هناك محاولات لتعرف رأى السودانيين عن غير طريق وفدهم الذى ارتضوه فستلقى تلك المحاولات انشاء الله ما لقيته لجنة ملنر فى مصر .

وأمامنا شدة دولته للوفد بالابتعاد عن كل ما من شأنه تعكير الجو فى هذه الظروف الدقيقة فاننا لنؤكد اننا أحرص ما نكون على صفاء الجو الذى ينشده وننشده جميعاً لتحقيق الامانى الوطنية . والسودانيون يعلمون أن المسألة السودانية مسألة قومية فى نظر الاحزاب المصرية وهى جميعاً لدينا سواء .

رئيس الوفد

اخى عبد اللطيف :

لك تحياتى وأشواقى وصلنى خطابك المطول فاشكرك كثيرا وقد اتصلت فى الحال بلجنة المؤتمر ونبهتهم الى اهمية الاتصال بعوض بك ابراهيم وقد كانت هنالك لجنة خاصة لشئون الطلبة بمصر ولكنها لم تفعل شيئا وامس اتصل بعض اعضاء المؤتمر بعوض بك ابراهيم وتحدثوا معه طويلا ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة معينة غير الوعد بالعمل الصالح ، ونبهتهم الى ان اللجنة الدائمة القادمة للسودان قريبا تسطيع ان تعمل كثيرا فيجب الاتصال بها ووضع تقرير واف وسينهى المؤتمر هذا التقرير الوافى ان شاء الله ليقدمه لها.

ستبتدىء اجازتى انشاء الله فى ١٨ الجارى وقد عزمت على الحج كما تعلم وسأغيب حوالى الشهرين فارجوا ان يوفقنى الله الى عمل ما .

المؤتمر اوشك على الانتهاء ولن احضره هذه المرة كما لم احضره المرة الماضية ولكنى ارى أن المنتخبين هذه المرة يجب ان يكونوا اكثر حذرا وألا يتجزعوا بالوظائف وكبر السن فالمؤتمر فى حاجة الى الروح لا التفاهم مع الحكومة لاننا ان اصبحنا اقويا فى نفوسنا اخضعنا الحكومة لاحترامنا والتفاهم معنا . . . مجلة المؤتمر ستصدر فى هذا الأسبوع وساحاول ارسال عدد لك وسبب التأخير هذه المرة الطويلة الى اول ديسمبر كما كنا نعود اصدارها من المطبعة وادارة المطابع حتى فى فقط .

صودرت جريدة مصر الفتاة من السودان من العدد الذى نشره فيه الخطاب الموجه الى جلالة الملك ، وقد طلبت من الاخ عقيل فوافق على تعيين قطع عن هذا العدد والذى يليه فارجوك بأسرع مايمكن ان ترسل لى مقطوعات اخرى من المجلة فيما يختص بالسودان او غير السودان وسيقرأ هذه المقطوعات اكبر عدد ممكن وسأسأل عقيل عن الاعداد التى ارسل مقطوعات منها وارسل التى يليها ولك شكرى .

اليوم تظهر نتيجة المدرسة الاهلية ولا زلت مهتم للولد وارجو ان تكون نتيجة حسنة حتى تساعدنى على الدفاع عنه اكثر

تحياتى لكل الاخوان وعقيل وليلى المريضة (قيلى احمد عمر) ٣ر١١ر١٩٣٨ .

كلمة بيت السودان فى مهزلة ۱۸۹۹

لم تكن مهزلة ۱۸۹۹ التى يسميها الانجليز «معاهدة» الا محاولة اغتصابية لاعطاء البريطانيين ذريعة مستكرهة للبقاء فى جنوب وادى النيل . ولم يكن موقف المصريين منها منذ ان زيفت عليهم الا موقف الاستنكار والسخط ، ولم يكن مقتل بطرس غالى باشا الا التضحية التى لا تملك مصر غيرها فى ذلك الوقت لكى تدفع عن نفسها عار القبول والاستسلام .

وليس فى كافة الظروف المعروفة لهذه المأساة الملفقة ولا فى الاعتبارات القانونية او السياسية المحيطة بها ما يمكن ان يبقى لها صفة واحدة من صفات المعاهدات أو الاتفاقيات الدولية المعروفة بهذا المعنى فهى ليست اذن الا اعترافا منتزعا قسرا من حكومة صورية لا تملك حق ابرام المعاهدات فضلا عن كونها متهاونة مسلوبة الادارة .أما السودان الذى لم يكن له يد فى ابرام هذه المهزلة فموقفه منها كموقفه من اى معاهدة أو اتفاقية لم يكن هو طرفا فيها أى الرفض والاستنكار الصريح الذى ينتفى معه أى تقيد أو التزام بشىء ما مما جاء فيها . فهى فى نظر السودان مؤامرة حبكت فى الظلام وليس لامثال هذه المؤامرات مكان بين المعاهدات القانونية فى عالم اليوم بتنظيماته الانسانية والدولية الحديثة .

ايها المصريون والسودانيون احملوا على هذه الاتفاقية الباطلة المزورة حملة رجل واحد واضربوا عليها بكل عزم وقوة فهى باطلة ما اردتم بطلانها وهى لا غية ما عملتم على الغائها .

فالى الجهاد والتضحية والاقتحام فان «معركة الحرية — كما يقول مصطفى كامل — مع الغاصب والعدو الاكبر معركة حامية وانكم سوف تربحونها ولو طال عليكم الامد .»

قــل للذى تــاء بالأسطــول مفتخـــراً ۔۔۔ والبغى لــؤم فيــه بالعــدل مفتخــراً
لابد للضعــف من ظلم يثــور بــــه ۔۔۔ والويل للظــم من ضعــف اذا ثــأرا

احتفال السودانيين بتكريم زعيم دينى كبير

الاهرام ٨ يوليه ١٩٤٧



السيد الحسن الادريسى فى الوسط والى يمينه حسين حسنى بك، والى يساره السيد الميرغنى الادريسى وصالح حرب باشا ومحمد فتوح باشا وفضيلة الشيخ حسن مأمون .

اقام السودانيون فى القاهرة يتقدمهم الاستاذ اسماعيل الازهرى امس حفلة شاى شائقة فى فندق الكونتننتال تكريما لسيادة السيد الحسن الادريسى الزعيم الدينى السودانى شهدها كثير من علية القوم والتجار وذوى الراى والمكانة.

وبعد الشاى القى الاستاذ عبداللطيف خليفة سكرتير لجنة الاحتفال كلمة نوه فيها بفضل المحتفل به ومزاياه . وقال انه الساعد الايمن للزعيم الكبير السيد الميرغنى باشا

ثم دعى الاستاذ اسماعيل الازهرى الى الخطابة فتكلم عن جهاد الزعماء الدينيين وكيف يكون له اكبر الاثر فى نجاح القضايا السياسية

وانشد بعده الشاعر الاستاذ محمد الاسمر قصيدة عامرة استعيدت ابياتها مرارا . ثم القى الاستاذ محمد عبدالحليم العتابى كلمة عن التجار السودانيين . واعقبه الاستاذ حسن الازهرى فانشد ابياتا رقيقة

ثم تكلم سعادة اللواء صالح حرب باشا عن الاحتكام فقال انه لافائدة من الضمير الدولى وان وادى النيل الذى يبلغ عدد سكانه ٢٧ مليونا هو الذى يقرر مصيره بنفسه

وانتهت الحفلة بكلمة من سيادة السيد الميرغنى الادريسى شقيق المحتفل به .وقد شكر فيها لاهل الوادى تكريمهم لشقيقه ودعا فى ختامها لجلالة الملك . ثم هتف الحاضرون ثلاثا بحياة جلالة ملك مصر والسودان

الاهرام ٨ يوليو ١٩٤٧ .

نادي
خريجي مدارس السودان
بالخرطوم

SUDAN SCHOOLS CLUB
KHARTOUM

الخرطوم في ١٥ يوليه سنة ١٩٣٨

حضرة السيد عبد اللطيف أمين الخطيب المحترم
بعد التحية

تنتهز جمعية الثقافة العامة بنادي الخريجين بالخرطوم فرصة وجودكم بالعطلة المدرسية وتطلب إليكم التكرم بإلقاء محاضرة بساحة نادينا عن (حياة الطالب السوداني بمصر) ويسرها لو ينا سبكم إلقائها مساء يوم الإثنين ٢٥ يوليه الجاري في تمام الساعة السابعة

ولكم الشكر سلفاً
المخلص

صالح محمود إسماعيل
سكرتير الجمعية

جانب من نشاط المؤلف أثناء فترة العطلات الصيفية بالسودان .

تلغرافياً : (البربر) - موسكى مصر

تليفون ٥٠٥٤٧ - ٤٤٥٢٦

علي البربر

مصر : ٣٦ شارع جوهر القائد

سجل تجارى ٣٧٥١٤

القاهره فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٥

ص. ب ١٨٥٨

حضرة المحترم الاستاذ عبد اللطيف الخليفة عضو لجنة التعليم

بعد التحية . الرجا التكرم بالحضور يوم الخميس الموافق ١٥ اكتوبر ١٩٤٥ م

الساعة بمكتب الاستاذ على البربر نظرا لاجتماع لجنة التعليم

في التاريخ والساعة المذكورين وجدول الاعمال موضح ادناه

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ،،

سكرتير لجنة التعليم

[توقيع]

جدول الاعمال

١ - النظر في تجديد قبول الطلبة ببيت السودان

٢ - وضع قواعد جديدة لالحاق الطلبة الجدد بالبيت

٣ - النظر في لائحة البيت

٤ - تحديد علاقة اللجنة بوزارة المعارف

خطاب ارسل من بشير البكرى سكرتير لجنة التعليم التابعة للمؤتمر بالقاهرة للمؤلف .

SUDANESE CLUB

Midan Soliman Pasha No. 3

CAIRO

Telephone No. 44329

النادي السوداني

ميدان سليمان باشا نمرة ٣ بمصر

تليفون ٤٤٣٢٩

٤٠٤ س

تحريراً في ٢٢/٥ سنة ١٩٣٦

حضرة [illegible] الحاج [illegible]

قرر مجلس ادارة النادي السوداني بجلسته المنعقدة [illegible] تاريخه فصلكم

[illegible] الاحد [illegible] اعضاء النادي [illegible]

[illegible]

صورة آخرى من الصراع الذى دار بين الطلبة السودانيين وادارة النادى السودانى بالقاهرة فى بداية عهدهم عام ١٩٣٦ م

(McC. 9236) S.G. 901 C.S. 2000 6/41

No. ....

VISA APPLICATION FORM

FOR ENTRY INTO OR TRANSIT THROUGH EGYPT

DATE, 27/8/1942.

SURNAME (in block capitals) : Abd Allatif Al Khalifa.

Forenames :

Place of birth : Khartoum North.

Date of birth : 1914.

Nationality : Sudanese

Profession or Occupation : Student, F. 1st University Cairo.

Address of permanent residence in the Sudan : Omdurman, Abd Allatif Alkh

Description of Passport or other identity documents :

Number and issuing authority :

Destination : Cairo.

Address in Egypt : Faculty of Arts, F. 1st University, Giza

Date of proposed arrival in Egypt : 5th of Sept. 1942.

Purpose of visit : To Continue Education.

Credentials and references in Egypt : El Syd Mirgani El Idrisi.
Mohamed Eff. Hassan Khalil.

(Signature) Abd Allatif Al Khalifa.

This section should not be completed by the applicant.

REMARKS :

VISA
Valid for
... the Interior
3/225
30-8-42 FOR CIVIL SECRETARY

جانب من ممارسات الادارة البريطانية فى السودان والقيود التى فرضتها لتحد من السفر
إلى مصر .



المرحوم السيد على البرير كبير السودانيين بمصر .

اخى عبد اللطيف :

لك تحياتى وأشواقى وصلنى خطابك المطول فاشكرك كثيرا وقد اتصلت فى الحال بلجنة المؤتمر ونبهتهم الى اهمية الاتصال بعوض بك ابراهيم وقد كانت هنالك لجنة خاصة لشئون الطلبة بمصر ولكنها لم تفعل شيئا وامس اتصل بعض اعضاء المؤتمر بعوض بك ابراهيم وتحدثوا معه طويلا ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة معينة غير الوعد بالعمل الصالح . ونبهتهم الى ان اللجنة الدائمة القادمة للسودان قريبا تسطيع ان تعمل كثيرا فيجب الاتصال بها ووضع تقرير واف وسينهى المؤتمر هذا التقرير الوافى ان شاء الله ليقدمه لها.

ستبتدىء اجازتى انشاء الله فى ١٨ الجارى وقد عزمت على الحج كما تعلم وسأغيب حوالى الشهرين فارجوا ان يوفقنى الله الى عمل ما .

المؤتمر اوشك على الانتهاء ولن احضره هذه المرة كما لم احضره المرة الماضية ولكنى ارى أن المنتخبين هذه المرة يجب ان يكونوا اكثر حذرا وألا يتجزعوا بالوظائف وكبر السن فالمؤتمر فى حاجة الى الروح لا التفاهم مع الحكومة لاننا ان اصبحنا اقويا فى نفوسنا اخضعنا الحكومة لاحترامنا والتفاهم معنا . .

الطويلة الى اول ديسمبر كما كنا نعود إصدارها من المطبعة وادارة المطابع حتى فى مجلة المؤتمر الشهرية فقط .

صودرت جريدة مصر الفتاة من السودان من العدد الذى نشره فيه الخطاب الموجه الى جلالة الملك . وقد طلبت من الاخ عقيل فوافق على تعيين قطع عن هذا العدد والذى يليه فارجوك بأسرع مايمكن ان ترسل لى مقطوعات اخرى من المجلة فيما يختص بالسودان او غير السودان وسيقرأ هذه المقطوعات اكبر عدد ممكن وسأسأل عقيل عن الاعداد التى ارسل مقطوعات منها وارسل التى يليها ولك شكرى .

اليوم تظهر نتيجة المدرسة الاهلية ولا زلت مهتم للولد وارجو ان تكون نتيجة حسنة حتى تساعدنى على الدفاع عنه اكثر

تحياتى لكل الاخوان وعقيل وليلى المريضة (قيلى احمد عمر) ٣ر١١ر١٩٧٨ .

حضرة المحترم الاستاذ عبد اللطيف الخليفة (بيت السودان) بعد التحية :- فى مقابلتى لمعالى وزير المعارف منذ يومين فهمت منه انه يجب على الطلبة ان يساهموا فى مصاريف البيت وذلك لانى سبق قابلت سعادة وكيلى الوزارة الذى قال ان اجرة البيت كان مفهوما لديه انها ليست على الوزارة وعلى كل حال ان الوضع جميعه لا يزال فى كفة القدر وبما ان اللجنة ليس لديها نقود كافية خصوصا وانى فهمت من عبد العظيم ان مصاريف الكهرباء والاسلاك وحدها تتجاوز المائة جنيه وهناك مصروفات اخرى مثل تأمين الكنتور وغيره وعلى هذا يتحتم على الطلبة دفع النفقات ولو يحصل من كل طالب جنيهين الى ان تنكشف الامور جميعها على وضع يحقق المصلحة وبقاء بيت السودان زد على ذلك ان اجرة البيت لم تدفع شهرين فالرجاء عمل الترتيبات السريعة فى تحصيل نقود من الطلبة وبناء على ارسل لكم الان عشرين جنيها لتدبير الامر والسلام   على البرير

أسمـــاء أعضـــاء اتحـــاد الطلبـــة الســـودانيين

الجامعة المصرية

(١) بشير البكرى
(٢) عبد اللطيف الخليفة
(٣) على عبد الله محمد
(٤) خلف الله محمد أحمد

مشتهـــر الزراعيـــة

(٥) محمد ابراهيم عبدالله
(٦) يس الحاج خضر
(٧) ابوبكر عبد القادر «تلب»
(٨) على طه مسلم
(٩) أبا يزيد صالح
(١٠) الصايغ

جـــامعة الازهر

(١١) مصطفى ادريس
(١٢) عثمان الجمل
(١٣) عوض مصطفى عقارب
(١٤) ابراهيم حسين
(١٥) عبد القادر قباني
(١٦) عبد المجيد الحميدى

شبرا الثانوية فاروق

(١٧) عبد العزيز البطل

فؤاد الأول الثانوية

(١٨) عباس الحميدى

المدارس الثانوية ـ المدرسة السعيدية

(١٩) عقيل احمد عقيل
(٢٠) أحمد الطيب عابدون
(٢١) أحمد عبد العزيز
(٢٢) جمال الدين عثمان السنهورى
(٢٣) أحمد ابراهيم محمد زين
(٢٤) عبد المطلب مدثر
(٢٥) صلاح الدين عثمان هاشم

حـــلوان الثانوية

(٢٦) أحمد الســـيد
(٢٧) عباس الدابى
(٢٨) عبد الماجد ابوحسبو
(٢٩) عمر ابوبكر

(٣٠) صلاح ابوبكر زروق
(٣١) آمين التنى
(٣٢) احمد عبدالله عربي (كباشى)
(٣٣) أحمد ابوزيد
(٣٤) عمر رجب
(٣٥) سيد أحمد عباس
(٣٦) قيلي أحمد عمر
(٣٧) جلال الدين عبدالمجيد
(٣٨) صلاح الدين العونى



هذه الصورة تضم الشخصيات الآتية : د. محمد على مختار ، المرحوم د. عثمان عيسى شاهين
ابراهيم ضو البيت . عبد اللطيف الخليفة . أحمد الطيب عابدون . أحمد مختار ، جمال أبو
الريش . أحمد هاشم أبو القاسم . شريف خاطر . بحديقة معهد التربية العالى بالأورمان .

الخرطوم فى ١٤ ابريل سنة ١٩٣٦

حضرات رئيس واعضاء رابطة الطلبة السودانيين

تحية وسلاما أما بعد فان من أول مايجب على بعد عودتى الى الخرطوم أن أتقدم الى حضراتكم بآيات الثناء وعبارات الشكر على ماطوقتم به جيدى من الحفاوة والتكريم اثناء وجودى بالقاهرة وان أسال الله تعالى أن يجزيكم عنى خيرا كثيرا ويزيد فى نعمائه عليكم ويقدرنى على القيام بعشر ماقمتم به نحوى فى أقرب وقت . حفظكم الله ذخرا للمروءة والكرم والسلام عليكم ورحمة الله ؟

المخلص

عبد الرحمن احمد

رئيس تحرير جريدة السودان

الطلاب السودانيون

ومسألة معهد ام درمان

تلقينا من الطلاب السودانيين فى الازهر وجامعة فؤاد الاول والمدارس الثانوية ، انهم عقدوا صباح امس الاول مؤتمرا عاما لبحث قضية المعهد الدينى فى السودان، وموقف الحكومة السودانية منه . وبعد ان شرح الخطباء هذا الموضوع ، قرر المجتمعون ما يأتى :

الاحتجاج على هضم حقوق المعهد العلمى فى ام درمان والانتقاص من كرامته

ارسال مذكرة الى مؤتمر الخريجين فى ام درمان يبسط فيها راى المؤتمرين فى حل قضية المعهد ، وتكليف هيئة المؤتمر الاتصال بالجهات المسئولة فى السودان لتبليغها هذا الراى ، على ان يتصل مؤتمر الخريجين بفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ليطلب منه باسم السودان كله ضم المعهد الى الازهر

توجيه نداء فى هذا الشان الى الراى العام فى السودان ، وخاصة رجال الدين وذوى النفوذ والمكانة والسعى لدى ولاة الامور فى مصر والاتصال بحضرات النواب والشيوخ لاثارة قضية المعهد فى البرلمان

عقد الجلسة الثانية فى يوم الجمعة القادم الساعة التاسعة صباحا

الاهرام فى ٧/يناير ١٩٣٨

٢٥/ ١/ ٩٤٢

أخى عبد اللطيف

بعد التحية - اشكرك لخطابك
الصافى وعلى اهتمامكم بأمر البلاد.
ولى رأى فى تقديرى [illegible] الأزهر
[illegible] فى مقالات النيل سوف
تقرأه وعلى كل حال فقد أرسلته
الليلة بالطائرة للأخ بشير
عبد الرحمن ليعمل على نشره
فى الصحف المصرية وكذلك
بعثته لجريدة المصرى.

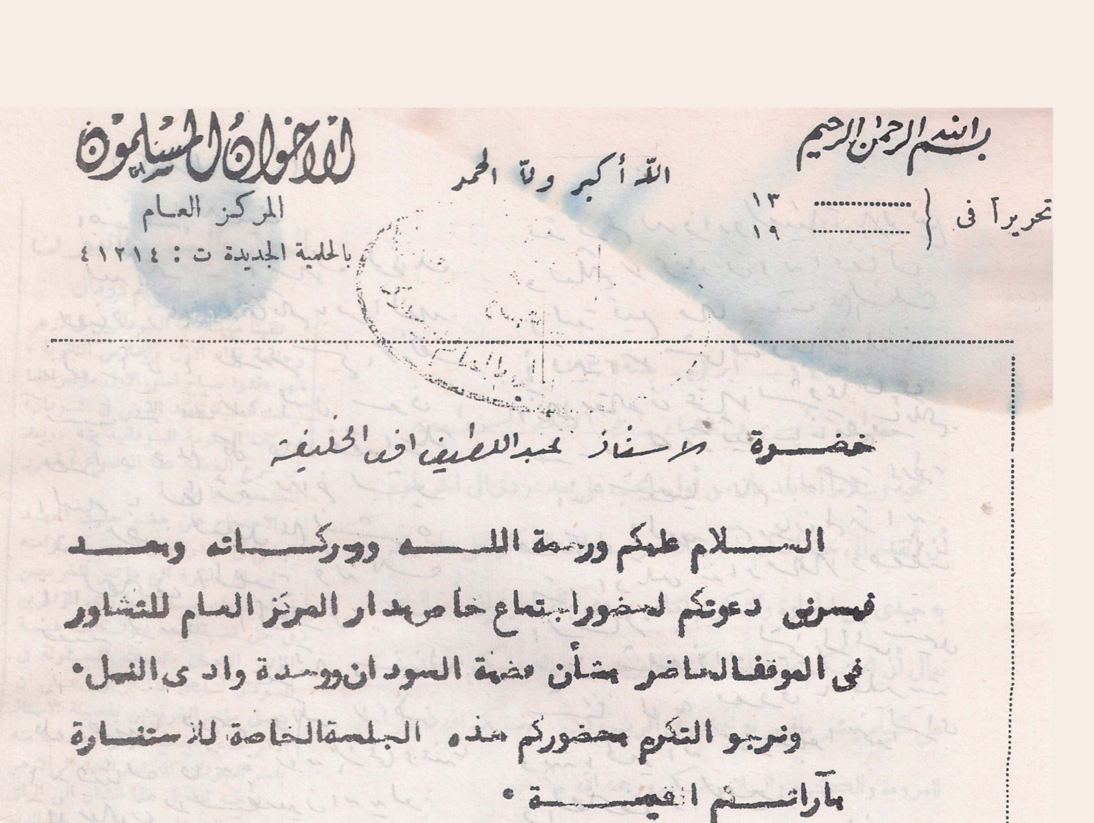
انا راضى بشعوركم وسنبذل
كل جهدنا معكم. ولكن لا أظن
ان [illegible] فائدة الا اذا [illegible]
كما تقولون لا يستطيعون ان يعملوا
بمصر شيئا ما. وحسبك انكم
انكم لم تستطيعوا اشراك الملك
فاروق على [illegible] من الخطاب
لأن الحاكم العام [illegible]
الذى انتقد بشدة ان يكتب

[illegible] للإدارة والهيئات بالتوكيل
ولعلكم لا تجهلون ان [illegible]
[illegible] فيما يبعث على الشك
فى نية الأشخاص وما يفعلون.
انكم تقولون عملا مشروعا فأى
[illegible] تقدير سياستكم ووسائلكم.
انا شخصيا اعلم ان جبهة الوطن
[illegible] بأن رجالها لم [illegible]
[illegible] سماحة وحفظت
الرسالة.

الذى شك فيه ان الشيخ الرئيس سيعمل
شيئا لأنه معروف بانجليزيته
وسبب الخير ان تتوجهوا نحو الرأى
[illegible] الصحف والأحزاب.

ارجو ان تقبل هذا الخطاب
[illegible]
فى هذه الأيام لا [illegible]
وقد ارسلت لك الليلة نسخة [illegible]
المؤتمر فارجو ان تطلع عليه
الأخوان الذين معك والسلام [illegible]

أرسل هذا الخطاب من الأستاذ أحمد يوسف هاشم (أبو الصحف) والذى كان يرأس تحرير صحيفة السودان الجديد .



بسم الله الرحمن الرحيم

الله أكبر ولله الحمد

الإخوان المسلمون

المركز العام

بالحلمية الجديدة ت : ٤١٢١٤

تحريراً في .... ١٣ / ١٩

حضرة الأستاذ محمد عبد اللطيف افندي الخليفة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فيسرني دعوتكم لحضور اجتماع خاص بدار المركز العام للتشاور في الموقف الحاضر بشأن قضية السودان ووحدة وادي النيل.

ونرجو التكرم بحضوركم هذه الجلسة الخاصة للاستنارة بآرائكم القيمة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المرشد العام

[illegible]

ملحوظة

الميعاد [illegible]

حلقة من إتصالات المؤلف بالهيئات والجمعيات المصرية في خدمة الحركة الوطنية كممثل للطلبة السودانيين بالقاهرة .

القاهرة

حضرات اعضاء مؤتمر الطلبة السودانيين
للدفاع عن معهد أم درمان العلمي

بنادي الجامعة شارع الملك فؤاد

٢٧

السلام عليكم ورحمة الله مع الاحترام اللائق —
وبعد فإن الذي وحّد الجهود وأوحى بفكرة ضم المعهد [illegible]
الإسلامية لا بد أن يكون قد [illegible] التحقيق
من الوقت الذي [illegible] ومن ذلك صيانة لطلبتكم
فلا تيأسوا وبالمشيئة سددوا وقاربوا واعتصموا
بحبل الله — وثقوا بأننا معكم وإننا واثقون
بالنجاح — كلل الله الأعمال ببلوغ الآمال —

مدثر علي البوشي العلوي
قاضي شرعي

من خطابات التأييد التي وصلت من السودان بمناسبة الجهود التي قام بها الطلاب السودانيون من أجل إصلاح المعهد العلمي بأم درمان.

وزارة المواصلات

مكتب الوزير

حضرة الاستاذ الفاضل عبد اللطيف خليفه

بعد التحية ـ أشكركم كل الشكر على الكلمة الرقيقة التى كان لها جميل الاثر فى نفسى اثناء زيارتى لبيت السودان وأنا اذ اكرر شكرى أرجو لكم دوام التوفيق فى خدمة وادى النيل فى ظل عاهله العظيم ،

وتقبلوا فائق تحياتى ،

المخلص

[توقيع]

فى ٨/ ١١/ ١٩٤٧

جانب من نشاط بيت السودان فى خدمة قضية السودانى والأتصال بالشخصيات ذات الأثر بمصر.



عزيز عزت . شرقاوى . وديع شحاته . منير ابراهيم خليل ، عباس مختار . عبدالكريم المنشاوى ، عمرحامد
على طه الحسن . امين محمود عيسى . الشفيع . عمر عبد الكريم . احمد عبد الرحمن . احمد اقبال مالك
احمد حلمى ابو سمرة . احمد حسن آدم . ابراهيم ، الشبلى . حسن قريش حسن حمد . سرور ،
حسين ابوصالح . عبد العال سليمان على المفتى ، انور مصطفى ، مصطفى السنى محمود عبد الرازق ،
حسين حسن ، ابراهيم ضوالبيت ، الفكى الطاهر ، عبد القفار عبد الرحيم . صلاح الدين مالك . الرشيد بدوى
عباس رمزى . محمد الحاك . مختار عبد الله . عثمان حسن . على ضو البيت . آدم فضل الله ، الريح الطريفى
حسن وهبة . احمد بخيت . محمد السيد ابراهيم . الحارث حمد . ابو حسن ابو . مدثر الزين ، محمد النصرى
حمزة ، اديب صليب . الهادى الزين ، الاستاذ حافظ بدوى . الدكتور فضل بابكر . الاستاذ عبداللطيف
الخليفة . محمد فراج . عبده حسن دهب . حمدى صالح القبانى ، محمد طه الحسن عزيز مالك . كمال نجار
خالد محمد الحاج ، طه طلعت ، احمد صابر عبد الرحمن . عثمان عوض الله ، النذير محمد فضل المولى

. (بيت السودان بالمنيرة) — القاهرة — عام ١٩٥١ احتفالا بزيارة الدكتور فضل بابكر أخصائى الأنف والأذن والحنجرة بمناسبة قدومه من الجامعات الفرنسية .

٤٠٤ س

SUDANESE CLUB

Midan Soliman Pasha No. 3

CAIRO

Telephone No. 44329

النادي السوداني

ميدان سليمان باشا نمرة ٣ بمصر

تليفون ٤٤٣٢٩

تحريراً في ٢٢/٥ سنة ١٩٣٦

حضرة عبد اللطيف أفندي الخشن

قرر مجلس ادارة النادي السوداني بجلسته المنعقدة بيوم تاريخه فصلكم من النادي لمواقفكم الأخيرة الغير المشرفة ازاء النادي وخطابكم علماً بأنه غير مسموح لكم بدخول النادي .

٣ ـ صورة من الصراع الذى دار بين الطلبة السودانيين وادارة النادى السودانى بالقاهرة فى عام ١٩٣٦ .

اتحـــاد الطلبـــة العـــرب

١	ابو مدين الشافعى	ابراهيم عبد الجواد
٢	عبد العزيز الاهوانى	طلعت عبد الرؤوف
٣	احمد مدينة	عبد الله خورشيد
٤	حسن دوغان	مصطفى الشكعة
٥	الزميل أحمد الزروى	عبد المعطى الشرقاوى
٦	سليمان عطية	محمد أحمد التميمى
٧	بخاطرة الشافعى	فريد أحمد أبووردة
٨	أحمد محمد الشيال	محمد عبد المعز
٩	الزميل بهيج عثمان	عبد القادر حسن القط
١٠	محى الدين بواب	روحية القلينى
١١	محمد نجيب الزين	طه بدر
١٢	ماجد جعفر	عبد المحسن الحسينى
١٣	فؤاد بعلبكى	احمد محمد الشرقاوى
١٤	زهير فتح الله	مصطفى بعيو
١٥	مصباح غلاونجى	عبد اللطيف الخليفة
١٦	مدحت جمعة	بولس عياد
١٧	السيد عبد الله على	احمد المليح
١٨	عبد الكريم علاب	العربى البنانى
١٩	حسين القباص	حمادى الاوريفلى
٢٠	عبد الغفار عبد الحميد سلطان	مصطفى زيدان
٢١	سعد جلال محمد عبد الحميد	مهدى المخزومى
٢٢	دسوقى	محمد صالح مهدى
٢٣	محمد بن عبد الله	محمد حاكم الوهابى
٢٤	عبد المجيد بن حلون	شاكر اسكندر بوى

٢٥	جميل سعيد	حسن صعب
٢٦	عبد الرحمن عبد التواب	ناجى الحصى
٢٧	محمد جاسم مجيد	عبد الهادى رضا
٢٨	أحمد على مكى	

عدد	اسم	كلية	عنوان حالى
١	امين الطاهر الشبلى	حقوق	التجارة والاقتصاد
٢	عباس موسى مصطفى	„	المدرسة الاهلية — أمدرمان
٣	محمد أحمد عرابى	„	شركة بيروت — الخرطوم
٤	الدكتور بشير البكرى	„	المالية
٥	الدكتور أحمد السيد حمد	„	جريدة العلم
٦	الدكتور عقيل أحمد عقيل	„	„ „
٧	عبدالماجد أبوحسبو	„	„ „
٨	حسن دراوى	„	„ „
٩	الهادى عبدون	„	„
١٠	أحمد الطيب عبدون	„	„ „
١١	عبدالله عبدالهادى	„	محامى الخرطوم
١٢	لبيب سوريال	„	„ „
١٣	بشرى بطرس	„	„ „
١٤	يونس نجم	„	„
١٥	عابدين اسماعيل	„	„ ,
١٦	على محمد ابراهيم	„	„ „
١٧	أحمد سليمان	„	„ „
١٨	أحمد زين العابدين	„	„ „
١٩	هنرى رياض	„	„ „
٢٠	أحمد جمعة	„	„ „
٢١	الصايم محمد ابراهيم	„	„ „

٢٢	الحاج الطاهر	حقوق	الخرطوم
٢٣	أحمد فؤاد عبد الله	,,	
٢٤	عبدالمجيد ابوالعلا	,,	طرف اميل قرنفلى
٢٥	اميل قرنفلى	,,	محامى — الخرطوم
٢٦	محمد زيادة	,,	امدرمان
٢٧	يوسف عبد الرحمن	,,	الاحفاد — امدرمان
٢٨	الفاتح عبدور	,,	,, ,,
٢٩	عبد الله الحسن	,,	الاهلية — ,,
٣٠	سيد محمد حسنى	,,	بمصر
٣١	عبيد حسن حامد	,,	الخرطوم
٣٢	محمد امين حسين	,,	,,
٣٣	الطيب محمد سعيد	,,	,,
٣٤	عماد الدين عثمان خاطر	,,	,,
٣٥	عثمان سعيد	,,	بمصر
٣٦	سيف الدولة عمر خضر	,,	امدرمان
٣٧	جبر عبد الرحمن	,,	مدنى
٣٨	احمد عبد الرحمن	,,	قضائية—الخرطوم
٣٩	فوزى التوم	,,	الخرطوم
٤٠	بكرى عبد الهادى	,,	محامى — بورسودان
٤١	عامر جمال الدين	,,	شندى
٤٢	مصطفى الجنيدابى	,,	بورسودان
٤٣	الجنيد على عمر	,,	مدنى
٤٤	عمر طاهر	,,	الخرطوم بحرى
٤٥	عبد الوهاب «بوب»	,,	بمصر
٤٦	عزالدين على عامر	الطب	الخرطوم
٤٧	عبد الحميد صالح	,,	,,
٤٨	وديع صليب	,,	,,
٤٩	حسن عبد اللطيف	,,	,,
٥٠	زكى منصور	,,	,,

٥١	عبد الوهاب زين العابدين	الطب	الخرطوم
٥٢	سيد قبانى	,,	امدرمان
٥٣	محمد السيد ابراهيم	,,	مستشفى الخرطوم
٥٤	على موسى	,,	,,
٥٥	مصطفى السيد	,,	عطبره
٥٦	محمد فرح	,,	بمصر
٥٧	افادى ازبن	,,	,,
٥٨	الحارث حمد	,,	,,
٥٩	عبد الغفار عبد الرحيم	,,	,,
٦٠	احمد حسن ادم	,,	,,
٦١	داؤود احمد إدريس	,,	,,
٦٢	فضل بابكر	,,	الخرطوم
٦٣	ابراهيم محمد المغربى	,,	مدنى
٦٤	بخيت محمد عمر	,,	بمصر
٦٥	كمال أحمد أبو العلا	,,	بمصر
٦٦	بابكر ابراهيم مالك	,,	الخرطوم
٦٧	محمد النصرى حمزة	طب بيطرى	,,
٦٨	جعفر كرار	,,	,,
٦٩	فكرى عازر	صيدلة	,,
٧٠	يوسف عثمان الحضرى	,,	بمصر
٧١	مشرق غبريال	,,	امدرمان
٧٢	عثمان مكى	,,	الابيض
٧٣	احمد عبد المجيد	طب	بمصر
٧٤	وهيب رفائيل	الحقوق	محامى بورتسودان
٧٥	بدوى عبد القادر	طب	بمصر
٧٦	عبد السلام عبد المجيد	علوم	الخرطوم
٧٧	ابراهيم ملاس	علوم	,, الثانوية
٧٨	رفعت سامى	,,	الحصاحيصا

٧٩	كمال موسى	علوم	الخرطوم الجامعية
٨٠	اسماعيل المليك	اداب	امدرمان
٨١	خاطر ابوبكر	,,	الاذاعة
٨٢	احمد هاشم	,,	بخت الرضا
٨٣	جون جورج كركانس	,,	رمبيك
٨٤	عبد الرحمن سرور	,,	المؤتمر الثانوية
٨٥	طه عبد الرحمن	,,	الاقباط الخرطوم
٨٦	محمد الخير عثمان	,,	بمصر
٨٧	عثمان العوض	,,	امدرمان
٨٨	توفيق احمد البكرى	,,	بمصر
٨٩	عبد اللطيف الخليفة	,,	امدرمان
٩٠	الدرديرى احمد اسماعيل	حقوق	بمصر
٩١	حسين محمد	,,	الخرطوم
٩١	حسين محمد	,,	الخرطوم
٩٢	محمود محمد نور خوجلى	هندسة	الفاشر
٩٣	شاكر عبد الرحمن	,,	عطبرة
٩٤	يحى شمس الدين	هندسة	عطبرة
٩٥	السنهورى يوسف	هندسة	بمصر
٩٦	مختار عبد الله	,,	الخرطوم
٩٧	ابراهيم حاج على	,,	,,
٩٨	حسن صالح طه	الزراعة	الاحفاد امدرمان
٩٩	عبد الرحمن رحمة	,,	الصناعات الكيماوية
١٠٠	نور الدين صالح طه	,,	حنتوب
١٠١	الهادى النور	,,	يامبيو
١٠٢	محمد خير الله	,,	شمبات
١٠٣	محمد عثمان محمد صالح	,,	,,

١٠٤	مصطفى قنديل	الزراعة	مدنى
١٠٥	حمد حمدان	،،	،،
١٠٦	جورج اسحق	،،	كوستى
١٠٧	الطاهر بخيت	،،	،،
١٠٨	ابراهيم جمال الدين	،،	التعاونية
١٠٩	دكتور محمد سعيد بيومى	،،	الخرطوم
١١٠	عباس الحميدى	،،	—
١١١	سيد باشا عبد المجيد	،،	—
١١٢	أحمد بابكر عدلان	،،	بمصر
١١٣	الرشيد عبد المجيد	،،	امدرمان
١١٤	محمد مختار	آداب	الخرطوم
١١٥	حسن عباس صبحى	،،	بمصر
١١٦	سيد الفيل	التجارة	التجارة والاقتصاد
١١٧	بابكر محمد على	،،	امدرمان
١١٨	قاسم محمد موسى	،،	الاقتصاد
١١٩	امين عمر اسحق	،،	المالية
١٢٠	حسب الرسول أحمد	،،	الكاملين الوسطى
١٢١	محمد قمر الانبياء	،،	الاقتصاد
١٢٢	عثمان فاضل	،،	البنك الاهلى
١٢٣	شريف عبد الجليل	التجارة	البنك الاهلى
١٢٤	حسن عثمان صالح	،،	،،
١٢٥	حسن نور الدين	،،	شل الخرطوم
١٢٦	تاج الدين طاهر	،،	الاقتصاد
١٢٧	صلاح زروقة	،،	الخبير الاقتصاد
١٢٨	ميرغنى أحمد سعيد	،،	المعهد الفنى
١٢٩	حسن القبانى	،،	الخرطوم
١٣٠	الكونتى الصادق	،،	امدرمان التجارية



من اليمين الجالسون

المرحوم صديق عبد القادر احمد ناصر — خليل صابر — قيلي احمد عمر — عبد العزيز محمد الأمين — المرحوم عبد الماجد محمد

الوقوف : المرحوم ماهر محمد الأمين — عبد اللطيف الخليفه — المرحوم صلاح الدين راسخ — احمد مختار — المرحوم عبد الحميد البوشى .

بيان المستر بيفن عن وفد السودان

يبدو أن بيان المستر بيفن الذى ألقاه فى مجلس العموم رداً على سؤال المستر ريد مستمد من سياسة حكومة السودان . وأننا للتساءل [illegible]رنا متى يحل هذا اليوم الموعود الذى تبتهج فيه الحكومة البريطانية بقدرتنا نهائيا على الوضع [illegible]ياسى الذى نريده لأنفسنا فى المستقبل ! ! ولقد مضى نصف قرن وفجر ذلك اليوم مازال [illegible] محجبا فى ضمير الغيب .

وقد كنا نود لو أن وزير الخارجية البريطانية استمد معلوماته فى مثل هذه الظروف من غير تقارير حكومة السودان الرسمية لكى يقف على حقائق الامور فى السودان وليعلم مدى صلاحية النظام القائم الآن فى البلاد لتحقيق الرفاهية التى يغنى بها البريطانيون فى كل حين ! ! والتى أصبحت أسطورة من الاساطير لا يلتفت إليها أحد ولا يؤمن بتحقيقها سودانى على أيدى البريطانيين . ومن عجب أن وزير الخارجية البريطانية يذهب إلى تأييد حكومة السودان ويدعو إلى تثبيتها واستمرارها لكى تخدم أغراض الرفاهية للسودان وتخطو به إلى الحكم الذاتى فالاستقلال وهى الحكومة التى ظلت نصف قرن عاجزة عن تحقيق الخطوات البدائية لذلك الهدف عجزاً لا يرجع إلى عدم أهليتنا واستحقاقنا ولكنه يرجع إلى سوء قصدها وسياستها .

وقد علق المستر بيفن مسألة البت النهائى فى مصير السودان السياسى على بلوغنا رشدا سياسياً يرتضيه الانجليز وهذا ما لا يقبله السودانيون بحال وبيدهم وحدهم مقياس ذلك الرشد . إن هذا مالا يقبله السودانيون بحال وليس ذلك لاننا نرى فى الحكم الحاضر شذوذا فحسب بل لان مستوى السودان

أما ما أشار إليه البيان عن اختلاف فى وجهات النظر السودانية وبالتالى عن تأليف وفد آخر فانه ليؤيد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن مصادر معلوماته مغرضة وفى ذات الوقت يدل على أن تلك المعلومات قديمة ولا تعبر عن الواقع — ولئن صح أن هناك وفدا يؤلف . وهذا مالا نعلمه ولا نعتقد بصحته . فأنه وفد يؤلف فى الظلام لتزييف إرادة الشعب .

وأننا نعتقد أن وزير الخارجية البريطانية لو أتيح له أن يقف على حقيقة الوعى الوطنى فى كافة أنحاء البلاد واجماع الآراء عن كلمة واحدة لما أدلى بمثل هذا البيان الذى يؤسفنا أن نقول أنه بنى على غير أساس من الحق الواقع .

من خطابات خضر حمد بمناسبة رغبة الخريجين فى اصدار عدد خاص بالسودان من مجلة «المصور» .

عزيزى عبد اللطيف

لك تحياتى واشواقى استلمت خطابك وعذرى واضح فى انى لم ارد عليك [illegible] فى الخطاب السابق والمثل يقول «العين بصيرة واليد قصيرة»

مسألة العدد الخاص ارى ضرورى جدا من (المصور) لانه اكثر انتشارا من – هذا من ناحية والدعاية اما من الناحية الاخرى فان الناس هنا يعتقدون جميعا ان هناك عدداً خاصاً من (المصور) عن السودان والكتاب انفسهم كتبوا عن هذا الاعتقاد والاتفاق ، وربما لايرضيهم تحويل الدفة بلا مبرر وخصوصا اذا كانت مجلة غير ظاهرة او منتشرة

ارجو ان نتحدث مع البرير فى ذلك وتبلغه دهشتى لعدم كتابته الى هذه المدة الطويلة حتى انى الى الان لااعلم عن المواد التى ارسلتها شيئا

طيه خطاب للاخ قيلى الذى حاربنى طويلا ولعله يكون عربون الصلح

هل تنظرون اى خدمة فى العام المقبل من الوزارة الحالية اذا فرض وظلت فى مكانها – لانى اعتقد ان الانتخابات وغيره رهينة بالمفاوضات – عبد الرحمن لا زال طائر وبعد ان فهمت انه سيلتحق بكلية كمبونى فهمت اليوم عكس ذلك

تحياتى لكم جميعا وللاخ عقيل وكذلك ابنى عبدالعزيز اذا شاء عقيل — خضر

فى اليوم الثانى لوصول الوفـــد للقاهرة فى مارس ١٩٤٦ :

بيان من الوفد السودانى

كان بودنا أن نتمسك بأهداب التريث قبل أن ندلى بأى بيان عما جئنا من أجله حتى يكتمل عقد الوفد بوصول بقية الاعضاء الذين على وشك القيام إلى مصر — ولكن ما فوجئنا به من تصريحات وبيانات يتصل بنا و[illegible] إلى أن نسارع بنشر هذا البيان وضعاً للامور فى نصابها .

بيان حكومـــــة الســــــودان

ولقد كان أول ما نشر بيان من حكومة السودان تقلل فيه من شأن هذا الوفد وتنكر عليه تمثيله للرأى العام فى السودان . ومع أن الصحف السودانية جميعها قد تناولت البيان بالنقض والتنفيذ والاستنكار وردت عليه بما فيه الكفاية إلاأننا نرى أن نلفت الانظار إلى أن وفدنا يمثل مؤتمر الخريجين العام وجميع الاحزاب السياسية والهيئات والجماعات المختلفة التى لها رأى فى مستقبل السودان وعلى ذلك فالوفد يمثل بحق الرأى العام السودانى تمثيلا صحيحاً شاملا .

وقد سبق فى كثير من المناسابات أن اعترفت حكومة السودان اعترافاً رسميا بأن مؤتمر الخريجين يمثل الطبقة المستنيرة فى البلاد . فاذا كان من المفروغ منه أن الطبقة المستنيرة فى بلاد كالسودان هى ذات القومية فى التعبير عن رأى البلاد أفليس من المغالطة السافرة وقد انضمت إلى المؤتمر جميع الاحزاب والهيئات والطوائف السودانية فى جميع أنحاء البلاد أن يقال أن هذا الوفد صغير ولايمثل غـــير جزء صغير من المجموعة ! !

هذا وفى الوقت نفسه فان احساس الحكومة بقوة الشعور الوطنى العام وتأييد الامة بأسرها لهذا الوفد لينكشف باعترافها « بتأجج الآمال » الوطنية التى زعمت أنها لاتريد أن تضعفها وهيهات أن تضعفها بعد اليوم .

أما ما جاء فى البيان من أن المتفاوضين لم يتفقوا على مقابلة الوفد ولايحتمل أن يقابلوا وفداً لم يطلبوه فهذا كلام مردود لأن السودانيين وهم أصحاب الحق الاول فى بلادهم كما اعترفت بذلك حكومة السودان والحكومتان المصرية والبريطانية فى المذكرتين المتبادلتين بشأن المفاوضات ، ليسوا فى حاجة إلى دعوة أحد المتفاوضين وانما هم طلاب حق طبيعى لهم .

أما ما أشار إليه البيان من تعريض بأعضاء المجلس الاستشارى وتقليل من شأن وطنيتهم بوعدها باستجابة رغبتهم فى تأليف وفد منهم إذا طلبوا ذلك — إلا فلتعلم حكومة السودان أن وطنية أعضاء

المجلس الاستشارى وهم سودانيون مخلصون لوطنيتهم تأبى ذلك لا سيما وأن الوفد بتكوينه الحالى يمثل اتجاهات الرأى العام بهيئاته وأحزابه التى ينتمى إليها أو يؤيدها أعضاء المجلس الاستشارى .

ومن هذا يتضح أن حكومة السودان أذهلها اتفاق [illegible] الأحزاب وانعقاد الاجماع على مطالب البلاد فأصدرت هذا البيان المتهافت المتناقض مدفوعة بالسياسة [illegible] تعد خافية على أحد .

المذكرة المرفوعة الى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء بمناسبة رحلته الى السودان . من النادى السودانى بالقاهرة

ياصاحب المقام الرفيع . غدا تهلون وصحبكم الكرام فى سماء الخرطوم وتسجلون بذلك اول اهتمام عملى للحكومة المصرية بشئون السودان منذ اكثر من خمسة عشر عاما ونظرا لما لهذه الزيارة من اهمية عظمى بالنسبة لمركز مصر فى السودان من جهة اخرى وبالنسبة لمستقبل السودان نفسه . لهـذه الإعتبارات وغيرها رأينا ان نترك امام رفعة الرئيس بعض الاهداف السودانية القومية الهامة وبعض الامال والرغبات التى تضطرد فى نفوس الشباب السودانى ولكنها تظل مكبوتة لا سبيل الى الاقصاح عنها .

ونحن اذ نتقدم بهذه الرغبات لا نخرج عن نص المعاهدة الخاصة بالسودان فعلى ضوء هذه الرفاهية التى اعترفت بها المعاهدة للسودانيين ومسئولية مصر الشريكة عن تنفيذها . رأينا ان نلخص لرفعتكم هذه القضايا الهامة :

١ — الحياة الاقتصادية المتأخرة فى بلد به من الكنوز الطبيعية ومن تربته البكر ما لا يتفق مع انعدام الثروة الاهلية واهمال المرافق الاقتصادية والمشروعات الزراعية الا اذا استثنينا مشروع الجزيرة وامره غامض والفائدة التى يؤديها للاهلين غير ملحوظة والمجاعات المتعاقبة فى مديرية دارفور واقليم الفونج وغيرهما .

٢ - التعليم بفرعيه الدينى والمدنى وهو محدود عقيم لا يخرج عن كونه آلة لتخريج ماتحتاج اليه الحكومة من موظفين والسبيل الذى نرجو ان تتجه اليه السياسة التعليمية فى السودان يجب ان تتحقق من ورائه اهداف ثلاثه .

(أ) انتشار التعليم الاولى وجعله الزاميا .

(ب) التعليم الفنى الزراعى والصناعى .

(ج) قيام الجامعة السودانية على اسس قومية ومشاركة الحكومة المصرية فيها بالمال والرجال ومسألة المعهد العلمى وضمه الى الازهر الشريف .

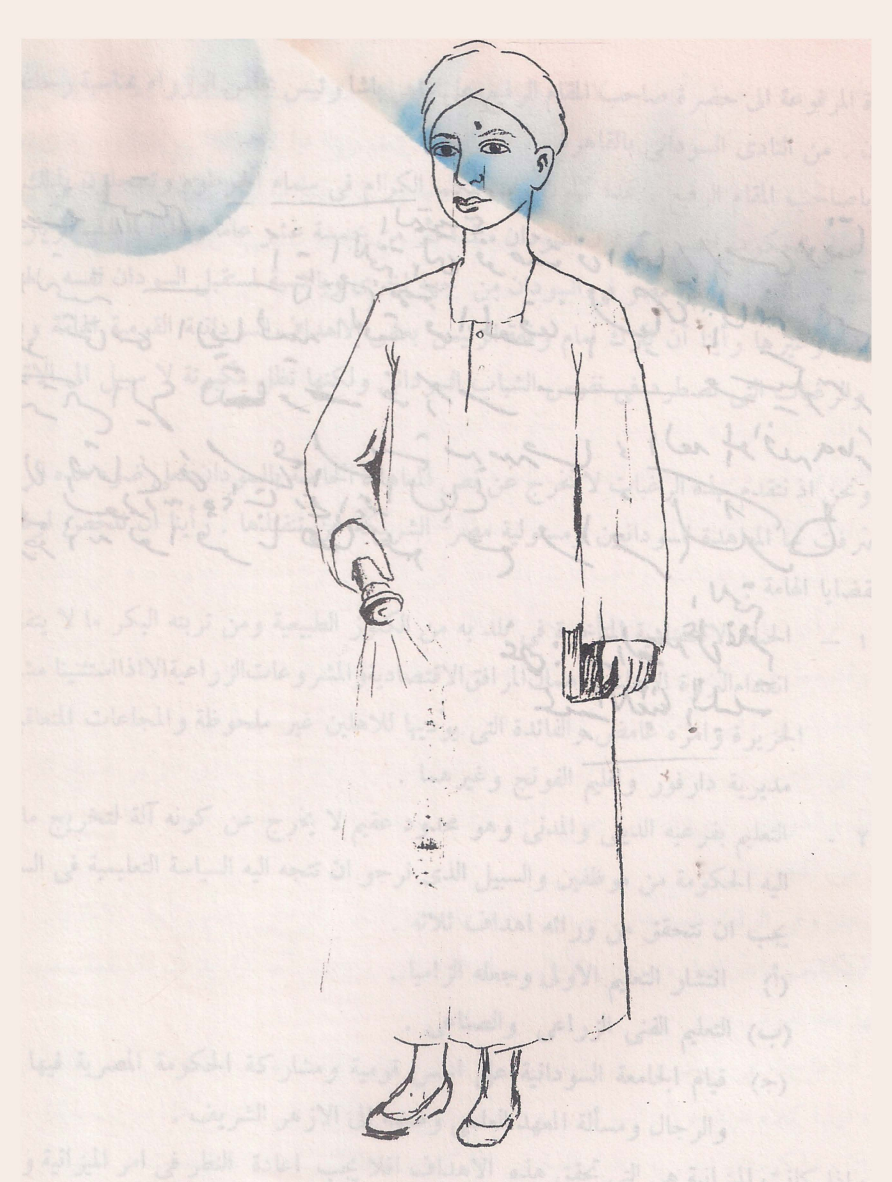
واذا كانت الميزانية هى التى تحقق هذه الاهداف افلا يجب اعادة النظر فى امر الميزانية وقيامها على اسس حديثة .

حضرة المحترم ________

التحية ________

بعد التحية ________ أن اللجنة التي فوضت في اجتماع الأمس لاختيار
(الأسماء المرشحة)
الاشخاص الصالحين للبحث في الموقف السياسي الحاضر فهم
حضرتكم الى للتشاور في دار ________ وسيكون
أول اجتماع في الساعة [illegible] من مساء الغد الموافق ٩ مارس ١٩٣٦
بمنزل سعادة ... باشا بشارع أبو العباس
فنرجو أن تتكرموا بالحضور ولكم الشكر

عن اللجنة
فخر الدين علي غانم
سكرتير اللجنة المؤقتة



الى رابطة الطلبة السودانيين بمصر من محمد على أحمد على الطالب السودانى بالسودان .

اتحاد الطلبة السودانيين

ازدحمت دار رابطة الشباب العربي بعابدين صباح أمس
بوفود كثيرة من الطلاب السودانيين في مختلف معاهدهم
العلمية للبحث والتشاور في شؤونهم المختلفة بهيئة مؤتمر
عام تجلت فيه حماسة الشباب ورغبته الصادقة في التكاتف والتضامن
والتعاون على العمل لرفع شأن بلادهم وصون سمعتها من
العبث والتضليل فتوالى الخطباء والشعراء معربين عن آمالهم
في تأليف هيئة شاملة تنتظمهم وفيما يلي قرارات المؤتمر:

١- تأليف هيئة باسم (اتحاد الطلبة السودانيين)

٢- يتألف مجلس إدارة الاتحاد من اثني عشر عضواً ينتخب الرئيس
منهم بالتناوب في نهاية كل شهر

٣- الابتعاد عن المنازعات السياسية الحزبية في مصر والسودان

٤- ليس للاتحاد صلة بالنادي السوداني

٥- وضع برنامج خاص للاتحاد ويشتمل على أساليب الدعاية للسودان
وتمثيله بالصورة اللائقة به في المناسبات المختلفة

٦- إنشاء دار تحمل اسم الاتحاد في القريب العاجل

وقد أسفر الاجتماع عن اللجنة الآتية أسماؤهم:-
علي عبدالله بكلية الآداب ومحمد احمد خلف الله بكلية الآداب وبشير البكري
بكلية الحقوق وعبداللطيف خليفة بكلية الآداب ومحمد قيلي احمد بالجامعة
المصرية وعوض محمد عتاب بكلية اللغة العربية بالأزهر وابراهيم حسين
بالجامعة الأزهرية وعثمان الجبل بالجامعة الأزهرية وعقيل احمد عقيل
بالسعيدية الثانوية واحمد الطيب عبدون بالسعيدية الثانوية ويس
حاج الخضر بالزراعة واحمد السيد حمد بحلوان الثانوية
وتكون المراسلات باسم محمد احمد خلف الله بنادي الجامعة المصرية رقم
٢٢ بشارع المناخ

جانب من نشاط المؤلف في اتحاد الطلبة السودانيين بالقاهرة.

تكريم بعثة كلية الاداب للسودان



اقام امس اتحاد الطلبة السودانيين حفلة شاي فاخرة بصالة الحفلات الكبرى بالجامعة المصرية ، تكريما لبعثة كلية الآداب للسودان ، وكانت مؤلفة من ٥٤ طالبة وطالبا . ودعوا معها فريقا من كبار رجال التعليم واصدقاء السودان واهل الادب ورجال الصحافة

وكان حفلا بهيجا سادته المودة والولاء ، وتبادل المدعوون اطيب الامانى للسودان ومصر .

ويرى فى الصورة بعض المدعوين يتوسطهم الاستاذ مصطفى عبد الرازق بك وفؤاد اباظه باشا

(الاهرام ٢٧ر٣ر١٩٣٨ .

الأستاذ اسماعيل الأزهرى رئيس المؤتمر

أم درمان

نؤيد محادثاتنا التلفونية بضرورة بذل مجهود مضاعف

فى سبيل توحيد الصفوف وحضوركم لمصر ليكون الصف جبهة

متحدة .

على البرير

على البرير

شارع جوهر القائد ٢٦

البرقية التى بعث بها على البرير للزعيم اسماعيل الأزهرى بمناسبة تكوين وفد السودان الذى ذهب الى مصر ليكون قريبا من المفاوضات الدائرة أنذاك بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية لأبرام معاهدة تحل محل معاهدة ١٩٣٦م

البرقية التى بعث بها على البرير للزعيم اسماعيل الأزهرى بمناسبة تكوين وفد السودان الذى ذهب الى مصر ليكون قريبا من المفاوضات الدائرة أنذاك بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية لأبرام معاهدة تحل محل معاهدة ١٩٣٦م .

HILAL SPORTS CLUB

Omdurman - Sudan



نادي الهلال الرياضي

بام درمان ـ سودان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

No. H S C I,...........

نمرة هلال / ....

ام درمان في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٤٧

عزيزي الاستاذ الكبير عبد اللطيف افندي الخليفة

سيدي — اسعد الله اوقاتك.

كلفتني لجنة هذا النادي بالالحاح عليك لتشريف النادي

في مساء الغد السبت ٢٧ سبتمبر بشارع العرضة رغم صغره وقلته

وذلك لما علمنا عن ميعاد سفرك المفاجئ.

أرجو ان تتفضل اجابتك للحضور ولو لبضع دقائق في الساعة السابعة

حتى يتسنى لنا ان نقوم ببعض الواجب نحوك و شكرًا

المخلص

[illegible]

عن السكرتير

مصر ١٩/٢/١٩٤٦

نادي الطلبة العرب
بالقاهرة

حضرات الأفاضل .

يتشرف نادي الطلبة العرب بدعوة حضراتكم لحضور الحفلة التكريمية التي يقيمها النادي للنواب العراقيين في الساعة السابعة من مساء الجمعة الواقع في ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣٦٤ و ٢٠ من مارس سنة ١٩٤٦ وذلك في مقر النادي بشارع الشركة رقم ٩ المتفرع من شارع حسن الأكبر وتفضلوا بقبول فائق الاحترام منكم

نادي الطلبة العرب

جانب من نشاط الطلبة السودانيين ومساهماتهم في المحيط العربي .

ـANESE CLUB

Midan Soliman Pasha No. 3

CAIRO

Telephone No. 44329

٢٣٠ س

النادي السوداني

ميدان سليمان باشا نمرة ٣ بمصر

تليفون ٤٤٣٢٩

تحريراً في ٢٠ / ٤ سنة ١٩٣٦

حضرة المحترم رئيس رابطة الطلبة

تحية وسلاما ، ردا على خطابكم بتاريخ ٥/٤/٣٦ نخبركم

انه اذا كان يهمه الطلبة المستفيدين للرابطة ان لا يرون بما ذهب

اليه النادي في لائحته التي قدمناها اليكم ، والتي يرى انها من مصلحة

الطلبة ، ففي هذه الحالة يسحب النادي اشرافه على الرابطة الحالية

ويعتبر انه ليست لها اى علاقة او صفة بالنادي الا صفة

عضوية النادي فقط ؟

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

علي البدري

رئيس النادي

جانب من الصراع الذي دار بين الطلبة السودانيين وادارة أول نادي سوداني بالقاهرة عام ١٩٣٦ م .

(١)

جلسة

يوم الاثنين ١٨ مارس ١٩٤٦

اجتمعت اللجنة التمهيدية المكونة من العشرة الأعضاء في دار مجلة "أم درمان"
وهذا الاجتماع هو تتمة للاجتماع الذي حصل يوم ١٢ مارس ١٩٤٦ في دار مجلة أم درمان
وحصل الأول في اجتماع يوم ١٤ / ٣ / ١٩٤٦

١/ تليت البرقية التي أرسلت إلى السودان يوم ١٢ / ٣ / ١٩٤٦
ووافق جميع الموجودين

٢/ تليت برقية إبلاغ الأستاذ خضر حمد إلى الأستاذ إسماعيل الأزهري
وأخذ الحاضرون [illegible] وبحث في [illegible] اللجنة

٣/ تلي المنشور الذي سيوزع في السودان ومصر والنشرات [illegible]
بالجبهة من [illegible] وعبد اللطيف [illegible]
[illegible]

٤/ أخذ الحاضرون في مناقشة الوسائل التي [illegible]
اجتماع عام [illegible] ما حصل في جلسة ماضية

٥/ أخذ الحاضرون في درس [illegible] التي [illegible]
السودان الذي سيحضر إلى مصر

تسجيل الأعضاء : —

الدعوة للاجتماع العام في سينما الزمالك والمكاتبة — المكاتبة هي دار مجلة الكنانة
المكاتبة في [illegible] الزمالك هو

في تمام الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الجمعة ٢٢ / ٣ / ١٩٤٦
وتوزيع كروت الدعوة ابتداء من يوم الثلاثاء ١٩ / ٣ / ١٩٤٦
[illegible] عبد اللطيف وعز الدين [illegible] وبشير كورته
محمد [illegible] والصائم وحسن [illegible] الأزهري — الصائم [illegible]
لتوزيع كروت الدعوة والدعاية إلى الاجتماع

ماذا يقال في الاجتماع

يتكلم الأستاذ خضر حمد والأستاذ أحمد يوسف والأستاذ [illegible] والأستاذ [illegible]
والأستاذ عبد اللطيف وتشرح [illegible] ثم الشيخ [illegible]

السكرتير : [illegible] عز الدين [illegible]

محضر لاحدى جلسات المؤتمر القومي الذى عقده السودانيون بالقاهرة بمناسبة قدوم وفد السودان في عام ١٩٤٦ م .

جماعة
الطلبة العرب
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تحريراً في ٢٢ فبراير سنة ١٩٤١

حضرة الزميل السيد عبد اللطيف خليفة المحترم

تحية عطرة وبعد

فقد قررت اللجنة الإدارية في جلستها المنعقدة يوم السبت ٢٢ فبراير

تعيينك أمين سر للجنة الرحلات التي تتألف من الزملاء السادة

١ - يوسف النمر
٢ - أبو مدين الشافعي
٣ - حسن دوغان
٤ - مصطفى الشاعر
٥ - أحمد مدنية

وترجو اللجنة أن تتفقدوا تنظيم رحلة للجماعة في أقرب فرصة ممكنة.

كما قررت تعيينك عضواً في لجنة الدعاية التي يتولى أمانة سرها سكرتير الجماعة

والتي تتألف من الزملاء السادة:

١ - مصطفى الشاعر
٢ - الدلي البناني
٣ - عبد الهادي رضا
٤ - أحمد مدنية
٥ - حسين فتاحي

وترجو اللجنة أن تتصلوا في أقرب فرصة بأصدقاء الجماعة من [illegible] عملاً في أعمالكم، وتقبل أيها الزميل العزيز فائق الشكر

سكرتير الجماعة

جماعة الطلبة العرب بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

جانب من نشاط المؤلف مع جماعة الطلبة العرب .

عزيزى الاخ عبداللطيف

لك تحياتى واشواقى — مالك صمت طويلا هكذا وكيف حالك ودروسك المزدوجة.

سمعنا انك بعثت رسالة عن التشريع الجديد فما هى ياترى هذه الرسالة واين نشرت ياترى —اما هذا التشريع فموجود من قبل وهو الذى عوملنا به سابقا ولكن [illegible] ان الحكومة ارادت ان تذكرنا به وقد زادت فيه اشياء جديدة — اما نظرة الحكومة الى المؤتمر [illegible] وهى تفهم انه بداية لروح تعاونية وقد حصلت على جواب (سرى) ارفق مع تعديلات القوانين الجديدة و[illegible] لجميع المديرين من السكرتير الادارى وقد نبههم الى المؤتمر وقال انها حركة طبيعية تقوم بها امة تريد ان [illegible] من الحياة وافهمهم انها روح تعاونية وان القائمين بالمؤتمر اليوم او الذى على راسه اناس عاقلون يعتقد انهم سيعمونه للخير والتعاون

وقد كان اعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر يوحون خيفة المقابلة ويحسبون ان الحكومة ربما لا تقابلهم مقابلة حسنة ولكن بعد ان عرفوا مضمون هذا الجواب السرى تشجعوا ولا زلنا نامل خيرا من حركة المؤتمر هذا اذا بدأنا بروح تعاونية نمزجها شىء من الدهاء والمسالمة ولو الى حين

تحيتى لافراد الشلة — ٢ر٥ر١٩٣٨م

خضر حمد

من خطــابات خضــر حمــد

اخى عبد اللطيف

ان كنت تاخذنى بهذه الهفوات البسيطة وتقصيرى عن واجب المجاملة البسيطة على انها مقصودة وعلى انى اتى بها عمدا فلك عذرك فى ذلك ولى ان ارجو الله ان يعرفك بى اكثر الا اذا كنت لا تاخذها هذا الماخذ فما بالك تجفو هذا الجفاء ومما بالك لا تسأل عنى بكلمة منذ ان تركتك ؟ ارجو ان يكون هذا الجفاء لا [illegible] [illegible]ير المشغولية .

[illegible] جوكم هناك وماذا تم فى امر الطلبة الجدد والتطورات الاخيرة فى قبولهم كل هذه امور كنا نود ان نسمعها منك اما نحن هنا فاحوالنا كما تركتها المؤتمر يدرس الان مشروع التعليم ثم ان المجلة ربما تصدر فى اول اسبوع من شهر ديسمبر وبعد الانتهاء من عرض مشروع التعليم سيقدم ثم يعقبه المشروع الاقتصادى وقد تألفت لجنة ايضا اسمها لجنة الطلبة بالقاهرة ومهمتها ان تدرس هذه المسألة من كل وجوهها وان نحاول عمل شىء لصالح الطلبة ولاختيارهم من هنا والاتصال بالجهات العليا المختصة

سينعقد مؤتمر الطب العربى فى القاهرة فى عيد الاضحى وفى هذا الميعاد انشاء الله اكون بالحجاز ولو لا ذلك لما تأخرت عن الذهاب الى القاهرة لوعد كان بينى وبين احد اعضاء المؤتمر وهو الدكتور عبدالمجيد العصاب من العراق وقد كتبت اليه بذلك وارجو ان تتصلوا به لانه رجل عربى حر يعمل للوحدة عن اخلاص

ارجو ان تكون عند حسن ظنى بك ولاتحمل على اكثر من ذلك واحملنى على صفاتى هذه وهى الجمود والبرود الذى لا استطيع التحرر منه ولك شكرى

٢٠ر١١ر١٩٣٩

MURADA SPORTS CLUB
OMDURMAN
(SUDAN)



نادى الموردة الرياضى
بام درمان (سودان)

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

Murada 194

الموردة فى ١٧ يوليو سنة ١٩٤٨

حضرة صاحب العزة السكرتير العام للاتحاد المصرى لكرة القدم .

تحية طيبة ! وبعد بالاشارة لكتابكم المؤرخ ٢٨/٢/٤٨ .
المعنون الى صاحب العزة المفتش العام للرى المصرى بالسودان الخاص
بطلب هذا النادى النزول الى مصر لمباراة الفرق الكبرى المصرية –
أتشرف باحاطة عزتكم علما أن هذا النادى لم يزل عند رغبته فى
النزول الى مصر فى الوقت تختارونه فى الموسم الجديد ورجائى أن
يسعدنا الحظ ويحظى طلبنا هذا بالقبول حتى يتسنى لهذا النادى القيام
برسالتيه الرياضية والاجتماعية والمساهمة فى توثيق العلاقات بين شقى
الوادى !!

وتفضلوا بقبول أزكى وأوفر أحترامات !!

السكرتير الفخرى

صورة للاستاذ عبد اللطيف الخليفة وكيل نادى الموردة بمصر – رجاء العلم والاتصال

TAMADDON PRESS

مؤتمر الخريجين العام بالسودان

مكتب القاهرة

شارع قصر النيل - تليفون ٦٧٠٩ه

تحريراً في ٣ يناير سنة ١٩٤٨

مؤتمر الخريجين العام بالسودان مكتب القاهرة

شهادة

تشهد لجنة التعليم السودانية التابعة لمؤتمر الخريجين العام بالسودان ان حضرة الاستاذ عبد اللطيف الخليفة قام بالتحضيرات الاولى لانشاء بيت السودان بالقاهرة منذ يناير سنة ١٩٤٤ .

وفي فبراير من نفس العام اعلنت السراى الملكية ان تأثيث البيت سيكون على نفقتها .

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٤ استقبل البيت الطلاب فعلا وكان الاستاذ عبد اللطيف الخليفة هو المكلف من قبل لجنة التعليم بادارته بعد ان قام باجراءات تأسيسه تحت اشراف اللجنة ثم استمر مشرفا على ادارته حتى ضم الى وزارة المعارف في يوليو ١٩٤٥ .

وبعد هذا ظل مندوبا عن لجنة التعليم في البيت يعاون المشرف المعين من قبل وزارة المعارف ويعمل حلقة اتصال في المسائل السودانية البحتة حتى عين مشرفا رسميا في يناير سنة ١٩٤٧ .

وتشهد لجنة التعليم بخدماته الجليلة واخلاصه في كل الاعمال التى تولاها منذ ان كان بيت السودان مجرد فكرة حتى تم انشاؤه واصبح للطلبة السودانيين اكثر من بيت واحد ..

علي البرير

علي البرير

رئيس لجنة التعليم.

مؤتمر الخريجين العام بالسودان مكتب القاهرة

صورة الى حضرة صاحب المعالي وزير المعارف ..

علي البرير

رئيس لجنة التعليم

٣ يناير ١٩٤٨



الاستاذ بشير محمد خير ، من الرعيل الأول الذين هاجروا إلى مصر للتعليم .

الثقافة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
شارع الكرداسي رقم ٩ عابدين مصر
تليفون رقم ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

تحريراً في ٥ / ٦ / سنة ١٩٤٧

بالإشارة لمحادثتي ومقابلتي مع صاحب المعالي السنهوري باشا أرفع مع هذا قوائم كتب نريدها لنادي الخريجين بالخرطوم لعل أن تكون مجلدة وترسل برسم سكرتير نادي الخريجين بالخرطوم وتكتب على الغلاف اسم النادي وخير البر عاجله

مع التفضل بقبول وافر الشكر

مكي شبيكة
رئيس نادي الخريجين
بالخرطوم

نمرة	الكتاب			
١	تاريخ الأ[illegible]			
٢	المفصل في [illegible]			
٣	المنتخب من [illegible]			
٤	في الأد[illegible]			
٥	فجر الإسلام			
٦	ضحى الإ[illegible]			
٧	ظهر الإ[illegible]			
٨	وحي القلم			
٩	[illegible]			
١٠	أمراء الب[illegible]			
١١	الشرعية [illegible]			
١٢	مع المتنبي			
١٣	على هامش [illegible]			
١٤	قصص [illegible]			
١٥	مجالس ال[illegible]			
١٦	المشوقات [illegible]			
١٧	صلاح الدين			
١٨	تاريخ [illegible]			
١٩	مواقف [illegible]			
٢٠	ديوان [illegible]			
٢١	حياة نابليون			
٢٢	جزيرة [illegible]			
٢٣	سيرة السيد عمر مكرم	١	١	محمد فريد أبو حديد
٢٤	الإسلام والحضارة	٢	١	محمد كرد علي
٢٥	في موكب الشمس	١	١	أحمد بدوي
٢٦	[illegible] السنين	١	١	[illegible]
٢٧	حكاية هذا الكوكب	١	١	" " "
٢٨	أصول التربية	١	١	[illegible] قنديل
٢٩	أصول علم النفس	١	١	" " "
٣٠	قصة الفلسفة اليونانية	١	١	أحمد أمين وزكي نجيب محمود
٣١	فلسفة المذاهب (البراجماتزم)	١	١	يعقوب فام
٣٢	كتاب الحرية والدولة	١	١	[illegible] السباعي
٣٣	كتاب الأخلاق	١	١	أحمد أمين
٣٤	الشفاعة [illegible]	١	١	أحمد [illegible]
٣٥	قصة الفلسفة الحديثة	٢	١	أحمد أمين وزكي نجيب محمود

أخذ بيت السودان بالقاهرة وضع سفارة غير رسمية بالخرطوم اذأصبح يتابع قضايا الهيئات والمؤسسات السودانية بمصر كما يدل عليه هذا الخطاب بتوقيع رئيس نادي الخريجين مكي شبيكه.

اللجنة الفرعية بالقاهرة لمؤتمر خريجى مدارس السودان تتشرف

بدعوة حضرة ......الاستاذ عبد اللطيف الخليفة......

لحفلة الشاى التى ستقام يوم الأثنين ٣١ مايو سنة ١٩٤٣ الساعه السادسة والنصف بحديقة الأندلس تجاه تمثال سعد زغلول باشا بالجزيره .

وذلك تكريماً للهيئات المصرية التى تفضلت واحتفلت بطلبة مدرسة الحقوق السودانية ؟

على البرير

رئيس اللجنة الفرعية

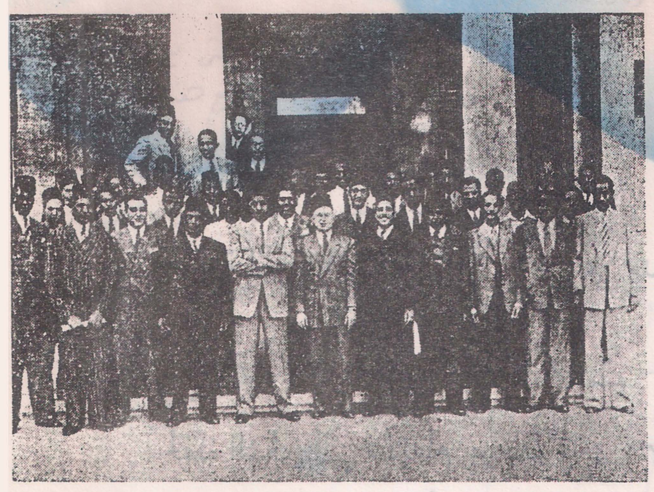
فى حالة الأعتذار الرجا الرد لتليفون ٥٠٥٤٧ — ٤٤٥٤٦ أو ص ب ١٨٥٨ مصر



أبو الطلبة الاستاذ محمد حسن خليل «شيخ المعارضة» فى جلسة هادئة فى قهوة «ماتاتيا»

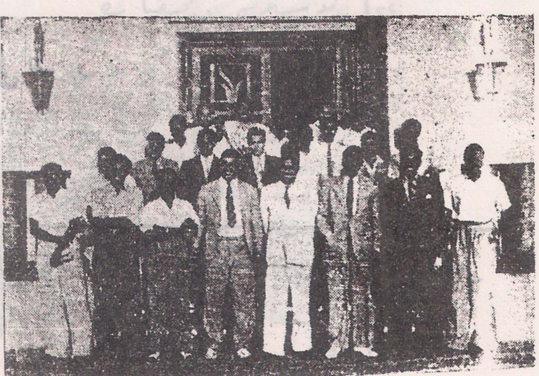
وقد عاصر الخريجين والجامعيين، مرشدا وموجها ومعارضا! فقد كان من ملامح المجتمع السودانى المثقف فى مصر، يفزع اليه الطلبة فى كل أمر وكان هو شديد الاعتزاز بهم، يوزع عليهم ألقاب البطولة.

وهو الآن فى حلفا، كما عهدناه، نشيطا عاملا مخلصا وابناؤه الطلبة فى الشمال يرفعون إلى مقامه الكريم العزيز تحية الوفاء والحب. شكره الله



الطلبة الجامعيون فى سراى عابدين ومعهم لفيف من السودانيين يتوسطهم سعادة فؤاد أباظه باشا والاستاذ البرير

بعض الجامعيين أمام بيت السودان ويرى بينهم الاستاذ عباس حلمى المشرف العام «لبيت السودان».



جانب من نشاط الطلاب السودانيين بمصر من أجل خدمة قضية الوطن.

خضر حمد بعد عودته من الحجاز

أخي عبد اللطيف :

هذه أول مرة أخرج فيها من الدار منذ أسبوع قضيته مع الزائرين والمهنيين للحاج أبى الأخضار وهو شعور طيب ليته كان صادقاً أو ليته استبدل بنصفه أو ربعه من العمل النافع لا المجاملات التى لا تقدم أو تؤخر .

عدت من الحجاز وليس فيه مايلفت النظر أو بالأحرى كل مافيه ملفت للنظر من حيث التأخر والفوضى التى تلقاك أينما ذهبت فأبن السعود رحل من البادية لايعرف شيئا عن سياسة الأمم وعن النهضة الحديثة ومن حوله أناس يريدون لأنفسهم ولا يخلصونه النصح ويظهر لك جلياً أن هذا الرجل يشعر بأن مصيره الأخير قريب ولذلك يكتنز لنفسه المال من ميزانية الحجاز ١١ مليون ريال له منها ٨ مليون وللأمة فى تعليمها وصحتها وطرقها وغير ذلك ثلاثة مليون ريال .

فالموظفون لايستلمون مرتبهم لمدة ستة أشهر والعسكرى أو البوليس يستجدى الناس لغيره من المتسولين وهناك أشياء كثيرة أفكر جدياً فى أن أكتب بها تقريراً مطولا وارسله لابن السعود نفسه .

تحياتى للأخوان عقيل وقيلى والسنهورى وبعض الاخوان

أخوك خضر

اخى عبد اللطيف

ارجوك المعذرة فقد تأخرت فى الكتابة اليك هذه المرة واشغالى الكثيرة هى السبب الوحيد

ماذا ياترى كان وقع هذه المناورات الانصرافيةفى معسكركم ارجو ان تمر كما يمر اى شغب عادى لا اثر له لانها لا تستحق اكثر من هذا ــ هى هنا كذلك حملة مدبرة يقوم بها ثلاثة صبية راسهم عرفات والآخران محجوب والتنى لا اكثر من ذلك واست اعرف لاعجز محررين اكثر من هؤلاء وهؤلاء لا نشرفهم كثيرا هذه الصلة التى تربطهم بادورد عطية ومكينة

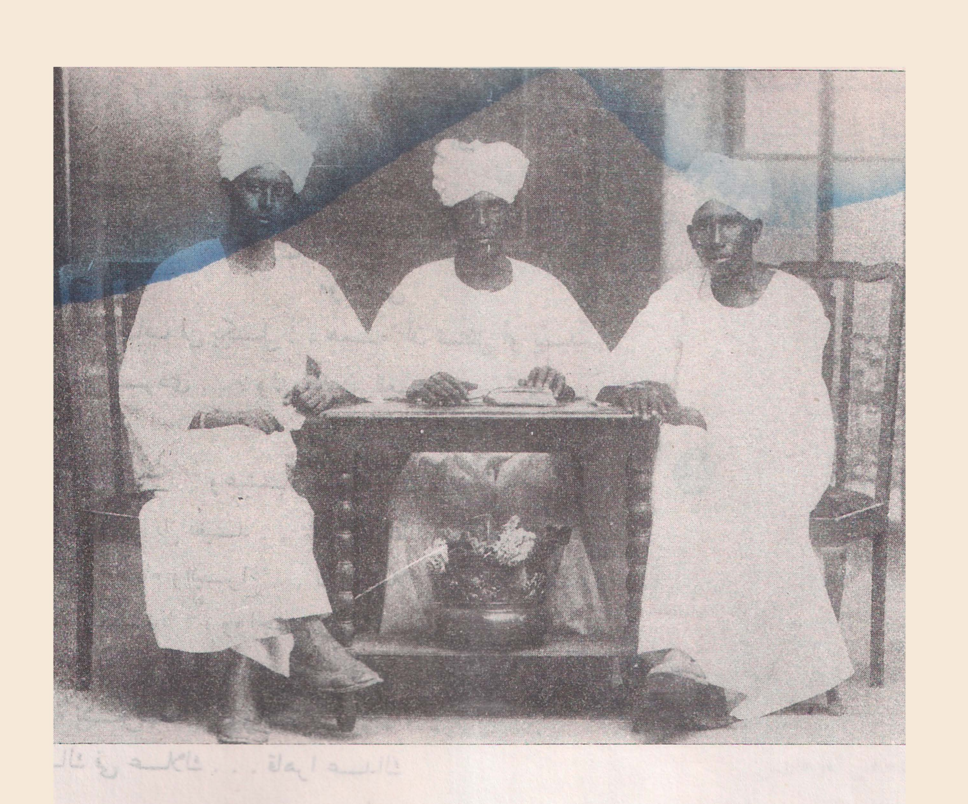
لست اتهمهم بالخيانة ولكن فى كتابتهم فى هذا الموضوع وبهذه الصورة يعرضهم الى كل تهمة لا تشرف ولو كانوا يعلمون ان المجال مفتوح لغيرهم من اصحاب الراى المضاد لقلنا هم يتناقشون ويدلون برايهم ولكن متى علمنا ان اليسار موصد امام غيرهم وافواه المخلصين مكتومة فيصبح الحديث من كاتب واحد هو ترويج بسياسة واحدة عركتها الايام وسمعناها قبل اعوام .

كان لرد درديرى اثره الحسن جدا ووقع طيب فى النفوس ولو كان هناك مجال لسطر واحد لردد صدى صوته الوفى والوفى ولكنها سياسة الخنق التى تشرف على كل شيء ولا تترك لغيرها اقل شى وهى سياسة مكشوفة بالرغم مما يحوطها من لف ودورا .

لقد رفعهم عمر طوسن برده عليهم ولو لم يفعل لكان احسن لانه اعطاهم الفرصة للرد والكلام وكان التجاهل لمثل هذه الالاعيب اليق بها وافضل

بتقول الناس هنا كثيرا عن هذه الحركة واطرفهم الذى يقول هى رواية صغيرة الفها بنى ونقحها ادورد واخرجها عرفات ومثلها الباقون من الدكاترة اصحاب الفجر

تحياتى لقيلى وعقيل وعابدون واشكره نيابة عنى لكرت الذى ارسله مع الاخ عبد الله . متى اجازتكم السنوية ؟ وهل فى نيتكم محاولة المجى للسودان !



من اليمين : عبد اللطيف الخليفة ـ المرحوم صديق عبد القادر احمد ناصر

قيلي احمد عمر

نشيـــد موطـــنى

موطنــى الجــلال، والجمــال، والسنــاء ، والبهــاء ، . . . فى ربــاك

والحــياة ، والنجــاة ، والهنــاء ، والرجــاء . . . فى هـــــواك

[illegible] أراك

سالمــاً منعمــا ، . . وغانمــا مكرمــا

هل أراك . . . فى [illegible] تبلغ ربــاك

موطنـــى

موطنى الشبــاب لن يكــل . . همـــه أن تستقل أو يبيــد

نستقى من الـــردى . . . ولن نكون للعــدى . . كالعبيد

لا أريــد

ذلنــا المؤبــدا . . . وعيشنــا المنكــــــدا

لانريــد . . . بل نعيــد . . مجــدنا التليد

موطنـــى الحسام واليـــراع . . لا الكـــلام والنـــزاع رمزنا

مجــدنا وعهـــدنا . . وواجــب الى الوفــاء . . . يهزنــا

عـــزنــا

غـــاية تشـــرف . . . ورايـــة ترفـــف

ياهنـــاك فى عـــلاك . . . قاهرا عـــداك

موطـــنى

نشيد ارض اجدادى

عليك منى السلام يأرض أجدادى — وفيك طاب المقام وطاب إنشادى

عشقت فيك السمر وبهجة النادى — عشقت ضوء القمر والكوكب الحادى

والليل لما اعتكر والنهر والوادى — والصبح لما انتشر فى أرض أجدادى

أهوى عيون العسل . . . أهوى سواقيها

أهوى ثلوج الجبل . . . سألت مآقيها

أياما أحيل الثمر . . . فى أرض أجدادى

٥ ٥ ٥

نشيد العلم

ياعلمى ياعلم العرب اشرق وخفق فى الأفق الأزرق

ياعلمى

يانسيج الأمهات فى الليالي الحالكات لبينهن الاباة

كيف لا نفديك . . . كل خيط فيك دمعة من جفنهن . . . خفقة من صدرهن

قبلة من ثغرهن

ياعلم

سر الى المجد بنا وابن منا الوطنا قد خلقنا للقنا

حلفة ترضيك . . . اننا نستيك . . . من دماء الشهداء . . من جراح الكبرياء

عشت للمجد سماء

ياعلم

استفتاء للهيئات السودانية بمصر

ولبعض زعماء الطلبة السودانية

(١) ما هي الأهداف القومية التي تسعون إليها؟

(٢) لماذا لا تتحد هيئتكم مع بقية الهيئات السودانية في مصر؟

(٣) ما هي وسيلتكم لتحقيق أهدافكم؟

(٤) ما رأيكم في توحيد السودانيين بمصر وما هي الوسائل التي تقترحونها لذلك؟

حضرة المحترم الأستاذ

تحية واحتراما وبعد فيتشرف جريدة حرية الشعوب أن ترسل لكم هذه الأسئلة للإجابة عليها بالصراحة التامة لخدمة المجتمع السوداني

ونرجو أن تصلنا ردكم قبل يوم السبت الموافق ١٦-١٢-١٩٤١

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

عبده دهب حسنين

٢٨ شارع الدابغ بمصر

(١) حضرة الشيخ مصطفى الطيب رئيس النادي السوداني

(٢) " الأستاذ حسن مشتهر سكرتير الشبيبة الأحرار

(٣) " علي خليل الصافي رئيس اتحاد العمال السودانيين

(٤) " حسن الدين علي نصر " " دفعة الشهادة

(٥) " ... الطالب بكلية الحقوق

(٦) " عبد اللطيف الخليفة " الآداب

(٧) " حسن الدين صابر " العلوم



المؤلف عام ١٩٦٧

السـيرة الذاتـية للمؤلـف

يحمل ليسانس الآداب من جامعة القاهرة ١٩٥٤ .

فى فترة الطلب أسهم فى توسيع نطاق هجرة الطلبة إلى مصر كما أسهم فى النشاط الوطنى الذى قامت به (رابطة الطلبة السودانيين بالقاهرة) أو الذى وصف بالشرارة الاولى للحركـة الوطنية الحديثة التى توجت بالاستقلال .

كانت له ممارسات قومية فى المجالات العربية والافريقية .

كان عضواً فى اللجنة التنفيذية العليا للحزب الوطنى الاتحادى .

وأسندت إليه شئون الجنوب ، وكذلك الشئون العربية والافريقية .

كان عضواً فى لجنة الدستور القومية .

كان عضواً فى مؤتمر المائدة المستديرة وفى لجنة الاثنى عشرة المنبثقة منه ، والتى قامت بوضع الحكم الاقليمى كحل سياسى لمشكلة الجنوب .

كان على رأس بعثات السلام التى أوفدها مؤتمر المائدة المستديرة عند إنعقاده لتهدئة الاحـوال هناك . .

حاليا مسئول عن شئون الدارسين بمعهد الخرطوم الدولى للغـة العربيـة .



دار جامعة الخرطوم للنشر